فاكهة الخلفاء

ومفاكهة الظرفاء

العالم الأديب السياسى

ابن عربشاه

ت (٨٥٤ هـ)

حققه وعلق عليه

أيمن عبد الجابر البحيرى

دار الآفاق العربية

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

رقم الايداع	١١٢٩٦ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى	977-5727-75-8

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤

فاكهة الخلفاء

ومفاكهة الظرفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ

صدق الله العظيم

الآية ١٧ سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتى

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

فإن تنظيم الحياة وشئون الناس، أمر حث عليه إسلامنا، بعد أن أرسى القواعد والنظم.

والنظم، جمع؛ نظام: وهى كلمة تطلق على كل شىء يراعى فيه الترتيب والانسجام والارتباط، وهى تشبه العقد من حيث انتظام أحجاره بعضها مع بعض.

ونظم أى أمة تتكون من مجموعة الحدود، والمبادئ، والأعراف التى تقوم عليها الحياة فى هذه الأمة، ومن هذه النظم: النظام السياسى، الذى يشمل الملك وحواشيه.

وهذا الكتاب عالج مؤلفه قضايا النظام السياسى على ألسنة الحيوان والطير، وذلك على شاكلة [كليلة ودمنة].

والفارق بينه وبين كليلة ودمنة أن الأول ينصب جميعه على النظام السياسى وليس على قضايا الحكمة والأخلاق.

حيث يقول المؤلف فى مقدمته: هذا الكتاب وضع فى صنع بديع لاسيما للملوك والأمراء، وأرباب العدل والرؤساء والسادة والكبراء؛ ليفكروا فى نكت العبر وصفات العدل والسير والأخلاق الحسنة المسندة إلى ما لا يعقل ولا يفهم.

وقد وضعت هذا الكتاب نزهة لبنى الآداب وعبرة لأولى الألباب من

الملوك والنواب والأمراء والحجاب وجعلته على عشرة أبـواب. يتنـاول أولهـا ضرورة التأليف السياسى للملوك والنصح لهم؛ ثم يعرض بعد ذلك لمجمل القيم السياسية ولمؤسسات النظام السياسى فى حوارات بين الحيوانات تتناول قضايا ، مثل الشورى والعدل، وتبقى ملاحظة أن التأليف على ألسنة الحيوانات له دلالات سياسية تتجاوز مضمون الخطاب الوارد إلى الظروف المحيطة التى تدفع لمثل هذا النوع غير المباشر من التعامل السياسى[١] .

---

(١) انظر: فى مصادر التراث السياسى الإسلامى، نصر عارف ص١٨٥.

تحقيق الكتاب

ترجع علاقتى بهذا الكتاب إلى أكثر من ثلاثة أعوام ، أى تقريباً عام ألف وأربعمائة سبعة عشر من الهجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

فقد أشار علىّ الأخ الكريم الدكتور: نصر عارف بتحقيقه، لما فيه من قيم ومعانى .

وعند تجولى فى مكتبات القاهرة -العامرة بفضل الله تعالى- عثرت فى إحدى دور النشر القديمة على كتاب [**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**] لابن عربشاه فراعى انتباهى ، وتذكرت ما قاله لى الدكتور: نصر عارف عنه، وتحقيقه ، فقمت بشراء الكتاب وكانت طبعة خاصة (بالمكتبة الحلبية لسنة ١٩٠٩م) وفى نفس اليوم حرصت على أن أتفحص الكتاب وأسبره ، فوجدته كتاباً غير محقق ، كثير الأخطاء، غير متناسق فى ترتيبه ، فزادنى حرصاً لتحقيقه ؛ لأهمية موضوعه ، وتعطشنا لمادته.

وشمرت عن ساعدى الجد وعزمت على تحقيقه ، فعثرت على مخطوط لهذا الكتاب فى دار الكتب المصرية بخط المؤلف نفسه، فانبلج صدرى بتلك الهدية .

فعكفت على نسخ هذا المخطوط ومطابقته بالنسخة المطبوعة .

وكانت انطلاقة قوية نحو تحقيق الكتاب وإحيائه ، كم عانيت فيها . وبقى عندى كثير من شرح الغريب، والألفاظ ذات الدلالات الخاصة، فأعاننى عليها الله تعالى، حتى فرغت منها، وأتم الله علينا نعمة الانتهاء من تحقيقه بهذا الثوب القشيب .

وصف مخطوط الكتاب والمطبوع منه :

ـ المخطوط الأول ؛ والذى تم منه النسخ :

مصدره : دار الكتب المصرية [أدب تيمور رقم (٧٦٤)] . عدد الأوراق : (٣٠٨) ورقة . من القطع الكبير ، عدد الأسطر : (٢٤) سطراً ، نوع الخط: نسخ عادى بخط المؤلف نفسه ، وكان الفراغ من نسخه (٨٥٠هـ) .

ـ المخطوط الثانى :

مصدره : دار الكتب المصرية . تصنيف [أدب طلعت رقم ٤٦٠٦] .

عدد الأوراق (٢٨٩) ورقة . من القطع الكبير ، عدد الأسطر (٢٩) سطراً ، نوع الخط : يمنى بخط الناسخ : ..... ، ....

ـ النسخة المطبوعة مكتبة الحلبى :

طبع سنة (١٩٠٩) بدون تحقيق ، وبها أخطاء كثيرة تقع النسخة فى (١٨٩) ورقة .

عملنا فى هذا الكتاب

١- ترقيم الحكايات ؛ لسهولة البحث .

٢- ضبط النص ، وشكله ، وتقويم العبارة ، وتصحيح التحريف وملاحظة السقط من الكلمات.

٤- ترجمة من له قول، أو حكمة ، أو شعر فى الكتاب ـما أمكن ـ.

٥- عزو الآيات والأشعار .

٦- عزو الروايات إلى المصادر الموثقة ، وتخريج بعضها.

٧- الفهارس اللازمة للكتاب المعينة على البحث فيه .

فهرس الآيات .

فهرس الأطراف .

فهرس الشعر .

فهرس الأعلام .

فهرس الأمم والأماكن .

فهرس الغريب .

فهرس العبارات البليغة .

فهرس مواضيع الكتاب .

فهرس محتويات الكتاب .

وختاماً ، نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذا العمل ، ولا يسعنا إلا أن نشكر كل من ساعدنا بالوقت والجهد على إتمامه وإخراجه بهذا الثوب القشيب وبخاصة الأستاذة الفاضلة : منى زايد التى كثيراً ما أجهدت نفسها فى كتابة هذا السِفر على جهاز الكمبيوتر وإخراجه بهذا الشكل الجميل فلها جزيل الشكر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القاهرة

أبو محمد

أيمن البحيرى

ترجمة المؤلف

اسمه :

أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عَربشاه (ابن عرب شاه) الدمشقي الأصل: الرومى، الحنفى، ويعرف بالعجمى، وبابن عرب شاه وهو الأكثر، شهاب الدين، أبو العباس، أديب مؤرخ، مشارك فى أنواع من العلوم كالفقه، واللغة، والنحو والبلاغة.

كان يقال : ملك الكلام فى اللغات الثلاث: الفارسية والتركية والعربية، وتجول فى بلاد الدشت، وسراى ثم جاء إلى قرم، ثم قطع بحر الروم إلى مملكة العثانيين، فأقام فيها نحو عشر سنين، وباشر عند سلطانها ديوان الإنشاء.

مولده ونشأته :

ولد بدمشق فى منتصف ذى القعدة سنة ٧٩١هـ، ونشأ بها ولما غزا تيمورلنك ديار الشام تحول بعائلته إلى سمرقند، ثم انتقل إلى ما وراء النهرين، وساح سياحات بعيدة. كان قد أحكم الفارسية والتركية فى أسفاره.

وفاته :

توفى بالقاهرة فى منتصف رجب سنة ٨٥٤هـ .

مصنفاته :

عجائب المقدور فى أخبار تيمور .

منتهى الأرب فى لغات الترك والعجم والعرب .

التأليف الطاهر فى سيرة الملك الظاهر جمقمق .

عزة السير فى دول الترك والتتر .

وترجم عن الفارسية إلى التركية كتاباً في عدة مجلدات سماه (جامع الحكايات ولامع الروايات) .

وله في العربية (العقد الفريد في التوحيد) .

ولعل لقب (ابن عرب شاه) عرض له في رحلاته .

انظر ترجمته في :

الضوء اللامع.

التبر المسبوك.

آداب اللغة.

الشذرات.

البدر الطالع.

دائرة المعارف الإسلامية.

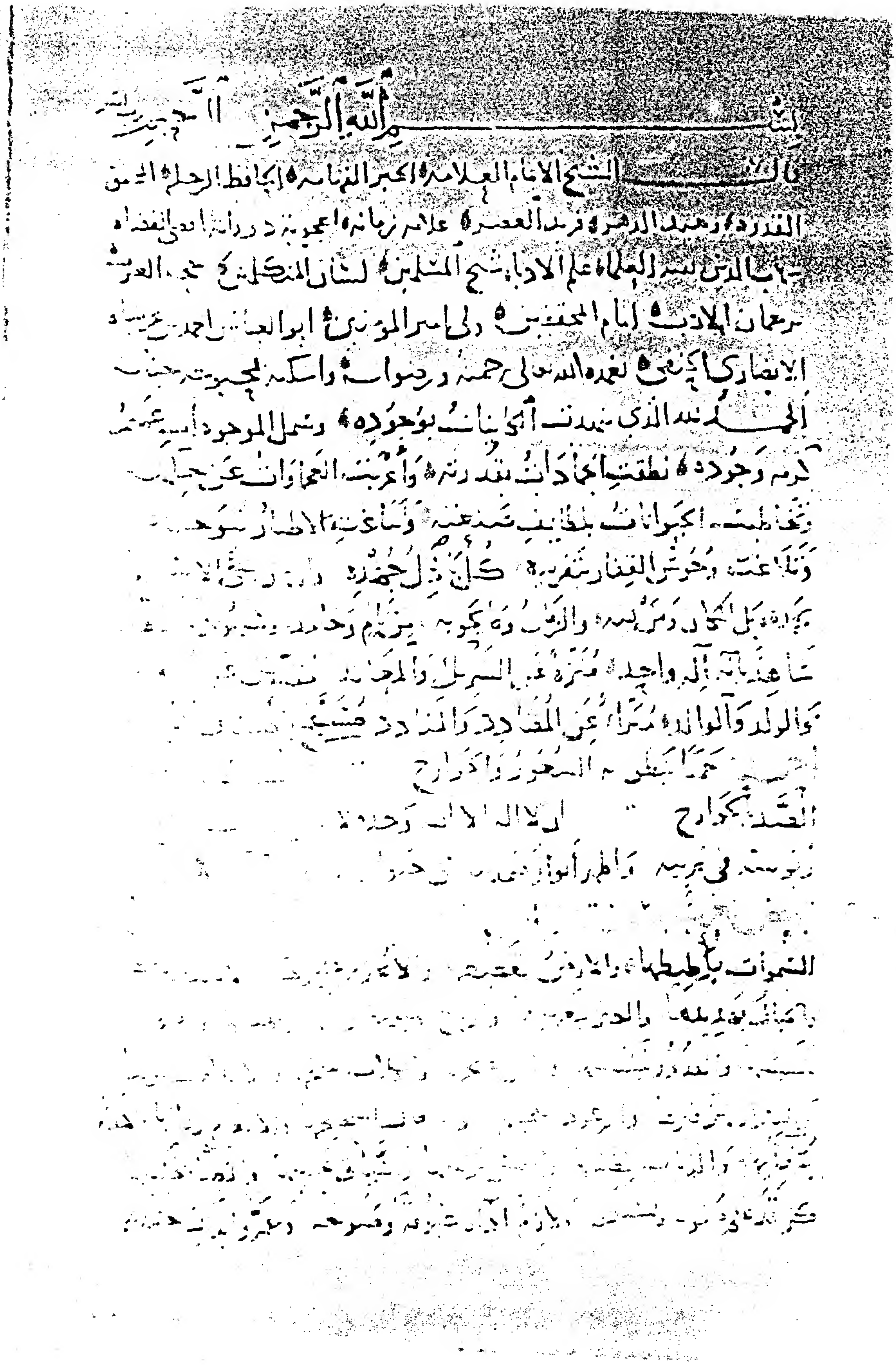
كشف الظنون.

إيضاح المكنون.

المنتخب من مخطوطات المدينة.

مصر الإسلامية.

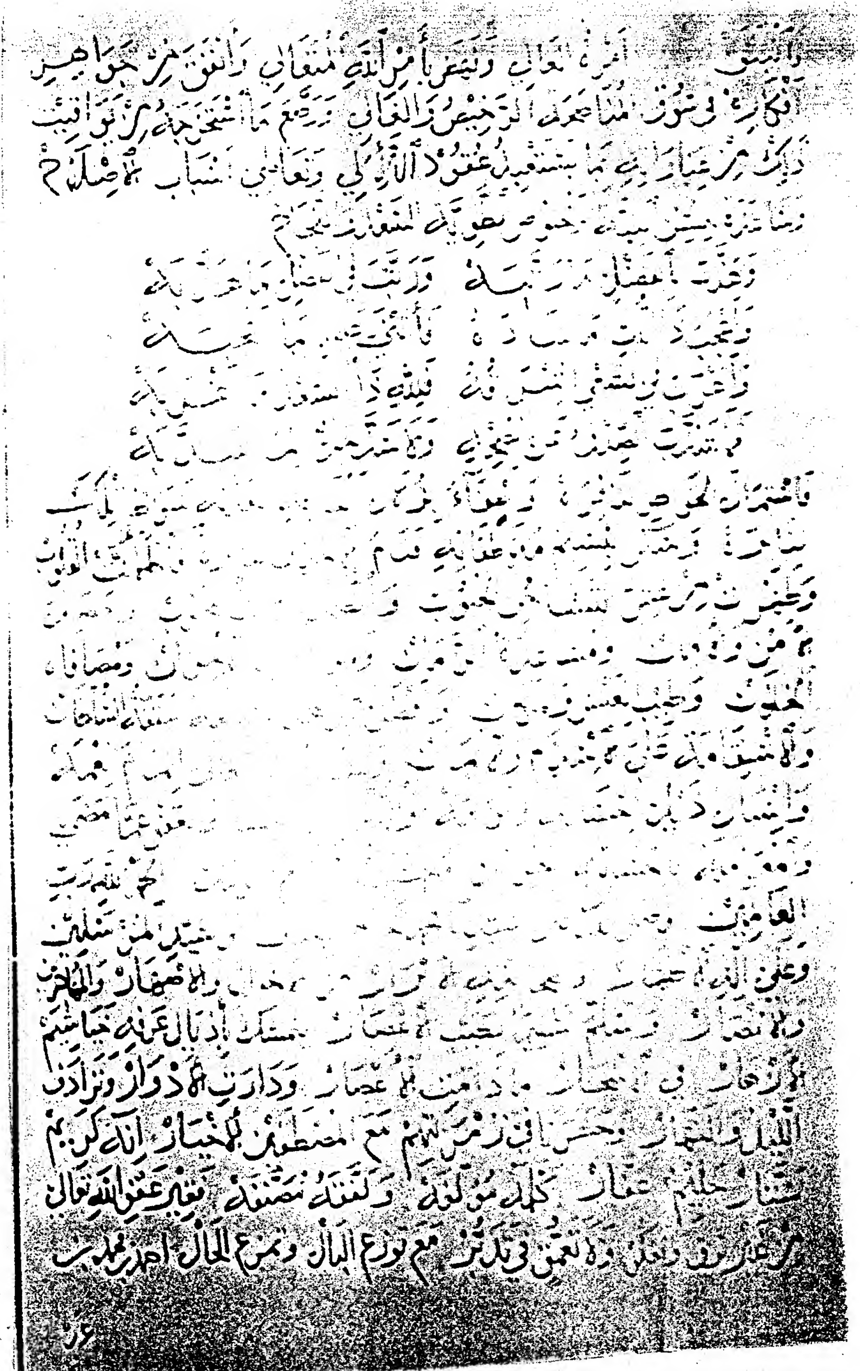
التعريف بالمؤرخين.


بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الإمام العلامة الحبر الفهامة الحافظ الرحلة
الفرد وحيد الدهر فريد العصر علامة زمانه أعجوبة دورانه
الدين لسان العلماء علم الأدباء شيخ المسلمين لسان المتكلمين
ترجمان الأدب إمام المحققين ولي أمير المؤمنين أبو العباس أحمد
الأنصاري تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه
الحمد لله الذي ... بوجوده وشمل الموجود ...
كرمه وجوده نطقت ...

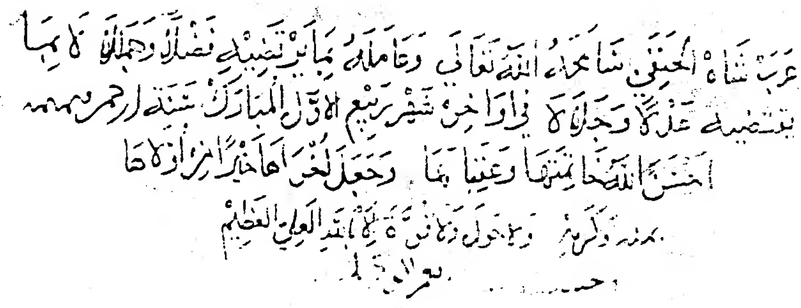
الصفحة الأولى من المخطوط

[illegible] سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي [illegible] رسوله أفضل
من بعث بالرسالة، وسلمت عليه الغزالة، وكلمه الحجر، وانشق له البدر، واشتق له
القمر، ولبت دعوته الشجرة، واستجار به الجمل، وشكا إليه شدة العمل، وحن
إليه الجذع، ودر عليه ثدي الفرع، ونبع في كفه الكريم ونبع من بين أصابعه
الماء، وصدقه ضب البرية، وخاطبته الشاة المصلية، صلى الله عليه صلاة تنفق
بالإخلاص، وتسعى لقائلها بالخلاص، يوم يؤخذ بالنواصي، ويتبرم من القرا
القصاص، وعلى آله أسود المعارك، وأصحابه نجوم المسالك، وسلم تسليما
زاده شرفا وتعظيما [illegible] بأن الله المقدس في ذاته المنزه عن
سمات النقص في صفاته قد أودع في كل ذرة من مخلوقاته من بديع صنعه
[illegible] من الحكم والعبر ما لا يدرك [illegible] ولا يحيط [illegible]
[illegible] ذوي النظر [illegible] ذلك [illegible] الرجس
[illegible] تعالى [illegible] جلاله [illegible] الأرض
[illegible] ولا يعرفون [illegible]
[illegible] فقال في كلامه [illegible]
[illegible] في [illegible] بما ينفع الناس [illegible]
[illegible] من كل دابة وتصريف [illegible]
[illegible] والأرض لآيات لقوم يعقلون
[illegible] واحدة لكن لما ذكرت [illegible]
[illegible] العقول والأكم [illegible]
[illegible] والعدم [illegible] على [illegible]
[illegible] النفوس [illegible] ولم [illegible]
[illegible] ذلك [illegible]
[illegible] ولا [illegible] عليها [illegible]

الصفحة الثانية من المخطوط



الصفحة قبل الأخيرة من المخطوط



الصفحة الأخيرة من المخطوط

فاكهة الخلفاء

ومفاكهة الظرفاء

العالم الأديب السياسى

ابن عربشاه

ت (٨٥٤ هـ)

حققه وعلق عليه

أيمن عبد الجابر البحيرى

دار الآفاق العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى شهدت الكائنات بوجوده، وشمل الموجدات عميم كرمه وجوده، ونطقت الجمادات بقدرته، وأعربت العجماوات[١] عن حكمته، وتخاطبت الحيوانات بلطيف صنعته، وتناغت الأطيار بتوحيده وتلاغت وحوش القفار بتغريده، كلّ باذل جهده، وإن من شىء إلاّ يسبح بحمده، بل المكان ومن فيه، والزمان وما يحويه من نامٍ وجامدٍ، ومشهودٍ وشاهدٍ تشهدُ بأنه اله واحد منزه عن الشريك والمعاند، مقدس عن الزوجة والولد والوالد، مبرأ عن المعاند والمنادد[٢]، مسبح بأصناف المحامد .

أحمده حمداً تنطق به الشعور والجوارح، وأشكره شكرا يصيد نعمه صيد المصيد بالجوارح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب أودع أسرار ربوبيته فى بريته، وأظهر أنوار صمديته فى جوانى بحره وبريته، فبعضٌ يعرب بلسان قاله، وبعض يعرب بلسان حاله، تسبحه السماوات بأطيطها[٣]، والأرض بغطيطها[٤]، والأبحر بخريرها، والأسد بزئيرها، والحمام بهديرها، والطير بتغريدها، والرياح بهبوبها، والبهائم بهبيبها، والهوام بكشيشها[٥]، والقدور بنشيشها[٦]، والخيل بضبحها، والكلاب

---

(١) العجماوات مفردها، عجماء: البهيمة .

(٢) المخالف .

(٣) الأطيط: الصوت والحنين، والمعنى: أن كثرة ما فيها من الملائكة أثقلتها حتى أنقضتها.

(٤) الغطيط: صوت غليان القدر، والمعنى: الصوت الناتج من الأرض عند الزلازل والبراكين .

(٥) الهوام: مفردها هامة، وهى كل ما كان له سم كالحية، وكشيشها: صوتها .

(٦) النشيش: صوت الماء وغيره إذا غلىً .

بنبحها، والأقلام بصريرها[١]، والنيران بزفيرها، والرغـود بعجيجهـا[٢]، والبغال بشحيحها[٣]، والأنعام برغائها، والذباب بطنينها[٤] والقسى برنينها، والنياق بحنينها. كلٌ قد علم صلاته وتسبيحه، ولازم في ذلك غبوقه وصبوحه، وعمروا بذلك أجسادهم وأرواحهم، ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله؛ الذى من صدقه تم سوله، أفضل من بعث بالرسالة، وسلمت عليه الغزالة[٥]، وكلمه الحجر[٦] وآمن به المدر، وأنشق له القمر[٧]، ولبت دعوته الشجر[٨]، وأستجار به الجمل، وشكا إليه

---

(١) الصرير: الصياح من العطش، والمعنى: صوت احتكاك القلم بالورق عندما يجف منه المداد .

(٢) الرغود، مفردها الرغد: سعة العيش. والعجيج: رفع الصوت. وقصد: المواشى عند رفع صوتها .

(٣) الشحيح: ارتفاع الصوت، وأراد ارتفاع صوت البغال .

(٤) الطنين: صوت الذباب .

(٥) إشارة إلى حديث ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٥٤/٤) وعزاه لأبى نعيم فى دلائل النبوة، عن أم سلمة زوج النبى ﷺ فى حجر من الأرض إذا هاتف يهتف: ((يا رسول الله ....الحديث)) .

(٦) كلام الحجر للنبى ﷺ حديث أخرجه الترمذى: كتاب المناقب، باب فى آيات إثبات نبوة النبى ﷺ وما قد خصه الله عز وجل (٣٦٢٤) ولفظ الحديث ((إن بمكة حجراً كان يسلم علىَّ ليالى بعثت، إنى لأعرفه الآن)) .

(٧) إشارة إلى قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر:١]. والأحاديث فيه متواترة .

(٨) إيمان الشجر بالنبى ﷺ، حديث أخرجه الترمذى: كتاب المناقب، باب إثبات نبوة النبى ﷺ وما قد خصه الله عز وجل (٣٦٢٦) بلفظ: عن على ابن أبى طالب قال: كنت مع النبى ﷺ بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله .... الحديث.

شدة العمل[(١)]، وحن إليه الجذع[(٢)]، ودر عليه يابس الضرع[(٣)]، وسبحت فى كفه الحصاء[(٤)]، ونبع من بين أصابعه الماء[(٥)] وصدقه ضب البرية[(٦)]، وخاطبته الشاة المصلية[(٧)] ﷺ صلى الله عليه صلاة تنطق بالإخلاص وتسعى لقائلها بالخلاص، وعلى آله أسود المعارك وأصحابه شموس المسالك وسلم تسليما وزاده شرفا وتعظيما .

أما بعد، فإن اللّه المقدس فى ذاته، المنزه عن سمات النقص فى صفاته؛ قد أودع فى كل ذرة من مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته، ومن الحكم والعبر مالا يدركه البصر، ولا تكاد تهتدى إليه الفِكَر، ولا يصل إليه فهم ذوى النظر، ولكن بعض ذلك، للبصر بالرصد ظاهر يدركه كل

(١) حديث الجمل، أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد باب (٤٤) وفيه: ((... فإذا جمل فلما رأى النبى ﷺ حن وذرفت عيناه ....)) .

(٢) حنين الجذع للنبى ﷺ، حديث أخرجه البخارى: كتاب المناقب، باب آيات إثبات نبوة النبى ﷺ (٣٦٢٧) وفيه ((...فحن الجذع حنين الناقة .... الحديث)) .

(٣) إشارة إلى حديث ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٥٦/٤) وعزاه لأبى نعيم فى دلائل النبوة .

(٤) تسبيح الحصى، حديث ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٣٨/٤) وعزاه للبيهقى فى الدلائل، وفيه ((فأخذهن فى كفه، فسبحن حتى سمعت لهم حنيناً...)) .

(٥) نبع الماء من بين يديه ﷺ، حديث أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب معجزات النبى ﷺ (٤) عن أنس بن مالك قال: ((... فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه)) .

(٦) إيمان الضب، حديث ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٥٦/٤) وعزاه للبيهقى فى الدلائل وفيه :فقال رسول الله ﷺ: ((يا ضب، فأجابه الضب بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة .... الحديث)) .

(٧) حديث الشاة المصلية، أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣١٥/٥) فى باب ما جاء فى بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه؛ أنه ممن شهد العقبة من الأنصار -بنى سلمة- وهو أكل مع رسول اللّه ﷺ من الشاة التى سم فيها يوم خيبر وقال: رواه الطبرانى مرسلاً وإسناده حسن .

أحد، قال الله تعالى، وجل ثناؤه جلالا ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وقال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الأَفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال عز من قائل فى كلامه الطائل ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال الشاعر :

فَفِى كُلِّ شىء لَهُ آيـــة تَـدلُ عَلَــىَ أَنَّــهُ واحـــدٌ

لكن لما كثرت هذه الآيات والحكم وانتشرت أزهار رياضها فى وهاد العقول والآكم(١)، وترادف ما فيها من العجائب والعبر، وتكرر ورود مراسيمها على رعايا السمع والبصر، وعادتها النفوس، ولم يكترث بوقوعها القلب الشموس، ولم يستهجن(٢) من وجودها، ولم يلتفتن إلى جدودها؛ فكثرت فى ذلك أقوال الحكماء وتكررت مقالات العلماء، فلم تصغ الأسماع إليها ولا عولت الأفكار عليها .

فقصد طائفة من الأذكياء وجماعة من حكماء العلماء، ممن يعلم طرق المسالك إبراز شىء من ذلك على ألسنة الوحوش، وسكان الجبال والعروش، وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع، وأصناف الأطيار وحيتان

---

(١) الوهد: الأرض المنخفضة. والآكام، جمع الجمع، المفرد أكم: الموضع الذى يكون أكثر ارتفاعاً. والمعنى: يعرفه أقل الناس عقلاً، فيما فوق .

(٢) أى لم يعب ويستقبح وجودها .

البحار وسائر الهوام، فيسندون إليها الكلام لتميل لسماعه الأسماع وترغب فى مطالعته الطباع؛ لأن الوحوش والبهائم والهوام والسوائم[(١)] غير معتادة لشيء من الحكمة، ولا يسند إليها أدب ولا فطنة، بل ولا معرفة ولا تعريف، ولا قول ولا فعل ولا تكليف؛ لأن طبعها الشماس[(٢)] والأذى والافتراس، والإفساد والنفور، والعدوان والشرور، والكسر والتفريق، والنهش والتمزيق، فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق، وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق، وسلكت وهى مجبولة على الخيانة سبل الوفاء، ولازمت وهى مطبوعة على الكدورة[(٣)] طرق الصفاء، أصغت الآذان إلى استماع أخبارها، ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها، وتلقتها القلوب بالقبول، والصدور بالانشراح، والبصائر بالاستبصار، والأرواح بالارتياح؛ لكونها أخبارا منسوجة على منوال عجيب، وآثارا أسديت لحمتها[(٤)] فى صنع بديع غريب؛ لاسيما الملوك والأمراء، وأرباب العدل والرؤساء والسادة والكبراء، وأبناء الترفة والنعم، وذوى المكارم والكرم، إذا قرع سمعهم قول القائل صار البغل قاضيا، والنمر طائعا لا عاصيا، والقرد رئيس الممالك، والثعلب وزيرا لذلك، والدب مؤرخا أديبا، والحمار منجما طبيبا، والكلب كريما، والحجل[(٥)] نديما، والغراب دليلا، والعقاب خليلا، والحدأة صاحبة الأمانة، والفأرة كاتبة الخزانة، والحية راقية، والبومة ساقية، وضحك النمر متواضعا، وغدا الأسد لإرشاد الذئب سامعا، ورقص الغزال فى غرس القنفد، وغنى الجدى، فطرب

---

(١) السوائم، مفردها سائمة: الإبل الراعية .

(٢) أى صعوبة ترويضها .

(٣) عدم نقاء وتعكر مزاجها .

(٤) السداة: الخيط الرأسى للقماش، واللحمة الخيط الأفقى، وهما معاً يكونا النسيج .

(٥) طائر فى حجم الحمام .

الجدجد[1]. وتصادق القط والجرذان، وصار السرحان[2] راعى الضان، وعانق الليث الحمل والذئب الجمل، ورفع الباشق[3] الحمامة على رقبته وحمل؛ ارتاحت لذلك نفوسهم وزال عبوسهم، وانشرحت خواطرهم، وسرت سرائرهم، وأصغت إليه أسماعهم، ومالت إليه طباعهم، وأدى طيشهم إلى أن طاب عيشهم .

ولكن أهل السعادة وأرباب السيادة ومن هو متصد لفصل الحكومات والذى رفعه الله الدرجات، فانتصب لإغاثة الملهوفين وخلاص المظلومين من الظالمين والمنتبهون بتوفيق الله تعالى لدقائق الأمور، وحقائق ما تجرى به الدهور، إذا تأملوا فى لطائف الحكم، والفرائد التى أودعت فى هذه الكلم، ثم تفكروا فى نكت العبر وصفات العدل والسير والأخلاق الحسنة، والقضايا المستحسنة المسندة إلى مالا يعقل ولا يفهم، وهم من أهل القول الذى يشرف به الإنسان ويكرم، يزدادون مع ذلك بصيرة، ويسلكون بها الطرق المنيرة؛ فتتوفر مسراتهم وتتضاعف لذاتهم .

وربما أدى بهم فكرهم وانتهى بهم فى أنفسهم أمرهم؛ أن مثل هذه الحيوانات مع كونها عجماوات إذا اتصفت بهذه الصفة وهى غير مكلفة، وصدر منها مثل هذه الأمور الغريبة والقضايا الحسنة العجيبة، فنحن أولى بذلك، فيسلكون تلك المسالك .

وقد ضرب الله ذو الجلال فى كلامه العزيز الأمثال فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

(١) حشرة تشبه الجراد .

(٢) السرحان: أحد أسماء الذئب .

(٣) من الطيور الجارحة، وهو صغير الحجم .

وقال سبحانه بعد ذلك ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سبحانه ما أعظم شأنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإن يَسْلُبْهُم الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنَ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إن فِى ذَلِكَ لأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] .

وقال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. أسند سبحانه وتعالى الأفعال والأقوال إلى الجمادات بعدما وجه الخطاب إليها .

وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوابُّ وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

وكل ما جاء فى هذه الطريقة فأنه بالنسبة إليه تعالى حقيقة؛ لأنه قادر على كل شيء، وسواء عنده الميت والحي، ولا فرق فى كمال قدرته بالنظر إلى قدرته ومشيئته، وتصوير كمال عظمته وهيبته بين الناطق والصامت، والنامى والجامد، والشاهد والغائب، والآتى والذاهب. كما لا فرق فى هذا الكمال بين الماضى والاستقبال .

وقال تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩].

وقال ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧].

وقال تعالى ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

وقال فى الهدهد فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

وقال الشاعر: ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب(١).

وقالت العرب فى أمثالها: قال الجدار للوتد: لِمَ تشقنى ؟ قال: سل من يدقنى، قل لمن ورائى يتركنى ورائى.

وقالوا: أكرم من الأسد.

ومن أشهر أمثالهم، قالوا: إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا إلى الضب، فقالت الأرنب: يا أبا الحصين، قال: سميعا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلا حكيما. قالت: اخرج إلينا، قال: فى بيته يؤتى الحكم. قالت: إنى وجدت تمرة، قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها منى الثعلب، قال: لنفسه بَغَىَ الخير. قالت: فلطمته، قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمنى، قال: حُرٌّ انتصر لنفسه. قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت. فذهبت هذه الأقوال كلها أمثالا.

وقالوا: تحككت العقرب بالأفعى.

وقال الشاعر:

قام الحمام إلى البازى يهدده ... واستصرخت بأسود البر أ أضبعه

وهذا أمره مستفيض مشهور، معروف بين الأنام غير منكور، والحصر فى هذا المعنى يتعسر، والاستقصاء يتعذر، وإنما الأوفق التمثيل

---

(١) الحقائب مفردها، حقبة: الفترة الطويلة من الزمن، والمعنى: إذا لم يثن عليك الناس فسوف تخلد الأيام ذكراك.

والتنظير والاستدلال بالقليل على الكثير، فيتفكه السامع تارة ويتفكر أخرى، وينتقل فى ذلك من الأخفى إلى الأجلى، ويتوصل بالتأمل فى معانيه من الأدنى إلى الأعلى .

ومن جملة ما صنف فى ذلك، واشتهر فيما هنالك وفاق على نظائره بمخبره ومنظره، وحاز فنون الفطنة: (كليلة ودمنة). والمتمثل بحكمة الطباع. كتاب: (سلوان المطاع). والمفحم بنظمه العجيب كل شاعر وأديب؛ معجز الضراغم[(١)] الصادح[(٢)] والباغم[(٣)] ، وفى غير لسان العرب ممن يتعاطى فن الأدب جماعة رضعوا أفاويقه ؛ وسلكوا من هذا النمط طريقه، لكن تقادم عصرهم، واشتهر أمرهم، وتكرر ذكرهم، وصارت مصنفاتهم مطروقة وعتاق نجائبها[(٤)] فى ميدان التأمل عتيقة؛ ففلذت من دهرى فلذة، وعملت بموجب لكل جديد لذة، وسيرت فارس الأفكار فى ميدان هذا المضمار، وقصدت من الفائدة ما قصدوه، ومن العائدة فى الدارين ما رصدوه، وجمعتُ ما بلغنى عن نقلة الأخبار وحملة الآثار ورواة الأسفار، على لسان شيخ اللطائف ومنبع المعارف، وإمام الطوائف ومجمع العوارف ذى الفضل والإحسان أبى المحاسن حسان .

ووضعت هذا الكتاب نزهة لبنى الآداب، وعمدة لأولى الألباب من الملوك والنواب والأمراء والحجاب، وجعلته عشرة أبواب، ومن الله أستمد الصواب وأستغفره من الخطأ فى الجواب، إنه رحيم تواب كريم وهاب. وسميته: **(فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء).**

---

(١) الضراغم: مفردها، ضرغام، وهى من صفات الأسد الدالة على الشجاعة والفحولة

(٢) الصادح: رفع الصوت .

(٣) الباغم: ترخيم الصوت .

(٤) عتاق نجائبها: أى الفاضل النفيس فى نوعه .

شعر :

فإن يفضْ بحرُ عِلْمي تهدْ منهُ على … در يُنِيرُ عيونَ العَقْلِ في السُّدَفِ[1]
ألبسته من خلاعات النهي خلعا … وربما ازدان عقد الدر بالخزف
والفضل يحتاج في ترويج سلعته … إلى الخرافة والمعقول للخرف
فاعبر إلى البحر تجن الدرمنه ولا … يلهيك عن دره أضحوكة الصدف

الباب الأول: في ذكر ملك العرب الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب.

الباب الثانى: في وصايا ملك العجم المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم.

الباب الثالث: في حكم ملك الأتراك مع ختنه الزاهد شيخ النساك .

الباب الرابع: في مباحث عالم الإنسان مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس: في نوادر ملك السباع ونديميه أمير الثعالب وكبير الضباع .

الباب السادس: في نوادر التيس المشرقى والكلب الأفريقى .

الباب السابع: في ذكر القتال بين أبى الأبطال الريبال وأبى دغفل سلطان الأفيال .

الباب الثامن: في حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد .

الباب التاسع: في ذكر ملك الطير العُقاب والحجلتين الناجيتين من العِقاب.

الباب العاشر: في معاملة الأعداء والأصحاب وسياسة الرعايا والأحباب.

وفيه: نُكَتٌ، وأخبارٌ، وتواريخُ أخيار وأشرار .

---

(١) السدف، مفردها سدفة: الظلمة .

الباب الأول

فى ذكر ملك العرب
الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب

[١] **قال الشيخ أبو المحاسن**: بلغنى عن ذى فضل غير آسن[١]، إنه كان فيما غبر من الزمان قيل[٢] من الأقيال؛ غزير الأفضال، عزيز الأمثال، وارث المعارف، حائز الفضائل واللطائف، وافر السيادة كامل السعادة، ذو حكم مطاع وجند وأتباع، وممالك واسعة ذات أطراف شاسعة، تحت أوامره ملوك عِدَّة. ذو سطوات ونجده، وله من الأولاد الذكور خمسة أنفار؛ كل بالسيادة مذكور، وبالعلم والحِلم والحكم مشهور ومشكور، متوشح[٣] للسلطنة، متولٍ من والده مكانا من الأمكنة، وكان أسعدهم عند أبيه، وهو متميز على إخوته وذويه، سمسى المنظر[٤] أياسى المخبر[٥]، ذا فهم مصيب، واسمه فى فضله حسيب؛ قد حصل أنواعا من العلوم وأدركها من طريقى المنطوق والمفهوم، وكان لهذا الفضل الجسيم يدعى بين الصغير والكبير الحكيم.

فلما دعا أباهم داعى الرحيل، وعكَّم[٦] إلى دار البقاء أجمال التحميل، استولى على السرير[٧] أكبر أولاده، وأطاعه إخوته ورؤوس أمرائه وأجناده، وصار السعد يراقبه والملك بلسان الحال يخاطبه :

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأوِى إِلَيهِ كَوَاكِبٌ

واستمر إخوته فى خدمته مغتنمين أيادى طاعته، رافلين فى خلع محبته

---

(١) أسن الماء، أى تغير طعمه ولونه ورائحته، وفضل غير آسن لم تشبه شائبة .
(٢) القَيْل: الملك من ملوك حمير يتقيل من قبله من ملوكهم، أى يشبه .
(٣) مؤهل وجدير للحكم .
(٤) سمسى المنظر: بهى الطلعة .
(٥) أياسى المخبر: الفطن الذكى .
(٦) عكم المتاع: جمعه وشده بثوب .
(٧) السرير، قصد به العرش، أى الحكم .

ومودته، ومضى على ذلك برهة وهم فى أرغد عيش ونزهة، ثم إنه حصل فى خواطر الإخوه ما خطر فى خواطر الألداء[(١)] من الجفوة، وقلوب الحساد من الصد والنبوة[(٢)]، فداخلتهم النفاسة[(٣)]، وطلبوا كأخيهم الرياسة، فقلبوا لأخيهم ظهر المجن[(٤)]، وأظهر كلّ ما أكمن، وقال فيه ما أجن[(٥)]، وأراد شق العصا، وإن يشهر عنه أنه عصى .

غير أن أخاهم الحكيم تفكر فى هذا الأمر الوخيم، وأمعن فيه النظر، وساورته الوساس والفكر، فإنه وإن كان أغزرهم ذكاء وأوفرهم وفاء، فهو أصغرهم عمرا وأحقرهم قدرا، لا طاقة له على الاستبداد ولا أن ينحاز إلى أحد من ذوى العناد، إذ الانحياز إلى أحدهم ترجيح بلا مرجح، وتصحيح لأحد التأويلين بلا مصحح، فأداه اجتهاده إلى الانخذال وتقليد مذهب الاعتزال[(٦)]، والقول بوجوب رعاية الأصلح، ومن أمكنه العزلة خصوصا فى زمن الفتنة فقد أفلح.

فأخذ يفكر فى تعاطى أسباب الخلاص، وكيفية التقصى من عهده هذا الاقتصاص، واستنهض الفكرة الحائرة لتطفر[(٧)] به من سور هذه الدائرة، وتأخذ به على جهة واحدة إلى أن ينجلى غبار هذه المناكدة، ثم اتبع الكتاب فى مشاورة الأصحاب فاستشار ثقة من أهل المقة[(٨)] وعرض عليه العزلة، وكيف يتمكن من هذه النعمة الجزلة .

---

(١) الأعداء .

(٢) الجفاء .

(٣) أى المنافسة على الحكم، ممزوجة بالحقد .

(٤) أى أظهروا له الغلظة، وقلة الحياء فى القول .

(٥) ما خفى

(٦) مذهب الاعتزال، إشارة إلى المعتزلة: وهى فرقة كلامية، اعتمد أصحابها على المنطق والقياس فى مناقشة القضايا الكلامية، ومن أهم قضاياهم: القول بحرية الاختيار، وخلق القرآن، وقضايا التوحيد والعدل [الفرق بين الفرق ص١٤] .

(٧) أى لتقفز به .

(٨) الصيانة .

فقال له، بعد أن استصوب رأيه: طريق التوصل إلى الانفراد ياذا الدراية أن تستأذن فى تأليف تصنيف وترصيف تأليف[١]؛ يشتمل على فنون من الحكمة، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة، ولطائف التهذيب وأخلاق العباد، ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد، وتتوفر به مكارم الأخلاق والشيم، وعوالى تهذيب النفس، وظرائف الفضل والحكم. فيظهر بذلك غزارة علمك، ويشتهر بين الخاص والعام نباهة فضلك وحلمك، ولا يقف أحد فى طريقك، ولا يقدر أحد أن يتصدى لتعويقك، ويحصل بذلك فوائد جمة أدناها الخلاص من ورطة هذه الغمة، إلى أن ينجلى دجاها[٢] وتتجلى شمس الاستقامة وضحاها.

فاستقر رأى الحكيم حسيب؛ على العمل بهذا الرأى المصيب، ثم توكل على الله واعتمده وتوجه إلى مل قصده، ودخل غير مرتبك على الملك، وقبل الأرض ووقف فى مقام العرض، وذكر ما عزم عليه أو توجه قصده إليه، بعبارة رقيقة وألفاظ رشيقة فتأمل الملك فى خطابه، وتوقف فى جوابه.

وكان للملك وزير، ذو فضل غزير، فى غاية الحصافة والمعرفة والظرافة، إن لطف كان رأفة، وإن كان كشف آفة، بعيد الغور[٣]. إن رفع أبلغ إلى الثريا، وإن وضع أنزل إلى الثور[٤] بينه وبين الحكيم من سالف العهد القديم عداوة مؤكدة، وشدة مؤبدة، وتحاسد الأكفاء غل قمل[٥]، وعداوة النظراء جرح لا يندمل. فبلغه ما أنهى الحكيم إلى مسامع الملك الكريم ؛

---

(١) ترتيب .

(٢) ظلمتها .

(٣) عميق الفكر .

(٤) الثور، أحد أبراج السماء .

(٥) غل قمل، مثل يضرب فى شدة العداوة، وأصله أنهم كانوا يغلون الأسير وعليه الشعر فيقمل .

فتصدى للمعارضة، وتهيأ للمعاكسة والمناقضة وأقبل يرفل[1] في ثوب المكر، وقد شد دهاء الختل والختر[2] حتى وقف في مقامه واستطرد إلى قضية الحكيم في كلامه، فأجرى الملك كلام أخيه واستشار الوزير فيه، فاغتنم الفرصة وأراد إلقاءه في غصة[3] بإيراد مثل قصد به ايذاءه وقصبه.

ثم قال: أما ما قصده الحكيم من العزلة؛ فهو رأى قويم وفكر مستقيم؛ لأن الأعداء إذا تفرقوا تشققوا، ومتى قلوا ذلوا، وقد قيل :

وَمَا بِكَثِيْرٍ ألف خلٍ وَصَاحِبٍ وَإِنَّ عَدواً وَاحِداً الكَثِيْر

وإذا نقص من أعداء الملك واحد، سيما مثل اللئيم حسيب الحكيم؛ فهى نعمة طائلة، وسعادة واصلة، ودولة مستصحبة. وكما قيل: نعمة غير مترقَبة.

ويتوصل من ذلك إلى تشتيت أمرهم الحالك[4]، وتصارم[5] أقوالهم، وتخالف أحوالهم واضطراب رأيهم وأفعالهم وقد قيل :

وتَشَتّت الأعْدَاءِ فِى آرَائِهِمُ سَبَبٌ لِجَمْعِ خَوَاطِرِ الأَحْبَابِ

وأما قصده وضع الكتاب؛ فإنه خطأ لا صواب، وتعبيره بأن فيه فوائد وحِكماً، وأقوال العلماء والحكماء، وأن يرفع به للعلم علماً، فإنه مكر وخديعة من سوء السريرة وخبث الطبيعة، يريد أن يستر جهله وأن يظهر على فضل الملك فضله، ويشتمل بذلك الوسواس على قلوب الناس؛ فتنصرف الوجوه إليه، وتقبل الرعايا عليه. ولكن يا مولانا الملك لا تمنع ذلك المنهمك، وأجبه

---

(١) يمشى ويجر ثوبه فى تبختر .
(٢) المكر والدهاء .
(٣) الغصة: الهم، والمعنى: أن يوقعه فى محنة تصيبه بالهم من جرائها .
(٤) الشديد السواد .
(٥) تضارب .

إلى ما سأل وطالبه بما بذل، وألزمه بالانفراد، ودعه وما أراد؛ فإن عدم اجتماعه بالناس لنا فيه أمن من الباس؛ فيشتغل حينئذ بنفسه، ويتقلب فى طرده وعكسه.

وأسأل مولانا السلطان، ذا الأيادى والإحسان، قبل الإذن له وشروعه فى المسألة، أن يجمع بينى وبينه لأبين شينه[1] وزينه، وأظهر لمولانا السلطان زوره ومينه[2]؛ فيتحقق دسائسه، وما بنى عليه وساوسه، وأدى إليه فكره، ووصل إليه خداعه ومكره؛ فعند ذلك يصدر أمره الشريف بما يقضيه رأيه المنيف[3].

فأجابه إلى سؤاله، وأمر طائفة من رجاله، فسيرهم إلى الآفاق بمراسيم جمعها الاتفاق إلى رؤساء مملكته وكبراء دولته، فاستدعى العلماء وذوى الفضل والحكماء، وأولى الآراء والصلحاء، ومن يشار إليه بالفضائل ويتسم بسمة من الفواضل، وكل أديب أريب من بعيد أو قريب، وقاطن وغريب، وبيَّن لهم مكاناً يجتمعون إليه وزماناً لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون عليه.

فاجتمع القوم فى ذلك اليوم حسب ما برز المرسوم فى المكان المعلوم، وجلس الملك فى مجلس عام وحضر الخاص والعام، واستدعى أخاه الحكيم وقابله بالاحترام والتكريم، وأنواع الإحسان والتعظيم.

– ثم قال: أيها الأخ الكريم والفاضل الحكيم، كان تقدم منك الالتماس بالإذن فى تصنيف كتاب ينفع الناس، مشتمل على الفوائد وفنون الحكم الفرائد، يكسب الثواب الجزيل، ويخلد الذكر الجميل، فأحببت أن يكون ذلك بحضرة العلماء ومجمع الأكابر والفضلاء، واتفاق آراء الحكماء وأرباب

(١) العيب .
(٢) الكذب .
(٣) الحاسم الحازم .

الدولة والمناصب، وذوى الوظائف والمراتب، وأهل الحل والعقد المتصرفين فى الحكم والأمثال والنقد؛ ليأخذ كل منهم حظه ويشنف[١] سمعه، ويزين لفظه ولحظه؛ فتعم الفائدة وتشمل العائدة، ويتحقق كل سامع؛ وقائل ما لك من الفضائل والفواضل، وتتميز على أقرانك ورؤساء زمانك، ويبلغ الأطراف وسائر الأكناف[٢] ما لديك للناس من إسعاف، وما قصدت لهم من إحسان وألطاف، فيتوفر لك الدعاء، ويكثر لك الشكر والثناء، لعظم فضلك وحسن آدابك فى نقلك. وقد أذنا لك فى الكلام، وسلمنا إلى يد تصريفك فيه الزمام؛ نعلمنا أنك فارس ميدانه، وفى بيان معانيك بديع بيانه، ولسان فصاحتك يدحرج كرة البلاغة كيف شاء بصولجانه، فقل ما بدا لك أحسن الله حالك .

فنهض الحكيم من مكانه وحسر طرف لثامه[٣]، وبادر إلى الأرض بالتثامة[٤] وقال: حيث أذن مولانا السلطان، وتصدق بالإذن فى حسن البيان، فلابد من إتمام الإحسان، وذلك بالإصغاء وحسن الرعاية والإرعاء، فإن حسن الاستماع هو طريق الانتفاع، وهو الدرجة الثانية، وهى مرتبة سامية، فإن حسن الأداء هى المرتبة الأولى، وتليها أيها الملك المطاع؛ مرتبة حسن الاستماع، ثم تليها فى الزيادة مرتبة الاستفادة، والمرتبة الرابعة وهى الجامعة النافعة؛ درجة العمل وبها الفضل اكتمل، وأما الغاية القصوى والدرجة العليا والمرتبة الفاخرة فهى الإخلاص فى العمل وطلب الآخرة، واتباع رضا المولى بترك السمعة والرياء، ثم لنحط العلوم الوضيحة أن النصيحة من حيث هى نصيحة، تتميز القلوب غيظا منها وتتفر النفس عنها؛ لأن النفس مائلة إلى الفساد، والنصيحة داعية إلى الرشاد، والنصيحة محض خير وبر،

---

(١) شنَّف الكلام، أى زينه للسامع .

(٢) الأكناف مفردها، كنف: الناحية .

(٣) اللثام: ما كان على الأنف وما حوله من ثوب .

(٤) أى قبل الأرض بين يديه .

والنفس مطبوعة على الأذى والشر، فبينها تنافر من أصل الخلقة، وتباين من نفس الفطرة، والنفس تميل إلى ما جبلت عليه، والنصيحة تجذب إلى ما تدعو إليه، قال العزيز الجبار –حكاية عن الكفار– ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

فالسعيد من تأمل فى معانى الحكم وسلك السبيل الأقوم، وتدبر فى عواقب الأمور بالافتكار، وتلقى الأشياء من طرف الاعتبار وقد قيل :

إذا لم يُغْنِ قَولُ النَّصيحِ بمقولِ فإنَّ مَعَارِيضَ الكلامِ فُضُولُ[١]

ثم عش واسلم وتيقن واعلم يا ملك الزمان؛ أن أفضل شيء فى وجود الإنسان، وأحسن جوهرة تزين بها عقد تركيبه: العقل الداعى إلى كيفية تهذيبه فى أساليبه، وأفضل درة ترصع بها تاج العقل فى تزيينه وترتيبه الخُلق الحسن؛ الذى فضل الله به خير خلقه فى تعليمه وتأديبه وخاطب بذلك نبيه الكريم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وبالخلق الحسن يُنال شرف الذكر فى الدارين، ولا يضع الله الخلق الحسن إلا فيمن اصطفاه من الثقلين .

وأفضل جنس الإنسان، بعد الرسول الرفيع الشان، الملك الذى يحيى أحكام شريعته، ويمشى على سنته وطريقته، وإذا كان الملك حسن الخلق والفعال؛ فهو فى الدرجة العليا من الكمال، قال الرسول النجيب صاحب التاج والقضيب، محمد المصطفى الحبيب ﷺ صلاة يتمسك بأذيالها الطبيب ويترنح لنسمات قبولها الغصن الرطيب: «ألا أخبركم على من تحرم النار؛ على كل هين لين سهل قريب[٢]».

---

(١) معاريض مفردها، معراض: التورية، وهى خلاف المصرَّح به .

(٢) حديث أخرجه الترمذى: كتاب صفة القيامة (٢٤٨٨) وقال: حسن غريب .

- وروى أن ذلك السيد السديد الكامل المكمّل الرشيد، أتى برجل فكلمه فأرعد فقال: «هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار، وأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]».

- ومن جملة حسن الخلق العدل والشفقة على الرعية والفضل. وإذا حسن خلق الملوك العلية؛ صلحت بالضرورة الرعية طائعة أوكارهة وسعت فى ميدان الطاعة فارهة. فإن الناس على دين ملوكهم وسالكون طرائق سلوكهم.

وأرذل عادة الملوك الطيش والخفة، وأن يكون ميزان عقله خالى الكفة، وإن عدم الثبات والوقار من عادة الأطفال والصغار. والرجل الخفيف القليل الحيلة، لا يقدر على تدبير الأمور الجليلة، ولا باب يوجد له ولا طاقة للدخول فى الأشغال الشاقة، ولا يستطيع أن يتحمل ثقل الرياسة ويتعاطى الإيالة[2] والسياسة، ولا قدرة له على فصل الحكومات المشكلة، والقضايا العريضة المعضلة، ولا الوصول إلى إثبات السيادة، ولا الدخول فى أبواب السعادة .

فإن تدبير الممالك وسلوك هذه المسالك يحتاج إلى رجل كالجبل فى السكون والوقار أوان الثبات، وكالبحر الهائج والسيل الهامر[3] أوان الحركات .

واعلم ياذا العلا والمالك المال والدما؛ أنه يجب على الملك الكبير اجتناب الإسراف والتبذير، فإنه حافظ دماء الناس وأموالهم مراقب مصالحهم فى حالتى حالهم ومآلهم، والمال الذى فى خزائنه قد اجتمع من وجوه مكامنه ومن خراج مملكته ومن أعدائه ومعادنه.

إنما هو للرعية ليذهب عنهم البلية ويصرفه فى مصالحهم وما يحدث من

---

(١) حديث أخرجه ابن ماجة: كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢) عن ابن مسعود .
(٢) الولاية .
(٣) شديد الاندفاع .

حوائجهم وجوائحهم(١)، فهو فى يده أمانة وصرفه فى غير وجهه خيانـة، فكما لا ينبغى أن يتصرف فى مال نفسه بالتبذير، كذلك لا يتصرف فى أموالهم بالإسراف، والتقتير ومصداق هذا المقال قول ذى الجلال جل كلاماً وعز مقاماً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان: ٦٧].

فينبغى للملك، بل يجب أن لا يستتر عن الرعية ولا يحتجب، وأن لا يبادر بمرسوم إلا بعد تحقيق المعلوم، ولا يبرز مرسومه ما لم يتحقق فيه معلومه، وذلك بعد التأمل والتدبر وستر عورة القضية والتفكر؛ وهذا لأن مرسوم السلطان على فم أبناء الزمان، وهو بمنزلة القضاء النازل من السماء، وإذا أنزل القضاء وفتحت له أبواب السماء فلا يُرد ولا يُصد، ولا يعوقه عن مضيه عدد ولا عد، ولا حيلة فى منعه لأحد وأمر أولى الأمر على زيد وعمرو، كالسهم الخارج من الوتر، بل شبه القضاء والقدر، تعجز عن إدراك سره قوى البشر، فكما أنه إذا أنفذ سهم القضاء والقدر لا يمنعه ترس حيلة(٢) ولا يصده درع حذر، فكذلك أمر السلطان لا يثبت لرده حيوان، ولا يمكن تلقيه إلا بالإمضاء والإذعان، فإذا لم يتدبر قبل إبرازه فى عواقب مآله وإعجازه ربما أدى إلى الندم والتأسف حيث زلت القدم، ولا يفيد التلافى بعد التلاف، ولا يرد السهم إلى القوس. وقد خرق الشغاف، وكما أن الملك سلطان الأنام كذلك كلامه سلطان الكلام، وكل ما ينسب إليه فهو سلطان جنسه، فيجب عليه حفظ كلامه كحفظ نفسه.

وحسبك يا مالك الزمان لطيفة للملك أنوشروان(٣)؛ فبرزت المراسيم الشريفة ببيان تلك اللطيفة .

[٢] **فقال الحكيم:** ذكر أهل السير ونقلة الأثر؛ أن الملك أنوشروان كان راكبا فى السيران فجمح به فرسه وقوى عليه نفسه، فاستخف شأنه،

---

(١) الجوائح مفردها، جائحة: المصيبة والكارثة .

(٢) أى شدة وعمق الحيلة .

(٣) كسرى أنوشروان، أحد ملوك الفرس، توفى سنة (٥٧٩) م .

وجبذ عنانه فهمزه ولكزه[1] وضربه ووخزه، فزاد جموحا وماد جموحا، فتجاذبا العنان فانقطع، وكاد أنوشروان أن يقع، فلاطف الفرس فاستكان ونجا بعد أن كاد يدخل فى خبر كان.

فلما وصل إلى محل ولايته واستقر راجف قلبه من مخافته دعا بسائس المركوب، فلبى دعوته وهو مرعوب فلعنه وشتمه و[illegible]ن يقطع يده وقدمه وقال: تَلَجَّم هذه الداهية بلجامٍ سيوره واهية فانقطعت فى يمينى وكاد الفحل يرمينى، ثم دعا بالمقارع وبالجلاد ليقطع منه الأكارع[2] .

فقال السائس المسكين: أيها الملك المكين وصاحب العدل والتمكين أسالك باللّه الذى رفعك إلىهذا المقام أن تسمع لى هذا الكلام. فقال: قل ولا تُطِل.

قال: كأن هذا العنان يقول وكلامه فصل لا فضول، ومقوله قريب من العقول، الملك أنوشروان سلطان الإنس وفرسه سلطان هذا الجنس، وقد تجاذبنى قوة سلطانين، فأين لى طاقة هذا الثبات لهما ومن أين، لاجرم ذهب منى الحيَل، فتمزقت بين سلطان الإنس وملك الخيل، فأعجب أنوشروان من السائس هذا البيان فأنعم عليه وأطلقه ومن رِقّ عقابه وعذابه أعتقه .

وإنما أوردت هذا البيان؛ ليتحقق مولانا السلطان أن حركاته ملكة الحركات، وصفاته سلطانة الصفات، وكلامه ملك الكلام فلا يصرفه فى كل مقام، وليصنه بالتأمل قبل القول، وليحتط لبروزه ويحفظه بالصدق والطوّل[3]، وإذا أمر بأمر فلا يرجع فيه بل يستمر على ما أمر به لئلا يقال سفيه .

---

(١) ضربه بجمع كفيه .

(٢) الأكارع مفردها، كراع: ما دون الركبة من مقدمة الساق .

(٣) الفضل .

ثم أعلم يا ملك الرقاب أن كلا من الثواب والعقاب له حد معلوم ومقدار مفهوم ينبغى للملك أن لا يتعدى لذلك حدا، وعلى الملك أن يصغى للنصيحة ممن مودته صحيحة، وقد جرب منه الصدق، وعلم منه الإخلاص فى النطق، لاسيما إذا كان ذا عقل صحيح وود صريح، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها، فبرودة الخاطر وسلامة القلب حرقة حرارتها. فإن الناصح المشفق كالطبيب الحاذق. فإن المريض الكئيب إذا شكا إلى الطبيب، شدة ألمه من مرارة فمه، يصف له دواء مرا فيزيد حرارته حرا، فلا يجد بدا من شربه، وإن كان فى الحال ينهض بكربه؛ لعلمه بصدق الطبيب وإنه فى الرأى مصيب، وما قصد بالدواء المر زيادة الضر، وإنما قصد بألمه عود الحلاوة إلى فمه. ولا يستحقر النصيحة إن كانت صادقة صحيحة، ولا الناصح خصوصاً الرجل الصالح .

[٣] فإن سليمان وهو من أجل الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وأحد من ملك الدنيا، وحكم على الجن والإنس والطير والوحش والهوام، استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره وخالف وزيره آصف بن برخيا؛ فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك، وصار كما قيل: أجير لصياد السمك(١) .

ثم قال الحكيم حسيب: أيها الملك الحسيب وأنا لما رأيت أمور المملكة قد اختلت، ومباشرى مصالح الرعية قلوبهم اعتلت، ولعبوا بالثقيل والخفيف، واستطال القوى منهم على الضعيف، ومدوا أيديهم إلى الأموال بالباطل وأظهروا الحالى(٢) فى حلية العاطل، وخرجوا عن دائرة العدل، وأطرحوا أهل العلم والدين والفضل، وتولى المناصب غير أهلها، ونزلت المراتب إلى

(١) قصة سليمان عليه السلام. وهى قصة أوردها الطبرى فى تاريخه، وهى من مقولات أهل الكتاب ولم يصح فيها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم خبر .

(٢) الحالى: هو التزين بالحلى، والعاطل من نزح عنه الحلى. والمراد إظهار الباطل فى صورة الحق .

غير محلها، وحُرم المستحقون، وأُبطل المحققون. إلى أن وقع الاختلال، وعم الفساد والضلال، وقويت أعضاد الظلمة على العباد وسائر القرى والبلاد، وهذا لا يليق بشرف مولانا الملك ولا بأصله، ولا يجوز فى شرع المروأة أن يكون الظلم طراز عدله، إذ قدره العلى وأصله الزكى أعظم مقاما من ذلك، ولا يحسن أن ينتشر إلا صيت رأفته فى الممالك، وعلى الخير مضى سلفه الكرام، وانطوى على مآثرهم صحائف الأيام، وقد قيل :

فَـإنَّ الظلـمَ مِـنْ كُـلٍّ قبيـحٍ   وأقْبَـحُ مَـا يكـونُ مِـنَ النَبيـهِ

وقيل:

ولَمْ أرَ فِى عُيُـوبِ النَّاسِ شيئاً   كَنَقْصِ القادرِيـنَ عَلَـى التَمَـامِ[1]

ما وسعنى إلا الانحياز إلى العزلة، والتعلق بذيل الانفراد والوحدة، وما أمكننى أن أعمل شيئاً، ولا أقطع دون العرض على الآراء الشريفة وامتثال ما تبرزه مراسيمها المنيفة؛ فقد قال الناصح فى بعض النصائح: لا تخاطب الملوك فيما لم يسألوك، ولا تَقُدْ على مالم يأمروك.

فلما أذن فى الكلام، قمت هذا المقام فقلت: قطرة من بحور وذرة من طيور، ورأيت ذلك واجبا علىّ ونفعه عائدا إلىّ، وذكرت بعض ما وجب على سائر الناصحين، ولزم ذكره جميع المسلمين من طريق واحدة، ولزمنى أنا من طرق متعددة، أدناها طريق المروّة، وأعلاها بل أغلاها وثيق الأخوة التى هى أقوى الأسباب وأعظم الوصلات فى هذا الباب، فإن لُحمة القرابة[2] هى السبب الذى لا يقطعه سيف الحدثان[3]، والبنيان الذى لا يهدمه معول الزمان، وأساس الأخوة عنوان الفتوّة قال الله تعالى، وعز جمالاً وتقدس كمالاً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] .

(١) البيت من قصيدة للمتنبى .
(٢) صلة الرحم .
(٣) نوازل الدهر .

وقال القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخاً لَهُ   كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَاءِ بِغَيْرِ سِلاَحِ[١]

وناهيك يا زين الملاح بقصة الولهى مع الضحاك، قال: أخبرنا أيها الحكيم بذلك الحديث القديم.

[٤] **قال الحكيم:** بلغنا عن التاريخ، الباذخ الشماريخ[٢] أن الضحاك كان من أحسن الناس سيرة، وأصفاهم سريرة، قد فاق الناس فضلاً، وبلغ ذكره الآفاق عدلاً، فتزيا له إبليس في صورة الدهاء والتلبيس، فزعم ذلك الطباخ أنه طباخ، وصار كل يوم يهيئ له من أطيب الأطعمة ولذيذ الأغذية ما يعجز به غيره، ولا يقدر أحد أن يسير سيره، ولم يأخذ على ذلك جِراية[٣] فبلغت مرتبته عنده النهاية. واستمر على ذلك مدة مديدة وأياما عديدة والناس تكره أن تخدم بغير أجرة، خصوصاً في هذا الزمان رؤساء الأعيان .

فقال له الإمام في بعض الأيام: لقد أوجبت علينا يدا وشكرا، وما سألتنا على ذلك أجرا، فاقترح ما تختار أكافئك يا مهار .

فقال: تمنيت عليك أن أُقبّل بين كتفيك، فأنى لي بذاك أن يقال قبّل بدن الضحاك. فأعجبه ذلك وأجابه، وحسر عن بدنه ثيابه وأدار ظهره إليه فقبل لوحي كتفيه، ثم غاب عن عينيه ولم يقف على أثره ولا عينه، فبمجرد ما لَثَمَه[٤] ومس فمه جسمه؛ أخذته حكة وشكه موضع لثمه شكة، ثم خرج من موضع فيه سلعة[٥] تلذعه شر لذعة، وتلسعه أحر لسعة، ثم صارا حيَّتين

---

(١) الهيجاء: الحرب .

(٢) أي من أمجاد التاريخ. والشماريخ، مفردها شمروخ: القمة العالية .

(٣) الجراية: الأجر اليومي .

(٤) قبله .

(٥) أي وكأنه خرج من فمه ناراً أصابته فتركت أثراً يؤلمه شديد الألم. والسلَع: آثار النار في الجلد .

أشبهتا كيتين، فصار يستغيث ولا مغيث، فطلب الأطباء فأعياهم هذا الداء. ثم لم يقر له قرار ولم يأخذه سكون ولا اصطبار إلا بدماغ الإنسان دون سائر الحيوان، فمد يد الفتك، ولأجلّ الأدمغة استعمل السفك، فضجر الناس لهذا البأس، وصاحوا وناحوا وغدوا مستغيثين وراحوا، فوقع الاتفاق بعد الشقاق على الاقتراع لدفع النزاع، فمن خرجت قُرعته كُسِرت قرعته[1]، وأخذ دماغه وحصل لغيره فراغه، فعالجوا به الكيتين، وغذوا به الحيتين، فيبرد الألم ويخف السقم. ففي بعض الأدوار خرجت القرعة على ثلاثة أنفار، فربطوا بالأغلال ودفعوا إلى النكال ليجرى عليهم ما جرى على الأمثال .

فبينما هم فى الحبس بين طالع نحس وطرد وعكس، وقف للضحاك امرأة وضية، واستغاثت به فى هذه القضية، فأدناها وسأل ما دهاها.

فقالت: ثلاثة أنفار من دارٍ، لا صبر لى عنهم ولا قرار، وحاشى عدلُ والسلطان أن يرضى بهذا العدوان؛ ولدى كبدى، وأخى عضدى، وزوجى معتمدى، وكلٌ مسجون يسقى كاس المنون، فَرَقَّ لها الضحاكُ وقال: لا يعمهم الهلاك، فاذهبى يا مغاثة، واختارى واحدا من الثلاثة، وجهزها إلى الحبس ليقع اختيارها على من يدفع اللبس. فتصدى لها الزوج وتمنى الخلاص من ذلك البوج[2]، فتذكرت ما مضى من عيشها معه وانقضى، واستحضرت طيب اللذات والأوقات المستلذات، فأتت إليه ومالت عليه، فتحركت الأنفس الإنسانية والشهوة الحيوانية، فهمت بطلبه وتعلقت بسببه. فوقع بصرها على ولدها فلذة كبدها، فرأت صباحة خده[3] ورشاقة قده، فتذكرت طفوليته وصباه، وتربيتها إياه وحمله وإرضاعه وتناغيه وأوضاعه، فعطفت عليه جوارحها، ومالت إليه جوانحها، فقصدت أن تختاره وتريح

---

(١) رأسه .

(٢) المحنة والمصيبة .

(٣) إشراقة خده .

أفكاره. فلمحت أخاها باكيا مطرقا عانيا قد أيس من نفسه وتيقن الإقامة بحبسه؛ لأنه يعلم أنها لا تترك زوجها وابنها، ولا تختاره عليهما، ولا تميل إلا إليهما، فأفكرت طويلا واستعملت الرأى الصائب دليلا، ثم أداها الفكر الدقيق وأرشدها التوفيق، وقالت: أختار أخى الشقيق.

فبلغ الضحاك ما كان من أمرها، واختيارها لأخيها بفكرها، فدعاها وسألها عن سبب اختيارها أخاها، وقال: إن أتت بجواب صواب وهبتها إياهم مع زيادة الثواب، وإن لم تأت بفائدة قاطعة وعائدة فى الجواب نافعة، كانت فى قتلهم الرابعة .

فقالت: اعلم واسلم أنى ذكرت زوجى وطيب عشرته، وأوقات معانقته ولذته، وما مضى معه من حسن العيش وانقضى من خفة الأحلام والطيش، فملت إليه وعولت فى الطلب عليه. ثم أبصرت ابنى فتذكرت مقامه فى بطنى وما مضى عَليه من عاطفة، وشفقة عامة فى الأيام السالفة فهيمنى حبه القديم وشكله القويم، فَمِلتُ إلى اختياره وخلاصه من بواره. ثم لمحت أخى المتقدم عليهما فقست مقامه بالنظر إليهما، فقلت إنى امرأة مرغوبة، قينة[1]، عاقلة مطلوبة، إن راح زوجى فعنه بدل، وإن حصل الزوج وجد الولد وحصل فتهيأ الغرض، ووجد عنهما العوض. وأما الأخ الشقيق فما عنه عوض فى التحقيق؛ لأن أبوينا ماتا وفاتا، وصارا تحت الأرض رفاتا؛ فهذا الذى أدى إليه افتكارى ووقع عليه اختيارى، وأنشده لسان القال فيما قال، شعر :

وكَمْ أبْصَرْتُ مِنْ حُسْنٍ ولَكِنْ عَلَيْكَ مِنَ الوَرَى وَقَعْ اخْتِيَارِى

قال: فاستحسن الضحاك هذا الكلام، ووهبها جماعتها مع زيادة الإنعام.

قال الحكيم: وإنما أوردت هذا المثل لمولانا الملك الأجل، وعرضته على الحُضَّار ومسامع النظار؛ ليعلم أن لى عن كل شىء بدلا، وأما عن مولانا السلطان فلا، كما قال من أجاد فى المقال :

---

(١) إمرأة ذات صوت جميل وقَيْنَة، قلما تطلق على الحرائر .

وقَد تَعَوّضتُ عَنْ كُلٍّ بمشبهِهِ   فَمَا وَجَدْتُ لأيَام الصِّبَا عِوَضاً

وليس لى عوض إلاّ فى بقاء ذاتك المحروسة، ودوام حياتك العزيزة المأنوسة. ثم إنى أخاف والعياذ بالله تعالى أن هذه الفتن التى قد أقبلت، والحركات الداهية التى وجود الخلاص منها قد أشكلت، تستأصل شأفة[1] أسلافنا الكرام، وتقرض شرف اجدادنا الملوك العظام، فاخترت العزلة لذلك فإنها أسلم الطرق والمسالك .

قال الملك: لقد صدقت إذ نطقت، وتحريت الصواب فى الخطاب، وأنا أتحقق حسن نيتك وخلوص طويتك[2]، وحسن وفائك ويمن آرائك، فإنك أخ شقيق، وصدوق صديق، ولكن تعلم أن هذا الوزير رجل خطير، ورأيه مستنير وفضله غزير، وهو من أصل كبير، وله علينا حق كثير، وأريد أن يقع ما عزمت عليه ، وفوّضت فكرك المصيب إليه ، مع محاورته ومناظرته ومشاورته ، فإن كلا منكما ناصح ، مشفق وحكيم ، مدقق وعالم محقق. وفى مثل هذه الأشياء إذا اتفقت الآراء وطال النفس . تكاشف نور القبس، وسعد البخت وتمكن التخت[3] ، وصح الحق ووضح الصدق ، لا سيما إذا كان الكلام بين عالمين والسؤال والجواب من فاضلين كاملين .

قال الحكيم : أيها الملك العظيم ، إذا قام الإنسان فى صدد المعارضة ، وتصدى فى البحث إلى المعاكسة والمناقضة ، لا سيما إن كان من أهل الفصاحة واللسن ، وساعده فى ذلك الإدراك الحسن ، لا يعجز أن يقابل الإيجاب بالسلب . والاستقامة بالقلب ؛ والعكس بالطرد والقبول بالرد ، ويكفى فى جواب المتكلم إذا أورد مسألة لا نسلم ؛ وقد قيل فى الأقاويل : لا تنفع الشفاعة باللجاج[4] ، ولا النصيحة بالاحتجاج .

---

(١) الأصل والجذر .

(٢) ما يطويه الإنسان فى صدره .

(٣) تمكن من الحكم والملك .

(٤) الإلحاح .

أما أنا فقد بذلت جهدى، وأديت فى النصيحة ما عندى، وكشفت عن مخدرات[١] التحقيق أستار السبك[٢]، وكررت على محَك التصديق آثار الحِك[٣] ، فإن وعيتم كلامى يسمع حى، فقد تبين الرشد من الغى، وإن أعرضتم عن عين اليقين فلا إكراه فى الدين.

فتصدى الوزير للكلام، وحسر عن ثغر بيانه اللثام[٤]، وبرز فى ملابس الملاينة والخداع، وسلك بخبث الطباع طرق الملاطفة والاصطناع، ودس السم فى الشهد ونزل من اليفاع[٥] إلى الوهد، وقال: الحمد لله الكريم الذى مَنَّ على مولانا الملك بهذا الأخ الحكيم، الفاضل الحليم، الكامل العليم، الناظر فى العواقب، ذى الرأى المصيب والفكر الثاقب، فلقد بالغ فى النصيحة بعباراته الصحيحة، وإشاراته المليحة وكل شىء أبداه إلى المسامع وأنهاه، هو الذى يرتضيه العقل، ويرضيه العدل ويقبله الطبع القويم؛ إذ هو المنهج المستقيم، يترتب عليه الذكر الجميل، ويحصل به الثواب الجزيل، لكن الذى نعرفه فى حفظ الرياسة وإقامة ناموس السياسة، هو الذى عليه القوم فى هذا اليوم، وجرت عليه عادات الأكابر، وانخرط فى سلكه الأصاغر[٦]، فإن الزمان فسد، والفضل فيه كسد، وزاد فيه الحق والحسد، وتشرب المكر والأذى الروح والجسد، وكل فى الروغان ثعلب، وفى العدوان أسد، وصار هذا مقتضى الحال والمحمود من الخصال، والمطلوب من الرجال. والناس يدورون

---

(١) مخدرات، مفردها مخدرة: مستورة. أى ما خفى وستر من الحقائق .

(٢) سبك الفضة، صهرها ووضعها فى قالب وأراد: كشف ما خفى من أسرار الصنعة .

(٣) الشك .

(٤) أى شرع فى الكلام .

(٥) اليافع: التل المرتفع، والوهد: المكان المنخفض. والمعنى: نزل من السمو والعلو فى مرام الكلام إلى الدنو به .

(٦) الأصاغر، مفردها صغير: الحقير الوضيع .

بزمانهم بقدر مكانهم وإمكانهم، وقد قيل: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وبعض السياسات عند أهل الرياسات؛ يقتضى العقوبة بالتغريم[1] وأخذ المال بالترسيم[2]. ولولا عفو الملك عن المجرم ما طمع كل مؤذ ومجرم، ومن الحماقة والبله معاقبة من لا ذنب له، فإن وَضْعَ الأشياء فى محلها، وزمام الأمور والمناصب فى يد أهلها؛ هو أحد قوانين الشرع والسياسة، ومقتضى العقل والكياسة، والعدل والرياسة، والعقل والفراسة، والفضل والنفاسة[3]، وناهيك أيها الحكيم الفاضل قول القائل :

وَمَنْ لاَ يَـــذُد عَـــنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِـــهِ   يُهْدَمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمُ النّاسَ يُظْلَـــمُ

وما قيل :

لا يَسْلَمُ الشَّرفُ الرَفِيعُ مِنَ الأَذَىَ   حَتَّى يراقُ عَلَى جَوَانِبُـه الـــدمُ

ومن مقالات الملك أتابك أردشير بن بابك[4]: رب إراقة دم تمنع من إراقة دم .

وفى أمثال العرب: القَتْلُ أَنْفَى لِلقَتْلِ .

وقيل :

لَعَلَ عَتْبُكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبِهِ   وَربّما صَحَتُ الأَجْسَادِ بِالعِلَلِ

---

(١) الغُرْم: ما يلزم أداؤه من المال .

(٢) الرَسْم: الأمر، وهو عند أهل الجباية: ما يؤخذ على البضائع ونحو ذلك ويعرف بالمكس .

(٣) الشرف والمجد .

(٤) أردشير بن بابك؛ مؤسس دولة الساسنيين سنة (٢٢٤م) فى بلاد الفرس، وهو من فرض الديانة الزرادشتية فى البلاد، هلك (٢٤١م) .

وهذا كله مصداق قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وناهيك يا ذا القدر الخطير قصة قابوس بن بشكمير[١]. قال الحكيم للوزير: أخبرنى أيها الدستور الكبير بكيفية ما أنت إليه مشير.

[٥] **قال الوزير:** ذُكر أن قابوس بن بشكمير ذاك الأسد المنير، قبض على جماعة كانوا جبذوا أيديهم من الطاعة، من أركان دولته وبنيان صولته، ثم قيدوه وحبسوه، وأقاموا ولده مقامه وأجلسوه، ثم إنهم لم يأمنوا غوائله[٢] وأفكاره الصائلة[٣]، فتآمروا أن يسبكوه ويعمدوا إلى دمه فيسفكوه[٤]، فأرسلوا إليه قاتلاً؛ فوثب إليه سائلاً، وقال له: ما سبب قتلى ومانابهم من أجلى مع كثرة إحسانى إليهم، وانسبال ذيل إكرامى[٥] وإنعامى عليهم، وتربيتى اياهم كالأولاد وفلذ الأكباد، وصونى إياهم عَمَّن آذاهم .

فقال: كثرة إراقة الدماء أهاجت عليك الغرماء، وأكثرت لك الخصماء. لما تغيرت خواطرهم عليك خافوا وقبل أن تحيف[٦] عليهم حافوا.

فقال قابوس: والله ما سبب هذا النكد والبؤس وإثارة هؤلاء الخصماء إلا قلة إراقتى للدماء. يعنى لو أراق دماء القائمين عليه لما وصل هذا المكروه إليه. فلما أبقى عليهم أفنوه، وحين ترك آذاهم آذوه.

وإنما أوردت هذا التنظير؛ ليقف خاطرك الخطير، أن أمور الرياسة،

---

(١) قابوس بن بشكمير؛ أمير من أسرة بنى زيار حكم جرجان وطبرستان، وكان أديبا، شاعراً. توفى (١٠١٢) م .

(٢) غوائل، مفردها غائلة: المكر .

(٣) أفكاره النافذة .

(٤) يهدروه ويقتلوه .

(٥) انسال إكرامه وجوده لهم

(٦) الجور .

وقواعد السياسة كانت تقتضى السبك، وأحرى بالعفو والترك؛ وأما الآن فذلك الحكم قد انتسخ(١)، والفساد فى قلوب العباد رسخ.

وقد قيل:

تُلْجَى الضَرورَاتُ فِى الأمُورِ إلَى سُلُوكِ مَالاَ يَلِيْقُ بِالأدبِ

ومزاج الزمان قد تغير، والمعروف قد تنكر، وقد أعرضوا عن طاعة السلطان، واتبعوا مخادعة الشيطان، وكلٌ منهم قد شرخ وباض الشيطان فى أذنه وفرخ(٢)، وتصور لخيالاته الفاسدة ومحالاته الكاسدة أنه بما يكيد يبلغ ما يريد وهيهات وشتان :

لقد هَزُلَت حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كَلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلّ مُفْلِسِ(٣)

وهذا كما قال الله تعالى ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً**﴾ [النساء: ١٢٠].

وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى، وألبسه من خُلع جبروته كمالاً وجلالاً، وجعلهم بأموره قائمين وبِعَيْن عنايته ملحوظين، وكما أن الرسل والأنبياء والسادة الأعلام الأصفياء هم صفوة الله من خليقته، ومختاروه من خير بريته، من غير كد ولا جهد، ولا سعى منهم ولا جد، ما برطلوا(٤) على النبوّة والرسالة، ولا رشوا على نيل هذه الكرامة والنبالة؛ إنما هو محض فضل من الله تعالى وعناياته ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) بطل وألغى .

(٢) أى تملكه الشيطان .

(٣) كلاها: قرب هلاكها. وسامها المساومة على الشراء .

(٤) البرطلة: الرشوة. أى ما قاموا بها حتى يحصلوا على النبوة والرسالة .

كذلك الملوك والسلاطين والقائمون بإقامة شعائر الدين، هم ممن اختاره الله على خلقه، وأجرى على يديه لهم بحار كرمه ورزقه، والسلطان ظِلُّ اللَّه فى أرضه يُجرى بين عباده شريعة نفله وفرضه، قال من له الخلق والأمر ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد غفل أهل هذه الممالك عن السلوك فى هذه المسالك، وعن درك هذه الحقائق، وأعرضوا عن الدخول فى أحسن الطرائق، وهى طريق المحاشمة[(١)] والصفح والمكارمة، وعَدُّوا المكر من أحسن الرياسة، والعقل والكياسة، والتحيّل لأكل أموال الناس من الذكاء، ومظالم العباد من خلال الصدق والصفاء، وتملقهم للملوك والسلاطين من أسباب الوصول إلى الأغراض، مع تحسين الظواهر وفى البواطن أمراض، فظواهرهم ظواهر الإنس تشتمل على المودة والأُنس، وما فيهم تحت الثياب إلا كلاب وذئاب، ولأجل هذا سلطنا الله عليهم ومَدَّ يَدَ بطشنا إليهم، نعاملهم بالفراسة، ونعمل بما تقتضيه الكياسة، وتصوبه الآراء السلطانية من قواعد السياسة .

قال الحكيم حسيب، بعدما أدرك مافى هذا الكلام من نُكْر غير مصيب: اعلم أيها الوزير، النافع الناصح، والدستور الشفيق المصالح؛ أن الرعية بمنزلة السرج[(٢)]، والملك بمنزلة الشمس فى البرج، وإذا تلألأ على صفحات الأكوان، وأنار فى وجه الزمان والمكان أشعة نور الشمس الوهاج، فأى شعاع ووجود يبقى للسراج. وإن أنوار قلوب الرعايا، وما يحصل لها من إشراق ومزايا؛ إنما هى من فيض أشعة ملوكهم، وإن الرعية تتبع الملوك فى سلوكهم، فإذا صفت مرآة قلب السلطان، أشرقت بالطاعة قلوب الرعايا والأعوان، بل الزمان والمكان تابعان لما يضمره وينويه السلطان.

---

(١) الأدب والحياء .

(٢) السُرُج، مفردها السرَاج ما يوضع فيه زيت المصباح .

وقد قيل: إذا تغير السلطان تغير الزمان. وهل أتاك أيها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور. قال الوزير: أخبرنا يا باقعة(١) كيف كانت تلك الواقعة.

[٦] **قال الحكيم:** أخبرني شيخ عليم بالفضل مشهور، أن بهرام جور، وكان ذا أيد عزم على الصيد، فخرج في عسكر جرار، واستوى في الصحاري والقفار(٢)، وبينما هم قد تفرقوا فما شعر إلا وقد حركت يد الشمال غربال المطر، ثم تراكم من السحاب على وجه عروس السماء النقاب، وانهلَّ الغمام المدرار، وصارت الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار، وأقبلت سوابق السيول تجري في مضمارها الخيول، فتشتت العساكر وتشوشت الخواطر، فقصد بهرام جور كفراً من الكفور، وطلب القِرَى(٣) من تلك القُرى، منفرداً عن عسكره مخفياً من خبره، فنزل بيت الرئيس؛ وهو رجل خسيس، فلم يقم من حقه بالواجب لأنه لم يعلم ذلك الراكب، فتشوش خاطره، وتكدرت ضمائره، وتغيرت عليهم نيته وإن لم تتغير بشريته.

فلما أقبل الليل جاء الراعي، وهو يدعو بالويل، ويشكو كثرة المِحَن من قلة اللبن، وذكر أن المواشي لم تدِّر ضرعاً مع أن رعيتها كانت أحسن مرعى، ولا وُقف لذلك على سبب، ولا دُرى كيف حال حالها وانقلب.

وكان للرئيس بنت تُخجل الأقمار بخدها، وتقصف الأغصان على قدها. فلما سمعت كلام الراعي قالت: والله أنا أعرف السبب والداعي، وهو أن السلطان الذي نيته حفظ أوطاننا تغيرت نيته علينا، وتقدم ضميره بالسوء إلينا، فظهر النقص في ماشيتنا وسيتعدى ذلك إلى أنفسنا وحاشيتنا. وقد قيل: إذا هَمَّ

---

(١) الداهية، شديد الذكاء .

(٢) القفار، مفردها قفر: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ .

(٣) الضيافة .

الحاكم بالجور على الرعايا، أدخل الله النقص فى أموالهم، حتى الزروع والضروع.

قال أبوها: فإذا كان الأمر كذلك فلا مقام لنا فى هذه الممالك، فالأولى أن نتحول عن هذا المكان إلى مقام لا يضمر فيه سوء لرعيته السلطان، ونستريح فى ظل حاكمه ونرعى فى مسارح مكارمه. كل هذا وبهرام يصغى إلى هذا الكلام .

فقالت البنت: إن كان ولابد من الانتقال واقتعاد مطية الارتحال فما نصنع بهذه الأثقال والأزواد الثقال، نقدم لهذا الضيف منها يحصل التخفيف عنها، ويقع بذلك فائدتان، إحداهما: حسن المضيف. وثانيتهما: التخفيف. فامتثل أبوها أمر بنته، ونقل إلى الضيف ما حواه ببيته من طعام وشراب ونَقْل[1] وكباب، وبسط بساط النشاط، وأخذ فى دواعى الانبساط، وانتقل من المحاشمة إلى المكالمة والمنادمة، وعمل بموجب ما قيل:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللذَاتِ إلاّ أَحَاديث الكِرَام عَلَى المُدَامِ[2]

فلما هجم جيش السُكْر، وهزم جند العقل والفكر، تذكر بهرام مجالسته ومؤانسته فيها ومحادثته وما فيها، من مغازلة الغزلان، وأصوات الأغانى والقيان[3]، فأبانت حشمة السلطنة عن مضمرها، وتفوه بشىء يلوح بمخبرها وشاقت نفسه إلى معتادها فأعرب شطحها عن مرادها، وقال للرئيس: أيها النديم الكيس، لو كان لنا من يطربنا بصوته، ويبهجنا بصورته، ولو أنها وصيفة أو ذو صورة لطيفة، ولا نطلب زيادة عن النظر، وحسن المفاكهة

---

(١) ما يؤكل على الشراب كالفستق والتفاح .

(٢) جلسة الشراب .

(٣) القيان، مفردها قينة: الأمة ذات الصوت الجميل .

والسمر والمنادمة إلى السحر؛ لزالت وحشة الاغتراب، ودهشة حدة الشراب فإنه قيل: الشراب بغير نغم غَمّ، وبغير دسم سُمّ، وإن مذهبنا ما قيل :

أتأذنون لصب في زيارتكم فإنكم في محل السمع والبصر[1]
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عفُّ الضمير ولكن فاسق النظر

فنهض الرئيس، وترك مذهبه الخسيس، واستعمل المروءة، وسلك سبيل الفتوة، وأنشد يقول :

وكُلّ قِيَادَةٍ لأخ وخِلّ بلاَ جَعَل فتَلْكَ مِنَ المُرُوءةِ

وأخطر البال ما نظمه الشاعر وقال :

يا نَاظمَ الشّعْر فِي مَقَامٍ فَتَى يَقُودُ فَاسمَعْ مَقَالةَ الظُرفَا
ألفٌ هذا حُروفهِ سَمحتْ هَمَةَ هَذَا فَأَلفَ الحُرفَا

ومن مذهب المجوس إباحة فِرْج العروس فدخل في بيته وذكر ما جرى بينه وبين ضيفه لبنته، وقال: أي ربيبة الحسن والاحسان، أظن أن ضيفنا من أكابرة الأعيان، ومقره في حضرة السلطان، وقد ألتمس منِّي ما يزيد سروره ويفيد حضوره حبوره[2]، ويلهيه بمفاكيته وحسن منادمته، وما عندنا من يصلح لذاك؛ أي مادة السرور سواكِ، وأنا أعرف بعفتك، ونزاهتك، وحسن محاضرتك، ومفاكهتك، وصيانة رأيك، ورزانة عقلك، وذكائك، فإن رأيت أن تمتعيه بالنظر إلى جمالك، وتعتنيه بغنجك[3] ودلالك، ولو بلحظة أو بلفظة، ثم تعودى إلى كُناسك[4] بين أهلك وناسك.

---

(١) الصب: العاشق الولهان .
(٢) السرور .
(٣) الغنج: الدلال .
(٤) المنزل .

فقالت: الأمر منك وإليك، وما أريد أن أشق عليك، وليس فى ذلك عار، ولا فى خدمة الضيف وإكرامه شنار[١]. فأجابت أباها، وكان ذلك عن رضاها؛ بل جل قصدها ومناها. فأقبلت إلى خدمة الضيف، ولعبت معه من لحاظها وقدها بالرمح والسيف، إلى أن صادته بلحظها المكسور[٢]، فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور، وكان قد خرج للصيد فَصيد، وصار مع سلطانه لها من جملة العبيد، ثم إنه أنشد يقول :

أَرَى مَاءً وَبِى عَطَشٌ شَدِيدٌ   وَلَكن لاَ سَبِيلَ إِلى الوُرُودِ

ثم قرر فى ضميره أنه إذا وصل إلى سريره، يطلب هذا الرئيس ويصاهره، ويقطعه هذه القرية ويعاشره، ويجعل بنته خوندة[٣]، ويسلم إلى أبيها جنده، فما استتم هذا الخاطر الخطير حتى جاءهم الراعى المستجير، وقال: إن الغنم التى ما بضَّت بقطرة[٤] ولا درت درة، قد امتلأت ضروعها القاحلة، فها هى دارة حافلة، قد صارت كالسيول على السابلة[٥]، فلم يبق وعاء إلا امتلأ، وقد روى من الجيران الملأ، وهاهى تشخب[٦] وتسيل، وفاضت فأروت الحقير والجليل، وأغنت الجيران وكأنها غدران.

فقالت بنت الرئيس: لله الحمد والتقديس الذى أصلح نية سلطاننا؛ حتى استقررنا فى أوطاننا، وعاد علينا ما سُلِبناه، ورجع إلينا ما طلبناه، فعجب بهرام جور من هذه الأمور. ولما أصبح الصباح وركب وراح؛ استقر فى

---

(١) عار .
(٢) اللحظ: النظر بمؤخرة العين .
(٣) أى ملكة (فارسية) .
(٤) أى لم يخرج منها اللبن .
(٥) الطريق الذى يسلكه الناس .
(٦) تسيل وتفيض .

ولايته الزاهرة، ومضى ما كان أنواه من المصاهرة، وأسبل عليه ذيل الإنعام وزاد له من الإكرام ما انتظم به أمره واستقام .

وإنما أوردت هذا الخبر؛ لتعلموا أن الزمان فى المجيء والممر، مطيع لما أضمر السلطان وما أظهر، وما أحلاه فى أمر رعيته وما أَمَرَّ؛ .

وقد قيل: عدل السلطان خير من خصب الزمان. وإذا لم يكن الملك برعيته شفيقا، ولا بارا ولا رفيقا، ولم يتجاوز عن مسيئهم، متلهفا لدعائهم، مشغوفا بمحبتهم، محسنا لمحسنهم، قائما يحفظ مأمنهم؛ فالأولى بهم أن يهاجروا عن مملكته ويخرجوا عن إقليم ولايته.

قال رب العالمين لنبيه وحبيبه سيد المرسلين ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فينبغى للحاكم أن لا يؤاخذ أحد بجريرة أحد ابدا، قال الله جل ذكراً ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولو طُلب أحد بجريرة أحد، ولَحَق البرىء بسبب المذنب عقوبةٍ ونكد؛ لفسدت المملكة وانتشرت المهلكة، واضطربت الرعية، وانخرمت القواعد العلية؛ ولو فُعِل ذلك المتقدم من الملوك؛ لهلك الصعلوك، وانسد الطريق المسلوك، وانخرمت القاعدة على المالك والمملوك، ولم يبق للتاجر شيء، ولا على وجه الأرض حى.

ويجب على من باشر عند الملوك أمرا من الأمور، أو حكما على الجمهور، وأن يكون فى دينه متينا، وعلى الناس أمينا، سديد الفكر، قويم النظر، صدوق النطق، ظاهر الصدق، دائرا مع الحق يقظان، مراقب فى خواتيم أمره والعواقب، عادلا بين الأخصام، شفيقا على الخاص والعام، ثابتا فى النوازل، معدود فى البوازل، مشغولا بتهذيب نفسه، متذكرا يومه

فى غده وأمسه ، متميزا بالشمائل المرضية على أبناء جنسه ، واضعا الأشياء فى محلها ، متفصِّحاً بنفسه عن جلِّها وقلها ، مقيماً كل أحد فى مقام لا يتعداه ومنصب معلوم لا يتخطاه ، حتى تستقيم بذلك أمور المملكة ، وتصان من الوقوع فى مهاوى التهلكة ، ويطمئن خاطر مخدومه ، ويركن إليه فى منطوق قوله ومفهومه فيقبل قوله وفعله ويعرف فصله وفضله .

وكذلك يجب أن يكون الملك كريم الأعراق ، لطيف الأخلاق ، شريف الأعلاق[١] ، وأن يكون فى جميع أحواله متمسكا بذيل أفضاله ، مراعيا سيرة أجداده من الملوك ، سالكا طريقة الملوك من حسن السلوك ؛ لأن من لا يشيد أركان أسلافه ، ولا يقوى بنيان أشرافه ، يصيبه مثل ما أصاب الذئب مع الجدى المغنى المصيب . فسأل الملك من أخيه أن يذكر ذلك المثل وينهيه.

[٧] **فقال** : بلغنى يا مليك الأراض أنه كان فى بعض الغياض[٢] لذئب وجار أهل وجار ، فخرج يوما لطلب الصيد ونصب لذلك شباك الكيد ، وصار يجول ويصول ولا يقع على محصول ، فأثر فيه الجوع واللغوب[٣] ، وآذنت الشمس بالغروب ، فصادف بعض الرعيان يسوق قطيعين من الضان ، وفيهما بعض جديان ؛ فهم عليها لشدة الجوع بالهجوم ، ثم أدركه من خوف الراعى الوجوم[٤] ؛ لأنه كان متيقظا وعلى ماشيته متحفظا ، فجعل يراقبه من بعيد والحرص والشره[٥] يزيد ، والراعى سائق والذئب عائق ، فتخلف جدى غبى غفل عنه الراعى الذكى ، فأدركه الذئب النشيط واقتطعه بأمل بسيط ، وبشر نفسه بالظفر وطار واستبشر .

---

(١) الأنساب .

(٢) الغياض ، مفردها غيضة : البستان .

(٣) الإعياء والتعب .

(٤) عبس وجهه وأطرق لشدة الخوف .

(٥) الطمع .

فلما رأى الجدى الذيب علم أنه أصيب بيوم عصيب ، وظفر منه بأوفر نصيب ، فتدارك نفسه بنفسه واستحضر حيلة جاشه وحدسه[١] ، ومكره بما أضمره فى نفسه ، وعلم أنه لا ينجيه من هذه الورطة الوبيلة ؛ إلا مغيث الخداع والحيلة ، وأذّكّر الخاطر ما قال الشاعر :

وَلَكِن أَخُو الحَزْمِ الّذِى لَيْسَ نَازِلاً بِهِ الحَطْب إلاّ وَهُو بِالقَصْدِ يُبْصِرُ

فتقدم بجاش صليب[٢] ، وقبل الأرض بين يدى الذيب ، وقال : محبك الراعى لجنابك داعى ، يسلم عليك وقد أرسلنى إليك ، يشكر صداقتك وشفقتك وحشمتك ومرافقتك ، ويقول : قد تركت بحسن آدابك عادة أجدادك وآبائك ، فلم تتعرض لمواشيه وحفظت بنظرك حواشيه[٣] ، وقد حصل لضعافها الشبع وأمست بجوارك آمنة من الجوع والفزع ، وحصل لها الأمن من الجزع فالله يجعل جوارك وغياضك أحسن مجتمع ؛ لأن عِجَاف ماشيته[٤] شبعت ورويت واستنعشت وقويت ، فأراد مكافأتك ، وتطلب مصافاتك ومصادقتك ، فأرسلنى إليك لتأكلنى وأوصانى أن أطربك بما أغنى ، فإنى حسن الصوت فى الغناء ، وصوتى يزيد فى شهوة الغذاء ، فإن اقتضى رأيك الأسعد غنيتك غناء يُنسِى أبا إسحاق[٥] ومعبد[٦] ، وهو شيء لم يظفر به أباؤك ولا أجدادك ، ولا يناله أعقابك وأولادك ، يقوى كرمك وشهوتك وقرمك[٧] ويطيب مأكلك ويسنى

---

(١) التخمين والظن .

(٢) الثبات .

(٣) خواصه .

(٤) الضعيف منها .

(٥) أبو إسحاق ، إبراهيم بن ميمون الموصلى : من أشهر موسيقى العرب ، برع فى الغناء والعزف على العود ، نادم المهدى والهادى الرشيد وعرف بالنديم ت [٧٤٢ : ٨٠٤م] .

(٦) معبد ، أشهر مغنى فى العصر الأموى ، نشأ بالمدينة وارتحل إلى الشام ، واتصل بكثير من أمراء بنى أمية توفى سنة (٧٤٣م) .

(٧) العض .

مـأملك ، وإن صوتـى للذيـذ ألـذ للجـائع مـن جـدى حنيـذ[١] بخـبز سـميذ[٢] ، وللعطشان من قدح نبيذ ورأيك أعلى وامتثالك أولى .

فقال الذئب : لا بأس قد أجبت سؤالك فغـن مـا بـدا لـك ، فرفـع الجـدى عقيرتـه[٣] ، ورأى فـى الصيـاح خيرتـه ومـلأ الدنيـا عياطـاً وأعقبـه ضراطـا وأنشد:

وَعَصَقُورُ الهَوَى يَهْوَى جرَادة   كَمَا عَشَقَ الخَروفُ أبا جُعَادة[٤]

فاهتز الذئب طربا وتمايل عُجْبا وعَجَبا ، وقال : أحسنت يـا زيـن الغنـم ولكن هـذا الصـوت مـن ألـم ، فـارفع صوتـك فـى الزيـر فقـد أخجلـت البلابـل والزرازير[٥] ، وزدنى يا مغنى قولى :

أقـــرَّ هَـــذَا الزَمـــانَ عَيْنِـــى   بالجَمْـــع بَيْنَ المُنَـــى وبَيْنِـــى

وليكـن يـا سيدى المغنـى هـذا مـن أوج الحسـينى[٦] ، فـاغتنم الجـدى الفرصـة ، وأزاح بعياطـه الغصـة ، وصـرخ صرخـة أخـرى إذ كـره الطامـة الكبرى ، ورفع الصوت كمن عاين المـوت ، وخـرج مـن دائـرة الحجـاز إلـى العراق وكاد يحصل له من ذلك الانفتاق وقال :

قِفُـوا ثُم انظُـروا حَالِى   أبُـو مذَقـتة أكَـالِى[٧]

فسمعه الراعى يشدو فأقبل بالمطراق يعدو ، فلم يشـعر الذئـب الذاهـل

---

(١) مشوى .
(٢) سميذ : من أجود أنواع الدقيق الأبيض .
(٣) صوته .
(٤) أبو جعادة : كنية الذئب .
(٥) الزرازير ، مفردها زرزور : العصفور الصغير .
(٦) الأوج : العلو ، والمعنى تعلية الصوت مع تحسينه .
(٧) أبو مذقة : كنية الذئب .

وهو لحسن السماع غافل ؛ إلا والراعى بالعصا على قفاه نازل ، فرأى الغنيمة فى النجاة وأخذ فى طريق النجاة ، وترك الجدى وأفلت ونجا من سيف الموت المصلت ، وصعد إلى تل يتلفت بعد إذ تفلت فأقعى[1] يأكل يديه ندامة، ويخاطب نفسه بالملامة ، وقال: أيها الغافل الذاهل والأحمق الجاهل متى كان على سماط[2] السرحان الغناء والأوزان ، وأى جَدٌ لك فانى ، وأب مفسد جانى ، كان لا يأكل إلا بالأغانى وعلى صوت المثالث والمثانى[3] ، فلولا أنك ما عدلت عن طريقة آبائك ما فاتك لذيذ غذائك ، ولا أمسيت جائعا تتلوى، وبجمر فوات الفرصة تتكوى ، وبات يحرك ضرسه ونابه ، ويخاطب نفسه لما نابه ويقول :

وعَاجزُ الرأى مُضياعٌ لِفُرْصَتِهِ حتَّى إذَا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

وإنما أوردت هذا النظير ؛ لمولانا الملك والوزير ؛ ليعلم أن العدول عن طرائق الأصول ليس إلا داعية الفضول ، ولا يساعده معقول ولا منقول، وأموره ذميمة وعاقبته وخيمة ، رناهيك ماهو كالعلم ، ومن يشابه أبه فما ظلم.

ويؤخذ من مفهوم هذه الحكم : أن من لم يشابه أبه فقد ظلم ، خصوصا الملوك والسلاطين ، الذين اختار رفعتهم رَبُّ العالمين ؛ وذلك لئلا يدخل على قواعد المملكة من حركات الاختلال والاختلاف حركة ولله ياذا الإحسان ما قيل فى شأن الملك أنوشران :

لِلهِ دُر أنوشروان مِنْ رَجُل مَا كانَ أعْرفهُ بالوغدِ والسفل
نَهَاهــمْ أنْ يَمَسُّــوا عِندهُ قَلَمَــا وَأنْ يَذل بَنُو الأحــرار بالعَمَــل

وكل هذا من عدم التدبر والتأمل فى العواقب والتذكر ، ومن ترك التأمل والافتكار أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار . فقال الملك : أفِدْنَا أيها المختار كيفية هذه الأخبار .

---

(١) جلس على مؤخرته .
(٢) بساط الطعام .
(٣) المثالث والمثانى : الألحان التى تعزف على العود ذى الوترين والثلاثة .

[٨] **قال الحكيم** : كان فى جوار بستان مأوى لابن آوى ، وكان ذلك البستان كأنه قطعة من الجنان غفل عنها رضوان ، كثير الفواكه والرطب ، خصوصا التين والعنب ، وكان ابن آوى يدخل البستان من مجرى الماء ، ويأكل الثمار كيفما أحب واختار ، وينصرف ذلك الخبيث ويأخذ فى الفساد ويعيث ، كأنه ذميم ترك الذمام ، أو لئيم من بنى اللئام .

فتضرر البستانى من إضرار ذلك الجانى ، وعجز عن صيده ودفع كيده ، فراقب دخوله ليختله[١] ويغوله[٢] ، إلى أن رآه يوما دخل ، وفى البستان حصل ، وبأكل العنب اشتغل ، فبادر إلى نقرة الماء فسدها وسد الطرق التى أعدها ، ودخل إلى الباغى وحصل ذلك الطاغى وحصره وأوهنه وضربه إلى أن أثخنه[٣] ، فذهبت قواه وشلت يداه ورجلاه فتصور أنه مات لما سكنت عنه الحركات ، فأشحطه بذنبه[٤] ، ورماه وعلى العظام الرفات ألقاه . فاستمر لا يفيق ملقى على الطريق ، إلى أن تراجعت إليه نفسه وقوى جأشه ، وحسه فتحرك وهو هشيم وتنفس وهو سقيم ، ثم تدحرج إلى منزله وقد أحاط به سوء عمله ، إلى أن صح فهمه وقوى جسمه ، فافتكر فيما جرى من الجار القديم عليه من العذاب الأليم .

فقال : إذا كان جار العمر وقرين الدهر قصد دمارى ، ولم يرع لى حق جوارى ؛ لأجل قوت فَضُل عن أقواته ، وأثبت أجره فى ديوان حسناته ، وشد لحتفى على حلقى مسدَّ الطُّنَبِ[٥] ولم يعمل بقوله تعالى ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] . بل لو رمق فى بدنى أدنى رمق[٦] ، أو أقل حركة لما تركه ، فلا خير لى فى جواره ولا قرب داره ، فإن سلمت هذه المرة فما

---

(١) ليخدعه .

(٢) يمكر به ليقتله .

(٣) آلمه .

(٤) سحبه .

(٥) الحبل الشديد .

(٦) ما بقى له من حياة .

كل مرة تسلم الجرة ، والأليق بالحال الترحال ، وطلب الرزق بالتوكل والرفق، والذى شق الأشداق تكفل لها بالأرزاق ، وإن إله الخلق لم يعذب بقطع الرزق.

ثم إنه افتكر فى جهة السفر وأين تكون المستقر ، وكان لأبيه الذميم ذئب وهو صاحب قديم ، ساكن فى بعض الغياض المجاورة للدَّرَج[1] والرياض ، فتوجه إليه وترامى عليه ، وتوسل بصحابة أبيه لديه ، وقال : صداقة فى الآباء قرابة فى الأبناء وذكر له حاله وما جرى له ، وأن جاره خانه ولم يرع حقه ومكانه ، فقصد أن يكون تحت ظله نازلا فى محله ؛ ليفوز بمجالسته ويحظى بمؤانسته ، ويقضى باقى عمره فى خدمته ، ولا يفارق وفاءه حتى يحصل فى حفرته ، فتلقاه بالقبول والإقبال ، والفضل والإفضال ، والبشر والبشاشة ، واليسر والهشاشة[2] ، وبسط له فراشه ، وأزال قبضه وانكماشه ، ودهشته واستيحاشه ، وألبسه رياشه[3] ، وتذكر والده وجدد مَعَاهِده ، وأسدى إليه من إحسانه ما أنساه ذكر أوطانه ، خصوصا جوار جاره وبستانه وأنشده بديها :

فــأَهْلاً بمَحْبُــوبٍ قَدِيــم ودَادِهِ وَسَهْلاً بمَنْ قَدْ كَـانَ وَالـدَهُ أَبِــى
تَحكُم عَلَى مَالِي وَرَوْحِي وَمَسْكَنِي وَأَهْلِي وَأَوْلَادِي وَجَاهِي وَمَنْصِبِي

ولم يكن عند الذئب ما يطعمه ضيفه ويشبع جوفه ، فاستعد للكياد[4] ، وعزم على الاصطياد .

فقال ابن آوى : أين تريد وتتركنى وأنا وحيد . فقال : أمنت خوفك فأريد أن أشبع جوفك ، ومن المعلوم أن عدم الضيافة لوم .

---

(١) الطريق .
(٢) الانبساط .
(٣) الثياب الفاخر .
(٤) المكر والخبث .

فقال : لا تتعب فأنا أذهب ، فلى صاحب حمار كأنه تيس مستعار ، يصغى إلى قولى ويعتمد على قوتى وحولى ، فإنى أخدعه وإلى دارك أشيعه، فأوثقه حبالك وافعل معه ما بدا لك ، فصيره لنا طعاما فإنه يكفينا أياما . فاستصوب الذيب رأى ذلك المريب ، وتوجه ذلك الغدار ليأتيه بالحمار ، وصعد تلا ينظره ويرتقب ما يكون خبره .

ولما توجه ابن آوى لطلب الزبون(١) انتهى فى سيره إلى طاحون ، وإذا بحمار قد أوثقوه حبلا وأوسعوه ذلا وعلى ظهره حِمّل قد قصم ظهره وأدمى دبره ، فطرحوا حمله واصلحوا جله وتركوه يسعى وفى المرج يرعى ، فتقدم ابن آوى إليه وسلم سلام معرفة عليه ، وأظهر له المحبة والوداد وسأله عن أهله والأولاد .

فقال له : أى أهل وولد وأنا فى هذا البؤس والنكد ؛ ما بين حمل ثقيل وجوع طويل ، وركوب وَسَخر ومصائب أُخَر ؛ هذا يركب وهذا يضرب ، وهذا يسحب ، وهذا يحمل حمله ، وهذا ينخش بالمسلة(٢) ، وهذا يحبس على الجوع والذلة ، وهذا يقود بحبله وهذا يردد بثقله ، وهذا يجود ، ولكن بكلام ثقيل فكأنى فى مشاقى كما قيل :

ولاَ يُقيم عَلَى ضَيْم يُـراد بـهِ ... إلاّ الإذلان عِـيْرُ الحـىّ والوتـدُ(٣)
هذا عَلَى الخَسفِ مَرْبُوط بِرمتِهِ ... وذَا يَشْج فَلاَ يَرْثَى لَهُ أَحَـدٌ(٤)

فتفجع ابن آوى وتوجع ، وحولق(٥) واسترجع ، والتهب واضطرم ،

(١) الزّبون : الغبى الأبله ، وقصد به الحمار .
(٢) الإبرة الكبيرة .
(٣) الضيم : الظلم .
(٤) الخسف : الإزلال . والرمة : الحبل . والشج : الشق إلى نصفين .
(٥) الحولقة ، أو الحوقلة ؛ نحت خطى بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأظهر التحرق لما رآه من الألم ، وأخذ يلومه على صحابة بنى آدم والمصابرة على ما يلجئه إلى الندم من إيذائهم وجفائهم وتحمل بلائهم وعدم وفائهم ، وقال له : ختام هذا الذل ، والتطوق بهذا الغل[١] ، وتحمل أنواع الهوان من البعض والكل ، وإلام هذا العطش والجوع ، وعدم القرار والهجوع ، وأرض الله واسعة الفضاء شاسعة الأرجاء ، وحتام تذوب من اللغوب[٢] تحت هذا الحمل الثقيل ، والجور العريض الطويل .

فقال : لو وجدت ملجأ ، أو مسرحا ، أو مدخلا ، أو مطرحا ، أو مغارات ، أو منجح ؛ لوليت إليه وأنا أجمح ، وتخلصت من هذا البلاء العظيم والشقاء الجسيم ، ولو رأيت أحدا شفيقا ، أو مصافيا صديقا يهدى إلى الخلاص طريقا ، لاستغنيت بآرائه ولاستشفيت لدائى بدوائه . قال ابن آوى : يا أكمه[٣] إنى أعرف بالقرب أجمة[٤] ، أزهارها فائحة ، وأنوارها لائحة ، وأنهارها بالصفاء غادية ورائحة ، غياضها نضرة ، ورياضها خضرة، ورباها[٥] حصينة ، وذراها أمينة ، وأنا ساكن فيها آمن فى ضواحيها ونواحيها ، فإن اقتضى رأيك ذهبت بك إليها لتقف عليها ، فإن أعجبتك سكنتها ووقيت النوائب وأمنتها ، فإنها بمعزل عن السباع الجواسر ، والضباع الكواسر[٦] ، والجوارح النواسر ، لا يطرقها إنسان ولا يدخلها حيوان ، وسترى من خير جار وحسن الجوار ، وستحمد عاقبة مقالى وما تراه من أفعالى ، وتخلص من جفاء بنى آدم وتبقى فى نعيم منعم ، وتعيش معناً فى عيش رغيد وعمر هنىء سعيد ، وتحصل المؤانسة ويُمْنُ المعاشرة والمجالسة. وأما أنا فلا أجد رفيقاً مثلك ، وليس لى إلى صديق غيرك مسلك .

---

(١) القيد .

(٢) الإعياء .

(٣) الأكْمَهُ : المولود أعمى ، وتكما : أى ذهب لايدرى أين يتوجه .

(٤) الشجر الكثيف الملتف .

(٥) الربى ، مفردها ربوة : وهو ما ارتفع منها .

(٦) الكواسر ، مفردها كاسرة ، وهى غالباً ما تطلق على الطيور الجارحة ، اشدة الافتراس .

فلما سمع الحمار هذا الحوار رغب فى الخلاص من الاقتناص[1] ، والبلاء الذى هو فيه ، والشقاء الذى يؤلمه ويؤذيه ؛ فسلم قياده إلى ابن آوى ، وقال : سر بنا إلى ما ذكرت من مأوى لئلا يرانا رَصَدٌ ، أو يشعر بنا أحد ، ثم أعجلا فى السير ، وأشبها فى سيرهما الطير ، فتقدم الحمار سابقا وأعيا ابن آوى لاحقا ، فخدع وغالط وخلط وبالط[2] ، ونادى الحمار إلىَّ إن كنت تعبت فاركب علىّ . فقال الحمار : بل أنت راكب ولا تتعب فطفر[3] ابن آوى على الحمار ، وصار لا يقر له قرار ، وابن آوى يهديه الطريق وهو فى نهيق وشهيق .

فلما قربا من الأجمة[4] ؛ فتح عينه ذلك الأكمه ، ورفع آذانه وبصره ؛ فرأى الذئب قاعدا منتظره ، فعرف إن تلك مكيدة نصبها ابن آوى لصيده . فقال : تأتى الخطوب وأنت عنها نائم .

ثم استحضر عقله المفقود واستعمل عقله الموجود ، وعرف أنه غفل عن نفسه ، وقد سعى برجليه إلى رمسه[5] ، وانتقل من المرض الذى هرب منه إلى نكسه ، ومن خموله وذله إلى تعسه ونكسه ، فتردد متفكرا ، وأقام متحريا متحيراً ، فقال له ابن آوى : مالك أسْرِعْ ، فقد أحسن اللّه حالك ، وأمن فِكرك ، وأنعش بالك ، وجعل إلى عافية الخير مآلك ؛ لئلا يدركنا أحد ، أو يلحقنا ضرر ونكد .

فقال الحمار : يا أخى شاهدتُ قدود أغصان رشقة ونشقتُ روائح ريح عبقة ، وسمعت خرير الأنهار ، وأصوات البلابل والهزار[6] ، فندمت حيث

---

(١) أى المصيدة والشرك الذى نصب له .

(٢) بالغ فى الخداع .

(٣) وثب .

(٤) الشجرة الكثيفة .

(٥) الهلاك .

(٦) الهزار : طائر صغير له صوت جميل .

لم أقطع علائقى ، وأودِّع جارى ومرافقى ، وأبِتُّ مالى من التعلقات وأجىء وما ورائى التفات ، وأنا إن ولجت هذه الغيضة ، ورعيت مروج[1] هذه الروضة ، ورأيت مافيها من المنتزهات ألهتنى عمَّا لى من تعلقات ؛ فتضيع إذ ذاك مصلحتى ، وتذهب عند جيرانى ودائعى وذخيرتى ، ولا أقدر على مفارقة هذا المقام النزِهِ ، ومجاورة مثلك أيها الجار الفكه ، وقد عزمت على الرجوع لأصحب ما لى من مال وأثاث مجموع ، وأجىء وقلبى مطمئن وخاطرى عن الالتفات مستكن .

قال ابن آوى : اترك مالك ولا تؤخر أوقات السرور ، وساعات الفراغ والحبور ، وما خلفته فهو لك وتلافيه أمر مستدرك ، ولا بأس أن تدخل هذا المكان وتدور فى هذا البستان وتتعاهده ، ولو مرة وتشاهده ولو نظرة ، ثم تعود وتفعل ما تريد ، وبالجملة فتأخير أوقات السرور غير محمود ولا مشكور .

فقال الحمار : الأمر كذلك وقاك الله شر المهالك ، ولكن أقوى الدواعى فى هذه القضية ، والحامل على الرجوع وإن كان بلية ؛ وصية من أبى كانت عندى خفية ، كنت أعمل بها وأمشى فى دربها ، ولا أفارقها فى نومى ولا يقظتى ، وكنت جعلتها حرزا أعلقه فى رقبتى ، وإذا لم تكن معى فى مسيرى ومضجعى ، لا يقر لى قرار ولا يأخذنى اصطبار ، ويعترينى شبه الأُوام[2] وأرى خيالات فاسدة فى المنام ، وتغلب على دماغى فنون السوداء ، ولا أجد منها دواء لذلك الداء ، وفيها وصايا نفيسة لروح العقل بمنزلة الأعضاء الرئيسة ، فإذا حصلت على تلك الوصية المُعينَّة فقضية ما سواها هينة ، ثم ألوى راجعا لا سامعا لابن آوى ولا طائعا .

---

(١) المروج ، مفردها مرج : الأرض الخضراء الشاسعة .

(٢) ألم الرأس .

فافتكر ابن آوى أنه إذا ترك الحمار وحده فوته قصده وخيب الله كدَّه ، وأبطل حيله وجهده فرأى لنفسه المنفعة أن يرجع معه ، فربما ينجع[1] سعيه ويسلب من الحمار وعيه.

فقال : يا أخي شوقتني بهذه القضية إلى الاطلاع على تلك الوصية لاستفيد منها ، وآخذ حظي من الفضل عنها فلابد من مصاحبتك والذهاب معك ومرافقتك ، فقال الحمار : لادافع ولا مشاقق ولا مانع أن تكون لي مُرافقك .

فقال ابن آوى : فهل في حفظك منها شيء ، فإن كان فألقه إليَّ لنتذاكر في الطريق ، ولا يؤثر فينا التعب والضيق .

فقال : نصيحة واحدة هي بصدقي شاهدة ، وهي كلمة مجملة فوائدها فيها مجملة ، وهي إن أبي قال لي : إياك أن تفارق هذه الوصية ، فإن فارقتها وقعت في بلية ، وسأخبرك بسائرها في المسير إذا تذكرت أيها البصير . ثم سار قليلا وأفكر طويلا وقال : وهذه أخرى سنحها ذكري وارتضاها فكري وهي أذا : وقعت في شدة ، ورمت للخلاص منها عدة ، فتصور أصعب منها؛ يحصل لك التقصي عنها ، وتهن عليك وتعدها نعمة أسديت إليك ، فتشتغل بشكرها وتستأنس بذكرها .

فقال ابن آوى : أحسنت يا حمار وهذا مقام الأخيار والصالحين والأبرار . ثم سار سيرة رائثة[2] وقال : والله هذه نصيحة ثالثة . فقال : قل واسلم وطل .

فقال : لا تحسب أن الصديق الجاهل خير من العدو العاقل ، فإن عِلْم العدو العاقل خير لك من جهل الصديق الجاهل .

---

(١) أفلح .
(٢) متمهلة .

فقال ابن آوى : ما أحلى كلامك ، وأعلى فى اللطف مقامك وأنزه منادمتك وأفكه مكالمتك ، بالله شنف[١] المسامع فإنى لك بقلبى وجوارحى سامع .

فقال : مهلا حتى أتذكرها وأتصورها وأتفكرها . وانتهى أمر ابن آوى فى تعسه ، وساقه القضاء إلى رمسه ، فوصل إلى الضيعة وقد وقع ابن آوى فى ضيعة ، فألح على الحمار .

فقال : أخبرنى فما بقى لى اصطبار .

فقال : قال لى أبى بكلام فصيح عربى : لا تجعل مقامك ومقيلك[٢] بمكان يكون فيه ابن آوى دليلك ، والذئب فيه جارك وخليلك ، وإن جعلت لك فى مثل هذا المكان ساحة ، فما ترى يكون لك فيه من الراحة ، وإن أردت أن تخلص من هذا المكان فانصب الآذان ، وارفع ذكر الله بالأذان ، فإنه ينجيك من الضيق ، ثم رفع عقيرته بالنهيق فسمعه معارفه من الكلاب ، فسارت إليه مستبشرة بحسن الإياب[٣] ، وسارعت إليه واجتمعت حواليه فما شعر ابن آوى إلا وهو متورط فى البلوى ، فطفر للهرب فأدركه من الكلاب الطلب فاحتوشته وانتوشته[٤] ، واختطفته واقتطفته ووزعته ومزعته ، ومرشته وقرشته ، فلم تبق منه عيناً ولا أثراً ، وذهب دمه فى تدبيره هدراً .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ وعرضته على الرأى العال ؛ ليعلم أن الاغترار بالكلام محال والإصغاء إلى الحكايات والقول البطّال ، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمل فى مآل مقاصدها وفحاويها ، والاعتماد على القضايا المزخرفة والركون إلى الأمور المسفسفة[٥] ، لا يفيد سوى الندم وزلة القدم .

---

(١) شنف الكلام : أى زينه للسامع .
(٢) المقيل : مكان الاستراحة والنوم .
(٣) العودة .
(٤) أى تناولته .
(٥) الحقير منها

والأصل فى الولايات والمناصب ؛ التفكر فى الخواتيم ، والتأمل فى العواقب ، وإلا فليس فى ذلك سوى إضاعة العمر والمصير إلى المهالك ، وقلت شعرا :

وَأَسْعَدَ مَنْ يُكْسَى الولايةَ مَنْ إذَا نَضَا ثَوْبَها يكسى الثّنَاء المُطَرَّزَا

فلما انتهى الكلام إلى هذا المقام ، ورأى الوزير برأيه المنير مافى هذه الفصول من الفضل دون الفضول ؛ اعترف للحكيم حسيب بالفضل الحسيب والرأى المصيب ، وحسن النصيحة والبيان ، وصحة الدليل والبرهان ، فأذعن للحق وأناب إلى الصدق .

وقال : لقد أتيت النصيحة من بابها ، وأوصلتها إلى طلابها ، وكل كلام قررته وبيان حررته ، إنما هو شكر أحرزته ، وطريق سداد بينتها وسبيل رشاد أوضحتها ، وباب صواب فتحته ، وميزان إحسان أرجحته ، وعلى كل عاقل ومستمع وناقل ، أن يقتدى بهذه النصائح ويوصلها إلى السائح والسابح ، ويغنم فوائدها وعوائدها وموائدها[1] ، ويعمل بموجبها ولا يخرج عن مذهبها.

ثم إن الملك لما أصغى إلى هذا الفصل ، وفهم ما تضمنه من حكمة وفضل ، أفرغ على أخيه وأهله وذويه لباس الإنعام ، ووفّاه بمزيد الإكرام ، وقال: لقد قمت أيها الأخ الشقيق فى تدقيق النصح بالتحقيق ، وحللت المشكل وجلوت الطريق ، وأديت حقّ الفتوة وواجب المروءة وشرائط الأخوة ، والآن قد حكمناك فى ولايتنا ، ووليناك على حكامنا وقضاتنا ، وبسطنا يدك فى الأقاليم ، وأطلقنا لسانك فى التعليم ، فتحكم فى الرؤوس والأطراف ، واحكم فى الآفاق والأكناف ، واشرع فيما أنت بصدده ، ولا تتقيد بالمخالف ولَدَدَهُ[2] ، وكن منشرح الصدر ، قوى الظهر ، قرير العين ، مبسوط اليدين ، مبارك

(١) موائد ، مفردها مائدة ، وقصد الغنيمة .
(٢) اللدد : العناد والمخالفة .

الطلعة ، حسن السيرة ، صبيح الوجه ، طيب القلب والسريرة ، طويل العضد والساعد ، ممدوحاً عند الغائب والشاهد ، خلي البال هنى الحال ، فإنك من بطن كريم وفخذ على الطاعة مستقيم[١] ، وفى الفضائل ذو قدم وصدق ، وفى الصناعة ذو صنع وحذق ، فلا تتوان فيما عزمت عليه وقصدت إليه ؛ من النصائح الملوكية ، والفصول العلمية والعملية ، وأتحفنا بتلك الحكم السنية، والخصال البهية ، والشمائل المرضية ؛ فإنها لذة الأشباح[٢] وغذاء الأرواح، والطراز المضيء[٣] على خُلَع المساء والصباح .

فنهض الحكيم من مجتمعه ، وقبل ثغر الأرض بثغر جبينه وفمه ، وامتثل المراسيم الشريفة ، واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفة وترتيبها بالعبارات اللطيفة ، واستطرد فى تأليف هذه الحكم من حكايات ملك العرب إلى وصايا ملك العجم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله على كرمه الأتم ، وإحسانه الأعم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) البطن والفخذ : الحى والقبيلة ، وأراد الأصل الطيب .

(٢) الأشباح ، مفردها شبح : الجسد .

(٣) أى العلامة المنيرة .

الباب الثانى

فى وصايا ملك العجم
المتميز على أقرانه بالفضل والحكم

وقال الراوى حسان : معدن الظرافة والإحسان ؛ فتوجه الحكيم حسيب الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار عن الهداة الأخيار .

[٩] **فحكى أن ملكا** ؛ من ملوك الأمصار وسلاطين العجم يدعى شهريار، كان من العجم وكان فى الجود واللطف والكرم أمة من الأمم ، ملكه عظيم ، وفضله جسيم ، ولايته فى أحسن إقليم ، حسن السياسة وافر الكياسة ، ثناؤه عاطر وعطاؤه ماطر ، ووابل الحشمة من سحائب هيبته قاطر ، وله من الأولاد وفِلَذ الأكباد ستة رجال إلى المجد والكرم عِجَال(١) ، وكل له فى الفضل والأفضال أوسع مجال ، مشهور بالزعامة مخبور بالشهامة ، كفُّه سخى ، وكَنَفه أريحى(٢) ، ذو شجاعة باسلة ، وبراعة كاملة ، وحشمة وافرة، وهيبة زاجرة(٣) ، وهمة أَبْحُرها بالمكارم زاخرة ، مع رفق ولين للصعلوك المسكين ، وصلابة فى الدين ، وكان الأكبر سناً منهم ، متميزا فى هذه الشّيم عنهم ، وأعطر طيباً ، وأوفر نصيباً ، فكأنه فى شأنه قيل :

هَذَا الَّذى دَانَتْ الدُّنْيَا لِطَلْعَتِهِ والدينُ والملكُ والأَيَّامُ والأُممُ

فلما دنت شمس عمر أبيهم للأفول ، وقارب غصن عيشه الذبول(٤) ، وعزم فراش الأجل على طى بساط حياته ، وأورد بريد الفناء منشور تسليمه إلى متولى وفاته ؛ أحضر بنيه وأكابر ذويه ، وقال : اعلموا يا بَنِىَّ إنى استوفيت نصيبى من الدُّنيا ؛ وارتقيت من لذاتها إلى الدرجة العليا ، وذقت حلوها ومرها ، وعاينت حرها وقُرها(٥) ، وعرفت خيرها وشرها ، ومع ارتقائى فيها إلى المنازل الفاخرة عملت بمقتضى ﴿وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص:٧٧] .

---

(١) العجال ، مفردها عجلة : السرعة . والمعنى أنهم يسارعون إلى المجد والكرم .
(٢) أى زكى الجانب .
(٣) مانعة .
(٤) شرف على الموت .
(٥) القر : البرد الشديد .

فتزودت بما وصلت إليه اليد ، وما أخرت عمل اليوم إلى الغد ، ولم تلهنى الغفلة ولا إرخاء المهلة عن الاستحضار لساعة الرحلة ، بل لم أزل للرحيل مستوفزا ، وللتحول والانتقال متجهزا ، وأنا اليوم عنكم راحل وسفينة عمرى أرست بالساحل ، وهذا سفر لا رجعة فيه ولا عودة لمسافركم إليكم تثنية ، وهذا أمر محتوم ، وقدر معلوم ، وقضاء قدره فى الأزل رب لا يزال ولم يزل سلطان ملكه لا يبيد وكل الملوك تحت أمره عبيد ، لا راد لما قضاه، ولا مانع لما أمضاه ، ولا هاد لما بناه ، ولا صاد لما سوّاه ، حكم بالموت على مخلوقاته وساقه ، لا باب قوة فى ردّه ولا طاقة ، وقد خفف من وجدى أن لى مثلكم يجدى ، وإنكم خلفى ومحيو سلفى ، وفيكم من يقوم مقامى ، ولا يمحو أيامى ولا يدرس آثارى ولا يطفىء نار أنوارى ، وها أنا أعهد إليكم وأستخلف الله عليكم ، وإن كنتم إلى الوصية غير محتاجين ، ولكن الذكرى تنفع المؤمنين .

واعلموا أن أزكى زهر تتنور به بصائر النقل فى رياض العبودية ؛ ورد الشكر ، وأزكى عطر تتعطر به مجامر العقل[1] فى غياض الحرية ورد الفكر ، وأن الشكر قيد النعم ، وسبب لازدياد الفضل والكرم ، قال الله تعالى وجل جلالاً ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] .

وقد قيل من شكر القليل استحق الجزيل ، وإن الفكر يعلى المقامات ويعطى الكرامات ، واحتملوا الأذى تأمنوا ، ولا تهنوا[2] النائبة ولا تحزنوا ، ولا تظنوا الجود والكرم فى التبذير ، والبخل والتقتير من جملة التدبير . فقد نُصب للأعلام أعلاماً من قال عز مقاماً ﴿والّذِينَ إذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ولَمْ يَقْتُرُواْ وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان:٦٧] . وقال جل مخبرا وخبيرا ﴿ولاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[الإسراء :٢٩].

---

(١) المجامر ، مفردها المجمرة : ما يوضع فيه الجمر ، أو المبخرة .

(٢) تستهينوا .

واتبعوا الأقوال والأفعال فلا خير في قوال ليس بفعال ، ولا تشوهوا محاسن شيبكم بزخارف الكذب ، فإن الصدق أول ما ينبغي وأعظم ما يجب، ووسخ كلمة واحدة بالكذب ناطقة لا ينقيه ألف كلمة صادقة ، ومن تعود الكذب في نطقه لا يعتمد على صدقه .

وداروا الأعداء مداراة الأدواء[1] يزد صديقكم ويكثر فريقكم ، ويجل ودودكم ، ويقل عدوكم وحسودكم .

وعليكم بملازمة الأخيار وإياكم وصحبة الأشرار ، ولا تطلبوا للرغبة في صحبة الأشرار سبيلاً ، ولا تقيموا على ذلك أبداً دليلاً ، فمن غالط نفسه في مجالسة الأشرار وطلب وفاء ممن جُبِل على طبيعة الفجار ، فقد أوجع نفسه بأقوى كيه وأصابه ما أصاب الفلاح مع الحية ، فسأل الأولاد والدهم على كيفية ذلك .

[١٠] **فقال** : ذُكِر أن واحدا من الأكياس طلب العزلة عن الناس ، ولازم انقطاعه ، وانقطع عن الجمعة والجماعة ، واشتغل لإقامة أوده بالزراعة ، وانعزل في ذيل جبل ، وصاحب حية كانت تأنس إليه بكلامه ، وتأكل من فضلات طعامه ، فترقّت بينهما المعاهدة إلى أن بلغت إلى المعاقدة بأن تكون صادقة خالية عن المماذقة[2] ، ولا تكون كصحبة أبناء الزمان تكرع[3] من الغدر في غدران ولا مشوبة بنفاق ، ولا مدخولة برياء وشقاق ، وأن تنعقد بينهما المودة والإخاء في حالتي الشدة والرخاء ، فمر على هذه مدة وكلّ حافظ عهده مراع صحبته ووده وكان الرجل إذا عنت له قضية عرضها على الحية واستشارها وأخذ أخبارها ، وتخرج هي إليه وتترامى على رجليه.

---

(١) الأدواء ، مفردها داء : العلة والمرض .
(٢) المفارقة .
(٣) كرع ، كرعاً في الماء أو الإناء : أي مد عنقه وتناول الماء بفيه من موضعه . والمعنى أي شرب الغدر .

ففى بعض الأيام ، وعام من الأعـوام ؛ وقـع بـرد شـديد وثلـج وجليد ، فرأى الحية وقد سقطت قواها وخمدت أعضاها ، ووقعت فى شـر حـال وبـرد وبال ، فحملته الشفقة والصداقة ، والعهد الذى أحكمـا وثاقـه ، علـى أن آواها وحملها فـى مخـلاة حمـاره وأدناهـا ، ووضـع المخـلاة[1] فـى رأس البهيـم ، وتوجه لضرورة ذلك الفهيم ، فحست الحية بنفس أبـى زيـاد، وتحـرك عـرق العدوان القديم وعـاد ، وفعل خبثهـا خاصيتـه المألوفـة ، ولعـب سـمها سـميته المعروفة متبعا حديثه : حرام على النفـس الخبيثـة أن تخـرج مـن الدنيـا حتـى تسيء لمن أحسن إليها ، فعضت الحية شفة الحمار الرقيقة عضة محـب لاقـى فى خلوة عشيقه ، وبَرَد مكانه من حرها ، وهربت الحية إلى جحرها.

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلمـوا يـا ذوى الأفضـال ؛ أن مـن صحـب الأشرار ورغب فـى مـودة الفجـار ، لا يـأمن العثـار[2] ولا يسـلم مـن الأنكـاد والبوار.

وقد قيل : إن صحبة الأخيار كجرة النضار[3] بطيئة الانكسار ، سـريعة الانجبـار . وصحبـة الأشــرار ؛ كجـرة الفخـار سـريعة الانكســار ، بطيئـة الانجبار. وبالجملة مافى صحبة النـاس فـائدة ، ولا فـى مخالطـة النـاس كبير عائدة ، وقد قيل :

ولمْ تر مِنْ بَنِى الدُّنيا سلاماً   فَإن تَرَه فأبْلغْه سَلاَمِى

وينبغى أن تكون غيبتكم وحضوركم ، وأحوالكم وأموركم ، واجتمـاعكم وفراقكم ، وصلحكم وشقاقكم ، فى حالتى السَّراء والضَّراء ، والبؤس والرخاء على وتيرة واحدة ؛ وهى الخالية عن الأغراض الفاسدة ؛ أعنى : إذا رضيتـم؛ فبالحق ، وإذا غضبتم ؛ فالحق ، وإذا توجهتم ؛ فللحق ، ولا تبطَّروا فى حالـة النعم ، ولا تضجروا فى حالة النقم ، وعلى كل حـال فـلا يقـع بينكـم اختـلال،

---

(١) جراب من الجلد توضع فيه الأشياء .
(٢) المهلكة .
(٣) النضار ، مفردها النضر : الذهب .

وذلك بتفرق الكلمة واختلافها وتصادمها ، وعدم ائتلافها فإنه قيل :

إنَّ الدليلَ الَّذى لَيْسَتْ لَهُ عَضدٌ ... مِثْل الوحيدِ بلاَ مالٍ ولا عَددِ

كُونُوا جَمِيْعاً يَا بَنِىَّ إذَا اعترَى ... خَطْبٌ وَلاَ تَتَفرَقُوا أَجْنَادَا

تَأبَى القدَاحَ إذَا جمعنَّ تَكَسرَا ... وَإذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَرَتْ أفْرَادَا

ولا تثقوا بأحد من الكبار والصغار إلا بعد الاختبار ، فى الشدة والضعف والرفق والعنف ، والبؤس والرخاء ، والخوف والرجاء .

ولا تقدموا على قديم الأصحاب أحدا ، ولا على الموثوق بهم من لا جربتموه أبداً ، وقد قيل فى المثل المشهور : النِّحِس المعروف خير من الجيد المنكور . وقيل أيضا : خير الأشياء جديدها ، وخير الأصحاب قديمها .

وأسسوا قواعد أخراكم فى دنياكم ، واغتنموا السعادة الباقية من الدار الفانية ، وعاملوا تجدوا ، وازرعوا تحصدوا ، وتفكروا من أول يومكم أحوال عزكم ، ومن أوائل عمركم أواخر دهركم ، ومن ليلة الهلال سِرار شهركم(١) . فكل من له صدق قدم يتفكر وهو موجود حالة العدم ، ومن زمان شبابه حالة الهرم ، كما فعل التاجر المراقب وما آل إليه فى العواقب . فقبل الأرض الأولاد ، وقالوا : مولانا السلطان أعظم من أفاد لو تصدق على عبيده الطائعة ببيان تلك الواقعة .

[١١] **قال الملك** : ذكر الحكماء وذوو الفضل من العلماء ؛ أنه كان فى بعض الأمصار تاجر من أعيان التجار ، ذو مال جزيل وجاه عريض طويل، ونعمة وافرة ، وحشم وخدم متكاثرة ، من جملتهم غلام مخايل(٢) السعادة من جبينه لائحة ، وروائح النجابة من أذيال شمائله فائحة ، قد أفنى عمره فى خدمة مولاه ولم يقصِّر لحظة فى طلب رضاه .

---

(١) انتهاء شهركم .

(٢) علامات .

فقال له سيده فى بعض الأيام : لك علىّ حق يا غلام ، وأنا أريد مكافأتك وأطلب موافاتك ، فتوجه هذه المرة فى هذه السفرة(1) فمهما ربحت فهو لك ، بعد أن أعتقتك من قيد رق أشغلك ، ثم أوسق مركباً ، وفسح له فى السير شرقا ومغربا ، وصاه بأشياء امتثل مرسومها والتزم منطوقها ومفهومها.

فقال له مولاه : سأرفعك على أضرابك ، وأغنيك عن أمثالك وأصحابك، وأجعلك كأكبر من فى الدنيا ولجميع رفقتك بمنزلة المولى . ثم أخذ فى تعبئة البضائع ، وأوسق مركبه المتاجر والمنافع ، وسلمه إلى الهواء والماء، بعد أن توكل على رب السماء .

فسار بعض أيام وهو فى أهنى مرام وأطيب عيش ومقام ، الماء رائق والهواء موافق ، والنكد مفارق والسرور مرافق ، حتى كأنه نوح ، وخضره الملاح ، وموسى وفتاه حافظاً الألواح ، وبينهما السفينة من نسف العواصف أمينة تجارى السهم والطير ، وتبارى الدُهْم(2) فى السير ، فإذا بالرياح هاجت والأمواج ماجت(3) ، وأشباح البحر تصادمت وأطواد(4) الأمواج على العرفاء(5) تلاطمت ، فعجز ذلك الملاح والحافظ ، ونشر مذهب ابنه أبو الجاحظ وترك سيمة الوقار والسكينة ، ورقم نقش الحروف فى ألواح السفينة، فشاهدوا من ذلك الهواء الأهوال وغدا قاع البحر كالجبال وصار ذلك الغراب(6) بمن فيه من الأصحاب ؛ كأحوال الدنيا بين صعود وهبوط، وقيام

---

(1) الرحلة .

(2) الخيل السريعة

(3) هاجت واضطربت .

(4) أطواد ، مفردها طود : الجبل .

(5) ربان السفينة .

(6) سفينة من سفن البحر القديمة .

وسقوط ، طورا يستأمنون الأفلاك ، ويناجون الأملاك ، وينهون أخبار ظلمات صاحب الحوت إلى السّاك[1] ، وطورا يهبطون الغور[2] وينظرون قرن الثور[3] ، وربما مرقوا منه من تحت الزور ، فلم يزالوا عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى يتناشدون :

وَفُلكٌ رَكِبْنَاه والبَحْرُ ذُو   هَواءٍ فَثَارَ وَحَارَ وَمَارَا
فَطَوْرًا عَلَوْنَا وَطَوْرًا   رَمَتْنَا أَرَاضِيهِ مِنْهَا انْحِدَارَا

وآخر الأمر نسفت السفينةَ الرياحُ ، وألقى كاتب الحاصب[4] إلى كل حرف من حروف الجبال لوحاً من الألواح ، وأوعر الله سهلها وخرقها فأغرقها وأهلها ، وذهب البحر بأموالها وأرواحها ، وتعلق الغلام بلوح من ألواحها واستمر تقذفه الأمواج وتصدم به أثباج[5] البحر الهيّاج ، إلى أن وصل إلى ساحل فخرج وهو كئيب ناحل ، وصعد إلى جزيرة فواكهها غزيرة ووصفها عجيب ليس بها داع ولا مجيب ، فجعل يمشى فى جنباتها إلى أن أداه التوفيق إلى فم طريق فسار فى تلك الجادة وهداية الله له مادة ، فانتهى به المسير إلى أن تراءى له سواد كبير ، وبلغ مملكة عظيمة وولاية جسيمة، ورأى على بعد مدينة مسوّرة حصينة ، فعمد إلى ذلك البلد وتوجه نحوها وقصد ، فاستقبله طائفة من الرِّعال[6] نساء ورجال ، يتبعهم جنود مجندة وطوائف محشدة ، مع طبول تضرب وفوارس تلعب ، وزمور تزعق ،

---

(١) السقف .
(٢) العمق .
(٣) قرن الثور ، وهو القرن الذى تحمل عليه الأرض كما هو شائع فى القصص الشعبى، وأراد أنه نزل فى العمق حتى وصل إليه .
(٤) الرياح الشديدة .
(٥) أثباج ، مفردها ثبجة : الموجة العالية .
(٦) الرعال ، مفردها الرعيل : اسم كل قطعة متقدمة من رجال أو خيل ، أو صف وراء صف .

وألسنة بالثناء تنطق ، حتى إذا وصلوا إليه ترامو عليه وأكبوا بين يديه يقبلون يديه ورجليه ، مستبشرين برؤيته متبركين بطلعته ، ثم ألبسوه الخُلع السنية وقدموا له فرساً علية بكنبوش[١] من ذهب ، وسرج مغرق ، ووضعوا له التاج على المفرق ، ومشوا في الخدمة بين يديه والجنائب[٢] في الموكب تُجر لديه ، ينادون حاشاك وإليك ، سلطان الناس قادم عليك ؛ حتى وصلوا إلى المدينة ودخلوا قلعتها الحصينة ، ففرشوا شقق الحرير ونثروا النُثّار الكثير وأجلسوه على السرير وأطلقوا مجامر الند[٣] والعبير ، ووقف في خدمته الصغير والكبير والمأمور والأمير ، والدستور[٤] والوزير وأنشدوه :

قَدِمْتَ قُدوم البَدْر بَيْتَ سُعُودِهِ   وَأَمْرُكَ فِيْنَا صَاعِدٌ كَصعُودِهِ

وقالوا : اعلم يا مولانا إنك صرت لنا سلطانا ، ونحن كلنا عبدك وتابع مرادك ومريدك ، فافعل ما تختار ، وتحكم في الكبار منا والصغار ، وأمر مالك من مرسوم فامتثاله علينا محتوم ، وما منا إلا له مقام معلوم .

فجعل يتفكر في أمره ومبدأه ويتأمل ما صار إليه ويتدبر في منتهاه . فقال : إن هذا الأمر لابد له من سبب ، ولابد له من آخر ومنقلب ، فإنه لا يصدر في عالم الكون سدى ؛ وإن لهذا اليوم من غير شك غدا ، وإن الصانع القديم القادر الحكيم السميع العليم ؛ البصير الحى المريد الكريم ، لم يقدر هذه الأفعال على سبيل الإهمال ، ولم يحدث حدثاً لعباً ولا عبثاً .

وجعل هذه الأفكار آناء الليل وأطراف النهار وهو مع ذلك قائم شكر النعمة ، ملازم باب مولاه بالطاعة والخدمة ، واضع الأشياء في محلها،

---

(١) الكنبوش : البرذعة للدابة .

(٢) الخيل القوية

(٣) بخور طيب الرائحة .

(٤) المشير .

والمناصب فى يد أهلها ، ملتفت إلى أحوال الرعية عامل بينهم بالعدل والسوية، متعهد أمور الكبار والصغار بأنواع الإحسان وأصناف المسار[١] مؤسس قواعد المملكة والسلطنة ، على أركان العقل والعدل مهما أمكنه، متفحص عن مصالح المملكة ، سالك مع كل من أرباب الوظائف ما يقتضى مسلكه . ثم وقع اختياره من بين أولئك الجماعة ، على شاب جليل البراعة له فى سوق الفضل والوفاء أوفر بضاعة ، متصف بأنواع الكمال متحلٍ بزينة الأدب والجمال ، فاتخذه وزيراً وفى أموره ناصحاً ومشيراً ، فجعل يلاطفه ويرضيه ويكرمه ويدنيه ، ويفيض عليه من ملابس الإنعام وخلع الإفضال والإكرام ما ملك به حبة قلبه واستصفى خالص وده لبه ، وسكن فى سويدائه[٢] وتمكن به من ضمير أحشائه إلى أن اختلى به وتلطف فى خطابه، واستنصحه فى جوابه ، وسأله عن أمر أمرته وموجب رفعته وسلطنته من غير معرفة لرفاق ولا أهلية ولا استحقاق ، ولا هو من بيت الملك ولا فى بحر السلطنة له فُلْك ، ولا معه مال ولا خيل يُهديها ، ولا رجال ولا معرفة يدلى بها ، ولا شجاعة وفضيلة يهتدى بتهذيبها .

فقال ذلك الشاب فى الجواب : اعلم أيها الملك الأعظم أن هذه البلدة وعساكر إقليمها وجنده ، قد اخترعوا أمراً واصطلحوا على عادة أخرى ، سألوا الرحمن أن يقيض لهم فى كل أوان شخصاً من جنس الإنسان ، يكون عليهم ذا سلطان ، فأجابهم إلى ذلك فسلكوا فى أمره هذه المسالك ، وذلك أنهم فى اليوم الذى قَدِمْتَ عليهم يرسل الله تعالى رجلاً من عالم الغيب إليهم، فيستقبلونه كما استقبلوك ، ويسلكون معه طريقة الملوك ، من غير نقص ولا زيادة وقد صارت هذه لهم عادة ، فيستمر عليهم حسنه فى هذه المرتبة

---

(١) السرور والفرح .

(٢) حبة القلب .

الحسنة، فإذا انقضى الأجل المعدود وجاء ذلك اليوم الموعود ، عمدوا إلى ذلك السلطان ، وقد صار فيهم ذا مكان ومكان ، وعلقة ونشب[١] وإخاء ونسب، وثبتت له أوتاد وصار له أهل وأولاد ، وجروه برجله من التخت وسلبوه ثوب العزة والرخت[٢] ، وألبسوه ثوب الذل والنكال ، وأوثقوه بالسلاسل والأغلال، وحمله الأهل والأقارب ، وأتوا به إلى بحر قريب فوضعوه في قارب ، وسلموه إلى مُوَكَّلَيْن ليوصلوه إلى ذلك الجانب ، فيوصلونه إلى ذلك البر وهو قفر[٣] أغبر ، ليس به أنيس ولا رفيق ، ولا جليس ولا صديق ، ولا زاد ولا ماء ، ولا نشو[٤] ولا نماء ، ولا مغيث ولا معين ، ولا قريب ولا قرين ، ولا قدرة ولا إمكان على الوصول إلى العمران، ولا ظل ولا ظليل ولا إلى الخلاص سبيل ، ولا إلى طريق النجاة دليل ، فيستمر هناك عرياناً وحيداً فريداً طريداً ؛ إلى أن يهلك عطشاً وجوعاً لا يملك إقامة ولا يستطيع رجوعا. ثم يستأنف أهل هذه البلاد ما لهم من فعل معتاد ، فيخرجون بالأهبة الكاملة إلى تلك الطريق السابلة ، فيقيض الله تعالى لهم رجلاً فيفعلون معه مثل مافعلوا مع غيره قولاً وعملاً وهذا دأبهم وديدنهم[٥] وقد ظهر لك ظاهرهم وباطنهم .

فقال ذلك الغلام الأملح لذلك الوزير المصلح : فهل اطلع أحد ممن تقدم على عاقبة هذا المأتم .

قال : قد عرف ذلك وتحقق أنه عن قريب هالك ولكن غرور السلطنة يلهيه ، وسرور التحكم والتسلط يطغيه ، وحضور اللذة الحاصلة لسواء العاقبة

(١) التعلق المتأصل .
(٢) الملك والسلطة .
(٣) الخلاء من الأرض ، لا ماء فيها ولا ناس ولا كلأ .
(٤) الخلق .
(٥) عادتهم الغالبة .

ينسيه ، ولا يفيق من غفلته ويستيقظ من رقدته ، إلا وعامه قد مضى ، والأجل المضروب قد انقضى ، وقد أحاطت به نوازل البلاء ، وهجم عليه بوازل القضاء ، فيستغيث ولا مغيث وينادى بالخلاص ولات حين مناص .

فلما سمع الغلام هذا الكلام أطرق مفكرا ، وبقى متحيرا ،وعلم أنه لابد للأيام أن تمضى ، وهذا الأجل المضروب ينقضى ، وإنه إن لم يتدارك أمره ويتلاف خيره وشره ، ويتدبر حاله ومصيره ، ومآله هلك هلاك الأبد ، ولم يشعر به أحد . فأخذ يفكر فى هذا الخلاص والتقصى من شرك الاقتناص . ثم قال للوزير الناصح الخبير : أيها الرفيق الشفيق والنصوح الصديق ، جزاك الله خيرا وكفاك ضيماً وضيراً(١) ، إنى قد فكرت فى شىء ينفع نفسى ويحييها ، ويدفع شر هذه البلية التى وقعت فيها ، وأريد معاونتك وأطلب مساعدتك ، فإنى رأيتك فى الفضل متميزاً بين أقرانك ، فائقاً فى محاسن الشّيم على أصحابك وإخوانك .

فقال : افعل ياذا الزعامة ، وحباً لك وكرامة . قال : اعلم أيها الصاحب الأعظم أن الرجوع إلى هذا المكان الذى كنت فيه خارج عن الإمكان ، والإقامة فى هذا الملك المعهود إنما هى إلى أجل معدود ، ووقت محدود، وانقضاؤه على البتات(٢) ، وكل ماهو آت آت ، وكيفية الخروج قد عرفت، وطريقها قد تقررت ووُصِفَت ، لهذا قيل : يا ذا الفضل الجزيل دخلنا مضطرين ، وأقمنا متحيرين وخرجنا مكرهين ولم يتجه مخلص من هذا المقْتَنص(٣) إلا طريق واحد وسبيل غير متعاهد ؛ وهى أن تأخذ طائفة من البّنائين ، وجماعة من المهندسين والنجارين ، وتذهب بهم أيها الوزير إلى

---

(١) الأذى .

(٢) التمام .

(٣) المأزق والورطة .

مكان إليه نصير ، فتأمرهم أن يبنوا لنا هنـاك مدينـة ويشـيدوا لنـا فيهـا أمـاكن مكينة ، ومخازن وحواصل ، وتملؤها من الزاد المتواصل من المـآكل الطيبـة والأطعمـة والأشـربة اللذيذة المسـتعذبة ، ولا تغفل عـن الإرسـال ولا تخـتـر الإمهـال والإهمـال فـى الظـهيرة والأسـحار [١] ، والغـدوة [٢] والآصــال [٣] ، إذ أوقاتنا محدودة وأنفاسنا معدودة ، وساعة تمضـى منها غير مردودة ، وإذا فات شيء من ذلك الوقت فلا نُعَوَّض عنه إلا الخيبـة والمقـت [٤] ، فننتقل هنـاك مـا يكفينا على حسـب طاقتنـا ومقدار قدرتنـا واسـتطاعتنا ، فـإذا تزوّدنـا منهـا لـم نرحل عنها بحيث إذا نُقِلْنا من هذه الديار وطُرِحنا فى تلك المهامة [٥] والقفـار، وجفانا الأصحاب وتخلى الأخلاء عنا والأحباب ، وأنكرنا المعارف والأدواء ، واحتوشتنا [٦] فى تلك البيداء [٧] فنون الـداء ؛ نجـد مـا نسـتعين بـه علـى إقامـة الأود [٨] مدة إقامتنا فى ذلك البلد .

فأجـاب بالسـمع والطاعـة واختـار مـن المعماريـة جماعـة ، وأحضـر المراكـب ، وقطـع البحـر إلـى ذلـك الجـانب ، وجعـل الملـك يمدهـم بـالآلات والأدوات على عدد الأنفاس ومدى الساعات ، إلى أن أنهى المعمارية العمـارة وأكملوا حواصل الملك وداره ، وأجروا فيها الأنهار وغرسوا فيها الأشـجار ، فصارت تأوى إليهـا الطيـور بـالليل ، ويـترنم فيهـا البلبـل والهُزار ، بـأنواع

---

(١) الأسحار ، مفردها سحر : الوقت من الليل قبيل الفجر .

(٢) الغُدْوَة ، ما بين الفجر وطلوع الشمس .

(٣) الآصال ، مفردها الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب .

(٤) الخسارة .

(٥) الحزن والشدة .

(٦) أحاطت بنا .

(٧) الصحراء .

(٨) أى ما يستطيع به صلب عوده .

التسبيح والأذكار ، وغدت من أحسن الأمصار ، وبنوا حواليها الضياع والقرى ، وزرعوا منها الوهاد والثرى ، ثم أرسل إليها ما كان عنده من الخزائن ، ونفائس الجواهر والمعادن ، وأرسل من ظريف التحف إليها ومن حاجاته المعوّل عليها ؛ بحيث لو أقام بها سنين قامت بكفايته وفَضُلت خزائنها عن حاجته ، وأكثر من إرسال ما يلزم من الأدوات والأشربة والمطعومات، وجهز الخدم والحشم ، وصنوف الاستعدادات من النعم ، فما انقضت مدة ملكه ودنت أوقات هلكه إلا ونفسه إلى مدينته تاقت ، وروحه إلى مشاهدتها اشتاقت ، وهو مستوفز[1] للرحيل ورابض للنهوض والتحويل .

فلما تكامل له فى الملك العام ، لم يشعر إلا وقد أحاط به الخاص والعام ممن كان يفديه بروحه ؛ من خادمه ونصوحه ومن كان سامعاً لكلمته من أعيان خدمه وحشمته ، وقد تجردوا لجذبه من السرير ، ونزع ما عليه من لباس الحرير ، ومشوا على عادتهم القديمة وسلبوه الحشمة الجسيمة ومملكته العظيمة ، وزالت الحشمة والكلمة والحرمة ، وشدوا وثاقه وذهبوا به إلى الحَرّاقة[2] ، ووضعوه وقد ربطوه فى المركب الذى هيؤه ، وأوصلوه إلى ذلك البر من البحر .

فما وصل إليه إلا وقد أقبلت خدمه عليه ، وتمثلت طوائف الحشم والناس لديه ، ودقت البشائر المقدمة وحل فى سروره المقيم ونعمه ، واستمر فى أتم سرور واستقر فى أوفر حبور .

ثم قال الملك للأولاد وفلذ الأكباد : وإنما أوردت هذا المقال ؛ على سبيل المثال فاصغوا إلى حسن التنظير حتى أبين لكم النظير ، وعوا ما أقول بآذان القبول ، وتأملوا رموز المعانى من هذه الألفاظ التى خجلت المثانى[3] ، ثم تفكروا وتبصروا وبعد التذكر والتبصر تدبروا .

---

(١) تهيأ .

(٢) السفينة .

(٣) آيات القرآن ، وخجلت المثانى مبالغة فى روعة وجمال المعانى .

أما ذلك العام المعهود : فإنه الولد فى أول الوجود . وأما المركب الذى أودعه : فهو بطن أمه الذى استودعه . وانكسار السفينة : هو انشقاق المشيمة[1] . والجزيرة التى خرج إليها : فهى الدنيا التى دخل عليها . والناس الذين استقبلوه فأقاربه وذووه وأهلوه يربونه بالملاطفة والعلال ، ويعاملونه بالإكرام والإفضال . وذلك الشاب الذى هو وزيره : فهو عقله ومن إيمانه نوره . والسنة المضروبة : أجله المحتوم وعمره المعدود المعلوم . ونزوله عن سريره : عبارة عن آخرته ومصيره ، وخروجه من الدنيا بالإكراه ، وشروعه فى دخوله إلى أخراه . والبحر الثانى الذى طرح فيه : هو أحوال ما يعاينه عند الموت ويعانيه . والبر القفر : اللحد والقبر .

فالسعيد يتفكر فى كيفية أموره وأحواله ، ومبدأ أمره ومآله ، ثم يتدبر فى قِلِّ هذا وجُلِّه ويستعد لما خلق من أجله ، ويتحقق أن الإقامة فى الدنيا يسيرة وهى بالنسبة إلى الإقامة بدار البقاء قصيرة ، وإنه إذا جاء وقته المحتم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم ، فيأخذ فى الازدياد ، ويتهيأ ما أمكن ليوم المعاد ، ويعدّ نفسه كالمسافر الذى أتى بعض الحاضر ، فلا يقيم أكثر من يوم وقد رحل عن القوم كما قيل :

ألا إنَّما الدُّنيا كَمَنْزِلِ رَاكِبٍ أَنَاخَ عشياً وَهُوَ بالصبح رَاحِلُ[2]

إلى سفر طويل زاده قليل ، ققاره يابسة وطرقه دامسة[3] ، لا أنيس فيه ولا رفيق ، ولا مصاحب ولا صديق ولا دليل ولا خليل ، ولا مغيث ولا مُقيِّل[4] ، ولا ماء ولا معين ، ولا صاحب ولا مُعين ، فهيىء لهذا السفر بقدر

---

(١) ما يتغذى الجنين من خلاله داخل الرحم .

(٢) أناخ فلان بالمكان : أقام به .

(٣) مظلمة .

(٤) المقيل : مكان الراحة والنوم .

الإمكان ما قدر من الزاد والماء ، والمركب والكلأ ، ونور الطريق والمسافر والرفيق ، والخادم والأنيس ، والمنادم والجليس ، ويمهد المضجع للمبيت والمقيل ، ويهيىء الموضع فى النزول والرحيل .

وبالجملة لا يترك من أفعال الخير شيئاً إلا فعله ولا مجملاً إلا فصله، ولا متأخرا إلا قدمه ، ولا معاملا فى مبايعة إلا أسلفه وأسلمه . وليعلم أن كل ذلك محتاج إليه ومصروف لديه إذا نقل إلى دار البقاء وأقبل عليه ، فإذا جاء وقت الرحيل ونادى منادى الانتقال والتحويل ؛ وجد ما كان فى عمله حاضراً، وكل ما قدمه إلى رياض الخير نزهاً ناضراً ، كما قال ذو الجلال وأخبر به الصادق في الوعد والمقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠]. معنى أن ﴿لا تخافوا﴾ : لا خوف عليكم فيما هو أمامكم ، ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم ، فإذا دخل فى قبره وجده روضة من رياض الجنة ، يبشرهم ربهم برحمة منه ، ورضوان وجنات ، لهم فيها نعيم مقيم . وأما الشقى الغافل الغبى الذى أمهل أمره ونسى الله وذكره ، وأهمل ماخلِق لأجله وتاه فى بيداء الضلال وسبله ، فقد اغتر بهذه اللذة اليسيرة فى تلك المدة القصيرة ، واستمر سكران فى ميدان العصيان ، من خمرة الطغيان وتردى لباس الردى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة :١٦] . فانهدمت عمارتهم ، ولا ربحت تجارتهم ، حتى إذا جاءه الوقت المعلوم ونزل به الأجل المحتوم ، ونظر أمام وتراءت له الأعلام ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة: ٩٣،٩٤] . نزل من دار الغرور إلى دار الشرور ، فندم ولا ينفعه الندم ، وقد زلت به القدم ، فخاب مآبا ، وقال ياليتنى كنت ترابا .

فانظروا يا أولادى ، وعدتى وعتادى ؛ حال الفريقين ، وتأملوا للطائفتين ، فقد بذلتُ فى النصيحة جهدى وأستخلف الله عليكم من بعدى .

فقال أكبر ولده ؛ وهو أسلك محاسنهم وواسطة عقدهم : جزى الله مولانا عن شفقته خيرا ، وأولاه على حسن النصيحة أجراً وذخراً ، فلقد أحييت قلوباً بزواهر حِكَمِكَ ، وشنّفت أسماعاً بجواهر كلمك ، ولكن إخوتى وإن كانوا من أولى العلم وأرباب النباهة والحلم ، والعقل الغزير والفضل الجم الكثير ، والرأى المصيب المنير ، غير أن حدة الشباب عليهم غالبة ، ودواعى النفس بشهواتها مطالبة ؛ لا سيما إن حصلوا على ملك عريض ، وكرعوا من ألبانه المَخَضّ والمَخيض[1] . فإن اتفق مع ذلك موافق منافق ، أو صاحب ممارق ، أو صديق خدوع ، أو مباطن مكار هلوع ، أضلهم عن سواء السبيل وصار إلى طريق المخالفة أوضح دليل ، فتتحول صداقتنا عداوة ، وتتبدل فيها بالمرارة الحلاوة ، فينتزع الرخاء ويتمزع الإخاء ، ويبغى بعضنا على بعض ، وتعود الإخوة على موضعها بالنقض ، ويتولد من ذلك الفتن ، ويظهر من العداوة ما بطن ، فالرأى عندى أنه مادام زمام التصرف فى يد الإمكان يتصرف مولانا السلطان على مقدار جهده فى مصلحة عبده ؛ بحيث لا أكون مضغة للماضغ ، ومشغلة لكل قلب فارغ ، ولا يسلمنى لأسباب الحوادث ومخالب الدهر الكوارث ، فإنه بذلك يكفينى من نوائب الزمان ما يدهينى ، والعياذ بالله المنان من مفارقة مولانا السلطان جعلنى الله تعالى فداءه ولا أرانى فيه يوماً أساءه ، فليأخذ بيدى من هذه الورطة ، وليرحنى من شر هذه الخطة ، فإنه قد قيل : من لا يقيل المستقيل ولا يغيث المستغيث ، ولا يتقيد بمعنى هذا الحديث ، ولا يدفع غصة هذه القصة ويفوّت عند الإمكان الفرصة، يصيبه من حوادث الزمان ما أصاب بعض الجرذان الذى لم يُخلِّص الغزالة الواقعة فى شرك الحبالة[2] . قال السلطان : قل لى كيف كانت قصته وما كانت قضيته .

---

(١) الزبد .

(٢) شبكة الصياد .

[١٢] **فقال** : ذُكِر أن بعض الصيادين المحتالين الكيادين ، نصب حباله ليصيد غزالة ، فعلق بها مَهاة من المها[(١)] ، وطلبت مجالا واضطربت يمينا وشمالا ، فوقعت عينها على جرذ من الجرذان ، عنيد يتفرج عليها من بعيد ، فنادته بلسان زَلِق[(٢)] وأثنت عليه بلسان طلق ، وقالت : يا فارس ميدان المروة والنجدة والفتوة ، والموصوف بالشطارة والقوة ، هذا وقت الكرم، وأوان استعمال مكارم الشيم وفعل المعروف وإغاثة الملهوف ، وصرف الهمة إلى كشف الغمة . نعم ؛ وإن كانت طرائق الصداقة بيننا معدومة ، ونقوش التنافر على صحف خواطرنا مرقومة ، ونقود المعرفة والإخاء فى جنب التباين غير مبذولة ، ومرآة التوافق فيما بيننا غير مصقولة ، لكن فى الشدائد يعرف الإخاء ، والإخوان كثيرون فى الرخاة كما قيل :

دَعْوَى الإخَاء على الرّخاء كثيرة   بل فى الشدائدِ تُعْرَفُ الإخوان

وقد قصدتك فى الخلاص ، وقرض شَرَك الاقتناص ، ونجاتى من سكين القناص ، فاقرض هذه الشبكة بأسنانك الحداد ، وافتح بينى وبينك باب الوداد ، فإنى أصلح لك صديقاً وأنا أكون لك عتيقاً ، وأعرف لك الجميلة فأصير عبداً لك إلى الممات ، وأدركنى قبل الوفاة والفوات ، ومع هذا يا ذا الجاه لا يكن عملك إلا لله فقد قيل :

مَنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لا يُعْدَم جوَائزه   لاَ يَذْهَب العرف بَيْنَ اللَّهِ والنَّاس

فقهقه الجرذ وقهقر ، ولعب بإبطه وتمسخر ، وتمرغ يمينا وشمالا ، وتقصف طرباً ودلالاً ، وسخر بالغزالة وكلامها ، وبادر إلى عزلها وملامها، وتبرد بحرارتها وتحلى بمرارتها ، وقال : شهوتك الردية ، وحرص نفسك الشقية رَمَيَاك فى هذه البلية ، وتحركت سجيته الذميمة وطبيعته اللئيمة،

---

(١) الغزالة .

(٢) أى بتملق ولطف .

وأضرط بها ورقرق[١] وطفر وصفق ، وقال : عصب الرأس الصحيح من الحبل الصريح ، والتعرض لموارد الفناء من دلائل البلاهة والعناء ، ولو تعرضت لشبكة الصياد حكمت على عقلي بالفساد وحاشي فكرى المصيب ورأيى النجيح النجيب ، أن أجلب لنفسى مرضاً وأصيرها سهماً للصياد وغرضاً ، ولو فعلت ذلك لتصديت للمهالك ، وتصدّى لى الصياد فعادانى، وترصد لى وآذانى ، وحفر ثالمِعْوَل وكرى وأوقد النيران فى جحرى ، فسلبنى قرارى وبُغْيتى ومسارى ، وأقل الأقسام أن يجلينى عن ديارى ، إن خلصت من الموت بسلام ، ولا أستطيع بعدها المقام وقد قيل : لا تسلك غير طريقك ولا تصاحب سوى رفيقك .

وأما أنا فمالى بصداقتك حاجة ، فدعى عنك الطمع واللجاجة[٢] ، ثم هز عَطِفَيْه[٣] ونظر إلى كتفيه ، وتبختر فى مشيته وتمايل فى غشيته[٤] ، وولى فى تيهه وكبره يريد الدخول فى جحره ، وقد ترك الظبى آيساً فى حبائل فكره وضره ، وحبائك شدائده وشره ، فقيض الله حدأة خطفته ونبأت به فى الهواء نبأه[٥] .

وأما الظبى فلما أيس من الجرذ وإعانته ، توجه إلى الرحمن بكليته، وقطع آماله عن كل أحد ، ورفع ضرورته إلى الواحد الصمد ، وأخلص نيته الصادقة وقطع من الخلائق علائقه[٦] ، ثم جاء الصياد فأوثقه وقصد به البلد فصادفه شخص فاشتراه منه وأعتقه .

---

(١) تحرك .
(٢) الإلحاح .
(٣) أى هز عنقه متكبراً معرضاً .
(٤) حركته .
(٥) خبره .
(٦) نسبه وصلاته .

ولم أورد هذه اللطيفة إلى المسامع الشريفة ؛ إلا ليعلم أن التوانى عن فك العانى وإغاثة الملهوف أمر مخوف ، لا يرغب فيه ذو عقل وبإغاثة الملهوف وأخذ يد الجار ورد النقل ، ولابد من تأمل أعقاب القضايا قبل نزولها، وطلب طريقة رفعها قبل حلولها ، والخلاص من ورطتها قبل بغتتها.

وأسأل من صدقات مولانا الذى بالإحسان أولانا ، الإرشاد إلى عمل طريقة لطيفة نظيفة نقية خفيفة ، تكون عدتى فى شدتى مبقية للود بينى وبين إخوتى .

قال الملك : نعم ما قلت وحيث فى ميدان الصواب جلت ، فاعلم أن فى مملكتى ملوكاً كبراء ، وأساطين أمراء ، ورجالاً وجنوداً وأبطالاً وأسوداً أنا نشأتهم ولنصرة مثلك أعددتهم . كل منهم ذو وفاء ومودة وصفاء ، وباطنه خال من المكر والجفاء ، يقومون معك بأدنى إشارة ويحفظون جانبك من النهب والغارة وخصوصاً فلان أمير ممالك خراسان(١) ؛ فإنه أفصحهم خطاباً؛ وأمنعهم جِنَاباً ، وأوسعهم فى العقل رحاباً ، وأشدهم محبة ، وأقربهم مودة وقربة وأوفاهم عهداً وأصفاهم وداً سينجدك فى حال اضطرارك إليه ، فلا يكون اعتمادك بعد اللّه إلا عليه ، مع أنى سأعلمهم بجمعهم وآمرهم بإيصال نفعهم وأؤكد عليهم فى ذلك فلا يخطر شيء من النكد ببالك .

فقبل ولده الأرض ، ووقف فى مقام العرض وقال : أيها الملك المجاب إن محبة غالب الأصحاب وصداقة أكثر الأحباب ، ومن يدعى خلوص المودة ويبذل ظاهرا فى ذلك جهده ، إنما هى لأغراض وناشئة عن أعراض وأمراض ، فإذا حصل ذلك الغرض ، وزال العرض والمرض ، بردت عن المحبة قلوبهم ، وفرغت من نقد المودة جيوبهم وظهر بالجفاء وعدم الوفاء عيوبهم . ومن جملة ذلك الحسد الذى لم يخلُ منه جسد ، على نيل مرتبة أو البلوغ إلى منقبة ، وتمنى زوال نعمة المحسود وعدم الرضا بقضاء المعبود ، فإذا لم يحصل المراد تبدل القرب بالبعاد ، والمحبة بالبغضة

---

(١) خراسان : إقليم يقع حالياً فى شرق إيران على الحدود الأفغانية .معجم البلدان (٤١٦٤) .

والصحة بالمرضة ؛ كما جرى لنديم الملك الظاهر مع صديقه المسافر . قال لولده: أخبرنى بكيفية نكده وما تولد من قضية حسده .

[١٣] **قال الولد** : أخبرنى المملوك أنه كان عند بعض الملوك جماعة من العلماء ، وطائفة كثيرة من الندماء ، كل منهم لطيف المحاورة نظيف المعاشرة خفيف المكاثرة ، ظريف الحركة كثير البركة ، وبينهم شخص قد ساواهم بهذه الصفات ، وفاتهم فى علو الدرجات ، أظرفهم لهجة ، وألطفهم بهجة ، وأشرفهم نهجة ، عذب المكالمة حلو المنادمة ، تقبل الفصاحة ثغر ألفاظه فى خطابه ، ويتهلل مُحَيَّا البلاغة لإشراق جواهر جوابه ؛ اسمه رشيق وهو لكل عشيق ، وللملك أكرم نديم ، وأقدر خديم ، وصديق قديم ، يقبل عليه ويميل دون الكل إليه .

ففى بعض الأيام قدم على الرشيق بعض الأعجام وكان من بغداد من ذوى الفسق منهم والفساد رجل من الشطار[١] ، عيَّار مكار ، خوّان غدار ، مستحق الرجم ليس فى السماء له نجم ، غير أنه متظاهر بجميل الخصال ، وأنه خدم أهل الفضل والأفضال ، فعلق بطبعه من شمائلهم ، وتلبس ظاهرا بفضائلهم ، فتلقاه الرشيق بما يقتضيه كرمه ويليق ، وبالغ فى إكرامه وتقدم فى احترامه وأكرم نزله ، وأفاض عليه نعماً جزلة ، ومال إليه بكليته ، وجعله من خواص جماعته ، فصار كل يوم بيدى فضلاً ويفتح باباً من الكلام وفصلاً ، إلى أن غلب على ذلك الزنديق[٢] حسد النديم المسمى برشيق ، لكونه من خواص الحضرة السلطانية ، وقصاص الخدمة الملكية ، وكبير الندماء وخطير القدماء فالتمس من النديم ذلك الوغد الذميم أن يوصله إلى الحضرة الشريفة ، ويسبل عليه ظلال نعمه الوريفة[٣] .

---

(١) الشطار ، مفردها الشاطر : قاطع الطريق .

(٢) الخطاف الذكى .

(٣) الممتدة .

فأفكر الرشيق الفكر الدقيق ، فى عقبى هذه القضية وما يحدث عنها من البلية ، فإنه قد كان أدرك من ذلك الشيطان سوء أفعاله من أقواله ، ووخيم عزماته من شمائل حركاته ، وشؤم سكناته وتحقق ذلك من عذبات لسانه وفلتاته . وكل شيء تزرعه ينفعك ، إلا ابن آدم إذا زرعته يقلعك . ومن أكرم ذا حسد ورأى من أمره عكسه ، فلا يلومن إلا نفسه . فصار يسوّف به ويدافعه ويمانعه ، ويصانعه ويدارى الوقت خوفا من المقت[١] ، إلى أن أيس منه وقطع الرجاء عنه ، فالتهب قيظ غضبه[٢] ، واشتعل شواظ لهبه ، فما رأى لبرود هذه الغصة إلا كتابة قصة ، يعرضها ذلك المنهمك على آراء الملك ، يضع فيها لشدة حسده من الرشيق ، ويفت من عضده ، ويفترى ذلك المجترى عليه ماهو عنه برى ، فراقب الفرصة وكتب القصة يذكر له مساوى فيها ، ومن جملة مساويها أن بجسد الرشيق من الداء العتيق ما أعجز الأطباء وأعيا الحكماء الألباء ، وإن ذلك الداء يُعْدِى وفعل الإلزام يتعدى فيردى ، وأن كثيراً من الناس الأخيار ممن اطلع على دائه ومعضل بلائه يتحامون صحبته ويجتنبون قربه ومؤاكلته ، وإن هذه نصيحة عرضها وعلى نفسه فرضها، إذ القيام بأدائها واجب عليه وانهاؤها إلى المسامع الشريفة مندوب إليه .

فلما وقف الملك على مضمون ما أنهاه ذلك الخبيث فيما ادَّعاه ، تذكر ما قاله لبيد للنعمان عن وزيره العبسى فيما مضى من الزمان وهو[٣]

---

(١) الحسرة والخسارة .

(٢) القيظ : الشديد الحر . وقيظ غضبه : شدته .

(٣) لبيد بن ربيعة ، شاعر مخضرم ، من أصحاب المعلقات توفى بالكوفة (٣١هـ) مسلماً والنعمان : هو ابن المنذر أبو قابوس ، من آخر ملوك الحيرة مدحه كثير من الشعراء توفى قبل مبعث النبى ﷺ . البداية والنهاية (٢/٢٠٥) .

نَحْـنُ بَنُـو أم البَنِيْـنَ الأرْبَعَـة وَنَحْـنُ خَـيرُ عَـامِرٍ مِنْ صَعْصَعَـهِ[١]
إليْـكَ جَاوَزْنَـا بـلاَدًا مُسَـبَعَةٍ نُخْـبرُ عَــنْ هَـذَا خَبَـيْراً فاسْـمِعَهُ
مهلاً أبَيْتَ اللعْن لا تَـأكُل مَعْهُ إن اسـتهُ مِــنْ بُــرص مُلَمعــهِ[٢]
وإنَّهُ يُدْخِـل فِيهـا أصبعــهُ يُدْخِلُــهَا حَتَّــى يُـوَارى أشْجعـهِ[٣]
كأنمـا يَطْلُــبُ شَـيئاً ضَيَّعهِ

فاشمأزت من الرشيق نفسه ، وزوى فى رياض مصاحبته غرسه ، فأمر الحجاب والبوابين أن يكونوا لدخوله على الملك آبين .

فلما أن جاء الرشيق وقصد الدخول بجاش وثيق ، منعوه من الدخول ، فرجع خائباً خاسراً وبقى حائرا بائراً[٤] ، ولم يشكَّ أن هذا الضرب سهمٌ غَرْبٌ[٥] لأنه لم يعلم السبب ، فقضى من الزمان العجب ، فشرع يتفحص عن سبب البعاد ، ويتردد بين أغوار وأنجاد[٦] ويذهب رائد فكره كل مذهب، ويعزم على توابعه ليقفوا على موانع المطلب ، إلى أن وقف على السبب المضرم ، وعلم أنه الإحسان إلى ذلك المجرم ، وظهر لذلك البحر البر من قوله : الإحسان إلى اللئيم سلفٌ فى الشر .

فاجتمع بجماعة من أصحابه وطائفة من خُلَّص أحبابه ، وعرض عليهم

---

(١) عامر بن صعصعة : قبيلة عربية من ولد عدنان سكنت شمال الجزيرة العربية . البداية والنهاية (٥/٨١) .
(٢) الاست : مُتبرز الإنسان .
(٣) الأشجع : جزء من اليد ، وهو موضع اتصال الإصبع بالكف .
(٤) البائر : ما بار من الأرض ، حائر بائر : أى لا يطيع مرشداً ، ولا يتجه لشىء .
(٥) سهم غرب : مثل يضرب للشىء لا يعرف أصله ، والسهم الغرب هو الذى لا يعرف من الذى رماه .
(٦) أغوار ، مفردها غور : العقر من كل شىء . أنجاد ، مفردها نجد : المرتفع من الأرض . والمعنى : أى يتردد بين هبوط وصعود .

قصته ، واستدفع بآرائهم غصته ، ثم تَعرَّى من لباسه عند الخواص من أناسه؛ لينظروا إلى جسده وبأسه ، فرأوا بدناً كسبائك الفضة ، وأطرافاً ناعمة غضة ، وأعضاء تحسبها من الحور غوانيها مسلمة لاشية(١) فيها ، فأجمعوا على سلامتها وذكروا للملك محاسنها بعلامتها ، وشهدوا بحسن صفائها ورونق بهائها ، وأنها سليمة عن الأدواء بريئة من كل داء وكأنه فى شأنه قيل:

وأعْجَبُ مَا شاهدتُ فى وَصْلِهِ وقَدْ نزعنَا غَلالاَت وثوب حياء(٢)
تلألؤ نـــور فـى ترقـرق مائـــه وصورة وروح فى مثال هواء

وإنما لشدة الحسد عاب ذلك الجسد .

فقال الملك : صدقتم وبالحق نطقتم ، ولكن كيف وقد قيل :

قَدْ قِيلَ ذَلِكَ إنْ صدقاً وإنْ كذباً فَمَا احتيالِكَ فى شيء وقَدْ قيلاَ

ثم قال الملك ؛ لجماعته المنتظمين فى سلك طاعته : الذى يدور فى معلومى ، ويبرز به مرسومى أن لا يدخل الرشيق ولا يصوب نظره إلىّ ، فإنِى إذا نظرته تذكرت ما قيل واستحضرته ، فتشمئز النفس والخاطر ويتكدر الباطن والظاهر ، ويتشوه وجه العيش الناضر . ثم أمر له بمال جزيل وإقطاع عظيم جليل ، ومنعه من المثول بين يديه والدخول عليه .

وإنما أوردت هذه الحكاية المتضمنة لهذه النكاية ؛ لتحيط العلوم الشريفة ، والآراء المنيفة أن بعض المدعين للصداقة وأحكامها بأحكام الوثاقة، لا يعتمد على دعواهم ، ولا يركن إلى مضمون فحواهم ، فربما تكون صداقتهم من هذا القبيل ، فتؤدى إلى داء ثقيل وغم عريض طويل ، فلا يمكن علاجه ولا يسلك منهاجه ، وأعظم مافى ذلك ما يؤدى إلى المهالك ، وهو

---

(١) لا عيب فيها .

(٢) غلالات ، مفردها غلالة : ما يلبس تحت الثوب .

عداوة الأقرباء من الأبناء والآباء وذوى نصائح الإخاء . فإن ذلك غل قَمْلٌ[١] وجرح لا يندمل ، ومرض لا يبرأ ويفضى بصاحبه إلى توسد الثرى[٢] . وإن عداوة الأجانب أسهل من مخاشنة القرائب ، وإن القرائب إنما يرجون لدفع الداء ، فإذا كانوا هم الأعداء فقد أعضل الداء .

ومن شواهدها أيها الملك الفاضل ما جرى لابن سلطان بابل[٣] ، مع عمه الظالم الخاتل[٤] الخائن القاتل . فقال الملك الكبير : أظهرنا على صورة ذلك أيها الخبير .

[١٤] **قال** : ذكر أهل التاريخ أيها العالى الشماريخ[٥] ، أنه كان فى ممالك بابل ملك عظيم فاضل كريم الشمائل ، عدله مذكور وفضله مشهور، همته عالية ، ونحور ممالكه بعقود فواضله حالية ، وأفواه مسالكه كثغور الغوانى بشَنَبِ[٦] العدل والأمان زاهية ، وله ولد صاحب حسن وجمال وفضل، وأفضال وملاحة ودلال وصباحة وكمال ، غير أنه صغير السن لم تمر به التجارب ولم يُبْلَ أحوال الأباعد والأقارب ، لا مارس الأنام ولا سايس الأيام ، ولا سبر العدو والصديق ولا خَبِرَ الحريق والرحيق ، ولا فرق بين المرافق والمنافق ، والمصادم والمصادق ، والمصارم والملاصق .

فلما دنت وفاة أبيه جمع أخصاءه وذويه ، وأراد أن يعهد إلى ولده

---

(١) غل قمل : مثل يضرب لشدة العداوة والكراهية .

(٢) الثرى : التراب المبلل بالماء . وتوسد الثرى : أى الهلكة والموت .

(٣) بابل : أكبر وأشهر مدن الشرق القديم ، تقع على نهر الفرات ، وقد بلغت عصرها الذهبى فى عهد حمورابى (١٦٦٩) ق .م وحالياً محافظة فى جنوب العراق . معجم البلدان (١٢٦٨) .

(٤) المخادع .

(٥) الشماريخ ، مفردها شمروخ : العالى الهمة .

(٦) الشنب : الفم الطيب ، بشنب العدل ، أى الفم الذى ينطق بالعدل والحكمة .

ويرقيه إلى سنده ومستنده ، ثم دبر في أموره وأحواله وتفكر في مصيره ومآله ، وخشي أنه ربما أخل بشيء من القواعد ، فأبعد الأدنى وأدنى الأباعد، أو وضع شيئاً في غير محله أو ولَّى منصبا غير أهله ؛ وذلك لعدم تدبر أو فساد تصور ، أو نشوز رفيق ، أو فقد مرشد وشفيق ، أو لغرض فاسد من كاشح[١] ، أو حاسد ، فيختل نظامه ، ويعوج قوامه ، ويفسد أمره ؛ فيخونه زيده وعمره .

وكان للملك أخ بل إنه فخ ، يدَّعي المقة[٢] ، ويظهر أنه ثقة ، وله حنو وشفقة ، فعهد إليه واعتمد عليه ، وسلمه ولده ، وجعله وصيه ومستنده، وأجلسه مكانه ، وأشهد عليه من رؤساء المملكة أركانه ، أنه إذا توشح ولده بالولاية وآنس منه رشده بالرعية والرعاية ، يجلسه على السرير ويسلمه الكبير من جنده والصغير ، ويكون هو له أحسن وزير وأيمن مشير ، ونظام ملكه ورأس فلكه ، وعضد ساعده وساعد مساعده ، وأتابك[٣] عساكره ، وعماد الإمرة وأوامره ، فإن نفس ولده في سن جهلها تكون عوناً من أعوان رعونة[٤] الصبا في حزنها وسهلها ، ويؤدي إليه ملكه بمقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء :٥٨].

فقبل أخوه ذلك منه بقبول حسن ، وتكفل له أنه يأسو جراح الملك على وجه مستحسن ، وأظهر الود والترفق والتملق والترقرق[٥] والتلهف ، والتأرق والتأسف والتحرق ، وبكى وتأوه ، وشكا وتذلل ، وتمسكن حتى تمكن.

---

(١) الكاشح : مضمر العداوة .

(٢) المقة : اللين السهل .

(٣) أتابك : قائد العسكر .

(٤) الطيش .

(٥) الرقة والحنو .

فلما قضى الملك نحبه وأجاب ربه ، صعد على السرير ، وتمكن من الجليل والحقير ، وتشربت أضلاعه وعمرت بحب الحكومة والتسلط فى دور طمعه رباعه[1] وابن أخيه فى كفالته والممالك فى إيالته[2] ، واستمر الصغير تحت نظره لا يفارقه فى سفره ولا حضره ، يكتسب كل يوم مخايل السعادة، ويطرح من حركاته شمائل السيادة ، ويظهر على أعطافه الملوكية يوماً فيوماً آثار الحسنى وزيادة ، إلى أن ارتفع قدراً وصار فى الكمال هلالاً وبدراً ، فشم عمه من رياض همته ، عرف الطلب وقوى فى ذلك ما كان تقدم من سبب، وعرف أنه لابد له فى ذلك من تسريحه ، فلو منعه لقام كل الخلق باستهجانه وتقبيحه ، فتحل عقوده ، وتقل جنوده ، ويختل عن عسكره بنوده ، وتفنى صورته وسيرته ، وينقض من حبل عمره مريرته[3] فلا يحصل من المُلكِ إلا على الهَلْكِ ، فأعمل الكيد وخرج إلى الصيد ؛ فتفرقت العساكر وانفرد الملك الماكر ، ومعه ابن أخيه فاختلى به فى تيه ، فوثب عليه وفجعه بكريمتيه[4] ، وألقاه فى البرية إلى مخاليب المنية[5] ، وتركه وحيدا أعمى لا يجد دليلاً ولا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف مقراً ولا مقيلاً . ثم اجتمع بعسكره ظاناً أنه فاز بظفره ، مخبراً بوفاته وتعمية خبره ؛ ففرغ باله وأصلح رجاله ، واطمأن خاطره ، واستقرت أموره ، واستقامت حبوره .

فلما هجم جيش اللَّيل ؛ أقبلت السباع من الوادى كأنها السيل ، وقصدت الوحوش والهوام مالها من مأوى ومقام ، وعوت الذئاب ، وزأرت الأسود، وهمرت النمور والنسور والفهود ، فساورت ابن الملك الهموم ، وأورثته

(١) أى تمكن الطمع منه .

(٢) كنفه .

(٣) المريرة : الحبل الشديد الفتل . والمعنى : أى أنزل به البلاء .

(٤) عينيه .

(٥) الموت والهلاك .

أصناف الغموم ، واحتوشته المخاوف والوجوم ، فلجأ إلى جناب الحى القيوم، جناب لا يخيب قاصده ، ولا يَصْدُر إلا بنيل الأمل وارده ، وصار يحسس بيديه ، ويصغى إلى الحيوان بأذنيه ، ويتمشى إلى كل جانب ويهوى بيديه إلى الأطراف والجوانب ، ويتعلق بحبال الهواء كالغريق الغاطس فى الماء . فوقعت يده على شجرة فعلق فيها يديه وظُفْرَه ، وصعد عليها وأوى إليها، وتوجه بقلبه إلى خالقه وموجده ورازقه ، وقطع عما سواه أسباب علائقه ، واشتغل بالذكر والتسبيح ، وفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى بأمل فسيح، واستمر فى هذا الويل برهة من الليل ، وكان طائفة من الجان المهرة ، كل ليلة تأوى إلى هذه الشجرة فيتذاكرون ما جرى فى العالم ، وما صدر فى عالم الكون والفساد من أعمال بنى آدم ، ويقيمون أفراحهم ويتعاطون انشراحهم .

فلما اجتمعوا تلك الليلة ، ذكر كلّ قوله وما جرى من الحوادث ، ومن المفرحات والكربات ، وما وقع من العجائب واتفق من واقعات الغرائب . فقال واحد من القوم : ومن أعجب ما وقع اليوم من الأمر الكريه ، ما فعله ملك بابل بابن أخيه ، وذكر لهم القضية وما تضمنته من بلية ، وجعل يتأرق ويتحرق ويتبرم ويتضرم ويحرق الأُرَّم(١) ، ويتعجب من عدم وفاء بنى آدم .

فقال رئيس الجان : وهذا غير بديع من طبع الإنسان فإنه مجبول على الغدر ، مطبوع على الدهاء والمكر ، ألم تسمع قول قائلهم فى وصف فضائلهم ، وقبيح شمائلهم ممن انخرط فى سلك الفضل بدون منع ولا حجز:

إذا كان الغدر طباعا ، فالثقة بكل أحد عجز .

ثم قال الرئيس : اعلم يا نفيس إنى أعلم ما يزيل هذا الألم ويطفىء هذا الضرم ، ويشفى هذا السقْم ، وهو أن هذه الشجرة النجيبة لها خاصية عجيبة،

---

(١) الأرم : الأسنان والأضراس . ويحرقها : أى يحكها ببعضها من شدة الغضب .

اسمها شجرة النور وفضلها في ذلك مشهور ، إذا أُخِذَ من عصارة ورقها ووضعها الأعمى على حدقها انجلى عماها بقدرة رب براها وخلقها فسوّاها، ورد إليها بصرها وزاد نظرها . ثم إن الخرابة الفلانية فيها جحر حية بذية، وهي تابعة ملك بابل الفاعل هذا الفعل السافل ، وحياته متعلقة بحياتها ، وموته موقوف على مماتها ؛ لأن طالعه على طالعها ، وطبعه اللئيم مطبوع على طابعها ، فبمجرد ما تموت الحية يموت ، ويُنقَل من دَرَجِ الملك إلى دَرَج الملكوت . كل ذلك . وابن الملك يسمع هذا القول ، فلجأ إلى ذي القَوة والحَوْل حتى مَنَّ عليه بعد شديد العقاب بهذا الطَّوْلِ[1] ، وجعل ينادي ويبتهل ويقول : متى جبين الصبح يهل ، وينشد :

أَلاَ أَيُّها اللَّيلُ الطويلُ ألا انْجَلِي بصبْحٍ وَمَا الإصبَاح مِنكَ بأَمْثَلِ

فلما أصبح الصباح ونادى مؤذن السعد حي على الفلاح ، تيمّم ابن الملك ، وصلى وحمد الله على النهار إذا تجلى ، ورض[2] بين حجرين من ورق الشجرة واكتحل بمائه فرد الله عليه بصره ، ثم وجّه ذهابه إلى تلك الخرابة ورصد خروج تلك الحية اللاطئة[3] وضربها ضربة غير خاطئة فأحاط بها نازل الهلك ، وفي الحال خر المَلِك ميتا على سرير المُلْك . وبينما العزاء عليه قائم وإذا بصاحب السرير عليهم قادم ، وقد قصد ملك أبيه ، وتمكن من ملكه وذويه وتصرف فيه كما شاء ، وألبسه خلعة الملك من يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ خوفاً أن يكونَ صاحبُ مولانا الجليل الذى بخراسان من هذا القبيل ، فتُبَدّل المحبة بالبغض ، وترجع على موضوعها بالنقض .

---

(١) الفضل .

(٢) دق وطحن .

(٣) الملاصقة لجحرها الخبيثة .

ثم إن بعض الأصحاب و الإخوان يفعل ما يفعله من الخير والإحسان على سبيل المكافأة ، لا على طريق المروءة والمصافاة ، فإذا كافأ بالإحسان عاد إلى ما كان عليه من العدوان ، فاسأل الحضرة الشريفة ، والمراحم المنيفة ، ذات الفضل المشهور والإحسان المأثور ، التأمل فى عواقب هذه الأمور ؛ لئلا يصيبنا ما أصاب المسافر ضيف الحدّاد المنافر من العفريت الملقى فى المحافر . قال أخبرنى أيها الولد النجيب عن ذلك الأمر العجيب ، وقاك الله شر الوجيب(١) .

[١٥] **قال** : بلغنى من رواة الأخبار ؛ أن شخصاً من الأخيار ، لازم الأسفار وقطع القفار ، فجاب مشارق الأرض ومغاربها ، وبلغ أكنافها وجوانبها ، وشاهد عجائبها وغرائبها ، وقاسى حر الزمان وقُره ، وذاق حلوه ومره ، وعانى خيره وشره ، فأداه بعض المسير إلى بلدٍ كبيرٍ ، فرأى فى بعض نواحيه ، وطرف من بعض ضواحيه طائفة من الصبيان قد اجتمعوا فى مكان ، فوصل إليهم ذلك الفقير فوجدهم واقفين على حفير(٢) ، يرمون فيه بالأحجار ، وهم يستغيثون بالستّار من العدو المكار ، والخبيث الغدار، والحسود القديم ، والكافر الذميم ، والشيطان الرجيم ، فسألهم ما هذه المعضلة؟ فقالوا : عفريت وقع فى هذه البئر المعطّلة ؛ وهو عدو قديم نريد أن نقتله .

فقال : افسحوا حتى أنظر إليه ، وأساعدكم عليه ، ففسحوا عن ذلك الطوىِّ(٣) ، فنظر فى قعر الركىِّ(٤) ، فرأى فى جانب منها عفريتاً منزوياً،

---

(١) الجبن والخوف .
(٢) الحفرة فى الأرض كبيرة .
(٣) البئر .
(٤) البئر ذات الماء .

وقد هشموه وكسروه وحطموه ، وكاد يهلك مما رجموه فعندما نظر إليه رق له وعطف عليه ، وقال : أفضل المعروف إغاثة الملهوف ، وإن لم يكن بيننا سابقة صداقة ، ولا وشيجة[1] محبة ولا علاقة ؛ بل عداوتنا جِبَلِية ، ومباينتنا أزلية ؛ لكن فعل الخير لا يبور ولله عاقبة الأمور ، وإذا قصد الإنسان فعل الخير فلا عليه أن فعله مع أهله أو الغير ، وقد قيل للتمثيل : أيها الإنسان قد عداك الذم افعل الخير وألقه في اليم . ثم منع عنه الكبير والصغير وساعده على الخروج من البير ، واستنقذه من أيديهم ، وأطلقه ؛ فكان كمن اشتراه وأعتقه .

فلما رأى العفريت هذا الإحسان من ذلك الإنسان من غير سابقة ولا عرفان ، قبل يده ورجله وشكر له هذه الفعلة ، وقال : إني عاجز عن مكافأتك يا إنسان في هذا الأوان ، وأنا اسمي فلان ، فإن وقَعْتَ في ضيق ، أو ضللت في طريق فنادني باسمي أحضر إليك بجسمي ، وأنفعك في ضيقك وأرشدك إلى طريقك ، وأكافئك أيها اللوذ عي[2] بما فعلته معي .

ثم وَدّع كلّ صاحبه وخالف في السير جانبه ، فوصل السَّيَّاح إلى بلد من البلاد له فيها صديق حدَّاد ، فنزل عنده فأكرمه ورحب به وخدمه ، وكان لتلك البلدة عادة حسنة أنهم في يوم مُعَيَّن في كل سنة يقربون من يقدم عليهم فيه ، ولا يسألون أخامل هو أم نبيه ؟ فإن لم يقدم عليهم غريب في ذلك اليوم، اقترع فيما بينهم القوم ، فمن خَرَجَتْ قُرْعته سحبوه وكسروا قَرْعته وقربوه[3] ، فوافق ذلك اليوم قدوم السائح ، ولم يرد سواه من غاد ورائح ، ولا شعر به أحد من أهل تلك البلد . فأخذوا في القرعة بالاجتهاد فطرقت القُرْعة قَرْعة الحداد ، فقبضوا عليه وعزموا على تقريبه .

---

(١) صلة ورابطة .

(٢) الذكي .

(٣) أي جعلوه قرباناً .

فقال : عندى غريب لم يكن أحد يدرى به ، فلم يدر السائح إلا وقد أحاطت به الشوائخ[1] فهجموا عليه ، وربطوا عنقه ويديه ، ثم سحبوه وحبسوه وفى أضيق مكان أجلسوه ، وأشهروا النداء أنه حصل للحدّاد الفداء، فعلم السائح القضية وتحقق أنه تورط فى بلية ، فذكر اسم العفريت وقد علقه الهم علوق النار بالكبريت ، فحضر لساعته ووقته فرأى السائح فى هوله ومقته ، واطلع على جملة الشان ، فقال : لا تخش يا ذا الإحسان ، اعلم إن أمير هذه البلد له ولد ، هو واحد أبويه ، وإنى الآن أصرعه بين يديه ، ثم أنادى فى النادى[2] إن رمتم شفاء هذا العليل فهو بدعاء ذلك الرجل الجليل، السيد الصالح الزاهد السائح ، ضيف الحداد الذى بسببه حصلت هذه الأنكاد، فأطلقوه والتمسوا دعاءه ، فإن فيه لعليلكم شفاءه ، ولا تطلبوا من غيره دواءه، فإذا طلبوك وأعزوك وأرغبوك وأكرموك واحترموك ، فادع بما يرفع نكدهم فإنى إذ ذاك أترك ولدهم ، فإذا رأوا منك هذه الكرامة بالغوا وسلموك الزعامة، وخيروك بين الرحيل والإقامة ، وأقل ما يفعل معك السلامة .

ثم ذهب إلى ابن الملك وَخَبَطَه[3] وحلَّ فى أعضائه وربطه فتخبط الصبى ، وتخيل وتكسل ، وتخبيل وكادت روحه تخرج ويدرج مع من يدرج[4] فاشتغلوا بشأنهم عن أمر قربانهم ، فطلبوا الأطباء فأعياهم علاج هذا الداء ، ولم يقدروا على علاجه وتعديل مزاجه وتقويم إعوجاجه ، واشتغلت الخواطر وتنكد البادى والحاضر . فعند ذلك نادى العفريت من ذلك البيت يسمعون كلامه ولا ينظرون مقامه ، إن زوال هذا العارض ، ومنع هذا الداء المعارض عند رجل قدوة مستجاب الدعوة ، رجل صالح زاهد سائح عالم

---

(١) الجنود .

(٢) جموع الناس .

(٣) خبطه الشيطان : مسّه بخبل وجنون .

(٤) يموت ويهلك .

عامل كامل فاضل ، هو بركة البلاد والعباد ، مادة الصلاح وقاطع الفساد ، وهو ضيف الحدّاد الذى فرط منكم فى حقه سوء الأدب ، فأدرِكوه بالطلب وأسرِعوا نحوه ، والتمسوا منه دعوة ؛ وإلا فولدكم هالك عنوة ، وبادروا باللحوق ؛ لئلا يخرج السهم من فوق فإن سهم هذا المصاب بسبب ذلك أصاب.

فركب الملك بنفسه وسارع إلى باب حبسه ، ودخل عليه وأكب على رجليه ، وطلب دعاءه ورام لولده شفاءه فتوضأ وصلى ، وأعرض عنهم وتولى ، وتوجه ودعا فحصل للولد الشفا ، ونهض فى الحال كأنما نشط من عقال . ثم إن العفريت الجائح[1] أتى الرجل السائح وقال : لا تحسب إنى إذا كافيتك صادقتك أو صافيتك ، كيف وعدواتنا قديمة مغروزة ، وغروس التباغض فى حدائق ذواتنا مركوزة ، أنا من نار وأنت من تراب ، شيمتك الترابية ، وشيمتى الإحراق والخراب ، ومتى استقام أعوج مع قَوَام[2] أو وجد بين المتباينين التئام ؛ وإنما كان هذا الوفاء لئلا ينسب إلى الجفاء ، ونحن على الكدر دون الصفاء ، وعلى ما نحن عليه من العدوان ، وإن لم يصر بيننا معرفة ولا كان ، ثم صار شعلة لهب وترك السائح وذهب .

ثم قال ابن الملك : ومن أنواع المحبة والصداقة وما يتأكد فيها من العلاقة نوع محبة تتوفر فيه الرغبة ، ينشأ من فرط الشهوة ويركب من صاحبه على الصهوة[3] ، وتميل إليه النفس والطبيعة ، ولكن تكون استحالته سريعة فيزول بأدنى سبب ، ويشبه شواظ اللهب يتلهب ساعة وقد ذهب ، وربما أدى إلى الهلاك والعطب ، كما فعل بالبطة الثعلب ، حيث كانت محبتها

---

(١) الداهية .

(٢) استقامة .

(٣) الصهوة : موضع جلوس الفارس على ظهر جواده .

غير صادقة ومودتها بالشهوة مماذقة ، وشتان ما بين المحبة الخالصة والمحبة المنافقة لا جرم أدت إلى عكسها وإزهاق نفسها . قال الملك : أخبرني أيها الخبير كيف هو هذا النظير .

[١٦] **قال ابن الملك** : ذُكِرَ أن زوجا من البط كان له مأوى على شط جارٍ بين رياض ومروج وغياض ، أزاهيدها عطرة ورياحينها نضرة ، وقريب من وكر البطتين مأوى لأبي الحصين[١] ، فحصل لذلك الثعلب المَرَض المسمى بداء الثعلب فسقط وبره وتمعط[٢] صوفه وشعره وذاب جسمه ، وتهرى لحمه[٣] وقارب التلف واللحاق بمن سلف وصار كما قيل :

أصبح في أمراضه يعذب | كخرقة بال عليها الثعلب

فلما أنحله السقم[٤] وأضناه ، قالت له سلحفاة لما زاد به المرض واشتط: دواء دائك كبد البط ، فإن أكلت كبد بطة نصلت[٥] من هذه البلاء البتة . فقال : ومن لي بهذا الدواء إذ ليس لي حراك ، والبط في الهواء ، فشفاء هذا الداء العضال ، من باب التعليق بالمحال ، وكأن الشاعر يعنيني إذ سمع أنيني ورأى سكوني تحت أحمال شجوني بقوله :

فقال : قُم قلت : رجلي لا تطاوعني | فقال : خذ قلت : كفي لا تواتيني

ثم استنهض همته ، واستنخى[٦] نهمته وصمم عزيمته ، واستعمل فكره واستورى مكره ، وقال لنفسه : لاينجيك من هذا الأنكال إلا التشبث بذيل

---

(١) أبو الحصين : كنية الثعلب .

(٢) فسد وانحل .

(٣) ذاب وتلف .

(٤) المرض .

(٥) خلص .

(٦) تقوى ونهض .

المحال ، لعل الله واهب العطية يظفرنى بهذه الأمنية ، ثم توجه وهو يتشحط[1] إلى صوب البط ، وصار يتلظى[2] فى جنبات الشط إلى أن لاح له بَعْد الأَيْن[3] ، أنثى هاتين البطتين ، فتخفَّى إلى أن قاربها ، ثم واثبها فما ساعدته القوة ، فَهَوى فى هوْة ، فما واسعه إلا أن غالط وأظهر المودة وخالط، وعَبَرَت عيناه وبالط[4] ، وأرى من نفسه أن تلك الوثبة إنما هى من داعية المحبة ، ونهضة الاشتياق إلى الأحبة ، ثم بادر وقال : مرحبا بالجارة الصالحة ، ومن نُعوتِها بمسك العفة فائحة ، وأخلاقها غادية ببشر الخير رائحة ، المخدرة المجيبة ، الحبيبة النجيبة ، حياك الله من قرينة رضية جميلة الأوصاف بهية ، فما أكثر إحسانك وفضائلك وأوفر امتنانك وفواضلك ، لقد عممت بإحسانك جميع معارفك وجيرانك وأطعت زوجك وحلالك ، وتحقق كل أحد لحسن الشيم جلالك ، ومازال ينفق عليها من حواصل هذه الخزعبلات ، ويفعِّم أردان[5] عقلها من معادن هذه التمويهات ، حتى سكنت بعض السكون ، وركنت إليه أدنى ركون ، ثم أخذ فى الإيناس وتمهيدة واعد الأساس ، حتى اطمأنت واستكانت واستكنت . ثم قال : إنا للَّه ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، ترين ما رأى فيك زوجك من الخلل ولاح له من عيب حتى فعل ما فعل . قالت : وما فعل ذلك الجُعَل[6] . قال : لولا أن الغيبة ريبة والنميمة مشؤمة ، ونقل المجالس القبيحة ، وإن كانت وقائعها صحيحة أمر مذموم وهذا معلوم ، لكنت أفصحت وأشبعت القول ونصحت ، ولكن الصبر

---

(١) يضطرب فى مشيته .

(٢) اشتعل غيظاً .

(٣) التعب والإعياء .

(٤) استمر فى الخداع .

(٥) أردان ، مفردها ردن : طرف الكم الواسع . وأردان عقلها : الأسس والمبادئ

(٦) الذميم .

على الضرائر[١] فعل الحرائر[٢] ، والورد لا يخلو عن شوك ، ولا الشباب عن نوع نَوْك[٣] . فلما سمعت هذه النجوة[٤] حملتها المحبة الممزوجة بالشهوة أن ألحت عليه وسألت إيضاح ما لديه ، وأقسمت عليه بحق الجوار إلا ما أطلعها على هذه الأسرار .

فقال : لولا أن الجوار ذمة لما فُهتُ بكلمة ، خصوصاً وقد ألححتِ بالقسم ، وتشفعتِ بالجوار والذمم ، وأيضا لولا وفور الشفقة وعظم المحبة والمقة ، واعتمادى عليك أنكِ ثقة ، وأن صدرك مخزن الأسرار ، وأنك سيدة الأحرار ، ما أطلعتك على شيء مما كان وصار .

اعلمى أن زوجك المشتط[٥] ، قد خطب بنت ملك البط ، وله فى هذه المكيدة مدة مديدة آخرها اليوم ، كان قد أرسل إلى القوم الماشية والخطابة أن يهيؤا أسبابه .

فلما سمعت هذا الكلام ساورها من الغيرة الضرام ولا تشك فى أنه صادق وذهلت عن التبين فى خبر الفاسق ، وجميع الأخبار عن الأزواج يتوقف فيها النساء إلا خبر الزواج ، ثم إنها تماسكت وأَرَتْ تجلدا وتمالكت، وقالت : أحل الله له من الأزواج ما طاب له ، لا حيلة إلا الانقياد وترك المراد ، وموافقة السنة والجماعة ، والدخول تحت الأمر بالسمع والطاعة، وماذا يفيد التدله[٦] والحيرة ، إن الحلال جدع أنف الغيرة . قال : والأمر كما

---

(١) الضرائر ، مفردها ضرة : زوجة الزوج .
(٢) الحرائر مفردها حرة : المرأة الكريمة .
(٣) الحمق .
(٤) المحادثة سراً .
(٥) الأهوج .
(٦) الدهشة والحيرة .

ذكرت وما أحسن ما افتكرت وصبرت ، وما يمكن الطعن فى الحلال ولكن هذا دليل المَلال[1] ، وكل من ادعى هواك وتخلل فى طريق سواك ولو بِخِلال من سواك ، فلا شك أنه قلاك ، وبنار الهجر والجفاء سلاك ، وليس هذا ساعة وتمضى ، ولا حادثة تقع ثم تنقضى ، إنما هو أمر دائم ونزاع أبد الدهر قائم ، وأنا ما أخشى إلا عليك بما يصل من النكد إليك ، فإن حقك ثابت على وضررك عائد إلى ، فإنك جارة قديمة معروفة بحسن الشيمة ، لم أر منك إلا الإحسان وعدم التعرض إلى إيداء الجيران ، وكل منا قد اعتاد بالآخر وباهى بصحبته وجواره وفاخر ؛ وأخاف أن يتجدد لى فى الجوار من يتصدى لى بالأضرار ، ويؤذى ولا يعرف حق الجار ، لا يعرفنى ولا أعرفه، ولا ينصفنى ولا أنصفه ، فيتكدر لى الوقت ولا أخلو من نكد ومقت ، لا سيما وأنا ضعيف مبتلى نحيف ، فلا يستقيم الحال ولا أقدر على الارتحال ، ولا زال يسدد المضارب ويفتل منها فى الذروة والغارب[2] ؛ حتى أثر فيها سُمُّه ونفذ فى سويدائها[3] من مكره سهمه ، فاسترشدته إلى وجه الحيلة فى هذه النازلة الوبيلة .

فقال : الرأى السديد والفكر الرشيد أنه إذا أوصل قوله بفعله ، وأَتْبعَ فى أداه فرضه بنفله[4] ، واختار غيرك عليك طلّقيه ، وألف زوج لديك وأرض الله واسعة ، وهو المعتدى فى المقاطعة ، وأنا أكون السفير فى زوج يخجل البدر المنير ، يعمر دارك ويعرف مقدارك ، ويخدم كلبك وحمارك ، ويملأ وكرك خيرا ، وبطنك طيرا ودارك شعيرا وبُرا ؛ مع كونه وافرا الحشمة مسموع الكلمة ، قد جمع بين طرفى الأصالة والحرمة .

(١) الملل .

(٢) وهو ما كان للشيء أعلاه .

(٣) حبة القلب .

(٤) الزيادة .

فقالت : هذا الذى تقول أمر معقول ، وإلى الآن ما وقع وعلى تقدير أن يقع ، إن حصل الشقاق والنفاق وتُرجح الأنذال المستجدة على الكرام العتاق، فيكون بيننا هذا الاتفاق وإن وقعت بيننا المعادلة ، ولم يحصل فى حقى منه مساهلة ولا للضرة علىّ مفاضلة كيف أشاققه[1] وعلى فعل مباح أضايقه ؛ فضلا عن أنى أفارقه ، وكيف أخرب دارى وأضر بحبِّى وجارى ، وأشمت بى الأعداء ويحتاط بى من كل جهة البلاء ، ولكن الرأى المحمود عندى يا ودود ، الصبر فى كل حال على الدهر الكدود ، وتجرع الغُصَصَ ؛ لئلا يشمت الحسود ، كما قيل فى التمثيل : ما بى دخول جهنم ولكن بى شماتة اليهود .

فلما رأى الخبيث أنه لم يفده هذا الحديث ، ولم تتم له الحيلة وأفكاره الوبيلة قال : أقول الحق الذى حصحص[2] ولا عنه محيد ولا مخلص ، إن زوجك قد نُقِل إليه أنك اخترت غيره عليه ، وإنك عاشقة وصحبتك له مخادعة ومماذقة وثبت ذلك لديه وعقد اعتقاده عليه ، وعَزْمُه على الزواج إنما هو تعلل واحتياج لفتح باب الشر ، وتعاطى أسباب النكد والضر ، وقد ثبت عندى أن ذاك الأفاك الأثيم السفاك[3] يريد أن يجرعك كأس الهلاك ، فتيقظى لنفسك وتداركى غدك فى أمسك ، قبل حلولك فى رَمسك واستقيمى قبل عكسك ، وأنا منذ سمعت هذه الأخبار لم يقر لى قرار ؛ وذلك لوفور الشفقة وحسن الجوار ، وقد زدت ضعفاً على ضعفى ، وكدت لهذا الغَمَّ أُسْقَى كأس حتفى ، وأنتِ يا غرض الحاسد تعلمين أن ليس لى غرض فاسد ، وهذا بديهى التصور لا يحتاج إلى تدبر ولا تفكر ، ولقد غِرْتُ عليك والأمر فى هذا كله منك وإليك .

---

(١) المخاصمة والفرقة .

(٢) ظهر ووضح .

(٣) السفاح .

فتكدر خاطرها وتشوشت ضمائرها ، وضاقت بها الحيل ، وتاه منها العلم والعمل ومن يسمع يخل[1] ، وصالت أفكارها وجالت ، وبدر منها أن قالت : والله لو أمكنني لقتلته ولو وجدت فرصة لاغتلته ، واسترحت من نكد الدهر المغبر ، وهذا العيش الوحش المكدر ؛ فالتقط الثعلب هذه الكلمة من فيها وعلم أن سهم ختله نفذ فيها ؛ لأن عقود المحبة انحلت ، وصورة المودة القديمة زالت واضمحلت ، وتلاشت الصداقة بالكلية وانمحت شهواتها بأدنى جزئية .

فقال : لا تهتمي لذلك يا ضرة هند[2] فعندى عقار من عقاقير الهند، أحلى فى المذاق من ساعة التلاق وأمضى من السيف فى حكم الفراق ، اسمه إكسير الموت وتدبير الفوت وسم ساعة وتفريق الجماعة ، لو أكل منه ذرة أوشم منه نشرة ؛ لقتل فى الحال وفرق الأوصال من غير إمهال ، فإن اقتضى رأيك الأَسَدّ[3] أن تخلصى من هذا النكد ، ناولتك منه شذرة تكفيك ذرة منه أمره، فإن شئت أطعمته وإن شئت أشممته ، ولولا أنك عزيزة على لم أفه لك من هذه الأمور بشيء ، ولقد فضلتك على روحى فاكتمى هذا السر ولا تبوحى .

فتحملت منه جميلته وعرفت قدرته وفضيلته ، وطلبت منه الدواء لتذهب به عن قلبها الجواء[4] ، وتقتل زوجها المسكين وتسلم من نكده وتستكين ، وزالت تلك المحبة القديمة ، ونسيت الصحبة والصداقة القويمة، ووعدها الثعلب أن يأتيها بالعقار وفارقها على هذا القرار ، ثم إنها انتظرته

---

(١) يتحير ويدهش .

(٢) هند : اسم امرأة ، ثم استعمل استعمال علم الجنس للنساء .

(٣) السديد .

(٤) الضيق والألم .

ليفى بوعدها واحترق صبرها من نار سمها ووقدها ، وتقاعد الثعلب عنها ينتظر ما يتأتى منها ، فحملها مثير الوجد إليه وساقها الأجل المحتوم إلى أن قدمت عليه ، فدخلت وكره وقبلت يده وصدره فتمكن منها ذلك الغادر ومزقها كما يريد ، فصارت كالأمس الغابر .

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ لئلا يكون أصحاب مولانا السلطان من هذا القبيل ، فيكون المعتمد عليهم والمستند إليهم كالنائم على تيار الأنهار، والمؤسس بنيانه على شفا جرف هار(١) .

قال الملك : معاذ الله يا ولدى وقرة عينى وكبدى أن يكون صاحبى ومعتمدى من هذا النمط وشبيها بالعفريت والثعلب والبط ؛ بل كل من أصحابى وسائر أوليائى وأحبابى ما منهم إلا الصديق المهذب ، والرفيق المؤدب ، والشفيق المدرب ، والعتيق المجرب ، وقد جربته فى المودة والإخاء والشدة والرخاء والمروءة والسخاء كما جرى ذلك للتاجر المجرِّب صديقه فى الشدة والارتخاء . قال الولد ينعم مولانا الإمام بتقرير هذا الكلام .

[١٧] **قال الملك** : بلغنى أن بعض التجار الأكرمين الأخيار والكرماء الأبرار ، كان له مال جزيل ، وولد صالح جليل سعيد الطالع ، سديد المطالع عالى الهمة متوالى الحشمة ، ميمون الحركات جميل الصفات ، حسن الصورة مشكور السيرة طاهر السريرة . وكان أبوه قد تخيل فيه مخايل السعادة، وتفرس فيه آثار النجابة والإجادة فكان لا يصبر عن تأديبه وإرشاده إلى سبيل الخير وتهذيبه ، وتربيته بمكارم الأخلاق وترتيبه . فقال له : يا بنى إن الإنسان يحتاج إلى كل شيء وأعظم ما يحتاج إليه ويعوّل فى التحصيل عليه الصاحب الصافى ، والصديق المصافى ، والرفيق المساعد فى وقت الشدائد ،

---

(١) الجرف : الجزء المتآكل من شاطىء النهر ، وجرف هار : أى ضعيف ساقط .

فإن المال ميال ، والذهب ذاهب ، والفضة منفضة ، والملبوس بوس ، والمأكل متآكل ، والخيل خيال ، والفواضل شواغل ، والدهر قاصى ، والعصر عاصى ، والأقارب عقارب ، والوالد معاند ، والولد كمد ، والأخ فخ، والعم غم ، والخال خيال ، والدنيا وما عليها لا يركن إليها ، وما ثم إلا رفيق ذو وفاء مجبول على الصدق والصفاء ، إن غبت ذكرك وإن حضرت شكرك ، مأمون على نفسك ومالك وأهلك وعيالك فى حالك ومآلك ، إن غاب صانك وإن حضر زانك ، فهو أفضل موجود يقتنى ، وأحسن مودود يصطفى، فإن ظفرت به فتشبث بسببه .

ثم قال له : يا بنى قد أقمت فى الحضر وانقضى لك فيه ما ذقت مما حلا ومر ، فلا بأس أن تحيط علما بأحوال السفر ، فإن السفر مَحَكٌّ الرجال، ومجلبة الأموال ، ومكسبة التجارب ، ومرآة العجائب والغرائب ، فاعزم على بركة الله تعالى وتوكل عليه واصحب معك فيه ما تحتاج إليه . ثم أفاض عليه المال وأضاف إليه صالحى الرجال وحين ودعه ووصاه واستودعه قال : يا بنى لا تجعل دأبك وطلبك واكتسابك إلا استجلاب الصاحب النافع دون سائر المنافع ؛ فإنه أوفر بضاعة وأربح تجارة ، وليس على الصديق الصدوق أبدا خسارة ، واجعله فى سفرك نصب عينك واشتره بنفسك ومالك ونقدك ودينك وقد قيل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لا أخاً لَهُ   كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بغَيْرِ سِلاَحِ[١]

والمراد به الصديق .

واعلم أن الأخ الصُلْبِى[٢] ربما يضرك ، وأما الصديق الصالح فإنه أبدا يسرك ، والصاحب الشفيق خير من الأخ الشقيق . وقد قيل : رب أخ لم تلده أمك .

---

(١) الهيجا : الحرب .

(٢) الأخ من الأب أو الشقيق .

فقبل الشاب وصية أبيه ، ثم توجه فى حشمه وذويه بقصد جميل ومال جزيل ، فمكث غير بعيد ، ثم عاد وهو سعيد فقال له أبوه : حبيت وحييت ما أسرع ما جيت ، قل لى أين ذهبت وماذا اكتسبت .

فقال : يا أبت امتثلت مرسومك الكريم واكتسبت بالمال كل ولى حميم، وقد جئت بهم زُمرا ، وعدتهم خمسوَن نفرا كل منهم صديق صادق ورفيق موافق فى الفضل بارع ، وإلى الخير مسارع ، وفى الرخاء صادق الإخاء وفى الشدة أوفى عدة . قال أبوه : يابنى كيف تصفهم بهذه الصفة وتعرفهم بهذه المعرفة ، ولم تجربهم فى قضية ولا واقعة صعبة أو رخية ، وقد قيل :

لا تمدحن أمرأ حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب

وقد قيل أيضا:

إذا رمت أن تصفى لنفسك صاحبا فمن قبل أن تصفى له الود أغضبه

فإن كان فى وقت التغاضب راضيا وإلا فقد جربته فتجنبه

وقيل أيضا :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا مالم يروا عنده آثار إحسان(١)

واعلم يا ذا اللطائف أنى خائف أن يكون أصحابك وأصدقاؤك وأحبابك مثل أصحاب الرئيس المدبر الخامل النفيس الذين رعوه فى روضٍ وفره وتركوه فى قفرٍ فقره . قال ابنه : يا أبت كيف ورد ذلك وثبت .

[١٨] **قال التاجر** : ذكر رواة الأخبار ؛ أنه كان فى بعض الأمصار، رجل رئيس كبير نفيس ، له أموال وافرة وجهات متكاثرة ، وأماكن عامرة، وضياع ومزدرعات وبساتين ، واقطاعات وعقار له ارتفاعات ، فكان ولده يمد يده إلى كل معصية ومفسدة ، ويجترئ ذلك السفيه على كل ما يلوح له

(١) الكياسة : الفطنة .

من جهات أبيه ، والتف عليه جماعة من عبيد البطن والمجاعة ، كأنهم طير قِرَ لَى[1] إن رأى خيرا تدلى ، وإن رأى شرا تعلى ، ومدَّ يَدَ الإسراف فى التبذير والإتلاف ، وصار أبوه ينصحه ويردعه عن جموحه ويكبحه . وقال له : يا بنى استعمل الارتفاق فى الإنفاق واستخلص من الرفاق ذوى الإشفاق، واعلم أن هذا المال هو لك مدخر ولتصرفك فيه منتظر ، وإنما أنا لك خازن، واللّه تعالى مجاز على فعالى من مساو ومحاسن ، وتيقن أن المال هو عزك فى الدنيا ، وزادك إلى الأخرى ، وأن له وجوها ومصارف وعوارف ومعارف ، فإذا صرف فى غير محله ودُفِعَ إلى غير أهله كان إثما ووبالا وفى الآخرة عذابا ونكالا ، وأحمق الناس المستحق لنزول الباس من اكتسب المال حلالا وبذره فى الفساد يمينا وشمالا وادخر به إثما وخبالا فصرفه إلى من لا يحمده وعليه حسابه ونكده ، وأنت إذا صرفت مالك ووزعته وفى غير مواضعه زرعته ، وأنفقته على من لا يعرف فضيلتك ، ولا يحمل جميلتك ، ولا يشكر صنعك ، ولا يقصد نفعك ، ولا يجلب لك خيرا ، ولا يكشف عنك ضيرا ؛ خرجت من عز الدنيا وفوّتَّ زاد الأخرى ، وهؤلاء الذين قِبَلَك مهطعين[2] عن اليمين وعن الشمال عزين[3] ؛ ثمرة صحبتهم الندامة ، وعاقبة أمرهم الخيبة والملامة ، والبعد عنهم غنيمة وسلامة ، وإذا كان الأمر كذاك ، فإياك يا ولدى ثم إياك من صحبة هؤلاء الأحداث ، والتلوث بقربهم فإنهم أخباث ، واحتفظ بصون مالك ولا تنفقه إلا على نفسك وعيالك ، وفيما يُبقى ماء وجهك فى حالك ومآلك ولازال أبوه قابض عنانه بقدر طاقته وإمكانه يُذكِّره هذه الوصية بكرة وعشية حتى أدركته المنية ، وخلف ذلك المال العريض لذلك الولد المريض ، فمد يده كما كان إلى كل مفسدة ونسى

---

(١) القرلى : طائر مائى يتغذى بالأسماك .

(٢) مسرعون .

(٣) عزين ، مفردها عزة : متفرقة .

يومه وغده ، وشرح فى مُناه متن اللهو ، وقرر بحديث من كتاب فقه الزهو ، باب الأنجاس وسجود السهو ، واجتمع عليه قرناء السوء وحضروا ، وخلا له ولهم الجوّ فباضوا فى الفساد وسفروا[١] ، وغابوا عن الرشاد وما حضروا ، وصاروا يعظمونه ويكرمونه ويحترمونه ، فإذا كذب صدقوه ، وإذا ضرط سمّتوه وشمّتوه[٢] ، وإذا نهق طربوا ، وإذا أخطأ صوبوا، وإذا قعد قاموا ، وإذا قام ناموا ؛ يفدونه بالمُهج[٣] والأرواح ، ويلازمون خدمته فى المساء والصباح .

وكان له أم مدبرة عاقلة مفكرة ، فقالت له : يا بنى لا تكن صبى وتذكر وصايا أبيك ، وإياك ومَنْ يليك ، وتأمل ما لديك ، واحفظ مالك وما عليك، ودبر معاشك ، وصن وجهك ورياشك . واعلم أن أصحابك وعشراءك وأحبابك وندماءك ورفقاءك وأخصّاك وأصدقاءك ، كلهم عبيد البطن ولورقات بذى شيق[٤] أو حصن لا خير عندهم ولا مير[٥] ، وجميعهم كسير وعوير[٦]، فإياك وصحبة من لا يتولاك ، لا تركن إلى صداقتهم ولا تعتمد على موافقتهم، فإنهم فى الرخاء يأكلونك وفى البلاء يتركونك ، وإلى مخالب القضاء يسلمونك ؛ رأس مال محبتهم ما فى يديك ؛ وأساس بنيات مودتهم ما يرونه من النعماء عليك ، فإن قلت والعياذ باللّه فلّوا[٧] وخلوك فى عقد النوائب مربوطا وانحلوا . وأقل الأقسام يا ذا الأصل السام ، أن تجرب أصحابك وتختبر من يلازم بابك ، ويقبل بشفاه المودة أعتابك فى شىء نابك، أعجز عن حمله نابك من حوادث القضاء أو فى حالة من أحوال الغضب

---

(١) أى غلب عليهم الانحلال وتمكن منهم الفساد .
(٢) شمت العاطس : دعا له بقوله مثلاً : يرحمك الله .
(٣) المهج ، مفردها مهجة : دم القلب .
(٤) الشيق : الجبل .
(٥) المير : الطعام . ولا خير عندهم ولا مير . أى لا عاجل ولا آجل .
(٦) الأعور الجبان .
(٧) تولوا .

والرضاء ، أو السعة والضيق أو التكذيب والتصديق ، فمن وجدته ناصحاً صادقاً أو مطاوعاً مصادقاً وفى كل الأحوال موافقاً ، وفى الرخاء والشدة مرافقاً يوثق به فى الغيبة والحضور وحالتى السرور والشرور ، يؤدى الأمانة ويجتنب الخيانة ، ويغار على دينك وعرضك ، ويساعدك على أداء سنتك وفرضك ؛ فاركن إليه واعتمد فى أمورك عليه ، ومن وجدته منافقاً وفى أخلاصه ممازقاً ينسج شقة الوداد بوجهين[(١)] ، ويتكلم كخائض المداد[(٢)] بلسانين ، فلا تقربه ولا تصحبه فإن بعده غنيمة والخلاص منه نعمة جسيمة .

وانظر بعين الثبات مافى هذه الأبيات من حسن الصفات فمن كان بها متصفا فتمسك بأذياله ؛ فإنه من أهل الصفا وهى هذه :

وقد قيل قول المرء يكشف عقله ... ويبدى سجاياه وما كان يكتمُ
فهذا كلامى مظهر ما أكِنُّه ... وأكثر هذا الخلق عن عيبهم عموا[(٣)]
فمن شيمتى أنى مُطيعٌ لصاحبى ... وأصلح عن خصمى وإن كنت أخصم
وأرضى لنفسى دون ماهو حقها ... وألزمها للخل ما ليس يلزم
إذا قال أصغى للمقال وإننى ... لأعلم منه بالمقال وأفهم
ولم أشك من خل لئلا يملنى ... ومن لى بخل لا يمل ويسأم
وأقطع فى بحثى وإن كنت غالباً ... وأسكت حتى قيل ليس ذا يعلم
لأبقى وداد الناس لى لا أضيعه ... ومن لا يدارى الناس يرمى ويرغم[(٤)]
وفى كل ذا تقوى الاله شعائرى ... ولابدٍ من لا يتقى الله يندمُ
ولا نقص فى عقلى وأسباب نعمتى ... وإنى وإنى بالكمال مكرم
ولى همة يسمو إلى الأوج قدرها ... ولكن خمول المرء للدين أسلم[(٥)]
ووجه اعتقادى مثل عرض أبيض ... ودينى متين واعتمادى مقوّم
وحسبى من دنياى قوت وخرقة ... يبلغنى آثار من قد تقدموا
فهذى غريزات لدى وإننى ... لأدعو إلى هذى الخصال وأعزم

---

(١) أى يخادع ويمارى .
(٢) المراد : ما يوضع من حبر وغيره فى القلم .
(٣) أكنه : أخفيه .
(٤) يرغم : يهجره الناس .
(٥) الأوج : قمة الشيء .

فأثر هذا الكلام فيه ، وتأمل ما تضمنته فحاويه ، ثم أراد أن يجرب ملازميه ومن بروحه وجسده يفديه .

فقال يوما من الأيام : وقد اجتمعوا على منادمة المُدام ، اتفق أمر عجيب وشأن غريب وهو أنه كان عندنا هاون[1] فى زاوية مخزون زنته ربع قنطار ، أتى البارحة عليه الفار فقرضه وأكله وعمَّه بالأكل وشمله ، فلم يدرك من ذلك النحاس فى مكانه إلا ما فضل من برادة أضراسه وأسنانه ، فترشفت ثغور آذانهم منطقه واستحلى كؤسها كل منهم وصدقه ، وقالوا : هذا وقع بغير شك لأن الهاون كان فيه وَدْك[2] والفأر أسنانه باضعة[3] وأضراسه لجن حرافيش بغداد قاطعة .

فلما رأى أنهم وافقوه وصوّبوا كلامه وصدقوه ازدادت فيهم محبته وقويت إليهم رغبته ، حيث رفعوا رُتْبه وستروا فى جيب مكنونهم عيبه وحققوا مُحاله وصدقوا مقاله ، فأسرع إلى أمه مسروراً فرحاً محبوراً منشرحاً. وقال : يا أماه انظرى كلام أصيحابى ، واخبرى مقام أحبابى ذكرت لهم كلاماً باطلاً ومن حلية الصدق والامكان عاطلاً ، فحققوه بلا مرية[4] واثبتوا حقيقته من غير فرية[5] ، وصاغوا له من جواهر التوجيه أبهى حلية، وذكر ما جرى لهم وله من الجنون والخباط والوله . فقالت له أمه : يا ولدى ومهجة كبدى هذا أمر يضحك منه الجاهل ويبكى على حالِك الحالك منه العاقل كما قيل :

أمـــور تضحك السفهاء منهـــا ويخشى من عواقبـــــها اللبيب

---

(١) الذى يدق فيه الدواء ونحوه .
(٢) دسم .
(٣) حادة قاطعة .
(٤) شك .
(٥) كذب .

اعلم أيها الداهل[١] الغافل ؛ إنك من أصحابك على طائل ، وهؤلاء أعداء فى صورة أوداء وهم فى التمثيل كما قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

وتيقن أن هؤلاء فى النعمة خداعون وفى النقمة لذاعون ، وأنت شاب غرير[٢] ، وبأعقاب الأمور لست ببصير لا مارست الخَلق ، ولا فرقت بين الصادق من ذوى المَلْق[٣] ، لاخبرتهم ولا سيرتهم ولا دخلت مداخلهم ولا ميزت خارجهم وداخلهم .

إن الصديق الصادق والرفّيق الفائق من بَصَّرَك عيوبك ، وغفر لك بعد نصيحتك ذنوبك ، وأطلعك على حقائق الأشياء ونبهك على ما خفى من أمور الدنيا ، وأرشدك إلى ما يزينك ويصلح به دنياك ودينك ، وأبكاك إذا نصحك لا من أضحك وفضحك . وأما الذى يدلس ويلبِّس ويوسوس ويهوِّس ويروج الباطل ويحلى العاطل فذاك ليس بصديق على التحقيق ، وإنما هو عدو فلا يكن لك معه قرار ولا هدو .

فلم يلتفت الشاب إلى هذا الخطاب ، حيث كان مصادماً لغرضه غير شاف لعلته ومرضه ، وقال : صدق من نطق وفاه بالكلام الحق ، من قال إفشاء السر إلى النساء فعل الأحمق ، ثم تركها ترغو واستمر هو مع أقرانه يلهو ، وداوم على تلك الحال حتى إذا دنت لنفادها الأموال ، وبِيع الرخيص والغال ، فما استفاق من سكرته واستيقظ من رقدته إلا والأموال وقد ذهبت والديون قد ركبت وهو يُنْشد وإلى مذهبه يُرشِد :

ليذهبوا فى ملامى أينما ذهبوا   فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب

---

(١) المتحير .
(٢) عديم الخبرة .
(٣) الكذب والنفاق .

إلى أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ونفقت البيضاء والصفراء[1] في الحمراء والخضراء[2] وأصبح ملقى على الأرض السوداء، وأتعس من فوق الغبراء[3]، وأفلس من تحت الزرقاء[4]، وتراجع عنه الأصحاب وعاداه الأصدقاء والأحباب ورجعوا عنه بعد ما سئموا منه، وصار ناديه يناديه:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر[5]

وصارت محبتهم له تكلفا، ورؤيتهم إياه تعسفا، فاتفق له في بعض الأيام أن قال في أثناء الكلام لذلك الجمع بعينه الذين كانوا أجمعوا على صدق مينه[6]: الفار الغدار أكل لنا في الدار البارحة رغيفا كاملا فأتى على أكله شاملا، فما أبقى منه لبابة ولا غادر من غدير وجوده صبابة[7]، فتنادوا للحال بالمحال، والكذب في الأقوال الفار الضعيف كيف يأكل كل الرغيف وهو عاجز ونحيف، وتناولوه بالطعن، وتناوشوه بألسنة السب واللعن، وزيفوا أقواله وسفهوا أفعاله.

وإنما ذكرت هذا الكلام يا أيمن غلام وأحسن من البدر التمام؛ لتعلم أن أكثر من يدَّعي صدق الصحابة من ذوي المعارف والقرابة، إنما دعواه كذابة كسحاب صيف لا يديم انسكابه، وإن الشخص مع الناس الأوغاد والأكياس بمنزلة كوز الفقاع[8]؛ إن رأوا فيه حلاوة الانتفاع استلموه

---

(١) البيضاء والصفراء: الفضة والذهب، والمراد: الدراهم والدنانير.
(٢) الحمراء والخضراء: الخمور.
(٣) الأرض.
(٤) السماء.
(٥) الحجون: جبل بمكة. معجم البلدان (٣٥٢٨).
(٦) الكذب.
(٧) القليل من الماء.
(٨) الفقاع: الشراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار. سُمي به لما يعلوه من الزبد.

وبالأيدى رفعوه وقبلوه ورشفوه ، وإذا مَضَّوا[١] محصوله وفرغوه ورموه وتركوه وتحت الأقدام طرحوه ، ثم قال التاجر لولده : راحة روحه وجسده وإن كان من صحبتهم ، وفى سفرك اكتسبتهم مثل هؤلاء الأصحاب ، فإياك أن تفتح لهم الباب وترفع بينك وبينهم الحجاب .

فقال الولد : معاذ الله الواحد الأحد ، يا أبت عندى ثبت أنهم بدور كرام وصدور عظام يقومون لقيامى ، وينصتون لكلامى ، ويجيبون ندائى ، ويؤمنون على دعائى ، وهم أخلاء فى السراء والضراء .

فقال أبوه : اعلم يا ابنى وقرة عينى إنى عمرت سبعين سنة ، وعاينت من الأمور الخشنة والحسنة ، وبلوت الأصحاب وتلوت الأعداء والأحباب ، ورأيت الدنيا وأهلها ، وقلَّبتُ وعرها وسهلها ، ولم أترك من جنس بنى آدم فى أكناف الآفاق ، وأطراف العالم من أمم العرب والعجم نوعا لم أخبره وصنفا لم أسبره[٢] ، فلم يصفَ لى على التحقيق غير صديق ونصف صديق، فأنت يا بنى العزيز الغالى كيف قدرت بالتوالى فى هذه المدة اليسيرة على جمع هذه الطائفة الكثيرة ، وها أنا يا إمام أُريك مصداق هذا الكلام وأطلعك من بين الأصحاب على مالهم من مقام . ثم عمد إلى شاة فذبحها وبدمها فى ثياب طرحها ثم دمجها ، وفى كفن أدرجها وقال لابنه : قم ياذا الارتقاء أرنى هؤلاء الأصدقاء واحدا بعد واحد ؛ لتحقق غيب عيبهم بالشاهد ، وتعرف طرائقهم وتتبين حقائقهم ، ثم وضع الشاة فى عَدَل[٣] وأخفى كل هذا الفعل وحمل العدل على ظهر غلام ، وخرج ليلا والناس نيام ، وقصد أحد الأصحاب وطرق عليه الباب ، فخرج مسرعاً إليه وترامى متواضعاً بين

---

(١) أى أنهوا ما فيه .
(٢) أمتحنه .
(٣) ما تُحمل فيه الأشياء .

يديه، وأظهر البشر والسرور والابتهاج والحبور ، وبالغ في الاحتشام والإكرام والاحترام ، وشكر مساعي الأقدام ، ثم بادر إلى دعوته للدخول وتعاطي انجاح ماله من سؤل ومأمول .

فقال له الشاب : يا زين الأصحاب وعين الأحباب دع الكلام لضيق المقام ، فقد دهتني دهية وعرتني بلية ، وأعظم بها من قضية ويا لها من رزية . فقال : ماهي وُقيتَ الدواهي ؟ فقال : كان بيني وبين واحد من أهل الشقاوة خصومة قديمة وأسباب عداوة ؛ اسمه معروف وذكره موصوف لشخص مفقود لم يكن له حقيقة في الوجود ، وهو من أكابر الزمان وأحد الرؤساء والأعيان ، فتلاقينا في خلوة وتداعينا ما بيننا من جفوة ، وتنابشنا الأسباب ، وتناوشنا باللعن والسباب وتناولنا في الشقاق شق الأعراض ، وتأذن القلوب من الأغراض بالأمراض ، وتنقلنا من المكالمة إلى المشاتمة ، ومن المواصمة[١] للملاكمة ، وترقينا من الكفاح إلى الجراح ، فثارت النفس المشؤمة إلى إيقاع حركة ذميمة ، فضربته فجرحته وقتيلا طرحته ، ولم يشعر بنا أحد من أهل البادية والبلد ، وندمت غاية الندم وأني يفيد وقد زلت القدم ، وجرى قلم القضاء بما حكم ، ثم أفكرت بمن أستعين على هذا الأمر اللعين وأدرت في خاطري كل مساعد ومعين فلم يمل القلب إلا إليك ولا استقر الخاطر في ركونه إلا عليك ، وقد قصدت جنابك ويممت بابك ، إذ أنت أعز مخدوم والسر عندك مكتوم ، وهاهو مقتولا أتيتك به محمولاً ، فاحفر لهذه الجثة حُفيرة واخفني عندك أيامًا يسيرة ، إلى أن تطفأ هذه النائرة[٢] ، وتسكن الفتنة الثائرة وهذا وقت المروة وزمان الفتوة والقيام بحق الصداقة والأخوة .

---

(١) تواصم القوم : عاب بعضهم بعض .

(٢) الفتنة .

فلما سمع الصاحب اللبق هذا الكلام القلق ، تضجر وتضرر وتنكد وتضور[1] ، وقال : يا أخى بيتى عتيق مع أنه جحر مضيق لا يسع أولادى ولا زادى وعتادى ، وإذا ضاق عن الأحياء فكيف بالأموات ، وهذه بلية من أوحش البليات ، وأظنها لا تخفى على الناس ، ويدركها أولو الفراسة والأغبياء ؛ فضلاً عن الأكياس ؛ لأن قضاياكم قبل اليوم مشهورة وبلغنى أن عداوتكم قديمة مذكورة ، وفى التواريخ وصدور الكتب مسطورة ، ولكم وقعات ونوازل وله أيتام كأنهم الزغب الجوازل[2] ، وأما أنا فلا يمكننى الدخول فيها ولا تعاطيها بوجه من الوجوه ولا تلافيها ، فاكفنى شر ضيرها واندبنى إلى غيرها ، وإنى أكتم سرها فلا تخف من جهتى شرها ، فألح عليه فما أقاد[3] ورده غير ظافر بما أراد .

فلما أيس منه تركه وانتقل عنه ودار على سائر أصحابه وذكر لهم مثل الأول وخطابه ، فكان جواب الجميع مثل جوابه إلى أن أتى على الجميع واستوفى شريفهم والوضيع ، ورأى ماهم عليه من طبع بديع ، كأنهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع ، فعاد إلى دار أبيه ورجع إلى صحة بيان التنبيه ، فقال له : بمَدير الفلك[4] أحققت صدق ما قلت لك ، وتبينت ماهية أصدقائك وحقيقة أوليائك ، وإنهم نقش حيطان ورقش غيطان[5] وغمام بلا مطر ، وأكمام بلا زهر وآجام[6] بلا ثمر .

---

(١) تألم .

(٢) الزغب الجوازل : صغار الطيور لم ينبت ريشها بعد . والمراد : الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة .

(٣) أفاد .

(٤) بمدير الفلك : أقسم بالله سبحانه وتعالى .

(٥) أى لا فائدة منهم .

(٦) آجام ، مفردها أجمة : الشجر الكثيف .

ثم قال : قم يا زين الأحباب أريك مـا قلت مـن حقيقـة الأصحـاب ، ثـم دخلا الطريق وقصد أنصـف الصديـق ، وطرقـا البـاب فخـرج وتلقاهمـا بالترحاب، فقال له ذلك المقال وقصد بمعونته الخلاص من ذلك العِقَال[1] فقال: حبا وكرامة حللتما بمنزل السلامة ، أنا بكم نشيط وأجلكم بى بسيط ، غير أنى أُعلِمُكم أن منزلى غير فسيح حتى أدفن فيه هذا الذبيح ، وليس لى مخبأة ولا مخدع ولا سكن فى مطاويه ولا مصنع ، وأخاف أن أمْرَكم لا يختفى ، وبهذا المقدار فى أمركم لا أكتفى ، ويدى لا تملك غيره وقد وقعتُ بهذا السبب فى حيرة . وبالجملة والتفصيل أنا أكفيكما شر هذا القتيل ، فقالا : لا نقتنع بذلك ولكن سد عنا المسالك . فقال : توجها حيث شئتما فلا أنا سمعت ولا أنتما قلتما .

فتوجها إلى الصديق الكامل ، وذكرا له الأمر الحامل وقصدا بتلافيه كرمه الشامل . فقال لهما : أو شىء غير ذلك وقاكما الله شر المهالك ، فقالا: لا إلا دفن هذا المقتول وإخفاء هذا الأمر المهول ، وأن نكون تحت أذيال الساترة حتى تسكن هذه الفتنة الثائرة ، فإن أهله يطلبونا فإن وجدونا يسلبونا، ولا يرضون إلا بالدمار وخراب الديار ولا يقنعون بالمال والعقار[2] ، وهذه قضية عظيمة وداهية جسيمة فإن كنت تنهض بإطفائها وحمل أعبائها ، وتسعى فى إخفائها ؛ فقد قصدناك ودون الأصحاب أردناك ، فإن عجزت عن سدها فلا عتب عليك فى ردها ولا تتكلف فوق طاقتك ، ولا تتجشم لأجلنا غير استطاعتك .

فقال : سبحان الله واسوأتاه هذا يوم المروأة والوفاء ، وتذكر رسائل إخوان الصفاء[3] فلكم الفضل إذ قصدتمونى والجميلة التامة حيث أردتمونى ،

---

(١) المأزق .
(٢) المنازل .
(٣) إخوان الصفا : جماعة ذات طابع دينى سياسى ، توفيقية فى نهجها ، نشأت فى البصْرة ، جمعوا بين الفكرين الإسلامى واليونانى وبالأخص الفيثاغورى ، ودونوا تعاليمهم فى رسائل كتبت بأسلوب مسهب .

أما والله لو كان ألف قتيل لواريته ، وكل ما كان من أمر غيره جاريته وداريته ، لا يسمع أبدا خبره ، ولا ترى عينه ولا أثره ، وأما أنتما فأفديكما بروحي وأولادي وطريفي وتلادي[1] ، وعندي ديار أنزه من جنان الأبرار، وأفيح من كل دار فادخلوها بسلام آمنين ، فإنها تشرح كل قلب حزين ولو أقمتم بها سنين ما شعر بكم أحد من العالمين ، فيها أرغب نديم وأقرب خديم، وأحسن جليس ، وأيمن أنيس ؛ فلن تملوا مقامها ، ولا تعدموا إكرامها ، فأنتم عند من لا يمل أبدا نزيله ، ولكم في ذلك الفضل والجميلة .

قال التاجر : شكر الله سعيك وحفظ على أصحابك مودتك ورعيك . ثم ودعه وانصرف وقد عرف الولد من حقيقة الأمر ما عرف . ثم قال لولده : يا بني وأعز عندي من كل شي ، إن اتخذت الصديق فليكن صديقك على هذا الطريق ؛ وإلا فالإنفراد أحسن ، والعزلة أوفق إن أمكن كما قيل :

فَاقَ حُبى كُلّ المَلاح كَمَالاَ ... هَكَذَا هَكَذَا وإلاَّ فَلاَ لاَ

ولقد أرشد من أنشد حيث قال هذا المقال :

مَافى زَمَانِكَ مَنْ تَرجُو مَوَدتِهِ ... وَلاَ صَدِيْقٌ إذَا جَارَ الزَمَانُ وفَى

فَعِش فَرِيْداً وَلاَ تَرْكَن إلى أحدٍ ... إنّى نَصَحتُكَ فِيمَا قَدْ جَرَى وكَفَى

ثم إن الملك قال لأولاده : ياذوى الأفضال إنَّ غالب أصحابى من الأمراء والرؤساء الكبراء خصوصا فُلان أمير ممالك خراسان هم من هذا القبيل ، وأنا عودتهم هذا الجميل فكونوا في الحقيقة متمسكين بأسباب هذه الطريقة .

فلما أكمل وصيته أولاده هيأ لسفره عتاده وذكر الله وزاده ، ثم ودعهم من دار الشرور وانتقل إلى دار الحبور والسرور ، وقد عهد إلى أكبر أولاده واستودعهم الله وهو القاهر فوق عباده ، من لا تضيع الودائع لديه ولا يخيب من توكل عليه ، فسمعوا الوصية وأطاعوا وتعلقوا بأذيال أهدابها فما ضاعوا،

---

(١) كل غالي وعزيز .

واستمروا تحت أمر أخيهم كما كانوا فى حياة أبيهم ، كأن أباهم ما مات ولم يقع بينهم شتات ؛ فدام لهم السرور وانحسمت عنهم مواد الشرور ، وأشرقت بهم ممالكهم وأملاكهم ، ودارت بالسعود أفلاكهم .

ثم إن الحكيم حسيب انتقل من كلامه العجيب بعد فراغه من حكم ملك الأعجام إلى فوائد ملك الأتراك الهمام فشنّف المسامع ، وشرف كل وراء سامع ، وشرع فى القال والقيل .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الباب الثالث

فى حكم ملك الأتراك
مع ختنه الزاهد شيخ النساك

[١٩] قال الشيخ أبو المحاسن ؛ حسان صاحب الحسن والمحاسن والإحسان : ثم نهض الحكيم حسيب الأديب الأريب ، ووقف في مقام حده وقبل موطىء أخيه بشفاه خده .

وقال : لقد بلغني أيها السلطان أن في قديم الزمان ، كان في الترك ملك يسمى خاقان[١] ؛ من الملوك العادلين والسلاطين الفاضلين ؛ برسم العدل معروف ، وبقصم الجور موصوف ؛ كِسْرُ الأكاسرة ، وقصر الأقاصرة ، ونحر الجبابرة ، وثغر فم الذعار النبالة الفاغرة[٢] ، ملك بلاد الختن والخطا[٣] ، واستولى على ممالك المغل والحنا[٤] ، وأطاع أوامره الترك والتتار ، واستسلم لرأيه سكان الدست[٥] والقفار ، وكان يأجوج من جملة خدمه ، ومأجوج من بعض عبيده وحشمه ؛ كأنه وارث لذرية يافث[٦] ، قوى في أخذ الملك من ممالك الصين ، وأخذ إلى أطراف الشمال باليمين ، ولم يكن له من البنين والبنات مع كثرة السرارى والزوجات ، سوى بنت واحدة لطلعتها الأقمار شاهدة .

شَمْسٌ ولاَ كالشَمْسِ عِنْدَ زَوَالِهَا   بَدْرٌ ولاَ كَالبَدْرِ فِي نُقْصَانِهِ

بل بهرت الشمس جمالا والبدر كمالا ، وفاقت سلاح الدنيا شمائل وخصالا، وهى عزيزة في قلب أبيها ، كريمة على خواصها وذويها ، فصارت ملوك الأطراف يخطبونها ومن أبيها يطلبونها ، فكان أبوها يفوض

---

(١) علم واسم لكل ملك .

(٢) أى فم الأهوال المخيفة ، المفتوح عن آخره .

(٣) بلاد الختن : بلاد الصيد وما حازاه . معجم البلدان (٤١٣٣) .

(٤) المغل والحنا : بلاد الهند وما حازاها .

(٥) الصحراء .

(٦) من أبناء نوح عليه السلام .

الأمر إليها ويعتمد فى تزويجها عليها ، وهى لا ترغب فى طالب ولا تصغى لخطبة خاطب إلى أن عنست ، وخطابها أيست . وكان أبوها كما ذكر ذا فطنة بالغة ، وهيبة دامغة . فخشى حوادث الزمان واختلى بها فى مكان ، وقال : اعلمى يا معدن اللطائف ؛ إن البنت فى منزل أبيها كالماء الواقف ؛ إن مكث ياسن(١) ، وإن لم يستعملْ أنتن ، ولا أقول ذلك ملالا ولا عجزا ولا استقلالا ؛ بل لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويضمها ، ونعم الختن(٢) القبر وأحلى من البنت الصبر ، فإن رأيت الرغبة فى الزواج طلبت لك كفؤا من الأزواج ، وكان ذلك أستر لعرضك وأدنى لإقامة سنتك وفرضك، وأفرغ لخاطر أبيك ، وأشرح لخدمك وذويك .

فقالت : أحسن الله الرحمن إلى مولانا الخاقان ، وكفاه كل جانٍ من الإنس والجان إن البنين من جملة النعم والبنات من أعداد النقم ؛ ونعم الدنيا عليها الحساب ونقمها سبب الأجر والثواب ، قال رب الأرباب فيما أنزله من الخطاب فى محكم الكتاب ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف : ٤٦] .

وقد جاء فى بعض التفاسير أن : الباقيات الصالحات هى البنات ، فمولانا الملك يعد وجودى نقمة عليه من معبودى ، وأسأل الصدقات الملوكية، والمراحم الوالدية أن لا يعجل فى أمر تزويجى ، وأن لا يبادر كيفما اتفق إلى تزويجى ؛ فإن التأمل فى ذلك أولى وثناء فى الدنيا وثواب الأخرى ؛ وذلك لأن الكفاءة فى الزواج معتبرة وقد قرر ذلك الفقهاء البررة ، وإن لم يكن الزوج للمرأة كفؤ ، فزواجها به يقع سخرية وهزؤا ، ولا يفيد سوى الغرامة والفضيحة والندامة .

---

(١) يفسد .
(٢) الصهر .

فقال الملك : لا أزوجك إلا بكفء كريم ، يكون لك أدنى خديم وفى الناس أعلى مقام عظيم .

قالت : يا مولانا الملك وقاك الله شر المنهمَك ، لا تحمل اعتراضى على الإساءة ؛ وإنما أسأل عن كيفية الكفاءة ، فإن كانت بالملك والمال فإن ذلك فى معرض الزوال ، وإن كانت بإنشاب الأنساب[1] ، فإن ذلك خطأ لا صواب ، قال منزل الكتاب العزيز الوهاب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ﴾ [المؤمنون:١٠١] .

وقال من لا يجوز عليه كذبة «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[2] .

وإنما الفقهاء حكموا بالظاهر والله يتولى السرائر ، ونحن فى قيد الانقياد ، ولا يسعنا إلا ما أمر به الشرع وأراد ، وأما أنا فكفئى الكريم ، إنما هو الكامل الحليم الفاضل الرحيم .

قال الملك : بارك الله فى رأيك وعقلك أنا لا أزوجكِ إلا بملك مثلِك ، أو ابن ملك مثل أبيكِ ، يرعاك ويكرم خدمكِ وذويكِ ، يعدل بالسوية ويحكم على سائر الرعية .

قالت : أيها الملك الكبير صاحب التاج والسرير ، أنا ما أعرف الملك إلا من يعرف بِمُلْكِ الحكم على نفسه فى سيره ، ويكون متحكما متمكنا من الحكم على غيره ، فيحق أن يقال فى ملكه ذى الجلال ، خلد الله سلطانه وشيد أركان ملكه وبنيانه .

قال الملك : ومن هو ذاك بارك الله فيك وهداك .

---

(١) تأصيل النسب .

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة : المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢/٢٥٢) .

قالت : أما الحاكم على نفسه : فهو المالك لزمام جوارحه وحسه ، قد جعل خزائن القلب والسمع معدنا لجواهر العقل والشرع ، فمهما اقتضاه العقل مضاه وعمل بمقتضاه ، وما ارتضاه الشرع وقضاه كان فيه انقياده ورضاه ، قد تحلى بعقود مكارم الأخلاق ، ولو كان فى أسمال[1] أخلاق ، وشغل نفسه بتهذيبها ، واجتهد فى خلاصها من شرك عيوبها ، واهتم بعيوبه عن بعيده وقريبه وبغيضه وحبيبه ، فذلك الحاكم على نفسه المميز على أبناء جنسه .

وأما حكمه على غيره : فهو أن يكون فى سلوكه وسيره منعزلا عن الناس فى زوايا الباس ، لا يسأل عن أحوالهم وعيوبهم ، ولا ينظر إلى ما تحت أيديهم وجيوبهم ، مالكا لزمام العزلة ، متنعما بهذه النعمة الجزلة ، قد اتخذ التقوى والقناعة أحسن حرفة وأربح بضاعة ، قد سلم الناس من يده ولسانه[2] لا يدرى بشأنهم ، ولا يدرون بشأنه ؛ فذلك الحاكم على غيره الفائز من ملك الدارين بخيره . فهو الذى خلد ملكه وسلطانه واتضح للعالمين برهانه.

فإن وجد بهذه الصفات موافى فإنه لى كفء مكافى ، وإنه كالبدر جلى نقى الصدر لله ولى ، فإذا أنعم الزمان بمثل هذا منالا ، فنعم نعم وإلا فلا .

لا فجعل ملك الختَن يتطلب مثل هذا الختَن ، وأرسل القصاد إلى أطراف البلاد يسألون سكان الأكناف ، وقطان الأطراف عن موصوف بهذه الأوصاف ، واستمروا على ذلك مدة كل باذل جهده ، حتى أرشدوا بعد زمان أن المكان الفلانى فيه فلان ؛ رجل أعرض عن العَرَض ؛ فلم يكن له فى

---

(١) القليل من كل شىء .

(٢) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) . وهو حديث أخرجه الترمذى : كتاب الإيمان ، باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧) وقال الترمذى : حسن صحيح .

الدنيا غرض ، وهو بحسن الصفات موصوف ، وفى كرخ العبادة[١] والاجتهاد معروف ، جامع لهذه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلها إلتفات، مشغول باكتساب الآخرة وطلب نعمتها الفاخرة ، وهو من نسل الملوك وقد ترك وراءهم السلوك ، وسلك فى العلم والعمل السبيل الأقوم حتى كأنه محمد ابن الحسن[٢] ، أو إبراهيم بن أدهم[٣] ، ولشدة ماهو لنفسه مجاهد سماه الناس الملك الزاهد ، فاجمع الخاقان على مصاهرته وجعل التقرب إليه قربة لآخرته، فأخبر ابنته به وكان جل مطلوبها ومطلوبه ، وعُقِدَ بينهم النكاح وحصل الفلاح والصلاح ، فوافق شن[٤] طبقة وصار لعين مرامها كالحدقة ، ومضى على ذلك برهة وهما في طيب عيش ونزهة .

فاشتاق الخاقان فى بعض الأزمان إلى رؤية ابنته وسرور مهجته ، فقام لدارها بقصد مزارها لينظر حالها وما عليها ومالها ، فوجدها فى عيش هنى وأمر سنى[٥] ، فسألها عن أحوال زوجها الزاهد ، وكيف صبرها على حالها الجاهد ، فأثت خيرا ، وكفت ضرا وضيرا ، وقالت : جميع ما يبرزه ويأتيه على حسب ما أريده وأرتضيه ، وارتفاعات أحوالنا بسعادة مولانا فى دفاتر الأمن منضبطة ، وعقود حياتنا بيمين صدقاته فى نحور الرفاهية غير منفرطة؛ غير أن بيتنا واحد وبسبب ذلك يتضرر هذا العابد فيه نبيت وفيه نقيل ، وبجوانبه مالنا من خفيف وثقيل وقوت ونقود وخادم ومولود ، فلا

---

(١) مكان العبادة .

(٢) محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه الإمام ، قاض المسلمين ، أحد الأعلام ، صاحب أبى حنيفة النعمان . البداية والنهاية (١٠/١١٠) .

(٣) إبراهيم بن أدهم ، من كبار الزهاد ، ومن تلاميذ الحسن البصرى ، قضى عمره فى السياحة والزهد توفى سنة (١٦١) هـ . سير أعلام النبلاء (١١٥٦) .

(٤) أى تآلفا وامتزجا .

(٥) رضى ورفعة .

يتفرغ من الغوغاء[1] للعبادة لأنها تستدعى عزلة العابد وانفراده ، وتخليه لمناجاة معبوده ليظفر من حلاوة الطاعة بمقصوده ، فأسأل مولانا الخاقان ذا الفضل والإحسان بيتا يتخلى فيه للعبادة ومكانا يضع فيه خرثى[2] البيت وعتاده ، فقال : حبا وكرامة وقربا وسلامة .

ثم اجتمع الملك بصهره الذى به فاخر وذكر له أنه أعطاه بيتا آخر ، أحدهما : يكون لخلوته ومبيته ، والآخر : يضع ما يحتاجه من عتاده وقوته .

فقال الزاهد : أيها الملك الماجد ، فعلت ذلك لتقسيم خاطرى ، وتوزع فكرى ومرائرى[3] ، ولا طاقة لى أن أتعلق بمكانين ، وما جعل الله لرجل من قلبين ، وإنما الزاهد من همه فى الدنيا واحد ، فإنه على عدد التعلقات يتوزع القلب الشتات ، وإذا تعددت الأماكن يحتاج كل منها إلى ساكن أو حافظ أو ضابط أو حارس أو رابط ، وأنا لا اعتماد لى بحفظ نفسى أيها الولى، فكيف يكون لى اقتدار على حفظ الأغيار وإذا انقسمت أفكارى وفسد بالى ، فكيف أقدر على صلاح حالى ، وأنَّى يَصلُح مع فسادى أمور معاشى ومعادى ، ثم إنى إذا وزعت نفسى فقد نبهت راقد حرصى، والحرص أفعى قاتل وأسد صائل يقتلنى بسهمه بل بمجرد شمه .

فقال الملك الكبير : لا تهتم لذلك أيها الزاهد الخطير ؛ فإن لى أماكن عديدة وقصور مشيدة وحواصل مصونة ، وخزائن مكنونة ، الكل تحت تصرفك واختيارك لا منازع لك فيه ولا مشارك ، فاجعل لكل جنس من قماشك وأثاثك ورياشك ، وما يقوم بأودك ومعاشك مكانا على حدة وناحية حفظ منفردة ، واتخذ لنفسك مقاماً خاصا بك لا عاما ، وأنا أقيم على كل مكان حارسا ، إن شئت راجلا وإن شئت فارسا ، فعند احتياجك إلى شىء أتاك هنا ميسرا من غير كد ولا عى ، وتفرغ أنت لعبادتك واشتغالك بأمور آخرتك .

---

(١) العامة من الناس .

(٢) أى قليل المتاع .

(٣) العزائم .

قال الزاهد : أيها الملك المجاهد الاغترار بالقصور من جملة القصور، والاعتماد على الحصون من دواعي الجنون ، وإذا ورد من الملك الغفور طلب على يد القبور فماذا تجدى الدور والقصور ، وماذا تنفع الحصون أو يدفع كل مكان مصون ، وإذا آذن بالجلول ذلك الخطب المهول تود النفس لو كانت القصور الممهدة والبروج المشيدة ، أذل من أفحوص قطاة[١] ، وأقل من عطش بزاة[٢] وقد قيل :

قَمِيصٌ مِنَ القُطْنِ أو حُلَّة ... وَشُرْبَةُ مَاء قُرَاح وقُوتِ
يَنَالُ بِهَا المَرْءُ مَا يُرْتَجَى ... وَهَذَا كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَمُوتُ

واعلم أيها الخاقان ؛ إن النفس لها خادمان مطيعان مجيبان ، ولما تأمر به سميعان ، وهما الشهوة والحرص الشديد الدعوة . أما الشهوة : فرائد الأكل الكثير والشرب. وأما الحرص فعائد الرعونة والعجب وقد قيل :

فَهَذَا يَقُودُ إِلَى طَبْعِهِ ... وَهَذَا يَسُوقُ إِلَى رَبْعِهِ

فهما ليلا ونهارا وسرا وجهارا ، يزينان لها ما طُبعا عليه ، ويجذبانها إلى ما جبلا إليه ، ويقاضيانها حقهما ويطالبانها مستحقهما ، ولابد للمخدوم من إقامة أوْدَ خادمة واسترضاء أنيسه ومنادمه ، وقد قال من أتقن المقال :

إنَّ اللَبِيبَ أخا اللبيب هُو الَّذى ... مَعَ تيهه يَحْنُو عَلَى عِشَاقِهِ
وَكَذَا الرَئِيس وَأَنْتَ أكبر جِنْسَه ... مَنْ فَاضَ فى الخُدَام مِنْ أرزاقِهِ
يَهْتَمُ إِنْ حَضَرُوا لَهُ بَنُوا لَهُ ... يغتم إِنْ غَابوا عَلَى أشْوَاقِهِ
مَعَ أنَّ حِشْمَتَهُ وفائضُ عِلْمِهِ ... تَرَقَى بِكُلِّ مُنْتَهَى استحقاقِهِ

---

(١) القطاة : الأنثى من الطيور . والأفحوص : المكان الذى تحفره القطاه ، لتحفظ فيه البيض .

(٢) بزاه ، مفردها باز : أحد الطيور الجارحه .

ولكن رضا هذين الخادمين غاية لا تدرك ، وفقد مقصوديهما نهاية عميقة المسلك ، وقد قال سيد الأنام عليه الصلاة والسلام يوما وهو بين الأصحاب كالشمس ليس دونها حجاب ، والبدر لا يحجبه سحاب : ((لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب))(١) .

والحرص مُهْلِك ، والشهوة قاتلة ، وكل منهما فى الدمار والبوار علة كاملة ، وناهيك يا ذخر الحق وغياثه أخبار اللصوص الثلاثة ، فطلب الملك من الزاهد إيضاح هذا الشاهد .

[٢٠] **فقال** : ذكر أهل الوراثة ، أن لصوصا ثلاثة ، كانوا على سبيل الاشتراك متعاطين أسباب التحرم والهلاك ، واستمروا على ذلك مدة حتى استولوا من الأموال على عدة ، ففى بعض الليال ظفروا بجملة من الأموال، ودخلوا إلى مكان داثر(٢) خال بنية الاقتسام وكانوا محتاجين إلى الطعام ، فوجدوا فى ذلك المكان الداثر صندوقا مملوأ من الجواهر ، ففرحوا وانشرحوا، وتصوزوا أولئك الخاسرين أنهم ربحوا . فقالوا : إن اشتغلنا بقسمة هذا المجموع كُلِّيتًا وأهلكنا كلب الجوع ، فأولى طلب الطعام قبل الاقتسام ولو بأدنى التهام ويسير التقام . ثم أرسلوا مع أحدهم إلى المدينة ورقهم(٣) ، ليأتيهم بما يسد رمقهم .

فلما انفصل عن مكانهما وغاب عن أعينهما تحركت نفسه الخبيثة بشهوة أجحبت تاريثه(٤) ، وقواها الحرص المشوم لشدة الشره الملوم ، ودعاه داعى الفساد إلى الاستيلاء بالانفراد ، فعزم على ختلهما فوضع فى الطعام

---

(١) حديث أخرجه البخارى : كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال (٣٦ ، ٦٤) .
(٢) مهجور ، خرب .
(٣) الورق : الفضة . والمعنى : النقود .
(٤) التريث والهدوء .

سما لقتلهما ، وأما هما فعلى قتله عزما واستعدا لذلك بعد ما جزما ، ليصير المال بينهما نصفين ، ويصيرا فى ذلك كالأخوين الإلفين ، ويكون ذلك كأنه وراثة لأن شر الرفقاء ثلاثة ، ولم يدعهما إلى ذلك غير داعى الشهوة وأكد ذلك داعى الحرص ، وأبْخِسْ بها من دعوه .

فلما فصل ذلك بالأكل بادرا إليه بالقتل ، ثم بعد ما قتلاه عمدا إلى الطعام فأكلاه فبرَدا[1] فى الحال وتركا ذلك المال ولحقا بصاحبهما التالف ، وسيًّا تليد[2] المال والطارف .

وإنما أوردت هذه الموعظة ؛ لأنها على أحوال الدهر موقظة ، وإن كان مولانا الخاقان فى أموره يقِظان ، لكن قد قال رب العالمين ﴿**وذَكِرْ فَإنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الذاريات:٥٥] . واعلم يا مولانا الخاقان ، كفاك الله مكايد الشيطان وأنجح مقاصدك على مر الزمان ، أن الدرجة العلية والمرتبة السنية لا تُنال بقوة ولا عزمة ولا شجاعة ولا همة ، وإنما هى عناية ربانية وأسرار رحمانية لأقوام سبقت لهم من الله الحسنى وزيادة ، وانتظموا فى سلك أهل السعادة ، فهم أهل الفضل والسيادة ، أسبغ الله عليهم سواطع الأنوار وقطعهم عن قواطع الأشرار ، فهم السادة الأخيار والقادة الأبرار، قاموا بأداء ما وجب عليهم وتركوا ما خلفهم واستبشروا بما لديهم ، فأنوارهم ساطعة وأسرارهم لجميع الأوهام قاطعة ، تركوا زخارف هذه الدار وأرادوا دار القرار، وجوار الملك الغفار ، فهم الهداة إلى الله الدالون على الله ، لا يعتريهم كدر الأوهام ولا يشتغلون عن خدمة خالقهم مدى الأيام ، هم العباد المكرمون ، العباد المقربون ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى كتابه المكنون ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس :٦٢،٦٣] .

---

(١) أى مات .

(٢) تليد المال : عزيزة وكثيرة .

واعلم أن أعدى عدوك بين جنبيك ؛ وهى نفسك التى قط ما ركَنَتْ إليك، فاعص هواها ولا تعطها مناها ، فإن فى اتباعها الندم عاجلا والحسرة آجلا ، لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع ، ولا تظن أنها إذا أُعطيت مناها شكرت، أو إذا ذَكَّرتَها مَنْ بَرَأَها ذكرت ، بل متى أمنتها كفرت ، أو آنستها نفرت ، أو أرخيت عنانها بطرت وأشرت[١] ، وإن نالت مطلبا أو تناولت مأربا انتقلت عنه وطلبت أعلى منه ، فليس لها دواء إلا القمع عن دواعى الهوى كما قيل :

النفسُ راغبــةٌ إذَا رَغَبْتَــهَا   وإذِا تُــرَدُّ إلــى قليلٍ تَقْنَــع

وكما قيل أيضا :

وَمَا النفسُ إلاّ حيثُ يَجْعَلُهَا الفَتَى   فَإنْ أُهْمِـلتْ تَاقــتْ وإلاَّ تسلتْ

وكما قيل أيضا :

قنـــع النفـس بالقلـــيل وإلا   طلبت منـــك فوق ما يرضـــيها

وإياك وطول الأمل فإنه مفسدة للعلم والعمل .

قال الحكماء وعقلاء العلماء : الأمل شبكة الشيطان ، وموجب الحرمان، فاجهد مادام لك على النفس ملكة أن تخلص نفسك من هذه الشبكة ، ولا تهتم للأقوات فكل ما قُسِّم ما فيه فوات وكل ماهو آت آت ، وكل مارقمه[٢] القلم فى القدم وأثبته قضاء الله تعالى عليك وأنت فى العدم ، سواء كان خيرا أم شرا نفعا أم ضرا ؛ فأنت ملاقيه وعلى كل حال موافيه ، فاقطع دواعى الطمع عمن لا يضر ولا ينفع لا عمن إن شاء ضر وإن شاء نفع ، ولا تجتمع إلا بمثلك فى الجماعات والجُمَع ، ولا تتعب لجوع وعرى واكتساء

---

(١) بطر ومرح .

(٢) كتبه .

وشبع ، فقد قيل : إذا شبعت فلا تهتم للجوع فكم من شبعان مات قبل أن يجوع ، وإذا اكتسيت فلا تهتم للعرية ؛ فكم من مُكْتَسٍ مات وثيابه جديدة مطوية .

واعلم أن طبع الدنيا بالمخالفة كأنها على المخالفة محالفة ، فإذا ضممت عنها يدك إليك أقبلت عليك وجاءت تهوى تحت قدميك ، وإذا طلبتها هربت ، منك وكلما ارتبطت إليها انحلت عنك وقد قيل أيها الملك الجليل :

مثل الرزق الذى تطلبه ، مثل الظل الذى يمشى معك أنت لا تدركه مستعجلا ، وإذا وليت عنه تبعك .

ثم اعلم أيها الخاقان : إنك وإن كنت ذا التصرف والسلطان ؛ وأن هذه الخلائق رعيتك نافذة فيها بمراسيمها مُنْيتِك ، إلا أنك فى الحقيقة واحد منهم لا تزيد بشىء فى الذات والصفات عنهم ، ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خلق الأولين والآخرين رفعك عليهم ، وتقدم بأمره أن يطيعوك إليهم فقال من له الخلق والأمر ﴿**أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ**﴾ [النساء:٥٩].

فهم قد أذعنوا لك وأطاعوك فراعهم كما هم راعوك ، واطلب لهم أسنى المراعى وأبهاها ، وأوردهم أعذب المشارب وأصفاها فإن الملك الذى سلمهم إليك ، سوف يتقدم بالسؤال عنهم إليك ، وقد قال من أنت خليفته على أمته «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[١] . فكن لهم كما تريد أن يكونوا لك ، ودِنْ لهم كما تحب أن يدينوا لك .

واعلم أيها الملك الودود : أن هذه النقود إن لم تصرف فى مصارفها ،

---

(١) حديث : أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ (٥١٨٨).

وترفل[1] فى وجوه الطاعة فى مطارفها[2] فإنها جمر يضرم فى نار جهنم كما قال من يقول للشيء كن فيكون **﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾** [التوبة:٣٥] .

فاسمع أيها الملك الصالح نصيحة مشفق ناصح ، ولا تغتر بالدنيا وزهرتها ولا تنظر إلى حلاوتها وخضرتها ، وإياك والميل إلى نزهتها ونضرتها ، فإنك إن مِلْتَ إليها أسرتك أو جُبِرْتَ على الركون إليها كَسَرَتْكَ ، وحسبك من كلام الرب الغفور ومن بيده مقاليد الأمور **﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾** [لقمان:٣٣] .

قال الراوى لهذه الحكم والفتاوى : فلما وعى ما قال الخَتَنُ هذه النصائح الصادقة من الخَتَن أمر بها فسطرت ، ثم نشرت وشهرت وعلى المنابر قُرِئَت وعلى رؤس الأشهاد ذكرت ، وأبلغها ابنته وقرر لها مقدار زوجها وحكمته وميله عن الدنيا ورغبته .

فقالت : هذا الذى كنت أردته وعلى مسامع مولانا الخاقان سردته . ثم إنها أقبلت على طاعة ربها وبعلها ، وإصلاح أحوالها فى قولها وفعلها ، وقضيا عمرهما فى أنواع العبادة ، واكتسبا بطاعتهما فى الدارين الحسنى وزيادة ، ثم اقتدى بهما الملك وعسكره ؛ حتى انتشر فى آفاق المملكة بالعدل والصلاح خَبَره ، إلى أن اندرج إلى رحمة الله تعالى ذلك الرعيل[3] وبقى ذكره مخلدا على صفحات الأيام جيلا بعد جيل ، وقد قيل فى ذلك ممن أحسن القيل :

كَانُوا شُمُوساً تُضِيء الدَّهر طَلْعَتهُم ... وَفِي طَرِيق المَعَالِي يُقْتَدَى بِهِم
غَابَتْ فَلَوْلاَ سَنَاهُم كَالبَدُور أضا ... مِنْ بَعْدهم تاه أهلُ الفضل فى الظُّلَم

(١) تنفق .
(٢) أى فى أماكنها وحدودها .
(٣) الجيل من الناس .

هكذا يكون طالب السعادة الأبدية والكرامة السرمدية[١] ، إذا ملَّكه الله زمام الرعية يحسن سيره فى الدنيا ويتيقظ لتحصيل السعادة الكبرى ويشتغل بما يرضى عنه المولى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تمت بحمد الله تعالى نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك ، ويلى ذلك مباحث زاهد الإنس العالم مع شيطان الجن الآثم الأفَّاك . ونسأل الله المسئول أن يحقق لنا من كرمه وإحسانه المأمول ، ويعصمنا بفضله من عثرات الفضول ، والصلاة والسلام على أعظم نبى وأكرم رسول وعلى آله وأصحابه، وأكرم بالصديق[٢] ، والفاروق[٣] ، وذى النورين[٤] ، وزوج البتول[٥] ، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، صلاة وسلاما يشتملان العفو عنا والقبول ويُمِنُّ بالكرم والفضل على قطوعنا بالوصول آمين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) المستمر الأبدى .

(٢) هو لقب أبو بكر الصديق ﷺ ، لقبه النبى ﷺ عند تصديق إياه لخبر الإسراء والمعراج . الإصابة (٩٦٣٦) .

(٣) هو لقب عمر بن الخطاب ﷺ لقب به لتفريقه بين الحق والباطل . الإصابة (٥٧٥٢)

(٤) هو لقب عثمان بن عفان ﷺ لقب به لزواجه من ابنتى النبى ﷺ .الإصابة (٥٤٦٤)

(٥) البتول هى فاطمة بنت النبى ﷺ وزوجها هو على بن أبى طالب . الإصابة (١١٥٨٧) .

الباب الرابع

فى مباحث عالم الإنسان

مع العفريت جان الجان

[٢١] **قال الشيخ أبو المحاسن** ؛ مَنْ ماءُ ينابيع علمه فى مجارى بدن الفضل غير آسن : فلما أنهى الحكيم حسيب ذو الفضل النسيب ، حكاية ما طرَّزَه مما نسجه وحاك ، وفصَّلَه خياطُ تقديره على قامة المجد من خُلَع حكم العرب والعجم والأتراك ، شكره أخوه القيل على هذا القيل ، وأفاض عليه من نيل نواله جزيل النيل ، وأدرك من ذلك الأنموذج ، علو علمه ، وسمو حلمه ، وجميل حُكْمِه وجليل حِكَمِه ، ثم قال : يا أستاذ بلغنى أن ببغداد خرج منها خارج من نار من مارج[١] وهبط إلى مدارك الخزى عن المعارج ؛ وأصل ذلك المشوم من عفريت خلق من نار السموم ، وإن شخص ذلك الشيطان جبل من سخام الدخان[٢] ؛ فلهذا ركب وجهه السواد وتركب سائر جسده من الرماد، فهو جنى ذميم ، وشيطان رجيم ، وقد شرع ذلك الخناس فى الإفساد والوسواس ، وتعاطى إيذاء أكابر الناس وأنه فى هذه الأيام نفى إلى بلاد الشام فلم يوافقه ذلك المقام ؛ لأنه مُهَاجَر الأنبياء الكرام ، وهذا مجبول على سجايا اللئام ، وطباع أهل الفساد والإجرام . فأقام فيها بالاضطرار والاضطرام مدة أشهر وعدة أعوام ، وأخذ فى الإضلال والتضليل ، فأضل خلقا كثيرا عن سواء السبيل ، وتستر ذلك الجان بحجاب الانتساب إلى جنس الإنسان ، ولبس بشق العصا ثوب العصيان ، فكمن كمون الشوك تحت ورق الورد والريحان، واحتمى فى حمى الشقاق والنفاق بشقائق النعمان[٣] ، والحق أنه من نسل العفاريت ، وكان عند الجن مقيله والمبيت ، ومن ألبانهم له غذاء وتربيت .

فقال له الملك : هديت ووقيت فإن يكن عندك من ذلك شيء ، فشنِّفْ من جواهر حِكْمِهِ أُذُنى ، فإنك حكيم الجن والإنس ، وكريم النوع والجنس .

---

(١) خالص النار .

(٢) الدخان الأسود .

(٣) شقائق النعمان : أحد أنواع الزهور .

قال الحكيم : نعم أيها الملك العظيم أنا جهينة الأخبار[1] ، ومزينة الأخيار[2] ، وحكم الحكم ولى فى البيان أعلى علم . أما هذا الشخص المذكور فإنه بالفسق والفساد مشهور ، ورَقُّ شره[3] فى البلاد منشور ، وكتاب عناده بين العباد مسطور ، وبيت جسده لنعم الله تعالى على خُلْصِ أوليائه بالفجور معمور ، وله صفات تعيسة وأخلاق خسيسة ، تأنف مردة الشياطين منها وتستنكف العفاريت عنها ، وكم له من دواهى شرها غير متناهى ، لا يفى بذكرها هذا الخطاب ولا يسع سردها هذا الكتاب ، بل ولا يقوم بذلك دفتر ولا حساب ؛ ولكن البعرة تدل على البعير ؛ فقس من هذا التقدير الكثير على اليسير ، وقد كان أراد نشر الفساد ببلاد العراق وبغداد فعاكسه القدر وأحاد، فَنُفِى من تلك البلاد فوصل إرم ذات العماد[4] ، وتعاطى أسباب ماهو عليه من الزندقة والإلحاد فأثار أصناف الفتن وأنواع العناد ، وابتدع من الشر والبدع ما يخرج عن حصر التعداد ، وهو على ماهو عليه من المناكدة والمجاحدة وقصده الأعوج من تعديل أقوال الرافضة[5] والملاحدة ، وسيوضع لذلك مصنف متسع على حِدَه . ولقد بلغنى أيها الملك الهمام أنه حصل له فى ذلك المقام مع عالم من علمائها الأعلام قضايا كَبَّتْهُ على خيشومه ، وأظهر بها ذلك العالم دسائس خبثه وشومه ، مثل ما اتفق لعالم الإنسان مع شيطان العفاريت وجان الجان فى غابر الدهر وماضى الزمان . فقال القيل العظيم : أخبرنا بذلك أيها الحسيب الكريم .

---

(١) جهينة الأخبار : مثل يضرب للشخص العارف بحقيقة الأمور .

(٢) أفضل الأخيار .

(٣) الرق : الصفحة من الكتاب وغيره .

(٤) إرم ذات العماد : قوم عاد الأولى ، وهم ولد عماد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح وهم الذين بعث الله فيهم هوداً عليه السلام . وذات العماد ؛ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمنهم خلقة وأقواهم بطشة .

(٥) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ، ثم قالوا له تبرأ من الشيخين ، فأبى، ثم قال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه . وهم من أخبث فرق الشيعة .

[٢٢] فقال : ذكر أن فى الأزمان الغابرة كانت صنوف[١] الجن للإنس ظاهره ، تتراءى بأشكال مختلفة وتتزيا بأمثال غير مؤتلفة ، وتظهر لهم الخيالات العجيبة والصور المموهة الغريبة ، فتضلهم ضلالا مبينا ، وتأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم شمالا ويمينا ، وتخاطبهم مشافهة وتوافيهم مواجهة.

ففى بعض الأيام ظهر ببلاد الشام مهبط الوحى ، ومهاجر الأنبياء الكرام ، ومحط رحال الرجال من أهل الفضل والأفضال رجل من العباد وأفراد الزهاد ، فاق الأقران بالصلاح وساد أهل الزمان بالورع والفلاح ، وحاز طرفى العلم والعمل ؛ فكمل كثيرا منهم بعدما كمل ، واستمر يدعو الخلق إلى خالقهم ويحثهم فى الإنابة والتوكل على رازقهم ، ويرضونه ويرضيهم فى الطاعة ، واتباع السنة والجماعة ، ويقبح الدنيا فى أعينهم ، ويحذرهم غدارتها فى مكمنها عند مأمنهم ، وكان لنفسه المبارك نقوش فى النفوس يجذبها إلى ما يريد جذب الحديد المغناطيس ، ففى مدة يسيرة تبعه طوائف كثيرة ، وانتشر صيته إلى الآفاق وصفا للعباد وقت الطاعة وراق، وضربت إليه أكباد الإبل ، وامتلأت به الدنيا من العلم والعمل ، واضطرب أمر المردة والشياطين العندة ، وتعطلت أسواق الفسوق وخرج عرق العاصى من العروق ، وتخملت العفاريت وتنكست أعلام الجن المصاليت[٢] ، وضل سبيل الضلال كل مارد خرِّيت[٣] ، وبطلت زخارفهم وتمويهاتهم ، وعطلت وساوسهم وتشويهاتهم ، وأهانهم الناس وكسد الوسواس ، وفسد فعل الخناس .

فلما ضل سعيهم وكاد يقع نعيهم ؛ اجتمع العفاريت العتاة ، والشياطين

---

(١) صنوف ، مفردها صنف : نوع .

(٢) مصاليت الجن : شجعانهم .

(٣) الماهر العارف بالأمور .

الطغاة ، والمردة العصاة إلى إبليسهم العنيد ؛ وهو شيطان مريد صورته من أقبح الصور ، له أظلاف[1] كأظلاف البقر ، ووجه كالتمساح ، وشكل كالرماح، وخرطوم طويل ورأس كالفيل ، وعيون مشققة بالطول ، وأنياب كأنياب الغول ، وشعر كالشيهم[2] ، وجلد كالأرقم[3] ، وهو يلهث كالكلاب ومن ورائه عدة ذئاب ؛ فشكوا إليه حالهم وأطالوا فى الشكوى قالهم ، وقالوا : يا شيخ التلبيس ، وابن عم إبليس لقد عَرَتْ المدارس وبطلت منها الوساوس، وتعمرت المساجد بكل راكع وساجد وقائم وقاعد وقارئ وجاهد ، فَطُرِدَ كل شيطان مارد ، وتمشى سنن الحلال فوقف منا الاحتيال ، وأمر بالمعروف فوقعنا على الأمر المخوف ، وكثرت الحجاج فتقطعت منا الأوداج[4] ، وأُديت الزكوات والحقوق ، فطرد منًا كل عقوق ، وقام الحق فنام الفسق ، وعبد الله فى المغارات والكهوف واستد علينا السبيل فعلى من نطوف ، ولم يبق لنا على بنى آدم سلطة وصرنا فى بحارهم أقل من نقطة ، وعند جهرهم بأذكارهم أذل من ضرطة ، لا وساوسنا تؤثر فى أفكارهم ، ولا مجالسنا تعطل من أذكارهم ، ولا تخيلاتنا تتراءى لأبصار أسرارهم . فإن استمر الحال على هذا المنوال لا يبقى لنا فى الدنيا مقام ، ولا بين الجن والإنس كلام.

فلما وعى العفريت فحوى هذه الشكوى وتأمل مافى مطاويها من نازلة أحاطت بهم وبلوى ؛ اشتعلت نيران غضبه ، وتأججت شواظات لهيبه ثم قال : أمهلونى أتلوى ، واتركونى أتلوم وأتروى وأفتكر فى هذه البلية وأكشفها عن جلية ؛ فإن الأمور لا تنتج لمعانيها مالم يتأمل من فراغها فى جوانبها ونواحيها ، وتحقيق المسائل إنما يوجد من محكميها .

---

(١) أظلاف ، مفردها ظلف : حافر الدابة .
(٢) الشيهم : القنفذ .
(٣) الثعبان .
(٤) الأوداج ، مفردها ودج : عرق فى العنق .

وكان هذا العفريت العاتى المارد المواتى تحت يده وأمره من مقتبسى تلبيسه ومكره الشياطين المردة ، وأغوال العفاريت العندة طوائف شتى وأمم لا تحصى ، وممن فاقهم فى المكر والمراء أربعة أشخاص كبراء وزراء ؛ كلّ منهم فى الشيطنة ، والموالسة[1] ، ومعرفة طرق الوسوسة كأبى على بن سينا[2] فى علم الهندسة ، غاية لا تدرك ، ونهاية لا تستدرك .

فاجتمع هذا الغول بوزرائه ورؤساء أشياعه وكبرائه ، ثم قال لهم: أفتونى فى أمرى وساعدونى على فكرى وسكرى ، ووجه الخطاب لكبيرهم الذى علمهم السحر المشار إليه فى الدهاء والمكر ، وقال له : ما رأيك فى هذه القضية والمواقف الردية والداهية .

فقال الوزير : يا مولانا الأمير وصاحب المكر والتدبير ، إن العقلاء وذوى التجارب من الحكماء تفرسوا بأمر قاطع من الوقائع القواطع ، فقالوا: شيئان لا بقاء لهما ؛ الروح فى الجسد ، والسعد فى الطالع ، وهذا هو الصواب ولكل أجل كتاب ، ومادام الأجل باقيا والسعد راقيا ، ومنادم السلامة ساقيا ، وحافظ العوارض واقيا لا ينفع الجد ولا يدفع الجد ولا يرفع الجهد ماأثبت السعد ، فإذا تم الأجل وبطل من السعد العمل انتكس السعد وانقلب وفارقت الروح بلا سبب ، وإذا كان كذلك فهذا الرجل الناسك سعده عمَّال، وطالعه فى إقبال فكل سهم مكر فوّقناه[3] إلى نحو حياته يعود علينا ، وكل رمح فكر صوبنا سنانه إلى شاكلة بقائه يرجع إلينا ، فالرأى عندى أن نتربص حتى تدور به الدوائر ولا نهتم باحتيال محتال ولا مكر ماكر ، إلى أن تتقضى مدته ويسقط من سعد طالعه قوّته ، فعند ذلك يفيد سعينا ولا يضيع كدنا .

---

(١) الخداع والخبث .

(٢) ابن سينا ، أبو على : فيلسوف وطبيب وعالم من كبار فلاسفة الإسلام وأطبائهم ، عرف بالشيخ الرئيس توفى سنة (١٠٣٧) م .سير أعلام النبلاء (٤٠٠٤) .

(٣) فوق السهم : وجهه .

فقال العفريت للوزير الثانى : يا أفضل جانى ، أنت ماذا تقول ، وكيف تشير أن نصول فىْ ميدان هذا الأمر ونجول ؟

فقال : رأى مولانا الوزير سديد وكل ما أشار به فهو أمر مجيد ، ولكن كيف يهمل أمر العدو ويركن مع وجوده إلى قرار وهدو ، وإذا كان طالعه فى قوة ، فإهماله يزيد فى قوّته ، والتهاون فى أمره مساعدة فى معاونته ومعاونة فى مساعدته ، وهذا من علامات العجز والانكسار ، ومن أقوى الأدلة فى الانحطاط والصَّغَار ، وإن رب الأرباب وضع عالم الكون والفساد على الأسباب ، فلابد من تعاطيها فى هذا الباب وبذل المجهود فى معاملات الأعداء والأحباب ، ولم يقتصر الشارع على التقدير والطالع ، إذ فيه حسم مادة الشرائع والتعرض لإبطال حكم الصانع ، فعندى أن نبذل الجهد فى حسم مادّتهم وتعاطى كسر شوكتهم ، وبذل الجهد والجد بما تصل إليه اليد ، وثبات الأقدام فى إثبات الإقدام كما قال الشاعر وهو سلم الخاسر فى ثبت الجاسر :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسِ مَاتَ غمــاً   وَفَـازَ بِاللَّـذةِ الجَسُـورِ

وهذا الشاعر المسمى أخذه من أخينا بشار الأعمى من لنا بوجوده أنس وهو شيطان الإنس حيث يقول ذلك الغول :

من رَاقَبَ النَّاسِ لَمْ يَظْفَر بِحَاجتِهِ   وَفَـازَ بالطيبـاتِ الفاتـك اللهـج(١)

فاعزموا على هدم ما يبنون ، وصدم ما يعنون ، والأخذ فى تمزيق جلدتهم وتفريق كلمتهم ؛ إذ لا اطلاع لنا على مساعدة الطالع ولا حد لبقاء الأجل ؛ فضلا عن أن نقول هذا الحد جامع أو مانع ، وهذا الرأى عندى أولى ورأيك يا رئيس التلبيس أعلى ودونك يا غول هذا القول :

إذا كانتْ الأعْـدَاءُ نَمْـلاً فأتهـم   إذا لم تطأهم أصبَحوا مِثْلَ ثُعْبان

---

(١) اللهج : من تمسك بالوصول إلى مراده .

ومن هذا المقال يا أبا الأغوال :

واللِّصُ ليسَ لَهُ دَلِيلٌ سَاتِر نَحْو الَّذى يَبْغى كَنَوْمِ الحَارِسِ

والأصل فى هذا كله : حسم مادّتهم ، ورد جادتهم ؛ وذلك لا هلاك مرشدهم وإفساد زاهدهم ، فإن قدرنا على إهلاكه وتمزيق حبائله وأشراكه ثبتت شملهم وتبينت جلهم وقلهم .

فقال العفريت للوزير الثالث وكان أنحس عابس : قل لى أيها الوزير سنح لك من التدبير فى هذا الأمر المبير[1] والخطب الخطير ، وماذا ترى فيه وتشير ؟

فقال : لا شك أن الطبّاع تميل إلى ما تسمعه وما يلقى إلى النفس لابد أن يؤثر موقعه ، وما أشار به ودبره الوزيران وهما نعم المشيران ، فهو لا يخلو عن فوائد بل هو متحلٍ بعقود الفرائد ، وإنى لأعلم أنه أثر فى الخواطر كما يؤثر فى الرياض السحب المواطر .

وبالجملة فللكلام تأثير فى النفس كما تظهر آثاره فى الحس ؛ ولهذا ترى رقيق الشعر يفعل مالا يفعله دقيق السحر ، وجليل العبارة فيه من الإثارة ما يشجع الجبان ، وينشط الكسلان ، ويسخى البخيل ، وينجى الذليل ، ويسحر الأرواح ، ويسخر الأشباح ، ويعطف القلوب ، ويؤلف بين المحب والمحبوب، ويصير العدوّ صديقا ، وغليظ الأحرار رقيقا ، وتأمل يا بنيه ما قيل فى البدية :

حَدِيْثٌ إذَا مَادَمتْ دَهْرى انْتَخَى وكَفَّ عَنْ الإيذاء وَعَادَ إلى الإخَا
أُذكِّره أخْلاَقَ مالِكِه الَّذى تَعلَّم مِنْه العِلْم وَالحِلْم والسَّخَا
أنَالُ بِهِ مَالاَ يُنَالُ بِقُوةٍ وأرواحَ أشباحٍ أتت بَعْدَمَا شَمَخَا

---

(١) المهلك .

وهذه قضية تحتاج إلى إعمال الروية وإمعان النظر وتدقيق الفكر ، وعندى الرأى السعيد السديد والفكر الحميد المجيد إن التعرض إلى هذا الرجل الدين الداعى إلى طريق الحق البين ليس بمحمود ولا طالع قاصده بمسعود فإنه على الحق متشبث بأذيال الصدق ، ومن قصد مصادمة الحق اصطدم وفى مهاوى الهلاك ارتدم .

[٢٣] وقد كان فى بنى إسرائيل رجل من أهل التبجيل ، عاملا بالتوراة والإنجيل ، مشغولا بالعبادة ، باذلا فى إقامة الحق اجتهاده ؛ فتعرض له جماعة من أهل الفسق والخلاعة فتعاطوا أهلاكه ، وفجعوا به نساكه ، فقتلوه بغير حق فغار له الدين ورق . فأخبرنى من لا يُتهم بكذبه أنه قتل سبعمائة ألف نفس بسببه ؛ فذهب بسبب ذلك الصالح من بنى اسرائيل الصالح بالطالح، ومن كان مع الحق هاديا إلى الصدق ، فإن الله تعالى معه ومن كان الله معه منعه وحرسه وما ضيعه ، ومن تصدى لضياع ما حفظ الله ، وعزم على ابتذال من أعزه مولاه وكلاه ؛ فقد قصد خراب عمره وعمارته وباع رأس مال تجارته وربحه بخسارته ، وجنى بيده على نفسه وحفر بيد تدبيره مهواة رمسه[١] .

واسمع يا نعم العون ما جرى لمؤمن آل فرعون ؛ حيث كان على السداد داعيا إلى سبيل الرشاد وقصدا هلاكه أهل الفساد فقال ﴿**وأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّه بَصِيرُ بِالعِبَادِ**﴾ [غافر:٤٤] .

فغلبوا هنالك وانكسروا ووقاه اللّه سيئات ما مكروا وأيضا لو قتلنا هذا الرجل وكان على أيدينا له حِمَام[٢] الأجل ؛ فلا شك أنه يقوم مقامه من يلم عظامه ، ويزم زمامه ويحيى بعده أيامه فيقيم شعاره ويكذب ما قدم وآثاره ،

---

(١) قبره .

(٢) قضاء .

فإن تلامذتــه كثيرة وطوائـف جماعتـه غزيـرة ؛ فينتظـم لهـم بعـده الأمـر ولا يضرم لنا من كيدنا الجمر ، وإذا علموا أن ذلك منا واشتهر ذلـك الكيد عنـا ؛ أخذوا منا حذرهم وصوبوا إلينا عداوتهم ومكرهم . ثم عملوا علـى استئصالنا واستعدوا لقتالنا ؛ لأنا أهلكنا معتقدهم وهدمنا عمـادهم ومعتمدهـم ، ولا يمكننـا بعد ذلك طلب الملامة والسلامة ، وتستمر العداوة بيننا وبينهم إلى يوم القيامة، مع أن عداوتنا قديمة . وبالجملة فعاقبة من عادى أولياء الله وخيمـة إذا تقـرر هذا القول وثبت بطريق المعقول .

فـاعلم أيهـا الغـول والشـيطان المهـول أن الـرأى الصـواب فـى هـذا المصاب؛ أن نبادر إلى هذا الرجل وجماعته بإفساد طاعتهم وطاعته ، وحيـث لا يتيسـر لنـا المواجهـة ولا الخطـاب والمشـافهة ، ولا الإضـلال فـى الظــاهر بصورة المتجاهر ، فنزين لهم حب الدنيا وشهواتها والميل إلى زينتهـا ولذاتهـا والركون ، إليها والاعتمـاد عليهـا ، ونلقـى إليهـم طـول الأمـل وبعـد الأجـل ؛ فنثبطهم[١] بذلك عن العمل وندعوهم إلى التهاون والكسل . ثم بعد ذلـك نجلـو خدود عرائس الحرص على أبصار أفكارهم ، وقدود موائس الشُّحّ[٢] ، وحـب المال على أعين خيالاتهم وبصائر أسرارهم ، فإذا ذاقـت ألسنة عقولهـم حـب الدنيا وتمكنت فى أدمغة سويدائهم الرغبة فـى الآبـاء والأبنـاء ؛ سُلِبوا حـلاوة الطاعة ، وتفرقت منهم الجماعة ، وزاغوا عن الطريق الأقوم ، وراغـوا عـن السبيل الأَمَمْ[٣] ، فنتوصل إذ ذاك منهم إلى مقاصدنا ونوقعهم كيفما اخترنا فى مصايد مراصدنا ؛ لأنهم هبطوا من سماء المنازعـة إلـى الأرض ، وأهلكـوا بأيديهم أنفسهم إذ بغى بعضهم على بعض ، فتحاسدوا ، وتحاشدوا ، وتدابروا، وتفاخروا ، وتكالبوا ، وتضاربوا ، وتواثبوا ، وتجانبوا ، وتناهبوا ، وتسـالبوا،

(١) نعوقهم ونحبطهم .
(٢) موائس ، مفردها مائسة : المرأة الجميلة ، والشح : البخل . المعنى تزيين البخل لهم.
(٣) الذى يأتمه الناس ويسلكونه .

وتلاسبوا[١] ، وتقابلوا ، وتقاتلوا ، وتفرقوا ، وتمزقوا وتحرقوا ، وتمرقوا[٢] ، وانحاز كل منهم إلى ناحية ، وأعجب كل برأيه فلا تعرف منهم الفرقة الناجية، إذ تفرقت أهواؤهم ، وتصادمت آراؤهم ، وجذبت أغراضهم إلى الانحناء ، وجلبتهم أمراضهم مع الأهواء ، ومال كل منهم إلى صوب ، وأَيِسَ منهم إلى الصواب الأَوْب[٣]، وتعدد الخلق الذمر ولبس كل لصاحبه جلد النمر. ثم بعد ذلك زلوا وأزلوا ، وضلوا وأضلوه ، فتمكنا فيهم كما نريد، وتصرفنا فيهم تصرف السادات فى العبيد ، وسلطنا عليهم دواعى الغضب والشره ، ولعبنا بشيوخهم لعب الصبيان بالكرة ، فنصوب لهم أقوالهم ونزخرف لهم أفعالهم كما قال من خلقهم وأحوالهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل:٢٤] .

ولا نقصد بذلك إلا كبراءهم وفضلاءهم وعلماءهم وزهادهم ورؤساءهم وحكامهم وحكماءهم ، ولا نفتُر عن مكايدتهم ولا نميل عن مكايدتهم ، ونجرى فى عروقهم ، ونسكن فى فروقهم ، ونحركهم فى رعودهم وبروقهم، فإن تحركوا إلى خير سكّنّاهم ، وإن سكنوا عن شر حرّكْنَاهم ، وإن عزموا على الآخرة صددناهم ، وإن جزموا إلىَ مواطن رددناهم ، وإن أَمُّوا مفسدة قُدْناهم ، أو هَمُّوا إلى معصية سقناهم ، ولابد لهذا العمل الكثير من تأثير ولبيدق[٤] جد فى المسير أن يصير . وبالجملة فنبذل فى كل عامة جهدنا وجدنا، ولا غضاضة فى ذلك علينا ؛ لأنه صنعة أبينا وجدنا ، وقد أخبر بذلك جدنا اللعين لما خالف رب العالمين كما أخبر فى الكتاب المبين فى قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] .

(١) تضاربوا .
(٢) مرق من الدين : خرج من الدين بضلالة أو بدعة .
(٣) العودة والتوبة .
(٤) الدليل الماهر .

فإذا رآهم الناس وقع بينهم الباس ، وحصل لهم منهم اليأس ، وتراجعوا عنهم وهربوا ، منهم وفسد اعتقادهم فيهم بل قتلوهم بأيديهم ؛ فإذا ظهر فسوقهم وكسد سوقهم فإن شئنا أوقفنا حالهم وإن رُمنا إلى الهلاك نسوقهم، وأوثق ما يتصل به إليهم من الأسباب هى حالة الإنفراد والإعجاب ، وحالة الاجتماع للكذاب ؛ فإن الإعجاب يهوى فى النار والكذب يخرب الديار . وناهيك قضية التاجر مع عبده الكذاب الفاجر فسأله شيخ الجن عن بلية ذلك القِنّ(١) .

[٢٤] **فقال** : ورد فى الخبر عن شخص معتبر قال : كان بمكان تاجر ذو مال وزوجة ذات جمال ؛ كلّ يهوى صاحبه ويرعى جانبه ، ويفديه بروحه، ويترشف رضابه(٢) فى غبوقه وصبوحه(٣) ؛ كأنهما زوج حمام وفى بذمام . ففى بعض الأيام قال أحدهما لرفيقه ؛ وهو يرشف من كأس عقيقه شهد رضابه بخمرة ريقه : لو كان لنا عُبَيْدُ يتعاطى مالنا من حاجة ويخلصنا من جميلة عمرو وزيد ؛ فذهب التاجر إلى سوق الرقيق فوجد مع النخاس عبداً ذا قد رشيق ، ينادى عليه أبيعه بكذا على مافيه من أذى ، فقال : وما عيبه ؟ قال : كذبه لا على الدوام ؛ وإنما هو مرة فى كل عام ، فقال : عيب هين ، وشين(٤) لين . فاشتراه وأتى به إلى داره وارتضاه ، فاستمر فى خدمة حسَنَة حتى أتى عليه سنة ، ونسي سيده عيبه وأمن ريبه وجرب بالأمانة يده وبالطهارة جيبه .

فلما مضى عليه عام ، كان سيده فى الحمام ، فأتى البيت فى بعض الحوائج فى صورة الجمل الهائج ، شاهقا باشرا ، صائحا ثائرا ، صارخا : وا ويلاه وا سيداه وا مولاه ، فسئل مالك لا أحسن الله حالك ولا أنعش بالك ؟

---

(١) العبد .

(٢) الريق المرشوف .

(٣) الغبوق والصبوح : ما يشربه فى المساء والصباح .

(٤) عيب .

فقال : رمح البغل بسيدى فما تمالك أن تهالك ، وسلم الروح لخالقها ، وقال لوارثه تسلم مالك ، فأقيم العزاء والسخام[١] وتركهم وأتى للحمام ، وهو يبكى وينوح ويصرخ فسأله مولاه ما دهاه ؟

فقال : وقع البيت على كل من أويت ، ولم يبق فى الدار نافخ نار ، فهلك الكبير والصغير ونُهِبَ مافيها من جليل فيها وحقير ، فخرج وهو يستغيث من حديث ذلك الخبيث ، فوجد أهل البيت سالمين ورأوه من الناجين فعزم على خباطه[٢] ؛ فذكر له ما سلف من اشتراطه . ثم إنه استقام ونسى هذا الكلام ومضى عليه عام . فاستتنف ذلك الخبيث أمره العبيث ، وقال لامرأة مولاه : يا هنتاه إن كنت نائمة فاستيقظى وخذى حذرك وتيقظى، واعلمى أن نية صاحبك أن يُلْقى حَبْلِك على غاربك[٣] ؛ لأنه قد عشق عليك ونبذ حبل حلك إليك وتعلق قلبه ببنت رجل كبير ولا ينبئك مثل خبير وقد حملنى على نصيحتك الشفقة وما أسديت إلىَّ من إحسان وصدقة ، فبادرى قبل حلول البأس ونزول الفأس فى الرأس . فأثر فيها هذا الحديث فاستشارت ما تفعله ذلك الخبيث .

فقال : لو ظفرت بشىء من شعره لكفيتك مؤنة مكره وفكره ، فإن لى صاحبا منجما وأستاذا معلما يَرّقِى الشعور ويجعلها فى النحور ، وإذا وجد إلى خيشومه مساغة ودخل البخور دماغه ، صار عبدا لك على الدوام، وحظيت عنده بالمراد والمرام وارتقيت إلى أعلى مقام ؛ ولكن ينبغى أن يكون من شعر لحيته النابت على ترقوته .

---

(١) السخام : السواد . المعنى إقامة الحداد ولبس السواد .
(٢) إذائه وضربه .
(٣) الغارب : ما بين العنق ، السنام فى الناقة ، وألقى حبل الناقة على غاربها ، أى ترك لها حرية الحركة ، وهو مثل يضرب لمن يترك الأمر ولا يتدخل فيه .

قالت : وأنَّى لى أصل إلى ذاك وقاك الله شر أذاك ؟

فقال : إذا نام وغرق فى المنام فاحلقى منه بموسِى لتكفى الضرر والبوسى ، وأنا آتيك بموسى يحلق الشعور فافعلى ذلك من غير أن يكون له شعور ، فاتفقا على ذلك الاتفاق ، وأتاها بموسِى حلاق . ثم توجه إلى مولاه وقد أضمر له مادهاه ، وقال : أشعرت يا ذا الفضائل إن زوجتك البديعة الشمائل تغير خاطرها عليك وتقدمت بالإساءة إليك ، ولولا أنك شفيق علىَّ وعزيز مكرم لدىَّ ما أنبأتك من أخبارها بشىء ، فإنى أريد أن يكون ما أنهيته إليك مكتوما إلى أن يصير عندك محققا معلوما ، وقد أرسل إليها من يخطبها، وأمالها عنك بما يرغبها ، واتفق معها أنها تقتلك وتستريح وتصبح فى فراشك وأنت ذبيح ، وذلك يقوم بديتك وقد أرسل إليها من الجواهر والأموال أضعاف قيمتك ، فإن أردت مصداق هذا الكلام ، فتثاقل عندها فى المنام ؛ ليزول الشك باليقين وتتحقق أنى من الصادقين ، فأثر هذا الكلام فيه وخاف من مكر النساء ودواهيه .

فلما أقبل العشاء وأحضروا العشاء تناول من ذلك الطعام ، ونهض إلى الفراش لينام ، وأظهر بين القوم أنه غرق فى النوم ، وغمض عينيه ، وانحط وسال لعابه وغط ، فنهضت الزوجة إليه وفتحت الموسِى ودخلت عليه ، ومدت يدها إلى لحيته ووضعتها على ترقوته ، ففتح عينيه فرأى آلة الموت متوجهة إليه فما تمالك أن وثب عليها وجثم إليها ، وخرج زمام تفكره عن يد تأمله وتدبره ، وخطف الموسى من كفها وسقاها كأس حتفها . فلما رأى فوران الدم أدركه لاحق الندم ، وقد تبدل الوجود بالعدم ، ووقع القال والقيل واشتهر أمر القتيل ، وعلق فى شر الاقتناص وعُومِل فى صاحبه بالقصاص .

وإنما أوردت هذا الكلام ؛ لتعلم أن ما أهلك الأنام ، وأوقعهم فى شرك الآثام والكفر والفسوق والحرام مثل الكذب فى الكلام ، وهو لنا أوثق زمام

ولجذبهم إلى ما قصدنا من المرام أحكم خطام(١) وأعظم خزام(٢) ، فاستحسن العفريت هذا الرأى واستصوبه ، وأعجبه ما تضمنه من معان واستغربه .

ثم قال : رأيت يا أصحاب من الرأى الصواب أن أجتمع بهذا العالم الزاهد العامل العابد فى محافل غاصة(٣) ، وأسأله عن مسائل عامة وخاصة، وعن أسرار رقيقة أطالبه بإعجازها والحقيقة ، وأنا أعرف أنه يُفْحَم عن جوابى ويلجم عند أول خطابى ؛ فإذا عجز عن جواب المسائل فى تلك الجموع والمحافل تحقق الحاضرون جهله ، فنبذوه من أول وهلة ، واعترفوا لنا بالفضل الوافر والعلم الغزير المتكاثر ، فصاروا لنا أوداء(٤) والفضل ما شهدت به الأعداء ، ورجعوا عن اعتقاده ونفضوا أيديهم من محبته ووداده، وربما سعوا فى دماره وخراب دياره ، فيكفونا أمره ويزيحون عنا شره ، وأقل الأقسام أن جماعة ذلك الإمام إذا رأوا مالنا فى الفضل من تجارة وعلموا أن رأس مال إمامهم الخسارة التهوا بالسهو ، وسهوا باللهو ، وانفضوا عنه وتركوه ، وهذا إن لم يكونوا سفكوه وسكبوه ، كما فعل صاحب البستان بالمزرعة من الغدر والتفخيذ مع غرمائه الأربعة ؛ فسأل الوزرا عن غدير ذلك الغدر كيف جرى .

[٢٥] **قال العفريت** : كان من تكريت(٥) رجل مسكين ينظر البساتين، ففى بعض السنين قدم قرية منين(٦) ، وسكن فى بستان كأنه قطعة من الجنان فاكهة ونخل ورمان . ففى بعض الأعوام أقبلت الفواكه بالإنعام ، ونثرت

(١) الخطام : حبل يربط به البعير ليقاد به .

(٢) الخزام : حلقة يشد فيها الحبل الذى يجر به البعير .

(٣) مزدحمة .

(٤) أحباب .

(٥) تكريت : مدينة فى العراق على شاطئ دجلة . معجم البلدان (٢٥٦٠) .

(٦) منين : قرية قريبة من نهر دجلة . معجم البلدان (١١٦٧٠) .

للثمار ملابس الأشجار من الأذيال والأكمام ، فألجأت الضرورة ذلك الإنسان أن خرج من البستان ، ثم رجع فى الحال فرأى فيه أربعة رجال أحدهم جندى، والآخر شريف[1] ، والثالث فقيه ، والرابع تاجر ظريف ، قد أكلوا وسقوا وناموا واتفقوا وتصرفوا فى ذاك تصرف الملاك ، وأفسدوا فسادا فاحشا خادشا ومارشا[2] وناوشا وناكشا ، فأضر ذلك بحاله ورأى العجز فى أفعاله ، إذ هو وحيد وهم أربعة وكل عتيد ، فسارع إلى التأخيذ وعزم على التفخيذ[3]، فابتدأ بالترحيب والبشاشة والإكرام والهشاشة ، وأحضر لهم من أطايب الفاكهة ، وطايبهم بالمفاكهة ، وسامح بالممازحة ومازح بالمسامحة إلى أن اطمأنوا واستكانوا واستكنوا ، ودخلوا فى اللعب ولاعبوه بما يحب . فقال فى أثناء الكلام : أيها السادة الكرام لقد حزتم أطراف المعارف ، والطُّرَف[4] ، فأى شيء تعانون من الحِرَف ؟ فقال أحدهم : أنا جندى . وقال الآخر : وأنا رسول الله جدى . وقال الثالث أنا فقيه . وقال الرابع : أنا تاجر نبيه .

فقال : والله لست بنبيه ولكن تاجر سفيه وقبيح الشكل كريه ، أما الجندى فإنه مالك رقابنا وحارس حجابنا ، يحفظ بصولته ويصون أنفسنا وأموالنا وأولادنا بسيف دولته ، ويجعل نفسه لنا وقاية ، وينكى فى أعدائنا أشد نكاية ، فلو مد يده إلى كل منا ورزقه فهو بعض استحقاقه ودون حقه ، وأما الشريف فإن جده هدانا ، ومن النار أنجانا وقد ملكنا كرامة وحبا لقوله تعالى ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى :٢٣] وقد تشرف به اليوم مكانى ، وحلت به البركة علىَّ وعلى بستانى ، وأما سيدنا العالِم فهو مرشد العالَم وهو سراج ديننا الهادى إلى يقيننا ، فإذا شرفونا بإقدامهم ورضوا أن نكون من خدامهم ؛ فلهم الفضل علينا والمنة الواصلة إلينا ، وما أنت يا

---

(١) الشريف : فى الغالب من ينتسب إلى النبى ﷺ .

(٢) المرش : الخدش والحك بأطراف الأصابع .

(٣) التفخيذ : التفريق .

(٤) الطرائف من العلوم .

رابعهم وشر جان تابعهم ، بأى طريق تدخل إلى بستانى وتتناول سفرجلى ورمانى ، هل بايعتنى بمسامحة وتركت لى المرابحة ، أولك على دين ، أو عاملتنى نسيئة[1] دون عين ، ألك على جميلة ، وهل بينى وبينك وسيلة تقتضى تناول مالى والهجوم على ملكى ومنالى ، ثم مد يده إليه فلم يعترض من رفقائه أحد عليه ؛ لأنه أرضاهم بالكلام واعتذر عما يتطرق إليه من ملام، فأوثقه وثاقا محكما وتركه مغرما ، ثم مكث ساعة وهو على الخلاعة مع الجماعة وغامز الجندى والشريف على الفقيه الظريف .

فقال : يا أيها العالم الفقيه والفاضل النبيه ، أنت مفتى المسلمين وعالم بمنهاج الدين ، على فتواك مدار الإسلام وكلمتك الفارقة بين الحلال والحرام، بفتواك تستباح الدماء والفروج ، فمن أفتاك بالدخول فى هذا والخروج ، أفتنى يا عالم الزمان ، محمد بن إدريس[2] أفتاك بهذا ، أم النعمان[3] ، أم أحمد بن حنبل[4] ، أم مالك[5] فسمح لك بذلك ، أما سمعت قول العلماء مُعِزٌ ومجلها

---

(١) أحد البيوع المحرمة ، وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فيقول الدائن للمدين عند حلول الأجل أتقضى أم تربى .

(٢) محمد بن إدريس : هو الإمام الشافعى ، عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً ، ولد فى غزة ونشأ فى مكة ، وعاش وتوفى فى مصر وهو تلميذ الإمام مالك بن أنس، وإمام المذهب الشافعى ، من كتبه (الأم) و (الرسالة) توفى عام (٢٠٤هـ) . سير أعلام النبلاء (١٥٥٦) .

(٣) النعمان : الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، إمام المذهب الحنفى ومفتى الكوفة ولد بها وتوفى فى بغداد عام (١٥٠هـ) ومن كتبه (المسند) و (الفقه الأكبر) . سير أعلام النبلاء (٣٦٣١) .

(٤) أحمد بن حنبل : إمام أهل السنة ، وإمام المذهب الحنبلى ، ولد فى بغداد ، وقاوم المعتزلة فى قضية خلق القرآن ، وعذب طويلا بسبب ذلك فيما عرف بالمحنة وأشهر آثاره (المسند) وتوفى عام (٢٤١هـ) . سير أعلام النبلاء (١٩٠٠) .

(٥) مالك : الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وإمام المذهب المالكى وشيخ الإمام الشافعى ، ولد بالمدينة وتوفى بها عام (١٧٩هـ) وأهم آثاره (الموطأ) فى الحديث . سير أعلام النبلاء (١١٩٣) .

ومذل الجهلاء لجهلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] . وإذا ارتكب مثلك هذا المحظور، وتعاطى العلماء والمفتون أقبح الأمور فلا عتب على الأجناد والأشراف ، ولا على الجهلاء الأجلاف(١) ، ثم مد يده إلى جلابيبه وأوثقه بتلابيبه(٢) فأحكمه وثاقا وآلمه رباقا(٣) ، فاستنجد بصاحبيه إلى جانبيه فما أنجداه ولا رفداه ، ثم جلس يلاهى الجندى الساهى وغامزه على الشريف ذى النسب الطريف .

ثم قال : أيها السيد الأصيل النجيب الجيد الحسيب لا تعتب على كلامى ولا تستثقل ملامى ، أما الأمير فإنه رجل كبير ذو قدر خطير له الجميلة التامة والفضيلة اللامة ، وأنت يا ذا النسب الطاهر والأصل الباهر والفضل الزاهر سلفك الطيب أذن لك فى الدخول إلى مالا يحل لك ، أم جدك الرسول أفتاك باستباحة الأموال ، أم زوج البتول أنبأك أن أموالنا لآل البيت حلال ، وإذا كنت يا طاهر الأسلاف لا تتبع سنة آبائك الأشراف من الزهد والعفاف فلا عتب على الأوباش والأطراف ، ثم وثب إليه وكتف يديه ، ولم يعطف الجندى عليه ، ولم يبق إلا الجندى وهو وحيد فانتصف منه البستانى كما يريد، وأوثقه رباطا وزاد لنفسه احتياطا ، ثم أوجعهم ضربا وأشبعهم لعناً وسباً ، وجمع عليهم الجيران ، واستعان بالجَلاوذة(٤) وأصحاب الديوان ، وحملهم برباطهم وعَمّتهم تحت آباطهم إلى باب الوالى وأخذ منهم ثمن ما أخذوه من رخيص وغالى .

---

(١) الأجلاف ، مفردها جلف : الغليظ الخلق .

(٢) تلابيب ، مفردها تلبيب : مافى موضع اللب من الثياب ويعرف بالطوق ، ويقال : أخذ بتلابيبه أى أمسكه متمكنا منه .

(٣) الربق : الحبل الشديد المعقود .

(٤) الخدم .

وإنما أوردت ما جرى ؛ لتعلموا أيها الوزرا ، أن التفخيذ بين الأعداء بالتأخيذ أمر من السهام فى تنفيذ الأحكام وإحكام التنفيذ ، وهذا قبيل تعاطى أسباب البيلسة[1] ، وفتح أبواب الوسوسة ، فإنه يقال فى الأمثال : عقدة تنحل باللسان لا يؤخر حلها إلى الأسنان . ونعم ما أرشد من أنشد :

فكَـمْ عُقْـدةٍ أغنَى اللسانُ بِحلِّهَـا تَرَاخت وقَد أعيَتْ نَوَاجذ أسنَانِ[2]

ثم قال العفريت للوزير الرابع : ما ترى فى هذا الأمر الواقع ؟

فقال : حيث تردد الأمر بين آراء مختلفة وأقوال متفاوتـة غير مؤتلفة، وأُقيم على كل قتيل برهان ودليل ، فتعدد النقل وتبلد العقل ، وعميت وجوه الترجيح ودَرَسَتْ طرق التصحيح ، فلا يمكن القول بأحدها ولا الميل إلى مفردها ؛ فإن ذلك ترجيح بلا مرجح وتصحيح بلا مصحح ، فربما يتصور الشيء خيرا وتكون عقباه شرا ، ويتوهم شرا فتظهر قصاراه خيرا ، وقد قال منزل الفرقان على أشرف جنس الإنسان ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦] . وكم من قضية يتصوّرها الفكر صوابا ويذهل عما تتضمنه من خطا مآبا ، وكذلك النفس تتصور شيئا بصفة وهو بالعكس ، ولذلك شاهد من وقائع الحس فليس على ذلك معوّل وشاهده قضية المضيف مع ولده الأحول . فقال العفريت : وكيف ذلك أيها الخريت[3] ؟.

[٢٦] **قال الوزير** : أخبرنى شخص فاضل أنه كان رجل كامل ، كريم الشمائل محبوب الخصائل ، مرغوب الفضائل ، غزير الثراء يحب الفقراء ، عذب الموارد مترصد للصادر والوارد ، لا يسأل الضيف من أين ولا كيف ، وهو كما قيل للضيف والسيف ، ورحلة الرجال فى الشتاء والصيف . فنزل فى بعض الأيام ضيف من أصحابه الكرام فزاد فى إكرامه وأحضر ما طاب من طعامه .

---

(١) الفتن والشر .
(٢) نواجذ الأسنان : القوية منها .
(٣) الدليل الماهر العارف .

فلما رفع السماط[1] ووضع للبسط بساط ، قال لضيفه الصديق : عندنا قارورة من الشراب العتيق كنت ادخرته لنزلك وأعددته لمثلك ، وما عندى سواها فإن رأيت أحضرناها وتعاطينا الراح لطلب الانشراح ، فإنها مادة الأفراح كما قيل :

وَمَا بَقِيتْ مِنَ اللذَاتِ إلاّ أَحَادِيثُ الكِرَام عَلَى المُدَام

فسمع الضيف مقالهُ ، وتحمل جميلهُ ودعا له وأجاب سؤله ، فأشار المضيف المفضل إلى ولده الأحول ، وقال : اذهب إلى المقصورة فإن هناك قارورة وإياك أن تنكسر فإن صدع الزجاج لا ينجبر ، وما بناضيرها ولكن ما عندنا غيرها ، فتوجه إلى ذلك المكان فتراءى له قارورتان ، فرجع من وقته ونادى لمقته أيها الأب المفيد هناك قارورتان فأيهما تريد فخجل من ضيفه وغضب لئلا ينسب إلى اللؤم والكذب . فقال لابنه : يا ابن البظرا[2] اكسر إحداهما وهات الأخرى . فأخذ العصا وعبر وضرب أحدما كان تراءى للبصر ، فلم يكن غير وعاء واحد وقد انكسر ، فخرج إلى أبيه وهو من الفكر فى تيه ، وقال : امتثلت ما أمرت وأخذت العصا وضربت فانكسرت إحدى القارورتين ، ولا أدرى الأخرى ذهبت إلى أين فقال : يا بنى إن الخطأ منك وإليك والخطأ فى ذلك كان من نظر عينيك .

وإنما أوردت هذا المقول ؛ لتعلم أيها الغول المهول إن أقوى طرق العلم العين ، وإذا حصل فى إدراكها الخلل والشين تراءى الصدق بصورة المين ، والشيء الواحد بشكل اثنين وهذا أمر محسوس لا تنكره النفوس ، فكيف ترى تكون عين الفكر المصوّن ، وهى بأنواع الحجب محجوبة وبتخيلات الوهم وقضاياه مشوبة ، ومرآتها إنما هى المعانى دون المحسوسة المشاهدة المبانى .

---

(١) ما يبسط ليوضع عليه الطعام .

(٢) البظر : هو موطن الحس الجنسى عند المرأة . وبظراء صيغة مبالغة ، أى كثيرة الجماع .

فعلى هذا ينبغى التأمل فى عقبى هذه الحوادث والتدبر في قصارى هذه الأمور الكوارث ، ثم الأخذ فى تعاطيها والشروع فى أسباب تلافيها ، إنما يكون بعد إمعان الأنظار وإنعام التدبر والأفكار .

ثم اعلم أيها الرئيس الداهى النفيس ، شيخ المكر والتلبيس والبياسة والتدليس ، إن الله القديم القادر الحكيم لم يخلق فى الموجودات ولم يوجد فى المخلوقات أعز جوهرا من الإنسان ، فإنه فضله على جنسى المَلَك والجان واختصه ، بدقيق النظر ، وعميق الفكر ، وسرعة الإدراك ؛ فهو مع عدم الحراك يحكم وهو ساكن على ما تحت الثرى وفوق الأفلاك ، وشمله بعوائده وعوّده بفوائده ، ولطف به فى مصادره وموارده ، فهو أرحم به من والدته المشفقة ووالده ، ووكل بحفظه الكرام الكاتبين وملائكته المقربين ، ورباه فى حجر نعمته على موائد لطفه وكرمه ورحمته ، كما تربى الوالدة الشفيقة والظئر[1] الرقيقة الرفيقة ، وألهمهم العلم الغزير والقدر الخطير والرأى والتدبير ، وأطلعهم على غامض الأسرار ودقائق الأفكار ، وإن عِلْمنا بالنسبة إلى علمهم وحلمنا فى القياس إلى ثباتهم ، وحلمهم كنسبة علم الفلاح المغتر إلى علم الطبيب المعبر بحسن النظر . قال العفريت : أخبرنى بذلك يا شيخ المصاليت .

[٢٧] **قال الوزير** : أخبرنى شيخ كبير أنه رأى فى منامه فلاحٍا كأنه خرج من بطنه مفتاح ؛ فلما أصبح الصباح جاء إلى رجل من أهل الصلاح يعبر المنامات ، وكان ذا كرامات فقص عليه رؤياه وطلب منه تعبير ما رآه ، فقال له : يا رئيس هذا منام نفيس لا أذكر ما فيه من تعبير إلا بدينار كبير ، فحصل له بشارة ، فناوله ديناره ، فقال : يولد لك ولد ذكر يكون سببا للفتوح

---

(١) الناقة الشفيقة بولدها .

والظفر ، وكان له زوجة حامل بقى لها أيام قلائل فولدت أيمن غلام بعد ثلاثة أيام ، فاستبشر الفلاح بالظفر والنجاح . ثم بعد مدة حصل للفلاح شدة من مرض آلمه وأصاب قدمه فجاء إلى معبر المنام وشكا إليه الآلام وقال : ألمى فى قدمى ضاعف همى وأضعف هِمَمى ، فقال له الطبيب : لا بأس يا حبيب هذا داء هين وعلاجه بيِّن ، أعطنى دينارا ثانيا أصف لك دواء شافيا ، فأعطاه ما اشتهى واستوصفه الدوا ، فقال : ضمده بعجة بيض كثيرة الأبزار[(١)] وضع عليه عسلا مسخنا على النار ففعل ذلك فبرئت قدمه ، وزال بالكلية ألمه .

ففكر الفلاح فى فعل المعبر الطبيب ، وقوله المصيب وأمره العجيب ، فإنه بأدنى عبارة عَبَّرَ المنام وبأوهى إشارة أزال الآلام ، فرأى الراحة فى ترك الفلاحة ، والاشتغال بعلم الطب والتعبير فإنه أمر هين يسير ، وبأدنى أمر حقير يحصل المال الكثير ، فباع آلات الزراعة وعزم على تعاطى مافى الطب والتعبير من صناعة ، وجمع كتبا ودفاتر وكراريس مخرمة مناثر، ووسَّع أكمامه ووضع على رأسه عمامة كغمامة ، وجمعِ عقاقير وأوراق وبسط بسطه فى بعض الأسواق ، وأشار على لسان مخبر أن المكان الفلانى فيه طبيب معبر ، وهو أستاذ الزمان وعلامة الأوان وتلامذته فى الطب حكماء اليونان ، وفى التعبير ابن سيرين[(٢)] ، وكرمان ، وتصدر كأبى زيد[(٣)] ، وساسان[(٤)] ، عاملا بما قاله شيخ البيان وهو :

---

(١) توابل الطعام .

(٢) محمد بن سيرين ، أبو بكر أحد الأعلام ، فقيه البصرة ، اشتهر بتفسير الأحلام ، توفى سنة (١١٠ هـ) . تهذيب الكمال (٢٤٥/١٦) .

(٣) أبو زيد الأنصارى ، سعيد بن أوس ، نحوى ولغوى من أهل البصرة ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، من آثاره كتاب النوادر ، توفى فى القرن الثالث الهجرى .

(٤) ساسان : كبير كينة الإله أنا هيتا إله الفرس القدماء .

الطبُ أهْوَنُ عِلْمٍ يُستَفَادُ فطر ... بَيْنَ الأنام بِهِ طَيْرُ الزَنَابيْرِ
واجْمَعْ لِذَاكَ كراريْسَاً مُنَثرة ... وَجُملةٍ مِنْ حشيش مِنْ عقَاقِيرِ
وَضَعْ على الرأسِ بقياراً تدوّره ... كقبةِ النِسّرِ فِي وزن القَنَاطيرِ[1]
وَاجمَعْ معاجين مِن رب تخلطها ... واسحق سفوفاً وأكحال العواوير[2]
وسم ما شِئْتَ مِنْ أسْمَاءِ مغربةٍ ... كَالسِنْدِ وَالهِنْدِ والسَرَحا وخنْفُور
وقُلْ مِنَ الهِنْدِ جا هذا ومن عِدن ... هذا وهذا أتَى من مَلْكِ فغفور
وذا مِنَ البَحْرِ بَحْرِ الصينِ مَعْدَنه ... وذا من البربر المَدْعُو بَبَرْبُور
فَإنْ رَأيتَ بالاستسقاءِ ذَا ورم ... فَقُلْ تَوَرَمَ مِنْ لَسْعِ الزَنَابِيرِ
إنْ اقْشَعرَ فَقُلْ برد عَرَاهُ وَإنْ ... يحم قُلْ حره وهج التنانير[3]
وإنْ أتَاكَ مَرِيْضٌ لا تَخَفْ وأشِرِ ... بمَا تَرَى مِن دَوَاءِ دُونَه البوري
فَإن يَعِشْ قُلْ دَوَائِي كَان مُنْعِشِه ... وإنْ يَمتْ قُلْ أتَاهُ حكم مقدور
كذلك الرَمْلُ وَالتَنْجِيم خُذْهُ على ... هَذَا المِثَال وَخُض فِي عِلْمِ تعبير
فَإنْ أصبتَ فَقُلْ عِلْمِي وَمَعْرِفَتِي ... وَفِي التَخَالف قُلْ ضدَ المقادير
وإنْ رأيتَ فقيهاً فِرّ مِنْه وَلاَ ... تَنْطِق يُخْطِئكَ فِي فِسْق وَتَكفِير
وَأنْتَ تَحْتَاجُ فِي هَذَا وذاك إلَى ... ذَرَقٍ وَمَعْرِفَةٍ مَعَ حُسنِ تَدْبِيرِ[4]

فاتفق أن زمام[5] خليفة الأنام رأى في المنام شيئاً هاله وغير حاله، فحصل له في رأسه صداع وفي فؤاده أوجاع ، فسمع بهذا الربع[6] الجديد، وإنه أستاذ مفيد فأرسل إليه وعرض ما رآه عليه . فقال : هذا منام يدل على

---

(١) البقيار : العمامة .
(٢) السفوف : الحبوب المطحونة كالدواء .
(٣) التنانير ، مفردها تنور : الفرن .
(٤) الذرق : المهارة والحزق .
(٥) زمام الخليفة : وزيره .
(٦) الربَع : الرجل ما بين الطول والقصر .

خير وإنعـام وبقـاء ذكـر الزمـام علـى الدهر والأعـوام ، ولكـن لا أعبر هـذه الأحلام إلا بدينار تمام ، فناوله دينارا وأظهر لذلك استبشارا ، فقال له : يولـد لك غلام بعد ثلاثة أيام ، فضحك الزمـام من هـذا الكـلام وقـال : يـا إمـام أنـا رئيس الخدام ، طواشى[1] بلاشى لا زوجـة ولا سرية ، ولا آلـة ولا شـهية ، فمن أين لى هذه السعادة ولا فرحت بحسن الحسنى فأنّى تحصل هـذه الزيـادة، فلا تسـخر منـى وكـف كلامـك عنـى وأخبرنى بتعبير هـذا المنـام ودع عنـك الملام، فقال : حقا؟ أقـول ، وأنـا جربـت هـذا المقـول ، وقـد عبـرت لـك هـذا التعبير ولا ينبئك مثل خبير .

فقال الزمام : يا أخى دع هذا المقال ، فإن وجود الولد منى محال ، وأنا رجل بى وجع وما بقى فى منتجع ، فقال ماذا تشكو وألمك فى أى مكان هـو؟ فقال : فى فؤادى أوجاع وفى رأسى صداع . فقال : يا زين من فاخر أعطنـى دينارا آخر أصف لك أيسر دواء ، يحصل لك منه العافية والشفاء ، فدفع إليـه الدينار وطلب منه دواء الدوّار ومـا بفـؤاده مـن ألـم أورثـه الوهـج والضـرم . فقال: يا أبا الفيض ضمد رجلك بعجة بيض مضافا إليها عسل مشتار ، وليكـن ذلك مسخنا بالنار ، فاستشاط الطواشى غضبـا ، وفـار كالنـار شـواظا ولهبـا ، وعرف أنه جاهل وعن طرق العلم غافل فأدبه التأديب البالغ ورده إلى ما كان عليه من منادمة السالغ[2] واستمر على كلاحته بعد رجوعه إلى فلاحته .

وإنمـا أوردت هـذا المثـال يـا غـول الأغـوال ؛ لتعلـم أننـا إذا اشـتغلنا بمناظرتهم اشتطنا[3] فى محاورتهم ؛ لأنه فى دقيق الأسـرار وعميق الأفكـار وتحقيق الأنظار لا يقاوم أحد جنس الإنسان ، فكيف يستطيع الجـان معارضـة من أيـده اللـه تعـالى برفيـع المعـانى وبديـع البيـان فـإذا قابلنـاهم فـى المبـاحث بالمعارضة تعود مسألتنا علينا بالمناقضة.

---

(١) الطواشى : الخصى من الرجال ، يدرب لحماية قصر الحريم .

(٢) البهائم .

(٣) هزمنا واحترقنا .

فلما رأى العفريت خَوْرَ ذلك الصفريت[1] ، وإنه نكل[2] عـن المقاومـة، ونكص[3] عن المصادمة ، خاف أن تكون آراء الوزراء تبعـا لرأيـه فـى عدم لقائه وظنهم مستحسنين لدهائه مستصوبين لآرائه ، فأرخى عنان الكلام ليقـف على ما عندهم من مرام ، وكان عزمه المباحثة والمعابثة والمباعثة والتصدى للإقدام ، وإلقاء المسائل بحضرة الخاص والعام ، لكن مشى مع إمام الوزراء ليرى ماهم عليه من الآراء .

فقال للوزير : نعم ما قلت أيها الوزير والرأى ما أشرت من الرأى والتدبير ، فإن الله تعالى خلقنا من النار ، وطبعها الإهلاك والدمار ، وإحراق كل رطب ويابس وبارد وحار والظلم والخسار ، والإفناء والجهل والبوار وطلب الرفعة وعدم القرار ، وإفساد ما تجده من غير فرق بين نفاع وضرار، وخلقهم من تراب وإليه الإياب ، وطبعه الحلم والسكون والترابية والركون ، والعلم والعدل والإحسان والفضل ، ومع هذا فلو خرجوا عن مادة ما جبلوا عليه وتلبسوا بغير ما نُدِبوا إليه ولو أدنى الخروج ، ورعوا ما للمارج من مروج ؛ لتحكمنا فيهم كما نختار وللعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصغار ، ونحن إذا خرجنا عن دائرة طبعنا ، وتخالفت أوصاف أصلنا وفرعنا ، ونقلنا إلى دائرة الخير عن جادة الشر أقدام صنعنا لا يقع لنا منهم صيد ، ولا يؤثر لنا فيهم سيف كيد ، فإذ عجزنا عن الإيذاء فى الظاهر لم يبق إلا الإغواء من باطن الضمائر ، والتعلق بأسباب ما نصل إليه من الحيل البواطن والظواهر.

فقد قال الحكماء وأهل التجارب ومن ابتلى من مكايد الدهر بالنوائب ومُنِيَ من ذلك بالعجائب والغرائب : إذا تصدى الإنسان وقصد غريمه وعجز

---

(١) الجبان .
(٢) خاف وتراجع .
(٣) تراجع وفر هارباً .

عن مقاومته في الحكومة والخصومة ، فعليه بهدم ذلك الجبل بمغناطيس الخداع ومعاويل الحيل ، ويستعين في ذلك بأهل النجدة وذوي البطش الشديد والشدة ، فيتوصل بهم إلى حسم ذلك الداء ولو كانوا أعداء غير أوِدَّاء ، فتسليط بعض الأعداء على بعض من أيمن سُنَّة بل من أحسن فرض ، ولقد أحسن من قال :

تَفَرَّقَتْ غَنَمى يَوْماً فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبُّ سَلِّط عَلَيْها الذِئْبُ والضَبْعَا

ولا يوجد في هذا الباب لجمع شمل الأعداء أوثق من تفريق الأحباب ومصداقة قوله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة:٤٧] . وما قويت أعضاد الإسلام إلا باجتماع كلمة الأنصار والالتئام ؛ ولهذا قصد من نافقوا لما ترافق الأنصار وتوافقوا أن يتشاقوا ويتفارقوا ، فأنزل عليهم ﴿واعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣] .

وهذا الفن يحتاج إلى فكر عميق ، ومكر دقيق ، وعقل كبير ، وفعل كثير ، ومصيب رأي وتدبير ، وسلوك في طريق اصطناع ، كما فعلت الفأرة من الخداع . فقال الوزير : ينعم مولانا الباقعة[١] بتحقيق هذه الواقعة .

[٢٨] **فقال** : سمعت أن بعض التجار كان له بستان في دار ، وإلى جانبه حاصل[٢] فيه المُغْل المتواصل[٣] ، وفي ذلك الحاصل وكر لشاطر[٤] من شطار الفار ، له عدة منافذ وإلى الجهات طرق ومآخذ ، أحدها إلى جهة البستان ، والبستان كأنه جنة رضوان . فكانت الفأرة ذات الشطارة والمهارة تأخذ من الغلات وأطايب الطعامات ما يكفيها غداء وعشاء صيفا وشتاء ،

---

(١) الداهية شديد الذكاء .

(٢) الحي به مجتمع من الناس .

(٣) المغل المتواصل : جيل بعد جيل .

(٤) لص قاطع طريق .

وفى وقت المصيف تخرج من ذلك المنزل اللطيف إلى جهة البستان فتتمشى بين الغدران ، وتترقى إلى أعلى الأغصان وتتمرغ فى المروج والرياض، وتتبختر فى ظلال الدوح والغياض ، ثم تعود إلى وكرها وتأرز[١] إلى جحرها ، وكان عيشها هنيا وأمرها رضيا ومضى على ذلك دهرها وانقضى فى أرغد غيش أمرها . ففى بعض الأحيان خرجت على العادة للتنزه فى البستان فمر بسكنها أفعوان[٢] فرأى مكانا مكينا وسكنا حصينا بالأطعمة محفوفا وبطيب الأغذية مكنوفا ، فدخله واستوطنه وترك ما سواه من الأمكنة.

فلما رجعت الفأرة إلى مكانها المألوف وجدت به العدو الظالم العسوف[٣] فأحاط بها من الأمر ما يحصل من الذئب إذا عانق الخروف ، فأسرعت إلى أمها وشكت إليها نوائب غمها وما دهمها من نوازل همها .

فقالت أمها : لا شك أنك ظلمت أحدا ، أو وضعت على ما ليس لك يدا أو تعديت الحدود ، أو عاملت مغرما بالصدود ، فجوزيت بإخراجك من وطنك وإبعادك عن مقرك وسكنك ، ومن ظلم ضعيفا عاجزا سلط الله عليه قويا لاكزا[٤] ، وقد رأيت يا أُنْسِى فى حديث قدسى : «اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى»[٥]. فلا تطيلى الكلام ولا تتصورى أنك ترجعين إلى مالك من مقام ، ولا طاقة لك على مقاومة الثعبان ، فدعى تعب الخاطر واطلبى لك مأوى غير هذا المكان . فتوجهت إلى ملك الفأر والجرذان وشكت ما بها من ذلك الشيطان ، وقالت : أنا فى خدمتك ومعدودة من رعيتك

(١) ترجع وتعود .

(٢) ثعبان كبير شديد السم .

(٣) الطاغية .

(٤) ضارباً

(٥) حديث قدسى ذكره المتقى الهندى فى كتابه كنز العمال (٧٦٠٥) وعزاه للديلمى فى مسند الفردوس عن على ﷺ .

عمرى على ذلك مضى وزمانى فى إخلاص العبودية انقضى ، وأبى كان فى خدمة أبيك وجدى عبد جدك وذويك ، لم نزل فى رِقِّ الطاعة متمسكين بحبل سنة الولاء مع الجماعة ، كل ذلك لأمر يَدْهُم أو نازلة تَقْدِم ، فنستدفع ذلك الخطب بخطابكم ، ونستكفى هول ذلك النازل بجنابكم . والآن لقد وقعت حادثة بالباب عابثة وبالأفكار عائثة ، وللأرواح كارثة ؛ وذلك أنى خرجت من مسكنى لطلب قوتى ثم رجعت إلى مبيتى فوجدت ظالما قد استحوذ عليه ، وغاصبا قد دخل إليه وهو ثعبان مالى به يدان ، وقد تراميت على جَنابِك أستدفع هذا البلاء بك .

فقال ملك الفأر : يا سائبة الأشفار(١) من ترك ماله سائبا فقد جعله ذاهبا، وقال ذوو الاعتبار وأولو الأبصار : ينبغى بل يجب على الدزدار(٢) ، وحافظ القلعة والحصار أن تكون رجله ذات عرج وانكسار ؛ لئلا يكون دينار وجوده خارج الدار . وأنت أيتها الفارة فرطت فى أمرك والمفرط أولى بالخسارة ، وقد خاب منك المسعى لأنهم قالوا : أظلم من أفعى . ومن ظُلم الأفعوان أنه لا يكد نفسه فى حفر مكان وتهيئة مبان ومغان ، ولكنه حيث وجد مسكنا اتخذه لنفسه مقاما ووطنا ، وهذا قد عرف مكانك النزه وهو جبار شره فلا يزايله ولا يقابله ومن أين يلتقى مثل هذا المأوى وفى المثل: عرف الكلب بيت العميا . فالأولى أن ترتادى لك موضعا فتتخذيه مقاما ومرتعا .

فقالت الفارة : وقد تأثرت لهذه العبارة ، يا أيها السلطان وملك الفار والجرذان ، فما فائدة خدمتى وانقياد أبى وطاعة جدى الكبير الأبى ، وإذا كنتم فى الدنيا لا تنفعوننا وفى الآخرة لا تشفعون لنا ، ولا تدفعون فى الأولى صدمات الدواهى والبلا ، ولا تحمون الأوداء عن مواطئ أقدام الأعداء ،

---

(١) الشفر : حرف الفرج للمرأة ، وسائبة الأشفار ، سباب بمعنى الفاعلة أو الزانية .
(٢) حارس الباب .

ولا تدفعون فى الأخرى نوائب الطامة الكبرى ، ولا تحلونا بمالكم من الاستيلاء غرف الدرجات العلى ، فأى فائدة لكم علينا ونعمة منكم تسدى إلينا وهل أنتم إلا كما قيل فى الأقاويل :

إذا لَمْ يَكُن لِى مِنْكَ عِزٌ وَلاَ غِنى وَلاَ عِنْدما يَغْتَالنِى الدَّهْرُ مَوْئِل[1]

فكُلّ التِفَاتٍ لِى إِلَيْـك تكـرمٌ وَكُلّ سَلاَمٍ لـى عَلَيْكَ تَفَضُل

فقال له ملك الفار : يا قليلة الاستبصار ، العديمة العقل والافتكار ، إذا اجتهدنا فى ردك إلى مكانك وكنا على الثعبان كجندك وأعوانك ، فهل تَشُكّين يا مسكينة وبنت مسكين فى أن الأفعى تتوجه إلى سلطانها وتخبره بشأنها وأنها أخرجت من مكانها وتستنصر بأعوانه وتنتصر على سلطاننا بقوة سلطانه ، وتستجيش وتستغيث وتغرى علينا ذلك الخبيث ، كما فعل الرافضى العادى العلقمى البغدادى[2] ؛ حين دعا التتار الطغام[3] لخراب مدينة السلام[4] ، ومن بعده الذميم نابذة الإمام وقصد دمار ديار الشام ، ولا طاقة لنا بعساكر الحيات ، ونحن فى أحيائهم كعساكر الأموات فتذهب الأموال والأرواح وتتعب القلوب والأشباح ، ومع هذا الأمر المعلوم حصول القصد والظفر موهوم ، فبالله اتركينى واذهبى واطلبى لك مسكنا غيره ولا تتعبى .

فقالت : هذا منزلى القديم وميراثى عن سلفى الكريم ، وأين أذهب وفيمن أرغب إن لم تغثنى هلكت وانذهلت وانسلبت . فقال : لا تطيلى القول ، فلا قوة لنا ولا حول . فلما أيست الفارة المكارة الغدارة ؛ تركت سلطانها

---

(١) الموئل : الملجأ .

(٢) مؤيد الدين محمد بن العلقمى ، وزير آخر خلفاء الدولة العباسية الأولى (المستعصم بالله) ، أحد عملاء قائد التتار (هولاكو) وأحد أسباب سقوط درلة الخلافة فى بغداد . سير أعلام النبلاء (٥٩٨٣) .

(٣) الأوغاد الأوباش .

(٤) مدينة السلام : مدينة بغداد . معجم البلدان (٦٥١٦) .

وذهبت وسلكت طريقها وانقلبت وأنشدت فأرشدت :

أَبْعَيـنَ مُفْتَقِـرٌ إِلَيْـكِ نَظَرتنـى فَحَقَرْتِنِـى وقَذَفْتِنِـى مِـن خـالقِ
لســتَ الملــومَ أنا الملومَ لأننى أَنْزَلْـتَ آمَالِــى بِغَيْرِ الخَالِــقِ

ثم غاصت فى بحر الفكر ، وتشبثت بأذيال المكـر ، واستعرضت على مرآة أفكارها وجوه الحيل واستورت من زناد آرائها شرر النظر فى الجدل ، وأخذت تطوف فى أكناف البستان ، فعـثرت فـى طوافها على ذلك الأفعوان نائما تحت وردة متطوقا فى أهنى رقدة ، فرقت غصنا من الأغصـان ، فـلاح لهـا الباغيان قد سقى البستان وهو تعبان متكئا فى الرياض على مسكبه ريحان، فاغتنمت الفرصة ونزلت إليه وقربت منه ودارت حواليـه ، ثم وثبت على وجهه وكـان نائمـا فانتهض مرعوبا قائمـا فذهبت واختفت وبـذا القدر اكتفت، فرجع ونام وغرق فى المنام ، فدخلت فى قميصه ورقصت ، فاسـتيقظ متعجبا منزعجا فرآها فهربت ونكصت ، ثم عاد واتكأ بعد ما غضب وانتكـى، فوثبت على وجهه وأدخلت ذنبها فى أنفه ، فنهض مستيقظا مُجِدًّا فرآها واقفـة لا تتعدى فقصدها فهربت ، ثم رجع فآبت وأتـت فنـام فـى مسنده فقربت منـه وعضته فى يده فأنكته وآلمته وأوهجته بما أضرمته ، فطفر من مرقـده وأخذ غصنا بيده وقصدها وقد ذاق نكدها ، فهربت غير بعيد ، فرأى وجههـا مـن جديد فتبعها فمشت ثم وقفت وارتعشـت تطمعـه فـى صيدها وهـو غـافل عـن كيدها فتبعها وهـى قـائدة ، حتـى انتهـت بـه إلـى الحيـة الراقـدة ، فعندمـا رأى الثعبان نسى أفعال بنت الجرذان فقتل تلك الأفعى ولم يخب للفأرة مسعى .

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتقفـوا منهـا علـى طريـق النكايـة ، وليعلم الضعيف إذا كان له أعداء كيـف يوقعهـم فـى مصـايد الـردى ، وإذا اسـتعمل اللبيب العقل المصيب والفكر النجيب وساعده فى ذلك قضـاء وقـدر ؛ نـال مـا أمل ، وأمن مـا حـذر ، وأفلـح أمره ونجـح فكـره ، وهـذا إذا كـان الضعيـف

مظلوما والقوى ظالما غشوما كما أنتم عليه مما توجهتم إليه من معاداة شيخ الشام المستحق للتبجيل والإكرام والتعظيم والاحترام ، فإنه على الحق وأنتم ظالمون وقاصدا الصدق وأنتم كاذبون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨] .

فهذا أمر مشكل وداء معضل ، فأنَّى تصح أبدانكم وقلوبكم مرضى ، ومن يحبكم وأنتم محسوبون من البغضا ، وكيف تقتفون وأنتم على الباطل، وفى أى ذوق يحلى ما منكم من عاطل وأنا أخاف أى أجلاف أن تسفر هذه القضايا بعد ارتكاب البلايا ، وتحمل المشاق والتعب باقتحام موارد الهلاك والنصب عما هو أشد وأنكى وآحر لعينكم وأبكى ، كما أصاب مضيف العراق من زوجته زبيدة ذات النطاق حين بدا منها الزنبور[١] على حافة التنور[٢] . فقال الوزير للعفريت : أفدنا هذا الصوت يا ذا الصيت .

[٢٩] **قال** : نزل فى بعض الرستاق[٣] من بلاد العراق فقير نحيف على مسكين ضعيف ، وكان بعض أيام الخريف والبرد الشديد يقطع الحديد ، فبعدما طبخوا وتعشوا سجروا النار[٤] ليتدفوا ، فبقى كل من الحضور يتدفأ على جانب التنور ، فقعد الضيف مقابل زوجة المضيف ، فظهر من تحت نطاقها[٥] وجه ذلك الحر الظريف[٦]، ولاح من تحت السجيف[٧] كأنه قرص أو رغيف ، أو قند عسلى نظيف ، أو خد جندى نتيف ، أو القمر شق نصفين، أو بدر لاح من تحت ذيل حُنين .

---

(١) فرج المرأة .
(٢) القرن .
(٣) القرية وما يحيط بها الأرض .
(٤) أوقدوها وأشعلوها .
(٥) شِقَّة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض .
(٦) أى فرج المرأة .
(٧) الستر والحجاب .

فلما أحس بحرارة النار وظهر على وجهه الاحمرار ؛ صار يتلمظ[١] ويتحلى ولسانه من الحر والدفء تدلى ، فلمحه الضيف وهو يتثاءب فتمطى قائم رمحه ونحوه قام وتصاوب ، وقد قيل الأقاويل : عضوان متعاونان وهما اليدان ، وعضوان مختلفان وهما الرجلان ، وعضوان متتابعان وهما العينان، وعضوان متصاحبان وهما اليد والفم ، وعضوان متباغضان وهما الاست والأنف ، وعضوان متوافقان وهما العين والأير[٢].

وكان الضيف يسارقه النظر ويترشف شفاهه بلسان الفكر ، ويود فى مطالعة جبينه لو أتبع العين بالأثر ، وجعل يتغنى ويترنم ويهيم بما يتكلم :

لَيْس فِى العَاشِقِيـنَ أَقْنَـع منِّى أَنا أَرْضَى بِنَظْرةٍ مِـنْ بَعِيْدٍ

فتنبه إمام هواء الهاجد ، وجعل يقوم ويقع وهو راكع ساجد ، ويسلم على محرابه[٣] أحسن التحيات ، ويتشهد رافعا أصبعه بالسلام ، ثم غلبته الحيرة فأخذ يجلد عميرة[٤]، فنظر صاحب البيت فرأى الضيف غارقا فى ذيت وذيت ، مشغولا بكيت وكيت متأملا معنى هذا البيت :

وَعِنْـدَ المُلْتَقَى انْكَشَفَ المُغطَّـى تَثَائَب كِسهـا أيُرىَ تَمْطـى

فأراد أن ينبه ربة البيدار[٥] على هذا العثار لتستر حالها ، وتغطى مالها بطريقة لا يؤبه إليها[٦] ولا يقف ضيفها عليها فمد يده إلى سفود[٧] وحرك به

---

(١) يتلمظ شفتيه بلسانه ، علامة على الإثارة .

(٢) القضيب .

(٣) أى فرج المرأة .

(٤) أى يقدح زناد فكره .

(٥) المنزل .

(٦) لا يلتفت .

(٧) عود حديد يشوى عليه اللحم .

النار ذات الوقود ، فعلق من النار به في الطرف وما شعر بذلك أحد وما عرف ، ثم لعب ساعة بذلك العود وأوصل في خفية طرفه إلى ذلك الشق المعهود ، لتتيقظ فتتحفظ فشوطها[1] وأحرها وأحرق رأس السفود بظرها، فالتأمت وانضبطت ، واحترقت واختبطت وتحركت بزعجة فضرطت ، فزادت فضيحة العين فضيحة الأنف والأذن ، ولم يحصل من تلك الحركة إلا الخجالة والغبن[2] .

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتتأملوا في الغايات والنهايات ، فإن من لا يراقب ما يأتي في العواقب ما الدهر له بصاحب ، وهذا الرجل الصالح القيم الراجح ؛ ما فاق أقرانه وساد أصحابه وإخوانه ؛ إلا بشيء تقدم به عليهم وتحقق موجب تقدمه لديهم ، وذلك درجات العلم والعمل ، فبذاك ساد الرجل وكمل ، وقال منزل الآيات وخالق البريات ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة:١١] . وقد برع في أنواع العلوم ، واطلع على حقيقتها من طريقي المنطوق والمفهوم ، وأنتم عن طريقه غافلون ، وعن حقيقة ماهو عليه ذاهلون.

واعلموا إن طريقه واحدة وهي الحق ، وطرقكم متعددة وكلها فسق ، وأتباعه على اتباعه متحالفون ، وأنتم في طرائقكم القدد[3] متخالفون ، فقد قال الله تعالى في محكم تنزيله ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقال بعض أهل الفضل ، وكلامه في بيان الحق فصل : ما ناظرت ذا فنون إلا غلبته ، وما ناظرني ذو فن إلا غلبني . وإنما أخشى إن ناظرت هذا الرجل الكامل الفاضل أن لا أحصل منه على طائل ويظهر فضله قصوري ؛ فينهدم بنيان قصوري .

---

(١) أحرقها .

(٢) الخديعة .

(٣) المتعددة .

فقال الوزراء ؛ بعد أن اتفقت الآراء كلمة واحدة متفقة متعاضدة : نعم ما رأى مولانا الرئيس صاحب التدليس وإسناد التلبيس ، وأنجب أولاد إبليس ونحن أيضا يا باقعة نخشى عاقبة هذه الواقعة ، ولقد جرى مثل هذا المجرى بين بزرجمهر ومخدومه كسرى فى قضية فاق فيها الوزير مخدومه الكبير ، فسأل العفريت وزراءه عن بيان ذلك الشأن كيف كان .

[٣٠] **فقالوا** : بلغنا أيها الخناس الملقى الوسواس فى صدور ؛ الناس أن بزر جمهر الوزير ، وكان ذا علم غزير ورأى وتدبير وبديهة جواب تفحم الكد والتفكير ، وكان حكيم زمانه وعليم أوانه ، وممن فاق فى الفضل والحكم سائر أترابه وأقرانه ، وكان مقربا عند مخدومه يزيد فى كل وقت فى تكريمه وتعظيمه وتوقيره وتفخيمه ، ويصغى إلى نصائحه ، ويعد قربه من أعظم مناجحه ، ويصبر على كلامه الصادع ، ووعظه القارع ، ونصحه الفادع[١] لما فيه من الفوائد والمنافع والحكم والبدائع ، وقد قيل : من أحبك نهاك ومن أبغضك أغواك . فكان الوزير يبادر قبل سائر الخدم فى وظائف الخدم ، ويعجل من الليل والظلم حتى كأنه يوافق النجم أو يسابقه فى الرجم ، ومع ذلك كل يوم يجد مخدومه راقدا فى النوم فيقرعه بالغفلة ، وينقم عليه هذه الفعلة ويعلن بالنداء وينادى فى الملأ فيقول : أفق يا محجوب وتيقظ حتى تظفر بالمطلوب فمن باكر نجح ، ومن غلس[٢] المطلوب أفلح ، ومن تخلف فى النوم سبقه إلى المنزل القوم وفاته المطلوب ولا يدرك المحبوب ، واترك لذة الكرى[٣] فعند الصباح يحمد القوم السرى[٤] ، وكان كسرى يجد لهذا الكلام أنواعا من الآلام ؛ لأنه كان يطيل السهر إلى وقت السحر عاكفا على

---

(١) قوى التأثير .

(٢) أى من بكر إلى مطلوبه من الليل ولم ينتظر إلى الصباح .

(٣) النوم .

(٤) المشى ليلاً .

المدام وسماع الأنغام ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان ، وإحياء الليل عمر ثان ، فإذا نام واستراح امتد نومه إلى الصباح فلا يوقظه إلا عياط الوزير وصراخ ذلك الصائح النذير .

فلما طال عليه المطال وغلب عليه من ذلك الملال ، أرصد للوزير في الطريق من منعه عن التبكير بالتعويق ؛ فتصدى له الرصد وأعروا رأسه والجسد وأخذوا قماشه وسلبوا رياشه ، فرجع إلى بيته مكرها ولبس ثيابا غيرها فأبطأ في ذلك اليوم وتخلف في الخدمة عن القوم ؛ ولم يجيء إلا وقد استيقظ كسرى من النوم وهو جالس في صدر الإيوان وحواليه مباشر والديوان ، وسائر الوزراء والأركان وعامة الجند والأعوان ، كل في مقامه ضابط زمامه ، فأدى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ، ووقف في مكانه مع جماعته ، فقال كسرى : مادعا مولانا الوزير في هذا اليوم المنير إلى التخلف والتأخير وترك التبكير وانشاده بالتبكير قول الشاعر الكبير :

بِكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الهَجِيْرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحُ فِي التَّبْكِيْرِ (١)

فقال : إن الحرامي عارضني أمامي وقصدني في ظلامي ، فأخذ شاشي وسلبني قماشي ورياشي ، فرجعت إلى كناسي ، وجددت زينتي ولباسي ؛ فهذا سبب تأخيري وعدم تبكيري وموجب تخلفي عن وعظي وتذكيري .

فقال كسرى : ما أفادك التذكير إلا الغرامة في التبكير ؛ ولولاه ما سلب القماش ولا ذهب الرياش ولا قام الحرامي بالمعاش ، فأين الفلاح في القيام قبل الصباح ؟ فقال بزرجمهر في الحال وقد أصاب في الجواب : ليس ذلك كذلك يا إمامي ، وإنما بكر قبلي الحرامي ولم أباكر أنا بالنسبة إليه ، فرجع فائدة تبكيره مني عليه ، فعجب كسرى من خطابه وسرعة بديهته في جوابه .

---

(١) الهجير : شدة وقت الظهيرة .

وإنما أوردت هذا القول ؛ بين يدى إمامنا الغول ، أو شيخ المردة المهول ؛ ليعلم أن كسرى وإن كان عالما وفاضلا وحاكما أذعن لكلام وزيره، واتبع رأى مشيره ، وأنصف من نفسه إذ أدرك الوزير بفهمه مالم يدركه هو بحسه .

فاسترسل معهم العفريت فيما هم عليه والتخلف عما ندبهم إليه ، وقال : فبأى الحبائل نصيدهم وبماذا نكيدهم ؟ .

فقال أحد الوزراء : بالنساء فإنهن زمارة المِحَن وطبل الفتن ، والطبل لا يضرب تحت الكساء ، هن أعظم وسائلنا ، وأحكم أوهاقنا[(١)] وحبائلنا ، وناهيك ما قاله العزيز العليم الذى جبلهن على غير تقويم وفطرهن على الكيد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] . وجعل كيدنا بالنسبة إلى كيدهن سخيفا فقال ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء :٧٦] . وقال سيد السادات ورئيس الرؤساء : «ما تركت من بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[(٢)] . وقال الولى ومن قدره الرفيع على :

إنَّ النِســـاءَ شَياطِينٌ خُلِقْنَ لَنَـــا ... نَعُــوذُ باللَّهِ مِنْ شَـــرِ الشَّيَاطِين

وقال من أجاد فى المقال وشنف المسامع بالأقوال حيث قال :

وَمَا حَزَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ سِوى النِسا ... وأى بـلاء جـاء لسـن لـه أهـلا
فَكَمْ نار شر أحْرَقَــت كَبِدَ الوَرَى ... وَلَمْ يَكُ إلاّ مَكرهــنَّ لَهَـا أصـلاً

وإنهن أشراك الإشراك ، وأوهاق الإزهاق ، وأسواق الفساق ، ومصايد المصائب ومراصد النوائب ، وحسبك يا ذا الدهاء مأوى ذلك الحكيم حين سها وأذعن لزوجة الرئيس إذ نبهته على ما عنه لها ، فسأل العفريت عن تلك الحالة وبيان مافيها من المقالة .

---

(١) أوهاق ، مفردها وهق : الحبل الذى تجر به الدابة .
(٢) حديث أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦) .

[٣١] **فقال** : ذكر أن حكيما من العلماء وعالما من الحكماء ؛ أولع بضبط مكر النساء ، وشرع فى تدوينه صباحا ومساءا ، وصار يجول البلدان، ويطالع لذلك كل ديوان ويكتب ما يكون وما كان ، ويحرر من ذلك الأوزان بالمكيال والميزان ، فنزل فى بعض الآناء على حى من الأحياء ، فصادف ذلك التعيس بنت الرئيس ، فتلقته امرأة ظريفة ذات شمائل لطيفة وحركات رشيقة خفيفة ، وقابلته بالترحاب ، وفتحت للدخول الباب فأقبل عليها وترامى لديها ، فأنزلته فى صدر البيت وأخذت معه فى كيت وكيت ، كأنها معرفة قديمة وحديثة كريمة ، وكان زوجها غائبا قد قصد جانبا فشرعت فى نزل الضيف ؛ لئلا تُنسب إلى بخل وحيف(١) ، فأخذ يطالع فى ديوانه ويسرح سوائم(٢) ، طرفه فى ظرف بستانه يشغل أوقاته ، ويتفكر ما فاته ليتعاطى إثباته .

فقالت له ضرة الريم(٣) : ماهذا الكتاب العظيم أيها الفاضل الحكيم ؟

فقال : شيء صنعته وكتاب ألفته ، وهو فى الغربة أنيسى ، وفى الوحدة جليسى . فقالت : يا ذا الحكم والحلم ما فيه من فنون العلم ؟ .

فقال : سر مصون وأمر مخزون ودر مكنون ، لا يجوز إبداؤه ولا يحل إفشاؤه .

فقالت : يا ذا الشكل الظريف ، والوصف اللطيف ، والعلم المنيف هذا التعريف لا يليق بالتصنيف ، فإن فائدة التصنيف الاشتهار ، وثمرة العلم الانتشار ، ودونك ما قاله الكئيب فى مخاطبة الحبيب:

أذِقْنِى مِنْ رِضَابِكَ يَا حَبِيبِى فَمَا للشَّهْدِ دون الذَّوْقِ لَذَّةْ

وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا .

(١) الظلم .

(٢) أى يطلق نظراته فى بستانه .

(٣) الغزال .

فقال : الأمر كذلك يا زين الأمور ، ولكن هذا علم يصان عن ربات الخدور[١] . فقالت : إن اللّه الجليل الذات الجميل الصفات ذكر المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وما منع نساء الأنصار الخيرات الأطهار أن يسألن المصطفى المختار عليه أفضل الصلاة والسلام عن غسل المرأة فى الاحتلام[٢] ، ولا أن يلجن معه المخاضة فى السؤال عن الحائض والمستحاضة[٣] ، فجمع فى ميدان الامتناع وأصر على الممانعة والدفاع ، وقال : يا حَصَان هذا سر يصان ؛ لا سيما عمن فى دينه وعقله نقصان ، فأغراها هذا المقال على الإلحاح فى السؤال وزادت فى اللجاج ، ومارت فى الاحتجاج وترامت لديه ، وأقسمت بدلالة الدال عليه .

فقال : هذا علم لم أسبق إليه ؛ جمعت فيه مكر النساء ومن أجاد منهن ومن أساء ، ومن تعاطت لطائف الحيل وخفى الفعل وخفيف العمل ، ومن دعت بدعاها حتى بلغت مناها ، ومن وقعت فى الشدائد فاحتالت بدقيق فكرها لتلك المكايد وتخلصت من شرك المصايد .

فلما سمعت ما قال ووعت ؛ صكت وجهها وأعربت تقهقها وتمايلت تمايل القضيب[٤] ، وقالت : سر غريب وأمر عجيب ، وضيعة عمر حاصل

---

(١) أى ربات العفاف والطهر .

(٢) احتلام المرأة : ورد فيه حديث ، أخرجه البخارى : كتاب الغسل ، باب إذا احتلمت المرأة (٢٨٢) عن أم سلمة أنها قالت جاءت أم سليم امرأة أبى طلحة إلى رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق هل على المرأة ... الحديث)) .

(٣) السؤال عن المستحاضة : ورد فيه حديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب غسل دم الحيض (٣٠٧) عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : سألت امرأة رسول الله ﷺ فقالت .... الحديث)) .

(٤) الغصن .

فيما لا تحته طائل وشغل سِرْ وبال فى جمع أمر محال ، لقد ركبت المشاق وكلفت نفسك مالا يطاق ، ونسفت الرمل بالكِرْبال[١] ، وغرفت البحر بالغربال، ووزنت الطور بالمثقال ، وتحملت الدر بالأثقال ، فارجع عن هذا الغلط ولا ترم ذلك الشطط ، فإن مكر ربات الخدور لا يدخل ضبطه بسفر[٢] تحت مقدور .

فقال لها : أنت غبية وعن هذا الكلام غنية ، وإن كنت فاضلة ذكية ، أنا قد بلغت فى ذلك الغاية وأحطت به بداية ونهاية ، ووقفت على مجمله ومفصله ، فلم يشذ عنى شيء من آخره وأوله ، فسلمت وما تكلمت وغالطت وما بالطت وسارت وما مارت ، وفوضت إليه هذا التحقيق ، وسلكت معه غير هذا الطريق ؛ حتى كان هذا الكلام فى هذا المقام شيئاً فريا ونسيا منسيا . ثم نزلت من برج المنازلة ، وأخذت تلك الغزالة فى المغازلة وانتهى بها المقال إلى هذا السؤال .

فقالت: أيها اللبيب الماهر ما معنى قول الشاعر :

يُهَدِدنِي بالرُمْح ظَبى مُهَفَهف ... لَعُوبٍ بألبَابِ البَرِيةِ عَابثٌ[٣]
وَلَوْ كَانَ رُمْحاً وَاحداً لاتَقَيْتهُ ... وَلَكِنَه رُمح وَثَان وَثَالث

فالرمح الواحد : قامته والرمح الثانى : ما حوته راحته ، وقل لى يا أبا الحارث ماهو الرمح الثالث ؟ فقال : ذلك النبيه قبل ما يظهر من تثنيه فإن هَزَلِيْنَ أعطافه ، وسرعة انعطافه تراه العينان كأنه رمحان .

وقيل : ما يظهر من ذلك المهفهف عند هزه الرمح المثقف ، فإنه

---

(١) الغربال .
(٢) الكتاب العظيم .
(٣) المهفهف : الضامر البطن الدقيق الحصر .

يتراءى للعين الشكل الواحد اثنين ، ولهذا نظير فى اليوم المطير ، وأحسن مثال عند رشق النبال وفى تدوير المحجن[1] ، وفتل الصولجان عند سرعة الدوران .

وقيل : كان معه رمحان فعده واحدا وهما اثنان ، وعندى يا دمية القصر[2] أنه ليس المراد الحصر ، وإنما المراد التكثير ياضرة البدر المنير؛ لأن عطفه كلما انهز هزه حصل فى صدر المتيم وخزه ، ورمح قامته يتثنى ويتقصف فتارة يميل وأخرى ينثقف ولطعن العشاق يخطر ويتهفهف ، فالمتيم لا يبرح من قده فى طعنات كما لم يزل من سهام جفنه فى محزات[3] ووخزات ، وهو من المجاز المرسل ؛ إذ المراد الطعن من ذلك الأسل[4] وكان قصده أن يسرد الأعداد لا إلى غاية ويبلغ بها إلى مالا نهاية ، فيقول : ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع ، فلم تسع القافية يامن هى بوصلها شافية ، ورضابها عافية ، ونظير هذا يا جرة إن تستغفر لهم سبعين مرة وليس المراد الحصر يا رقيقة الخصر ، ويا عين العين فى السبعين حتى لو زاد على هذا العدد لغفر لهم الواحد الصمد بل المراد أنه لا يغفر لهم ولو زاد.

فقالت : يا صاحب البيان وربه ؛ إنما عنى بالرمح الواحد زيه[5] ، فأفصحت له بالكلام عما لها من مرام ، كأنها ثالثة بنات همام . فخجلت عين الرجل واستحت ، لما أفصحت عن مقصودها وأوضحت .

---

(١) العصا الملتوية الرأس .

(٢) تحفة أو حلية القصر .

(٣) الزجر .

(٤) الرمح .

(٥) فرج الرجل .

فقالت : حبيت وحييت لا تستح واصنع ما شيت فحركت بهذا الكلام العابث من الشيخ الحكيم الرمح الثالث ، فمد إليها يد الفاجر العائث ، وذهب لب ذلك الرجل الحازم ، وراودها مراودة العازم الجازم وصارت تلك اللاعة[١] بين الإطماع والمناعة تتثنى وتتقصف ؛ فتارة تتثقف وأخرى تتخسف ، وبينما هما فى المجاذبة والمداعبة والمطايبة ، وهى تنزوى وتلين وتصعب وتستكين إذ تراءى لها زوجها من بعيد .

فقالت : جاء زوجي وهو عنيف عنيد ، فسلب القرار وطلب الفرار، ووقع ذلك الحكيم النبيه فى فتنة فيها الحليم سفيه ، ودهمه ما هو أهم مما هو فيه من دواهى العشق ودواعيه ، ونسى العشق والعشيق ، وطلب الخلاص من المضيق وأظهر صورة حاله ما عناه الشاعر فى قاله :

سألتُ مُجَرِباً طِبناً عَلِيْمَاً ... خَبِيرٌ بالوقَائع مُسْتَعَاذا
وقُلْتُ : الشهدُ أحلَى أمْ رضَاب ... أَمْ النيك الذى للروح حَاذى
فقال : وَحَق رَبِى النَفْسُ أَوْلَى ... إِذَا جَرَ الجِزَا هَذَا وَهَذَا

واشتغل الحكيم بنفسه وخاف حلول رمسه ، وكان فى طرف البيت صندوق مقفل عليه ستر مسبل ففتحت له الصندوق ، ورعت له بإخفائه عن زوجها الحقوق[٢] . وأمرته بولوجه ؛ ليكفى من زوجها شر خروجه فشكر لها صنعها وامتثل وانسل إلى ذلك اللحد الضيق ودخل فأقفلت عليه أغلاقه ، وأحكمت وثاقه ، ثم تلقت زوجها بالترحاب ودخلت معه فى الأطعمة من كل باب ، وقدمت له ما أكل ، وانسدحت له[٣] فركب ووكل .

---

(١) المرأة التى تغازلك ولا تمكنك من نفسها .
(٢) الغيور الشرس .
(٣) استلقت على ظهرها وفرجت بين رجليها .

ثم قالت : أخبرك يا حبيب بوقوع أمر غريب وحادث بديع عجيب وهو أنه قدم حكيم فاضل حليم عالم عظيم ، فأكرمت نزله وبوأت منزله وكان معه كتاب فيه العجب العجاب فسألته عما حوى ؟ فقال : مكر النسا فقلت له : هذا شيء لا يحصى ولا يحصر ولا يجمعه ديوان ولا دفتر ، فلم يسلم إلىَّ ولم يعوِّل علىَّ وذكر أنه أتهاه ولم يَدَع من مكر النسا فنا إلا أودعه إياه ، فما وسعنى إلى أنى غازلته وداعبته وهازلته ، فطمع من لين محاورتى فى حسن مزاورتى ؛ وطلب منى ذلك العقوق ماهو أعز من بيض الأنوق[1] ، وبينا نحن فى العيش الرغيد وإذا بك أقبلت من بعيد كل ذلك والحكيم يسمع قولها وما تخبر به بعليها .

فلما سمع الزوج هذا الكلام اضطرب وزمجر واصطخب ، وقال : وأين هذا الفاسق الفاجر المنافق والله لأذيقنه كأس التلف ولألحقنَّه بمن سلف ، فلم يبق فى الحكيم مفصل إلا ارتجف ، فقالت : هاهو فى الصندوق مختفى فخذ ثأرك منه واشتفى فنهض وصاح هاتى المفتاح ، فعلم الحكيم أن عمره ذهب وراح ، وكان سبق من زمان بين الزوجين عقد رهان ؛ أنه من فتح منهما الصندوق غلب ، وأقام لصاحبه بما طلب . فلما ذكرت له حكاية الحكيم تذعنه عقد الرهن القديم ؛ وذهل لشدة الغيرة ووفور الحيرة وتوجه إلى الصندوق فبمجرد ما فتح القفل المغلوق صاحت عليه غلبتك يا معشوق ، فأد ما ثبت لى عليك من الحقوق ، فتذكر عقد المراهنة ولم يشك أن كلامها كان مداهنة ، فضحك بعد ما كان عبس وألقى المفتاح من يده وجلس ، ولعنها ومكرها ولعبها وفكرها ، ثم اصطلحا وانشرحا وزادا نشاطا ومرحا ، ثم خرج فى ضروراته وتوجه إلى حاجاته ، فأقبلت تلك العروس إلى الحكيم

---

(١) الأنوق : العقاب ، وهو يضع بيضه فى أعالى الجبال فيصعب الوصول إليه ؛ فضرب ذلك مثلاً .

المحبوس وأفرجته من الاعتقال ، وذكرت له هذه المناقلة والانتقال ، وقالت: أيها الحكيم العظيم هل كتبت هذه المناقلة فى كتابك الكريم ، فقال : لا والله الرحمن الرحيم وإنى قد سلمت إليك وتبت إلى اللّه على يديك .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لأعرض على شيخ السعالى[1] وإمام الأغوال أن النساء فى هذه الحركة أعظم متشَبِّث ، وأقوى شبكة ، وهن لسلب اللب من الرجال أضعاف فتنة المسيح الدجال ، خلقهن أعوج وخلقهن أهوج ، ورأيهن غير سديد ، والرجال لهن أذل عبيد ، وإن كن ناقصات عقل ودين[2]، فهن الكاملات فى سلب العقل المتين والفكر الرزين ، وأذهب للب الرجل الحازم والعقل السديد الجازم ، وهل أخرج آدم من جنة المأوى إلا قصة صدمته من قبل حوّا . وما قتل هابيل قابيل إلا بفتنة الزوجة كما قيل ، وكذلك قصة من أوتى الآيات فانسلخ منها وقد عرف كل ذلك أبداء وإنها وغالب من عصى الله وأسا ؛ إنما كان سبب كفره وإخزائه النساء ، فلا تعترضوا على هذا الرأى المتين ولا تتعرضوا لهذا الرجل فإنه على الحق المبين ، ولا تقصدوا لمعارضته وسؤاله ؛ فربما يكون مجالكم أضيق من مجاله وإنا لا نقدر على مناقشته ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثته .

فقال سائر الوزراء : هذا الرأى أصوب الآراء فإنا إلى الآن ما بارزناهم بالمخاشنة ، وإنما كنا نأتيهم بالمخادعة والمحاسنة ، فنزين لهم الباطل ، ونحلى لهم العاطل ، ونشوه وجه الحق ونسود طلعة الصدق ؛ إلى أن ظهر هذا الرجل ونحن على ذلك، فوقف فى طريقنا وأراهم الدرب السالك، وعلا شأنه ووضح برهانه ونحن على ما نحن عليه من الإغواء وإلقائهم فى

---

(١) الأغوال .

(٢) إشارة إلى حديث النبى ﷺ الذى أخرجه البخارى ، كتاب الحيض ، باب ارك الحائض الصوم (٣٠٤) ولفظه : ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب بلب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء)) .

مهاوى الأهواء والحرب بيننا وبينهم سِجَال[١] ، فلو كاشفناهم بسوء الفعال انكشف لهم زيف نقدنا وبطل ما كنا نسوّله بجهدنا ، فإذا ظهر الحق من الباطل وتميز الحالى من العاطل ؛ أخذوا حذرهم وضبطوا أمرهم وداروا بالعداوة ومروا بالملوحة بعد الحلاوة ، ثم ظُفرنا بهم موهوم ، ونصرنا عليهم غير معلوم ، فما نظفر إلا بالندامة ونرضى إذ ذاك بغنيمة السلامة ، ويستمر هذا العار علينا إلى يوم القيامة وقد قيل :

لاَ تَسْعِ فِى الأَمْرِ حتَّى تَسْتَعِدَ لَهُ   سَعْىٌ بِلاَ عِدَّةٍ قَــوْس بِلاَ وَتَــر

فعند ذلك استشاط العفريت غضبا ، وطار شرارا لهذا الاشتعال ولهبا ، وقال : لقد عظمتم من شأن الإنسان وأوهنتم بل أهنتم جانب إخوانكم الجان ، وضيعتم حقوق الإخوان ، وأبطلتم حكاية السعالى والغيلان ، ونسيتم فتن جدكم الأعلى الباقية ممر الزمان ، ونحن أدق حيلة وأجل جماعة وقبيلة، وأوسع ذكرا ، وأسرع مكرا ، وأقدم وجودا ، وأعظم جنودا وأغزر علما وإدراكا وفهماً ، ولا أرى لكم همة صادقة ولا عزيمة موافقة ، وأنا ما قلت لكم ما تقدم من القول إلا لأخبر مافى فرائض علمكم من الرد والعول ، فلا أقوالكم سديدة ولا أفعالكم رشيدة ، ولقد حل بكم الصغار وسطا بكم من الإنس الصغار ، وأما أنا فلابد لى من المباحثة والمناقشة والمنابثة[٢] والإلقاء للمسائل والأبحاث فى الرسائل من غير وسائط ولا وسائل ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، فاعلموا ذلك وتحققوه ، ثم أمعنوا النظر فيه ودققوه وهذا هو الرأى الذى صممت عليه ، فليتوجه كل منكم بقلبه وقالبه إليه، ويقل فى ذلك غثه وثمينه ويلق هجان قوله وهجينه ، ولا يدخر شيئاً من آرائه ، فلابد لى من إلقائه.

---

(١) أى حرب يتبادل فيها الهزيمة والنصر بين كلا الطرفين .

(٢) أى طرح الشيء أمامك أو وراءك .

واعلموا أن الولى الخرار الذى هو إلى جهةٍ جارٍ لو اتفقت الآراء على صرف جريانه إلى جهة أخرى وأن يسد عن هذه الجهة المجرى ، فإنهم لو قصدوا ذلك من أسفل الوادى لسخر منهم الحاضر والبادى ، ولا يتهيأ لفاعله ما يتمناه حتى يسد طريق الماء من أعلاه ، وأنتم إن قصدتم معالى الأمور وإهلاك رؤس الجهور ، ثم تعمدتم الأراذل وتبدلتم الأكابر بالأوغاد والأسافل، فإنكم إذا أغمار[١] وقد ضيعتم فى غير حاصل الأعمار وقد قيل :

إذَا كُنْتَ لابُدَّ مُستَتَرِبـــاً　　　فمن أَعْظَمَ التَل فاستَتَرِب

وما اللجين[٢] كالرصاص ، والجروح قصاص ، ولا يكافأ الربيس[٣] إلا بالربيس ، ولا يقابل النفيس بالخسيس ، وأى فخر للملوك إذا نازلوا السوقة والصعلوك وقد قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْزِرِى بِقَدْرِهِ　　　إذا قُلت هذا السَّيف أَمْضَى مِنَ العَصَا

وما اكتفى صناديد قريش يوم بدر بدون أكفائهم فى النسب والقدر[٤]، وماذا تفيد بيلستكم وتجدى شيطنتكم ووسوستكم ، وأنتم أولو الزعارة[٥] وذوو الشطارة والدعارة إذا قهرتم من الإنس وعلاكم أضعف جنس وهم أقصر أعمارا ، ونحن أطول أطوارا لم نزل نصادم الجبال ونقتحم الأهوال ونظهر

---

(١) أغمار ، مفردها غمر : الصغير قليل الشأن .

(٢) الفضة .

(٣) الشجاع الداهية .

(٤) وذلك على ما جاء فى غزوة بدر الكبرى لما تواجه الفئتان وتقابل الفريقان ، قال ابن كثير : فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز فخرج إليهم فتية من الأنصار ، فقال صناديد قريش مالنا بكم من حاجة ، يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . [البداية والنهاية ٢/٢٧٢] .

(٥) سوء الخلق .

كما شئنا فى باب الخيال ، ومن قبل جدّنا اللعين جادل رب العالمين فقال فى حق جدهم ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] . وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] . ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

وهم يموتون وهو من المنظرين وعلى كل حال نحن أقوى منهم وأجرأ، وأعرف بطريق الخبث والمكر وأدرى .

وبالجملة : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ؛ والشخص لا يحكم على شيء إلا بعد تصوره وتقرره ، وهذا الإنسان إلى الآن لاسبرناه ، ولا خبرناه ، ولا عرفناه .

فكيف تقطعون له بالغلبة وتفضلون علينا مسيره ومنقلبه، وإن لم تفصحوا بالعبارة فقد دللتم على ذلك بالإشارة ، وكنيتم عنه بالتلميح والكناية أبلغ من التصريح ، هذا ونحن كم قد أضللنا من حكيم ، وأذللنا من عليم، وأفسدنا من عقائد وعقدنا من فسائد ، ونصبنا لهم من مصايد ، وأرصدنا عليهم من مراصد ، وأبطلنا من طاعات وعطلنا من خيرات ، وأخللنا من صلوات ، وأحبطنا من زكوات ، ومنعنا من حجات وصدقات ، وضيعنا من ميراث ونفقات وأسقطنا من أعمال الصالحات ، وكم لنا فى الشر من سوق ، ومن سوق إلى فسوق وإلقاء فى حرام ، وتسربل(١) بمظالم وآثام ، وكم لنا من أحكام على القضاة والحكام يستحلون بها السحت(٢) والحرام ويأكلون بها أموال الأيتام ، ويستبيحون بها الدماء والفروج ، وكم دخلنا فيهم فأخرجنا منهم الإسلام أخفى خروج ، وكم لنا فيهم من مصائب لعصائب وحواصب(٣)

(١) التلبس .

(٢) المال الحرام .

(٣) حواصب ، مفردها حاصبة : الريح الشديدة .

مناصب ، وكتائب نوائب ، وعجائب نواهب ، وغرائب نوادب نسلبهم بها دينهم ونمنعهم اعتقادهم الحق ويقينهم ، وكم لنا فى سكونهم إلى الطاعات من حركات ، وفى ركونهم إلى الخيرات من سقطات ، وكم لهم إلى الطاعات من همم فبردتها وساوسنا ، فحصل منها فى أحشائهم الضرم ، وفى وجود خيرهم العدم ، وفى صحة إيمانهم السقم ، وفى شباب صدقهم الهِرَم ، وفى سكون أمانهم الضربات والألم ، وفى دائرة حلالهم الحرام والحرم .

وكم وكم وكم ، ونحن إلا أن على ما كنا عليه ، وهو الذى طبعنا عليه ، وندبنا إليه دأبنا عن الحق إضلالهم ، وعن الصراط المستقيم إزلالهم ، وإلى الباطل دلالتهم وإدلالهم ، نزين لملوكهم الاجتراء ، ولكبرائهم الافتراء ، ولرؤسائهم الازدراء ، ولعلمائهم المِرَاء ، ولزهادهم الرياء ، ولتجارهم الربا ولأمرائهم سفك الدما ، ولنسائهم السلاطة والزنا ، ولخواصهم الغيبة والنميمة، ولعوامهم الخوض فى كل جريمة ، وللمشايخ قول الزور ، ولنسائهم الوقاحة والفجور ، وهذا دأبنا ودأبهم ، ولم تزل أوهاقنا ورقابهم ، فإن قلنا : نصل هذا الواصل ، فإن هذا تحصيل الحاصل ، وإن قلنا : نستأنف عملا جديدا ، فإنا لم نترك فى ذلك ما يبقى مزيداً ، وقد بلغنا فى ذلك كُله الغاية وها نحن ملابسون(١) منه ما ليس وراءه نهاية ، ولم يُبق إلا المقابلة فى المقاتلة، والمباشرة بالمكاثرة والمفاتحة فى المقابحة والمكالحة(٢) فى المناكحة .

فلما سمع الوزراء هذا الكلام ؛ عرفوا أن أسباب دولتهم آذنت بانصرام غير أنهم لم يقدروا على المخالفة فما وسعهم إلا المطاوعة والمؤالفة ؛ لئلا ينسبهم إلي غرض فيصيبهم منه عرض أو مرض ؛ فحسنوا له رأى المصادمة ومباحثة العالم والمقاومة .

---

(١) ملاقون .

(٢) العداوة .

واتفقت الآراء أن يرسلوا للعالم أولاً ، وانتخبوا من يصلح أن يكون مرسلاً ، فيحمله العفريت فى الرسالة ما تتضمنه من الحماسة والبسالة ، حسبما يراه رأيه التعيس وفكره المدبر الخسيس ، وكان فى شياطينه المردة وغيلانه العتاة العندة عفريت من الجن مارد مُسِن اسمه ؛ صن بن مصن ، قد أضل عقائد وأزل قواعد ، وأُشْرِبَ بغضَ بنى آدم ، وغمس طائفة منهم في نار جهنم بعدما غطهم من المعاصى فى يم ، لا يمنعه وجوم عن الهجوم ولا يخاف الرجوم من النجوم ، طالما أطال العوائق في المغارب والمشارق، وأضرم نيران الإفساد بين الخلائق ، وملأ ما بين الخافقين من مواقع الصواعق ، وفوح نتانة الوساوس وفساء الظربات في المجالس ، وانقض للشر والفتن على كل قائم وجالس ، فكم له توفيق بين الحرامين ، وتفريق بين الحلالين ، وسفك دماء بين الأخوين ، وإلقاء للبغضة بين المحبين ، والعداوة بين الإلفين ، والعربدة بين السكاري ، والحروب بين المسلمين والنصارى .

وبالجملة فقد أوتى من الوسوسة والتلبيس صنوفاً كثيرة فاق بها على ذرية إبليس ، فانتدبه العفريت الملم إلى هذا الأمر المهم ، وأمهلاه إلى أن انسلخ إهاب الضو(١) ، ثم طارا في عنان الجو ، حتى وصلا إلى سفح الجبل متعبَّد ذلك العالم البطل الذى ملأ الدنيا بالعلم والعمل ، ثم كمن العفريت فى مغارة ، وأرسل رسوله بالسفارة يقول : أبلغ عالم الإنس صاحب الكرامات والأنس ، ومقرب حظيرة القدس عن شيخ العفاريت الطغاة المصاليت(٢) أني من قديم الزمان وبعيد الحدثان(٣) أضللت كثيراً من الناس بالمكر والخداع والوسواس ، وفى أمثالى نزلت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] . وابن عمى هو الوسواس الخناس ، وكان من جنس بنى آدم كذا كذا ألف عالم

(١) أى انبلج الصباح .
(٢) الشجعان من الشياطين .
(٣) نوائب الدهر .

خدامي ومعـي وجندى وتبعـى ، منهم رؤس الزهـاد وعلمـاء العبـاد ، وعلـى محبتي مضوا وباتباع أوامرى قضوا ، فأنا فتنة العالم ، وأعدى أعداء بنى آدم الشيطان الرجيم ، وإبليس الذميم اسم ذاتـى ، ووصـف صفـاتي ، أنـا مقتدى الشياطين ورأس العفاريت المتمردين ، ومحـل غضـب رب العـالمين ، خُلِقتُ من مارج من نار ، وطبعت على إلقـاء البـوار والدمـار ، رجـوم النجـوم إنمـا أعدت لأجلى ، وعتـاة الغـواة لا تصـل رؤسـها إلـى مواطـئ رجلـى ﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات:١٠] . آية منعتى .

﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَاءِهِمْ**﴾ [الأنعام:١٢١]. طراز خلعتى.

﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾ [الإسراء:٦١] . مقام مقالى .

﴿**لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:٦٢] مجال جدالى .

﴿**لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**﴾ [النساء:١١٨] منشورى القديم .

﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ [النساء:١٢٠] مرسومى الكريم .

الشياطين تسـتمد مـن زواخـر مكـرى ، والأعـور[١] اللعيـن يقتبـس مـن ضمائر فكرى ؛ لم تمر قضية فى الزمان الغـابر إلاَّ ولـى الشـركة فيهـا ، ولا حدثـت محنـة لنبـى ولا ولـى إلا وأنـا متعاطيهـا . جدى إبليس نهـض لجـدى التعيس وإلى نحو آدم هوى فعصى ربه فغوى ، وأنـا قضيـت بالتسـويل حتـى قتل قابيل وهابيل ، وحلْتُ بقوم نوح عـن النصـوح ، وأرشـدت المجـوس إلـى عبـادة النـار ، ووضعـت النـاقوس وأضللـت عـادا وثمـودا وشـدادا ونمـرود ، وبعثت على عبادة الأصنام فى البيت الحرام ، وعلى كيفيـة إلقـاء إبراهيـم فـى

(١) الأعور اللعين : المسيح الدجال .

نار الجحيم ، وهديت قوم لوط إلى الخوض فى الثلوط[١] ومحافر القلوط[٢] ، وسولت لأولاد يعقوب ، وحاولت فى قضية أيوب ، وتصديت لأم إسماعيل . وعارضت إبنها وهو مع الخليل ، وأنسيت يوشع قصة الحوت ، وساعدت على صاحب الحوت ، وجلست بالعصيان على تخت سليمان ، وحضرت وقعة طالوت وساعدت عليه جالوت ، وأنا كنت العون لهامان وفرعون ، وبحسن ضبطى قتل موسى القبطى ، وأنا فتنت داود ، وأغويت قارون اليهود وسلطتهم على الوالدة والمولود ، ودللت على نشر زكريا ، وذبح يحيى ، وجرأت على قتل الأنبياء والأولياء ، وتوصلت بتزيين الوسواس لقاتلى الذين يأمرون بالقسط بين الناس ، ودعوت على عبادة العجل قوم موسى ، وساعدت فى التفريق والإضلال بين أمة عيسى ، وكم أغويت من رهبان بما زخرفت من صلبان ، وقد بلغنى من جميع مسترقى السمع وطَنَّ على أذنى ووعاه خاطرى ووقر فى ذهنى ، وأنا أشارف التخوم وأسارق النجوم وأسابق الرجوم ، أن لى أسماء تذكر فى السماء منها الغليظ الرقبة ، وشيخ نجد ، وأزب العقبة ، والمقيم فى الدست البيضة ، والغوى على نقض عهد بنى قريظة ، والمحرض على أحد وبدر من الصناديد كل جليل القدر ، والمشهور فى أحد بالندا ، والملقى العرب بالردة إلى الردى ، وأنا المتسبب فى قتل عمر، وعثمان ، وإهلاك على أمير الشجعان ، والغوى فى وقعتى الجمل وصفين ، والملقى الفتن بين جنود المسلمين ، وإن شرى سرى إلى يزيد ، رفاض للحجاج ، والوليد ، وبى تكثر البدع بين الجماعات والجمع ، ويظهر من الفتن ما بطن ، ويغلب من التتار وأهل البوار والخسار أنواع الشرور والجدال إلى حين يظهر الدجال ، وتستمر هذه الأمور إلى يوم البعث والنشور.

---

(١) مكان غائط الحيوان ، واستعماله للإنسان من باب التساهل على التشبيه .
(٢) فضلات الإنسان .

وبالجملة والتفصيل : أنا شيخ التكفير والتضليل وتلك صنعتى من الابتداء ، وحرفتى إلى الانتهاء ، ثم إنك نبعت فى هذا الزمان ، وظهرت فى هذا المكان تريد أن تهدم ما بنيته وتعوج بصلاحك ما بفسادى سويته ، وترد كلامى وتعاكسنى فى مرامى ، وأنا كنت فى قديم الزمان من قبل أن توجد أنت فى هذا المكان ناديت بين بليه وشهرت فى ذويه قولى :

كلوا ، واشربوا ، وازنوا ، ولوطوا ، وقامروا ، وهيا اسرقوا سرا، وخوضوا الدما جهرا ، لا تتركوا شيئاً من الفسق مهملا ؛ مصيركم عندى إلى الجنة الحمرا ، وكانوا قد سمعوا وأجابوا وأطاعوا وأنابوا ، وشملى بهم منتظم، وأمرى بتفريق كلمتهم ملتئم ، وأسهم مرامى المشومة نافذة فى المشارق والمغارب ، وسيوف مناشرى المسمومة قاطعة فى الأعاجم والأعارب ، كم لى فى الأطراف والآفاق والأكناف من قاض ونائب ومانع من الخير حاجب وأمير ، صاحب ووزير ، وكاتب ومشير ، وحاسب وجليس ونديم وتابع وخديم ، وناظر وعامل وناقص وكامل ، وكم لى من جابى منوط بتفريق قلوبهم وجمع سويدائها إلى بابى ، وكم لى فى المدارس ذو وساوس ، وفى الجوامع والبيع والصوامع من مذكر وواعظ وإمام وحافظ ومقرئ وعابد وشيخ زاهد ، وكم لى فى الزوايا من خبايا ، وفى أصحاب الروايات من درايات ، وفقيه فى النادى فاق الحاضر والبادى ، يعلم لى فى الشيطنة أولادى ، وفى البيلسة حفدتى وأجنادى .

وأما سائر الفساق فى الآفاق وسكان الأسواق ، وقطان الجبال والرستاق، ورجال الصحارى والأوراق ؛ فكلهم لى عشاق وإلى دينى مشتاق. وسل عنى أرباب الحانات وسكان الخانات .

وبالجملة : غالب الطوائف وأرباب الوظائف على باب خدمتى واقف ، وعلى طاعة مراسيمى ليلا ونهارا عاكف ؛ مناى مناهم ، ورضاى رضاهم ، وإن خالف بعض سرى نجواهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل

ماهم، وأنت الآن جئت برايتك وسالوسك[1] وطامتك وناموسك[2] ؛ تبدد عني عساكري ، وتشرد من بني الإنس عشائري ، وتشتت جموعي ، وتخلي من الفسق والفساق ربوعي ، من غير أن تشاورني ولا تخبرني ولا تحاورني ، ولا تبحث معي ولا تناظرني ، وها أنا قد جئت إليك ونزلت كالقضاء المبرم عليك أريد أن أناظرك في أنواع من العلوم ، وأسألك عن حقائقها من طريق المنطوق والمفهوم ، بحضرة من الجن والإنس وسائر نوع الحيوان والجنس، فيظهر إذ ذاك جهلك فينبذك قومك وأهلك ، ويتركك معتقدوك ويتراجع عنك مريدوك ، وأفسد بين العالم صيتك وأتلفه فاجعل بيننا وبينك موعد لا نخلفه .

فلما وصل رسول العفريت الكافر الصفريت إلى الشيخ العابد والعالم الزاهد الجاهد المجاهد ، فعندما وقع نظر الشيخ عليه ووصلت سهام لحظاته إليه ؛ كاد أن يذوب كالملح ، وأن لا يقوم الفساد للصلح ، فبهت الذي كفر وأخذته الدهشة والخور ، وغلب عليه الأنبهار وكاد يحترق من الأنوار ، واستولى عليه الرجيف[3] ، وسقط من الوجيف[4] ، فما أبدى ولا أعاد ولا قام للصلاح ذلك الفساد .

فقال له الشيخ : مالك وما أحالك وغير حالك ، وما موجب دخولك عليّ وأنت غير منسوب إليّ ؟ .

فقال : كف عني أنوارك ، واطوِ عَنِّي أسرارك ؛ حتى أقول فإني رسول ، فمالي طاقة برؤيتك ولا سواغ[5] ، وما على الرسول إلا البلاغ .

---

(١) المنهج .

(٢) القانون .

(٣) الرجفة من شدة الخوف .

(٤) الخوف والإضطراب .

(٥) مساعد معين .

فقال : رسول أى طعين وشيطان لعين .

فقال : أنا رسول محبك العفريت ، المشقوق الحوافر ، الواسع المناخر، المسلوب المفاخر ؛ أبى السعالى الكافر العالى ، قد أقبل إليك فى جمع كثير وعدد من الجن غزير ، ومعه رؤس العفاريت والعتاة المصاليت ، والطغاة المفاليت[1] ، وقد حملنى إليك رسالة تتضمن من الخبث شجاعة وبسالة ، إن شئت أديتها ، وإن أبيت رديتها .

فقال : قل ما تريد ، وأبلغ ما معك عن ذلك العنيد ، وأوجز ما تقول ، ولعن الله المرسل والرسول ، فأبلغ الرسالة وأداها وأسال فى أوديتها مؤداها .

فقال الزاهد وكان بالأحوال خبيرا ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء:١٦] . والله مالكم شبه فى هذا الكيد إلا الحمار فى الوحل ، والحمام فى شبكة الصيد قل لمُرسِلَك أَرَى قَدْمِكَ أَرَاقَ دَمَكَ ، وهواك أهواك ، وأفعالك أفعى لك، وسؤالك أسوأ لك ، وخيالك أخبى لك ، فأولى لك أولى لك ، ولَعْنُ الله أولى لك ، لا شك أن الله تعالى أراد دماركم ، وأن يمحوا آثاركم ويخلى دياركم ، فتستريح البلاد من فسادكم والعباد من عنادكم .

أما أنا فأذل الخلق وأحقر الداعين إلى الحق ؛ ولكن بعون الله وقدرته وإلهامه وقوته لى من العلم والفضل ما أجيبه ، ويقتله من خوفه به وجيبه ، وسيظهر فى الجمع على رؤوس الأشهاد عويله ونحيبه ، وسيبين الله فى سنن الخلق فروضه ، ويكشف صحيح الحق ومريضه ، وإذا ادعى بدعاوى طويلة عريضة ؛ فإن الله تعالى قتل نمروذ العاتى ببعوضة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨] .

---

(١) المحاربون .

أما سمع ذلك الملعون وعلم الشقى المغبون ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩ ، ١٠٠] .

فمتى أراد يحضر ويسبر نفسه وخصمه ويخبر ، ويصحب معه من يريد من كل جنى عنيد وشيطان مريد ، فإن الحق يحق فيبطل الباطل ويتميز فى حلبة السباق الحالى من العاطل ، فرد هذا الجواب الرسول وكشف عن حقيقة المقول .

ثم إن العفريت المخذول سأل الرسول عن أوضاع الشيخ الزاهد ، وأحواله فى المساجد والمشاهد ، وما شاهده من أموره وحكاياته وحركاته وسكناته ، وأخلاقه ومعاملاته ، وكيفية هيئته وصورته ، وما شاع عنه فى قومه من سيرته ؟ .

فقال : رأيت رجلاً سعيد الحركات كامل البركات صورته جميلة، وأوصافه نبيلة ، وهيئته جليلة ، بدنه نحيل وفضله عريض طويل ، وكلامه الصادع فى أمثالنا ثقيل قاطع ؛ فقذف الله فى قلبه الفزع ، وأخذته نوافض الرعب والهلع .

فقال : أما والله إن هذه الأوصاف لصعبة الأعراق والأعراف، وستطرحنا وراء جبل قاف(١) ، وإنها لسيمة الصلاح وعلامة الفوز والنجاح، وإنهم لهم المنصورون وحزب الله الغالبون ، ولقد ندمت على مراسلته ، وكان الأولى سلوك طريق مجاملته ، ولكن الشروع ملزم ولابد أن أتم ماعليه أعزم فواعده إلى وقت معلوم . ثم إنه أحضر وأحضر معه من جنده كل جنى ظلوم وعفريت غشوم ومتمرد مشوم ومخلوق من قبل من نار السموم .

---

(١) قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال جبل قاف ، وكأن هذا والله أعلم من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنه بعض الناس . (تفسير القرآن العظيم ٤/٢٢١) .

واجتمع من بنى آدم عند الشيخ تلامذته وأصحابه الصالحون وجماعته، وكانوا الجم الغفير والجمع الغزير ، واشترطوا بعد ما خبطوا واختبطوا وحلوا وارتبطوا أنه إن أجاب الشيخ سؤالات العفريت ، وسرى فى نارهم سريان النار فى الكبريت ، لا يظهر بعد ذلك اليوم لبنى آدم أحد من أولئك القوم ، بل يكونون عن الأبصار مختفين ، وتحت الأرض فى الجزائر والخرائب كزنادقة بغداد منتفين ، وإن عجز الشيخ عن جواب سؤاله يهلكه العفريت مع خيله ورجاله . ثم شرع العفريت فى الرسائل وإلقاء المسائل .

فقال : العَالَم على كم قِسْمٍ بالعَرَض والجسم ، وهل للعالم موجد ، وهل هو واحد أو متعدد ؟

فقال الزاهد الإمام : العَالَم على ثلاثة أقسام :

الأول : مفردات العناصر ؛ كالتراب ، والماء ، والنار ، والهواء؛ وتسمى الاستقصاءات[1] ، وأصول الكائنات والمركبات من هذه الأجزاء المفردة، ولا تستمر على حالة واحدة ، ولا تخلو من حركة وانتقال ، ودأبها التغير من حال إلى حال .

والثانى : الأجرام العلوية ؛ كالسموات وكواكبها المُضيَّة ، وهى متحركة بالبروج ، ولحركتها دائرة مالها من مركزها خروج ؛ فهى متحركة من بعض الجهات ساكنة كالفصوص فى المُرَصَّعات ، وتوصف فى حركتها بالصعود والهبوط والارتفاع والسقوط والرجوع والإقبال ، واستقامة الحال والاحتراق والانصراف والانحطاط إلى الحضيض والإشراف ، ويحكم عليها بالافتراق والاقتران ، والتربيع ، والتثليث ، والتسديس ، فى السيران ، والمقابلة فى الرجعة وبطء السير والسرعة[2] ، وينسب إليها ما يحدث فى

---

(١) الأصول الأربعة المكونة لمادة العالم عند علماء الحكمة المتقدمين .

(٢) الاقتران ، والتربيع ... ، هى الأحوال المختلفة لحركة الأفلاك .

العالم السفلى من جزئى الوقائع والكلى ، ومن نحوسة وسعادة ، ونقص وزيادة ، وخير ونفع وضر ، وتأثر وتأثير ، وقليل وكثير ، وانحراف واعتدال، وحدوث وزوال ، وصحة وسقم وسكون وألم ووجود وعدم . فبعض من لم يعرف الطريقة يسند هذه الأشياء على الحقيقة ؛ وذلك لقصور فهمه وقلة العقل كقول الجاهل : أنبت الربيع البقل . وبعض من لم يكن له إدراك يزعم أن هذا إشراك . لا يسند هذه الحوادث إليها ولا يعول فى ذلك أبدا عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولا يسلم فى ذلك إلى طريقة المجاز .

والمحققون من العلماء والراسخون فى العلم من حكماء الفقهاء يسندون هذه الحوادث والتأثير إلى قدرة اللطيف الخبير الصانع القدير ، الفاعل المختار الذى يخلق ما يشاء ويختار ، فإذا نسبوا هذه الأفعال إلى غير ذى الجلال ؛ فإنما يجعلونها فى ذلك الباب كالآلات والأسباب ؛ كتأثير الخبز فى الإشباع والنار فى الإحراق والإيجاع ، وكفعل الماء فى الإرواء والدواء فى الأدواء ؛ وإنما ذلك كله بتقدير صانعها وما أودعه فيها من خواص بدائعها وصفات ودائعها ، كخاصية الإسهال المودعة فى السقمونيا(١) وخواص التصيير وغيره الكامنة فى المومياء(٢) ، والإسكار فى الخمر ، والإحراق فى الجمر ، وقد رأينا القوّة النامية عقيب الأمطار الهامية ، والشمس حامية تهيج وتنمو وتموج وتزكو ، وهذا الصنيع البديع إذا حلت الشمس فى برج الحمل وقت الربيع ، وإذا نقلت إلى برج الأسد احترق ذلك الجسد ، وعند نقلها إلى الميزان ينقلب هذا الزمان ، وكذا إذا تحولت الغزالة(٣) إلى برج الجدى فكأنه بلغ إلى محل الهدى ؛ فتموت إذ ذاك قوّة الزمان ، ويضعف لذلك غالب الحيوان .

---

(١) السقمونيا : نبات يستخدم كملين بسبب الإسهال .

(٢) نوع من الدواء .

(٣) الغزالة : دائرة من دوائر الفلك .

وهذا كله مشاهد محسوس لا يمكن أن تنكره النفوس ، خواص وضعها خالق الكون يستفاد بعضها من الطعم والريح واللون ، وبعضها لا يدرك ما أودع فيه إلا بإرشاد خالقه ومنشيه ، هكذا جرت سنة العزيز الوهاب أن الأحكام والوقائع تناط بالأسباب ، وقد يتخلف منها الأثر عن المؤثر ؛ ليعلم من ذلك وجود القاهر المدبر ، وأنها مقهورة تحت الأمر ومقسورة قسر[١] العقل مع الخمر . ولولا أن ذلك من سر جسيم لما تخلفت النار عن إحراق إبراهيم ، ولما ولدت مريم عيسى ، ولا أغرق البحر القبط ، وأنجى بنى إسرائيل وموسى ، وكم من آكل وهو جيعان ، وشارب وهو عطشان ، ومتدثر يتدفأ بالنار وهو بردان ، والفلك الأعظم محيط بهذه الأجرام ، ونسبتها إليه كنقطة للبحر الطام ، متأثرة بتأثيره دائرة بتدويره ، يتصرف فيها على حسب ما شاء باريها وصرفه فيها منشيها ، فاطر السموات والأرض جامع الخلائق ليوم العرض ، وكما هى محاطة بالدائرة الفوقانية كذلك هى محيطة بالكرة التحتانية[٢] .

القسم الثالث : العقول والنفوس الملكية ؛ وهى أشرف من الأجرام العلوية، ومقام هذه العقول فى مقام عزيز الوصول ، يسمى أعلى عليين وجواهرها لا توصف بتحريك ولا تسكين ، ولا بهذه البساطة والتركيب ، وأمرها بديع وشأنها عجيب .

وأما العرض ؛ فما لا يقوم بذاته ، وهو فى العالم كالألوان والطعوم وأصواته والروائح والقدر وإرادته .

وأما الجسم : فما تركب من جوهرين فأكثر وما قام بنفسه يسمى : الجوهر[٣] .

---

(١) القهر .

(٢) دائرة فلكية .

(٣) مصطلح فلسفى يقصد به : أصل الشيء ومضمونه .

وأما الموجد للعالم : فهو واحد لا ينثنى ، واحد ولا يتجزأ ، ولو لم يكن للعالم صانع لكان العالم أضيع ضائع ، وهل رأيت مصنوعا بلا صانع ، وسقفا مرفوعا بلا رافع ، وهل نَفْى والصانع إلا مكابرة وما يجحده إلا النفوس الكافرة .

فقال العفريت : فما الدليل على وجود الصانع ؛ العقل والنقل ، أم أحدهما متبوع والآخر تابع ؟

فقال العالم الزاهد : قد أطبقت العقلاء وأجمعت الحكماء أن العقل دليل على وجود الصانع وبه الدلالة ، والشرع له تابع ، وكما هو الدليل على وجود الذات كذلك هو الدليل المستقل على إثبات الصفات ، وهى صفات الكمال ونعوت الجلال .

فقال العفريت : فما الدليل على وحدانيته؟

فقال الزاهد : كل من العقل والشرع كاف فى دلالته .

قال العفريت : فما المراد من عالم الكون والفساد ؟

فقال العالِم : معرفة أمور المبدأ والمعاد .

قال العفريت : فما أفضل العقل أم النقل ؟

فقال العالم : كل منهما حجة الله قد أسند له من عباده من يراد ؛ وذلك إن الله لما أرشدنا إلى الدين القويم وثبت أقدام توحيدنا على الصراط المستقيم؛ نبهنا إلى أن المقصود من الدخول فى دائرة الوجود معرفة مُوجِدِنَا المعبود كما قال من يقول للشىء كن فيكون ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦،٥٧] . ثم طلب مراضيه بما تبرز به أوامره وتقتضيه ؛ وذلك هو الرشاد يا ذا المكر والعناد

إلى المعارف الإلهية وما به نظام المعاش ونجاة المعاد . وليس لنا دليل فى العلم والتعريف سوى طريقتين مرشدتين إلى التوقيف على أمور المبدأ والمعاد وما بينهما فى دار التكليف أحداهما : ما جبلنا عليه وما اكتسبناه من العقل . وثانيتهما : ما بلغنا من الأخبار الصحيحة والنقل .

فالعقل : لا يدخل فى إثبات المعارف الإلهية ، ولا فى هذا الباب المقدم من الأمور المعاشية والمعادية ، وهو حجة الله القاطعة البالغة وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد عباده الكملة ، وإلى من خصه به أرسل رسله . ثم العقل جوَّز إرسال الرسل ، ولا يرد ما تقوى به لتوضيح السبل .

والنقل : لا يأتى بما يناقض العقل ؛ وإنما يرد بما يزكى قضاياه ويصقل مرائى أحكامه أحسن صقل ، ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس ما حصل للكتاب من معاضدة السنة والإجماع والقياس[1] ، ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول لأشبه فرعا يوجد ماله من أصول ، إذا أقبلت مواكب الأوامر الإلهية على لسان الرسول ، خضعت جماجم العقول ، منقادة بزمام الانقياد والقبول ، سامعة لما يرد منها مطيعة لما يصدر عنها ، فتارة يظهر للعقل ما للأوامر الشرعية من الحكم كنار على علم ، وتارة يعجز عن الاطلاع على ما تضمنته الأحكام النقلية من الحِكَم ، فإذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل فى حكمته إدراك ؛ آثره وأكده واستمسك به فى تصرفاته أقوى استمساك ، وإن لم يكن له فى إدراكه مدخل نادى بلسان العجز والتسليم ، سبحان من لا يُسأل عما يفعل .

والحاصل : أن سلطان العقول فى ممالك خليفة الشرع وولايته معزول، ومن جملة ما ورد على لسان السمع ، على لسان عدوك صاحب الشرع الصادق فى المقال مما ليس للعقل فيه مجال أحوال المعاد ومبدؤها ما يطرأ على العباد فى حد هذا الكون من الفساد.

---

(١) الإجماع والقياس : هما من الأدلة الشرعية .

فقال العفريت : أخبرنى يا ذا ، الإنسان مخلوق مماذا ، وما الآدمية والنفس الإنسانية ، وهل هى واحدة أو متعددة ، ومآلها إلى أين بعد وقوع البَيْنِ ؟

فقال العالِم : الإنسان ؛ محلوق يا مصفعة[1] من هذه العناصر الأربعة التى مر ذكرها وتبين أمرها ؛ التراب والماء والنار والهواء ، فإذا تمازجت واعتدلت إذا تزاوجت حصل لها من التركيب أمزجة ثمانية لا على الترتيب.

والآدمية ؛ عبارة عن القوة المميزة بين الحسن والقبيح والفاسد والصحيح ، والحق والباطل والخالى والعاطل ، والخير والشر ، والنفع والضر . والمميزة لهذه الأشياء الفارقة يقال لها : النفس الناطقة ؛ وهى ثلاثة أنواع يا خارج الطباع ، أحدها : الروح الطبيعية القائمة بالكبد وهى من الأغذية تستمد . الثانية : الروح الحيوانية ومقامها القلب أى كلب ، وللأبدان منها حراك واستمدادها من حركات الأفلاك . الثالثة : الروح النفسانية ومقامها فى الدماغ ، ومنها الحركات الذهنية والقوة التامة القوية تطلب غذاءها من الروح الطبيعية ، والقوة المميزة تطلب ما يسعدها فى الدارين من الروح النفسانية ، ويبعدها فى المقامين عن الأسباب الشقية واستمدادها وقوتها من الأجرام العلوية وأعلى مقامات هذه النفس الحكمة ، والحكمة أوفى منحة وأوفر نعمة ، وقد قال تعالى ﴿**يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩] . ومصير هذه الأرواح إلى عالم الغيب لأجل الثواب والعقاب .

وقيل : حقيقة نفس الإنسان : أيها المارد الشيطان ؛ لطيفة روحانية، ودقيقة ربانية ، لها تعلق ربانى بقلبه وقالبه الجسمانى ، وهى المدركة العالمة

---

(١) من يصفع كثيراً . والمعنى : الحقير .

العارفة الفاهمة ؛ بها يتكلم اللسان ، وتبصر العينان ، وتسمع الأذنان ، وتبطش اليدان ، وتمشى الرجلان ، وهى المخاطبة والمعاتبة ، والمُثابَة المُعاقبَة والمطلوبة والمطالبة ، ويطلق عليها لفظ القلب تارة ولفظ الروح أخرى ، ويقال لها : النفس مرة ، ولفظ العقل أيضا .وابن آدم هو المخصوص بهذه الكرامات ، وبهذه النفس دون سائر الحيوانات وإن كان يطلق على الجميع أن لها نفسا بالاشتراك لكن هذه النفس الناطقة ، والنطق هو الإدراك .

واختلفت أيضا وتحيرت الألباب فى صنع رب الأرباب ، وتاهت الأفكار والفِطَن فى كيفية تعلقها بالبدن ، ولا يحصل لأحد على هذا وقف إلا بطريق الولاية والكشف ، وهذه النفس لما كثرت صفاتها وتضادت نعوتها تخالفت أوصافها وازداد فى صفاتها اختلافها ، حتى قسموها فقالوا : أنواعها ثلاثة : ناطقة وشهوانية وغضبية رضية ، فالناطقة مسكنها الدماغ ولها فيه مساغ[١] . والكبد : مسكن الشهوانية . والقلب : مسكن الغضبية الرضية ، فأية نفس غلبت أختيها جذبت أحوالهما وصفاتهما إليها .

وهذه يا أتعس زوبعة كالعناصر الأربعة ؛ فإنها إذا فسد مزاجها ، وعدل عن الاعتدال ازدواجها عسر علاجها واستحال إلى المطلوب الطالب، وعجز عن المعالجة الطابب ، ففسد البيان وانهدمت الأركان .

وقيل : هما روح ونفس بغير لبس ، وهما ضدان بل ندان لا يجتمعان ولا يرتفعان . وطبع النفس يا لئيم طبعك طبع الشيطان الرجيم ، كالنار فى جوهرها وخاصة عنصرها تنسب إليها الصفات الذميمة والخلال غير المستقيمة كالجهل والغضب ، والحدة والصخب ، واللؤم والسفه ، والطيش والشره ، والحمية والشهوة ، والقسوة والجفوة ، والحسد واللجاج ، والحقد

---

(١) راحة واستقرار .

والاحتجاج ، والحرص والبخل ، والتوانى والكسل ، والحمق والخيانة ، والفجور وعدم الأمانة ، والترفع والرياء ، والمخاصمة والمراء ، وسائر الأخلاق الذميمة والأوصاف المشؤمة الملومة ، والملكات الخبيثة الردية ، والحركات الشيطانية ، فهى كالنار فى إحراقها وحدتها واستشاطتها وشدتها ودخانها ولهيبها ، وإهلاكها وتعذيبها وأقدامها فى إعدامها ، وأكل ما تجده وما تصل إليه تفسده ، وطلب العلو والغليان والغلو .

وطبع الروح : يا أنحس مجروح ؛ طبع الماء فى النشور والنماء ؛ ينسب إليه كل خلق كريم وطبع سليم صافى الجوهر مالامسه يطهر ، شيمته الحياء والعلم والصدق والحلم والتفويض والتوكل والتسليم والتجمل والاحتمال، والإناة والصبر والموافاة ، والتودد والإسداء ، والسكون والإعطاء والركون ، والبذل والرضا والفضل ، والحياء والعدل ، والتواضع والعفة وعدم الترفع والخفة ، والسلامة والسهولة وسرعة الانقياد واللين والوداد، والرقة والصفاء ، والكرم وعدم الجفاء ، إلى سائر الأخلاق المحمودة والأوصاف المطلوبة المودودة ، وأيتهما قويت غلبت وجذبت الأخرى إليها وسلبت ، وسيَّرتها على طبعها واستَخْدَمتها على ربعها ، فكم من شيطان يرى فى صورة إنسان ومن إنسان غلبت عليه أخلاق الجان ومن جان فى صورة إنسان ، ونظير هذا الروح والبدن يدركه ذو العقل والفطن . فإن الروح من عالم نورانى لطيف سماوى ، والبدن من عالم ظلمانى كثيف أرضى ، فأيهما غلب على صاحبه جذبه إلى مركزه فى جانبه ، قال الله تعالى ، وعز كمالا ، وجل جلالا ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] . وقال جل عليا ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم :٥٧] . وقال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٦] . ولكنه أخلد إلى الأرض .

فالأنبياء عليهم السلام صارت أجسادهم أرواحا ، والكفار مثلك صارت أنفسهم ظلمانية أشباحا .

وقيل يا زوبعة : الأنفس أربعة : أمارة ؛ وهى أنفس مثلك ؛ الكفار الطغاة . ولوامة ؛ وهى أنفس العصاة . وملهمة ؛ وهى أنفس المخلصين . ومطمئنة ؛ وهى أنفس الأنبياء والمقربين .

والحق يا جاحده ماهى إلا نفس واحدة ، لكن لما تجلت فى ملابس الصفات وتكثرت لها الأخلاق والسمات نوعوها ، وبمقتضى التنويع فرعوها تنزيلا للتنويع بالصفات منزلة التنويع فى الذات ، فيقال : كانت نفس هذا شيطانية فتاب فصارت رحمانية ، وكانت نفس ذاك أبية فصارت دنية قال من براها ﴿**وَنَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس:٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠] .

قال العفريت : أخبرنى أيها الباصر كيف تركيب هذه العناصر ؟

فقال الزاهد : بحسب الخفة واللطافة ، والثقل والكثافة ؛ ولما كان عنصر التراب أثقل كان أركد من غيره وأنزل ، ومن فوقه عنصر الماء، وفوق الماء عنصر الهواء ، ومن فوق هذه الثلاثة عناصر عنصر النار ، وهو بها محيط دائر، وكذلك كل عنصر محيط بما تحته وقد حققت هذا وعلمته .

قال العفريت : أخبرنى عن أقرب الأشياء إليك ؟

قال العالم الأجل : أقرب الأشياء الأَجَلُ .

قال : أخبرنى عن أبعد الأشياء عنك ؟

قال العالم الأكبر : مالم يقسم ولم يقدر .

قال : أخبرنى عن الشىء الممكن عوده ؟

قال : الدولة إن زالت وتغيرت واستحالت ؛ يمكن ردها ولا يستحيل عودها.

قال : أخبرنى عن الشىء المستحيل عوده ؟

قال : الشباب بغير شك ولا ارتياب .

قال : أخبرنى عما لا يمكن بالاكتساب ، ولا ينال إلا بتوفيق الوهاب ؟

قال : العقل الغريزى[1] فإنه وهبى عزيزى .

قال : أخبرنى عما لا يمكن ضبطه ولا ينضبط ربطه ؟

قال : الدهر إذا ولى والسعد إذا تجلى .

قال : أخبرنى يا ذا الجد عن الهزل الذى يراد به الجد ؟

قال : إبراز حكم الأمثال والآيات على لسان الحيوانات والجمادات .

قال : أخبرنى عما لا يمكن الإحاطة به ولا الوقوف على معرفة كنهه ؟

قال : عظمة صانع الكائنات ، خالق الموجودات ، تعالى أن يحاط به علما ، وتقدس أن تدرك عظمته معرفة ووهما ولهذا قال سيد المرسلين وحبيب رب العالمين : «لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2] . وقال : «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك» وهذا مصداق قوله تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام:٩١] .

فلما طالت المقاولة وانتهت إلى هذا الكلام المجادلة أقبل الليل ، وحل بالعفريت وجنده الويل ، وتصدع المجلس ، وقام العفريت وهو مبلس، وتواعدوا إلى الصباح عند قول حى على الفلاح أن تجتمع الوجوه الصباح

---

(١) حقيقته .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذى : كتاب الدعوات ، باب (٧٦) (٣٤٩٣) وهو حديث حسن .

لرد جواب الشياطين القباح ، فتفرقوا وقد أحاط بالعفريت الوهم ، ونفذ فى أحشائه من سهام الذل أقطع سهم ، وبات لا يقر له قرار ولا يأخذه اصطبار، وساوره الافتكار وثاوره الهم والدمار والغم والبوار :

إلى أنْ أضَاءَ الصبْح كَالحقِ مقبلاً وَوَلى ظَلامُ اللَّيلِ كالجَهْلِ مُدبراً

فاجتمع من كان بالأمس حاضرا ، ومن سمع بحضورهم ولم يكن ناظرا من جموع الإنس والجن وطوائف الجن والبِنِّ[١] ، وأخذ كل مقامه وابتدأ العفريت كلامه.

وقال : ما منبع الصفات الحميدة والشمائل السعيدة المار ذكرها ، القارُّ[٢] أمرها ، وهى يا هذا نتيجة ماذا ؟

فقال العالم المحقق العامل المدقق : هى ثمرة العقل القويم الهادى إلى الصراط المستقيم ، ويكفى العقل الشريف أنه مناط التكليف له ، الله يخاطب، وبه يثيب ويعاقب ، وبه يأخذ ، وبه يعطى وتابعه يصيب ولا يخطى ، وكلما كان العقل أتم كانت محاسن الأخلاق أعم ، وكلما كان رأى العقل أصوب كان فى اقتناء مكارم الأخلاق أرغب .

قال العفريت : فهل هو نوع متحد أو طريقه متعدد ؟

قال الشيخ : العقل نوعان وحكمه واحد لا يختلف فيه اثنان ، أحدهما : العقل الغريزى اللطيف ؛ وهو مناط التكليف يحدثه الرحمن ويتدرج إلى بلوغ الإنسان فيكمل إما بالسن أو الاحتلام ، ويجرى عليه إذ ذاك قلم الأحكام ، ويدخل فى حيز المخاطبين من ذوى الأحلام ، ويترتب عليه الحساب والعقاب من الحلال والحرام . والثانى : يحصل بالاكتساب والتجربة فى كل باب ولهذا

(١) مكان إقامة الجن .
(٢) المستقر .

يقال : إن الشيوخ أكمل عقلا من الشباب ، وقيل : من بَيَّضَتْ الحوادث سواد لمَّته[1] ، وأخلقت التجارب لباس جدته ، وأرضعه الدهر من وقائع الأيام أخلاف ذريته ، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته ؛ كان جديرا برزانة العقل ورجاحته ؛ فهو فى قومه بمنزلة النبى فى أمته .

قال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأدباً وبتقلب الأيام عظة .

وقالوا : التجربة مرآة العقل .

وقال :

ألم تر أن العقل زين لأهله   ولكن تمام العقل طول التجارب

قال العفريت : ما فائدة العقل ؟

قال العالم : فائدته الإرشاد فى بيداء الجهالة إلى جادة الرشاد ، والإعانة فى الشدائد والوقوع فى مصايد المكايد ، وحصول الخلاص من شرك الاقتناص ، وإجابة الإغاثة عند الاستعانة والاستغاثة ، ومد المعونة إذا انكسرت من الجبل السفينة فى بحر الملامة ، والخلاص إلى بر السلامة، والإغناء من كنز السعادة ، والصبر عند استيلاء نوائب الفقر .

قال : فمن العاقل فى العالم ومن يطلق عليه هذا الاسم من بنى آدم ؟

قال العالم : العاقل من يحتمل إذا ضيم ، ومن هو فى الغضب حليم ، فإذا أعطى شكر ، وإذا منع صبر ، ويعفو إذا قدر ، ويستهين بأمور الدنيا ولا يغفل عن أمور الأخرى .

قال العفريت : ما الفائدة فى حب الدنيا والرغبة إلى مافيها من الأشياء، ولأى معنى غلب الحرص والهوى والرغبة فيها على أهلها وبنيها ؟

قال العالم : لأجل قيام العالم وانتظامه على المنهج الأقوم وبقائه

---

(١) الشعر المجاوز شحمة الأذن .

المطلوب إلى الأجل المضروب ، الذى قدره موجده القديم ﴿الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩] . ولابد من أن تتم كلمته وتنفذ مشيئته ، ولولا الحرص والأمل ؛ لبطل العلم والعمل ، فإنهما لحجاب الغفلة يغشيان أعين البصائر ويغطيان طرق الاستدلال والضمائر ، فلذلك ذهلت العقول عن التأمل فى العواقب ، واشتغلت بالتهائها[١] عما يجب عليها أن تراقب ، ولولا طول الأمل ؛ لما رُجى العمل ولما انتظم أمر المعاش ، ولا اهتم لادخار قوت ورياش، ولا افتكر صاحب اليوم فى أحوال غد ، ولارتفعت المعاملات ، وما داين أحدا أحد ، ولا زرع زارع ، ولا غرس غارس ، ولا بنى بان ، ولا اخضر يابس ، ولانقرض إذ ذاك نظم العالم وبانقراضه تنقرض أمور بنى آدم.

قال العفريت : أخبرنى عن أصل الإنسان ومم جوهره وجوهر المَلَكِ والجان ؟

قال الشيخ : أما جوهر المَلَك : فمن العقل المحض براه رب السماوات والأرض ؛ ولذلك لا يصدر من الملائكة إلا الشيم المباركة من الطاعات لمولاهم والانقياد لأوامر من أنشأهم : وامتثال ما أمر من أمر مروم ، وما منا إلا له مقام معلوم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] .

وأما جوهر الجان ؛ وأصلك يا أخس شيطان : فمن الأخلاق الذميمة والصفات المشومة ، فلهذا لا يوجد منكم إلا المكر والبَيْلَسَة والشيطنة والوسوسة ، وأنحس بصفاتكم من صفه ولم يكن بينكم وبين الحق معرفة ، فأنتم يا أنحس بغيض ، وأنجس بهيض مع الملائكة فى طرفى نقيض .

وأما جوهر الإنسان : فما اشتملت عليه صفاتا الملك والجان ، فمن غلب عقله شهوته ؛ ألبس من مكارم الشيم خلعته ، واضمحلت ظلمات نفسه فى أنواع الطاعة ، وتجلت صفاته ذاته من سنن الأبرار فى جماعة ، وخط

(١) لعب الدنيا ومتعها .

رسم اسمها قلم الكرام الكاتبين ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّين وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨ ، ١٩، ٢٠، ٢١] . فهو وإن كان بجسمانه مع الإنس له حضور وأنس ، لكن بسره في عالم الملكوت حضرة القدس ؛ فهو بصفاته المباركة أشرف من الملائكة . ومن غلبت شهوته عقله واستولت على قلبه حجب الغفلة فانغمس في بحر الشهوات، واستحوذتم أنتم عليه بذميم الصفات، وأشقاه القدر السابق ، ولم يعقكم عن التصرف فيه عائق ؛ فهو بالنهار ساه وبالليل لاه ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩] . فهو أخسر من أرذل الحيوانات ، وأدنى من أدك الجمادات ، قد خاب مآبا وتعس انقلابا ويقول يوم القيامة يا ليتني كنت ترابا .

قال الراوي : فلما انتهى الكلام إلى هذا المقام ؛ أمسك العفريت عنانه ، وأخرس الله لسانه ، وظهر فضل الزاهد وعلمه ووفور حُكْمِه وحِكَمِه وفهمه، وأنه أصاب فيما أجاب ، ولزم العفريت ومن معه من الجن والعفاريت، وطوائف المردة والشياطين ، والعندة المتمردين ، وذوي الإبلاس[١] والوسواس الخناس ما شرطوه على أنفسهم من التخفي وعدم الظهور ، والتفرق في الخرائب والكفور؛ فتفرقوا واختفوا مُصَلَّمين[٢] ومجدعين[٣] ، انتفوا وسكنوا الخرائب والحمامات والحانات والخانات ، فلم يظهروا بعد ذلك للإنس وحصل منهم بذلك للإنس الأُنس ، واستراحوا من مشاهدة طلعتهم القبيحة ، واستمرت إلى يوم القيامة من تلك القبائح مستريحة .

وهذا آخر الباب والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) من لا خير عندهم .
(٢) مقطوعي الأذن .
(٣) مقطوعي الأنف .

الباب الخامس

فى نوادر ملك السباع
ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المرتوى من بحار الحكمة بماء غير آسن : فلما أنهى الحكيم هذا الباب العظيم عن عالم الإنس والشيطان الرجيم ؛ تنبه الملك لغزارة حكمه ، فأفرغ عليه خلع إحسانه وكرمه ، وغمسه في غدير فضله ونعمه ، ثم أمر أن يقوى الطباع ويذكر نوادر الوحوش والسباع ؛ لتنبسط النفس وترتاض ، وتتحلى بعقود عقيد هذه الأحماض ، فقبل أرض العبودية بشفاه الأدب ، وانتهض لأداء ما عليه من المراسيم وجب .

[٣٢] **وقال** : كان في بعض الغياض أسد رباض[١] ، عظيم الصورة كريم السريرة والسيرة ، وافي الحشمة عالي الهمة ، كثير الأسماء والألقاب ، عزيز الأصحاب كبير بين الأمراء والحجاب والوزراء والنواب ؛ يُدْعَى في جوانب مملكته وأطراف ولايته ؛ بحيدرة ، وبيهس ، وضيغم ، والدَوْكس، والغضب ، والضرغام ، والعَنْبَسْ ، والطيثار ، والهندس ، الغضنفر ، والهرماس ، والغضبان ، وأبي العباس[٢] ، إلى سائر الأسماء والألقاب ، والكنى وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، وهو مطاع في ممالكه وولايته وأقاليمه ، مترشف ثغور الامتثال بشفاه أمثلته ومراسمة .

وكان له من خواص الندماء وكبراء الجلساء نديمان كندماني جذيمة، يلازمان حضرته ويلجان حريمه ، أحدهما ثعلب يدعى أبو نوفل ، والآخر ضبع يسمى أخا نهشل ؛ طبعهما ظريف وشكلهما لطيف ، ومحاضرتهما مرغوبة وصحبتهما مطلوبة .

وكان في خدمته دب هو وزيره ومعتمده ومشيره ، كافل أمور مملكته، ومدبر مصالح رعيته ، والملك مفوّض أمور الرعية إليه ، ومعتمد لما يعلم

---

(١) أى ذا عرين ومأوى .
(٢) من أسماء الأسد .

من كفايته عليه ، ومشغول ليلا ونهارا بمعاشرة نديميه فاتسع خيال الوزير ، وأخذ فى مجال التفكير إلى النديمين لكونهما ناصحين قديمين ، ربما يصدر منهما عند الملك ما يَحُطّ منزلته ، ويفسدان للحسد الذى لم يخل منه جسد صولته ، واستحوذ عليه هذا الخيال واتسع فى ميدانه المجال ، فكان خائفا على وظيفته ومنصبه ، مترقبا منهما ما يكون عزله بسببه ؛ فنشأ من ذلك فى خاطره جساوة[1] أو ورثته قساوة ، وجذبته إلى عداوة ، ووقر فى قلبه ذلك، وتأكد وطال عليه من الدهر الأمد ، فكان يترقب لهما الفرص ليوقعهما من الغصص[2] فى قفص ، ويسابقهما قبل انتيابه ويتغدى بهما قبل أن يتعشيا به ، ويقول : لابد من تنظيف الطريق قبل حصول التعويق . وقد أحسن من قال واتقن فى المقال :

وَمَنْ لَمْ يَزح عَنْ دَرْبِهِ الشَوكِ قَبْل أَنْ ... يطأهُ فَلاَ يَعْتَب إِذَا شَاكَ رِجلَيْهِ

وأقل الأقسام أن يبعدهما عن حضرة الملك الهمام ، فاتفق أن فى بعض الأسحار تجاذب الملك ونديماه أطراف الأسمار ، فأثر فيهم السهر لطيب السمر فى ضوء القمر ، وحلاوة ما جنوا منه من ثمر عاملين بما قيل :

مَتَى مَا أُصَادِفُ مَنْ أُحبُّ بخلوةٍ ... أُصَرِحُ بمَا أرْجوهُ مِنْ متَكتَّم
يَقُولُ فأصْغِي أو أبُثُّ فيَنْثَنِي ... لِيَستَمِع قَولِي كالمَشُوق المُتَيَّم
أُسامِرُه لا أنَّ أمل حديثِهِ ... وآمره كلّ الأمورِ سِوَى نَمِ

فأخذت الملك عيناه فاستند إلى متكاه ، فانحل من طرفه وكاه[3] ، فلم يتمالك أبو نوفل أن ضحك لما غنت زمارة الملك فتنبه من ضحكه وتعجب

(١) عداوة .
(٢) الغصص ، مفردها غصة : يضيق عليهم .
(٣) الوكاء : رباط السروال وما يشبه رأس القربة . والمعنى : ارتخت أعصابه فأحدث صوتاً من دبره .

من جراءته وفتكه[1] ، ثم استمر متناوما لينظر ما يصدر منهما ، فابتدره أخو نهشل وزجره .

فقال : ويلك ماذا رأيت وأى عجب سمعت ووعيت حتى ترتبك فى الضحك ، أما قرأت وفهمت وسمعت وعلمت أن الضحك بلا سبب من قلة الأدب ، وإن الحشم وسائر الخدم ، ومن نادم الملوك وجالسهم يحترم أمورهم، وبعظم مجالسهم سواء غابوا أو حضروا ، ناموا ، أو سهروا ، قاموا ، أو قعدوا ، استيقظوا ، أو رقدوا ، ، وقد قيل : رفع قلم الحساب والضبط والعتاب عن الصبى والمجنون والعاشق والمفتون ، وكذلك السكران والنائم ؛ لا سيما السهران ، وعُذر النائم يا مسكين أعظم من عذر الباقين ، فإن النوم أخو الموت وفيه ما ليس فى غيره من الفوت ، وقد قال صاحب الشرع : الذى زكا منه الأصل والفرع حفظه الله بجنود الصلاة والسلام وحرسه : ((يعتذر عن النائم العين وكاءالسه))[2] . وقال ذو الصدق والتصديق : ((رفع قلم التكليف عن النائم حتى يفيق))[3] .

وإنما اعتبر الشرع أحوال النيام وساواهم باليقظى ؛ صونا لبعض الأحكام فى نحو من خمس وعشرين مسألة ضبطها من الفقهاء الكملة ولقد طالعت فى كتاب الأخلاق[4] أن الله الكريم الخلاق حيث جعل جنسا من الأمم فى طبائع وصفات متساوى القدم ؛ فلا يعتب أحد أحدا ولايزدريه ولا ينقم عليه عيبا هو فيه ؛ وعلى الخصوص إذا صدر من الملوك شىء يعاب فلا

---

(١) جرأته .

(٢) وهو معنى حديث :((وكاءالسه العينان فمن نام فليتوضأ)) . جعل اليقظة للاست كالوكاء للقربة ، وهو الخيط الذى يشد به فوها ، والسه : الاست أصلها سته .

(٣) معنى حديث أخرجه الترمذى : كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد (١٤٢٣) . ولم ترد فيه لفظة (يفيق) وبل (يستيقظ) وأتى بها المؤلف للسجع .

(٤) أى سنن الله فى خلقه .

يحمل ذلك منهم إلا على الفضل والصواب ، وكل ما كان فى غير الملوك معتبة فإنه إذا صدر من الملوك يعد منقبة ، ويجب على من يجالس الملوك وكان له فى خدمتهم سلوك واختص بمحاضرتهم واستعد لمناظرتهم أن لا يبصر منهم إلا المحاسن ، ولا يخبر عنهم إلا بالأحاسن ، وقد قيل : من جالس الملوك بغير أدب حبسه فإنه خاطر بروحه وعرض للبلاء نفسه .

وقال الله الأعظم فى كتابه المحكم لنبيه صلى اللّٰه عليه وسلم ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ [هود:١١٢] . ولهذا قال عليه السلام : «شيبتنى هود وأخواتها»[(١)] . وما ساد العجم والعرب إلا بسلوك طريق الأدب وقال عليه الصلاة والسلام: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[(٢)] .

فقال المغفل أبو نوفل وإذا طهر القلب من الخيانة ، وعاملت اليد بالأمانة ، وتنقى العِرْض من العيوب ، وكان اللسان غير كذوب وزكت النفس بالحلم وعريت عن الجهل بلباس العلم ، يصلح لها أن تسخر بكل أحد وتفخر على أكبر من يكون ولو أنه الأسد :

وَأنَا إِذَا طَارَ بِهَذِهِ الصِفَات طَيْرى ـ فَلاَ علىَّ إذَا ضَحِكْتُ عَلَى غَيْرِى

فقال أخو نهشل : لا تقل ذلك ، لاواستعذ بالله من الجهل والخيلاء، واعلم يا ذا الكرامات أن الجاهل يعرف بثلاث علامات ، إحداها يا محبوب : أن يرى نفسه عارية عن العيوب . الثانية يا رفيق الخير : أن يرى نفسه أعلم

(١) حديث ذكره المتقى الهندى فى كتابه كنز العمال (٢٥٨٦) وعزاه للطبرانى فى الكبير. وهو حديث ضعيف .

(٢) حديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٧٠/١) وقال سنده ضعيف جداً ، ولكن معناه صحيح وقال ابن تيمية : لا يعرف له إسناد ثابت . أخرجه أبو داود : كتاب الطهارة ، باب فى الوضوء من النوم (٢٠٣) .

من الغير . الثالثة : أن يرى أنه انتهى فى فنون العلم والنُّهى[1] وبلغ أعلى المراتب ، وهذا أكبر المعايب .

وقالت الحكماء : إذا رأيت نفسك عارية عن العيوب ، وتصديت لتتبع عثرات الناس بالغيوب ، وفتشت عن عيوبهم الجيوب ؛ فأنت حينئذ غارق فى بحر العيوب وبالذى أنت طالبه مطلوب . وانظر يا ذا السكينة ماذا قاله الإمام مالك رضى الله تعالى عنه حبر المدينة ؛ ليكن جل مطلوبك حرصك على تفقد عيوبك ، وقم بذلك عن نفسك وذاتك مقام حسادك ورقبائك وعداتك ، وقال ذو هدى وما قال سدى :

لِكُلِّ فَتَى خَرج مِنَ العَيْبِ مُمتلىء … عَلَى كَتفهِ منه وَمِن أَهْلِ دَهْرهِ
فَعَيْن عِيُوبِ النَّاسِ نُصب عُيونِهِ … وَعيْن عُيوبِ النَفْسِ مِنْ خَلفِ ظَهْرِهِ

فقال أبو نوفل : صدقت ونصحت إذا نطقت فجزاك الله عنى خيرا ، ووقاك شرا وضيرا ؛ ولكن يا اخى وَقَعَتْ هفوة على سبيل السهوة ، وحصلت زلة على غفلة ، واللفظ عن غير نظر كالسهم إذا رُمى عن الوتر لا يمكن رده ولا وقوفه وصده كما قيل :

القَوْلُ كاللَبَنِ المَحْلُوبِ لَيْسَ لَهُ … رَدّ وَكَيْفَ يُردُ الحَالِبَ اللّبَنَا

ولكن الذنب والاجتراء إذا لم يشتهرا لا يتوجه عليهما العتاب ، ولا يستحق مرتكبهما العقاب إذا استغفر وأناب ، وأنا وإن وقع منى الخطا آمن بحمد الله من شر الجزا ومن المؤاخذة بالجريمة ، وإن كانت عاقبتها وخيمة؛ لأنها بينك وبينى ، وأنت بمنزلة روحى وعينى ورفيقى وصاحبى ومراعى حقى وجانبى ، فسرّى عندك مصون وأمرى عن الإشاعة مخزون . وقد قال الحكماء ذوو التجارب : لا تودع السر إلا عند صاحب صدوق صديق ،

(١) العقل .

ومحب شفيق . وأنت هو ذاك الموثوق ، فاطرحه من سويداء قلبك في أسفل الصندوق ، فإن استمر عندك ساكنا صرت من وبال أمره آمنا ، ولا يبعد ذلك من شفقتك وسابق صداقتك ووفائك بالمروة وقيامك بحقوق الأخوة ، وأسأل إحسانك أن تجيب لصاحبك القديم مرجوّه .

قال أخو نهشل : أعجب لأبى نوفل كيف يغفل ، أما سمعت يا عاقل قول القائل : من علامات الجاهل أن يقرض ماله باللطف ثم يتقاضاه بالفظاظة والعنف ، وأن يودع سره وخفايا أمره عند من يحتاج أن يتضرع إليه ويقسم فى إخفائه واكتتامه عليه ، ثم يحلّفه أن لا يبديه ولا يذكره لأحد ولا ينهيه . وقد قالت الحكماء : لا تودع أحدا سرا فإن فعلت فاتك السر ؛ لأن كتمانه قَيْد همٌ وعناء وإبداءه كيد هلاك وبلاء وقد قيل :

وَكُلّ سِـــرٍ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَــــاعَ وَكُلّ عِلْمٍ لَيْسَ فِى القُرْطَاسِ ضَــاع[1]

ولم يقصد بالاثنين إلا الشفتين ، وقال الشاعر :

إذَا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرٍّ نَفْسِهِ فَصَدْرُ الّــذى يَسْتَوْدِعُ السِرَّ أَضْيَــقُ

وقال أيضاً :

لا تُودِعَــنَّ ولا الجَمَــاد سَــرِيرة فَمِـنَ الحِجَـارةِ مَـا يُسَــر وَيُنْطَــق[2]
وَإِذَا المَحَــك أَضَـــاع سِر أخٍ لَــهُ وَهُــو الجَمَــاد فَمَــنْ بِهِ يَسْتَوْثِــق[3]

وقال أيضاً :

صُن السِر عَــنْ كُـلّ مُسْـتَخبر وَحَــاذِر فَمَــا الحــزم إلاَّ الحَــذَر
أَسِيْــرُكَ سِـــرّكَ إنْ صُنْتَــهُ وَأَنْــتَ أسِيْـــرٌ لَــهُ إنْ ظَهَـــرَ

(١) الصحيفة التى يكتب فيها .
(٢) السريرة : السر الذى يكتم .
(٣) المحك : حجر الاختبار .

وكل ما تحرك به اللسان انتشر فى الكون والمكان ، وناهيك يا تامر[(١)] قضية الحرامى مع الطامر[(٢)] . قال أبو نوفل : كيف تلك يا أخا نهشل ؟

[٣٣] قال : بلغنى إن رجلا من الحرامية واللصوص الكرارية[(٣)] ، كانت نفسه ذات الخيانة تحرضه على الدخول من حواصل الملك إلى الخزانة، وإنها لرؤية الخزانة مشتاقة ، ولمعانقة فاسق التحرم عَشّاقة ، وكان جاهدا فى أن يعطيها من مناها ما يرضيها ، ولكن كانت نجوم الحراس بالرصد، ولرجوع ذلك الشيطان كل بعد . وكتم ذلك السر عن الإخوان ومضى عليه برهة من الزمان ، وهو يكابد اكتتامه ، ويخاف من السوء ختامه ، والقَدَرُ كائن والكائن حائن ؛ إلى أن طفح عليه ما قصد ، وغلا خمر سره فى قلبه وقذف بالزبد ، فطلب صاحبا يتلفظ به إليه ويعتمد فى اكتتام سره عليه ، واختلا فى حجرته فقرصه برغوث فى حنجرته ، فمد يده إليه وأفشى سره معتمداً عليه ، وقال فى خاطره عند إفشاء سرائره لا لهذا لسان يقدر على البيان ، وعلى تقدير أن لو كان ؛ فهو مثل ولدى تربى من دم كبدى ولحم جسدى واطلع على عورتى ، فلا يقصد عثرتى ولا يكشف سرى ولا يهتك سترى ، ثم أدنى فاه حتى وافاه .

وقال : يا أبا طامر وكاتم السر فى السرائر ؛ إنى عزمت كالمنهمك على الدخول إلى خزائن الملك لاستصفيها وآخذ مافيها ، فاكتم هذا السر عنى وامصص ما شئت من الدم منى ، ثم طرحه فى سراويله واستمر فى نيته على أباطيله .

ثم قصد فى بعض الليالى ما كان يخلو به على التوالى ويرصده فى

---

(١) التامر : كثير التمر .

(٢) البرغوث .

(٣) أى التى تفر وقت الشدة .

المكامن من الدخول إلى الخزائن ، فلاحت له فرصة فانتهزها واستعمل دقائق صنعه وأبرزها ، وانتقل من ذلك إلى المبيت ولطئ[١] تحت سرير الملك كالعفريت ، والملك نائم فوق السرير على فراش الحرير معانق الظبي الغرير[٢] ، وخرزة التاج عند رأسه تَقِدُ[٣] كأنها سراج متقد ؛ فقصد اللص أخذها واقتطاعها وفلذها[٤] . فأمهل القوم إلى أن استغرقوا فى النوم ، وبينما هو متفكر فما به إذ خرج البرغوث من ثيابه ودخل إلى جسد السلطان ، وقص عليه بلسان القرص كل ما كان من شأن اللص ، فنهض الملك من مرقده فرأى نقطة على جسده ، فطلب النور لينظر الأمور فرأى برغوثا طار ونزل تحت السرير فقصوا أثره على المسير ، فوجدوا الحرامى الكسير فربطوه كالأسير ، ووقع فى الأمر العسير بالأمر اليسير فصار كما قيل :

مَشَى بِرِجْلَيْهِ عَمْداً نَحْوَ مَصْرَعِهِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم يا أبا نوفل أن سرا فى الفؤاد لا يؤمن عليه الجماد ؛ فضلا عن متحرك من حيوان ، ونعوذ بالله إن كان من جنس الإنسان . وقد قيل : للحيطان آذان ، ومن أمثال العجم الأوباش : للديوان أكواش .

فلما انقضى هذا الكلام وكان الأسد قد استوفاه على التمام ، وقد أثار فى أحشائه لهبا ، نهض من مرقده ممتلئاً غضبا ، واستحال وتحرك ، وأمر بأبى نوفل فقبضوا عليه ، ووضعوا الغُلَّ ، فى رقبته والسلاسل فى يديه ورجليه، وأمر إلى السجن برفعه بعد التنكيل به وصفعه ، فتشوّش خاطر صديقه وجليسه ورفيقه . ثم انفض المجلس النظيم ودخل الملك إلى الحريم .

---

(١) لصق بالأرض .
(٢) صغير السن ، الجميل .
(٣) متوهجة .
(٤) قطعها .

فتوجه أخو نهشل إلى السجن المقفل ، ولام صاحبه أبا نوفل وزاد فى التعنيف ، وقال : أيها الأخ الطريف ألم تعلم أن الشخص إذا تكلم يضبط كلامه عليه ، ويعود محصول ما يلفظ به إليه ، وقد قال الرب المجيد ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق:١٨] . وإن كثرة الكلام تضر بالنفس أكثر مما يضر بالبدن الطعام . وكل هذا المصاب إنما جاء من قبل الإعجاب وكثرة الكلام والغرور وعدم التأمل فى عواقب الأمور قال الشاعر :

ما إِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتِى مَرَةً   وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الكَلاَمِ مِرَاراً

قال حكماء الهند، وفضلاء السند : ما دام الكلام فى الفؤاد ولم يبد منه على اللسان باد ، ولم يصب منه سائل حرف فى صدفة الآذان ، أو وعاء الطرف ، فهو كالبنت البكر المشهورة الذكر ، كل أحد يخطبها و يميل إليها ويطلبها ، ويتمنى أن يراها ويرتشف لَمَاها[١] ، فإن ألقى إلى المسامع ووعاه كل ناظر وسامع ، فهو كالعجوز الشوهاء[٢] إذا سلوها وقلوها ، وهى تلازم صباحا ومساء ويفر منها الرجال والنساء ، ويحيد كل أحد عنها ، فإذا تكلمت أسكتت وإذا سلمت أعرض عنها .

وقال بعض الحكماء : اللسان أسد وهو حارس الرأس والجسد ، إن حبسته حرسك ، وإن أطلقته حبسك ، وإن سلتطه افترسك . وقالوا : الكلام أسيرك ما لم تُبْدِهِ ،فإن تكلمت به فأنت أسيره . قال بعض الحكماء : أنا على ما لم أقل أقدر منى على ما قلت.

وقال عيسى صلوات الله عليه : العافية عشرة أجزاء ؛ تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله ، وواحد منها فى ترك مجالسة السفهاء .

---

(١) اللمى : سواد محبوب فى الشفاه ، المعنى : يقبلها .

(٢) العابسة القبيحة المنظر .

وقال نبى الحرمين ، وإمام الثقلين[(١)] ، صلوات الله وسلامه عليه : ((الصمت حكمة))[(٢)] . وقال عليه الصلاة والسلام: ((البلاء موكل بالمنطق))[(٣)] .

وقال بعض الحكماء :السكوت يستر عيب الجهل ، ويغظم حرمة الملوك . ولقد آذيت نفسك وتسببت فيما أوجب حبسك ، وأقلقت ودودك ، وأشمت حسودك ، ولقد كانت حصتى من بلائك ومما دهانى من شدة عنائك أعظم من كل حصة ، وقصتى فى ذلك أعجب من كل قصة إذ أنت رفيقى وزميلى وفى حضرة الملك ومنادمته عديلى ، نشأنا على ذلك وسلكنا فى الموافقة والمرافقة أقوم المسالك ، وكنت المرجو لمخافى وإيابى فى مطافى ومشتكى حزنى ومشتفى شجنى ، ومخزن أسرارى وأعظم أستارى وراوية أخبارى فى أحبارى[(٤)] ، وراوية أسفارى فى أسفارى ، ومن أين ألقى مثلك رفيقا أو أجد صديقا شفيقا ، وأنت صاحب السراء ومصاحب الضراء وأنشد :

وَمِنْ أيْنَ ألْقَى بَعْدَ سَبْعِينَ حُجَّة ... رَفِيْقَاً كَمَن أرْضَعَتْهُ قهوة الصِّبَا[(٥)]

أدِيْبَاً أرِيْبَاً لَمْ أمل مقَامِهِ ... وَلاَ مَلَنِى يَوْمَاً حَكِيْمَاً مُهَذَبَاً

ويعز على ويعظم لدى أن أراك فى هذه الحالة ، ثم أجرى سحائب دموعه الهطالة ، وقال :

وَمَا عَلَى الحُرِّ أنْكَى أنْ يرى حَزَنَاً ... فِى مِحْنَةٍ ضَاقَ عَنْهَا دُونَهُ الحِيَلُ

---

(١) الإنس والجن .

(٢) انظر كشف الخفا للعجلونى (٣٢/٢) وعزاه للبيهقى فى الشعب عن أنس ، بسند ضعيف . قال : والصحيح رواية ثابت عن أنس : أن لقمان قال ذلك ، ولذا أخرجه ابن حبان فى روضة العقلاء بسند صحيح .

(٣) الحديث ذكره صاحب كشف الخفا (٢٩٠/١) وقال عنه صاحب المقاصد : موضع .

(٤) أى ما يحبر ويكتب فيه .

(٥) القهوة : الخمر .

ولقد تحيرت فى هذا الأمر المهول ، وما أدرى قصاراه إلى ماذا يؤول، وليلة الغم الصراح عماذا يسفر فيها الصباح ؛ فأنكئ لذلك أبو نوفل وبكى وتضرع إلى الله وشكا ، وقال : يا أعز الأصحاب وأحب الأحباب لقد أثر عندى ما قلت من الكلام أكثر مما أصابنى من الآلام ، كيف يغتفر لأحد الجانبين ويطلق أحد القيدين ، وأنَّى يُعتذر بالقضاء والقدر لإحدى الغصتين، وهل شيء فى عالم الكون والفساد جاء خارجا عما قدره الله وأراد ، وكلنا فى هذا سوية والعبد مقهور مع المنية ، ولكن الجَدَّ إذ أقبل ولاحظ بسعده وتفضل ؛ فكل حركة تصدر من الغبى العاجز يعجز عن مقاومتها البطل المبارز ، وكل قول يتفوّه به الجاهل يدع دليل معانيه أدلة العقلاء فى مجاهل ومذاهل ، ودعاميص[١] ذوى الآراء المنضبطة المناهل تلقى من عقنقل الحيرة[٢] فى مجاهلها مناهل فيصير كل وجه إليها مائل ، وكل إنسان بها قائل وقوام كل سعد وقبول إليها قابل كما قيل :

وإذَا السـعادةُ لاحظتـكَ عيُونَهـا ... نـِمْ فَالمَخَـاوف كلُهـنَّ أمَـان
وَاصْطَد بِهَا العنقاءَ فَهى حَبَائـل ... وَاقْتَد بِهَا الجَوْزَاءَ فهى عِنَـان[٣]

ونعوذ بالله من ليل السعد إذا أدبر وصبح الخمول إذا أسفر ، فإن اللبيب إذ ذاك يخطئ ما كان يصيب ويفعل العاقل مالا يرتضيه بَاقِل[٤] فيكون جهد النفس زيادة فى العكس :

---

(١) زوار الملوك .

(٢) أى من شدة الحيرة وكثرتها .

(٣) العنقاء : طائر معروف الاسم مجهول الجسم لم يوجد .والجوزاء : أحد أبراج السماء. والمعنى: أنه إذا حالفه الحظ سهل له كل شيء حتى اصطياد العنقاء ، وقياد الجوزاء.

(٤) الباقل : هو مثل يضرب لرجلٍ اشترى ظبية بأحد عشر درهما فسأل عن شرائه ، ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه فانفلت ، فضرب به المثل فى العى ، أى الحمق .

وَإِذَا تَوَلى الجدُّ يَحْتَاج الذَكــــى فِى رأيِهِ قَبْل الزَوال مرَاحـــــاً

وانقلاب الدهر وانعكاس الزمان شيمة معهودة وخصلة معدودة ، كما قيل:

وَمَنْ ذَا الَّذى ما غرَّه صَرْفُ دَهْرِهِ فأضحَكه يَوْماً وَلَمْ يَبْكِه سِنَه

وأنا كنت غافلا وإن لم أكن جاهلا ، وقد يكون الشخص عما تحققه ذاهلا ؛ وذلك لما كان عوّدنى الزمان وألفته من سالف الدوران وإرخاء العنان ونيل الأمانى والأمان ، وإسبال نَيل النعم والإحسان الدائم والكرم ، فمشيت على ما كنت أعهده وفى نفسى أجده ، وأيضا كانت لذة عشرتك ونعيم صحبتك وحسن موافقتك وعز مرافقتك أنسانى كل بلية ، وأمنت بذلك كل رزية ، فألهانى عن التنكد ودهتنى غفلة عن التوزع والتبدد ، مثل ما أصاب ذلك الهدهد ، قال أخو نهشل : أسرد ذلك المثل :

[٣٤] **فقال** : ذكروا إن الله مجرى الخير علم بعض عبيده الصلحاء منطق الطير ، فصاحب منها هدهدا وازداد ما بينهما توددا ، ففى بعض الأيام مر بالهدهد ذلك الإمام ، وهو فى مكان عال ملتفت إلى ناحية الشمال وهو مشغول ، بالتسبيح يسبح الله بلسانه الفصيح ، فناداه يا صاحب التاج والقباء والديباج لا تقعد فى هذا المكان ، فإنه طريق كل فتان ومطروق كل صائد شيطان ، ومقعد أرباب البنادق ومرصد أصحاب الجلاهق(١) .

فقال الهدهد : إنى عرفت ذلك وإنه مسلك المهالك .

قال : فلأى شيء عزمت على القعود فيه مع علمك بما فيه من دواهيه.

---

(١) الجلاهق : جسم صغير كروى من طين أو رصاص يُرمى به ، وهى أيضاً القوس التى يُرمى بها البندق .

قال : أرى صبيا وأظنه غويا نصب لى فخاً يروم لى فيه زخا[1] ، وقد وقفت على مكايده ومناصب مصايده ، وعرفت مكيدته أين هى وإلى مذا تنتهى ، وأنا أتفرج عليه وأتقدم بالضحك إليه ، وأتعجب من تضييع أوقاته وتعطيل ساعاته فيما لا يعود عليه منه نفع ولا يفيده فى قفاه سوى الصفع ، وأسخر من حركاته وأنبه من يمر على خزعبلاته ، فتركه الرجل وذهب وقضى حاجاته وانقلب فرأى الهدهد فى يد الصبى يلعب به لعب الخلى بالشجىِّ[2] ولسان حاله يلهج بمقاله :

كعصفورة فى يد طِفْل يُهينَهـا تَقاسى حِيَاض الموتِ وَالطفل يَلعـبُ
فلا الطفل ذُو عَقْلٍ يَرق لِحَالِهـا وَلاَ الطَيْرُ مَطْلـوق الجِنَاحَ فَيَهْـرَبُ

فناداه وقال : يا أبا عباد كيف وقعت فى شرك الصياد ، وقلت لى إنك وعيت ورأيت ما رأيت .

فقال : أما سمعت أن الهدهد إذا نقر الأرض يعرف مسافة ما بينه وبين الماء ، ولا يبصر شعرة الفخ ؛ وذلك لينفذ ما كتبه الله تعالى وقدره من قضائه وقدره ، وناهيك فى قضية القضاء والقدر قضية آدم أبى البشر مع موسى الكليم عليهما الصلاة والتسليم لما جرت عليه أحكام القضاء والقدر[3] فتمت مشيئة الله تعالى السابقة فى علمه ، وجرى مالم تدركه عقول الفحول فى ميدان إرادته من سوابق حكمه وحكمته وأنشد الهدهد :

---

(١) أى يريد لى المكيدة أو الوقوع فى الشَرَك .

(٢) الخلىّ : الخالى من الهم والحَزَن . والشجىّ : المهموم .

(٣) إشارة إلى حديث (حج آدم وموسى) وهو حديث أخرجه البخارى : كتاب التفسير ، باب (٣) (٤٧٣٨) ولفظه عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : ((حاج آدم موسى وقال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، أتلومنى على أمر كتبه علىَّ قبل أن يخلقنى . قال رسول الله ﷺ فحاج آدم موسى)) .

يَــــا سَـــائِلِى عَمَـــا جَـــرَى وَالعَيْـــنُ مُبْصِـــرَةُ القَـــدر
أَو مَـــا سَمِعْـــتَ بِـــأَنَّ إذا جَاءَ القضا عُمِـــىَ البَصَـــر

وقال أيضا :

إِنْ كُنْتَ أَخْطَأتَ فَمَا أَخطأ القَدر إِنَّ القَضَاءَ إِنْ أَتَى يُعْمِى البَصَرَ

واسمع أيها العاقل قول القائل:

إِذَا أَرَادَ اللّـــهُ أمـــرا لامـــرىء وَكَـانَ ذَا عَقْـل وَسَـمْع وَبَصَـر
وَحِيلَـة يَفْعلهـــا فِـــى دَفْـــع مــا يَأْتِى بـهِ محتـوم أسْـبَاب القَـدر
أصَــم أُذُنَيـــهِ وَأَعْمَـــى قَلْبَــه وسُلَّ منـه عقلـه سَـلَّ الشَّـعْر
فَلاَ تَقُلْ فِيما جَرَى كَيْفَ جَـرَى فَكُلّ شَـــىءٍ بِقَضَـــاءٍ وَقَـــدر

وأنا لما اغتررت بحدة بصرى ذهلت عما يجول فى فكرى ، فتغطت حدة استبصارى فوقعت فى فخ اغترارى ، أما سمعت يا همام قول الإمام : إذا حلت المقادير ضلت التدابير ، ثم قال أبو نوفل وقد أثر فيه كلام أخى نهشل :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداوِنِى بالتى كانت هـى الـداء

وإنما أوردت هذه الحكاية ؛ لتخفف عنى مافى تقريعك وتوبيخك من نكاية ، وتعلم أن الأمور كلها جلها وقلها جارية على وفق ما قضاه الله تعالى وقدره ، وأثبته فى سابق علمه فى اللوح المحفوظ وسطره ، وإن كانت الأحكام فى هذا الباب تضاف إلى العلل والأسباب ، ولا شك فى هذا ولا ارتياب ، فقد مر أن الذهول شغلنى عن الفضل بالفضول ، وإن العذر غير مقبول ، فإن الجهل لا يكون حجة ولا مخلص لسالك لأسوأ المَحَجَّـة[١] ، وقد طال الكلام والحق بيدك والسلام .

---

(١) جادة الطريق .

وأما الآن فجُلُّ المقصود من لطفك المعهود ، وبذل المجهود وتذكر سابق العهود ، وقديم الصداقة وأكيد المحبة والعلاقة عطف الخواطر الملكية ، ورجوعها على ما كانت عليه من الصدقات السنية والعواطف الملوكية ، وأقل الأقسام ؛ الخلاص من هذه البلية ، وعلمك قد أحاط بأوثق مناط[١] أنى شخص وحيد بين ملازمى الخدمة فريد ، لم يكن لى أخ سواكِ وأنت مشتكاى وأنا مشتكاك ، وهذا أوان الفتوة وزمان المرّوة ، وعدم التخلى عن الإخوان، والانبعاث بالهمة الثابتة الأركان ، والسعى فى خلاص الصاحب القديم من هذا البلاء العظيم ، وأسألك بسالف الخدمة والمودة ذات القِدمةْ أن لا تذكر ما سلف من التقصير الموجب للتلف فإنِّى معترف أنى للذنب مقترف وأنشد :

جَاوَزْتَ فِى اللَّوْمِ حداً قد أضَرَ به   مِنْ حيثُ قَدرتَ أَنَّ اللَّوْمَ ينَفْعَه

وإنى إذا تفكرت وتصورت ما وقع إذا تذكرت ، وإن كان قد مضى يضيق بى الغضا[٢] ، وأغرق فى عَرَق الحيا وتسود فى عينى الدنيا ، فكأنه فى هذا القبيل عنى قيل :

كأنَّ فُؤَادِى فِى مخالـبِ طائر   إِذَا مَا ذَكَرْتُ الحُبَّ يَشْتَد بِى قَبضا

وهذا القدر من الإعلان يكفى ، وإنى أستحلى إذا مر بخاطرى غصص حتفى ، ثم علا زفيره وشهيقه ، وبدا من لهيب قلبه بريقه ، ومن وادى دمعه عقيقه[٣] ؛ حتى خيف عليه غريقه وحريقه ، ورق له عدوه وصديقه وبكى لبكائه رفيقه .

قال أخو نهشل : اعلم أيها الأخ المفضل أنى لم أقل ذاك الكلام للعدوان

---

(١) المناط : اسم موضع التعليق . وبأوثق مناط أى إلى أبعد حد .

(٢) أى يضيق علىّ الظلام .

(٣) أى الدمع يسيل من العين .

والملام ؛ فضلا عن إيحاش قلب وإيلام ؛ ولكن لما تألم جَنَانى[١] أجرى الله ذلك على لسانى ، ولم يكن لذلك الحديث باعث ولا قصد عابث أو عائث[٢] ؛ ولكن صفو المحبة ووفور الصدق أوجبا التلفظ بذلك النطق ، وكيف لا أدرك دقائق المعانى وأنا لها من ثمار فصائلك جانى ، وأما بذل الاجتهاد من أهل الوداد فهل يخطر ببالك غير ذلك ، ويأبى الله والأخلاق الكريمة وما علمته من همة وشيمة ، وفواضل فضائل من موانح خصائلك اقتبستها ومطارف معارف على منوال سجاياك نسجتها ، أن أتخلف عن التعلق بأهدابها وأغلق أبواب مقاصدها فى وجوه طلابها . وأنا إن لم أبذل مجهودى وأصرف موجودى فى مساعدة خلى وصديقى وصاحبى ورفيقى ، بما تقتضيه المروأة والفتوة والصداقة القديمة والأخوة ، وإلا فأى فائدة فى وجودى لوالدى ومولودى وطارفى وتليدى وصديقى وودودى .

وقد قيل : أربعة أشياء فرض عين[٣] فى شريعة المروأة على المحبين وكذلك الأخوان وسائر الأصحاب والخلان .

الأول : المشاركة فى النوائب وتعاطى دفعها من كل جانب .

الثانى : إذا ضل أحدهم عن طريق السداد يردونه إلى سبيل الرشاد ولا يتركونه على غير الصواب بل يستلطفونه بألطف خطاب .

الثالث : إذا صدر من أحدهم نوع جفاء يلاقونه بالوفاء والصفاء ، ولا يتركونه على شفا ، ولا ينسون الوفاء القديم بالجفاء الحادث ، فربما يتفرع على ذلك ما يؤكده من العوائث .

---

(١) قلبى .

(٢) فاسد .

(٣) أى واجبة على كل أحد .

الرابع : لا يؤاخذون المقصر فى حال الغضب ، بل يرجئون عقوبته إلى أن يطفأ اللهب ؛ فربما يتعدى بواسطة الغضب الحد ؛ فيقع بسبب ذلك بين الأصحاب نكد .

ثم إن أبا نوفل قال لأخى نهشل : المبادرة أولى إلى التلافى ؛ لئلا يسابق الجنود إلى تلاقى ، وهذا المصاب إنما جاء بغتة ، وأخذ قلوبنا وأسماعنا بهته ، فاستعمل فكرك القويم وتوجه إلى التدارك بقلب سليم .

فقال : ها أنا أذهب على الفور لهذا المطلب النافع وأقوى العزيمة واجتهد فى دفع الموانع ، فأول ما ابتدئ بقصد الملك ، وانظر ما يصدر منه قولا وفعلا فى هذا الأمر المشتبك ، فأبنى على ذلك ما يناسبه وأجاريه فيما يميل إليه خاطره ولا أجاذبه .

ثم توجه إلى الأسد ودخل عليه فوجد الدب جالسا بين يديه ، وقد بلغه قضية النديم ، وأنه حل به العذاب الأليم ، فاغتنم الفرصة ، وبادر ليتم على أبى نوفل الغصة ويتعاطى فى أمره قصة وحصة ، فأراد أخو نهشل أن يفتتح الكلام ، ثم أفكر فى أنه ربما يعاكسه الدب فى المرام ، وإنه إذا قام فى المناقضة لا يمكنه مقابلته بالمعارضة ، وإن سكت فالسكوت رضا ، وإن وافق فعلى غير مراده مضى فأمسك عن الكلام ، ورأى السكوت مقتضى المقام . ثم أمعن النظر وأجال قداح الفكر فرأى أنه إن انفصل المجلس من غير أن يفصح بشيء وينبس ، ربما يفوت المقصود أو يسابقه بالمعاكسة عدو أو حسود ؛ لا سيما مثل الوزير الرفيع الخطير صاحب الرأى والتدبير وهو عدّو قديم ، وفى طرق الخزى نظيره عديم ، فإذا بادر الملك بالكلام ربما يقع منه فلتة بمقام كما قيل :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفُ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا

فتلقاه الملك بقبول ، فيصول كما يختار في ميدان الفتك ويجول ، فتتعقد الأمور وتتقصد وتتعقف[1] الأخلاق الأسدية وتتعرد[2] ، فرأى الأولى المبادرة بالكلام والوقوف فى مقام الشفاعة أنسب بالمقام فإن عارض أحد عرف أن جوهر كلامه عرض ولا تصدى إلا لغرض . وكان الملك قد سمع كلامه بعد معرفة سلامته وإلقائه على أبى نوفل عذله وملامه ، وكلامه بلا شك مقبول ومالأحد عنه عدول .

وكان الدب منتظرا خروجه من عند الملك حتى يختلى بالكلام معه وينهمك ؛ فأدرك أخو نهشل هذا المرام ، فوقف فى مقام الدعاء وبادر بالكلام، ثم قال بعد وظائف الدعاء والقيام بما يجب من مراسيم الثناء العلوم الشريفة والآراء المنيفة محيطة ؛ إن من عادة الملوك العظام وأخلاق السلاطين الكرام العفو عن الجرائم ، والإغضاء عن العظائم ؛ لا سيما إذا صدر ذلك من أحد المخلصين والعبيد المتخلصين على سبيل السهو والخطأ لا على سبيل العمد والاجترا

مَــنْ ذَا الَّــذى مَا سَــاء قَـط وَمَنْ لَــهُ الحُسْـنَى فَقَــط

وإن العبد الأقل أبا نوفل ، الواقع فى الخطر الخطير ، المعترف بالذنب والتقصير ؛ متوقع غفرها من صدقات الحضرة الملوكية ومراحمها وما اعتاده من حلمها الشامل ومكارمها ، ومحتم على الملوك القيام بقبول الشفاعة دون سائر الخدم والجماعة ؛ خصوصا وقد كان رفيقا نديما ومصاحبا قديما ، ولا يقصد المملوك بذلك إلا سوق الحسنات الكثيفة إلى دفاتر الصدقات الشريفة، وقصد الخير وذهاب الأسى والضير ، وانتشار صيتها فى الآفاق والأطراف بالعلم والحلم والعفو والصفح والفضل والعدل والألطاف ؛ فلان الأسد من هذا

(١) تنعطف وتعوج .
(٢) تقسو وتشتد .

الخطاب وعرف أن قصد الشافع من هذا إنما هو الثواب والصواب ، فأطرق مليا ولم يجرمن الأجوبة شيئاً ؛ فتأثر الدب الخبيث والعدو القديم لهذا الحديث، وخاف أن يكون السكوت علامة الرضا وإن هو رضى يفوت منه المنى، والإطراق علامة الحلم والسكوت فى الحرب دليل السلم ، ومن فوّت الفرصة وقع فى غصة ، ومتى يقع أبو نوفل المختال فى مثل هذا العقال ، وما أظرف مقال من قال :

وإنْ رَأَيتَ غُرَاب البَيْن فِى شِركِ فَاذْبَح وكُل وَذر الأَفْرَاخ فِى عُنُقِى

وقد قيل :

إذَا صَارتْ الأعداءُ نملاً فَإنَهم إذَا لَمْ تطأهم أصبَحُوا مِثْلَ ثُعبان
وَكَمْ ذَا يُقَاسِى من أذَاهُ وقرصهُ عَلى ضَعْفِهِ إنْ صَار دَاخل آذان

فانبرى وانبرم وتصدى للمعاكسة ذلك البرم[١] ، وغطى دسائس لؤمه بنقوش الكرم ، وقال : اعلم أيها النديم القديم ومن هو للملك أوفى خديم ؛ إن الواجب على جميع الخدام أن يكونوا فى الصدق متساوى الأقدام ، ولا يقدموا على نصح الملك غرضا ، ولا يطلبوا سوى رضاه على النصيحة عرضا ، ولا عوضا ، فلا يصادقوا الخائن ولا يصدقوا المائن[٢] ، ولا يواطؤا الخاطى ولا المذنب المتعاطى ولو بالكلام الواطى ، ولا يخفوا الخيانة والجناية ولا يرعوا فى ذلك أدنى الرعاية ، فمساعد السارق سارق ومعاضد المارق مارق، والقيام مع الجانى جناية وإخفاء الخيانة نكاية وفى هذا الكلام كفاية ، ومن اعتذر من جناية جان ؛ لا سيما إن كانت فى حق ملك أو سلطان فهو شريك فيها بل أعظم جرماً من متعاطيها ؛ لأن أعظم الجناية ياذا الدراية إنما هو بحسب المجنى عليه ، وإن ذلك لَوَهَنّ عائد إليه لا على مقدار الجانى ، وأنت

(١) اللئيم .
(٢) الكاذب .

لا تجهل هذه المعانى ؛ ولهذا قال بعض أهل الأفضال : إن تعاطى الفساد ياذا الرشاد ليس فيه صغيرة ، وإن كل ما يخالف الأمر كبيرة وذلك بالنظر إلى الجناب الأقدس القاهر تعالى وتقدس .

فقال أخو نهشل : كلام مولانا الوزير هو المفضل وما أشار به هو الصواب المعدل ، ولكن يا مولانا الوزير علمك الخطير خبير بأننا كلنا محل الخطأ والتقصير ، ولا يسع الكبير منا والصغير إلا الحلم الغزير والعفو عن كثير ، وقل لى من هو البرىء عن الهفوة ، والذى لا يتوقع من مولانا الملك عفوه ، وإن لم تقع الشفاعة فى الجانى وذى الخلاعة ومخالف سنة الجماعة، فالمحسن لا يحتاج إلى شفاعة ، ومن لم يجبر المكسور ويأخذ بيد المحقور ، فما يجد عند انكساره جابرا ولا يؤخذ بيده حين يصير عاثرا ، وقد قيل من مثلك الفضيل وصاحب الأدب الجزيل :

إذا أصبَحْتَ فِينَا ذَا اقْتِدار وأمرُكَ فى رقابِ الخَلْق جارى
أَقِلْ وَأَقْبَل عثاراً واعتذاراً فَمَنْ يُقِلْ عِنْدَ العِثَار
فَمَا زال الصِغَار تروم عفواً وَغُفْرانُ الكبائرِ مِنْ كِبَارِ

وأحسن العفو يا ذا السلوك عفو السلاطين والملوك ؛ لا سيما إذا عظم الجرم وكبر الإثم ، فإن العفو إذ ذاك صادر من ملك ذى سلطان قادر مع قوّة الباعث على المؤاخذة والقدر الشاملة النافذة وغير الملوك من العاجز والصعلوك عفوهم ، إنما هو عجز خشية أو لتمشية غرض مشية ، والملوك إنما يؤثر عنهم الخلال الحميدة والخصال الشريفة السعيدة ، والأكابر يعفون والأصاغر يهفون[(١)] .

وقد قسم الحكماء والحكام ما يقع من الذنب والآثام أربعة أقسام ، فاسمع

---

(١) هفا الرجل : زلّ ووقع فى الخطأ .

يا كبير : هفوة ، وتقصير ، وخيانة ، ومكروه . وحرروا ذلك وضبطوه، وذكروا لكل جزاء قروره ؛ فجزاء الهفوة العتاب وبه نطق الكتاب . وجزاء التقصير الملامة على ما أورث من ندامة . وجزاء الخيانة العقوبة ، فإن في ارتكابها للعاقل صعوبة وأعظِم بعقابها مثوبة ، وما يرتكب المكروه إلا الغافل المعتوه ، وجزاؤه أيضا بمثله وهذا على مقتضى العقل وعدله .

والذى صدر فى سابق القدر من المخلص أبى نوفل إنما هى هفوة بها زلَّ ، وجزاؤه على هذا الحساب إنما هو العقاب وقد استوفاه ، وزيادة وفى هذا لمولانا الملك الإرادة ، فإن شاء عاقب على الذنب الصغير ، وإن شاء عفا عن الجرم الكبير ، والهفوة لا يكاد يسلم منها الخواص ؛ فضلا عمن هو فى شرك العبودية والاقتناص ، ولأن يؤثر الفضل عن الملك وعلى طريق عفوه يسلك الدرب المستلك ، خير من أن يؤثر عنه لنفسه الانتقام ويخلد ذلك على صفحات الأيام ، ولا شك أن سيرة العفو والفضل أفضل من القصاص والعدل، وذلك هو اللائق بالحشمة ، والأوثق للحرمة ، والأجدر لناموس السلطنة، والأبقى على ممر الدهور والأزمنة .

وقد قال سيد المرسلين وحبيب العالمين : ((ينادى مناد يوم القيامة من كان له عند الله يد فليقم فلا يقوم إلا من عفا))[(١)] . وقال رسول الله ﷺ : ((إن العفو لا يزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله))[(٢)] .

ولقد كان جماعة من عظماء الملوك والأكابر يبحثون عمن تعاطى

---

(١) الحديث ذكره المتقى الهندى فى كتاب كنز العمال (٧٠٢٤) وعزاه للحاكم فى المستدرك .

(٢) الحديث أخرجهُ الإمام مسلم : كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع (٧٠) بلفظ : ((ما نقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً وما تواضع أحد إلا رفعه)) .

الذنوب والإجرام من الأصاغر ؛ لاسيما لمن يتعرض لذات الملك ونفسه، ويستعين بطوائف على فساده من أبناء جنسه ، فإذا قدروا عليهم عفوا وتلذذوا بالعفو والإحسان واستعفوا ؛ وحسبك يا أبا جهينة ومن فضله أعذب مزينة واقعة ابن سليمان ، المخلدة على ممر الأزمان وماتضمنت من مكارم الأخلاق التى تعطرت بها الآفاق . فتوجه الأسد إليه ومال ، وقال أخبرنا يا أخا نهشل كيف كان هذا المثال .

[٣٥] **قال** : لما انتهت أيام بنى أمية ، وتطرزت خلع الأيام بأعلام الدولة العباسية ، وأشرق بطلعة أبى العباس السفاح[(١)] فى دياجير الدهر[(٢)] أيمن صباح بأحسن فلاح ؛ اختفت نجوم أفلاك بنى أمية وكواكب من بقى من تلك الزواهر المضية وكان منهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وجعل السفاح يتطلبهم ويرغب من يدرى بهم ويرهبهم ، إلى أن ظهر ابن سليمان وكان من أمره ما كان ، فحكى أنه كان بالحيرة[(٣)] مختفيا فى هم وحيرة .

قال : ففى بعض الأيام تراءت لى على سطح سواد أعلام فوقع فى نفسى وغلب على حدسى أنها قد جاءت لطلبى ؛ راغبة فى عطبى ، فتنكرت فى الحال واختفيت وخرجت من الحيرة إلى الكوفة[(٤)] أتيت ، فدخلتها خائفا أترقب ، ولم يكن لى فيها مترصد ، ولا مترقب ولا صديق أركن إليه ، ولا صاحب أعول عليه فصرت فى تلك البلاد مثل المنشد ببغداد :

---

(١) أبو العباس السفاح ؛ عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، أول الخلفاء للدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب ، بويع له بالخلافة جهراً بالكوفة (١٣٢هـ) تاريخ الطبرى (٩/١٥٤) .

(٢) أى نوائبه وظلماته .

(٣) الحيرة : مدينة بالعراق بين الكوفة والنجف .معجم البلدان (٤٠١٣٩) .

(٤) الكوفة : مدينة بالعراق أسسها سعد بن أبى وقاص بعد معركة القادسية . معجم البلدان (١٠٤٧٣)

بَغْداد دَارٌ لأَهْـلِ المَـالِ مُنَعمـة   وللمَفَالِيس دَار الضَنْـكِ وَالضيْـق
ظَلَلتُ حَيْرَان أمْشِي فِي أزقتــها   كَأنَنَي مُصحف فِي بَيْتِ زِنْدِيــق

فأدانى المسير إلى باب كبير منظره جليل وداخله دهليز طويل ليس فيه أحد من الحجاب والرصد ، فدخلت إليه وبه مكان فجلست عليه ؛ وإذا برجل جسيم جميل الشكل وسيم على فرس جواد مع طائفة من الأجناد ، فدخل إلى دهليز الباب وفى خدمته غلمانه والأصحاب ، إلى أن نزل عن دابته وانفرد عن جماعته . فلما رآنى فى وجيف ووجل ، قال : من الرجل ؟ فقلت : خلاك الذم مختفٍ على دم(١) ، واستجرت بجوارك ، ونزلت فى ديارك .

فقال : أجارك الله ، لا تخف من سواه ، ثم أدخلنى فى حجرة لطيفة تشتمل على أشياء ظريفة قد جعلها مضيفة ينزلها كل من قصده جهله أو عرفه . فمكثت عنده حولا أصول فى نعمه صولا ، ولا يسألنى فعلا ولا قولا؛ بل كان يركب من الأسحار وينزل إذا انتصف النهار ، وذلك كل يوم لا تأخذه عن ذلك سنة ولا نوم . فسألته فى بعض الأيام ونحن فى أهنى مقام ، وقد صرت عيبة(٢) سره ، ومرآة قلبه وصدره عن ركوبه ونزوله وموجب تنقله وحلوله ، فقال : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك بن مروان قتل أبى صبرا(٣) ، وأورثنى بذلك نكدا وضرا ، وأوهج فى فؤادى لهبا وجمرا ، وقد دارت على بنى أمية الدوائر وبلغنى أنه بالكوفة مختف حائر ، فأنا كل يوم أركب وأفتش عليه لعل الله يوقعنى به لأشفى قلبى بقتله من كربه ، فآخذ بثأرى وأكشف عنى عارى وأطفئ لهبى وآخذ ثأر أبى .

---

(١) أى هارب من ثأر .

(٢) أى مستودع سر .

(٣) أى حبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات .

قال ابن سليمان : فعجبت من قضاء الرحمن ، وكيف ساقتنى أرجلى إلى شبكة مقتلى وأمشانى القضاء برجلى إلى من هو دائر على قتلى فاستحييت منه ومن الله ، وكرهت عند ذلك الحياة ، فسألته عن اسم أبيه لأتحقَّقُ ما يبديه وينهيه ، فأخبرنى فعرفته وتذكرت أنى أنا قتلته .

فقلت : ياهذا وجب على حقك وأنا غريمك ومسترقك ، وقد قرب الله خطاك وأنا لك متمناك.

فقال : وما ذاك ؟ فقلت : أنا إبراهيم الذى على طلبه تهيم ، وأنا قاتل أبيك فافعل بى ما يرضيك ، وخذ ثأرك وأطفئ نارك .

فقال : كأنه طال بك الجفاء ، وأضَرَّ بِك الاختفاء ، فأردت بالموت الخلاص واستندت لدعوى القصاص .

فقلت : لا والله الذى علم السر وأخفاه ؛ بل قلت الحق وفُهْتُ بالصدق، وخلاص الذمة فى الأولى أخف من قصاص الأخرى وأولى ، أنا فعلت بأبيك الأذى فى يوم كذا ومكان كذا بسبب كذا.

قال : فلما علم ذلك منى وتحقق أنه صدر عنى ؛ احمرت عيناه وانتفخت شفتاه ، وقامت عروقه ولمعت بروقه[1] وأزبدت شدوقه[2] وأطرق إلى الأرض ، وكاد يأكل بعضه البعض ، وجعل يرجف ويرعد ويزأر كالأسد ويتململ كريشة تقلبها الريح فى قاع البلد ، واستمر على ذلك زمانا يتأمل فيما يفعله بى إساءة وإحسانا؛ إلى أن سكنت رعدته وبردت همته فآمنت سطوته وقُهِرَ جَذْىُ سورته[3] ، ثم أقبل علىَّ ورفع رأسه إلى ، وقال : أما أنت

(١) أى لمعت عيناه من شدة الغضب .

(٢) أى خرج الزبد من فمه ، وهو علامة على شدة الغضب .

(٣) أى هدأ من الغضب .

فستلقى أبى غدا فيقتص له منك جبار السماء ، وأما أنا فلا أخفر ذمتى[1] ، ولا أضيع جوارى وحرمتى ولا يصل إليك مكروه منى ؛ ولكن قم واخرج عنى فلست آمن نفسى عليك ، ولا أقدر بعد اليوم أنظر إليك ، ثم دفع إلىَّ ألف دينار ، وقال : استعن بها على ما تختار فلم آخذها ولا نظرت إليها ، وخرجت من داره ولم أعرج عليها ولم أر أكرم من ذلك الرجل ، ولا أحلم ولا أعظم مكارم منه ولا أجسم .

وإنما أوردت هذه الحكاية وقى الله مولانا الملك شر النكاية ؛ ليعلم أن الذنب الكبير يستدعى العفو الكثير ، ممن قدره عظيم وحسبه جسيم ونسبه كريم ، كما قيل فى محكم الكتاب الحكيم **﴿وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَايُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** [فصلت:٣٤-٣٥] .

فقال الوزير : ناموس السلطنة وحشمتها ، وهيبة المَلك وحرمتها له شروط ، كل منها محرر مضبوط ، وبالمحافظة عليه محوط ، ولابد من إقامة أركانها وتشييد بنيانها ، ويجب الوفاء بها على المملوك والمالك ، ويفترض القيام بها على سلاطين الممالك ، والإخلال برعايتها وهن فى الولاية ، فلا غنى عن العمل بها ورعايتها أحسن رعاية ، فمن ذلك أن لا يسامح جماعة ولا يغفل عنهم وعن كيدهم ساحة فساعة ، ولا يركن إليهم فى إقامة ولا سير حيث لا يصدر عنهم للملك ولا للمملكة خير ، فمنهم من يعزل الإنسان عن منصبه من غير وقوف العزله عن سببه ، ومنهم من يوالى أعداء الملك وهو ذو اجتراء منهمك ، ومنهم من يراعى مصلحة نفسه ويقدمها على مصلحة مخدومه فى حالتى رخائه وبأسه ، ومنهم من يفشى سره ولا يراعى خيره وشره ، ومنهم من يتعرض لسقطه وغلطه لتغيير خاطره وَسخطه ، ومنهم

---

(١) فلا أنقض عهدى .

من ينتقص حرمته وينتهك عظمته وحشمته ، ومنهم ذو الطبع اللئيم المفسد فى الحريم . ولا شك أن أبا نوفل المهمل المغفل قد ارتكب بعض هذه الصفات ، وهو متلبس بأشنع الحركات ، وهذا يدل على لؤم أصله ، وشؤم محله ، وسوء طَوِيَّته وفساد نيته ، ومن أكرم اللئيم فهو الملوم ، وهذا أمر معلوم وقد قيل :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ　　　وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَئِيمَ تَمَرَدَا

فقال أخو نهشل الفقير : لا تقل ذلك أيها الوزير ؛ فإن أبا نوفل عبد خديم ومخلص قديم وظريف نديم ، ومحب صديق وودود شفيق أمين ، ثقة ذو وفاء ومقة ، محب ناصح وجليس صالح ، لم يعلم مولانا الملك عليه إلا الخير، ولم يزل يسير فى طريق العبودية أحسن سير ، ولم يطلع منه على شيء يعيبه ولا يشينه فى الدارين ولا يريبه ؛ بل هو ملازم لوظائف عبوديته مباشر لما يجب عليه من شرائط خدمته ، لم يصدر عنه أبدا غش لمخدومه ولا خروج عن امتثال أوامر مرسومه ، فإن صدرت منه هفوة نادرة أو سهوة بادرة أو جفوة سادرة(١) فحلم مولانا الملك لا يقتضى ؛ بل ولا يرتضى ، إطراح هذه الأوصاف المتعاضدة لأجل هذه الزلة الواحدة كما قيل :

فَإِنْ يَكن الفِعْل الّذى سَاءَ واحداً　　　فَأَفْعَالهُ اللاتِى سررن أُلُوف

مع أنه حصل له من كسر الخاطر وإحراق القلب وإغراق الجفن الماطر مالا يجبره إلا العواطف السلطانية والمراحم الشريفة الملوكية ، ونظرة من الحنو والعطف وذرة من الشفقة واللطف تكفيه ، ومن أليم الجفاء تنجيه وبعد شدة الممات تحييه ،وإلا فلا نعرف أحدا يجبر كسر ذلك الوهن أبدا إلا الآلاء السلطانية من يد العلو تعالى مقامها إلى درجات السمو والعطف والحنو.

---

(١) عابرة .

ثم عطف على الدب وقد حفز لإيقاعه الجُبّ ، وقال : أما أنا مع قلة البضاعة واحتقار مقامى بين الجماعة فقد أقمت نفسى لما وجب عليها فى مقام الشفاعة فلا أقصر فيها ولا أرجع عنها ﴿**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء:٨٥] .

وأسال صدقات مولانا أبى اللماس[١] المساعدة فى إنجاز هذا الالتماس، وأن يكون هذا شريكا لى فى إحراز هذا الجَعْل[٢] والوصول إلى أنواع الفضل من هذا الفصل ، فإنه يرد عنا فئه ﴿**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً**﴾ [النساء:٨٥] .

وأرجو من وزير الممالك أن لا يقع منه مخالفة فى ذلك ، فإن من سكن الكرم فى ربعه لا يصدر منه إلا ما يليق بكرم طبعه واللئيم بتكلف ؛ بل يحسد عليه ويتأسف إذا شرع فى مكارم الأخلاق وتعاطى فيها ما لم يقسمه له مقسم الأرزاق ، ترى وجوه محاسنها فى مكامنها تتستر منه بأنقاب النشوز وأبكار خدورها فى قصورها تتراءى لعينه فى صورة شوهاء عجوز ، فلا يطاوعه لسانه فى طيب المقام إلى طيب المقال ولا يبعثه جنانه إلى مباشرة حسن الفعال فيصير كما قيل :

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانكُم وَتَأْبَى الطِبَاعُ عَلَى النَاقِلِ

والناس على دين ملوكهم ، سالكون طريق سلوكهم ، وحيث كان مولانا الملك مجبولا على الشفقة الكاملة والمراحم الشاملة ، فكلنا يجب على ذمتنا ويلزم دائرة همتنا أن نتخلق بأخلاقه العلية ونتشبث بأهداب شمائلها الرضية ونتعاون جميعا على التزين بملابسة ملابسها البهية ، ونستضىء بل نهتدى فى دياجير المعاش بدرارى[٣] أفلاك صفاتها الزكية ، فإن العبد فيما يتعاناه مجبول من طينة مولاه ، وإن الله جل وعلا ؛ لا يضيع أجر من أحسن عملا.

---

(١) أبو اللماس من كُنى الأسد .

(٢) الهدف والغرض .

(٣) الكواكب العظام التى لا تعرف أسماؤها .

قال : فأُلجِم الدب ذو الساقطة بما فعله به من المغالطة . ثم أمسكوا عن الكلام وانتظروا ما يصدر من الضرغام فلم يُبْدِ خطابا ولا أنهى جوابا ، سوى أن قال : صلوا فى الترحال ، ولا تبدوا ولا تعيدوا ولا تتقصوا فى هذه القضية ولا تزيدوا ، حتى أمعن فيها النظر وأستشير فيها مشير الفكر ، فمهما أشار إليه الرأى وأرشد إلى اتباعه الهدى فيما يتعلق بحاله تقدمت إليكم بامتثاله .

فلما انصرفوا توجه أخو نهشل إلى الحبس وذكر لأخيه ما جرى بينه وبين ذلك النحس ، ثم قال : أبشر بالنجاح والفلاح والصلاح ، فقد رأيت فى جبين الفوز نور صباح ، ولاشك أن الله الغفور يجرى على يدى ولسانى من الأمور ما يجلب السرور ويذهب الشرور ، فكن أوثق صبور وإن حصل فى الطريق عقبة تعويق فلا يكن فى صدرك حرج ، فإن وراءها باب الفرج ، فإن الظُّفْر مقرون بالصبر ، والصبر مشفوع باليسر وقد أجاد صاحب الإنشاد:

أَصْبِر عَلَى مَا جَرَى مِنْ سَابِقٍ قَدُمَا   فَمَرْكِبُ الصَّبْرَ بِالإِمْهَالِ تَلْحِقه

فشكر له جميل سعيه ثم عرض على مشير وعيه ، فقال : كنت أرى أن هذه القضية تُؤخَّر ويرجا السعى فى أمرها ولا يذكر ، وسبب ذلك أن الطالع قد أدبر ، والحظ عن المساعدة قد تأخر ، وإذا تحرك الشخص ، والسعد ساكن ، وتبسم الدهر ، والزهر باكٍ وطلب شكر مسالمته وهو شاكٍ؛ فهو كقاطع البحر بالمراكن(١) ، والبانى على ثبجة(٢) أماكن لا يصلح له عمل، ولا ينجح له أمل ، فيشبه إذ ذاك الحمار المعصوب العينين فى المدار يقطع بالمسير زمانه ولا يفارق مكانه ، كذلك من يتعاطى الأعمال والسعد غير

(١) المراكن ، مفردها مركن : الإناء يُستعمل لغسل الثياب .
(٢) المكان الغير مستوى على الأرض الذى لا يصلح عليه بناء .

عَمَّال ، فلا يستفيد إلا التعويق والتبعيد ، ففى تلك الحال ينبغى الإمهال لا الإهمال إلى أن يتوجه السعد بالإقبال ؛ فعند ذلك مد الشباك وصيد السِّماك ، فإن السعد أتاك والدهر واتاك ، وناهيك قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم ، فسأل أخا نهشل بيان ما نقل من المثل أخوه أبو نوفل .

[٣٦] **فقال** : بلغنى أن كسرى أراد التنزه فثنَّى إلى حديقة عَنَان التوجه، وطلب الحكيم بزر جمهر ، وجلسا تحت دوحة زهرر على بركة ماء ؛ أصفى من دموع العشاق ، وأنقى من ذنوب الحكماء ، ثم طلب طائفة من البط لتلعب قدامه فى البركة وتنغط[١] ، وجعل ينادم وزيره ويتلقف منه حكمه المنيرة، ويتعرج على البط وهو يلعب ويتأمل فى أنواع حكم الصانع القديم ويطرب ، وصار يعبث بالخاتم فى أصبعه ويسرح فى رياض الصنع سوائم منظره ومسمعه ، فسقط الخاتم من أصبعه وهو ساه ، وشاهد بزرجمهر هذا الأمر فما أبداه ولا أنهاه ، فالتقمته بطه وغطت فى الماء غطة ، وكان فيه فص ثمين وكسرى به من المغرمين .

فلما سود قلم الاقتدار بياض النهار ، وأكمل مشقه على قرطاس الأقطار، أذِنَ كسرى للوزير بالانصراف ، وقد أسبغ عليه خلع الإنعام والإسعاف ، ودخل كسرى إلى الحرم وافتقد من أصبعه الخاتم ، فلم يتذكر ما جرى له ولا وقف على كيفية هذه الحالة ، فأرسل بطلب الوزير البارع وسأل منه على خاتمه الصائغ ، وكان الوزير قد نظر فى الطالع ، فرأى أن الكلام فى أمر الخاتم غير نافع ، فلو تكلم بصورة الواقع ذبح جميع البط وما وجد لأن الطالع مانع ، فكتم أمره وكلمه بكلام الحقيقة : الحد ؛ جامع مانع ، ثم انصرف وذهب واستمر كسرى على الطلب .

---

(١) تلهو وتقفز فى الماء .

ولم يزل بزرجمهر يراقب الأوقات ، وينظر فى أحوال الساعات إلى أن استقام الطالع وزال من السعد المانع ، وتيمن الفأل وحسن البال وحال الوبال فتوجه بزرجمهر إلى خدمة مخدومه وأخبره بما كان مخفيا من أمر الخاتم فى جيب مكتومه ، وأنه سقط من أصبعه وهو على البركة فى موضعه ، فبادرت بطة إلى الغطة فاختطفته وابتلعته بعدما التقمته فأحضروا البط جميعه وذبحوا من عرضه واحدة بديعة ، فوجدوا الخاتم فى حشاها ولم تحوج إلى ذبح سواها ، ثم سأل كسرى الحكيم الأديب لم لم يخبره بهذا الأمر الغريب فى أول وقوعه وصدوره وما موجب تأخيره .

فقال : كان إذ ذاك الجدُّ فى انعكاس والسعد فى انتكاس ، والطالع فى سقوط والنجم فى هبوط ، وأما الآن فالطالع استقام والسعد كالخادم أقام ، ونجم السعود قد حال عنه الهبوط والوبال ، وفى استقامة السعد وإقباله من بعد يفعل الشخص ما شاء فالدهر معه جار سواء جارى أو ماشى .

وإنما أوردت هذا النظير ؛ لتعلم أن معاندة التقدير أمر خطير وخطب عسير ، فربما يفرغ الإنسان جهده فى المبالغة ويكون الأمر فيه ممانعة ومراوغة ، فينعكس المرام ولم يحصل سوى إضاعة أيام ، ولم أذكر هذه المفاوضة إلا على سبيل العرض لا المعارضة ، لما أعلم منك من وفور الفضيلة وإن مقاصدك على كل حال جميلة .

فقال أخو نهشل : الأمر كما زعمت وأشرت به ورسمت ، ولكن خشيت إن لم أبادر يسبقنى عدوّ غادر ، أو حسود ماكر ، أو مبغض مكابر ؛ فينهى إلى المسامع ما ليس بواقع ، فلم نشعر أيها البطل إلا وقد ولج قلب الملك أنواع من مكر ودخل ، فيصير كما قيل :

أَتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفُ الهَوَىَ   فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا

لاسيما وقد تقرر فى الأمثال عند غالب الرجال ، أن الدعوى لمن سبق لا لمن صدق ، وبالجملة يا أبا عويلة إذا كانت مقاصد الشخص جميلة فإن الله تعالى ينجحها ولا يفضحها ويدبرها ولا يدمرها ، وإن كان فى الظاهر وعند البادى والحاضر يظهر فى بعض القضايا نوع هم وغم ؛ لكن ذاك السر لم يطلع عليه إلا مدبر العالم ، وإذا فوض الشخص الأمور إلى العزيز الغفور الذى هو مدبر الطالع والغارب ، وفى الحقيقة رب المشارق والمغارب ، وعلم أن مقاليد الأمور بيد تدبيره ، وإن ملوك الأرض تحت تصريف تقديره وتسخيره ؛ استراح فى كل المطالع وأخلص التوكل فنجاه الله من كل الوقائع وأوصله إلى مارام من المطامع ، وحسبك قضية الناصح الأستاذ الأمين الدمشقى مع الخائن جاسوس بغداد وهى طويلة طائلة فى مجلدة كاملة .

وأيضا لم أبادر بمفاتحه السلطان فى أمرك يا أعز الإخوان ؛ لئلا أنسب إلى تهاون وتوان وما من شروط المروّة والصداقة والأخوة أن يتخلف الفَطِن فى مثل هذا الموطن عن مساعدة الأصحاب ومعاونة الأحباب ؛ لاسيما صديق مثلك وحبيب متسم بفضلك ، وإنى لا أدع من أنواع الاجتهاد وما يحسن ببالى فى الإصدار والإيراد شيئاً إلا فعلته ولا أمر إلاّ قدمته ولا فكر إلا استعملته ، ولو بذلت فى ذلك روحى ومالى وخيلى ورجالى ، وإنى مباكر باب الملك وملازمه كأحسن من سَدَك[1] فإن رأيته مكرما مقامى مصغيا إلى كلامى خاطبته بما يليق وسلكت فى الشفاعة وحلو العبارة أوضح طريق ، وإن شاهدت فى خلقه شكاسة وفى طبعه شراسة وصعوبة وشماسة ؛ سلكت سبيل حسن السياسة . وفى الجملة : أستعمل علم الفراسة وفى كل حكم نظيره وقياسه وأستعين ، بالأقرباء والأوداء ، وأغالط المناقض والمعارض من الأعداء ، وأقصد النُّجْحَ وأراقبه ، وأرتقب السعد وأخاطبه ، وأسلك مع كل

---

(١) لزم ولم يفارق .

أحد ما يناسبه ، فالعدو أقتله ، والحسود أختله[١] ، والعذول أفتله[٢] ، والمحب أحتله[٣] ، والمبغض أبتله[٤] ، من تصلب فى المدافعة أمثله[٥] إلى أن ينقضى هذا الأمر وينطفى منه الجمر ويقبل مبشر الأمانى بالطبل والزمر .

ثم إنه بات مفكرا وبادر إلى الصباح مبكرا ، وأمَّ أبواب السلطان قبل سائر الخدم والأعوان ، فوجد الدب قد سبقه وجلس من عين المكروه فى الحدقة ، وقد فَوَّقَ سهم الكيد وصوبه إلى شاكلة الصد[٦] ولم يبق إلا إطلاقه ليشد من المرمى وثاقه ، فقبل النديم الأرض وأعلن سلامه ، وقطع على أبى حميد كلامه وعارض ملامه وناقض مرامه ، وقال : أدام الله أيام السعادة وأعوام الحسنى وزيادة ؛ المستمدة من بقاء مولانا السلطان وعمر دهره المخلد على تعاقب الزمان ، وأوطأ قمم الأمم مواطئ قدمه ، وأطاب بطيب حياته معايش عبيده وخدمه ، كانت المواعيد الشريفة والآراء المنيفة سبقت بالتأمل فى أمر عبدها القديم وخديمها الفقير النديم وجالب سرورها أبو نوفل النديم ، مع ما كان لائحا وعلى صفحات الرضا واضحا من شمائل الأخلاق الملوكية ومكارم الشيم السلطانية إن مراحمها ستأخذ بيد العاثر وتقيل عثرته بحسن المآثر ؛ بحيث يشرح الحاسر ويربح الخاسر والمملوك يسأل مراحمها ويرجو مكارمها أن لا تخيبِ ظنه وإن تحير بتحقيق ظنه وهنه ، وإن تجرى مماليكها وعبيدها على ما عودها من الصدقات قديمها وجديدها ثم أنشد وإلى الرضا أرشد :

أَرْجُو أَبَـا العَباس أنْ يَرْوِى لَنَا ... عَنْ ثَغْرةِ الضَحَاك نَـوْراً يَقْتَبِس
فاقــرأ تَبَســم ضَاحكاً مِنْ قَولِها ... مُتَهللاً نَحوِى وَلاَ تَقْــرأ عبــس

---

(١) أخدعه .
(٢) أصرفه وأبعده .
(٣) أقربه وأعطيه .
(٤) أقضى عليه وأقطعه .
(٥) أى أُمَثِّلُ به .
(٦) وجّه السهم إلى وجهته .

فتبسم أبو العباس ابتسامة ظهرت منها للرضا علامةِ ، فاشتعل الدب من القيظ وكاد يتمزق من الغيظ ، وعلم أن عقد أمره انفرط ونجم سعده من فلك السعد سقط ، وأنه لم يكتسب من مكايد القساوة إلا هاتيك العداوة ، وانكشف عند مالكه ما وطأه من مغطى وقرأ كل أحد حديث ذلك الموطأ[(١)] ، وغلب عليه الوجد فى الحال فخرج عن دائرة الاعتدال ، وسكر من خمرة العداوة فطفح وعربد وشطح .

فقال : كل من ستر على أعداء الملك فهو الخيانة والجناية مشترك وكل من شفع فى الجانى فهو فى قيد العصيان عانى ؛ بل هو أشد من المباشر إذ هو معاشر للمتعاطى ومكاثر ، والإبقاء على المعصية شر منها ، والرضا بكفر الكافر فتنة يفر عنها ، وما أظنك أيها النديم العارف القديم لمعرفة هذا القدر عديم ، فإن أبيت إلا الإصرار ومساعدة الفجار ومعاونة الأشرار فأنت حينئذ مُستَخِفٌ لهيبة ولى نعمتك مستنقض حرمة مالك رقبتك طالب لابتذاله ، مستهين بمقام جلاله ، راض بتسليط الأنذال والأوغاد الأرذال على انتهاك حرمته وابتكاك[(٢)] أستار حشمته ؛ ونحن لا نرضى بذاء الذمامة ولا كيد للمخالف ولا كرامة .

فعند ذلك استشاط الغضنفر ، وتأثر لكلام الوزير ، وتغير وزأر وهمر وزفر زفرة وزمجر ، وكاد أن يثب على أبى جمهر ، ثم إنه تماسك وتناسى الغدر وتناسك وقال : يا أبا سلمة ؛ كَبُرت كلمة ؛ غيبة الأصحاب والنميمة بين الأحباب ، وساءت حركة ، وبئست ملكه تناسى الحقوق وتحاشى العقوق،

---

(١) الموطأ ، مفعول من وطىء ، ورجل موطأ أى سهل الأخلاق كريم مضياف ، والموطأ على الإطلاق عند العلماء يعنى موطأ الإمام مالك بن أنس الذى جمع فيه سنن المصطفى ﷺ .

(٢) كشف .

وإطراح جانب الصديق الصدوق والرفيق الشفوق وإضاعة خدمة الخديم؛ لاسيما النديم القديم ، ولم تزل الأصاغر تستمطر مراحم الرؤساء والأكابر ، ولم تبرح الملوك تعطف على مسكينها الصعلوك أنسيت ما قلت لك فى حقيقة من ملك وهو :

لَيْسَ المَلِيك الَّذى تَشْقَى رَعِيتَه وَإِنَّما المَلكُ مَوْلَى يَحْفَظُ الخَدَمَا

وأيضا لم تزل الأصحاب تساعد أصحابها ، وتستعطف عليها ملوكها وأربابها وترفع بحسن السفارة من ستائر الدهشة حجابها ، ويثبتون بذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم والثناء العاجل والجزاء الآجل فى صحائف مخاديمهم ، ويعدون ذلك أربح معاليمهم ويبذلون فى ذلك الجهد ويبلغون فيه غاية الكد . وذلك مما يجب عليهم ويتقدم بالمحافظة عليه إليهم كما قيل :

يَسْتَعْطِفُونَ الأَكَابرَ يَسْتَعْبِدُونَ الأَصَاغِر
يُحِيُونَ رَسمَ الأَوَائِلِ يُعَلِمُونَ الأوَاخِرَ

وأى فائدة واستفاده أيها الوزير أبا قتادة فى رعية ملك لا تتفق قلوبهم ، ولا تُسْتَر بينهم عيوبهم ، ولا تطهر بالصفاء جيوبهم ، ولا تتجافى عن مضاجع الجفاء جنوبهم ، ولا يتساوى فى الوفاء حضورهم وغيوبهم ، تراهم فى الغيبة يفت بعضهم فتاً ويرعون لحومهم قتا[١] كبهائم لاقت فى مرعاها قتا[٢] ، وفى الحضور تحسبهم حميعا وقلوبهم شتى . ثم إن كان أخو نهشل يساعد أخاه أبا نوفل ، فذاك شيء يجب عليه ويندب إليه ، فإنه صاحبه القديم وجليسه القويم ، وإن تخلى عنه فماذا يرجى منه ، وحجر النوائب هو محك الأصحاب ، وجمر المصائب يظهر من تبر الصداقة اللباد، . وقد قام فى هذه

---

(١) القت : الكذب .

(٢) القتا : نبات له حَب يؤكل ، والواحدة : قتة .

النوائب بعدة أشياء كلها عليه واجب ، أولها : القيام بحق أخيه والسعى فى خلاصه من هذا الأمر الكريه . ثانيها : ساق إلى صحائفى الحسنات وقصد لى رفع الدرجات . ثالثها : طلب رضا خاطرى وما يشرح صدرى ويَسُرُّ سرائرى . رابعها : مباعدتى عن الآثام وخلاص ذمتى من الوقوع فى الحرام، فربما يحملنى العنود والخلق الشرود على التعدى فى الحدود . خامسها : اشتهار اسمى بالفضل وعدم المؤاخذة بالعدل ، فيشيع فى الآفاق عنى مكارم الأخلاق . سادسها : انتشار صيتى بحسن الوفاء والقيام بحقوق الإخوان وعدم الجفاء . سابعها : إنه غرس فى قلوب الأماثل محبته وزرع فى أرواح الأفاضل مودته ، وإن كان صدر من أبى نوفل ما صدر فإنه اعترف بالذنب وعنه اعتذر ، فنعمل معه بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر كما قيل :

اقْبل مَعَاذِير مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِراً   إن بَرَّ عِنْدَكَ فيما قَال أو فَجَرَا
فَقَدْ أطَاعَكَ مَنْ أَرْضَاكَ ظَاهِرُهُ   وَقَد أجَلَّكَ مَنْ يُعْصِيكَ مُستَتِرا

ولو بلغت هذه الحكاية غاية الشر ونهاية النكاية ما تدنى واقعة الملك الصافح عن عدوه المؤذى السافح ؛ فقبل الدب الأرض ، وقام فى مقام العرض ، وسأل الملك بيانها ؛ ليعلم بحس التصريف فرزانها ويقيس عليها أوزانها .

[٣٧] **فقال** : ذُكِر أن بعض السلاطين تصدى له عدو من الشياطين ، يحرض عليه الأعادى ويفسد عليه الحاضر والبادى ، ويجتهد فى إقامته ومسيره فى إزالة الملك عن سريره ، ويغرى به العساكر فيقابله ظاهرا بالنواكر وباطنا بالمواكر ، وما فسد منه ما فسد إلا بدواعى الحقد والحسد ، فجعل الملك يسترضيه بالهبات فلا يرضى ويستدنيه بالصلات فلا تزيده صلاته إلا بعدا ونقضا كما قيل :

إلى كَمْ يُدارى القَلب حاسد نعمةٍ   إذا كان لا يُرضيهِ إلا زَوَالِهَا

فاضطر الملك من أموره ، واشتغل لإيقاعه بنذوره ، وجعل ينصب له شرك الوقائع ويجتهد فى إيقاعه بكل دان وشاسع ، وذلك الباغى أحذر من الغراب ، وأسهر من طالع الكلاب ، والملك لا يقر له قرار ولا يطيب له عيش لا بالليل ولا بالنهار . فكان من أحسن الاتفاق أن علق ذلك البغى ببعض الأوهاق(١) فحمل إلى حضرة الملك وهو فى قيد البلاء مشتبك . فلما رآه فى قيد النكد بادر إلى الأرض فسجد ، وقال : الحمد لله المغيث حيث أمكن منك أى خبيث ، أترى هذا فى المنام ، فهو أضغاث أحلام ، أم سمح الزمان بأهل العدوان وأنا يقظان ، ثم شرع فى السَّب والتجديع(٢) والتوبيخ والتقريع ، وأقسم بفالق الإصباح وخالق الأرواح والأشباح ليفعلن بذلك النباح من النكال والجراح ما فعل المصطفى عليه الصلاة والسلام مع سرّاق اللقاح(٣) ، وليذيقنه كأس الباس وليجرعنه من خمر المنية أمر كاس .

ثم أمر الجلاد أن يأتيه بماله من النطع(٤) والسيف والعتاد ، فعلم ذلك الزنديق أنه وقع فى الضيق وأنه لا ينجيه أخ ولا صديق ، ولا افتداء يشقق ولا حميم وشفيق ؛ فضلا عن مال ومنال أو خيل ورجال . فلما غسل يده من العيش استهوته الخفة والطيش فشرع فى السباب ودخل فى الشتم من كل

---

(١) الأوهاق ، مفردها الوهق : حبل يُطرح فى عنق الدابة وتُشد منه .

(٢) أى عيَّبه .

(٣) سرّاق اللقاح : هم أناس من قبيلة عُرينة كما جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى : باب أبوال الإبل والدواب (٢٣٣) عن أنس قال : قدم أناس من عُرينة ، فاجتمعوا المدينة فأمرهم النبى ﷺ بلقاح (الإبل) وأن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا : فلما صحُّوا قتلوا راعى النبى ﷺ ، واستاقوا النَعم . فجاء الخبر فى أول النهار ، فبعث فى آثارهم . فلما ارتفع النهار جيء بهم ، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا فى الحرّة يستقون فلا يسقون .

(٤) النطع : بساط من الجلد يشد تحت المحكوم عليه بقطع الرأس أو اليد .

باب، ورفع بفاحش الكلام الصوت وقال ما بعد الموت موت . فسأل الملك أحد الوزراء ماذا يقول من الافتراء هذا الظالم المجترئ الباغى المفترى ؟ فقال : يدعو بدوام البقاء ، ورفعة مولانا الملك والارتقاء ، ويقول : ما أحسن العفو عند المقدرة واللطف والكرم أيام الميسرة ، وإن لم يكن ثم مجال للمعذرة ولو جعل العفو شكر المقدرة لكان أولى وأعلى مقاما فى مكارم الشيم وأحلى كما قيل :

مَا أَحْسَنُ العَفْو مِنَ القَادِرِ   لا سِيَمَا لِغَيْرِ ذِى نَاصِرِ

ويترحم على أسلاف مولانا السلطان ؛ الذين كان شيمتهم العفو عن ذوى العصيان ، وكان ذلك منتهى لذتهم وغاية أمنيتهم ، وما أجدر مولانا الملك أن يحيى مكارم سلفه ويجعل العفو كلمة باقية فى خلفه ، ولازال يقول من هذا المقول حتى لان له القلب القاسى ورق له قلب الملك الجاسى[(١)] ، فأمر بإطلاقه ومَنَّ عليه بإعتاقه وكان أحد الوزراء وأركان الأمراء شخص يعاكس هذا الوزير ويناقضه فيما يراه ويشير ، وبينهما مرت أسباب عداوة أحلى فى مذاق طبعهما من الشهد والحلاوة ، كل مترصد للآخر زلة متوقع لإيقاعه فى شبكة البلاء غفلة ، فحين رأى شقة الحال نسجت على هذا المنوال وجد فرصة للمقال فتقدم وقال : ما أحسن الصدق وأيمن كلام الحق ؛ خصوصا فى حضرة المخدوم وهذا أمر معلوم ، عدو مبين وحسود مهين لم يترك من أنواع العداوة شيئا إلا تعاطاه ، ولا من الإفساد والشر صنفا إلا هيأه، قد أهلك الحرث والنسل وبدل جنتى الصلاح من الفساد بخمط[(٢)] وأثل[(٣)] إلى أن أمكن الله تعالى منه ، وحان تفريغ الخواطر الشريفة عنه . ثم إنه فى

---

(١) القلب القاسى .

(٢) الخمط هو شجر الأراك وهو شجر فى طعمه مرارة .

(٣) الإثل : نوع من الشجر يشبه شجرة الطرفاء خشبه صلب تصنع منه القصاع والجفان.

مثل هذا المقام بين الخواص والعوام يثلب الأعراض من الأمـراض ، ويجهـر بالسوء من القول ، ويصرف فى الخنى[١] والسب ماله من قوة وحول ، كيـف يحل السكوت عن جرائمه وتغطية مساويه وعظائمـه ، فضلا عـن أن تتجلـى سيئاته فى خلـع الحسنات ، وتتحلـى شـوهاء سـواخط أدعيتـه بملابـس أحسـن الدعوات ومع هذا يطالب له التوقع والخلاص والإطلاق من شرك الاقتنـاص، وهو على ماهو عليه من الإساءة المنسوبة إليـه . أما واللـه يـا مولانـا الهمـام وسلطان الأنام ما قال إلا كذا كذا من قبيـح الكـلام وتنـاول العـرض المصـون بالسب والدعاء والملام فتغـير خـاطر الملـك وتعكـر وتشـوش صـافى خـاطره وتكدر .

ثم قال : أيها الوزير ذو الصدق فى التحرير والله وحقك إنَّ كِذْبَ هـذا الوزير عندى خير من صدقك ، فإنه بكذبه أرضانى وإلى طريق الحق هدانى، وأصفى خاطرى من الكـدر ، وأطفأ مـا كـان تلهـب فـى غيظـى مـن شـرر ، ونجانى من دم كنت أريقه ولا يهتـدى إلـى كيفيـة استحلاله طريقـه ، فـأصلح بذلـك ذات البيـن وأصـار المتعـاديين أحسـن محبيـن ، وخلـد ذِكْـرِى بجميـل الصفات ، وسلك بى طريقـة أجـدادى الرفـات[٢] ، وأمـا أنـت فكدرت عيشـى وآثرت غضبى وطيشى وأسمعتنى الكلام المُرَّ وقد مسنى الضر ، وأما أنا فقد أعتقت هذا وأطلقته فلا أرجع فى إيذائه وقـد أعتقتـه ، وقـد ثبـت لهـذا الوزيـر علىَّ حقوق لا ينكرها إلا ذو عقـوق ولا تسعها الأوراق والرقـوق[٣] ، فكذبـه عندى خير من صدقك ، وباطله أحلى علـى قلبـى مـن حقـك ، ولهـذا قـال ذو الأفضال : ما كل ما يعلم يقال .

---

(١) الفحش فى الكلام .

(٢) الأموات السابقين .

(٣) الرقوق ، مفردها رق : الورق والصحف .

وإنما أوردت هذا الكلام يا كرام ؛ لتعلموا أن السلطان بمنزلة الإمام ، وأركانه له تبع فى القعود والقيام ، ولا يتم الائتمام إلا بالاتفاق بين الرفاق ، فإذا كان الجماعة مجمعين طائعين لإمامهم مستمعين ، استقام القيام وانتهوا من جميل التحيات إلى السلام ولا يقع لهم انتظام مع مخالفتهم لحال الإمام ، هذا قائم وهذا قاعد وهذا راكع وهذا ساجد وهذا نائم وهذا هاجد . وأيضا السلطان بمنزلة القلب والرأس ، وبمنزلة الأعضاء رؤساء الناس ، وباقى الرعية خدم للرأس والأعضاء ، منتظرين لما تبرز به المراسيم من الزجر والإمضاء ، فإذا اتفقت الأعضاء واصطلحت ، انتظمت أمور كل من الرأس والرعية وانصلحت ، وإذا وقع اختلاف وتباين فى الأعضاء صار كل من الرأس والقلب والرعية مَرْضَى . ولقد صدق من قال وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرضى : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[1] .

وخلاصة هذا الكلام : إن قصدى أن تكون أحوال رعيتى على النظام لا يقع بينهم شقاق ولا تنافر ولا نفاق . وأما أبو نوفل فيكفيه حياؤه وخجلته ، فقد انتهت وتمت عقوبته ، وأخذ حدَّه حدَّه ، ولا يليق بكرمي أن أرده ، وهذا الذى ورثته عن أسلافى وهو الحق اللائق بمحاسن شيمى وأوصافى .

فلما سمع الوزير هذا الكلام وجرح فؤاده هذا الملام ، ندم غاية الندم ، وعلم أنه قد زلت القدم ، وأنه لا حاجته قضى ولا على صديقه أبقى ولم يستفد مما أبداه من فجْم[2] ؛ سوى إظهار معاداة أبى النجم ، وإنه إذا تخلص من حبسه وكربه ورجع عند الملك إلى منادمته وقربه لابد أن يتصدى لمعاداته وسلبه ولا يفيده بعد ذلك أفعاله ولا يسمع فى أبى نوفل أقواله . فانصرف من

---

(١) حديث أخرجه البخارى : كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره (٤٨١) .

(٢) غلظة وعداوة .

عند الملك الطيثار[١] لا يدرى أين يضع قدمه من الافتكار ، حتى وصل إلى منزله ، واختلى فى فكره بعمله وفرغ للمخلص من هذه الورطة طرقا ، وتفرقت رواد أفكاره فى منازل الخلاص فرقا ؛ فأدى نصيب الرواد من الأراء ومفيد القصاد من الشورى إلى السعى فى مصالحة أبى نوفل ، وإزالة ما وقع من الغبار فى وجوه الصداق وتخال ، ثم أدى افتكاره واروى من زند رأيه شراره إلى أن الذى وقع منه قد اشتهر وعلم به أصحاب البدو والحضر، فإذا طلب من بعده الصلح فذلك فى غاية القبح إذ كل من فى حجره حجز يتحقق أن ذلك خور وعجز . فصار يتردد بين هذه الأفكار ويتأمل ما فيها من تحقيق الأنظار وتدقيق الأسرار . فبينما هو فى بحر الافتكار يلطمه الموج ويصدمه التيار ، دخل عليه صفى له صافى الوداد ، وهو ظبى أغر يدعى مبارك الميلاد ، ذكى الجنان فصيح اللسان دقيق النظر عميق الفكر ذو رأى صواب وشفقة كاملة على الأصحاب فرآه مطرقا إلى الأرض فى فكر ذى طُولٍ وعرض ، فسلم عليه وتقدم بالسؤال إليه عن نشور باله[٢] وتوزع حاله، فطلب الوقوف على ما ناله لينظر عاقبة أمره ومآله ، فأخبره بموجب ذلك وأنه قد سدت فى وجهه المسالك .

فقال مبارك الميلاد : يا صحيح الوداد أنت قد زعمت أن مولانا السلطان قد ترك أبا نوفل الندمان وطرحه اطراحا لا رجعة فيه ، وإنه بعد اليوم لا يذكره ولا يدنيه ، وإن عثرته لا تُقَال وغصته لا تزول وقصته لا تزال ، هيهات هيهات يا أبا الترهات ، الملوك إن لم يعرفوا حقوق خدمهم ولم يثبتوا فى ديوان إحسانهم قدم قدمهم ؛ خصوصا هذا الملك العظيم الذى أنفاس شيمه تحى العظم الرميم ، ونحن قد زجَّينا[٣] عمرنا فى خدمه وأذاقنا برد

(١) الطيثار : من أسماء الأسد ، ومعناه الشجاع .
(٢) التفرق والتشتت .
(٣) أى رمينا بعمرنا فى خدمته .

عفوه وحلاوة وكرمه وغذاء أرواحنا إنما هو غوادى حلمه وروائح نعمه ؛ مع أن أبا نوفل لم يقع فى محذور معضل يوجب تناسى ذممه وابتذال حرمته وحرمه وإنه استغفر وأناب واعتذر وتاب .

واعلم أيها الوزير الأكرم إن ذوى النهى والحِجْر إذا أرادوا الشروع فى أمر تأملوا فى مبداه غايته ومنتهاه ، وهذا التقرير كالجلوس المقصود من عمل السرير ، فإنما تنبعث لصنعته النفوس إذا علمت بحصول الرفعة عليه من الجلوس كما قيل :

فَإِيَّاكَ والأمر الَّذى إِنْ تَوَسعتَ مَوَارِدهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مصادرُه

أما بلغك يا أخى وأكرم سخى ، حكاية التاجر البلخى . قال الوزير فأخبرنى بكيفية هذا التنظير .

[٣٨] **قال مبارك الميلاد** : بلغنى من أحد العباد الذين طافوا البلاد ؛ أنه كان فى مدينة بلخ[١] تاجر كثير العروض والمتاجر ، عريض المال والجاه، غزير الضياع والمياه ، تكاثر نقوده الرمال وتباهى خزائنه معادن الجبال، وتفاخر جواهره دُرر البحار وتسامى بضائعه تلال القفار ، تراجع عنه الحظ وعامله الزمان بعادة طبعه الفظ ، وأدبرت عنه من الدنيا القوابل ، ونزلت بساحة موجوده بالإعدام النوازل ، وولت وفود معايشه فكادت تقد السلاسل، فصار كلما عامل معاملة انعكست عليه حتى نفد جميع ما بين يديه . فلم ير لنفسه أوفق من التغرب عن وطنه والإقامة فى سكن غير سكنه ، فأخذ بعضا من المال وخرج من بلاد الشرق إلى بلاد الشمال ، وداوم فى الأرض على

---

(١) بلخ : مدينة قديمة فى أفغانستان من المدن التاريخية الهامة على ملتقى خطوط القوافل التجارية بين إيران والهند دخلها الإسلام فى القرن الأول الهجرى وأصبحت عاصمة خراسان لاسيما فى عهد السلاجقة . معجم البلدان (٢٠٩٦) .

الضرب حتى انتهى إلى بلاد الغرب ، فأقام بها دهرا يتعاطى معاملة وتَجراً، إلى أن زاد ماله وأثرى ورجع إليه بعض ما ذهب من يديه ، ثم اشتاق إلى بلده ورؤية زوجته وولده ، فتجهز إليها وسار حتى نزل عليها ، وأراد الدخول إلى داره فأوقفه مشيرا افتكاره إلى إعمال النظر فى حادث القضاء والقدر وأنشده الزمان بلسان البيان :

لِلكون دائرة مِنْ قَبْلِنَا صَنَعَتْ لا بى تضيق ولا مِنْ أَجْلِكَ اتسعتْ
والسر فى جَيْبِ غَيْبِ اللَّه مكتتم فَلستَ تدرى يد التَّقْدِير ما صنعْت

فرأى أن يدخل متنسيا متنكرا متخفيا ، ويتوصل إلى داره ويتجسس أحوال كباره وصغاره ، وما حدث عليهم من الحوادث وتقلبات الزمان العائث، فتوجه لما أظلم إلى داره وهو يترنم :

باللَّهِ قُلْ لِى خَبَرك فَلِىَ زَمَان لَمْ أرَك

إلى أن وصل إلى الباب وما عليه حاجب ولا بواب ، فرأى الباب مقفلا والقنديل عليه مسبلا ، وكان يعرف للسطوح دربا خفيا فاستطرق منه وارتفع مكانا عليا ، وأشرف من الكوة(١) ، فرأى ربة البيت المرجوة فوق سرير الأمان ، معانقة فتى من الفتيان ، كأنهما لفرط العناق كانا ميتين من ألم الاشتياق ، فبعثهما قيامة التلاق فتلازما والتفت الساق بالساق ، ولسان حال كل منهما يروى عنهما :

عَانَقْتُ مَحْبوبَ قَلْبى حِيْن وَاصلنِى كأنّنى حَرْفُ لام عَانَقَتْ أَلِفَا

فتبادر إلى وهلة لغيبوبة عقله ؛ أن ذلك الشاب الظريف معاشر حريف، أفسد زوجته مغتنما غيبته ، وأنه فى تلك الليلة استعمل قوله :

لا تَلْقَ إلاّ بليلٍ من تواصله فالشمس نمامة واللّيل قوَّاد

(١) الكوّة : الفتحة فى الجدار أو السقف .

فسل السكين وقصد قتل ذلك المسكين وصمم على النزول إلى البيت وإثارة الفتن بكيت وكيت ، ثم استتاب وهلة واستراب عقله ، وأخذ يتفكر ويتأمل ويتدبر أحوال قرينته وأ با في العفة مجبولة من طينته ، وإنه لم يعلم عليها إلا الخير وعدم ميلها عن خلالها إلي الغير ، فطلب قبل الفضيحة لزوجته طريقة مندوحة ظريفة ممدوحة ، فإن مدة غيبته طالت وزوجته إن كانت حالتها حالت فلابد أولاً من الوقوف عليها كيف استحالت ، ثم كف عن الذبح ونزل عن السطح ، وقصد جارة داره ودارة جاره ، وطرق بابها واستنبح كلابها، فخرجت إليه عجوز كانت إلي داره تجوز ، فسألت من هو وما مراده ومن أين إصداره وإيراده .

فقال إني رجل غريب ليس لى بهذه البلدة خليل ولا قريب ، وبلادى أرض مكة كنت أتردد إلى هذه السكة ، وأعامل التجار وكان لى فى هذه المحلة مجير وجار من التجار الكبار ، كنت آوى إليه وأنزل قدومى عليه ، اسمه فلان وقد مر علينا زمان ، وعاقنى عنه نوائب الحدثان ، والآن قدمت إلى هذا المكان وقد قصدت داره ولا أدرى أى جراد عاره ، ولم أعرف خبرا ولا رأيت عيناً ولا أثراً ، فهل تعرفين كيف حاله ، وإلى ماذا آل مآله .

فقالت : نعم زالت عنه النعم وألجاته الحال إلى الترحال فرحل منذ سنين وكنا في جواره من الآمنين ، وانقطع عنا خبره وعن زوجته عينه وأثره، وطال عليها منظره فدعتها الضرورة والإعدام إلي عرض حالها على الحكام ، فأذن لها قاضى بلخ فى إبطال نكاحها بالفسخ ، ففسخت نكاحها وأعتدت ، وطلبت نصيبها واستدت ، ولقد أوحشنا فراقه وألمنا اشتياقه ؛ غير أن زوجته قامت مقامه وأفاضت علينا إحسانه وإنعامه ، وهى متشوقة إلى رؤيته متشوقة إلى مطالع طلعته ، متلهفة على أيام وصاله ، متأسفة على ترشف زلاله . فلما وقف علي صورة الحال ؛ سجد شكراً لله ذى الجلال وحمد لله على الثبات في مثل هذه النائبات .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم فضيلة التأمل في المآل ، والتفكر في عواقب الأحوال .

قال الدب : دعنا من هذا الكلام والأخذ فى الملام ، واسعدنى في التدارك فإنك نعم المشارك قبل انفلات العنان وإنقلاب الزمان ، وخروج زمان التلافى من أنامل الإمكان ، وانتقال حل عقدته من اللسان والبنان إلى الأسنان.

فقال مبارك الميلاد : الرأي عندى يا أبا قتاد ؛ المبادرة إلى الصلح والإصلاح ليحصل النصح والفلاح والأخذ في المصافاة ، وسلوك طريق الموافاة ، والعمل به باطناً وظاهراً والاستمرار عليه أولاً وآخراً ، ومحو آثار العداوة وتناسي أسباب الجفاء والقساوة ، واستئناف المودة الصافية والمحبة الوافية ، وصرف القلب نحو دروس فقه الحلة الشافية والكافية ، حتي يقول من رأى وسمع : الحمد لله آلت العاقبة إلي العافية .

ثم أعلم أنه لا يصفو لك صاحب وخاطرك عليه للتكدر مصاحب ، ولا يخلص لك صديق ولبن خلوص محبتك إياه مذيق[1] وقاطع بغضك في الطريق وشوك سعيك راكب التعويق ، والقلوب في المحبة تتجازى إن حقيقة فحقيقة وإن مجازا فمجازا ، وكل شيء بمقدار وميزان وكما تدين تدان ، وقلما تجد من تحبه ويبغضك ، وتُربِّه ويرفضك وتصفو له ويتكدر ولا تتغير عليه ويتغير ، ودونك يا ذا الكرامات ما قال صاحب المقامات[2] :

وَكلتُ للنَخْل كَمَا كال لي ... على وفاء الكيل أو بَخْسِهِ

---

(١) الودُّ لم يخلص فيه .

(٢) صاحب المقامات هو أبو محمد القاسم بن على بن عثمان الحريرى البصرى ، أحد أئمة عصره ، ورزق الحظوة التامة فى عملة المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فى لغتها وأمثالها ومَنْ عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة إطلاعه . سير أعلام النبلاء (٤٧٠٧) .

وقال من أحسن المقال :

والعَيْنُ تَعْرِفُ من عيني مُحَدِثِها إنْ كانَ مِن حزبها أو مِنْ أعَادِيْهَا

وأنا ما أقول هذا الكلام إلا من قول خير الأنام عليه أفضل التحيات وأكمل السلام : «الأرواح أجناد مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[١] . وإنما يقع التعارف من الجهتين والتناكر من الطرفين ، ولا تغالط نفسك وتكابر حسك أن يحبك من تكرهه ، ويزينك من تشوهه ، ويقربك من تقصيه ويقيمك من ترميه ، ويرفعك من تضعه ويأخذ بيدك من تدفعه ، كما قيل في الأقاويل :

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار إحسان

واعلم أن أغلب الإخوان فى هذا الزمان مسلوب الإنسانية ، وإن كان فى زى الإنسان من أحسنت إليه أساء ومن ترفقت له قسا ، ومن نفعته ضرك ومن أمنته غرك ، ومن سكنت أوامه[٢] بزلال فضلك جَرَّك ، وقد أفاد صاحب الإنشاد :

جَزَى اللَّهُ عنَّا الخَيرَ مَنْ لَيْس بيننَا ولا بَيْنَهُ ودّ ولا تَعَارف
قَاسَمنا خسفاً ولا شَفْنا أذى من النَّاسِ إلاَّ مِنْ نود ونألف

وإذا كان هذا فيمن تحسن إليه وتسبغ ملابس أفضالك عليه ، فكيف يكون حال من تضمر له النكال يتمنى وقوعه في شرك العقال ، أنَّى تراه يصفو لك ويتقاضى سؤالك ومأمولك ، وهو مترقب غيله غولك[٣] ، متوقع منك أن يصير مقتولك ، فماذا عسي أن تبلغ منه سؤالك ومسؤلك ، أو ترى من محبته ومودته مأمولك ومحصولك .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم : كتاب الأدب ، باب الأرواح جنوده مجندة (١٥٥ ، ١٥٦) .
(٢) ألم الرأس .
(٣) مقتل وهلاك .

وإنما أوردت هذه المقامات وإن كانت من فضلات علمك ، ورشحات قلمك أتتنا متقدمات ؛ إلا لتعاطي أسباب الصلح أولا في نفسك ثم تستعمل الوسائط فيه من أبناء جنسك ، فينتج المقصود ويصفو الوِرْد المورود كما قيل:

فَإنَّ القُلوبَ مَرائي الصِفَات كَمَا السَّيفُ مِرآة وَجْهِ الذَوَات

قال الدب : أنا ألقى فى هذا المقام لنيل هذا المرام إلي يد تدبيرك، واكتفي فى وعى رياضه برائد رأيك وتقديرك ، فإن فكرك نجيب وسهم رأسك مصيب ، فافعل ما تختار وأذقنا من رائق رأيك المشتار(١) .

فقال : تقسم أولا باللطيف الخبير إنك أصفيت الضمير من الغش والتكدير ، وكرعت من وارد الصفاء الزلال النمير(٢) ، ونَفَضْتَ يد المحبة والإخاء من علاقات البغضاء والشحناء حتى يجيب دَعْيِي ولا يخيب سعى ، وأبذل مجهودى فى نيل مقصودى ، وأبنى على أساس وأسلك مع الناس مسلك الناس ، فبادر باليمين إلى اليمين وأشهد عليه الكرام الكاتبين ؛ أنه صقل مرآة محبته عن صدأ المداهنة ، وجلا طريق مودته من غبار المباينة ، وإنه يكتفى من غدير الغدر بما جرى ويطوى حديث الشحناء فلا سمع الواشى بذاك ولا درى ، فليبذل مبارك الميلاد جهده فى السعى فى إصلاح الفساد ، وعقدا على ذلك العهد .

وتوجه مبارك الميلاد من بعد ، وقصد منزل أخى نهشل فرآه فيمن ثار همومه فى مشغل ، وقد غرق فى بحرالأفكار هائما لا يقر له قرار ، فسلم عليه وتقدم بالسؤال عن حاله إليه وآنسه بالمحادثة وذكر له الدهر وحوادثه ، وتذاكر ما وقع من الدب ، وكيف أظهر نواقض الحب وبارز بالعداوة وأبرز

---

(١) القاطع .
(٢) العذب .

بأدنى حركة موجبات القساوة . ثم أخذ أخو نهشل فى العتاب وفتح لمبارك الميلاد من جهة صاحبه وعتابه الباب ، فاعترف عن صاحبه بأن الظلم فى جانبه ، وأنه كان حاصل له من الوهم الكاذب ما أورثه الوقيعة فى جانب الصاحب ، وإنه ندم على ذلك واعترف بأن فعله حالك ، ولم يسعه إلا الاعتذار وجبر ما وقع لأبى نوفل من الانكسار ، بالسعى فى مساعدته والقيام معه فى جماعته ، والتوجه إلى حضرة المخدوم ، والتلافى بمرهم التصافى ما سبق من جراحات الكلام والكلوم(١) .

ثم إذا حصل من الخواطر الشريفة الإغضاء ، وأثمر فى رياض العفو لجانى الخَدَم فواكه الرضاء ، يستأنف شوق المحبة عقود المبايعة ، ويروح تاجر الصداقة على مشترى الحشمة فى مظان رغباتهم بضائعه إلى أن يتزايد الوداد ويتأكد بين الجميع عالم الاتحاد ، فانهض يا رئيس الأصحاب وأنيس الأحباب :

فَالعُمْرُ أَقْصَرُ مُدة مِنْ أنْ يُدَنَّس بالعِتَابِ

ثم نهضا جميعاً وأتيا أبا نوفل سريعاً ، فوجداه فى أحرج مكان وأوهم زمان محفوفاً بالأحزان مكنوفاً بالأشجان ، وما حال من جفاه أحباه وأقصاه مولاه وصار وهو جانٍ غريمه السلطان . فلما سلما عليه وجلسا إليه ، واعتذر مبارك الميلاد بعد إظهار تباشير الوداد أن موجب تقصيره فى السؤال عنه وتأخيره أن قلبه الوامق(٢) وطرفه الوادق(٣) لم يطاوعا على رؤيته فى تلك الحال ، ولا سمحت قدمه بالتقدم إليه وهو مشغول البال ، ثم تفاوضا فى أسباب الصلح وقصد أبواب النجح ، فتجاذبوا أطراف الطرائف وتفكهوا على

---

(١) الجروح .
(٢) المحب .
(٣) كثير الدمع .

موائد التحف واللطائف ، ومازالوا ينسجون خلع الوفاق ، ويمزقون شقق الشقاق إلى أن أنعقدت أهداب المحبة والوداد ، وانحلت عقود الحقود والكباد[1] ، وتحقق كل أحد من كبير وصغير ومأمور وأمير وجليل وحقير بحصول المودة بين النديم والوزير :

ولمَا أنْ تَراءى الفَجْرُ يَحْكِي جبين الحُبّ وَرَأى اللبيب

توجه الوزير ومبارك الميلاد وأخونهشل ورؤس الأجناد مع سائر الأمراء والوزراء والأعيان والكبراء ، حتى انتهوا إلى السدة العلية والحضرة الملكية السلطانية ، فقبلوا أرض الطاعة ووقفوا فى مواقف الشفاعة ، ونشروا من الدعاء والثناء ما يليق بجناب الملوك والعظماء ، وذكروا النديم أبا نوفل بما يستعطف به الخاطر المفضل ، حتى عطفت عليه مراحمه وانمحت من جريدة الانتقام جرائمه ، وسمح بإحضاره لديه ليسبل ذيل الكرم والعفو عليه ، ثم يشمله ثوب الرضا وخلع العفو عما مضى .

فأسرع نحوه البشير بما اتفق من الجماعة مع الوزير ، ثم وصل القاصد وهُوَ لَهُ مراصد ، فتوجه منشرح البال منبسط الآمال ، حتى دخل على حضرة ذى الدولة والإقبال ، وقبل الجدالة[2] ووقف فى موقف الخجالة لا يرفع طرفاً ولا ينطق حرفاً ، فرسم بالتشريف والخلع ؛ ليرفع عنه التخويف والهلع ، فتضاعفت الأدعية الصالحة والأثنية الفاتحة :

بغَاديةٍ مِنْ ذِكْرِهِ قَدْ تمسكت بطَيب ثَنَاء يحيى الزَمَان وَرَائِحِه

وأقيمت حرمته واستمرت عليه وظيفته . ثم إن الملك إنتقل من المجلس الغاص إلى مجلس خاص ، واجتمع بالخواص وعم الخطاب لكل ناص ومحدث وقاص .

---

(١) المشقة والشدة .

(٢) الجدالة : ذو الخلق الحسن .

فقال : ليعلم الوزير والنائب والأمير والحاجب ، والصديق والصاحب ، والجندى والكاتب ، والمباشر والحاسب ، والراجل والراكب ، والآتى والذاهب، وليبلغ الشاهد الغائب ، إن مقتضى الرياسة فى الشرع والسياسة على ما قدره حكماء الملوك وسلكوا بعباد الله تعالى أحسن السلوك ، إن كل واحد من الغنى والصعلوك ؛ لاسيما من له من الأمر شيء أو نوع مباشرة على ميت أو حى له مقام معين لا يزايله ، ومكان مبين لا يقابله قال الحى القيوم ذو الملك الديموم حكاية عن متصرفى ملك الديموم ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات :١٦٤] . وعلى هذا جرت سنته وورد كلامه وعلت كلمته وبه أمر الشرع .

والإنسان مُدَنِّى بالطبع ، فالواجب على كل من أقامه الله فى خدمة ملك ولاَّه أو سلطان عـلاَّه : أن يلزم مقامه ويلاحظ فى صف جماعته إمامه ، ويراقب ما يصدر عنه ، فقد قيل : إياك وما يعتذر منه . فإذا رام أن يتكلم بكلام يحضره الإمام أو بحضور أحد من الخواص والعوام ، يسير كلامه أولاً بمسبار التفكير ، ويعيره بمعيار التأمل والتبصر ، ثم يسبكه فى بوتقة الفصاحة، ويسكبه فى قالب الملاحة ، ويصوغه بآلات حسن الانسجام ، ويرصعه بجواهر مقتضى المقام ، فإذا صيغ على هذه الصياغة وقعدت على سبكه نقوش البلاغة ، وأخرج له غواص الفكر من بحر المعانى والبيان فرائد أفكار لم تظفر بها أصداف الآذان ، وخرائد[1] أبكار لم تفترعها فحول الأذهان ، إزدانت بها من حور جنان الجنات ومقصورات خيام الدهور والأزمان آنسات لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فاختلب ببهائه القلوب والأرواح ، واستلب بروائه الأموال والأشباح ، واستمال الخواطر وسحب الأيادى المواطر[2] وصار له الدهر من بعض رواته وأشناف ما يرويه عنه

(١) أى جديدة لم يسبقه إليها أحد .

(٢) الممطرة بالخير ، الكريمة .

معلقة بآذان نياته ، وإن وقع والعياذ بالله منه ما يورث الندم والحزن ، وأخرج سهم الكلام من قوس العجلة لا اكتال ولا اتزن ، حصل فى سوق ظاهره وباطنه الغبن[1] والغين ، وأصابه ما أصاب نديم فغفور الختن ، فتنهض الجماعة وللأرض قبلوا وعن كيفية هذا الخير سألوا .

[٣٩] **فقال الملك** : ذكر المخبرون وأخبر المذكرون أنه فى قديم الزمن كان عند فغفور الختن ، ندمان كامل المعانى فى البيان ، ذو نعمة جزيلة وصورة جميلة وفضائل فضيلة ، مبرز فى العلم كامل المودة والحلم ، محبوب الصورة مشكور السيرة طاهر السريرة ، ثقيل الرأس خفيف الروح والحواس ، قد جال وجاب وبلا الأعداء والأصحاب ، وترشح لمنادمة الملوك والأمراء ، ومجالسة السلاطين والوزراء ، وهو خصيص بملك الختن والصين ، مقبول عند الملوك والسلاطين ، اتفق له فى بعض الليالى أنه كان عند جناب ملكه العالى ، وعنده جماعة من العلماء وطائفة من الأخصاء والندماء ، وهم يتعاطون كؤس اللطائف ، ويتواطؤن على ما فى الدنيا من طرف وطرائف ، ويتذكرون عجائب الأقطار ويشنفون المسامع بخصائص الأمصار .

فقال النديم : رأيت فى بعض الأقاليم من الأراضى الحامية والبلاد القاصية حيواناً كبيراً سريع السير ، متردداً شكله بين شكلى الجمل والطير يضرب به فى الدبدبة المثل فيتعاطى التعلل فى الكسل ، إن قيل له احمل يقول أنا طير ، وإن قيل له طر يقول أنا جمل ، وذكر أن اسمه النعام وسائر أوصافه وأعضائه على التمام .

فتعجب الحاضرون من هذه الصفات والأشكال البديعة والهيآت ، ثم

---

(١) الغيظ .

قال: وأعجب من هذه الصفات أن هذه الدابة تأكل الجمرات وتلتقط الحصيات، وتختطف الحديدة المحماة من النار تزدردها ولا يتألم لذلك فمها ولا جسدها ، وتذيب كل ذلك معدتها ولا يتأثر بها لسانها ولا ترقوتها ، فأنكر بعض الحاضرين هذا المقال لكونه لم يشاهد هذه الأحوال ، ولا رأى ولا سمع خبر طير يأكل النار ويبلع الأحجار ، ونسبوه إلى المخارقة فى الأخبار ، فتصدى لإثبات ما يقول بطريقى المنقول والمعقول ، فلم يسعف كلامه القبول على ما ألفته منهم العقول ؛ لأن الحيوانات بل وسائر الجمادات إذا اتصلت بها النار محت منها الآثار ، وهذا طير من الأطيار من لحم ودم فكيف لا تحرقه النار فاتفق الجمهور على تكذيب هذه الأخبار ، وقالوا المثل المشهور إنما هو موضوع على كل لسان الطيور فيمن تردد بين الأمور فيقال : الفقير كالنعامة لا يحمل ولا يطير . ومثل هذا المضرب يا شيخ المشرق والمغرب قولهم : طارت به عنقاء مغرب[(١)] .

فقال النديم الفاضل الحكيم : أنا رأيت هذا بالعين فلم يزدهم إلا تأكيد المَيْن . وقالوا قد غلطت ولزمت الغلط . فوقع من أعينهم بهذا الكلام إذ قالوا: هذا كذب وسقط .

فحصل لذلك النديم من الخجالة والندم أمر عظيم ، واستمر فى حَصْر[(٢)] حتى منعه السلطان من الدخول إلى القصر ، وصار بين الأصحاب يشار إليه بيا كذاب . فلم يسع ذلك الأستاذ إلا السفر من تلك البلاد والتوجه إلى العراق وبغداد وأخذ من طير النعام عدة واستعمل عليها رجالا مستعدة ، ونقلها إلى الصين فى عدة سنين تارة فى البحر وأخرى فى البر ، وقاسى أنواعاً من البؤس والضر ، وتكلف حملا من الأموال وتحمل مع المشاق مِنَن

---

(١) مثل يضرب للهلاك .

(٢) منْع .

الرجال(١) ، فما انتهى به السير ، إلا وقد مات غالب تلك الطير فوصل إلى حضرة ملك الخطا ، واشتهر فى المملكة أن النديم الفلانى أتى ، فاجتمع الناس لينظروا وأمر الملك للخاص والعام فحضروا وأحضروا النعام ، فى ذلك المحفل العام ، وطرح لها الحديد المحمى فخطفته والجمر والحصى فالتقفته ، فتعجب الناس لذلك وسبحوا الله مالك الممالك ، وعلم الصغار والكبار إنه يخلق ما يشاء ويختار ، فشمله الملك بمزيد الإنعام واعتذروا إليه عما مضى من ملام ، وزادت رفعته ونفذت كلمته إذ قد أثبت مدعاه ، وحقق بشاهد الحس معنى ما ادعاه ففى بعض الأوقات تذاكروا ما فات ، وانجر بهم الكلام إلى ما مر من حديث النعام .

فقال النديم : أيها الملك الكريم إنى تكلفت على هذه الأطيار كذا وكذا ألف دينار ، وقاسيت من المشقة فى الأسفار وعاينت من شدائد الأخطار ما لا تقاسيه عيدان النار ، واستمريت فى هذا العذاب الأليم المهين ، وفى سجن المشاق بضع سنين ، حتى بلغت تحقيق مرامى وتصديق كلامى ، ولولا عناية مولانا السلطان لما ساعدنى على مقصودى الزمان ولما زال عنى اسم الكذاب إلى يوم الحساب .

فتبسم السلطان وقال : لقد أتيت بمحاسن وما قصرت ولكن كما يحتاج فى إثبات تصديقها ، والخروج عن عهدة تحقيقها إلى صرف المال الجزيل، وتجشم مشقة السفر العريض الطويل ، وتحمل منن الرجال وركوب الأخطار والأهوال ، وإزعاج الروح والبدن وإضاعة جانب كبير من العمر والزمن، لأى معنى يتفوه بها العاقل ولماذا ينطق بها مستمع أو ناقل .

وإنما أوردت هذا المقول ؛ ليعلم أرباب المعقول ، من جلساء الملوك والعظماء ورؤساء الأمراء والزعماء ، خصوصا خواص القدماء وعوام الندماء ، إن شيئاً يحتاج فيه إلى تعب النفس وقيد ونكال وحبس ، ثم استعمال منن جماعة وأصحاب يتقدمون إلى الشفاعة ، لا ينبغى للعاقل أن يحوم حوله ولا يعقد أبدا عليه فعله وقوله .

---

(١) قوى الرجال .

فتقدم مبارك الميلاد وبذل فى أداء وظائف الدعاء الاجتهاد وقال : إنما كان عاقبة هذا الأمر وإطفاء نائرة هذا الجمر وأداؤه إلى انتظام عقود السعد ، واشتماله على جمع الخواطر من بعد بميامن الخواطر الشريفة وشرف ملاحظتها المنيفة ، وتوجه مساعدتها لخدمها وشمول عواطفها على عبيدها وحشمها ، وإقبال طالعها السعيد ولولا ذلك لما انتظم لنا شمل أيها العبيد، فالمنة فى هذا كله للصدقات الشريفة والجميلة لعواطف مننها المنيفة ونظير هذا الشأن ما جرى للخارج على الملك أنوشروان فسأل الملك المطاع عن هذا المضاع .

[٤٠] **فقال** : ذكر أهل التاريخ بأعالى الشماريخ ، أن كسرى أنوشروان جاهره أحد الملوك بالعصيان ، وانتدب لمحاربته طائفة من الأعوان فتوجه كسرى إليه ووثب وثوب الأسد الضارى عليه ، ورأى التوانى فى أمره والتأخير من جملة الاخلال والتقصير ، فقابله قاتلا وقاتله قائلاً :

إذَا استَحقَرْتَ أدْنَى مَنْ تُعَادِى   بمَالَكَ مِنْ يَدٍ ونَدَى وطَاقَة
فَمَا استَحْقَرْتَ إنْ أهْمَلْتَ إلا   أمُورَك وهُو ذا عينُ الحَمَاقَةِ

فلما تواقفا واصطدما وتثاقفا ، انكسر ذو الطغيان وانتصر أنوشروان وقبض على العدو وحصل الأمان والهدو وقص طائره وتفرقت عساكره ، وحمل وقد سيم خسفا وكسرا إلى الملك العادل كسرى ، فتقدم بالإحسان إليه وجعل العفو شكراً لقدرته عليه ، وبالغ معه فى اللطف والإحسان وأنزله عنده فى بستان ترتع[١] النزاهة فى ميادين رياضه ، وتكرع[٢] الفكاهة من رياحين حياضه ، وأفاض عليه من خلع الإنعام ، وإدرارات الفضل والإكرام ، ما أزال دهشته وأحال وحشته وأبدى استعباده ، وابعد استبعاده .

فلما حصل أنسه وهدأت نفسه أخذ فى تجيزه وابلاغه إلى مأمنه وتجهيزه فأبى إلا الإقامة ، والتلبث بدار الكرامة وسأل الصدقات ومالها من عميم الشفقات مجاورة محلها ، والإقامة تحت ظلها واغتنام مشاهدتها

(١) أقام وتنعم .
(٢) تمتد وتنتشر .

والتشرف بميامن طلعتها مدة أيام ، فإنها محسوبة من العمر العزيز بأعوام، فأجابت مسئولة واستنجزت مأمولة .

وكان فى ذلك البستان نخلة كنخلة مريم[(١)] قد يبست من الهرَم ولما تعاورتها يد القدم ، فلم تصلح إلا للضرم[(٢)] ، فأرسل يسأل الصدقات الجزلة أن تهبه تلك النخلة ؛ فاستزل كسرى عقله وأجاب قصده وسؤله وهبه تلك النخلة . فكان كل يوم يتوجه إليها ويسند ظهره ويعتمد عليها ، وهو فى أرغد حال وأيمن مآل ، فبعد عدة شهور طلب إلى التوجه الدستور ، فاستدعاه وأكرم مثواه وأجاب قصده ومتمناه وأسبغ عليه نعمه وفضله وسأله عن موجب سؤاله النخلة وسبب طلبه الإقامة ثم سؤاله التوجه بالسلامة .

فقال : أما سبب الإقامة بهذا البلد ؛ فلجوار مولانا الملك الأمجد والاستسعاد بمشاهدة وجهه الأسعد ، فإن طالعه قوى سعيد ومجاورته للسعادة تفيد ويحمل منها لمجاورها المزيد ، فأردت أن يكون منها نصيب ويلاحظنى منها سهم مصيب :

فَإنْ تَلَمَّمَ بِقَفْرٍ عَادَ رَوْضَاً وَإنْ تَمَرَّرَ بِمِلْحٍ صَارَ شَهْدَاً
وَإنْ يَخْطُرْ ببالك نَحْس نجم يَعد فِي الحَال مِنْ رِيَاكِ سَعْدَا

فصرت مشمولا بميامن ظلها مغمور بفائض وابلها وطلها[(٣)] . وأما طلبى النخلة اليابسة فإنى تفاءلت بها من حظى مساعدة ومناحسة ، فكنت أتردد إليها وأعول فى ذلك عليها ، فمادامت فى قحول كان جدى وسعدى فى نحول ، إلى أن رأيتها قد خضرت واطلعت واستبكرت فأقبل سعدى وحيًا وعاد بعد أن مات حيّاً ، وساقطت نخلة سعدى من ثمرات السعادة رطبا جنيا؛ فعلمت أن طالعى الهابط عاد إلى الأوج[(٤)] ، ورسول حظى دخل فى دينه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وهزى إليك بجزع النخلة﴾ [مريم:٢٥] .
(٢) الحطب يُرمى به فى النار .
(٣) أى لكثرتها وقلتها .
(٤) العلو والصعود .

ناس الإيناس فوجا بعد فوج ، وأرمل جدى ازْدَوَجَ ببكر الآمال وكان لها أحسن زوج ، كل ذلك أى أعظم مالك بسعد فالك وجوار دار جلالك ، ومشاهدة أنوار جمالك ، واستماع كلامك وانتجاع[1] كمالك ، فمن بعد إسعاد السعد كل سهم أمل فوقته ونحو شاكلة قصد أطلقته أصبت الغرض وحزت جوهره بلا عرض ، فإذا أسعف السعد النفس لايعيقها معه نحس .

وإنما أوردت هذا القول ياذا الكرامة والطَّوْل ؛ ليعلم الحضار والسادة النظار ؛ أن استقامتنا وإقبال سعدنا وانتظام أمورنا وجدنا ، إنما هو بالتفات الخواطر الشريفة ، وشمول أحوالنا بملاحظتها المنيفة ، واستدامة بركاتها وميامن حركاتها كما ، قيل فى ذا القبيل :

تَلْقَى الأَمَانَ عَلَى حِيَاض محمد ... تولاء مُخَرَفةٍ وَذَئب أطلس
لا ذى تَخَاف وَلا لهذا جَرَأة ... تَهْدِى الرَّعية ما استَقَامَ الرَيس

وكما أن الرعية لا يستقيم حالها إلا بالملك الراعى ، فإنها كالراعية لا ينتظم لها أمر إلا بالراعى كما قيل :

لا يُصلح النَّاسَ فَوضَى سراة لَهَا ... ولا سراة إذَا جُهَالهم سَادوا

وكذلك الملك يا ذا الدرجات العلية لا يصير ملكاً إلا بالرعية ، ولو لم يكن العاشق مشوقاً لم يكن المعشوق معشوقاً بالأمل مسوقا لم يصر الملك المأمول مرموقاً ، وقد عنى هذا المعنى من فى رياض المعانى أعْنى

فيك يهدى سماؤه ... كأعظمهم إذ من هو التعظما
فلا تحتقره إن تملكت فيه ... ملكا مفخما
ففى موقف العشاق منك وظيفة ... لكل فلا يبغى لها منقدما
وجد يليق بحاله ... وكل له حال يوافيك مغرما
ألم تر أن الله أوجد حكمة ... وبق وضيغما
وكل له نفع وضر مخصص ... فسبحان من قد خص طوراً وعمما

---

(١) الانتفاع منه .

تعالى لكمال قدرته وإسبال ذيل رحمته ، خلق الكبير الأعلى محتاجا لخدمة الصغير الأدنى ، وجعل الحقير الأدنى محتاجاً لرحمة الكبير الأعلى ، ولهذا أَعْظَمَ الخلْقَ من خَلَق الخَلَقَ ، وأحوج الخلقَ إلى الخلقِ وهو غنى عن الخلق .

وقيل أيها الملك السنى : الإنسان بطبعه مدنى ، وبمقدار كثرة الرعية وأشتراكهم فى الصفات المرضية ، وانقيادهم لأوامر ملكهم السنية تصير درجة الملك عليه كما كان فى زمن نبى الله سليمان صلوات الله عليه وسلامه وتحيته وإكرامه ، ولقد جرى فى عصره بين الطيور مفاوضة بين اللقلق(١) والعصفور فسأل ملك الآساد عن تلك المفاوضة مبارك الميلاد .

[٤١] **فقال** : بلغنى يا سلطان الأسود أن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام ؛ كان فى سيرانه مع خواص أركانه ، فمر بذلك الطلب على شجرة دلب(٢) للقلق ، فيها عش قد بناه كأحسن حش(٣) ، وقد استوكر فى عشه عصفور واحتمى بجواره من مؤذيات أبى مذعور(٤) ، فكانا يتخاصمان ويتقاولان ويتواصمان ويتصاولان ، فوقف النبى الكريم ، واستوقف الجند العظيم ليسمع ما يقولان وينظر كيف يجولان ، فسمع اللقلق يقول وهو يجول ويصول ويخاطب العصفور بمجمع من الطيور : أشكر لى حسن الصنيع حيث أنزلتك فى حصنى المنيع ، لا حية ترقى إليك ولا جارح ينقض عليك ، ولولا أن لك عندى مناخاً ما أبقيت لك الحية ذاتا ولا فراخا ، وإنما سلمتم بجوارى وبقربكم من دارى .

---

(١) اللقلق : طائر طويل العنق والرجلين ، يأكل الحيّات ، ومشهور بالذكاء ، وكنيته أبو خديج .

(٢) دُلب : شجر كبير ينمو على شاطىء النهر .

(٣) بستان .

(٤) أبو مذعور : من كُنى الطيور الجارحة .

فوثب أبو محرز وتوسط الجمع وهو يجمز[1] ونادى بين الأطيار : أنسيت أبا خديج أى جار وأنا فى المدار حول هذه الديار آناء الليل وأطراف النهار ، ألقط النمل الكبار والصغار ، ولولا أنا حارس مناخك ما أبقى لك النمل أثرا ولا لفراخك ، فكل منا محتاج إلى جاره مغتبط بجواره آمن به فى سربه ومطاره ، فارفع من بيننا هذا النكد ولا يمن منا أحد ، فالحقوق ما تضيع بين الجيران كما تراعى بين الأصحاب والإخوان ، وكما تدين تدان. ومع هذا فكلنا نصلى على نبى الله سليمان ملك الإنس والجان وسلطان الطيور وسائر الحيوان ، فإنه بحسن عدله اعتدل الزمان ، وبيمن فضله صلح الكائن والمكان ، ونحن أيضاً كذلك نشكر الله رب الممالك إذ مَنَّ علينا بهذا السلطان المالك ملك الوحوش الأكابر وكاسر السباع الكواسر ، المشفق على الضعفاء والأصاغر ، فلم يخل من فضله له سبع ولا طائر . ثم نهضوا فوقفوا ودعوا الملك وانصرفوا

هذا آخر الباب والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

(١) يستهزىء .

الباب السادس

فى نوادر التيس المشرقى

والكلب الإفريقى

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ مَنْ ماء معارفه غير آسن ، ومن لممدود أرض الفضل من فضائله رواس[1] ، وفي مشحون بحر العلم من فواضله آمن : فابتهج الملك لهذا الكلام ، وارتاح لما تضمنه من الحكم والأحكام وأستزاد أخاه من عقود هذا النظام ، فقبل الأرض فى مقام الخدام .

[٤٢] **وقال** : بلغنى يا ملك الأنام ، أن راعيا يرعى ثلة من الأغنام وحميلة من المعز الجسام وفى ماشيته تيس مطاع كلهم له أتباع ، وهو قديمها وقائدها وزعيمها وأبو نتاجها وحمو نعاجها ، وأصله من الشرق لم يكن بينه وبين إبليس فى الشيطنة فرق ، اسمه الذميم التيس الزنيم ، وكان بواسطة الفحولة والكبر والتقدم فى الحضر والسفر يستطيل ويصول ، وينطح الكباش والوعول ، ويكسر أصحاب القرون من الفحول ، فيجرح ضعيفها ويطرح نحيفها ، ويضرب بخالصها لفيفها؛ إلى أن أباد أعيانها وأعجز رعيانها وطال منه العقوق ، فخرج به صاحبه إلى السوق ليبيعه ويستريح ويخلص الماشية من شره ويريح .

فبينما هو يطوف إذ قابله قصاب مخوف طويل القامة كبير الهامة، كأنه زبنى القيامة ، شثن اليدين[2] أزرق العينين ، بثوب وسخ وطرطور سنخ[3] ، وسطه محزوم بسير مبروم ، فصدف الراعى وهو فى السوق التيس ، وقال : بكم هذا يا أبا الكَيْس ؟ فوقع بينهما الاتفاق ، ووقع الزنيم فى شبكة الرباق[4] ونظر إلى القصاب[5] وصورته القاضية بالعجاب ، فرأى رجلاً كأنه من الشياطين معلقاً فى وسطه عدة سكاكين ، فدخله الرعب ورجَف من الرهب ، وأدرك بالفراسة أنه سيهلكه ويحذف رأسه ، وقال ظنى والظن يخيب

---

(١) أى فضائله ثابتة راسية .

(٢) غليظ اليدين .

(٣) متسخ .

(٤) الربقة : العروة فى الحبل . والمعنى شبكة الصياد .

(٥) الجزار .

ويصيب: إني وقعت مع هذا فى يوم عصيب ، وأنه قاصد هلاكى ومقيم علىَّ البواكى ، فالأولى الاحتراز والتأهب قبل زمان الجزّاز ، فإنَ حصل خير فما فى الاحتراز ضير ، وإن وقع على الإهلاك العزم ، فأتلقى بما أعددته من ترس الحزم ، فوزن الجزار الثمن وشحط الزنيم بالرسن ، وأتى به مطابخ فقطعها إلى مسالخ[1] فشم رائحة لزهومه[2] وأحس من الجزار نكده وشومه .

فلما دخل المسلخ ورأى القصابين هذا يذبح وهذا يسلخ ، واللحم شقات على الجدران معلقات ، وأنهر الدماء كدموع العشاق جارية ، وروس الغنم وجلودها وأكارعها كل كاشية[3] ، هذه الكاشية فى ناحية وهذه الكاشية فى زاوية، فرجف قلبه وازداد رعبه والتجأ إلى الله تعالى وتاب عما عليه من الذنوب مالا . فما واطأ القصاب المصارع أن شد من المشرقى الأكارع وجدله على الجدالة ، وأخرج لذبحه الآلة . فلما رأى هذه الحالة تحقق ما كان ظنه فاستحضر باله وأيقن أنه هالك لا محالة ، فنظر إلى القَصاب وذكر ما قيل فى حق الساب :

نَظَروا إِلَيكَ بِأَعيُنٍ مُحْمَرَةٍ نَظرَ التِيُوسِ إِلى شِفارِ الجَازِرِ

فوجد السكين كليلة ليس للذبح بها حيلة ، فطلب المسن ليحدها ويريح ذبيحته إن حدها ، فتركه وذهب للمُسِنّ ، وقد تحقق الزنيم ما كان ظن ، فتنفس له البلاء وارتخى عنه عقد الفضاء ، فتمطى فى رباط الأكارع فمزقه بحبل قاطع ثم وثب وقصد الهرب وخرج من الباب وصاحوا عليه هراب ، فلم يلتفت إلى الصوت ، وفر فرار من عاين الموت ، وطلب الخلاء وطريق الفضاء .

---

(١) مسالخ ، مفردها مسلخ : وهو مكان ذبح وسلخ الذبائح .

(٢) الزهم : رائحة اللحم السمين المنتن ، والمعنى أى تخيل نفسه بعد ذبحه وتعليق لحمه.

(٣) أى كل قطعة على حدة .

فأدى به الذهاب إلى بستان بجوار بيت القصاب فدخل البستان وامتد فى الجريان ، والقصاب وراءه بهيئته المهولة والسكين فى يده مسلولة ، وكان قبل هذا الزمان بين زوجة القصاب وصاحب البستان ما يكون بين الحرفاء والأخدان(١) ، وكانت كلما وجدت فرصة جعلت للبستانى من نفسها حصة ، تنزل من بيتها إلى بيته ، وتغمس سراجها من فتيلة قنديله وزيته ، فاتفق أن فى تلك الحال طلب كل من المحبين الوصال ، وكان زمان اشتغال اللحام بالمعاملة مع الخاص والعام ، فلاشتغال وهله لا يتردد فيه إلى أهله ، فاغتنمت الزوجة غفلة الرقيب ونزلت من بيتها إلى بيت الحبيب ، فكان المحبان آمنين وقد تعانقا تحت دوحة ياسمين ، فاتفق أن الهارب من الموت ودواهيه أخذ على مكان هما فيه والقصاب يتبعه رافعا يده والسكين فى يده مجردة ، فلم تشعر إلا وزوجها رافع الصوت واقف على رأسها وبيده آلة الموت ، وما شعر بدواهيهما حتى عثر عليهما ، فقفز كلاهما من مكانهما مفتضحين فى مكانهما ، فاشتغل القصاب بنفسه ، والتهي بنعجته عن تيسه، وكان الناس تابعيه فوقفوا على ما وقع فيه ، وقامت الغوغاء وقعدت للعار من البلاء فتفرس النجاة من الردى ، فلم يزل فى ميدان الجرى ذاهلا عما جرى؛ حتى وصل إلى ثغرة خرج منها إلى الصحراء فانقطع عن ذلك الجنى تابعه، ولم يوجد من شياطين الإنس رائيه وسامعه ، فانتهى به التسيار فى تلك الصحارى والقفار إلى جبل فأوى فيه إلى غار كان يأوى إليه مع المواشى أوان الأمطار ، فأمسى فيه تلك الليلة إلى وقت الأسفار :

فَلَمَا رَأَىَ اللَّيلَ العَبُوسَ صَنِيعه   تَبَسَمَ فَافتَرَقَتْ تَبَاشِيْر فَجْرِهِ

فلما أصبح الصباح خرج إلى السَّراح وهو فى نشاط ومراح ، وجعل يرتاد أنيساً ليكون له جليساً ، أو رفيقاً صالحاً أو صديقاً ناصحاً ، يتأنس به فى

---

(١) أخدان ، مفردها خدن : الحبيب والصاحب .

الغربة ويمسح بأنامل مؤانسته ثقل الكربة ، وما يحصل على جبين راحته من عرق القربة ، وبينما هو ينشر البيداء ويطوى إذ سمع نباح كلب يعوى ، فترجى الخير وزوال الضير ، ثم قصد نحوه فرآه مقبلا من فجوَةَ ، فناداه أهلا بأحب الأحباب وأعز الأصحاب المفضل على كثير ممن لبس الثياب .

فلما دنا منه بادر إلى عنقه وتباكى لأليم فراقه ، فتعانقا تعانق المحبين وتباثا مباثة من مضه البين[1] ، ثم قال له : اعلم يا لطيف الحركات وكثيف البركات ، إن كلاً مِّنا غريب ، وكل غريب للغريب نسيب ، وأنا قد تفرست فيك وما تكاد فراستى تخطيك ، إنك رفيق صالح وشفيق ناصح وأحسن مليح ممالح ، وفى طريقه إخوان الصفاء قيم وراجح ، وإن كانت الجنسية بيننا مختلفة ، لكن القلوب بحمد الله تعالى مؤتلفة ، وكم لك من أياد سابقة ، وصدقات متناسقة ، وكم حططنا فى المراعى وبتنا فى الحظائر نائمين ، وأنت تحفظنا ساعى تحرسنا من الغداة إلى الرواح ومن المساء إلى الصباح ، فأخبرنى ما شأنك وأين مكانك وما اسمك وما صنعك ورسمك ، ومجيئك من أين وما حاجتك فى البين[2] ؟ .

قال أما اسمى فيسار ، وأما مكانى فبلاد التتار ، وصنعتى راعى ، وسبب مجيئى ضياعى ، ولى صاحب اسمه أقرق من دشت قفجاف بن شقرق. كنت فى خدمته راعى ماشيته ، فأضللت رعيتى وضيعت حق حرمتى، فإذا أطلب ولى نعمتى لأمحو من وصمة الجفاء سيمتى[3] ، فهذا شأنى وجل بغيتى .

قال الزنيم : أنا من حين شاهدت فى وجهك الأنوار ، علمت أنك يسار

---

(١) أى تلاقا وتعانقا مَنْ آلمه الفراق .

(٢) أى وما حاجتك يا زين الناحية ؟ .

(٣) وصفه ونعته .

وإنك معدن الذكاء والألقاب تنزل من السماء ، وأما طلبك لصاحبك ورعيتك فإنه على كمال مروأتك ولا ينكر لك الرفاء(١) ، فإن بينك وبينه الوفاء مقام الصدق والصفاء ولم يقع بينكما قط بعد ولاجفاء ، وشهرتك بحمد الله بجميل الصفات التى قلما تجتمع فى زكى الذوات ، ولا تصفو إلا للأولياء والبررة المبرزين الأصفياء من المسكنة والقناعة والجراءة والشجاعة وحفظ العهود والوفاء وكسر النفس والصفاء ، وعدم الحقد والحسد وإطراح العُجب والنكد والحراسة والسهر وقيام الليل إلى السحر ، والتودد إلى الناس حتى قال فيك ابن عباس : كلب أمين خير من صديق خوّن(٢) . وعندك من التهذيب وقبول التعلم والتأديب ما يصير صيدك مذكى وسنك كالشفرة مزكى ؛ وفى شأنك يا ذا الوفاء والمنفعة قال الحارث بن صعصعة :

وَمَازَال يَرْعَى ذِمَتى وَيَحُوطَنِي ... وَيَحْفَظُ عُرْسِى وَالخَلِيل يَخُون

فَيَا عَجَباً لِلنَخْــلِ يَهْتِكُ حُرْمَتِي ... وَيَا عَجَباً لِلكَلْــبِ كَيْفَ يَصُون

ومن هذا الضرب ما رواه أحمد بن حرب(٣) عن ذى العتاب منادم الكلاب، أن الكلب يكف عنى أذاه ويكفينى أذى سواه ، ويشكر قليلى ويحفظ مبيتي ومقيلى ، فهو من بين الحيوانات خليلى . ثم قال أحمد بن حرب : تمنيت والله أن أكون مثل هذا الكلب ، لأحوز هذه الصفات وأرقى هذه الدرجات .

وأرجو الله تعالى أن يعطفك على ويقلب قلبك ووجهك إلى ، بحيث

---

(١) الصلاح والوفاء .

(٢) خائن .

(٣) أحمد بن حرب : هو ابن فيروز ، الإمام القدوة ، شيخ نيسابور ، كان من كبار الفقهاء العباد ، من تصانيفه كتاب (الأربعين) وكتاب (عيال الله) توفى سنة ٢٣٤هـ سير أعلام النبلاء (١٨٣٥) .

ترغب فى صحبتى وتميل إلى صداقتى ، فترى إذ ذاك مِنِّى بحمد الله تعالى من الأخوة والصداقة والمروأة والرفاقة ما تنسى به كل صديق ، وتفضل به الصاحب الجديد على العتيق ، فتترك سائر أصحابك وتلتهى بى عن أعز أوليائك وأحبابك ؛ خصوصاً بنى آدم الذين أنت بهم أعلم ، من أذهبت عمرك فى خدمتهم والقيام بحقوقهم وحفظ حرمتهم ، وحراسة مواشيهم ودورهم وكمال فضلك فى حياطة بيوتهم وقصورهم ، ورعاية رعيانهم وصيانة أهلهم وجيرانهم، مع قناعتك منهم بما يفضل عنهم من كسرة خبز شعير أو عظم يابس أو فضلة مرقة قدير ، وإضاعتهم حقوق خدمتك ونسيانهم موجبات شفقتك، حتى لو وصل فمك إلى زادهم أو إلى شيء من عتيد عتادهم ، رموك بالحطب ورضُّوا[1] رأسك بالحجارة والخشب ، ولو ولغت[2] فى إنائهم أو شربت من مائهم ما قنعوا فى تنظيفه وتطهيره وتشطيفه بمرة ولا مرتين ولا اكتفوا فى إزالة لعابك بالعين ، بل دونوا الغسل بالحساب وعفروا الوعاء بالتراب[3] ويعدون ذلك من التعبد ولا يرعون مالك من تحبب وتودد . وأنا أرجو أن ترتفع منزلتك وتعلو درجتك ويساعدك رب العرش حتى تسير سلطان السباع وملك الوحوش ، وأجتهد فى هذه القضية إلى أن أبلغ هذه الأمنية ، وأكون السبب فى ذلك إلى أن تصير رئيس الممالك ، فإن لك على حقا قديما وفضلا جسيما طالما نمنا آمنين فى ظل حراستك ، ورعينا مسرورين مكنوفين بحياطتك وأجلنا منك فى الخاطر ما قال الشاعر :

بَقَاؤك فِينَا نِعْمَةَ اللَّه عِنْدنَا   فَنَحْنُ بأوفى شُكْرَها نَستَدِيمَهَا

---

(١) أى كسروا رأسك .

(٢) أى شرب مافى الإناء بأطراف لسانه وحركه فيه .

(٣) حديث ولوغ الكلب فى الإناء : أخرجه الإمام مسلم : كتاب الطهارة ، باب حكم ولوغ الكلب (٩٤) وفيه : ((إذا ولغ الكلب فى الإناء فأغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة فى التراب)) .

قال يسار: يا أخي جميع ما قررته صحيح مقبول ، داخل في الفضل خارج عن الفضول ، ولكن أنا من جنس السباع مجبول على ما لهم من الطباع ، ومع هذا فأنا عدوهم ، وبسببي يزول هدوهم ، وأنا لم أعادهم إلا فيكم ولا لي واد إلا في ناديكم ، فإن تربيني وبينكم وعيني مقارنة عينكم ، وأنا إليكم أقرب مني إليهم ، ومعولي عليكم دون معولي عليهم ، وعلى هذا وجدت آبائي وأجدادي ونشأت من حين ميلادي ، والخروج عن طريقة الإباء دليل على العقوق والآباء وهو أمر مذموم وهذا شيء معلوم ، وقد قال صاحب الشرع : «الحب يتوارث والبغض يتوارث»[1] ولكن يا سليم الطباع وخصيب الرباع ، قولك : تصير سلطان السباع سخرية مني واستهزاء ، ولا أستحق منك هذا الجزاء ، فإن معنى هذا القيل أمر مستبعد مستحيل ، إن أبا طاهر نجس العين فأني من أين ، وهذا الهوس من أين ، فإن أردت إعانتي على ذلك وتكفلت لي برياسة الممالك ، فكلانا في هذا الهوى سواء ، وإن صممنا على ذلك فما لجنوننا دواء ، وهذا الوسواس من خيالات الإفلاس ، وفي مثل هذا الحال قال من صدق في المقال : لا خيل عندك تهديها ولا مال. وأنا أعلم إنما تتكلم بما يطيب خاطري ويسر سرائري ويقربك في الحب من ضمائري .

قال المشرقي : لا تقل ذلك يا تقي ، فأنا شاهدت في جبينك مخايل السيادة ومن شمائلك تقاطر السعادة ، وقد قيل يا فضيل : المرء يطير بهمته كما يطير الطير بجناحه . أما بلغك يا خير عالم ما رواه علاء الدين بن غانم ذو الفضل الكثير عن تاج الدين بن الأثير ، قال يسار أخبرني بهذه الأخبار.

---

(١) حديث ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٦٨٢) بنحوه ، وعزاه للديلمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

[٤٣] **قال** : قال ابن الأثير[١] ؛ وهو بالرواية خبير ، مجزر أيدى المعاني عن الأمير حسام الدين البركة خانى قال : كنت فى عصر الشباب أصحب من صالحى الشباب الملك المظفر قطز[٢] ، الغضنفر ، وكان خشداشى[٣] وبرؤيته انتعاشي، فكنا ونحن صبيان كأننا ظبيان ، غير أنا كنا فى قلة ، فكنت أفلى قمله وأسرح رأسه وأذهب يأسه ، وتقدمت إليه بالشرط عليه أن يعطينى لكل قملة فلسا ، أو أصفعه صفعة ملسا[٤] ، ففى بعض الأوقات أخذت عنه قملا كثيرا وصفعته صفعات ، وقلت فى غضون ذلك ونحن فى حال حالك : أتمنى على الله عز وعلا أن يعطينى أمرَة خمسين رجلا .

فقال لى : طيب خاطرك وسر سرائك ، فإنى أبلغك سؤالك ، وأعطيك مسؤلك وأجعلك أمير خمسين فارسا فأبشر ولا تكن عابسا ، فصفعته صفعة وقلت : ويلك أنت تعطينى إمرة ورفعة . قال : نعم وأغمرك بالنعم فصفعته أخرى وازددتُ نكرا .

فقال لى عله ونخس المسلة : يا قليل اليقين أتريد شيئاً غير إمرة خمسين ، أنا والله أعطيك وأعليك على ذويك ، فقلت : ومن أين لك تعطينى وترضينى .

فقال أملك هذه الديار ، وأكسر التتار وأحل الكفرة والعلوج[٥] دار البوار .

---

(١) ابن الأثير : هو عز الدين على مؤرخ كبير من آثاره الكامل من التاريخ .

(٢) الملك المظفر قطز قاصم التتار وصاحب موقعة عين جالوت .

(٣) رتبة عسكرية .

(٤) خفيفا .

(٥) العلوج ، مفردها العلج : الرجل الضخم القوى من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً .

فقلت له : يا مفتون أنت مجنون أبقملك وقِلّك وفقرك وذُلّك تملك الديار المصرية ، وتصير سلطان البرية .

قال نعم ولا تعمل زعم ، فإني رأيت في المنام النبي عليه الصلاة والسلام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتر ، ولا شك فيما يخبر به النبي ﷺ من خبر .

وقال : فأمسكت عنه ، لأني كنت أعرف الصدق منه ، ثم تنقلت به الأحوال وتنقل إلى أن بلغ الكمال ، وتملك هذه الديار ثم كسر على عين جالوت التتار[1] ، وأعطاني ما وعدني به وأرضاني .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم أن سلطنتك غير محال ، وأنا أرجو الله تعالى أن ييسر لي القيام بجميع ما قلته يا إمام ، وأنا أجلسك على السرير، وأقيم في خدمتك الكبير والصغير ، وأرفع راية مراسيمك ، وأنفذ أوامرها في ممالكك وأقاليمك ، وأجعل جنود الوحش تحت رايتك ، وأقاليم القفار كلها تحت ولايتك ، ولكن بشرط أن تتبع ما أراه ولا تخرج عن طوره ولا تتعداه ، وتعمل بكل ما أشير إليه ومهما أرشدتك إليه تُعوِّل عليه .

فقال : أنا طوع يديك وجميع أموري منك وإليك ، فقل فإني سامع ولأمرك طائع ، فانهض وعاني هذه الأماني ، عسى يصير هذا الباطل حقا وينقلب هذا الكذب صدقا وقل ما تقضيه لأتبعه وأرتضيه .

قال : ترجع عما أنت عليه من من الأخلاق السبعية ، والأوصاف الكلبية من الحرص والشره والتكلب والتره[2] والنفس المتمردة والطبيعة

---

(١) عين جالوت : هي موقعة انتصار المسلمين بقيادة السلطان قطز على جيوش التتار ، وهو مكان في فلسطين قرب الناصرة . معجم البلدان (٨٧٠٦) .

(٢) الباطل .

المذمرة[1] ، وتصوم عن الدماء واللحوم وعن تمزيق الحيوانات وتفريق الجماعات ، وتحمل النفس على الأخلاق الجميلة والتلبُّس بالأوصاف الفضيلة من العفة والكرم والعفو عمن ظلم ، والقناعة بالنبات عن لحوم الحيوانات ، ومعاملة الكبير والصغير بالفضل الكثير والبذل الغزير ، وتلافى الخطير والحقير ليسهل العسير وينقاد لك المأمور منهم والأمير ، وهذا أمر عليك يسير ، وهذا لأنك طالما جرحت جوائحهم[2] وكسرت جوارحهم ، واصطدت سارحهم وأبدت بارحهم ، فهم منك متخوفون وإلى الإيذاء والضر منك متشوفون .

وإذا رأوا شيئا خلاف العادة ، وعلموا أن ولايتك فيها الحسنى وزيادة ، وأصابوا الخير من مواقع الضير ورأوا ماسرً من مواضع الشر والضر ، تشرب محبتك منهم الكبير والصغير، وأنهاك أن يراك من الوحوش العير والنفير فيتخذك الغريب حبيبا ، ويصير البعيد منك قريبا فتصيد بالمحبة أرواحهم كما كنت أو لا تبيد أشباحهم[3] ، وإذا ضرب صيتك فى الأرض ونثر دره بالطول والعرض ، وتسامعت بك الوفود وتحققوا أنك عدلت عن خلقك المعهود ، أقبلت إليك منهم الجنود وزان جيد جنودهم من مجوهرات محبتك عقود ، وانعقدت بينكم بالمحبة والولاء عقود العهود فتوفرت إذ ذاك جنودك ، وعلت على رؤس الأقران راياتك وبنودك[4] ، وجعلوا دارك مأواهم وحماك مصيفهم ومشتاهم ، مع إن هيبتك فى قلوبهم مركوزة وأسنة مخافتك فى أحشائهم من قديم الزمان مغروزة ، وأعلى من فيهم يهابك ويخشاك ويتوقى مكانك ويتحاشاك .

---

(١) الجريئة .
(٢) أى بليتهم وأهلكتهم . والجائحة البلية والتهلكة .
(٣) الأشباح ، مفردها شبح : الجسد .
(٤) شروطك .

قال يسار : اعلم يا خير سار إن حبال الآمال ومطامع الخيال ، مالم تتعلق بمأمول ، ولم ترتبط بأطراف سول ؛ فالنفس ساكنة والروح مطمئنة هادئة والقلب فرح والخاطر منشرح ، إذ الطمع ذل وشين ، واليأس إحدى الراحتين ، ومتى تعلقت بذيل المطامع مخاليب الآمال ، وبلغت إلى حصول مأمول الخيال وقامت النفس فى تحصيله وتحركت الجوارح لنيل مأموله ، وانبعثت الهمة إلى إدراكه ، وتعلق القلب بسير أفلاكه ، توزعت الأفكار وتفرقت وتمزعت وركب لذلك كل صعب وذلول ، وتقاذفت النفس فى كل مخوف ومهول ، وتقلدت بحمائل قول القائل :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللَّه لِلْفَتَى فَأَوَّلُ ما يَجْنِى عَلَيْــهِ اجْتِهَـادُهُ

ثم إذا لم يحصل المأمول ولم تبلغ والعياذ بالله النفس السول ، مع بذل الجهد والمبالغة فى السعى والكد ومقاساة ومعاناة النصب ؛ ترادف النكد وتضاعف السهد ، وصارت النفس لهذا البدد وكان فى جيد حياتها من فوات المقصود حبل من مسد ، فلا تزال بين تشويش ضمائر وتقسيم خاطر وفكر غائب وهم حاضر ، وهذا الأمر الذى عزمت عليه وهممت بالترقى إلى الوصول إليه ، إلى عدم الحصول أقرب منه إلى الوصول ، وأنا أخاف وذا غير خاف أن يغرنا الطمع فى هذه الحركة فينتزع من فراغ أوقاتنا البركة ، ولا نحصل إلا على مثل ما حصل لمالك الحزين من السمكة : قال الزنيم : نبئنى أيها العليم بذلك المثل القويم .

[٤٤] **قال** : بلغنى إنه فى مكان مكين مأوى لمالك الحزين ، وفى ذلك المكان غياض وغدرات تضاهى رياض الجنات :

حكَى بأنَّها قَد الحَبِيْب تمايلاً فجن وفى هذا الجَنون تفننا
فَدَارَ عَلَيْهِ النَهْر وَهُوَ مسلسل فَقَيده إِذ قَد جُنى وتَجَنَّنَا

وفى مياهه من السماك ما يفوق سابحات السماك ، فكان ذلك الطير فى دعة وخير ، يزجى الأوقات بطيب الأقوات ، وكلما تحرك بحركة كأن فيها بركة ، حتى لو غاص فى تلك البحار والغدران لم يخرج إلا وفى منقاره سمكة .

فاتفق فى بعض الآناء تعسر عليه أسباب الغذاء ، وارتج لفوت قوته أبواب العشاء ، فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسد الرمق من القوت فلم يفتح عليه بشيء من أعلى السماك إلى أسفل الحوت ، وامتد هذا الحال عدة أيام وليال ، فخاض يوما فى الرقراق[١] يطلب شيئاً من الأرزاق، فصادف سمكة صغيرة قد عارضت مصيره فاختطفها ومن بين رجليه التقفها، ثم بعد اقتلاعها قصد إلى ابتلاعها ، فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها فى رمسها ، فنادت بعد أن كادت أن تكون بادت ما البرغوث ودمه ، والعصفور ودسمه . اسمع يا جار الرضا ومن عمرنا فى صونه انقضى : لا تعجل فى ابتلاعى ولا تسرع فى ضياعى ؛ ففى بقائى فوائد وعوائد عليك عوائد ؛ وهو أن أبى قد ملك هذا السمك فالكل عبيده ورعيته وواجب عليهم طاعته ومشيئته، ثم إنى واحد أبوى وأريد منك الإبقاء على ، فإن أبى نذر النذور حتى حصل له بوجودى السرور ، فما فى ابتلاعى كبير فائدة ولا أسد لك رمقا ولا أشغل لك معدة فتصير مع أبى الفضيل كما قيل : فافقرنى فيمن أحب ولا أستغنى ، فالأولى أن أقر عينك وأعرف ما بين أبى وبينك ، فأكون سبباً لعقود المصادقة وفاتحاً لإغلاق المحبة والمرافقة ، ويتحمل لك الجميلة والمنة التامة والفضيلة .

وأما أنا فأعهدك إن أعتقتنى ومننت وأطلقتنى ؛ أن أتكفل لك كل يوم بعشر سمكات بياض سمان ودكات[٢] ، تأتيك مرفوعة غير ممنوعة ولا مقطوعة ، يرسلها إليك أبى مكافأة لما فعلت بى من غير نصب منك ولا وصب[٣] ولا كد تتحمله ولا تعب .

---

(١) الماء الرقيق فى البحر والوادى .
(٢) مستسلمات ذليلات .
(٣) تعب .

فلما سمع البلشون[1] هذا المجون ، أغراه الطمع فما ابتلع فسها ولها ، ثم قال لها : أعيدنى هذه الرمزة ، فبمجرد ما فتح فاه بالهمزة أنملصت السمكة منه بجمزة[2] ، وغاصت فى الماء وتخلصت من بين فكى البلاء ، ولم يُحصّل ذلك الطمَّاع إلا قطع الأطماع .

وإنما أوردت يا ذا الدراية هذه الحكاية ؛ لتتأمل عقبى هذا الأمر قبل الشروع فيه ، وتتدبر منتهى أواخره فى مباديه فقد قيل : أول الفكر آخر العمل .

قال المشرقى : اعلم يا مرتقى إن مبنى الأمور فى مجاريها ، وقواعد ما أسس عليه مبانيها تقدير خالقها وتدبير باريها ، وما حكمه وقضاه وأحكمه وأمضاه ، لكنه كتمه وأخفاه فلا تدركه العيون والأبصار بل ولا البصائر والأفكار ، فإنه علم غيب وجهلنا به ليس بعيب ، لأنه تنزه أحدا صمدا قال تعالى ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً** ﴾ [الجن:٢٦] . كما قيل :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ... وليس عليه أن يساعده الدهر
فإن نال بالسعى المنى تم أمـــره ... وإن غلب المقدور كان له عذر

وإن الله العلى الأعظم قد وضع أساس بنيان العالم على الأسباب ، وفتح لتعاطى الأسباب الأبواب فقال ذو الجلال ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩] . وقال ﴿**فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ [الملك:١٥] . وقال القائل:

إذا ما كنت فى أمر مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
يرى الجبناء أن العجز حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى شىء حقير ... كطعم الموت فى شىء عظيم

---

(١) البلشون : طائر طويل العنق والجناحين والساقين يُعرف بمالك الحزين وهو يقعد بقرب المياه فإذا نشفت ظهر كئيباً .
(٢) أى بحركة سريعة إلى الوراء .

وقال عليه الصلاة والسلام : ((علو الهمة من الإيمان))(١) . والمرء يسعى فى تحصيل مرامه ، ولا يترك شيئاً من أسباب قيامه ، فإن ساعده القدر بقدره انقاد إليه مرامه بشعره ، وكان مصادمه مساعده ومقاومه معاضده ، كما قيل :

وإذا أراد الله نصرة عبده كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكون والمكان ويمضى سهم أوامره رامى القضاء من قوس الزمان ، فيقيض له المساعد ، ويتعبد له المقارب والمباعد ، وحسبك يا ذا الصولة ما اتفق من السعد لعماد الدولة(٢) فسأله يسار عن سرد هذه الأخبار.

[٤٥] **قال** : كان رجل صياد له ثلاثة أولاد كأنهم حَمَك(٣) وقوتهم السمك ، تقلبت بهم الأحوال حتى صاروا برياستهم على الدنيا أحمال وانتهوا فى الرياسة ، وساسوا الخلق أحسن سياسة ، وانتشر أمرهم وطاب فى الدهر ذكرهم ، ومما ملكوه العراقان(٤) ، والأهواز(٥) ، وفارس وسرتها شيراز(٦) .

---

(١) حديث : ((علو الهمة من الإيمان)) .لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من المصادر ، ولكن فى معناه ذكر العجلونى فى كشف الخفا (٣٣٥/٢) ولفظه : ((همة الرجال تُقلع الجبال)) . وقال الشيخ : لم أقف عليه .

(٢) أبو الحسن على بن بويه ، عماد الدولة من مؤسس دولة بنى بويه بفارس ، استولى على شيراز سنة ٩٣٤هـ وحكم فارس حتى وفاته عام ٩٤٩هـ .البداية والنهاية (٢٣٥/١١) .

(٣) الحمك : الصغير من كل شىء .

(٤) العراقان : اسم أطلق سابقا على الكوفة والبصرة ، وأيضاً على العراق الحالى (العراق العربى) والجبال (العراق العجمى) .معجم البلدان (٨٢٦٨) .

(٥) الأهواز : مدينة فى جنوب إيران وهى عاصمة خوزستان . معجم البلدان (١١٦٣).

(٦) شيراز : مدينة فى جنوب إيران بجبال زاجروس . معجم البلدان (٧٣٨٦) .

أكبرهم أبو الحسن علـى بن بويـه ، الملقب بعمـاد الدولـة . وكـان فـى السلطنة ذا جولة وصولـة . ولمـا انتهـت أيـام خمولـه واتصـل بالسـعد أسـباب وصوله ، حل ركابه بشيراز وصعد إلـى حقيقـة الملـك مـن المجـاز ، ووفـدت عليه الوفود وأحاطت به جمـوع الجنـود ، وطالبـه أهـل المراتـب بـالرواتب ، والروامـك بـالجوامك[1] ، والرفـاق بالإنفـاق ، والأجنـاد بالأرفـاد ، وأربـاب الولايات بالخلع والجرايات ، وأصحاب الإقامـات بالنفقـات والإنعامـات ، ولـم يكن فى خزائنه من ظاهر المال وباطنـه ، ولا فـى ذخـائره مـن ظـاهر الرفـد وضمائر ما يسد رمقهم ويرد شَرَقِهم ، فتراكمت همومه وتصـادمت غمومـه ، وتوالت أفكاره وتجاذب به من بحر الحيرة در دوره وتيـاره ؛ لأن أمـره كـان فى مباديه وليل سـعده فـى هواديـه ، وقـد قصـرت عـن طـول الطـول أياديـه، وأشرف أمره على الاختلال ، وملكه على الاضمحلال ، ووقع فى يوم لا بيـع فيه ولا خلال فدخل إلى مكان خال وهو مشغول البال فاستلقى فيه على ظهره وغرق فى بحار فكره .

فبينما هـو يلاحـظ السـقوف ، وأفكـاره بيـن تـردد ووقـوف ، وإذا بحيـة عظيمة بجثة جسيمة من السقف خرجـت ودرجـت وفـى مكـان آخـر ولجـت ، فوثب واقفاً ورقب خائفاً لئلا تسقط عليه ويصـل أذاهـا إليـه ، ودعـا الفراشـين وجماعـة فتاشـين بمعـاول النباشـين ، وأمرهـم بنصـب السـلم والفحـص عـن الأرقم[2] ، وتتبـع آثارهـا وإطفـاء شـرارها فصعـدوا الحيطـان وحفـروا ذلـك المكان ، وخرقوا سقفه ، فانفتحت لهم غرفة كانت مخبأ لمن تقدمه وضع فيهـا ديناره ودرهمه ، وفيها عدة صناديق محكمـات التوفيـق والمعـاليق ، فـأطلعوه

---

(١) الروامق : القائمين على خدمة الدولة . والجوامق : مرتب خدام الدولة مـن العسكرية والمماليك .

(٢) الثعبان .

علـى تلك الخبيـة[١] والتهوا عـن طلـب الحيـة الجبيـة ، فـأمرهم فنقلوهـا إليـه ووضعوها بين يديـه ، فـإذا فيها مـن الذهـب النضـار خمسمائة ألـف دينـار ، فعرف أن ذلك عناية ربانية ومواهب صمدانية رحمانية ، فصرف المـال فـى إصلاح حاله ، وبذره فى مزارع قلوب خيله ورجالـه فثبت أوتـاده واستقامت أجناده وقويت سواعده وأعضاده ، وكان أمره قد أشرف على الاختلال وعقد نظامه على الانفراد والانحلال .

وكان مـن تمـام هـذه السـعادة وتعقيـب هـذه الحسـنى بالزيـادة أن الملـك المذكور بعد هذه الأمور وحصول هذا السرور ، وانتظام مصـالح الجمهور ، أراد تفصيـل قمـاش وخياطـة خلع وريـاش ، فطلـب خياطـا ثقـة ليقلـده هـذه المنطقة[٢] ، فأُرشد إلى خيـاط مـاهر شـكله زاهر وفضلـه ظـاهر وحذقـه فـى صناعته باهر ، إلا أنه أطروش[٣] حقل سـمعه بدبـى الوقـر مدبـوش[٤] . فما يصل ملك الكلام إلى سرير صماخه[٥] إلا بزمر وطبل وجـاروش[٦] ، فدعـاه فأجلسه بين يديه وطلب الثياب ليعرضها عليه فتصـور الخيـاط أنـه سـعى بـه إليه بسبب وديعة كـانت لصـاحب البلـد لديـه ، وإنمـا طلبـه ليطالبـه ، فإمـا أن يؤدبه أو يعاقبه ، فتقدم باليمين مثل المصـارعين ، وأقسم بالله خـالق المخلـوق ورازق المرزوق أنها اثنا عشر صندوق لم يشعر بها مخلوق وإنه لا يدرى ما فيها ، وإنها مختومة بختم معطيها ، فتعجب عماد الدولة من كلامه وسجد للـه شكراً على إنعامه .

---

(١) الستر والمكان المخبأ .

(٢) الحزام يُشد على الوسط .

(٣) أى ذا صمم .

(٤) الدبش : أثاث البيت . والمعنى أى فاقد السمع .

(٥) الأذن .

(٦) الحك محدثاً صوتاً .

ثم وجه معه من أتى بها ودخل إلى بيوت ما فيها من أبوابها ، فكان ما فيها من الأموال ونفائس القماش العال جمل متكاثرة ، وأصناف متوافرة، واستولى على ذلك كله وثبت بواسطة المال فى ركاب الملك واطئ نعله .

وإنما أوردت هذا التنظير يا ذا الرأى والتدبير ؛ لتعلم أن مسبب الأسباب وميسر الأمور الصعاب ، إذا دبَّر مصالح عبده وشمله بإحسانه ورفده ؛ هون عليه كل عسير وصغر كل كبير ، وأنت بكل هذا بصير .

قال يسار : صدقت وصوابا نطقت ، ولكننى نظرت إلى الدنيا ورُزْتُ(١) أحوالها السفلى والعليا ، ورأيت كلما زاد الشخص حرصاً وطمعاً ازداد لنفسه عبودية وتبعا وللدنيا وللآخرة رشقا(٢) ، فصارت قيوده أثقل وحسابه أشد وأطول ، وهمومه أتم وغمومه أعم ، وإن الواثق بالدنيا والراكن إلى ما فيها من أشياء كالجاعل له من السحاب حصناً ومن الحباب كنا(٣) ، وأى وقاية تحصل من السحاب وأى إيواء يصدر من الحباب ، ومن تأمل الدنيا بعين التبصر وتفكر فى تقلباتها بمصيب العقل والتدبر ، عد جمعها شتاتا ، ووصلها انبتاتا ومجيئها ذهابا ، وشرابها سرابا ، وإقبالها إدبارا ونسميها إعصاراً ، وعطاءها أخذا ، وعيدها نبذا وصلتها فلذا ووهبها نهبا ، وإيجابها سلبا ، وحربها سلما ، ووجودها عدما ، وكثرتها قلا ، وعزها ذلا ، وضحكها نياحه، وطلاقها راحه ، فلم يكن عنده أحسن من فراقها ولا أرضى من طلاقها ، والقناعة منها بالكفاف والرضا منها بالعفاف ، كما سلك الفلاح صاحب الماشية واستراح . فقال الزنيم : أخبرنى كيف كان ذاك يا حكيم .

[٤٦] **فقال** : إن مخدومى الذى كنت عنده أحفظ ماشيته وعبده كان ذا ثروة عظيمة وأموال كثيفة جسيمة ، وكانت ماشيته لا تزيد فى القياس عن

---

(١) جربت .

(٢) أى رماها وراء ظهره .

(٣) أى كالجاعل من حبات الرمل حصناً له .

ألف راس ، وإن حصل من النتاج المعهود ما يزيد على هذا القدر المعدود؛ تصدق به أو باعه أو وهبه لبعض الجماعة ، ولو أراد لجعلها ألوفا مؤلفة وأضعافا مضاعفة ، وكان فى الجيران والأصحاب والإخوان من هو أقل منه مالا وأقصر باعا وأضيق مجالا ، له الألوف من المواشى ، وكذلك من الخدام والحواشى ، وهم فى كل وقت فى ازدياد وتضاعف الأعداد من الأصول والأولاد ، ومخدومى لا يقصد الزيادة وإن زاد شيء أباده .

فقال له الراعى وكان عليها أشفق ساعى : يا مخدوم مَالَكَ لا تريد أن تزيد مواشيك وحواشيك ، وتكثر بالرفق والرفد فواشيك(١) ، وبالورود الإصدار غواشيك ، فإن المواشى تزداد فوائدها وتتوفر عوائدها ، باعتبار زيادة أصولها وإدرار منافعها ومحصولها ، وجيراننا كانوا أقل عدداً من هذا المقدار فصاروا بالتوفير أكثر عددا فى الأغنام والأبقار ، فزادوا على مواشينا بعد أن كان أوساطهم كحواشينا ، ولا أعرف لهذا موجبا ولا أدرى له سببا غير الإهمال وقصد تضييع المال .

فقال مخدومى : هذا محيط معلومى ، ولكن أيها الولد اعلم أن أنواع العدد آحاد وعشرات وألوف ومئات ، فالألوف غاية الأعداد إذا اعتبرنا التعداد ، والشيء إذا جاوز غايته وتعدى نهايته أخذ فى النقص ، وإذا بلغ مداه تراجع بالنكص ، وقد قيل : الشيء إذا جاوز حده شاكل ضده ، ومن لم يقنع بالقليل لم يرض بالجزيل ، ولقد أحسن المقال وصدق فيما قال مَنْ قال :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما	يكون صعود المرء فيه هبوط
وهيهات ما فيه يزول وإنما	شروط الذى يرقى إليه سقوطه
فمن كان أعلى كان أوفى تهشما	وفاء بما قامت عليه شروطه

وكثيراً ما رأيت وسمعت ووعيت عن أصحاب الألوف القاصدين

(١) دواعى الفخر .

لازدياد المألوف نزلت ألوفهم إلى الواحد من الآحاد فاستولى عليهم لذلك الهموم والأنكاد ، فتكدرت خواطرهم واشتعلت ضمائرهم ، وأما أنا فلم أعلم أن ألفى نقص ولا جارى حَلَبَة مداه نكص ، فإذا عدا غايته ألزمته نهايته وكبحت جامح طرفه ، وكففت طامح طرفة ؛ طلباً للراحة ورغبة فى الاستراحة :

فكم دقت ورقت واسترقت   فضول العيش أعناق الرجال

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ لتعلم يا ذا التفضيل إنى ما دمت له خادما وفى وصف الخدمة قائماً ، ولم أتعد طورى وهو مقام الخادمية إلى ما ليس لى وهو مقام المخدومية ، فأنا مستريح ولغيرى مريح ونفسى مطمئنة، وجوارحى عن طيش السعى مرجحنة ، وأصحابى أحبابى ، وأحبابى أصحابى، والخواطر صافية ، والمحبة وافية ، والصداقة باقية ، ومياه المودة فى رياض الأرواح صافية وفى عروق الأشباح واقفة جارية ، فإذا رمت مع وجود هذه الحسنى الزيادة وقصدت التعدى إلى ما ليس له به عادة ، فأنا بين أمرين متقلب على جمرتين ، إما عدم الحصول والانقطاع عن الوصول، فتتضاعف المُكِدَّات وتترادف المقسمات ، وبحسبها تصل الهموم وتحصل الغموم كما مر سالفاً وذكر آنفاً ، وإما الظفر بالمراد على حساب ما يراد فبقدر ذلك يقع الصداع ، ويقوم التحاسد والنزاع ، وأول ذلك معاداة الأصحاب ومعاناة الأحباب ومقاساة الأتراب ، وحصول الضغائن وبروز المكامن؛ بواسطة الترفع عليهم وصدور المراسيم والتقدم بامتثالهم إليهم ، فالأولى بحالى التفكر فى مآلى واللائق بشورى أن لا أتعدى طورى ، ولا أتورط فى هذا البحر العميق والبئر الغميق ، ولا أخرج عن سواء الطريق فتهوى بى طير الهوان فى مكان سحيق :

وإنى يسار خائف أن يردنى   زمانى بما لاقى يسار الكواعب

قال المشرقي أبو زنمة : ما أحسن هذه الكلمة وأيمن هذا النظر، وأرصن هذه الفكرة ، وأدق معاني هذه المباني ؛ ولكن إذا رفعك الله من يضعك ، وإذا أعطاك من يمنعك وقد قال ذو الجلال ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢] وقال صلى الله عليه وسلم «اللهم لا مانع لما أعطيت»(١).

وكل الناس تطلب المعالي ونفس الحر تأبى أن تضاما

فلما بلغ بهما الكلام إلى هذا المقام قال يسار : اعلم يا فحل الفحول، وإمام المعقول والمنقول ؛ أني ما بالغت في الامتناع إلا لأقف على ما فيك من طباع، أسبر ثبوت قدمك وثباتك وراء كلمك ، فلقد وجدتك في هذا الأمر الخطير فوق ما في الضمير ، وفي مواطن الاختيار أثبت جنانا من ابن الليث الصفار ، فانهض لقصدك وحركته على خيرة الله تعالى وبركته ، فإني وضعت عنان جموح هذا المرام في يد تدبيرك ، وجعلت واسطة هذا العقد جوهرة تفكيرك ، وسلك نظامه ونظام قلادته جودة تصويرك ، فإنك أهل لذلك وبرأيك تقتدى المسالك ، فابتهج أبو زنمة بهذا المقال ووثب في مقام الخدمة، وقال : حيث انشرح صدرك لكلامي ، فسترى في وجهك مجالس قيامي ، وأنا أعلم أن معبودك سيبلغك مرامك ومقصودك ، ولكن يجب التيقظ ، وقبل الشروع التحفظ . أما التيقظ فلأ ن يجعلها الملك مقتدى ولا يغفل عنها أبدا ، كما فعل الملك الظاهر الموفق أبو سعيد محمد جقمق(٢) .

[٤٧] **قال** : حين أضطربت الأوامر واختلفت العساكر واصطدمت الأمور ، وخرج عليه من عساكره الجمهور ، وقل المعين ، وذلك في سنة اثنتين وأربعين ، فعصى تنكرى وتترس في حلب ، وقام بالراكمة الجلب ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري : كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٤) .

(٢) الملك الظاهر جقمق ، سلطان المماليك من سنة ١٤٣٨ إلى سنة ١٤٥٣م ، كان وصياً على يوسف ابن برساى ، فخلعه بعد توليته بثلاثة أشهر ، وكان متشدداً في الدين ، ونعمت البلاد في أيامه بالهدوء .

وإينال الحلبى بالشام وكَاتَبَه الطغام والعظام ، وهرب بالقاهرة العزيز وأزت الشيطاطين فاشتد الأزيز ، وتخبط بالصعيد العريان ، وفشا فى عساكر الإسلام، الطريان[1] .

فسفه الحليم ، وحار الحكيم ، وضل كل ذى رأى قويم ، فثبت الملك الظاهر وتعرف إلى الله تعالى فأزال استيحاشه ، وأصفى سرائره ، ولم تزل سيرته ظاهرة فكان الله عونه وناصره ، فأطفأ بأدنى لطفه شواظ تلك النائرة .

وقد بسط ذلك فى سيرته الظاهرة فتبدل الجحيم بالنعيم ، ورفع الله تعالى عن الإسلام والمسلمين العذاب الأليم ؛ كل ذلك بثبات القدم وعلو الهمم، ولم تحصل هذه الفعلة الذكية الرائحة ، إلا بالطوية الطيبة والنية الصالحة . وأما التحفظ فمن مواد شرور ملتبس بها الجمهور ؛ منها الحقد والملال والكذب فى المقال والحسد والاحتيال . فإن الحقود وقود ، والحسود لا يسود ، والكذوب يذوب ، والملول لا يطول ، والمحتال مغتال ، وباقى النصائح الذكية الروائح تأتيك بالسعد فيما بعد .

وأنا الآن أقدم للبيان وأذكر الأهم وما فائدته أعم ، قبل الشروع أمام المقصود ، وهو تأكيد مواثيق العهود ، فإنه إذا حفتك الجنود ، وأحاط بك أرباب الرايات والبنود ، وأنت جالس على السرير وفى خدمتك المأمور والأمير والكبير والصغير ؛ يعسر علىَّ استيفاء الخطاب ، واستيعاب الجواب، ولا يليق بعظمتك ومقام حرمتك إطالة الكلام ولو اقتضاه المقام ؛ خصوصاً بحضور الخاص والعام ولو كان المتكلم أعز الخدام وأقرب الألزام[2] ، فلا أقدر أن أتجرأ عليك وأنهى جميع ما أريده إليك ؛ لأن قصد الخادم إقامة حرمة مخدومه ، والمبالغة فى حفظ ناموسة وتعظيمه ، وكثرة الكلام تمنعه عن هذا القصد وتدفعه ، وأما فى هذا الوقت فإن كثير كلامى لا يورث شيئاً من المقت فلا حرج على كلامى كيفما خرج .

---

(١) الاضطراب .

(٢) أقرب الأقرباء .

قال يسار : بارك الله فيك وأبقاك لذويك ، فما أدق نظـرك وأحسن فـى عواقب الأمـور فكرك ، وأصـوب غوصـك علـى جواهر الانتقـاد ، وأغـرب بوصك[1] إلى زواهر الاعتقاد ، فقل ما بدالك مما يزيـن حـالى وحـالك ، فـإن حرمتى حرمتك وحشمتى حشمتك ، فـإن عظمتنـى فقد عظمت نفسـك ، وإن وفرت مالى فقد زدت كدسك[2] . والخادم إذا لـم يقصـد رفعـة مخدومـه ويعد ذلك من أكبر همومه ، ويسعى فيه ساعة فساعة وفـى كـل مكـان وعنـد كـل جماعة ، وإلا فيدل ذلك على خساسة مقداره ، وقصور نظره ولؤم نَجَارِهِ[3] ، وركاكة همته واستبذال حرمته .

فقال أبو زنمة : أول شروطى يا ذا العظمة : أن لا تقترب المؤذين ولا تلتفت إلى الأسرار المغتابين ، ولا تضيع الأوقات فـى الإمغـاء إلـى القينـات ، ولا تسمع كلام واشٍ وتعد كلامه أقل من لاش .

ثانيهـا : أن لا تعجل فـى فصـل الحكومـات ؛ بـل تتعاطـاه بـالتفتيش والالتفـات إلـى أن تتجلـى صورتهـا وتتعيـن حقيقتهـا ، فـإذا وضحـت لديـك ، وتخلت مخدرة حقيقتها عليك ، أجهد فيها بالصدق وأعمل بما يقتضيه الحق .

ثالثها : أن لا تعوّد لسانك الفحش والبذاءة ، فـإن فـى ذلـك علـى الملـك أسوأ إساءة فإن الكلام يؤثر فى القلوب ، وينفر من قبيحـه الطـالب والمطلـوب وقد قيل :

جراحـات السنان لهـا التئـام ولا يلتـام ما جـرح اللسان[4]

[٤٨] **وقد قيل** : إن عيسى عليه السلام مـر بجماعـة فـى بعض الأيـام فصادفوا كلباً أجرب فقال له : سلمك الله اذهب ، فقال كل من أصحابه ، مما كان مُعَنّى فى جرابه من الاستنقاص وطلب البعد عنه والمناص ، وما سلموا إلى عيسى حاله ؛ بل سألوه عن كلامه له وما دعا له .

---

(١) السبق والتقدم .
(٢) أى زدت ، وتكدس حبك عندى .
(٣) أى القصد .
(٤) السنان : نصل الرمح .

فقال : إني عودت لساني ببيان ما في جناني ، وهو المقاصد الحسنة وترك الألفاظ والعبارات الخشنة .

[٤٩] **وقيل** : إنه مر في بعض الأوقات ومعه جماعات ، بكلب من الأموات ، ملقى على مزبلة في جملة القاذورات ، فوضع كل منهم يده على خطمه[١] ، وتكلم في رائحته عند شمه . فقال عيسى عليه السلام : ما أحسن بياض أسنانه ، فقيل له عما سمع من بيانه .

فقال : عودت لساني بلفظ الخير وإن لا يتكلم بما فيه ضير.

وكما يجب على الملك كف اللسان الفصيح عن الكلام البذيء القبيح، كذلك يجب عليه أن لايصغي إليه ويتأمل قول الشاعر :

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ووجد في كتاب (آداب الصحبة) لأبي عبد الرحمن السلمي[٢] بيت ثالث:

وكم أزعج الحرص من طالب يوافي المنية عن مطلبه

وهذا الأمر يا مخدوم لكل أحد معلوم على العموم . وأما أكابر السلاطين والملوك الأساطين فهم أعلى مقاما أن يكون الفحش لهم كلاما ، وأن يجرى في مجالسهم ، أو يسمع من محادثهم ومجالسهم ، وكل ملك اعتاد مجلسه فاحش الكلام اختل نظامه ومقته الخاص والعام ، ونفرت عنه قلوب الرعية ، وبحسب رغبة الرعية تكون الممالك راضية مرضية ، وإذا نفرت

---

(١) أنفه .

(٢) عبد الرحمن السلمي : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي ، السلمي الأم ، الإمام الحافظ المحدث ، شيخ خراسان وكبير الصوفية ، ابو عبد الرحمن النيسابوري الصوفي صاحب التصانيف مات سنة (٤١٢هـ) بنيسابور. سير أعلام النبلاء(٣٧٩٩).

قلوب الرعية كرهوه وتوقعوا غيره ليقوموا معه وينصروه ، وإذا لم يوجد عقدوا الحقود واستمروا أذلاء كاليهود ، والبغضة كامنة والخسائف[1] باطنة، فتقدم العداوة وتتقدم وتتأكد وتتأزم ، وإذا قدمت العداوة ذهبت من الصداقة الحلاوة ، فلابد يوماً من الأيام أن تبرز رأسها من جيب الانتقام ، وإذا وجدوا فرصة وثبوا عليه وقصدوا قصه كما جرى للفريرة مع الهريرة . قال يسار : بيِّن لى هذه الاخبار .

[٥٠] فقال : ذكر شخص معتبر من رواة الخبر ؛ أن فى القديم كان رجل عديم وعنده قط رباه وأحسن مرباه ، فكان عنده كالولد الأعز وأكرم من ابن الفرات[2] عند ابن المعتز[3] ، وكان القط قد عرف منه الشفقه ، وألف منه المودة والمقة ، فكان لا يبرح عن مبيته ولا يسعى لطلبَ قوته ، فحصل له هزال وتغير ماله من أمر وحال لا عند صاحبه ما يغذيه ، ولا هو ذو قوة عن الاصطياد تغنيه ، إلى أن عجز عن الصيد ، فصار يسخر به من أراذل الفيران كل عمرو وزيد وصار كما قيل :

خَلَتِ الرقاعُ من الرِّخَا ... خ وفَرْزَنَتْ فيها البيادق[4]
وتَسَابقتْ عُرْجُ الحمير ... فقلت مِنْ عَدم السَّوابق
وسَطا الغرابُ على العقا ... ب وصاد فرخ اليوم باشِقْ[5]
سَكَتَتْ بَلابلَةُ الزما ... ن وأصبح الخفاش ناطق

---

(١) الكراهية والبغض .

(٢) ابن الفرات : وزير عباسى ، الوزير الكبير ، أبو الحسن ، على بن أبى جعفر بن الفرات ، ولما جرت فتنة ابن المعتز ، وقُتل العباس الوزير ، وزَر ابن الفرات سنة سنة ٩٦هـ وتمكَّن ، فأحسن وعدل ، وكان سمحاً مفضالاً محتشماً ، ثم عزل ووزر عدة مرات مات سنة ٢٩١هـ . سير أعلام النبلاء (٢٨٠٢) .

(٣) ابن المعتز : خليفة عباسى .

(٤) الرُّخ : قطعة من قطع الشطرنج وهو الطابية ، والبيدق : عسكرى الشطرنج ، والمعنى : أى خلت الأرض من أصحاب الهمة والسمو وامتلأت بالأراذل .

(٥) الباشق : من أصغر الطيور الجارحة .

وأيضاً :

وإذا خلا الميدانُ من أسدٍ رقص ابنُ عرس ونَوْمَسَ النِّمْسُ

وكان في ذلك المكان ، مأوى لرئيس الجرذان ، وفي جواره مخزن للسمان فاجترأ الجرذان لضعف أبي غزوان ، وتمكن من نقل ما يحتاج إليه ، وصار يمر على القط آمنا ويضحك عليه ، إلى أن امتلأ وكره من أنواع المآكل والمطاعم ، وحصل له الفراغ من المخاوف والمزاحم ، واستطال على الجيران واستعان بطوائف الفيران على العدوان ، فافتكر الجرذان يوماً في نفسه فكرا أداه إلى حلول رمسه ، وهو أن هذا القط وإن كان عدوا قديما ومهلكا عظيما لكنه قد وقع في الانتحال وضعف عن الاصطياد لقوة الهزال ، وقوتي إنما هي بسبب ضعفه ، وهذا الفتح إنما هو حاصل بحتفه ، ولكن الدهر الغدار ليس له على حاله استمرار فربما يعود الدهر عليه وترجع صحته وعافيته إليه ، فإن الزمان الكثير الدوران ينهب ويَهَبُ ويعطي ما سلب، ويرجع فيما وهب ، كل ذلك من غير موجب ولا سبب ، وإذا عاد القط إلى ما كان عليه يتذكر من غير شك إساءتي إليه ، فيثور قلقه ويفور حنقه، ويأخذه لأذاي والانتقام سهره وأرقه ، فلا يقر لي معه قرار ، فأحتاج بالاضطرار إلى التحول عن هذه الديار ، والخروج عن الوطن المألوف ومفارقة السكن المعروف ، أمر صعب مشوم الكعب ، فلابد من الاهتمام قبل حلول هذا الغرام ، والأخذ في طريقه الإخلاص قبل الوقوع في شرك الاقتناص .

ثم إنه ضرب أخماساً لأسداس في كيفية الخلاص من هذا الباس ، فأداه الفكر إلى إصلاح المعاش بينه وبين أبي خراش ؛ ليدوم له هذا النشاط ويستمر بواسطة الصلح الانبساط ، فرأى أنه لا يفيده ما يريده إلا بزرع الجميل من كثير وقليل ؛ خصوصاً في وقت الفاقة فإنه أجلب للصداقة وأبقى

فى الوثاقة . ثم بعد ذلك يترتب عليها العهود ويتأكد ما يقع عليه الاتفاق من العقود ، وهو أن يلتزم الجرذان أن يقوم لأبى غزوان فى كل غداة من طيب الغذاء ما يكفيه لغداء وعشاء ، لأن الشيخ فى الدرس قال : خير المال ما وقيت به النفس ، إلى أن يصح جسده ويرد إليه من عيشه رغده ، ويكون ذلك سبباً لمعقود الصداقة ، وترك العداوة القديمة المساقة ، وإن تشترط دوام المحبة وازدياد الوداد والصحبة ، وأن لا يقصد أبو الهيثم أبا راشد بشىء من الأذى والشرور والمفاسد ويعمل هذا الهر بموجب ما قال الشاعر :

إن الكرامَ إذا ما أُسْهِلوا ذكروا   من كان يألفُهم فى المنزلِ الخَشِنِ

ثم إن الجرذان جمع من الأخباز والأجبان ، واللحم القديد والمطعم المزيد ما قدر على حمله ونهضت قوته بنقله ، وقصد مقام الهر وسلم عليه سلام مكرم مُبِّر ، محب قديم وصديق حميم ، وقدم ما معه إليه وترامى بكثرة التودد والاشتياق عليه .

وقال : يعز على ويعظم لدى أنى أراك يا خير جار فى هذا الضرر والاضطرار ، ولكن العاقبة إلى خير وسيقبل السعد بأحسن طير ، فتقدم أيها الخيطل[(١)] وكل من هذا المأكل ، فإذا سددت خلتك كلمتك بشىء أستشير به خدمتك فإنه قد قيل :

إن الصداقة أُولاَها السلام ومن   بعد السلام طعامٌ ثم ترحيبٌ
وبعد ذاك كلامٌ فى ملاَطفةٍ   وضِحْك ثغر وإحسان وتقريبٌ
وأصلُ ذلك أن تبغى شمائِلَها   بين الأحِبَّة تأبيد وتَأديبٌ
لم تنس غيباً ولم تملل إذا حضروا   قد زان ذلك تهذيب وترتيبٌ
إن الكرام إذا ما صادقوا صدقوا   لم يُثْنِهم عنه ترغيب وترهيبٌ

---

(١) الخيطل : أسماء الكلب أو السنور .

فتناول القط من تلك السرقة ما سد رمقه ، وشكر للجرذان تلك الصدقة.

و لما أكل فمه استحيت الحدقة ، ثم قال له : أنشد ما أنت يا أبا راشد قال : إن لى عليك من الحقوق ، مثل ما للجار الصدوق على الجار الشفوق وأردت أن يتأكد الجوار بالصداقة ، وتتراقى إلى درجة المحبة بأوثق علاقة ، وإن كانت بيننا عداوات قديمة فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمة ، ونستأنف العهود على خلاف الخُلق المعهود ، وتدبير الأمور على مصلحة الجمهور ، ونبنى القاعدة فى البَيْن على ما يعود نفعه على الجانبين ، وأذكر لك أشياء تحملك على ترك خلقك القديم ، وتهديك فى طريق الإخاء إلى الصراط المستقيم ، وهو أن أكلى مثلاً ما يغذى منك بدنا ، فضلا عن أن يظهر فيك صحة وسمنا ، ولكن إن أمنتنى مكرك وأعملت نظرك وفكرك إلى أن أستوثق باستصحابك وأبيت آمنا فى مجيئك وذهابك ، ولو كنت بين مخالبك وأنيابك ، فإنى ألتزم لك فى كل يوم إذا اُستيقظت من النوم بما يسد خلتك ، ويبقى مهجتك صباحاً ومساء وغداء وعشاء ، وإن قلت إن ذلك شيء مجهول فأنا بنظير هذا المأكول ؛ فإن هذا الغذاء يكفيك عشاء وغذاء ، وما قصدت بذلك إلا رعاية لحق ، ولقد انستنى بتسبيحك بالليل والنهار ، وأظن وظنى لا يخيب إنك تبت إلى الله ورجعت من قريب ، وكففت عن أذى الجيران وعففت عن أكل الفيران .

ثم اعلم يا أسد الضَّيَاون[1] : إن لى من هذه المؤنة عشر مخازن قد أعددتها لمثلك ، وأنا أقدمها لمنزلك ، وأدخرها لأجلك ، والقصد أن أكون آمناً من سطواتك ساكناً فى صدمات حركاتك ، وذلك إنما يعلم بتأكيد الإخاء وتأييد المحبة والولاء .

فلما رأى الهر هذا البِرّ ، أعجبته هذه النعم وأطربه هذا النغم ، وأقسم

---

(١) الضياوى ، مفردها ضيون : هو السنور الذكى .

طائعاً مختاراً ليس إكراهاً ولا إجباراً ؛ أنــه لا يسلك مـع الجـرذان إلا طريـق الأمان والإحسان ، وأنه لا ينوء إليه بقصد سوء بحيث تتأكد المحبـة وتـزداد الصداقة والصحبة .

فرجع الجرذان وهو بهـذه الحركـة جذلان ، وصـار كل يوم يـأتى أبـا غزوان بما التزم به من الغذاء والعشاء كل صباح وعشاء ؛ إلى أن صح القط واستوى وسلمت خلوات بدنه من الخو والخوا[1] ، وصارت المحبة تنعقد كل يوم عقداً مجدداً ، ويزداد كل منهما فى الآخر محبة وتودداً .

وكان لهذا القط ديك وهو صاحب قديم نديم ، كلٌ منهما يـأنس بصاحبـه ويحفظ خاطره ، بمراعاة جانبه ، فحصل للديك تعويـق عـن زيـارة الصديـق، فغاب عنه مدة ، وكل منهمـا للفـراق فـى شـدة ، فلـم يتفـق لهمـا لقـاء إلا وقـد حصل للقط الشفاء ، فسأل الديـك صاحبـه بمـاذا صـارت علتـه ذاهبـة ، وذاك الهزال بأى شىء زال .

فأخبره بأحوال الجرذ أبى جـوال ، وأنهـى أمـره من الأول إلـى الآخـر وبالغ فى الشـكـر فـى البـاطن والظـاهر ، وإنــه كـان سـبب حياتـه ونجاتـه من مخاليب مهلكاته ،وأنه لم يكن مثله فى الأصحاب ، وقد صـار أعـز الأصدقـاء والأحبـاب ، فغـار الديـك علـى الصـاحب القديم واختشـى أن يفسـد مـا بينهمـا المفسد الذميم ، فضحك مستغرباً وصفق بجناحيه متعجباً .

فقال له : مم تضحك ؟ فقال : مـن سـلامة بـاطنك وانقيـادك لمداهنـك ، وحسن صنائعك مع المنافق مخادعك ، ومكارم أخلاقك مـع نـاقض لميثـاقك ، وإصغائك لهذا الخبيث بمشوه الكلام ومموه الحديث ، ومن يأمن لهذا البـرَم[2] الواجب القتل فى الحِلّ والحرم ، المفسد الفاسق المؤذى المنـافق الـذى خدعـك حتى أمن على نفسه ، واستطرق بذلك التمكـن مـن أذاه ونجسـه ، فتسـلط فـى الأذى كما يختـار ، وانهمك فـى الشـر آمنـا منـك البـوار ؛ كل ذلـك بسـببك

(١) الجوع .
(٢) الداهية اللئيم .

ومكتوب فى صحائف كتبك ، مع أنك لست بمشكور ولا بالخير مذكور ، وإن الذى شاع وذاع وملأ عنك الأسماع ؛ أنك ستحل عقده وتنكث عهده ، وتنقض الأيمان وتجازى بالسيئة الإحسان ، وإنه لم ير منك ما يسره وهو متوقع منك ما يضره ؛ وأعظم من هذا أنه آذى وحشر فنادى وبالشر بادى فقال : إنه أحياك بعد الموت وردك بعد الفوت ؛ ولولا فضله عليك وبره الواصل إليك لمت هزالاً وجوعا ولما عشت أسبوعا ، ولكنه أشبع جوعك وجلب هجوعك ، واستنقذ من مخاليب المنية بعد ذهابك رجوعك ، فشفاك وعافاك ، وصفا لك وصافاك وكفاك المؤنة وكافاك ، وإنك كافيته مكافأة التمساح وجازيت حسناته بالسيئات القباح ، ولم يكن لإحسانه إليك ولا لما مَنَّ به عليك سبب ولا علاقة؛ سوى طهارة نفس زكت أخلاقه ، ولا لإساءتك إليه سبب تنقم به عليه ، إلا ما أسداه من مكارم شيمه الواصلة إليك وفوائد نعمه السابغة عليك . وقد أشاع هذا كله فى الشوارع والحارات خصوصاً فى هذه المحلة .

ثم أقسم بمن عطفه عليك وساق فضله إليك ؛ أنه جعلك محتاجا إلى نواله ، وأسبل عليك لباس صدقاته وأفضاله ؛ ليستوفين منك ما صنعته وليحفظن عليك ماعليه ضيَّعته ، وليوقعنك فى طوى[1] بلية يعجز عن خلاصك منها كل البرية ، فليريحن منك جنس الفار وليخلدن ذكر هذه القضية فى بطون الأسفار . وبالجملة : فهل سمعت أن جرذانا صادق هرة ، أو اتفق بينهما مرافقة فى الدنيا ولو مرة ، ومناصحة القط والفار كمصادقة الماء والنار :

فَأَنْتَ كَواضعِ فى الماءِ جَمــراً وأنت كمُــودِع الريــح التُرابَـا

فلما سمع القط هذا الكلام تألم باطنه بعض إيلام وما صَدَّق ، ولكن ظن واشتغل خاطره لأمرٍ عَنَّ وتلهب ، واشتعل ومن يسمع يخل ، وقال للديك : جزاك الله عنى خيرا ، وما أكثر شفقتك طيرا ، ولكن من قال لك هذا المقال ؟

(١) طوى : وادى بالشام . معجم البلدان (٧٩٨٣) .

قال : أنت مُحِّب وعلى ومودة الجرذان مُكِبٌ ، وقد قال سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم : ((حبك للشيء يعمى ويصم))[1] . وقال الشاعر :

وعين الرضا عن كلِّ عَيْبٍ عَمِيَّةٍ كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدى المَسَاويا

ولقد غرك بلقيمات من الحرام والسحت المنغمس فى الآثام ، وجعلها بمنزلة حبة الفخ فلا تشعر بها إلا وأنت فى السلخ ، قد وقعت ولا رفيق ولا أخ هناك يعرف تحقيق هذا الكلام ، ولكن أنت الآن راقد مثل النيام ، والكلام ما يفيد ولابد أن الله تعالى يجرى ما يريد ، وما فى إشاعة الكلام طائل وكأنك أنت القائل :

ظَنَّ العَذُولُ بأن عَذْلِى يَنْفعُ قَلْ ما تشا فَعَلَىَّ أن لا أسمع

وما قلت لك هذا الكلام إلا من فرط الشفقة والضرام ، ورعاية لحق ما وجب على من القيام ، وحفظاً للصداقة القديمة ، والمودة التى سحائبها دِيْمَةَ ، وأنا لو غششت كل أحد ما خطر لى أن أغشك ، وأنا لا استشهد على صدقى إلا يقينك الساكن عشك ، فرجح جانب صدق الديك كفاك الله شر من يؤذيك ، وقال القط فى خاطره بعد ما أجال قداح ضمائره : هذا الديك من حين انفلقت عنه المبيضة ، وسرحت أنا وإياه من الصدقة فى روضة ؛ ما وقفت له على كذب ولا سمعت عنه أنه لزور مرتكب ، مع أنه مؤذن أمين بين ظهور المسلمين وهو بالصدق قمين[2] ، وما حمله على هذا إلا المحبة وقديم المودة والصحبة ، وهو أبعد من أن يكذب ويخدع وأى قصد له فى أن يغش ويتصنع.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود : كتاب الأدب (١١٦) والإمام أحمد فى مسنده (٥/١٩٤) قال الحافظ ابن حجر : الحديث حسن . انظر كشف الخفا (١/٣٤٣) .

(٢) جدير .

وتردد أبوهريرة فى تيه الخيرة بين الديك والفريرة : ثم قال للديك : وقاك الله شر أعاديك فكيف أعرف صدق هذا الخبر وهل للدلالة على سوء طويته علامة تنتظر قال : نعم ورب الحرم ، علامة ذلك : أنه إذا دخل عليك ونظر إليك أن يكون منخفض الرأس مجتمع الأنفاس ، متوقعاً حلول نائبه ، أو نزول مصيبة صائبة ، أو شمول بلية غائبة ، ملتفتاً يميناً وشمالاً ، متخوفاً نكالا ووبالا طائفاً يتنقب خائفاً يترقب ، وذلك لأنه خائن ، والخائن خائف وهذا بائن .

وبينما هما فى المحاورة والمناظرة والمشاورة ، يتجاذبان القيل والقال دخل المفسد أبو جوال ، وهو غافل عن هذه الأحوال فرأى أبا القيظان يخاطب أبا غزوان ، فخنس وقهقر وتخوف وتشور وهو غافل عما قضاه الله وقدر ، فاشمأز لرؤيته الديك وأبرألّ[1] وانتغض[2] واشْمَعَلّ[3] ، فارتعد الجرذان من شيخ الديكة لما رأى منه هذه الحركة ، وانتفش وانزوى ، وتقبض وزوى ، وأشبه بغدادياً بلع الدوا ، ونظر يميناً وشمالاً كالطالب للمسفر مجالا ، والقط يراقب أحواله ويتميز حركاته وأفعاله فتحقق ما قاله أبو سليمان، ونظر إلى الجرذان نظر الغضبان وهمز واكفهر[4] ، ورقصت شواربه وازبأر[5] ، فاضطرب الجرذان ، وطلب الأمان فنسى السنور العهود والإيمان ونقض عرق العداوة القديمة والعدوان ، وطفر[6] على الجرذان ، وأدخله فى حيز خبر كان ، وأخلى منه الزمان والمكان .

---

(١) استعد للشجار .

(٢) قام للقتال .

(٣) ثار وعزم المضى .

(٤) أى عبس وجهه من شدة الغضب .

(٥) انتفش علامة على الغضب .

(٦) وثب .

وإنما أوردت هذا التنظير ، أيها الصاحب البصير ؛ لفائدتين جليلتين عظيمتين .

إحداهما : الإعلام بالتحقيق أن العدو العتيق لا يتأتى منه صديق .

ثانيهما : الإعلام بأن الواجب على الحكام أن لا يعجلوا بالانتقام ، فربما يورثهم الاستعجال الندامة فى المآل ، فى حالة لا يفيد العذل والتفنيد وعند ذلك لا يمكن التدارك ؛ بل إذا نُقِل إليهم وأُورِدَ عليهم ما يثير غبار الغضب ويُحْمِى من نار السخط ، اللهم لا يفلتون زمام التثبت والتفكير من أنامل التأنى والتدبير . خصوصاً السلاطين والملوك الأساطين ؛ فإن قدرتهم واسعة وأطراف أوامرهم شاسعة ، وأوهاق[1] اختيارهم طويلة ، ومرامى المراد لمرامهم منيلة ، وآذان الكون لأوامرهم سميعة ، وعين المكان لمراسيمهم مراقبة مطيعة ؛ فمهما أرادوا من النفع أوصلوا ، ومهما اختاروا من الضر فعلوا ، وذلك فى كل حين ممسين أو مصبحين . ولذلك قالوا : القاضى لا يحكم حكماً إلا وهو راضى ، ولا يحكم وهو غضبان ، وهو مشغول الخاطر ، ولا غرثان . فإن وجدوا طريقاً الى الخير بادروا إليه ، وإذا قصدوا إيقاع شر توقفوا لديه . ولا يهملوه ؛ بل يَسبروا غوره إلى أن يقفوا عليه . فربما يكون من مداخله عدو ، أو حاسد ، أو يتعاطى من له غرض فاسد . ثم اعلم يا ذا التبصرة والفضل والتذكرة ، أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره .

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فلما رعا يسار هذا الحوار قال : ما أزهى هذه النصائح وأزكى ما لها من روائح ؛ وأنا أقبلها ولا يزال مرتشف سمعى مقبلها ، وعلى ذلك أعاهدك ، ومهما رأيت غيره أعاقدك فإنه للملك عين المصلحة وللملك زين ومسلحة ، وأيضاً فاشترط ما بدا لك مما يزين حالك ، ويصون مالك ومآلك .

(١) أحبال .

قال : وأريد أن تكون حرمتى موفرة ، وكلمتى معتبرة ومنزلتى على أقرانى مرتفعة ، ومكانتى فى الممالك متسعة ؛ بحيث تكون مزيتى ظاهرة ، ومرتبتى لأكفائى باهرة ، وكلامى فى محل الإصغاء والقبولِ متصلاً بالنجاح فى السؤال والمسئول .

فإن حسن العهد ، وحفظ الود ورعاية الحقوق ، القديمة السابقة ، والخدمة المستمرة المتلاحقة دليل على كمال المروأة والوفاء ونهاية الفتوة والصفاء ؛ لاسيما من الملوك والأكابر فى حق خدمهم الأصاغر . ففى الحقيقة رفعة الخادم ، وكمال حرمته من رفعة مخدومه وعزته ، وكل من رفع قدر خدمه وحافظ على حفظ حشمه ، ومنع جانبهم ، ورعى حاضرهم وغائبهم ؛ إنما حفظ أطراف حشمته ، وراعى جانب عظمته وحرمته ، وكل كبير امتَهَنَ خدامه ، وأذل جماعته وقوامه ، ولم ينزلهم منازلهم ، ولا عرف فضائلهم وساوى بأواخرهم أوائلهم ؛ فإنما أضاع مكانة نفسه ، ولم يفرق فى الفكر بين يومه وغده وأمسه ، وإذا لم يُصغ الملك لكلام الوزير ، واستقل بأوضاع ناصحه والمشير ، فابتذله وانتهزه واستقله واحتقره ؛ خصوصاً فى المجامع والمحافلَ بين العساكر والجحافل ؛ فأى حرمة تبقى له عند البقية من سائر الخدم والرعية ، وأى مرسوم وكلام يسمع له عند العوام . فيتكدر خاطره ، وتتغير سرائره ، فيدعوه ذلك والعياذ بالله إلى شق العصا إذ صار على باب مخدومه معلقا كالحصى ، وقدره فى المكانة ، وقوله فى البلاغة صار كالزيف فى الصَّاغة والفسو فى الدباغة ، وناهيك أيها الخبير ما قالته لأمها الزاغة[(١)] ، قال يسار : أخبرنى بذلك يا جهينة الأخبار .

[٥١] **قال** : ذُكِرَ أنّ زاغة فى بلد مراغة . انتشى : لها فرخه . انتشر لها بين الطيور صرخة ، وكانت ذات بهجة لطيفة ، وصفات ظريفةِ ، وتربت يتيمة

---

(١) الزاغة : طائر يشبه الغراب أصغر منه فى الحجم .

بالدلال . وجمعت بين فنون الكمال . فلما بلغت مبلغ الزواج خطبها من صنوف الطير الأزواج ، وترادفت عليها الخطاب ، ودخلوا على أمها فى ذلك من كل باب . فكانت تأبى عليهم ، ولا تلتفت إلى بذلهم ولا إليهم . إلى أن بلغ خبرها إلى بومة كريهة الوجه مشومة ، بينها وبين أم الزاغة صداقة قديمة . فخطبتها لابنها ، وأبانت للطير مزيد غبنها ، فاستشارت الأم إبنتها . وأظهرت فى ابن البومة رغبتها ، وقالت : أى ربية الخير قد رغب فيك أصناف الطير. فكنت أدافعهم ، وأُسَوِّفُ بهم وأمانعهم : وقد اشتهر صيتك بين الكبراء ، وخطبك منى الأمراء والوزراء ، وأنا على المطاولة ، والرد والمقاولة وقد استحييت منهم ، واختشيت غائلة ما يصدر عنهم ، ولم أفعل ذلك إلا رعاية لحالك ، وخوفاً من زوج ظالم بعدرك غير عالم ، يستضعف جانبك ، ويكره أهلك وأقاربك ، ثم لا نقدر على مقاومته ، ونتعب فى مرافقته ومفارقته؛ لاسيما إن صار بينكما معاشقة . فيصير نكاحكما كنكاح الدماشقة . كل يضمر السوء لصاحبه حالة المعانقة وكل يا أحسن طائر مَعْنِىٌّ بما قال الشاعر:

رأيتُ الَّذى لا كُلُّه أنْتَ قَادِرٌ عَلَيْه ولا عن بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

ونعوذ بالله من اختلاف الوداد ، وأن يصير نكاح السنة كنكاح أهل بغداد . فإن صادفتما فى محله مثلى أبى بكر الربانى ودله أو مثل الفرغانى وعلى أو جاره تشبه عيشة تلى . خرجتما من يدى وزدتما نكدى فكنت لهذه الأمور أخشى تقلبات الدهور ، وأرد خطاب الجمهور ، وقد خطبك يا كريمة ابن صاحبة قديمة ، وهى البو ـة الفلانية ، وهى صاحبة هنية ، وأخلاقها رضية ، وهو شخص فقير حقير ضعيف الحال حقير ، نقلبه فى أيدينا كما نريد ، ونتصرف فيه تصرف الموالى فى العبيد ، لا فى الطير جنس يحبه بل كليم يكرهه ويسبه ولا له ناصر علينا ، ولا جارح يدلى به إلينا ، فهو تحت طاعتك كما تحبين ، وفى ربقة إرادتك كما تريدين ، لا كالحمام يتطوق بطوق

الفخر ، ولا كالهدهد يتتوج بتاج الكِبْر . فما رأيك فى هذا الأمر .

فقالت الزويغة مقالة بليغة : حَفَظْتِ شيئاً وغابت عَنْكِ أشياء ، ما أصنع بزوج ممتهن ، وببغض الأجناس ممتحن . مكسور مهجور يُتطير[1] منه بين الطيور هذا يخطفه ، وهذا يلقفه ، وهذا ينقره ، وهذا ينتده ، وهذا يأثره ، وهذا يكسره ، وإذا لم يكن للزوج حرمة ، ولا تسمع له كلمة خصوصاً عند زوجته وأهل بيته وعترته . فأى قدر يكون له عند غيرها وأنَّى ينشر بالسعد جناح طيرها ، وقد قال رب السموات والأرض ، ومالك الطول والعرض ، والبسط والقبض ، والرفع والخفض ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٤] وقال من جعلهم قوامين وذواتنا منعوجة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨] ومقدار المرأة بين جيرانها وأهلها ؛ إنما يعرف بقدر حرمة بعلها وأنا كيف يبقى حالى ، وبالى وما علىَّ ومالى بين جيرانى وصواحبى ، وأهلى وأقاربى ، إذا كان زوجى ذليلا مهيمنا . محتقراً بين الناس حزينا ، والله لا يكون لى بزوج ، ولو بلغ رأسه إلى الأوج، ولا أمد إليه باعى ، ولا يرفع له فى مركب الزوجية شراعى .

وإنما أوردت هذا المثال يا شبه الغزال ؛ لأُبين أنه إذا لم يكن لى فى دارك عِزَّة ، ولا يرفع مكانتى ومكانى نشاط وهزة ؛ فلا يرجونى الصديق الموافق ، ولا يخافنى العدوة المنافق ، فيختل أمرى ، ويضيع فى غير حاصل عمرى ، وإذا ما أهمل مرسومى تعدى الوهم إلى مخدومى .

قال : يسار أبشر أيها الوزير المشفق والكبير ، المحقق والحكيم ، الماهر المدقق بالدرجة العلية ، والمرتبة السنية والكلمة المقبولة ، والوظيفة الفاضلة لا المفضولة ، ولكن أنا أيضاً لى عليك شروط تزين عقودها الملتفات

---

(١) يتشاءم .

فى المروط[1] هن لدار السعادة أبواب ، وللترقى إلى درج السيادة أسباب ، ومثلك لا يدل على صواب ؛ وهى أن تتقلد العمل مبسوط الأمل بجميع ما قررته ، وتتعاطى ملازمة كل ما حررته من إقامة ناموس المملكة المبجلة ، ورعاية شرائط السلطنة المفضلة ، ومحافظة جانب مخدومك ، والإنهاء إلى مسامعه جميع ما فى معلومك وتقديم مصالحه على مصالحك ، ومعاملة رعيته بالجهد فى نصائحك ، وكفه عن المظالم ، والعدول به عن طريق المآثم ، والغيرة على دينه واعتقاده ويقينه أكثر من الغيرة على دنياه ، وفى الجملة : لا يكون الملك إلا لله . بحيث لا تكون من قبيل **﴿لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ﴾** [الصف:٢] وإياك والرشا[2] والبرطيل[3] ، والدخول لعرض الدنيا فى الأباطيل ، وتَوَقَّ ظلم الرعية للأغراض الدنيوية ، أو الأعراض الدنوية ، واتق دعوة المظلوم ، وأن يصل سهاما إلى مولانا المخدوم ، واعلم أننا إن بنينا أساس الأمور على قواعد الظلم والشرور . فنحن من الخاسرين ، ومن الذين ظلموا والله لا يحب الظالمين **﴿وفَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِينَ﴾** [الأنعام:٤٥] بل ابن الأمور على أساس التقوى ؛ فإنك بالتقوى تقوى ، وبراويتها تروى . فمن تحلى بالقضايا العاطلة وتشبث بأذيال الأمور الباطلة ، ولم يقصد وجه الله فى حركاته وسكناته ، وأدخل شوائب الرياء والسمعة فى أعمالة وطاعاته ؛ لا يمشى له حال ، ولا يصلح له مال ولا مآل ، ويصيبه ما أصاب السائح الذى أدعى إخلاص العمل الصالح ثم شرع فى حركته ، وأخلص فظهرت آثار براءته . فلما قصد الأعراض الدنية فسد ظاهره بفساد النية . فسأل المشرقى عن حال ذلك الشقى .

[٥٢] **قال** : كان فى أقصى بلاد الصين طوائف غير ذى عقل رصين،

---

(١) المروط ، مفردها مرط : كساء من الصوف أو الحرير .

(٢) إياك واعطاء الرشوة .

(٣) الرشوة .

أُنبِتَ لهم فى بعض الجبال ، زراع القدوة ذو الجلال فى رياض النزاهة والكمال ، شجرة ذات بهجة وجمال أصلها فى أرض الملاحة ثابت ، وفرعها فى أصل المحاسن نابت ، وغصنها إلى سماء العلى واصل ، وورقها كعقود الجُمَان(١) بالبهاء متواصل ، لا سموم الصيف(٢) يزيل زهرتها ، ولا عواصف الخريف تذهب خضرتها ، ولا صرصر الشتاء(٣) يعرى أغصانها ، ولا لواقح الربيع تذرى أفنانها ؛ فاعجب بحسنها أهل تلك الديار وأشربوها إشراب بنى إسرائيل عجلاً جسداً له خوار ، ثم تفانوا فى حبها وتهالكوا على قربها . فعبدوها كما عبدوه ، وأعتقدوها كما اعتقدوه ، واستولى على عقولهم الشيطان ، وصار يخاطبهم من الشجرة واحد من الجان ، فزادهم فيها اعتقاداً، وعمهم بعبادتها كفراً وعناداً .

فقدم تلك البلاد فقير من السائحين وهو من عباد الله الصالحين ، فلما رأى تلك الحالة ؛ أفزعه ذلك وهاله ، وأخذته غيرة الإسلام ، وغضبة دعته إلى القيام ؛ فأخذ فأساً وقصدها ليقطع ساقها وعضدها.

فلما قرب إليها ، وأراد وضع الفأس عليها . سمع منها صوتاً خوفه، وعن مراده أوقفه ، فقال : أيها الرجل الصالح والقادم السائح ، فيم ذى الهمه، وعلام هذه العزمة المهمة ، وم قصدك بهذه الصدمة ، فقال : غيرة الله أيها المُضِلُّ الـلاَّهِ شجرة تعبد من دون الرحمن ولا يغار لهذا الشأن إنسان ؛ فلأقطعنك أيتها الشجرة المضلة ، ولأجعلنك حطباً ومثله ، فإنك قد أضللت كثيراً من الناس ، وفعلت ما لم يفعله الوسواس الخناس ، وإنك لا تنفعين ولا تضرين سوى إنك إلى النار تجرين .

---

(١) اللؤلؤ .

(٢) حر الصيف .

(٣) شدة برد الشتاء .

فقالت :أيها الرجل الزاهد الصالح العابد أنا ما آذيتك ولا ضاررتك ، وإن رأيت نفعتك وبررتك ، وحاشاك أن تؤذى من لا آذاك ، وأنا أعلم أيها الرجل الكبير أنك غريب وفقير ، وما أقدمك على هذا البأس ، إلا الغربة والإفلاس ؛ فكف عن هذا الأمر ، واطفئ نائرة هذا الجمر ، وارجع إلى منزلك ، واشتغل بطاعتك وعملك ، وأنا أوصلك كل نهار ديناراً ذهباً نضاراً كاملاً وافياً معياراً، يأتيك هيناً ميسراً كل صباح مبكراً إذا استيقظت من رقدتك تجده موضوعاً تحت وسادتك ، وهذا هو الأليق بحالك وأفرغ لخاطرك وبالك وأخلص لك من ورطات المهالك ، وإذا أصلحت مع الله سريرتك وطهرت من أدناس الدنيا سرك وسريرتك ؛ فاترك الناس ولو كانوا جيرتك ، أو أهلك وعشيرتك ، وعليك بخويصة نفسك ، فإذا أنقذتها من الورطات فأمسك . وقد قال منزل القرآن ليحرسكم ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] .

فلما سمع بالدينار ألهاه الطمع والاغترار فبردت همته ، وضعفت في الله قوته ، وتركها ورجع ، وترك القيام وهجع . فلما أصبح الصباح وحاز بالصلاة الفلاح بادر إلى الفراش ، وطلب المعاش . فوجد الدينار كما ذكره الشيطان وأشار ؛ فالتقفه وابتهج ، وتحقق أنه فتح باب الفرج ، واستمر على ذلك أسبوعاً والذهب عنده مجموعاً .

ثم بعد ذلك قصد الفراش بسرور واهتشاش[(١)] . فلم يجد شيئاً من الذهب فتحرق قلبه والتهب ، فأخذه الحنق والقلق وأخذ الفأس وانطلق ، فلما قرب من الشجرة نادته بألفاظ عَكِرة : قف مكانك واذكر شانك وقل لي فبماذا جيت فلا حبيت ولا حييت ، فقال : جئت لأقطعك ، ومن الأرض أقلعك ؛ غيرة على الدين وقياماً بحق رب العالمين .

---

(١) انبساط وسرور .

فقالت : كذبت ؛ إنما غرت وسيبت وقمت وقعدت ، وبرقت ورعدت ؛ لفقدك الذهب الذى عنك ذهب ، وإنما كانت الغيرة الصحيحة ، والقومة المليحة الناهضة النجيحة القومة الأولى ، فإنها كانت والحق قد تجلى ، فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا فى منعك وصدك لما ظفروا بك ، ولا قاموا بحروبك . وأما الآن فهذه الغضبة الفاجرة القحبة[1] التى حصلت بواسطة عدم الدينار ، فهى التى أثارت منك ما أثار فلو دنوت منى خطوة ، وتقدمت من مقامك رتوة[2] دققت عنقك ، وشققت زِقّك[3] ، وقد قلت إنى لا أضر ولا أنفع ولا أجلب ولا أدفع ، فأما المنفعة يا صلمعة بن قلمعة[4] ، فإنك رأيتها فى الدنانير التى لقيتها فتقرر النفع يا مستحق الصفع . وأما المضره فقسها على المنفعة يا أبا مُرَّة[5] . فإن الذى له قدرة على المبرة ربما يقتدر على الإيذاء والمضرة ، وإن شئت تقدم وجرب لتعلم ، واخبر واسْبِرْ وانظر كيف أنثر منك الرأس بهذا الفأس ، وحقق رصدق أن كتفك حملت حتفك ، فبهت الرجل وتحير وخاف وخار وقهقر ، وانقطع حبل رجائه ، وأفلت يتلفت إلى ورائه.

وإنما ذكرت هذا ؛ لتعلم أيها الوزير المكرم ، أن كل أمر لا يقصد به وجه الله ، فإن عقباه الندم وإن حَسُنَ أو لاه ، وكل قصد ليس لغرض صالح فإن شجرة يأسه لا تثمر إلا الفضائح ، فترك الشروع فيه أولى ، ومحو صورته من لوح الضمير أَجْلَى ، ومن لم يترك مالا يعنيه. وقع فيما لايرضيه، وحل به من الفضيحة ، والإيلام ما حل بذلك المفسد فى مدينة السلام . فسأل الزنيم المشرقى البصير الأفريقى كيف تلك الفضيحة . ليأخذ منها لنفسه النصيحة .

---

(١) الفاجرة الكاذبة .

(٢) خطوة .

(٣) جلدك .

(٤) صلعمة بن قلمعة : مثل يُضرب لمَنْ لا يَعرف أباه .

(٥) أبو مُرّة : كنية الشيطان .

[٥٣] **قال** : كان فى مدينة بغداد صانع حرير ، أستاذ خبير ، له جار سنى الجوار، وزوجة تخجل البدر عند الكمال والشمس قبل الزوال ، وذاك الجار الجانى ، يدعى ابن الفرغانى . ففى بعض مطاره لمح زوجة جاره ، فتعلق قلبه بها واشتعل من هواها نار أحشائه بهبوبها ، فأخذ يلهو بها إلى أن أفسدها ، وإلى الضلال أرشدها ، وكان الزوج مغرماً بها ، فوجد على حالها منبهاً ، فصار يراقبها من كَلَفِه ، ولا يغفل عنها لشدة شغفه ، ويجتهد فى كفها عن الخيانة ، وأن تحفظ الغيب وتؤدى الأمانة .

ففى بعض الأوقات رأى بعض فى الطرقات صياداً ومعه طير ، قد أوثق رجليه بسير ، فسأله عن طيره ، وإلى أين قصده فى سيره ، فقال : هذا من الجوارح السوانح البوارح يحاكى الصوادح ، ويبا كى النوائح ، وفيه سر عجيب ، وأمر غريب ، وهو أنه إذا كان فى بيت ورأى فيه على صاحبه كيت وكيت أخبر زوجها خبره ، وقص عجره وبجره[١] ، وقد رغب فيه رئيس يشتريه فأنا ذاهب به إليه أقدمه لديه ، وأمتن به عليه ، فرغب فيه الحريرى واشتراه ، وأتى به إلى داره وقال لزوجته : أكرمى مثواه ، وأحسنى مأواه ؛ فإنه يخبر بكل ما رآه ، وهو من أحسن صفاته ، وأعجب أموره وحكاياته ، ومهما فعلت زوجة الإنسان ذكره على وجهه كما كان .

فقالت : نحن بحمد الله فى بركة ، آمنون مما ينقل عنا من حركة ، فإن رأى شيئاً يهوله لا يكتمه بل يقوله ، فتركه الزوج وذهب ، فدخل الحريف[٢] الملتهب ، فرأى المرأة وحدها والطير عندها ، فأخذ فى المهارشة[٣] ، ومد يده للمناوشة[٤] ، فقالت : كف يدك واحفظ الذمام ، فإنه قد حصل علينا رقيب نمام ، فكف يدك يا حبيب لئلا نصاب ولا نصيب ، وتفكر فى قول الشاعر المصيب :

إذَا ما خَلَوْتَ الدهرَ يوماً فلا تقل خَلَوْتُ ولكن قُل علىَّ رقيبٌ

---

(١) عيوبه .
(٢) الحريف : من مال عن الجادة وانحرف عن الطريق المستقيم .
(٣) الملاعبة .
(٤) المزاح .

فقال : وأين الرقيب يا ست الجار والحبيب ، قالت : هذا الطير ليس غير فإن له خواص عجيبة ، وفيه أشياء لطيفة نجيبة ، منها أنه نمام ، ومهما رآه أو سمع من الكلام ، فإنه يفض عنه الختام ، ويذكره لصاحب البيت على التمام ، فقهقه بصوت عال ، وسخر منها وقال : صدق سيد المرسلين الذى قال : «النساء ناقصات عقل ودين»[١] . ثم أقسم بحياتها وحسن ذاتها وصفاتها، ليولجن القضيب فى الكثيب[٢] ، بمرأى من ذلك الرقيب ، حتى إذا فرغ من أمره يمسح فى منقاره رأس أيره[٣] ليعلمها صحة ما أوهمها . ثم حاورها وغلبها وساروها وقلبها ، وحل الصدر بالتكة[٤] وتعلقت الحلقة بالسكة[٥] ، وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية ، والتهم زرالوردة التصيبية شفاه الوردة النسرينية ، واستمرا فى أخذوعطاء ، بلا غطاء ولا وِطاء ، كأنهما أفواج الحجاج ، أو ثباج الأمواج[٦] ؛ فى شيل وحط وقبض وبسط وهرج ومرج ، ودخل وخرج ، واستمرا من نحو هذا التصريف فى بحث الرفع والجر ، ومن علم المطاردة والركوب فى صنعة الكر والفر ، ومن الزندقة والإلحاد فى عالم الحلول والاتحاد ؛ إلى أن دفق الإبريق العقيق فى قدح اللجين[٧] شراب الرحيق ، وقد أنشد الحريف هذا النظم الظريف وهو :

لو تنظر الرقبا وقد عانقته ... والشَّمْعُ مشتعلٌ وبابى مُقَفَلُ
طوْرا أُشاهِدُهُ وأَرْشُفُ تَارَةً ... وأَضُمُّه من بعد ما أَتَأَمَّلُ
وإذا تَعشَّى ذيلُ ثوبى بَانَ لى ... من جيبه شىءٌ عليه المقْتَلُ

---

(١) الحديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤) .
(٢) الكثيب : التل من الرمل ، والمعنى الوقوع بها أى الجماع .
(٣) قضيب الرجل .
(٤) ما يُشد به السروال .
(٥) كناية عن الجماع .
(٦) ثباج : الموج العالى ، ومعنى ثباج الأمواج حركة الجماع .
(٧) أى الوصول إلى تمام نشوة الجماع والانتهاء منه .

فلما سال الميزاب بما جرى ﴿وقضى زيد منها وطرا﴾ [الأحزاب:٣٧] نهض ليبر قسمه حسبما ميزه وقسمه ، وأدنى من منقاره غرمولة[١] ، وكان للطائر مدة لم يتناول مأكوله ، فتصوره قطعة لحمة قدمها إليه طعمة ، فأنشب مخالبيه فيه فاستغاث بملء فيه ، وكاد أن يغمى عليه ، واستعان بحبيبة قلبه إليه ، فأقبلت المرأة كالحدأة فأشار عليها أن تكشف عن ساقيها ، وترى الطير بظرها وحمرته ، فربما يلتهي به ويترك آلته ، فتكشفت وأدنته إليه وعولت في خلاص صاحبها عليه ، فوثب لشدة قرمه ، وتأثير الوجع وألمه ، ليلهم ذاك الفليم[٢] ، فأنشب مخاليب جله الأخرى في فليم تلك البظرا ، فاشتبكا وفي البلاء اشتركا ، وبينما هما في تعاظل الكلاب[٣] وإذا بالزوج قد دخل من الباب ، فرآهما على تلك الحال من الاشتباك والإعتظال ، ونقل الطير ما قال بالأفعال دون الأقوال ، فصح قوله وفعله ، وفعل معهما ما يجب فعله .

وإنما أوردت هذا البيان ؛ لأعلم جنس الحيوان أن الشروع فيما ليس فيه منفوع ، يجب الإبعاد عنه والفرار منه ، وعدم الإصغاء إليه والتوجه والإقبال عليه ، ولهذا قال : النبي النبيه صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء ، تركه ما لا يعنيه»[٤] . قال المشرقي : ما بقي يا تقي ، إلا أن ترتقي ، فلقد طال البيان وضاع الزمان :

فانهض هُدِيتَ إلَى ما رُمْتَه عَجِلاً   فالدهر عاتٍ وللتأخير آفاتِ

وكانت هذه المحاورة تحت ظل شجرة فيها وكر حمامة ، وكان لها

---

(١) إير الرجل .
(٢) أى فرج المرأة
(٣) أى ركب بعضها بعضاً .
(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب (١١) (٢٣١٧) وقال : هذا حديث غريب . وابن ماجة كتاب الفتن ، باب كف اللسان فى الفتن (٣٩٧٦) .

بالبلد إقامة فى برج رجل من أهل الزعامة . ثم اختارت العزلة ، واحتسبتها نعمة جزله . فاختارت هذا المقام ، ولها فيه عدة أعوام فسمعت جميع ما قالا من مبدئه إلى منتهاه . فلما وعت ما اتفقا عليه ، وتداعيا إليه ، أخذت تضرب أخماساً لأسداس ، وتتأمل فيما يتجلى من عرائس معانيه من القدم إلى الرأس، وتجيل فى صور مبانيه قداح النظر ، وتلاحظ سيرة فحاويه بلوامح الفكر[١] ، وتجوز مذاهبه ، وتروز عواقبه[٢] ، وتقيس مداركه بمعارجه ، وتميس فى مداخله ومخارجه[٣] ؛ فأدى قائد فكرها ورائد نظرها إلى أنه ربما يكون لهما شان ، وعلو مكانة ومكان ، فإن محاوراتهما وما مر من مناظراتهما كانت منطوية على ذكاء وفطنة ، وتجارب وحكمة وعلو همة ، صادرة عن فكر مصيب ، ورأى له فى السداد أوفر نصيب ، ولم يبق لهما فى القدر إلا مساعدة القضاء والقدر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالأليق فى قطع هذه المسالك المبادرة إلى التعرف بهما وإعانتهما والتقرب إلى خواطرهما ، ومساعدتهما على ما هما فيه ، ومساعفتهما بما تصل إليه اليد وتحويه ؛ لأنهما فى حالة الشدة وزمان الانفراد والوحدة ، محتاجان إلى المساعدة والمساعفة والمرافدة[٤] ، وفى مثل هذه الحالة تظهر الفضيلة ويتحملان المنة والجميلة ، وتقع مساعدتى أحسن موقع، ويتميز لى عندهما أرفع موضع ، فإنه إذا علا شأنهما وارتفع بدون معاونتى قدرهما ومكانهما ، واجتمع عليهما الجنود وأقبل إليهما الوفود ، وكثرت الحفدة[٥] والأتباع ، وتكاثفت العساكر والأشياع ، فما يظهر لمن يقرب إليهما ويترامى لديهما إذ ذاك كبير فائدة ، ولا كثير عائدة ،

---

(١) أى بالتدبر والتفكر .

(٢) تنظر وتتأمل العواقب .

(٣) تتمهل فى مبادئه وعواقبه .

(٤) المعاونة

(٥) الخدم والأعوان .

ثم إنها توكلت على الرحمن وصدحت على الأغصان بقولها :

على الطائر الميمون والبِشْرِ والسَّعْدِ سَمَوْتَ إلى العَلْيَاءِ نَهْداً على نَهْدِ[١]

ثم هبطت وبين أيديهما سقطت فأذكرت قول الرئيس[٢] هذا الشعر النفيس :

هَبَطْتَ إلَيْكَ مِن المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرَقَاءُ ذَات تَعَزُّزٍ وتَمَنُّع

وقبلت الأرض ووقفت فى مقام العرض ، ولزمت شرائط الحشمة ، وأدت مواجب الخدمة ، وهنأت نفسها والكون بسلطة الملك يسار ذات الصون، وقالت : إنى لكما نعم العون ، وموطنى فى هذه الشجرة ، وأنا لأوامركم مؤتمرة ، وقد وعيت ما قلتماه وما دار بينكما وذكرتماه ، ورأيته صادراً من مشكاة السعادة مشرقاً بأنوار السيادة ، سهامه نافذة فى قلب الغرض ، وسيتعبد جواهر الرعايا بأدنى عرض ، فإن حسامه مطيق لفصل القصد ، وشأنه سيبلغ أعلى اليمن والسعد ، وها قد جئت مبادرة واردة منهل الطاعة وصادرة ، فأمرا لأمتثل ، وانظرا لأحتفل ، وتحكما لأطيع ، وتكلما فإني سميع ، فإن أشرتما فالقصد قاف ، وإن استشرتما فالرأى كاف ، وإن خبرتما فالحزم واف ، وإن استنهضتما فالعزم شاف ، وإن استخدمتما فالعبد خادم صاف مصاف .

فلما رأيا من الحمامة هذه الكرامة تبسم الزنيم وتفاءل ، وأشرق وجهه وتهلل وتيمن بطلعه الورقا ، وعلم أن أمرهما يرقى ، وقال يسار: هذا من علامات اليسار ، وجبر الانكسار والخروج إلى اليمين من اليسار ، وعنوان السعود وحصول النحيح والمقصود ، فإن مسبب الأسباب العزيز الوهاب

---

(١) نهداً على نهد : كريم على كريم .

(٢) الشيخ الرئيس : أبو على بن سينا ، تقدم ترجمته .

تبارك وتعالى وجل جلالا ، هو مسهل الصعاب ومفتح الأبواب ، وإذا أراد أمراً هيأ أسبابه وفتح على الضعيف طاقته وبابه ، ووسع رحابه وسدد إلى مرامى المرام لراميه نشابه(١) ، وحصول مثل هذا الصاحب الصادق والرفيق الموافق والمعين المصادق ؛ أدل دليل على أن الله الجليل ييسر هذا المطلوب ويظهر هذا النجح المحجوب . ثم أنهما استشارا الحمامة فى كيفية نيل الزعامة والشروع فى هذا الأمر ، والتوصل إلى دعوة زيد وعمرو ، وطريقة اشتهاره ، وتعاطى أسباب انتشاره .

فقالت : أنا من جنس الطيرِ مشهورة بينهم بالخير ولهم إلىَّ سكون ، وعلى مناصحتى اعتماد وركون . فالصواب فى فتح هذا الباب دعوة الجمهور من الطيور ، وأنا به زعيم وفى الرسالة حكيم ، فإن اقتضى الرأى الرفيع توجهت ودعوت الجميع بعد التخبير والتشهير بين الكبير منهم والصغير ، أن أبا الجِرَاء السلطان ، وأبا الجِدَاء الوزير ، وقد وقع الاتفاق فى الآفاق على هذا الوفاق ، فليبتهج سائر الطيور بهذا الفرح والسرور ، وليقرأ على رؤس الجمهور هذا المقال المنشور ، وليبادر إلى الخدمة بالحضور ولا يتخلف أحدٌ من آمر ومأمور ، والحذر الحذر من المخالفة وعدم الانقياد والمؤالفة ، فقد طاب الوقت ، وراق وزال المقت ، والشقاق والمسارعة فى أقرب زمان ليأخذوا لأنفسهم الأمان ، ولا يركبوا من التعويق سوى متن مسافة الطريق .

فأعجب الملك والوزير من الهديل هذا الهديرُ(٢) ، فكتب بذلك بطاقة ، وحملتها الحمامة بأحكم وثاقة ، ثم أخذت إلى الجو ، ووقيت من الجوارح السَّوُّ ، ثم هبطت إلى مجمع الطير ، وهو نادى الندى والخير ، فرأت منها خلقاً كثيراً ، وجمعاً غزيراً ، فسلمت سلام المشتاق ، وعانقت عناق العشاق ،

---

(١) النبلة تستخدم فى رمى السهام .

(٢) الهدير : صوت الحمام ، والمعنى كلامه .

فترحبوا بمقدمها، وسألوا عن معرب أحوالها ومعجمها ، وقدموا موائد الضيافة ، وأظهر السرور واللطافة ، فبثتهم كثرة الأشواق ، وما عانته من ألم الفراق وقد حرضها شدة الشوق ، وساقها إليهم أشد سوق ، وبعثها أيضاً باعث ، وهو من أحسن الوقائع وأيمن الحوادث، وذلك أن شخصاً من أصلاء بني سلاق[1] الحاكم على بنى زغار وبنى براق تولى سلطنة السباع ، ومالكية الذئاب والضباع ، مضافاً إلى ذلك الحكم على الطيور والقيام بسياسة أمور الجمهور ، وأقام له فى ذلك وزيراً كافياً ناصحاً مشيراً ؛ يدعى أبا زنمة المشرقى من نسل تكابل الأرتقى وهو من الفحول ، وكباش الوعول ، وقد أرسلونى إلى الجماعة يأمرونهم بالدخول فى رياض الطاعة ؛ ليحصل لهم الرعى والرعاية ، والرفاهية والحماية ، ويأمنوا صيد الكائد وكيد الصائد .

ثم شرعت تبث للكبير والصغير ما شاهدت من مخايل الملك والوزير، وحسن شمائلهما ويمن خصائلهما ، وما هما عليه ونسبا إليه من الشجاعة والدين ، والعقل المتين ، والفضل المبين ، والقناعة والعفة والمجد الذى لا يُدرك وَصْفَه ، وأن الملك المعلوم قد عف عن تناول اللحوم ، وقد قنع بما يسد الرمق من حشيش النبات والورق ، وقد تكفل برفع الظلم ، وردع الظالم ، وإجراء مراسم العدل وإحياء مراسم الفضل ، فإن أنابوا وأجابوا ؛ وربحوا وأصابوا وطالوا وطابوا ، وإن أبوا وصبوا واهتزوا للمخالفة وربوا ، ثم كَسَّهم[2] الدمار وَأَرْكَسَهم[3] ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

فصدقوها من أول وهلة والرائد لا يكذب أهله ؛ لأنهم كانوا بها واثقين، ولكلامها فى الحوادث مصدقين ، فما وسعهم إلا الطاعة ، والتوجه إلى خدمة

---

(١) بنو سلاق : الكلاب .

(٢) كسىّ الشىء أى دقه حتى صيره كالسويق .

(٣) أى عكس حالهم .

الملك فى تلك الساعة ، وبعدما تبادر بالتصديق طاروا بالفرح ودخلوا الطريق، واستصحبوا من الخدام والتقادم ما يصلح للمخدوم من الخادم ، فلما قربت الديار ودنوا من ولاية الملك يسار تقدمت الحمامة وسبقت، وأخبرت الملك والوزير بما فتقت ورتقت[١] ، فاستبشروا بما تقدم وبادر الوزير لملاقاة المقدم ، فتلقاهم بالاحترام والتوقير ، وأكرم الكبير منهم والصغير ، ومشى معهم بالإكرام والحرمة ، وأوقف كلا منهم فى مقام الخدمة ، وحين استقر بهم المقام افتتح الوزير الكلام ، فأثنى على الله تعالى وضاعف التحية على نبيه وآله ، ثم امتدح الملك الذكى بثناء يخجل المسك الزكى ، وذكر بعد ذلك ما يتعلق بسياسة الممالك ، وأن الله مَنَّ بالملك عليه ، وساق سلطنة الوحش والطيور إليه ، وذكر مقام كل من الطيور وما وظيفته بين أولئك الجمهور ، فأطاع الكل وتابعوا وعلى ما اقترحه عليهم بايعوا وأنشدوا فأرشدوا :

ونَحْنُ أَتَيْنَا طَائِعِيْن ولم نَكُنْ عُصَاةَ فَرُمْ غيرَ الطيورِ عساكِراً

ولما انقضى الوطر من قضايا الطير ، أخذوا فى استدعاء جموع الغير من الوحوش الكواسر ، والبهائم الجواسر ، والهوام النواشر ، والجوارح النواسر ، وأرسلوا فى تلك الجماعة الحمامة ، وقلدوها فى طوق الزعامة، فتوجهت نحو الوحش ، وإلى كل فارح من الصيد وجحش ، وكانوا بذلك قد سمعوا وللمشاورة فيه قد اجتمعوا ، فبلغت الحمامة الرسالة وأظهرت ما فيها من بسالة ، وكان آخر ما وقع عليه الاتفاق ، الوفاق ، وعدم النفاق وقصد الأرتفاق والتوجه إلى خدمة الملك يسار صحبة الرفاق ، وقالوا : لا شك أن الكلب بالوفاء مشهور ، وبحسن الرعاية والحراسة مذكور ، ويقدر أن يرعانا من الإنسان ، ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان ، وأوصافه مذكورة فى الكتاب وناهيك بفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب .

---

(١) أى ما كان منها من كلام .

فتقدم خزز[١] من بين تلك البزز[٢] ؛ يدعى رئيس الأرانب محبب إلى الأقارب والأجانب ، وهو مشهور بالحصافة ، موصوف بالذكاء والظرافة ، والمعرفة التامة والتجربة المفيدة العامة ، بعيد الفكرة فى العواقب ، سديد الرأى حازم مراقب .

وقال : يا معشر الأصحاب وأولى الأبصار والألباب ، كيف خفى عليكم ولم يتضح لديكم عاقبة هذه الأمور ، وما فيها من عكوس وشرور ، وهل يصلح للرياسة وإقامة السلطنة والسياسة أهل النذالة والخساسة المتصف بالقذارة والنجاسة ، أو ما علمتم أن من أفحش السباب الشتم بأخس من الكلاب، أو ما سمعتم فى كلام مالك : أزمة القلب فى حق من عامله بالسلخ والسلب فمثله كمثل الكلب . أو ما قال صاحب الشرع فى حق ما ولغ فيه الكلب بالسبع ، ثم التعفير بالتراب ، وهو مذهب كثير من الأصحاب ، وأن لا يطهر بالدباغة منه الإهاب[٣] ؛ لا أصلى تقى ، ولا وصف نقى ، ولا نسب طاهر ، ولا حسب ظاهر ، ولا وجه زاهر ، ولا شكل باهر ، فإن كنتم نائمين انتبهوا ، وأعرضوا عما قصدتم إليه وانتهوا ، فلعن الله زماناً صار فيه التيس وزيراً ، والكلب سلطاناً ، ولقد أرشد من أنشد :

لقد جَارَ صَرفُ الدَّهْرِ فى كُل جَانِبٍ ... مَنَ الأَرْضِ واسْتَوْلَتْ عَلَيْنَا الأَرَاذِلُ
هل المَسْخُ إلا أن ترى العُرْفَ مُنْكراً ... أو الخَسْفِ إلا حين تعلو الأسَافِلُ

فتصدى الهديل للجواب ، وقال : لا شك ولا ارتياب أن المستحق للسلطنة الإمام العادل والشخص الكامل الفاضل ، ولا يقدح فى هذا الفضل دناءة الأصل ، فقد قال القيوم الحى ﴿تُخرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتَ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ [آل عمران:٢٧] وكل من اتصف بالهمة العلية ، والأوصاف السنية،

---

(١) الخزز : ذكر الأرانب .
(٢) الجمع .
(٣) الجلد الذى لم يدبغ .

ومكارم الأخلاق والشيم ، وأنتشر بها صيته بين الأمم ؛ يستحق أن يرأس بين العرب والعجم ، وأما الأنساب ففى نص الكتاب قال : من بقوله يبتدى المبتدون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ولا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] .

وقال الشاعر :

كن ابن من شِئْتَ واكْتَسَبْ أدبا فَسَوْفَ يُغْنيك ذا عن النَّسَبِ
إنَّ الفَتَى من يقول هـا أنا ذَا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال أيضاً :

لِعَمرِكَ ما الإنسان إلا ابن يومِه على ما تَجَلَّى يومَه لا ابن أمسه
وما الفَخْـرُ بالعظم الرَّميم وإنما فَخَارُ الّذى يبغى الفَخَارَ بنَفْسِهِ

وأما الأوصاف ، فلا شك ولا خلاف فى أن الكلاب فضلت على كثير ممن لبس الثياب وما ذاك إلا لأوصاف اختصتها ، وآثار اقتفتها واقتنصتها ، وهى مشهورة وعن الكلاب مسطورة ، ومن جملة محاسنهم مأثورة ، وأما الأوصاف الذميمة فيمكن صيرورتها مستقيمة ؛ وذلك بحسن التأديب والتربية والتهذيب والتمرين والتشذيب[١] ، حتى يصيرنا به مدية[٢] وهذا ليس فيه مرية ، ويجتزى بالفاكهة والبطيخ عن اللحم السليخ ، وبالخبز الشعير عن أكل لحم الحمير ، وناهيك يا أبا وَثَّاب ما قيل فى الكلاب ولابسى الثياب :

ومَا ضَرَّ أهلُ الكيف إيمانُ كَلبِهِم ولكنهم زَادُوا يَقِيناً عَلَى هُدَي
وَمَاذَا أَفَادَ العلم بَلعَام[٣] وهو من بنى آدم لَمّا إلى الأَرْضِ أخلدا

(١) أى يبعد ويسقط عنه من الأخلاق الذميمة .
(٢) أى شفرة وسيف يقطع به عن نفسه من ذم من أخلاق .
(٣) اللعم : اللعاب .

وهذا السلطان ؛ قد عاهد الرحمن أن لا يمزق حيوان ، ولا يذوق لحمان ، وأن يقنع بالكفاف[١] ويسلك طريق العفاف ، وماذاك لعجز ينسب إليه، ولا لوهن طرأ عليه ؛ بل سمت همته عن ذلك ترفعاً ، وسلك طريق الملوك فى إحياءهما ومعاليها تطبعاً وبضدها اتبين الأشياء ، فإن أجبتم كان لكم الحظ الأوفر ، وإن امتنعتم فقد أعذر من أنذر ، وبلّغ من حذر ، وما قصر من بصر ، والعاقل من يتبصر عيوبه ويسلك من الخلق الجميل دروبه، وقد قيل لأمير النحل ذاك الأسد الفحل كرم الله وجهه ، وجعل له إلى الرضوان أحسن وجهه يا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ممن تعلمت الأدب ؟

قال : من قليل الأدب ؛ يعنى إذا رأيت فى أحد خلقاً ذميماً أو وصفاً فسداً بادرت إلى افتقاد نفسى ، وتأملت فى حدسى وحسى هل أنا محلى بذلك الوصف أم لا ، فإن لم يكن اجتهدت أن لا يكون ، وإن كان أبعد عنه عرضى وأصون ، وحسبك يا ذا الرتبة العالية استنكاف اللص العاقل من قول تلك الزانية . فقالت الخزز للحمامة : أخبرينى بذلك الإستنكاف يا ذات الكرامة

[٥٤] **قالت الحمامة** : ذكر رواة الأخبار عن شاطر من الشطار ، قد بلغ فى الشطارة واللصوصيه غاية الميارد ، يسرق الوهم من الخاطر، والرائحة من الطيب العاطر ؛ والنوم من أجفان الوسنان[٢] ، واللماظة[٣] من أسنان الجيعان ، ويأتى على كوامن الغيوب فضلاً عن خزائن الجيوب، ويلف الرخيص والغالى والوضيع والعالى ، وقد أعجز المُقَدَّمَ والوالى .

ففى بعض الأوقات قصد جهة من الجهات ، فبينما هو فى المناهضة

---

(١) أقل القليل .

(٢) من اشتد نعاسه .

(٣) ما يبقى فى الفم بعد الأكل .

والمناهزة غشيه الوالى مع العسس والجلاوزة ، ومعهم إمرأة بغى قد خرجت عن الصراط السوى ، وهم يضربونها ، وعلى أفظع حالة يسحبونها، وهى تستصرخ المسلمين وتستغيث أئمة الدين . فلما أحسن اللص بهم نكب عن دربهم وولاهم عِطفَه ، وانزوى فى عَطفَه وانتظر حتى يمروا ، فسمع المرأة وهم بها قد أضروا ، وهى تصيح بلسان فصيح ، وتقول : يا أهل الإسلام ، وأمة خير الأنام ؛ أنجدونى وارحمونى واسعدوني، لا سرقت ولا نقبت ، ولا اختلست ولا سلبت ، ولا طمعت فى مال أحد ولا نهبت ، ولا وقفت لأحد فى درب ، وإنما استنفق من حاصل دار الضرب ، وذلك ملكى وحوزى ، وثمرة لوزى وجوزى ، بإشارة سهام الحاظى الملَوَّزة ، من قسى حواجب بالجمال مُتَوَّزة[1] ، وسفارة نظام ألفاظى المعززة المشبة باب طريقها دررا فى العقيق والرقيق مغرزة ، فمالى على أحد ثقل ولاطمعت فى مال أحدَ فيحصل له منى ملل .

فلما سمع قاصد الحرام هذا الكلام ؛ أفاق خاطره وراق وتنبه لقبح صنعته ، وإن الزوانى تأنف من حرفته ، وتستنكف مما هو مفتخر بفضيلته .

فقال : لعن الله فعلاً تتقصه الخواطى ، وتبا وسحقاً لمتعاطيه من متعاطى . ثم عاهد الله التواب ، ورجع إليه عن صنعة الحرام وتاب .

وإنما أوردت هذه المناقب يا شيخ الأرانب ؛ لتعلم أن العاقل من يتصفح جرائد أعماله ، ويتأمل صحائف حركاته وأحواله ، وأن هذا الملك صفى شراب صفاته من كدورات الهوى براووق[2] المراقبة ، ونقى رياض ذاته من شوك الأخلاق الذميمة بمنكاش المعاتبة بقدر طاقته وإمكانه ، وهو مثابر على ذلك فى غالب أزمانه ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وليس لك أن تعترض بأن النفس لا تغير طبعها ، وليس

---

(١) غنيظة ثقيلة الشعر .

(٢) أى مصفاه بالملاحظة والمراقبة .

الأكمه كالأرمد[١] ، ولا السطيح[٢] كالمقعد ، ولا سبحان كباقل[٣] ، ولا العاقل كالمتعاقل ، وليس التكحل في العينين كالكحل ، وتخرج يا مسكين بواقعة السلطان محمود بن سبكتكين[٤] مع وزيره حسن الميمندى[٥] ؛ بسبب القضية الواقعة لابن الجُنْدِى ، فسأل أبو عكرشة أبا عكرمة عن هذه الواقعة ليتبين من التمثيل بواقعه .

[٥٥] **فقال** : إن السلطان محمود ذا طابع المسعود ، الذى فتح بلاد الهنود ، جرى بينه وبين وزيره مباحثة ، وقع فيها عن دقيق العلوم منابثه ؛ فى أن الطباع هل تقبل التغيير ، أم لا تستحيل عما جبلها عليه الفاطر الخبير.

فقال الوزير : نعم تقبل التغيير بواسطة التأديب وحسن التشذيب، والتهذيب وقد شاهدنا الطباع من الوحوش والسباع ، بواسطة التعليم تركت الخلق الذميم ، واكتسبت الوصف المستقيم ، فجريان هذا الإمكان أحرى أن يوجد فى جنس الإنسان .

فقال السلطان المظفر : لا تتحول الطباع ولا تتغير ، ولا يمكن صرفها عما جبلت عليه ولا يتصور ، قال من ليس فى كلامه اشتباه ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم:٣٠] .

---

(١) أى ليس الأعمى كالمصاب بالرمد ، وهو مرض عارض .

(٢) البطىء القيام لضعف أو مرض .

(٣) سبحان وائل ؛ خطيب فصيح ضرب به المثل ، وباقل الأيادى ؛ جاهلى ضرب به المثل فى البلاهة .

(٤) محمود بن سبكتكين ؛ لقبه يمن الدولة ، ثالث ملوك الغزنويين ، وأشهرهم ، فتح بخارى وما وراء النهر . شجع الآداب والفنون وفى عهده نبع الفردوس صاحب الشاهنامة توفى سنة (١٠٣٠هـ) .

(٥) حسن الميمندى ؛ وزير السلطان محمود . أكرم العلماء واستبدل بالفارسية العربية ، توفى (١٠٣٢هـ) .

وقال القائل : وتأبى الطباع على النقال .

واستمر هذا الكلام بينهما عدة أيام ، إلى أن ركب السلطان وقصد السيران والوزير فى ركابه بين خدمه وأصحابه . فرأيا من بعد شاباً من أولاد أحد الجند ، وهو جالس على فرع شجرة يابس يريد قطعه لما عدم نفعه ، وقد جعل ظهره إلى طرف الفرع ، وهو عمَّال بالمنشار فى أصله للقطع ، فتأمل السلطان والوزير فى هيئة ذلك الظبى الغرير ، ثم قال السلطان للوزير بين الأعيان : وطبع هذا أيضاً داخل فى الإمكان ، وهو يقبل التغيير والتعليم ، ويمكن استحالته بالتأديب والتفيهم ، فلم يحر الوزير جواباً لا خطأ ولا صواباً، ثم أشار إلى بعض خَوَلِهِ[(١)] ، أن يذهب بذلك الشاب إلى منزله ، فلما نزل من الركوب أحضر ذلك الشاب المرعوب الغافل المحبوب ، ثم طلب له مؤدبا حاذقاً مهذباً وأمره أن يجتهد فى تعليمه ، ويبالغ فى تأديبه وتقويمه ، ويوقفه من العلوم على دقائقها ، ويسلك به إلى خفايا طرقها وطرائقها ، فاشتغل بتربيته ليلاً ونهاراً ، وبذل مجهوده فى ذلك سراً وجهاراً ، إلى أن برع فى أنواع العلوم وضبطها من طريقى المنطوق والمفهوم ، ولما فرغ من العلوم أدناها وأنهاها ، من مبتدئها إلى منتهاها ، شرع به فى علم إدريس[(٢)] وهو علم النجوم النفيس ، واستطرد منه إلى علم الرمل المنير ، وتوصل به إلى أن توصل إلى إخراج الضمير ، فأتقن هذه العلوم ؛ لاسيما إخراج الضمير الموهوم .

فلما أتقن ذلك وسلك فيه أدق المسالك ، أحسن الوزير إليه وأستصحبه إلى الملك ودخل به عليه ، فقبل الأرض وأدى من شرائط الخدمة النافلة والفرض ، وقال للسلطان محمود : إن هذا هو ذاك الشاب المعهود ، وقد برع

---

(١) خدمه .

(٢) إشارة إلى نسبة علم النجوم إلى إدريس عليه السلام ، وهذا مما لا يصح فيه شيء .

فى العلوم ووصل إلى استخراج الضمير المكتوم ، وقد بدلت بلادته بالذكاء وصار فؤاده كابن ذكاء ، فإن اقتضت الآراء السلطانية سَبَرَتْهُ ، واعتبرت فهمه بعدما اختبرته ، فأدخل السلطان يده فى كمه ونزع خاتمه من بصمه[١] ، وأطبق يده عليه ليسْبرَ منتهى علمه ، وينظر ما قاله الوزير فى كيفية هذا التبديل والتغيير ، ثم أخرج يده من كمه وقال : ليظهر نتائج علمه ، ليخبرنا بما فى كَفِّى وعن حواس العيون مخفى ، فتقدم الشاب ورفع الأصطرلاب[٢] ، ووضع أوضاع الحساب وخط ذلك النقى أشكال لحيان والنقى ، وسائر الأوضاع من الطريق والاجتماع ، ثم نظر وسبر وعبس وبسر وقدر وافتكر ، وقال : دل الشكل والله أعلم أن ما حواه الكف المكرم ، شيء من المعادن محفوف بسودد أو سواد بائن ، وهو فى أفضل الأشكال لأنه مستدير ، وفى أحسن الألوان لأنه مستنير ، وفى دائرته قطر ومركز ، وفى وسطه ثقب لمغرز وهو ثقيل ، إما فى الثمن أو فى التحميل ، ثم تأمل بعد الوقوف فى أن هذا الموصوف ماذا يكون ، فقال : كان والله أعلم فردة طاحون[٣] ، فضحك السلطان الكبير وخجل لذلك الوزير ، ثم قال السلطان : أبى الله ، وله السبحان ، أن يكون باقل كسحبان :

إذا كَانَ الطِبَاعُ طِبَاعَ سوء فليس بنافِع أدَبُ الأديبِ

وإنما أوردت هذه المسائل ؛ لئلا يعترض قائل ، ويستدل بمثل هذا الدليل على أن الطباع لا تقبل التغيير والتحويل ؛ بل الطباع تتغير ومن ذا الذى يا عزلا يتغير ، فسبحان من لا يحول ولا يزول ؛ الذى وضع عالم الكون على الانتقال والحلول ، وكلّ لجلال عظمته مُخْبِتٌ[٤] ، يمحق ما أراد

---

(١) إصبعه .

(٢) آلة ، تستخدم فى حساب النجوم والفلك .

(٣) حجر مستدير من حجرى الطحن .

(٤) منكسر ذليل خاشع .

ويثبت ، ويمحو ما يشاء ويثبت ، ومذهب أهل الثبات فى المحو والإثبات : أن الكافر قبل الإسلام كافر عند الملك العلام ، وبعد ما انخرط فى سلك المؤمنين صار مؤمناً عند رب العالمين ، وعلى هذا التقدير والتقرير أيها الفاضل الكبير والعالم النحرير[1] ، فالملك يسار نظر بعين الاعتبار ، وتتصل من رذائل الأوصاف ، وتخلق بأخلاق الأشراف من التلبس بالعدل والإنصاف ، ولولا نيته الصالحة ما صارت صفقته فى المبايعة رابحة ، ولا كانت كفة فضله راجحة ، ولا زايله النكد ولا أطاعه أحد ، والأعمال بالنيات وعلى مقدار النيات العطيات ، وجنس هذا الملك فى الأوصاف المتباينة مشترك ، فإنه قد جمع بين خصائص الحيوان حتى كأنه سبع بهيمة إنسان كما قيل :

جمع الكلبُ فى حَلاَه صِفَاتٍ فَهْو سَبْعُ بهيمةُ إنسانُ

وكما قيل أيضاً :

يكاد إذا ما أبْصَرَ الضيفَ مُقْبِلاً يُكلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أعْجَمُ

وأنا يا مولاى أعرض عليكم هذا الرأى ، وهو شاهد عدل وحكيم فصل، وهو أن يقع الاتفاق على واحد منكم من خلص الرفاق ، مَنْ تحققتم حسن آرائه وصدقه فى أنبائه وصحة دينه ورصانة عقله ويقينه ، فانطلق فى ركابه إلى حضرة الملك وجنابه ، فيكتحل بأنوار طلعته ، ويشمله ميامن رؤيته ويطالع جميل صفاته ليسكن إلى فضيل حركاته ، وينتقل من عليم اليقين إلى عين اليقين ، فيزول باليقين الشك ويظهر خلاصة الذهب بالحك ، ثم يأخذ لكم العهد والميثاق بما يقع عليه الاتفاق ، وما ترضونه وترونه من الصواب ، ويرد عليكم بذلك الجواب ، فإن وافق قصدكم توكلون عليه عهدكم، وتتوجهون بقلوب مطمئنه وخواطر فى حصول المرام مستكنة ، وإلا فترون رأيكم فيما عليكم ومالكم .

(١) الماهر العالم .

فاستصوبوا هذا الرأى واسترضوه ، واستعذبوا لطيف معناه واستحسنوه وانتدبوا لهذا الأمر الخطير من يصلح أن يكون عند الملوك السفير ، فوجد ظبياً طيب العناصر قد عقدت على غزارة فضله الخناصر (١) من أعقل الجماعة وأذكاها وأحسنها رأياً وأدهاها ، فقلدوه الزعامة وأرسلوه مع الحمامة، على أن يجتمع بالملك يسار ويعاهده على ما يقع عليه الاختيار ، ثم يسمع أقواله ويشاهد أفعاله ويميز أحواله ، ثم يرد عليهم الجواب فيميزوا ما فيه من خطأ وصواب ، فيبنوا عليه ويرجعوا إليه .

فتوجه الظبى والحمامة مستصحبين الأمن والسلامة ، فلما قربت الديار سبقت الحمامة إلى خدمة الملك يسار ، وأخبرته بصورة الأخبار ، وأن الظبى فى العِقَبْ مقبل بما يحبه الملك ويجب ، فأمر الملك الوزير أن يتلقى الظبى الغرير مع جمع الطير الكثير . فتقدم الوزير وقال : أسأل مولانا الملك المفضال إن صدر من هذا القاصد خطاب أن يشار إلىَّ برد الجواب ، فإن ذلك أعلى للحرمة وأدنى للحشمة ، وأقوى لناموس الملك والرياسة ، وأزهى لطاوس البسوق والسياسة ، فإن كان ذلك الجواب متحلياً جيده بعقود الصواب، كانت سعادة الملك الملهمة فى خدم الملك من تصدى للأمر وأبرمه ، فإن خرج عن طريق الجادة ، فلا ينسب إلى الملك تلك المادة ، بل يتلقاه الملك بكرمه ، ويكون الخطأ منسوباً إلى خدمه فأجابه إلى ما سأل ، وتقدم الوزير للملاقاة مع سائر الخول ، فتلقوا الظبى بالترحاب ، وفتحوا فى وجهه للكرامة أوسع باب ، ومشوا معه حتى وصل إلى حضرة ، وشاهد تلك الحشمة والنضرة ، فقبل الأرض ووقف وعرف مقدار الملك واعترف ، وأدى الرسالة وبين للملك ما فيها من رقة وجلالة .

فقابله الملك بما يليق بحشمته وأجلسه بالقرب من حضرته ، وخاطبه بما أذهب دهشته ، وآنسه بملاطفات جَلَتْ وحشته ، وسأله عمن خلف وراءه واستقصى فى التفحص أحواله وأنباءه ، فبلغ عبوديتهم وطاعتهم ، وأن

(١) الخناصر : مفردها خنصر : وهو الأصبع الصغير فى الكف ، وهو مثل يضرب لما يتفق عليه .

الإخلاص والطاعة شملت جماعتهم ، وفتح فم الدعاء بلسان ذلق[1] وخطاب طلق ، وكلام غير معقّد ولا قلق ، وأطال فى الدعاء وأطنب[2] فى الشكر والثناء، وسأل شمول المراحم وكَفَّ كَفِّ المتعدى والمزاحم ، فإنهم انبسطوا وانشرحوا وابتهجوا باستيلاء هذا الملك وفرحوا ، وشكروا الله هذه النعمة ، وأنى يفون بشروط العبودية والخدمة، ثم سأل أخذ الميثاق وتأكيد العهد بالإيثاق ، بالأمان والاطمئنان ، لمن وراءه من الوحوش والغزلان ، فأعطاهم الأمان وشملهم بالإحسان ، على أن لا يراق لهم دم ، ولا يهتك لهم حَرَم ، وأنهم يرعون حيث شاؤا ويسرحون حيث ذهبوا وجاؤا ، وأن الملك يسار حاكم سلوق ، وزغار ، خليفة براق ، وكوباك والتتار ، قد عاهد الملك الجبار أن لا يتعرض لوحش القفار ، ولا لأحد من أجناس الأطيار حتى ولا لحيتان البحار ، ولا يريق لهم دماً ، ولا يقصد لهم أذى ولا ألماً ، ويرعى جانبهم ويقضى مآربهم ، ويحفظ شاهدهم وغائبهم، ويمنعهم من مناوءهم ، ولايسلط عليهم من يؤذيهم ماداموا تحت طاعتى وفى جوارى وذمتى ، فقبلت الغزالة بشفاه العبودية خد الجدالة .

وقالت : هذا كان المأمول وجل القصد من الصدقات والمسئول ، والذى جيء لأجله فقد حصل من صدقات الملك وفضله ، ولكن العلم العالى محيط بأن وحوش البسيط أقوام ضعاف ليس بينهم ائتلاف ، وهم طوائف كثير الاختلاف ، أجناس متفرقة وأنواع متمزقة ، ليسوا كقطائع الغنم مجتمعين ولا كحِشَار الخيل ممتنعين ، ولا بعضهم لبعض متبعين ، ثم لم تزل العداوة بينهم قائمة ، وعيون الصلح والاتفاق عنهم نائمة ، لا يضبطهم ديوان ولا يحصرهم حسبان ، ولا يمنعهم من التعدى سلطان ؛ القوى يكسر الضعيف ويمزقه ، والشاكى يستطيل على الأعزل ويغرقه ، ولأجل هذا المعنى لا يمكن اجتماعهم فى مَغْنَى[3] بل البعض فى قلل الجبال[4] متوطن ، والبعض فى

---

(١) فصيح .
(٢) أى أطال حتى وفاه حقه .
(٣) المغنى ؛ جمعها مغان : المنزل .
(٤) مرتفعات الجبال .

سرب التلال متحصن ، والبعض متشبث بذيل الكهوف والمغارات ، والبعض فى الآجام والآكام خوف الغارات ، وكل يخاف حلول البلاء قد اتخذ لذلك القاصعاء والنافقاء[1] ، واستعد بفنون الكيد خوفاً من جوارح الصيد ، وإذا كان الأمر كذلك فاجتماعنا متعسر ، وحفظنا فى الملك غير متيسر ؛ فلابد من ترتيب قاعدة تعم منها جميع الوحوش الفائدة ، ويشمل أمنها غائب الملك وشاهده ، وإلا فالحاضر آمن ، وقلب الغائب غير مطمئن ولا ساكن ، فليفتكر للرعية فى ضابطه تكون الحرمة فيها للقريب والنائى باسطه ، فالتفت الملك للوزير وقال : أجب هذا السفير .

فقال الزنيم : يا أحسن ريم ، هذه الأفكار من قصور الأنظار وعدم التأمل والاستبصار ، وإلا فإن السلطان فى كل مكان كلمته عُليا ، ووجوده كالشمس فى الدنيا ، فكما أن الشمس إذا استوت ، وعلى سرير كبد السماء احتوت عم فيض شعاعها الجبال والآكام والتلال والآجام ، وانتشر على البحر واشتهر على الفاجر والبرّ . فربت الأزهار والأثمار وشبت مشاعل الكلأ فى القفار ، وطبخت الغلال وفواكه الأشجار ، وصبغت فى كوامن المعادن جواهر الأحجار كما قيل :

كالشمس فى كبد السماء محلها وشعاعها فى سائر الآفاق

كذلك الملك العظيم ، إذا انتشر صيت عظمته وعدله فى سائر الأقاليم ، شمل فضله الشريف والوضيع ، وبلغ جود جوده الدنى والرفيع ، وردع عدله الطائع والعاصى ، ووسع نواله الدانى والقاصى ، وأنه كالغمام الصيِّب على الربيع الخصيب ، والدِّيمة المطبقة[2] ، والمزنة المغدقة[3] إذا انتشرت فى

(١) حجر اليربوع .
(٢) السماء الممطرة .
(٣) السحابة المحملة بالماء .

الآفاق وصارت لام عهد عاهدها للاستغراق ، فروت الحضيض والبقاع وعمت الوهاد والتلال والبقاع ، وخاطبها ظمأن الرياض وعطشان الغياض :

أَمْطِرْ عَلَىَّ سحابُ جودِك مرة   وانظـر إلىَّ برحمة لا أغـرقُ

هذا ومتى انتشر فى الأطراف أنكم التجأتم إلى هذه الأكناف ، وتطرز بشمول الصدقات السلطانية من ملابس طاعتكم الطراف والأطراف ، منعت العواطف الملوكية ، والخواطر الشريفة السلطانية عوادى المُعادى ، وكفت أكف المصادم والمُصادى ، فلا يجترئ أحد على التعرض لكم ولا يخطر ببال مخالف أن يقطع سبلكم .

قال الرسول : الأمر كما يقول مولانا الأمير وما أحسن هذا التقرير، ولكن مع المراحم السلطانية وصدقات العواطف الملوكية ، وحسن الطوية وإحسان النية ، فلابد للسياسة وضبط الرياسة ، وقواعد الملك فى الحراسة من ضابط يبنى عليه الملك لأمره أساسه ، لا يتميز به كبير دون صغير ، ولا يختص برعايته جليل غير حقير ، فإن من أحسن أوصاف الملوك والأكابر أن لا يَغفَلوا عن تفقد أحوال الصعاليك والأصاغر ، ولا يقتصروا فى ذلك على نوع دون جنس ، كما يفعله لغلبة الهوى بعض حكام الإنس ، مع أنهم مسئولون عن جليلها وحقيرها ، ومحاسبون على كبيرها وصغيرها ، وفى شأنهم قد قال من فى ضبط حركاتهم وملكاتهم استقصاها ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المُجْرِمِين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مالِ هَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩] وقد تنبه لهذا الفعل الرجيح أيها الوزير النصيح والمنطق الفصيح أنوشروان وهو من الكفار ، واشتهر عنه قضية الحمار ، فسأل الوزير بيِن هذا التقرير .

[٥٦] **فقال الريم** : بلغنا أيها الكريم أن أنوشروان بالغ فى نشر العدل والإحسان ، ومعاملة الرعية كبيراً وصغيراً بالسوية ، وبَذَلَ فى ذلك جهده واستنهض لمساعدته وكده وكدو(١) ، واختشى أن يمنع المتظلم الفقير الأبواب بسبب حاجب أو كبير لغرض أو عرض ، أو ارتشاء من فى قلبه مرض . فيمشى مدلس البراطيل(٢) من خوف الأباطيل ، ويضيع بحث صارخ الحق فى أوقات التعطيل ، فأداه قائد اجتهاده وانتهى به رائد مراده ، إلى أن يعقد فى طاق مبيته ، ومجتمع خاطره عن تشتيته ، من محاذى السرير حبل من الحرير ، ويربط طرفه الأدنى فى حلقة الباب حيث لا حاجب ولا بواب ، وهو مكان مجتمع الجمهور ، ولا يمنع أحد فيه من الوقوف والمرور ، وأن يشد فيه أجراس من خالص الذهب لا النحاس ؛ بحيث إنه إذا حرك الحبل صوتت الأجراس صوتاً أخرس الطبل ، ثم أمر منادياً أن يرفع صوتاً عالياً : بأن من كان شاكياً فعليه بتحريك ذلك الحبل ليقع الظالم فى الكبل(٣) أو ينتصر المظلوم من بعد ومن قبل . فاشتهرت هذه العادة ، ونال بها فى الدنيا السعادة، وعظم صيته ، وخمدت عفاريته ، وانتصفت صفاريته(٤) ، ففى الظهائر عند قائلة الهواجر(٥) وأنوشروان فى مبيته قد طاب اضطربت الحبل والأجراس أشد اضطراب ، ففر أنوشروان مذعوراً وتصور المحرّك مظلوماً مقهوراً ، فابتدر بطلبه لينظرفى ظلمه وسببه فتبادروا إلى إحضاره واستكشاف أخباره ، وإذا هو حمار جَرِب جَنَب ، جسمه من الجرب خرب ، ومتن ظهره من الحكة نقب ، وقد هد عمارة عمره هادم الهرم ، وألهب حشيش حشاشته من

---

(١) وكده وكده : قصد قصده .
(٢) صاحب الرشوة .
(٣) القيد .
(٤) الصفاريت ، مفردها الصفريت والفقير .
(٥) الهواجر ، مفردها الهاجر : نصف النهار فى القيظ أو من عند زوال الشمس إلى العصر ؛ لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الجوع ماضي الضرم ، يحمله له صاحبه ما لا يطيقه ، ويقطع عنه قوته وعليقه ، يؤذيه ولا يداويه ويدور به ولا يداريه ، فطلب مالكه وعَتَبَه ، ثم زجره وضربه ، ثم أمر بالنداء فى الأسواق وامتد ذلك حتى بلغ الآفاق وعم الضواحي والرزداق[1] : أن يسلك بما ملكت اليمين الإرفاق ، ولا يقطر عليها فى الإنفاق ، وكل من عنده دابة قد استعملها فى صباها واستوفى فى خدمته قواها يراعى حقوقها إذا كبرت ، ولا يضيع ما قدمت بما أخرت ، وصك وجه ذلك الرجل صكاً ، وكتب عليه بفرض حماره صكاً .

وإنما ذكرت هذا المثال ؛ فى معرض ما يقال من : أن عدل السلطان خير من خصب الزمان ، وأيضاً فإن قصد الملك إذا كان صالحاً كان أمره فى جميع الأزمان ناجحاً ، وسخر الله له من يرشده إلى قصده، ويعينه على أمور شعائره ، ويحي ذكره من بعده ، وتَدُرُّ على يده سحائب البركات ويجرى منها على خير قصده أبحر الخيرات ، وحفظ كل من إليه ينتسب ، ورزقه كل ذلك من حيث لا يحتسب ، وحاصل هذه المقدمة أن المسئول من الصدقات المعظمة ؛ أنه إذا ترامى على أبواب عدلها شاكى أو تعلق بأسباب مَعْدَلَتِها متظلم باكى ، تتصدى هى بنفسها لكشف ظلامته ، ولا تترك الغير فى فصلها لإقامته ، وأن الفقير من جماعتنا ، والضعيف من أهل طاعتنا إذا مست الحاجة به إلى بث شكوى أو رفع بلوى ، يتقدم إلى شكواه بلا واسطة ليأمن فى أمره المغالطة ، ويصادف مُقْسِطه لا قاسطه[2] ويتساوى فى كل من مشرب العدل والإنصاف ومراعى الفضل والألطاف ؛ الظباء ، والأسود ، والذئب والعتود[3] ، والعقاب ، والعصفور ، والحمام ، والصقور ، ولا يتقدم فى الدعاوى من حيث التساوى ؛ الوجيه على الجاهل ولا النبيه على الخامل، ولا الكبير على الصغير ولا الجليل على الحقير .

---

(١) القرى وما يحيط بها .
(٢) أى من يعدل لا من يظلم .
(٣) الخيل .

فإن اقتضت الآراء العالية تولية عامل فى ناحية ، فليكن ممن له شفقة تامة ورحمة فى أمر الرعية عامة ، ويعرف ذلك بمن جربته العلوم الكريمة وتحققت أن نيته فى رعاية الرعية مستقيمة ، قد صارت له الشفقة مَلَكَة وكل من العدل والإنصاف قد ملكه ، ولا تولى أحد الغرض ؛ أو من فى قلبه من أذى المساكين مرض ، وإن الطبيعة إذا اعتادت عادة والمُسْجِيَة[1] إذا جعلت لها بعض الأوصاف قلادة ، سواء كان ذلك مذموماً أو محموداً مقبولاً عند العقل والشرع أو مردوداً ، فإنها تبرزه فى غالب الأوقات ، ولا تتخلف عن ملابسته فى أكثر الحالات :

العين تَعْرِف من عينى محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وكل قضية لا يساعدها القلب فمنتهاها على العكس والقلب ونظيرها يا رئيس المدارة ؛ قضية من زوجته أمه وهو كاره فسأل الوزير من السفير تقرير هذا النظير .

[٥٧] **فقال** : كان شاب من العُراب ، قصدت أمه تأهله فزوجته بامرأة أرملة ، ولم يكن له احتياج ولا رغبة فى الزواج ، واختار التخلى للصلاة على مذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، ولكن فَرَّ من العقوق ، وكتب على نفسه الحقوق ، فلما عُقِدت الوليمة وصممت العزيمة وجمعت النساء والرجال أرسلت أمه إلى جار لهم قوال أستاذ فى صنعته ماهر فى حرفته ، فدعته إلى الجمع ليبتهج بحسن غنائه السمع ، فيشغل الوقت ويذهب المقت ، ويحصل للحُضور النشاط والسرور فتخلف وأبى وعن الحضور نبا ، فسئل عن تصلفه[2] وسبب تخلفه .

---

(١) النطرة .

(٢) امتناعه مع عدم اكتراث لمن حضر .

فقال : بلغنى أن الزوج الخاطب غير طالب ولا راغب ، وإذا كان كذلك فلا يُغْنى الغناء إلا العناء ، ولا يؤثر فى القلوب والأسماع ؛ بل تنفر عند سماعه الطباع فكل شىء لا يصدر عن رغبة القلب ، فإن إيجابه لا يفيد إلا السَّبُّ ؛ فيضحك علىَّ القائم والقاعد ، ويسخر منى الصادر والوارد، ويروح تغزلى فى البارد .

وإنما ذكرت ذلك ؛ لأعرض على أراء المالك أنه إذا أولج أمر الرعية إلى أحد من الخاصكية[1] ينظر إلى شفقته ، ويسبر وفور مرحمته ، ثم يوليه عليهم ويتقدم بالطاعة إليهم ، فيستقيم إذ ذاك فعليهم وفعله ، ويظهر فى حركاته وسكناته عدله ، وليس "عدل فى القضايا تساويها ولا إجراؤها على نسق واحد يحويها ، بل معرفة مقاديرها وبيان تقريرها فى المبادىء وتحريرها ، ثم إجراؤها على مقتضى مدلولها ، ورد فروع كل مسألة إلى أصولها ؛ ووضع الأشياء فى محلها وإيصال الحقوق إلى أهلها ، ومعرفة منازل أربابها وأوضاع أصحابها ومراتب طلابها ، فمن لم يحقق هذه الأمور أضاع مصالح الجمهور ، فأعطى غير المحق ما لا يستحق ومنع الحق عن المستحق ، وقد قيل يا أبا السعود : إن حقيقة الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى ، وإلا كان كالباذر[2] فى السباخ[3] وأشبه فى أمره أجير الطباخ الذى لم يعرف معنى العدل فقصده فوقع فى الجدل ، فسأل الغزال شيخ الأوعال عن هذا المثال .

[٥٨] **فقال** : كان عند بعض الأشياخ من الطباخين أجير طباخ ، له رغبة منهمة على معرفة طبخ الأطعمة ، وكيفية ترتيبها وصنعة تركيبها ،

---

(١) خاصة الملك والسلطان .

(٢) من يبذر الأرض ، الفلاح .

(٣) الأرض البوار .

وكان مغرماً بذلك يسلك فيه كل المسالك ، ويَرِدُ فيه الموارد ويتبع كل صادر ووارد ، ففى بعض الآناء وقف على طبيب من الأطباء ، فسمعه يقول: إن أصلاً من الأصول العدل والتسوية بين الأطعمة والأغذية ، والعقاقير والأدوية، فمن لم يستعمل الاستواء فى درجات الغذاء والداو ؛ ضل عمله وغوى ، وأصل هذا المزاج ؛ ولا ينكره إلا ذو لجاج فإن العناصر الأربعة منها المضرة والمنفعة ، وقد تولد منها السوداء والبلغم والصفراء والدم[١] ، فمتى اعتدلت هذه المتولدات ؛ صحت الأبدان واللذات ، ومتى عن الاعتدال عدلت أمرضت وقتلت .

وكذلك النيِّر[٢] الأعظم والكوكب المضيء فى العالم ، إذا حل فى مركز الاعتدال استقام للعالم الحال ، وطاب الزمان واعتدل ، وذلك عند نزوله فى برج الحمل ، فتصـ ـر ذلك الولهان أن المقصود التسوية فى الأوزان، فانصرف وهو فرحان وقصد طعام الزبرباج[٣] وعبَّى من مفرداته ما يحتاج ، ثم إنه ساوى بين أوزانها وقصد العدل فى ميزانها ، وخلط كعقله أخلاطها، ووضعها فى قدر وساطها ، فخاب عمله فى عدله وبان نقصه فى فضله .

فلما رعى الملك والوزير ما سلكه السفير فى نظام هذا التقرير شكرا له مساعيه ، وأخصبا فى الإكرام والإعزاز مراعيه ، وقالا : جزاك الله خيراً عن شفقتك ، وحسن صنيعك لمرسليك ورفقتك ، فمثلك من يصلح للسفارة بين الملوك ، وتولى أمور الرعية من الغنى والصعلوك ، فإنك ناصح لمن فوقك شفيق على من دونك .

---

(١) السوداء ، والبلغم ، والصفراء ، والدم : الأخلاط الأربعة داخل جسم الإنسان ، فى عرف الأقدمين .
(٢) الكوكب المضيء .
(٣) الجيد الجميل من كل شيء .

ثم قال الوزير : إن هذا الملك الكبير مقاصده العظيمة أن تكون الأمور مستقيمة ، وأن يصلح العباد والبلاد ، ويطمئن المستفيد والمستفاد ، فاحتفظ أيها السفير المنير الضمير بما سمعت ورأيت وشاهدت ووعيت ، واجعله من عنوان أنبائك ومقدمات أفعالك وآرائك ، وأبلغه من يَحفُك[1] من أمامك وورائك ، ومهما وصلت إليه قدرتك وأحاطت به يدك وكلمتك ، من إبلاغ الخير إلى مسامع الوحش والطير عن هذا الملك وأوصافه ، وتطلعه إلى مراقي السَّيْر والإحسان واستشرافه ، وما تسكن به الخواطر وتطمئن به الضمائر ، وتقر به العيون بالسرور وتستقر به القلوب في الصدور ؛ فلا تألُ فيه جهداً ، وأوسع فيه جداً ، ولا تنته في إنبائه حداً فإن المجال ؛ واسع وميدان المقال شاسع ، وقد أذن لك فيه وإن أخفيته في نفسك فالله مبديه .

ثم كتب له بذلك مراسيم عن ثغر الأماني مباسيم ، وأفيض عليه خلع الكرامة وأضيف إليه الحمامة ، ورجع إلى أهله مغمور بفضله مسروراً بقوله مشكوراً بفعله ، فائزاً بالمطلوب ظافراً بكل مرغوب ، فارغ البال طيب الحال، فاتصل بأهل دياره وهم في انتظاره ، فبادروه بالسلام وقابلوه بالاستلام، وقالوا : ما وراءك يا عصام ، فبلغ الجواب بأرشق عبارة وأليق خطاب ، وذكر لهم ما رأى وسمع ووعى ، فانتشرت هذه الأخبار حتى ملأت الأقطار ، وتسامع بها وحوش القفار ، وفاح بطيب نشرها الأزهار ؛ فكان جميع البَرّ معطار .

ثم اجتمع رؤساء الوحوش والبهائم ، وعرفاء الصوادح والبواشم[2] ، وكل ساكن في القفار من سائم وحائم ، وأرسل كل إلى أمته رسوله يدعوها إلى ما يحصل سولها وسوله[3] ، فلبت كل أمة دعوة رسولها ، وأقبلت

---

(١) أي من أحاطوا بك واهتموا .

(٢) البواشم ، مفردها الباشمة : الظبية .

(٣) أي سُؤلها وسُؤله .

لاستماع المراسيم وقبولها ، فاجتمعوا فى رياض مرج أخضر ، وحلّقوا لاستماع المراسيم حول المنبر ، وأطرقوا وسكتوا واستمعوا وأنصتوا ، وتناول المرسوم الصادح من الباغم ، وصعد على الغصن الناعم مطوق الحمائم، وابتداء باسم الكريم الغفور ، وقرأ على رؤوس الأشهاد مضمون المنشور ، ودعاهم إلى الطاعة والدخول فى سنن السنة والجماعة ، وأنهم لا يتأخرون عن الحضور بعد الا لىلاع على مضمون المنشور ، فإنه فرمان أمان لكل من أجناس الحيوان ، ولم يبق مقالا لمتخلف ، ولا مجالا لمتأخر ومُسَوِّف كما قيل :

فَمَنْ جَاءَنا طَوْعاً أقمنا بِمَجْدِه   ومَنْ يَأْبَ لا يَعْتَبْ عَلَيْنا فِعَالَنَا

إلى آخر الرسالة مع ما تحمله الرسول من مشافهة ومقالة ، ومن ملاطفات تشرح الصدر وتستنزل البدر ، وتوضح ما للملك من جلالة وقدر ، فتلقى الكل هذا الكلام بآذان القبول والإكرام ، واتفقوا على التأهب والمسير والاحتفال بالكبير والصغير ، وأخذوا فى تعبية التقادُم والخدم ، وفرضوا ذلك على ما لكل من طوائف وحشم ، وتصدعوا عن هذا المرسوم على أن يجتمعوا فى يوم معلوم ، ثم أعد كلّ عتاده ، وأكمل خدمته وزاده ، واجتمعوا لذلك اليوم الموعود وتوجهوا إلى الخدمة فى الطالع المسعود .

ولما دخلوا الدرب وضربوا فى الأرض أيمن ضرب ، توجهت الحمامة بالبطاقة بهذه البشارة والطلاقة ، فانتشر هذا الخبر وملأ البدو والحضر ، فلما وصل الطائر دقت البشائر وسُرَّتْ الأهل والعشائر ، ثم إن الملك دعا الوزير وقال : اعلم أيها الناصح الخبير والبحر النحرير ، أن الوحوش واصلة إلى منزلك ، وبخفها وحافرها نازلة فى ساحلك ، وإن راية سلطاننا بعون الله بالنصر نشرت ، ووحوش الجنود والعساكر بحمد الله تعالى على بساط بسيط الطاعة حُشِرَت ، وفى هذه الجيوش أصناف الوحوش ، وطوائف السباع،

وأنواع الذئاب والضباع ، وفيهم الفراعل[1] والثعالب ، والعسابر[2] والأرانب، ولا شك أن هيبة الملك صادعة ، وحرمة السلطنة باسطة فارعة ، وحضرة السلطان ذات جلال وإن كانت جامعة لصفتى الجلال والكمال ، وما عند كل أحد مسكة للملاقاة ولإثبات جنان عند المشاهدة للملك إذا رآه ، فمن لم يكن بيننا وبينه اجتماع فقد وقرت هيبتنا فى قلبه على السماع ، ومن تصدينا له فى ميادين الصيد وأفلت بعد معاناة الكدر والكيد قد رأيته على العيان ، ولا يحتاج فى معرفة قوة سلطاننا إلى ترجمان ، وعلى كل تقدير فمشاهدتنا على غالبهم أمر عسير ، لأنه ربما يتذكر منهم متذكر أو يتفكر منهم متفكر ، واقعة أو سابقة وقعت انجرح فيها من نصل أنيابنا مفاصل عراقيبه ، أو تعلق بها من أشعاره وأوباره مشاطة جلابيبه ، ومن لم ينجه منا ضباحه[3] ، ولم يكن سلاحه من كلاليب مخالبنا إلا سلاحه ، فبمجرد ما يقع نظره علينا ، أو تمثل بالوقوف لدينا ، يرجف فؤاده وينفض من عيبة كرشه زاده ، فينكص من الخوف على عقبيه ولا يعرف أمره من حواليه ، فيتبعونه ويحصل الفشل ويقع الخباط والخلل، فيبهم ما أوضحناه ويفسد أضعاف ما أصلحناه ، وينهدم من أول الأمر إلى آخره ما بنيناه ، ويتعوج من مستقيم السلطنة ما سويناه ، فلا يحصل من عزة المملكة إلى على مثل ما حصل لأبى الحصين من شيخ الدبكة . فقال الوزير : ينعم مولانا الأجل بتقرير هذا المثل

[٥٩] **قال الملك** : سمعت مخبراً أنه كان فى بعض القرى للرئيس ديك حسن الخلق وديك[4] ، مرت به التجارب وقرأ تواريخ المشارق والمغارب ، ومضى عليه من العمر سنون ، وأطلع من حوادث الزمان على فنون ،

(١) الفراعل ، مفردها الفرعل : الضبع .

(٢) العسابر ، مفردها العسبر : النمر .

(٣) صراخه .

(٤) سمين .

وقاسى حلوه ومره وعانى حَرّه وقُرّه ، وقطع للثعالب شباك مصايد وتخلص لابن آوى من ورطات مكايد ، ورأى من الزمان وبنيه نوائب وشدائد ، وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب ، وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب وأحكم من طرائقها عجائب وغرائب ، فاتفق له فى بعض الأحيان أنه وقف على بعض الجدران ، فنظر فى عطفيه وتأمل فى نقش برديه فرأى خيال تاجه العقيقى ، ونظر إلى خده الشقيقى[١] ، ونفض برائله[٢] ، المنفش ، وسراويله المنقش ، والثوب الذى رقمه نقاش القدرة من المقطع والمبرقش فأعجبته نفسه ، وأذن فاطرية حسه وتذكر ما قاله الأسعد المادح فى المعتصم بن صمادح[٣] وهو :

كَأن أنوشروان أعطَاهُ تَاجُه ونَاطت عليه كف مارية القُرطَا
سَبَىَ حُلَةَ الطاوس حُسْنَ باسه ولم يَكْفِهِ حَتّى سَبَى المِشْيَةَ البَطَّا

فصار يتيه ويتبختر ويتقصف ويتخطر ، فاستهواه التمشى سويعة[٤] ، حتى أبعد عن الضيعة ، فصعد إلى جدار وكان قد انتصف النهار فرفع صوته بالأذان فأنسى صوته الكنانى والدهان ، فسمعه ثعلب فقال : مطلب ، وسارع من وكره وحمل شبكة مكره ، وتوجه إليه فرآه فسلم عليه ، فلما أحس به أبو اليقظان طفر إلى أعلى الجدران ، ثم حياه تحية مشتاق وترامى لديه ترامى العشاق .

وقال أنعش الله بدنك وروحك ، وروى من كاسات الحياة غبوقك

---

(١) نسبة إلى شقائق النعمان ذات اللون الأحمر .

(٢) ما حول عنق الطائر من الريش .

(٣) المعتصم بن صمادح :السلطان ، أبو يحيى التجيبي الأندلسى ، محمد بن معن كان حليماً جواداً ، ممدحاً وكان فيه خير ودين وتواضع وعقل تام ، مات فى ربيع الآخر سنة (٤٨٤هـ) سير أعلام النبلاء (٤٢٥٤) .

(٤) تصغير لساعة .

وصبوحك ، فإنك أحييت الأرواح والأبدان ؛ بطيب النغم والصياح فى الآذان، فإن لى زماناً لم أسمع بمثل هذا الصوت ، وقاك الله نوائب الفوت ومصائب الموت ، وقد جئت لأسلم عليك وأذكرك ما أسدى من النعم إليك ، وأبشرك ببشارة وهى أربح تجارة وأنجح من الولاية والإمارة ، لم يتفق مثلها فى سالف الدهر ولا يقع نظيرها إلى آخر العصر ، وهى أن السلطان أيد الله بدولته أركان الإيمان ، أمر منادياً فنادى بالأمان والاطمئنان ، وإجراء مياه العدل والإحسان ، من حدائق الصحبة والصداقة فى كل بستان ، وأن تشمل الصداقة كل حيوان من الطير والوحش والحيتان ، ولا يقتصر فيها على جنس الإنسان ، فيشارك فيها الوحوش والسباع، والبهائم والضباع ، والأروى[(١)] والنعام ، والصقر والحمام ، والضَّبُّ والنون[(٢)] وأبو قلمون ، ويتعاملون بالعدل والإنصاف والإسعاف دون ، ولا يجرى بينهم إلا المصادقة وحسن المعاشرة والمرافقة ؛ فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقة فيطير القطا مع العُقاب ، ويبيت العصفور مع الغراب ، ويرعى الذئب مع الأرنب ، ويتآخى الديك والثعلب ، وفى الجملة : لا يتعدى أحد على أحد فتأمن الفارة من الهرة ، والخروف من الأسد ، وإذا كان الأمر كذا فقد ارتفع الشر والأذى، فلابد أن يمتثل هذا المرسوم ، ويترك ما بيننا من العداوة والخلق المذموم، ويجرى بيننا بعد اليوم المصادقة ، وتنفتح أبواب المحبة والمرافقة ، ولا ينفر أحد منا من صاحبه بل يراعى مودته ويبالغ فى حفظ جانبه .

وجعل الثعلب يقرر هذا المقال ، والديك يتلفت إلى اليمين والشمال، ويحتاط غاية الاحتياط ، ولا يلتفت إلى هذا الهذيان والخياط ، فقال الثعلب : يا أخي، مالك عن سماع كلامى مرتخى ، أنا أبشرك ببشائر عظيمة لم تتفق فى

---

(١) الضأن التى تعيش فى الجبال .

(٢) الحوت .

الأعصر القديمة ، وإنما برزت بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة ، وأراك لا تلتفت إليَّ هذا الكلام ، ولا تسر بهذا اللطف العام ، ولا تلتفت إلى ولا تعول عليَّ ، وتستشرف على بعد الشيء ، فيلا أخبرتني بما أضمرت ونويت، وتطلعني فيما تتطاول إليه على ما رأيت ؛ حتى أعرف في أي شيء أنت ، وهل ركنت إلى أخباري وسكنت .

فقال : أرى عجاجاً ثائراً[1] ، ونقعاً إلى العنان فائراً[2]، وحيواناً جارياً كأنه البرق سارياً ؛ ولا عرفت ما هو ؛ ولكنه أجرى من الهوا فقال أبو الحصين وقد نسي المكر والمين : بالله يا أبا نبهان حقق لي هذا الحيوان ، فقال : حيوان رشيق له آذان طوال وخصر دقيق ؛ لا الخيل تلحقه ولا الريح تسبقه ، فرجفت قوائم الثعلب وطلب المهرب ؛ فقال أبو المنذر : تلبث يا أبا الحصين واصبر ؛ حتى أحقق رؤيته وأتبين ماهيته ، فإنه يا أبا الحصين يسبق طرف العين ، ويكاد أبا النجم يخلف النجم في الرجم ، فقال : أخذني فؤادي، وما هذا وقت التمادي ، ثم أخذ يسلح وولى وهو يصدح بقوله :

لابِسُ التاج العقيقي	لا تَقِفْ في طريقي
إن يَكُن ذا الوصف حقًّا	فهو والله السَّلُوقي[3]

فقال الديك : وإذا كان وقد قلت إن السلطان رسم بالصلح بين سائر الحيوان ، فلا بأس منه عليك فتلبث حتى يجيء ويقبل يديك ، وتعقد بيننا عقود الصداقة ويصير رفيقنا ونصير رفاقه .

فقال : مالي برؤيته حاجة ، فدع عنك المُحَاجَّة واللجاجة . فقال : أو ما زعمت يا أبا وثَّاب أن السطان رسم للأعداء والأصحاب أن يسلكوا طرائق

---

(١) الغبار الثائر .

(٢) الصراخ العال المخيف .

(٣) السلوقي : كلب الصيد .

الأصدقاء والأحباب ، فلو خالف المرسوم هذا الكلب لما قابله الملك إلا بالقتل والصلب . قال : لعل هذا المشوم لم يبلغه المرسوم ، ثم ولى هارباً وقصد للخلاص جانباً

وإنما أوردت يا نفيس هذا المثال ؛ لتقيس أحوال من دان لك من هذا الحيوان ، ولا تشقها بعصا واحدة ، واحسب حل كل واحد على حده ، فربما يكون فى هذه البهائم من لا هو بأحوال الصلح عالم ، ولم تبلغه الدعوة ، وإنما إنضاف بسبب رَجْوِهِ ، أو آمن على سبيل التبعية والتقليد ، ولم يطلع على موارد الوعد والوعيد ، ولا وقف على ما وقع من الاتفاق ، ولا يثبت لمصادمة اللقاء وقت التلاقى ، فيصدر منكم حركة تؤدى إلى قلة بركة ، وتستطرد إلى نفرة جفول(١) فيدهمنا هدم ما أسسناه على غفول ، ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ، ويضيع نقود جواهر جهدنا وكدنا فيه ، وإذا كانت الدنيا محل العوارض ، والغالب أنه عند مشارفة المقصود يحصل العارض ، والعاقل لا يغفل عن هذا الخطر فعند صفو الليالى يحدث الكدر ، وقد كفاك من ناداك بقوله :

إذا قَرَبَتْ يداك إلى مَرَام ... وقلت تَخولَتْ نفسى مُنَاهَا
فلا تَأمنَ من الدَّهر اختِلاساً ... بحَول فمكره فى ذا تناهى
كجان لم يُصبِه الشَّوكُ إلا ... وقد وصَلَتْ يَدَاهُ إلى جَنَاها

فالرأى السديد يا أبا سعيد يقتضى أن تمضى الحمامة المطوقة إلى تلك الجموع المفرقة ، وتنادى فى كل نادى بين الحاضر والبادى والرائح والغادي، بحقائق الأمور وتطيب خاطراً لجمهور ، وما هم قادمون عليه ومن هم الواصلون إليه ؛ ليعلموا أنهم فى صفقتهم رابحون ، وأنهم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون .

---

(١) الشرود .

فتوجهت الحمامة بهذه النقوش وشهرت النداء في طوائف الوحوش ، بما هم عليه قادمون ، وأنهم للملك يسار خادمون ، ثم تبعها الوزير ومعه كل أمير وكبير ، من خواص المباشرين والأعيان الملازمين ، وكبراء الأطيار ورؤساء الأخيار ، واستقبلوا ملوك الوحوش والهوام ، ورؤساء السوائم والسوام ، وقابلوا ملتقاهم بالإعزاز والإكرام ، ووعدوهم بكل خير وإحسان، ووصلوا بهم إلى ميدان الأمان ، وحين حل عليهم نظر السلطان؛ قبلوا الأرض ووقفوا في مقام العرض ، وأدوا من واجب العبودية النفل والفرض ، فأنزل كلا في مقامه ، بعد أن أحله في محل إكرامه ، وأفاض عليه خلَع إحسانه وإنعامه ، وعلت منزلة الوزير ، وتقدم كما تقدم وأُشير ، وصفا لهم الزمان وعاش في ظل عدلهم كل ضعيف من الحيوان ، وتقلبوا في رياض الأماني على بساط الأمان.

وفائدة هذه الحكايات تنبيه أشرف جنس المخلوقات ، وألطف طائفة المكونات وهو نوع الإنسان ، الذى اختصه الله تعالى بأنواع الإحسان ، وأيده بالعقل وأمده بالنقل ، على أنه إذا كان هذا الفعل الجليل يصدر في التنظير والتمثيل ، من أخس الحيوانات ومالا يعقل من الموجودات ، فلأن يصدر من أولي النهى وأُولي الفضل والمكارم والعُلى ، أولى وأحرى ؛ لاسيما من رفع الله في الدنيا مقداره ، وأعلى على فم الخلائق مناره ، وحكّمه في عبيده المستضعفين واسترعاه على رعية سامعين مطيعين ، وسلطه على دمائهم وأموالهم ، وبسط يده ولسانه في رفاهيتهم ونكالهم .

والأصل في هذا كله : قول من عم عبيده بفضله ، وبقوله اهتدى العالمون ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣].

آخر الباب السادس والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين .

الباب السابع

فى ذكر القتال بين
أبى الأبطال الريبال وأبى دغفل سلطان الأفيال

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ من ليس له فى الفضل مساو ولا مواس[1] :
فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الأحلى من النسيب ، قبّل أخوه بين عينيه وأفاض خُلَع الإنعام عليه ، ثم استزاده وفتح لجامع فضله باب الزيادة ، وكان قد وقع بين ملك الأفيال ، وبين ملك الأسود ، المسمى بالريبال[2] ، المكنى بأبى الأشبال ، وأبى الأبطال مقال أدى إلى الجدال ، واتصل بحرب وقتال ، فسأل الملك أخاه هل سمع من ذلك شيئاً ووعاه ، فأجاب بالإيجاب وذكر فى الجواب الأمر العجاب .

[٦٠] **فقال** : كان يا ملك الزمان فى بعض أطراف الهنود من عساكر الأفيال جنود ، فى جزيرة عظيمة كبيرة لهم من جنسهم وجلدتهم ونفسهم ملك عظيم ، ذو جسم جسيم وشكل وسيم ، منظره بديع وهيكله رفيع ، طويل الخرطوم واسع الحلقوم مبسوط الأذنين حديد العينين[3] ، طويل الأنياب ، كأنه طود فى جراب[4] ، كثيف فى المرأى خفيف فى الموطأ ، عدد جيشه غزير ، ومدد جنده كثير ، وهو فيهم ملك كبير ذو قدر خطير منفرد بالسرير ، ورثه كابراً عن كابر ، وكل جيشه رؤساء وأكابر ، لأوامره طائعون ولما يراه تابعون .

فبلغه فى بعض الأيام أن فى بعض الغياض والآكام ، مكاناً فى غاية النزاهة معدن الفواكه والفكاهة ، ذا مياه عذبة ومروج رطبة أراضيها أريضة[5] ، ورياضة طويلة عريضة ، أطيارها تُسْكِر بألحانها ، وأشجارها

---

(١) أى لا يوجد مثله فى صلابته .
(٢) من أسماء الأسد .
(٣) شديد حدة البصر .
(٤) أى وكأنه جبل فى سفينة يمشى فى البحر .
(٥) أرض كثر عشبها .

تخجل قدود الملاح بأغصانها ، وأزهارها زَهِـرَة ، وأنوارها نضرة ، ونسيم الصبا والشمال تنشر إلى الآفاق طيب أنفاسها العطرة ، وأنه يصلح أن يكون لملك الأفيال مقاماً مع أن فيه من الجبال والحصون معاصم وعصاما ، غير أن فيه أسداً هصوراً[1] جمع فيه جنداً كثيراً .

ولازال الناقل يصف رُيطنب ، ويعجم فى حسن شمائلها ويعرب ، حتى قال بعض الندماء الحاضرين من الكبراء : لو قصد الملك ذلك المكان وجعله لنفسه من بعض الأسكان ، وتنقل إليه فى بعض الأوقات وساعات التفرج فى المنتزهات ، لأراح نفسه الخطيرة من وغم هذه الجزيرة ، ووجد لذة الطعام ونشوة الشراب على المدام ، والأسد الذى فيها ، وإن كان مالك نواحيها وبيد تصرفه زمام نواصيها ، وجماجم قلاعها وصياصيها[2] ، لكنه ملك عادل وسلطان فاضل ، تمنعه شهامته وكرم نفسه وكرامته ، ورياسته وزعامته أن يضايق الملك فى ذلك ، أو يضيق سلوكها على سالك ، وإن شرع فى الممانعة وأخذ فى أسباب المدافعة بالمقارعة والمنازعة ، فالعساكر المنصورة وأعدادهم الموفورة ، فيهم بحمد الله لذلك قوة وكفاية ولهم فى بداية الحروب هداية ، وفقاهة ليس لشرحها غاية ولا لفروع أصولها نهاية ، يُحيون فى مباحثها النفوس ، ويعيدون فى مدارس الحرب بتكرار الضرب فانى الشجاعة بعد الدروس ، فيكفون الملك أمره ويكفون أذاه وشره .

ولازال يفتل منه فى الغارب والذروة ، ويقوى بتمويهاته دواعى الحرص والشهوة ، حتى اقتنصته أشراك المطامع ، وأوقعته فى عبودية شهوة تلك المواضع ، ودعته النفس الأبية وحمية الجاهلية وباعث العصبية إلى الاستيلاء على تلك الأماكن البهية والولايات السنية ، والمساكن الزهية ،

---

(١) الهصور من أسماء الأسد ؛ لأنه يصهر فريسته .

(٢) أى لا يوجد مثله فى صلابته .

وإسامة سوارح اللّحاظ فى مراعى نزهة تلك الغياض ، ومروج أراضى تاتيك الرياض ؛ وأزعج فى ذلك المقتضى وأسلمه العدل والخلق الرضى ؛ وغلب عليه سىء الطباع واستولت عليه فوارغ الأطماع ؛ وعشقها على السماع .

وكان عنده أخوان هما له عضدان ، هما وزيراه وفى مهامه مشيراه ؛ مسعداه فى الأمور ومنجداه فى أحوال السرور والشرور ، أحدهما واسطة خير قليل الشر عديم الضير ، قد جرب الزمان وعاناه ، وقالب قوالب وقائعه بالمقايسة ما قاساه ، اسمه ؛ مقبل ، وهو كاسمه مفضل ، والآخر بالعكس فى جميع حركاته وكس[1] ، وهو كاسمه مدبر ، بكل شىء مخبر ، قصده غبار فتن يثيره وعسكر بلاء يغيره ، وطالب أذى وعناء يعيره ، أو سر يذيعه ، أو منكر يشيعه أو متسوق شر يبيعه ، وهما ملازمان الخدمة واقفان فى مقام الحشمة والحرمة كالفتق والرتق ، والباطل والحق ، والكذب والصدق ، وفى الإفساد والإصلاح كالمرهم والجراح ، ومصلح الدرهم ومفسد الراح ، ومرشد العقل ومعتل الأقداح ، وفى الوفاق والشقاق كالسم والترياق ، وفى الحكم والقضاء كالداء والدواء ، وفيما يقع من الحوادث المفرحات والكوارث كالحر والبرد ، والشوك والورد ، فاختلى الملك بأخويه واستشارهما فيما أنهى إليه .

فقال أخوه المقبل : يا مولانا أبا دغفل[2] ، لو لم يكن بهذا المكان أحد من أدنى الوحوش فضلاً عن الأسد ، لكان عدم قصده ترفعاً وترفيا والتوجه إلى الاستيلاء عليه موجباً ، فكيف وذلك فى ولاية مالك وهو مالك صعب ؛ كأبى حفص الصعب ، ملك كبير عادل وسلطان خطير فاضل ، مطاع فى

---

(١) ناقص خسيس .

(٢) ولد الفيل .

صاغيته[1] متبوع فى حاشيته ، عادل فى رعيته ، سيرته مشكورة ، ومحاسنه مأثورة ، وهيبته وبسالته غير منكورة ، وهو جار حسن الجوار لم يضبط عليه ما يقتضى انتزاع ملكه من يديه ، ولم يتعرض إلى متعلقاتنا ولا آذى أحداً فى ولايتنا ، وإن مولانا السلطان لم يصدر منه إلا العدل والإحسان إلى الأباعد والأجانب ؛ فضلاً عن الجيران ؛ لاسيما الملوك الأكابر ومن ورث الملك كابراً عن كابر ، ولقد تلقفت من أفواه الحكماء ، وتشنفت مسامعى من جواهر ألفاظ العلماء بثلاث نصائح هى من أحسن المنائح ؛ إحداها : احذر أيها الموفق أن تقع فى دم بغير حق . ثانيتها : إياك يا ذا التوفيق وأموال الناس بغير طريق . ثالثتهما : إياك ذا الشيم الكريمة وهدم البيوت القديمة . واعلم أن الله تعالى عم رزقه ، وخص كل موجود بما يستحقه ، وقد أقام الأسد فى تلك الأماكن وهو وإن كان متحركاً فهو فيها ساكن ، ولو لم يستاهل لما اختص بتلك المناهل ، وما ينكر هذا إلا جاهل أو من هو على الحق ذاهل، وحاشى أن تنسب يا رئيس الأخيار إلى حسد أو سوء جوار ، وعظمتك تأنف عن ذميم الأخلاق ، وكيف وقد انتشر بالفضل صيتها فى الآفاق ، وإذا كان للشخص ما يكفيه فينبغى أن يقتصر عما يطغيه «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2] . وقد أحسن فى المقال من قال :

يا أحمدُ اقنع بالذى أُوتِيتَهُ	إن كنت لا ترضى لنفسكَ ذلَّها
واعلم بأن الله جلَّ جَلالَه	لم يخلق الدنيا لأَجْلِكَ كلَّها

فالتفت الملك إلى المدبر ، وأشار إليه كالمستخبر ماذا تشير أيها الأخ والوزير ، فقال : جميع ما قرره مولانا الوزير حق ، وجملة ما ذكره وحرره صدق ، نصائح ترشد العقول وتزين عقود المعقول والمنقول ، ولكن لا يخفى

---

(١) الأهل .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب (١١) (٢٣١٧) وقال : حديث غريب .

على كريم العلوم أن الأسد حيوان ظلوم غالب طالب ، وخلاص الرعية من شره واجب ، ويلزم كل أحد أن يخلص الرعايا من ظلم الأسد ، ومولانا يبلغه ظلمه ولم يحط بأحوال الأسد علمه ، وإنه من أظلم البرية لمن تحت يده من الرعية ، وإنه يجب على مولانا السلطان خلاص الرعية منه على أى وجه كان ، وأيضاً فإن إنعامات مولانا البارة على كل أحد من الخلق دارَّة ، والخَرْجُ والكلف والكرم الذى ائتلف ، كل يوم فى ازدياد والعساكر المنصورة كل وقت تزداد، وإذا لم تتسع الولايات وتكثر الجهاتْ والإقطاعات ، كان الخَرْج أكثر من الدخل ، والمصروف من الخزانة كالوابل[1] والدخل كالطل[2] ، وإذا زاد المصروف على الحاصل عجز الواصل وفرغ الحاصل ، ودل ذلك على ركاكة الهمة وقصور النهمة ، والملك يجب عليه والمندوب فى شرع همته إليه ؛ أن يكون كل وقت جديد فى فتح سعيد ، وتَرَقٍّ مزيد وتوسعة الممالك ، وتنزيه بساط السلطنة عن المنازع والمشارك ، والاستكثار من الجند والرعية واستجلاب ، خواطرهم الأبية بالجوائز السنية ، والإنعامات السمية ولا يجوز فى ملة الإسلام أن يتعدد الخليفة الإمام ، ولله در القائل العلى الشمائل :

إذا مالم تكن مَلِكاً مطاعاً	فكن عبدا لمالِكِهِ مطيعاً
فإن لم تَمْلُك الدنيا جَميعاً	كما تهواه فَاتْرُكها جَميعاً

وناهيك يا مالك الممالك والمماليك فى علو الهمة وصدق العزمة ، وغوص الأفكار فى استخلاص ممالك الأقطار ، قضية فحل الرجال تيمورلنك الأعرج الدجال ، مع نائبه الله داد ، أحد القواد ونواب البلاد فسأل أبو مزاحم أخاه عديم المراحم ، عن تلك القضية وإيضاحها عن جليه .

---

(١) كثير غزير .

(٢) قليل ضعيف .

[٦١] **فقال** : إن تيمور رأس الفساق ؛ الأعرج الذى أقام الفتنة على ساق ، لما حل بالممالك الرومية فى شهور سنة خمس وثمانمية ، وأسر مالكها واستخلص ممالكها ، استمر فى ممالك العرب يصول وفى فكرة استخلاص ولايات الشرق يجول ، وكان أقصى ما انتهت إليه فى الشرق مملكته ، ونفذت بسهام أحكامه فيه أقضيته ، بلداً يسمى أشباره قد أعده لشياطين النهب والغارة، وبنى فيه قلعة ونقل إليه من ذوى المنعة ، جنداً منتخبا من كل بقعة ، وهو فى بحر ممالك المغل والتتار ، والحد الفاصل بين ممالكه وولايات عُبَّاد الشمس والنار ، وأمر على أولئك الأجناد شخصاً يدعى الله داد ، وهو من خواص أمرائه ، ورؤساء جنده وزعمائه .

فمن جملة ما أمره به ذلك المشوم وهو مخيم ببلاد الروم ، أنه أبرز إليه مراسله فيها أمور مجملة ومفصلة ، أمره بامتثالها وإرسال الجواب ببيان كيفية حالها ، منها أنه يبين له أوضاع تلك الممالك ويوضح كيفية الطرق بها والمسالك ، ويذكر له مدنها وقراها ووهدها وذراها وقلاعها وصياصها ؛ وأدانيها وأقاصيها ومفاوزها ، وأوعارها ؛ وصحاراها وقفارها ؛ وأعلامها ومنارها ؛ ومياهها وأنهارها ؛ وقبائلها وشعابها ، ومضايق دروبها ورحابها ، ومعالمها ومجالها ؛ ومُراحلها ومَنازلها ؛ وخاليها وآهلها ؛ بحيث يسلك فى ذلك السبيل الإطناب الممل ، ويتجنب مأخذ الإيجاز وخصوصاً المُخِلُّ ، ويذكر مسافة ما بين المنزلتين وكيفية المسير بين كل مرحلتين ؛ من حيث تنتهى إليه طاقته ويصل إليه علمه ودرايته ، من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور ، وإلى حيث ينتهى إليه من جهة سمرقند علم تيمور ، وليعلم أن مقام البلاغة فى معانى هذا الجواب ؛ هو أن يصرف فيه ما استطاع من حشو وإطناب ، وتطويل وإسهاب ، وليسلك فى بيانه الطريق الأوضح من الدلالة وليعدل عن الطريق الخفى فى هذه الرسالة إلى أن يفوق فى وصف الأطلال ،

وتعريف الرسوم وحدود الدِّمن[١] صفة الشيح القيصوم[٢] ، فامتثل الله داد ذلك المثال وصور له ذلك على أحسن هيئة وآنق تمثال ، وهو أنه استدعى بعدة أطباق من نقى الأوراق وأحكمها بالإلصاق ، وجعلها مربعة الأشكال ووضع عليها ذلك المثال ، وصور جميع تلك الأماكن وما فيها من متحرك وساكن ، فأوضح فيها كل الأمور حسبما رسم به تيمور ، شرقاً وغرباً ، بعداً وقرباً ، يميناً وشمالاً ، مهاداً وجبالاً طولاً وعرضاً ، سماء وأرضاً ، مرداء وشجراء[٣] ، غبراء وخضراء ، منهلاً منهالاً ، ومنزلاً منزلاً ، وذكر اسم كل مكان ورسمه ، وعين طريقه ووصمه ، بحيث بَيَّن فضله وعيبه وأبرز إلى عالم الشهادة غيبه ، حتى كأنه شاهده ودليله ورائده ، وجهز ذلك إليه حسبما اقترحه عليه .

كل ذلك وتيمور فى بلاد الروم يمور وبينهما مسيرة سبعة شهور ، وكذلك فعل ذلك البطل وهو بالبلاد الشامية سنة ثلاث وثمانمية ، مع القاضى ولى الدين عمدة المؤرخين أبى هريرة عبد الرحمن بن خلدون ، أغرقه الله فى فُلْك رحمته المشحون ، وقد سأله عن أحوال بلاد الغرب وما جرى فيها من صلح وحرب ، وما وقع فيها من خير وشر ونفع وضر ، ثم أنه اقترح عليه وتقدم بالأمر إليه ، بوضوح أوضاعها ورسم مدنها وقلاعها وحصونها وضياعها وتخطيط ولاياتها ، وأشكالها وهيآتها ، فامتثل ذلك وأبداه ، وعلى حسب ما اختاره واقترحه أنهاه ، وبيَّن ذلك مثل ما ذُكر أعلاه فشاهد أوضاعها ، وخبر وهادها وبقاعها ، كأن الحائل رفع من البين وعاين عَيْن ذلك الإقليم بالعين ، فانظر إلى هذا الاعتمى وهو سطيح نصف آدمى ، وهمته العالية كالبرق ، تضرب تارة فى الغرب وأخرى فى الشرق .

---

(١) حدود الديار .
(٢) نبات طيب الرائحة يتداوى به ، رائحته نفاذة .
(٣) أى بدون ورق .

وإنما أوردت هذه القضية ؛ ليقف سامعها على مقدار الهمة العلية فلا يرضى الملك الهمام بالمنزلة الدنية ، ولا يقنع بالدرجة الوطية ، بل يجتهد فى تكثير الجند والرعية ، وفتح الأقاليم العربية والعجمية ، ولا يقتصر على الحالة السوية ؛ وإنما يلازم طلب الارتقاء بكرة وعشية ؛ ويكون سعيه كالشكر يطلب المزيد ، وكما يستديم طلب الزيادة من مولاه يستديم زيادة العبيد ، وإلا فينسب إلى قصور الهمة وإفلاس الذمة ، ونقصان الحرمة وبطلان الحشمة ، وأعظم بها من وصمة ، وبالعجز والتقصير يضيع حقوق الملك الخطير ، وتجد الرعية للصعن مقالاً وفى ميدان الإعراض عن الملك مجالاً ؛ وهذا خلاف موضع الإمامة وعكس ما تقتضيه الرياسة والزعامة ، فإن موضوع السلطنة أن يتعاطى الملك مهما أمكنه ، من أسباب الفتح والفتوح، وما يشتمل به من الرعية القلب والروح ، وذلك بالإحسان والإكرام والبذل والإنعام فبه تقوى رغبتها ، وتزداد محبتها ، فإذا لم يكن ذلك فَلَّ[(١)] المملوك عن المالك واسمع قول الأديب ذى الرأى المصيب وهو :

إذا أهملْـتَ أمـرَ العبـد يومـاً ... وقصَّـرت العليـق عـن الحمـار
توقـف فى المسيـر أبـو زيـاد ... وقـام العبـدُ يجـرى للفـرار

وقيل : والدَّرُّ يقطعه جفاء الحالب وقال أشرف جنس الإنسان : «علو الهمة من الإنسان»[(٢)] .

فالرأى السديد عندى والذى بلغ إليه جهدى ، إنفاذ هذه العزيمة وسلوك طريقها القويمة ، وإبرازها من مكان القول إلى ظواهر العمل والحَوْل ، والاعتماد على ما قيل :

---

(١) أى خرجت من تحت أيديهم .
(٢) الحديث تقدم .

فلاُ تثْنِ عزمك خوفَ القتال   بسُمْرٍ دقاق وبيض حداد
عسى أن تنالَ الغِنَى أو تَموت   فعذرُك فى ذاك للنّاس بادِ
فإن لم تنل مطلبا رُمْتَهُ   فليس عليك سوى الاجتهاد

"فأقبل الملك على المقبل ، وقال : توجه بكليتك على وأقبل :

ولا تُبْقِ مجهودا برأيك إنه   سديد ومن يقف السديد سديد

فإن القلب قد مال إلى العزم والأخذ فى التوجه بالحزم ، وترجح جانب الوثوب إلى جهة هذا المطلوب ، فامعن النظر وأجل قداح الفكر ، ولا تخف رأياً يسنح فى أى جهةُ ترَجَّح ، فقال : أفعل بشرط أنْ يقبل ، اعلم زادك الله علماً وفضلاً وكرماً وحلماً ، أن الذى رآه العلماء وأشار به ذو الحنكة من الحكماء ، أن من طلب وفور خيره وفائدة نفسه فى مضرة غيره ، لا يتمتع بتلك الفائدة ولا تثمر معه تلك العائدة ، وهذا على تقدير حصولها والاستيلاء على فروعها وأصولها ، وإن لم يظفر بها فلا تستفيد النفس غير كربها ، مع زيادة الحسرة وسوء الصيت فى الشهرة ، ووفور الندم وزلة القدم ، وكل من أراد تمشية هواه ولم يلتفت إلى ما سواه ، ورأى نفسه أحق من غيره فلا تطمع أبداً فى خيره ، ولا يكاد يسلم من الإنكاد ، ولا يصفو له زمان ولا تدوم له أخلاء وإخوان .

ولاتزال دِيَم(١) الهموم من غمام الغموم ، تهمى(٢) على حدائق آماله وتسقى مزارع أحواله ، إلى أن تحظل(٣) نخلات نيته وتيبس حقول طويته، ويحصده حراث الفنا ، ويدرسه دارس الردى ، ويذرى حبات وجوده الهوان

---

(١) سحب الهموم .
(٢) تمطر .
(٣) أى تتوقف .

فى الهوى ، وينقل عن بيدر الشقاء[١] إلى طاحون البلاء ، فهناك يجدح[٢] سويق أفعاله ما يزيغه ، فيحسوه ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويصهر به ما فى البطون ويقال له ذوقوا ما كنتم تكسبون ، هذا وإذا كان الدخل لا يفى بالخرج، وخيف من ذلك وقوع هرج ومرجَ فبحسن التدبير يتصرف الملك الخبير ، وبكفاية الوزير ، وتوفير المشير ، يجل الحقير ويكثر النزر اليسير ، كما قيل:

قليلُ المالِ تُصلِحُهُ فيبقى ولا يبقى الكثُير مع الفسادِ

وبالخلق الحسن وحسن السياسة تملك رقاب أولى الرياسة ، فضلا عن العوام وهذا بحسب المقام ، ولا يتصور أن مجرد المال هو شبكة صيد الرجال ، فإن حفظ الممالك هو وراء ذلك ، وقد قال رسول خَلاَقِكُم «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[٣] . وشيء يحتاج فى تحصيله ، والانقطاع إلى وصوله إلى بذل أموال وأرواح وكد نفوس وأشباح ، وإتعاب خيل ورجال وارتكاب شدائد وأهوال ، وبعد حصوله يتكلف فى محافظته وحراسته وملاحظته ، إلى تحمل هموم وغموم وكلام وكُلوم[٤] ، وآخر الأمر يخرج من اليد ولا يبقى إلا النكد والكد ، فتزول فى الدنيا اللذات مع معاناة الكدورات ، وتجرع الغصص والمشقات ، وتبقى فى الآخرة التبعات لجدير بأن لا يلتفت إليه ولا يعول عليه ، ولا يهتم له بشأن ويستغنى عنه وإن احتج إليه بقدر الإمكان ، وإلا فمثل الذى يعلق به فؤاده ويربط بدوامه وبقائه أعتقاده ، ويتصور ذلك بفكره الفاسد نظره الكاسد ، كمثل كسرى لما مات ولده ، وتفتتت عليه كبده ، وحصل له عليه الاضطراب ، ورده عن خطئه البهلول[٥] إلى الصواب ، فسأل أبو الحجاج أخاه المحجاج عن بيان هذا الأمر، وكيفية إطفاء هذا الجمر .

---

(١) البيدر : المكان الذى يدرس فيه القمح والحبوب .

(٢) اجتدح السويق : خلطه ولتّه .

(٣) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (١/٢١٧) وقال : رواه الحاكم والبزار .

(٤) جروح .

(٥) البهلول : كلمة فارسية تعنى الضّحاك ، أو البهلوان وكان من جملة حاشية الملك .

[٦٢] **فقال المقبل** : ذَكر محدث معدل ، أن كسرى كان له ولد ، قد سكن منه سويداء الخُلْد ، يخجل البدر ليلة تمامه ، ويستميل الغصن حالة قيامه، وكان يحبه حباً جاوز النهاية وتعدى الحد والغاية ، وكان لشدة شغفه استبعد حلول تلفه ، بل أحال وفاته ، وأذهله عن درك الحق وفاته ، فأدركه الأجل المحتوم واستوفى مداه المعلوم ، فاضطرب كسرى لموته واضطرم ، واصطدم بصخور فراقه واصطلم(١) ، ولم يقر له قرار ولا طاوعه اصطبار ، فوعظه العلماء فما أفاد وثبته الحكماء بضرب الأمثال فأعياهم المراد .

وكان فى بلده رجل بهلول يتردد إليه ويدخل فى أكثر أوقاته عليه ، فيلاطفه فى محاوراته ، ويبتهج بكلماته فى مخاطبته ، فدخل عليه البهلول وهو كئيب ملول ؛ لا تسر حاله صديقاً ولا يهتدى إلى السكون طريقاً ، فسأله عن حاله وما أوجب توزع باله وتغير أقواله .

فقال : يا بهلول عدمت ولدى وقرة عينى ، وراحة روحى وجسدى :

لا صَبْرَ يُجدى على فراقِه ولا مُعِينٌ على اختراقه
أوّاه من فرقة الأحباب أوّاه لقد كَوَى من حَشَا قلبى سويداه

قال البهلول : نعوذ بالله من ساعات الذهول يا ملك الأنام ، إن عيسى عليه الصلاة والسلام ، شكا إليه بعض حوارييه شيئاً يشابه ما أنت فيه ، فقال عليه السلام : كن لربك كإلف الحمام يذبحون فراخه ولا يفارق مناخه ، ولا ينفر عنهم ولا يشكو منهم .

ثم إن البهلول قال : وأنا لى إليك سؤال فأجبنى بجواب شاف ، فإنك ذو ألطاف ، فلايكن فيه خراف .

---

(١) وانقطع إلى الأبد .

فقال : سل فكلامك لا يُمَل .

قال : أكنت ترجو أن ولدك لا يموت أبداً وأنه يصير فى الدنيا مخلداً .

فقال : لا ولكن أردت أن يبقى مده ويتمتع بشبابه وبنعيمها عنده ، ويلتذ بطيب المآكل والمشارب ، ويقضي من أوطار الشباب المآرب ، ويؤنس أنداده وصحبه ، ثم يقضي بعد ذلك نحبه .

قال : هب أنه عاش مهما رُمت ، وقام وقعد فى الدنيا كما قعدت وقمت، وعاش العيش الطيب وهمى عليه من سما ملاذها الوابل الصيِّب ، وحصل له من العيش الهنى والعمر السنى ، أمثال الجبال وأعداد الرمال ، فعند مفارقة العيش وحلول الخفة والطيش ، هل يدفع عنه ذاك شراً ، أو يرفع عنه بؤساً وضراً ، أو يجلب به منفعة ، أو يذهب من ذلكِ شيء معه ، أو يفيده أدنى فائدة أو يعود عليه منه عائدة .

قال : لا. قال : فلا تأس على معاش يكون عقبى أمره إلى لاش[١] ، وعمر ذاك مصيره سواء طويله وقصيره ، وكثير تنعمه ويسيره :

وإذا كانُ مُنتَهى العمُر موتاً ... فسواءٌ طويلُه والقصيرُ
فَعِش ما شِئتَ فى الدنيا وَأدرك ... بها ما شئت من صِيتٍ وصَوتِ
فَحَبل العمرِ موصولٌ بقطعٍ ... وخيطُ العيشِ معقودٌ بموتِ

فهب أنه عاش ونهب الملاذ وحاش ، وعلا فى أرض التنعم وغلا وجاش، كل ذلك فى المقدار على حسب ما تختار ، وأنه جاءه القضا وقرقض وطره ومضى ، ثم قضى نحبه وقضى ، فجبر بهذا الكلام كسراً ، وسرى عنه همه وأسرى ، وقال : الآن سكنت فنعم الناصح أنت .

---

(١) إلى لا شيء .

وإنما أوردت هذا التنبيه ، أيها الملك النبيه ؛ لأعرض على الخواطر السعيدة والآراء السديدة الرشيدة أن الاقتصار عن هذا أولى .

وأليق بالركون تحت إرادة المولى . قال المدبر المفتن المعبر : ثلاثة أشياء ينبغى لطالبها أن لا يفتكر فى عواقبها .

الأول : الأسفار فى البحار والغوص فيها إلى القرار ؛ فإن طالب الجواهر النفسية ، ومن قصد أن يكون فى صدر التجارة رئيسة ، لا يخشى من الغرق ولا عنده من ذلك فرق ، فهذا يعبى بضائع المال ، وذاك يغطس إلى قعر الأوحال ، وكل منهما لا يتفكر فى العاقبة والمآل .

الثانى : المقدم على الحرب والرشق والطعن والضرب ، ومصارعة الأبطال ومباشرة أسباب القتال ، لا ينزعج لصوت ولا يفتكر فى الهزيمة والجراح والموت .

والثالث : طالبُ الرياسة والملك ذى السياسة ، لا يفتكر فى الاقتحام ، ولا يتوانى فى الإقدام ، ولا يتأمل فى العواقب ولا يلتفت إلى المناقب ، ويلقى نفسه فى الأخطار ويضرب إلى أعماق الأقطار ، ويجعل جُلَّ همّه بلوغ الأوطار وقيل :

بقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالى ... ومن طلَب العُلى سَهِرَ اللَّيالى
تَرُومِ العزَّ ثم تنامَ ليلاً ... يغوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلى
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمةً ... ونَكبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا

قال الحكيم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١٥] أولوا الألباب المميزون بين الخطأ والصواب ، الناظرون من مبتدأ الأمور فى أعقابها ، المستبصرون قبل وقوعها فى مآلها ومآبها ، الآتون بيوت النوائب والنوازل من أبوابها ، قالوا : إذا تحصن أبو الحصين ، وأغلق عليه من وراءِ

جدار بابين ، ثم حاصره أسد من خارج ساوت قوة الخارج قوة الوالج ، ولا شك أن حركة العساكر وقطع الفيافى والدساكر[١] ، والتوجه إلى قتال من هو ساكن فى سربه ، محتاط فى إقليمه ودربه ، متحصن فى قلاعه ، متدرق بحجفة امتناعه[٢] ، يحتاج فى الأموال إلى إخراج وفى الرجال إلى إزعاج ، وتحمل أخطار وتجشم أسفار ، وأخذ ضعفاء تحت أقدام وهدم دور وقطع أرحام ، ومع هذا كله حصول المقصود موهوم ، والظفر به غير معلوم ؛ فإن حصل فقد مر أن لا ثبات ولا تمنع ، وإن احتجب فهو وراء ستر التمنع ، فكم من دماء حينئذ تراق وقد كانت مصونة ، وأموال تهدر وقد كانت مضمونة ، وأعراض تهتك وقد كانت محترمة ، وأنفس تذل وقد كانت عزيزة مكرمة ، والحق فى هذا متضح ومن نجا برأسه فقد ربح ، وقد قدمت هذا التقرير وهندست هذا التقدير ؛ لأن العاقل الماهر فى التجارة كما يحسب الربح يحسب الخسارة ، وكل هذا فى العاجلة فضلاً عن المحذورات الآجلة ، من غضب الله وعقابه وتوبيخه وأليم عذابه .

وإذا خرج الأمر عن اليد ودخل على القلب الاشتغال بالنكد ، وذهب المال والمنال ونقصت الأهبة والرجال ؛ وتناقص العُدَد والعَدَد وتناكص المدد، فأى حرمة تبقى للملك عند الرعايا وقد قلت عنهم منه الإرفاد والعطايا، وكيف يستقر ملكه أو يدور على ذلك الثبات فلكه ، فلا تخافه الرعية ولا يرجونه ولايسمعون كلامه ولايطيعونه ، ويصير كالسحاب الخُلَّب[٣] لا يوثق منه بوعد ولا يحصل منه مطلب ، إن تكلم عابوا كلامه ، وإن حكم نقضوا أحكامه ، وإن حلُم قالوا : عاجز ، وإن تقدم فى الحرب قالوا : مجنون مبارز.

---

(١) القرى الكبيرة العامرة .

(٢) أى ممتنع عنهم بالتروس .

(٣) السحاب لا مطر فيه .

وأما الغنى ذو المال فهو على عكس هذه الأحوال ، فإن رأوا منه فضلاً كان لكل مكرمة أهلاً فرفعوه إلى العَيُوق[1] ، وكان العظم المرموق ، إن أعطى قليلاً استصغروا حاتماً عنده[2] ، وأطنبوا بلسان الثناء فى شكرهم رفده، وإن بخل قالوا : مُدَبِّرٌ لا يضيع ماله ، وإن كذب صدقوا قيله وقاله ، وفى الجملة حركات الغنى مستصوبه وكلماته مترشفة مستعذبة ، وقد قيل :

إن ضَرَطَ الموسِرُ فى مجلس	قيل له يَرْحَمُك اللـه
أو عَطَسَ المُعْسِرُ فى مَجْمَع	سَبُّوا وقالوا فيه ما سَاءَ
فَمَضْرَطَ الموسِرُ عِرْنِينُهُ	ومَعْطَسُ المفلسُ مَفْسَاهُ[3]
الفقرُ يزرِى بأقوام ذوى حَسَبٍ	وقدْ يَسوِّدُ غيرَ السيِّدِ المالُ

ولقد رشفت من أفواه الحكماء ونصائح البلغاء ، بل شاهدت من النوائب وتلقفت من ذوى التجارب ، وتحققت فى الدهر أبا العجائب ، أن الفقر شيب الفتيان وسقم صحيح الأبدان ، ومبعد الأقارب وجاعلهم أجانب ، وقاطع الأرحام ومانع السلام ، ومبغض الأحباب ومفرق الأتراب ، ومشتت شمل الأصحاب .

وبالجملة : فالذى يجب على ولى الأمر ، التأمل فى قصارى هذا الأمر ، والتفكر فى عاقبة هذه الحركة ، وما يحدث فيها من شؤم وبركة ، وأن يجيل قداح التدبر والتبصر والتصبر ، ويثبت فى صدرها هذا المورد المَضيق وما فيه من مجال أو ضيق ، ولا يعتمد فيه على القوة والحول وأسباب الطَّول والطول : وكثرة الشوكة والعدد ، وإمداد العدد والمدد. مع عدم الاكتراث بالأخصام وقلة المبالاة بكل أسد ضرغام ، فإن الأسد سلطان السباع ، وملك

---

(١) العيوق : أحد نجوم السماء المضيئة .

(٢) أى حاتم الطائى وهو ممن اشتهر بالجود والكرم .

(٣) العرنين : الأنف .

عظيم كثير الجند والأتباع ، شجاعته مشهورة وشهامته مأثورة ، به يضرب المثل ويشبه كل بطل ، ونحن وإن كان لنا عساكر كالجبال ، تهدم الحصون وتدك القلال[١] ، لكن ما جربناه مصارعة الأسود ، ولا مارسنا مقارعة النمور والفهود ، ولا نعرف طريق بلادهم ولا طريقة جدالهم وجلادهم ، وأن لهم في الحروب أساليب وفى افتراس الفرائس أنياب ومخاليب ، فأخشى أن لا تتم هذه الأمور وتقصر حبالنا عن مصادمة ما لهم من قصور ، فيرجع وبال هذه الأمور علينا إذ ابتداؤه أو لاً منسوب إلينا ، ولا نحصل إلا على الندامة والتوبيخ والملامة ويخاطبنا الجد الوبيل بما قيل :

تبنى بأنْقَاض دورِ الناس مُجْتَهِدا ‏ ‏ ‏ دارَ اْستَنْقَضَ يَوماً بَعْدَ أيَامِ

وقال المدبر : ولا شك أن جوهر هذا النظام وعقود هذا الكلام ، صادر عن فكر بعيد ، ورأى سديد ، وأمر رشيد ، وتأمل فى العواقب مفيد ، أصله الحكمة ، وفزعه الشفقة ، وزهره المعرفة ، وثمره الفطنة ؛ ولكن من حين استولى على الملك كيومرث ، ومَرَثَ على سرير التحكيم أصبع الولاية أبلغ مَرْثَ وسَنَّ قواعد السياسة وأسس بنيان الرياسة ، وذلك زمان الابتداء ، وأول ما تملك على الدنيا ، وإلى هذا اليوم لم يزل القوم من الملوك فى رَوْم ، وطلب الزيادة والسَّوْم ، ولا عتب فى ذلك ولا لوم ، وقل لى أى ملك مالك ؛ تحكم فى الممالك وسلك فيها المسالك ، ولم يقصد فيها الولايات الشاسعة ولا الأقاليم الواسعة ، ولم يطلب الترفع على الأقران ، وعلو المكان بقدر الإمكان، والملك عقيم والعاجز سقيم .

وكيف يتصور أيها الملك الأكبر أن تكون همة الملك أدنى من همة تاجر فى البحر ينهمك ، فإن التاجر إذا افتكر فى لذة الفائدة وما يعود عليه

---

(١) الجبال .

العائدة ، وغرته كما يقال التسع أواق الزائدة ، يضع جميع ما له وما تصل إليه يده من خدمه ورجاله ، في الفلك المشحون ولا يرهب ريب المنون ، ويركب هو أيضاً فيه ، ولا يلتفت إلى عجائب دواهيه ، ولا يفتكر في الغرق ولا في جبر السفينة ولو انخرق ، ويسلم قياده إلى متصرف الهواء ونفسه وماله إلى حاكم الماء ، ودونك يا ذا الحشمة والوافر الحرمة ما قاله العاشق العالي الهمة

إن تَبْــــوَ بَـــــدْراً فليكــــن ابـــنَ الخليفـــة ذي السَّـــرير
أو ابـــنَ ســـلطان الـــورَى أو ذي الـــوزَارَة أو أمـــــير
وتجنـــب الأَوْغـــاد والغَوْغَـــا وذَا القَـــــدر الحَقـــــير
أَنَّ الخَطـيـرَ هـــو الـــــذي قَــدْ قَــامَ بالأَمْـــرِ الخَطِيـــرِ

وأما قولكم : عساكرنا أغمار(١) ، لا دراية لهم بتلك الديار ، ولامعرفة لهم بمصادمة الأسود ، ومقاومة تلك الجنود ، فاعلم أيها الوزير الفاضل الكبير ؛ أن الأسد ملك كاسر وعلى سفك الدماء جاسر ، وأن في رعيته من آذاه وأنكاه في ذويه وأبكاه ، وكسره جبراً واسترعاه قسراً واستولى عليه قهراً، فهو منتظر تنفس الزمان ، مترقب انقلاب الحدثان متوقع أيها الفضيل معنى ما قيل :

إذَا لَم يَكُن للمَـرْءِ في دولـة امرئٍ نَصيـبٌ ولاَحـظٌ تَمَنَّـى زَوَالَـها

فإذا سمع بأحد خرج على الأسد ولو كان أقل الأعوان ؛ فضلاً عن ملك الأفيال ، بل قيل الأقيال(٢) ، الفاضل في ذاته الكامل في صفاته ، العادل في رعيته البارُّ بأهل ولايته ، المحسن إلى أهل مملكته ، المشفق الحليم الرؤوف

---

(١) صغار قليلو الخبرة .
(٢) ملك الملوك .

الرحيم ، فبالضرورة يبادر إلى الملاقاة ، ويسارع إلى ما كان يتمناه ، ويغتنم عبودية الملك وبعدها غاية مرتجاه ، فيدل على عورات العدو ومظان عثراته، ويرشد إلى طرائف نكاياته ونكباته ؛ وينادى فى النَّادى نُلْتُ مرادى ، على رغم الأعادى ؛ ويعلن بانشادى للحاضر والبادى :

إذا كانَ للإنسانِ فى دَولَةِ امرئٍ نَصيبٌ وإحسانٌ تَمنَّى دَوامَها

وأيضاً فى ذلك الإقليم من هو متشبث بأمر جسيم ؛ وهو ما له من مال وأولاد ، وإقطاعات وعقار ، وبلاد وسوائم ومواش ، وأثقال وحواش ، فلا يمكنه التحول عن طريقنا ، ولا التحمل لرعودنا وبروقنا ، ولا قوة المقاومة ولا طاقة المصادمة ، فبالضرورة يصانع عن تعلقاته بالطاعة ، ويتشبث بذيل سنتنا مع الجماعة فتستمد بآرائه ورواته ونستفيد فيما نحن بصدده دواء لدائه .

فقال الملك للمقبل : ما الجواب عن هذا الخطاب ، فقال : هذا المقال ، وإن كان لا يخلو عن الاحتمال ووقوعه غير محال ، لكن الأقرب إلى الذهن أن هذا لا يقع ، لأنه مبتدع ؛ ولأن طبائعنا مخالفة لطبائعهم ، وأوضاعنا غير أوضاعهم ، وناهيك أن كلاب الحارة فى النهب والغارة ، يمزق بعضهم بعضاً ويتناحرون فيما بينهم حرصاً وبغضاً ، حتى إذا دخل بينهم ذيب أو حيوان غريب ، توجهوا إليه واتفقوا عليه فمزقوا أديمه(١) وهتكوا حريمه ؛ وجعلوا لحمه لجماعتهم وليمة . وعند الأسد من الوحوش أنواع ما بين سباع وضباع ونمور وذئاب ، وقرود وذباب ، وفهود وكلاب ، كلهم على طباعه ؛ متفقون على اتباعه ؛ وإن اختلفت عليهم الثياب لكن الكل كلاب أولاد كلاب ، وكل من هؤلاء على ماهم عليه متفقوا الأهواء ؛ له على خِصْمِه فى مجادلته وخَصْمِه دربه فى المساواة ؛ ووثبه فى المغارة وأنواع فى الكر والغد

---

(١) جلده .

وروغان فى الخير والشر ، ومداخل ومخارج ، ومدارك ومعارج ، وليس فى عساكرنا سوى الصدمات ، والحطم بقوة النهضات والعزمات ، فإن أفادهن هذا الاصطدام ، وإلا فما ثم إلا الانهزام .

فلما بلغ المقبل فى الكلام إلى هذا المقام، وكان رسخ فى قلب الملك من كلام المدبر الوسخ فما أثر نصح المقبل وما أفاد ؛ لأن النفس بطبعها مائلة إلى الفساد ، فشرع الملك واعتمد على التوجه إلى بلاد الأسد ، وأمر رؤساء فيلة الهنود بجمع العساكر والجنود ، وأشيع ذلك فى أطراف الممالك ، فاطلع على هذه الأحوال غراب يكنى أبا المِرْقال ، كان له وطن وولد وسكن فى ممالك الأسد ، لكنه قدم جزيرة الأفيال للتنزه على سبيل التفرج والتفكه ، فشرع يتأمل فى هذه الأمور ويستنتج من قضاياها ما يتولد من سرور وشرور، فانتهى سابق أفكاره فى ميدان مضماره ، إلى أن هذه القضايا تسفر عن بلايا ورزايا ، وإراقة دماء وخراب أماكن وهلاك رعايا ، سواء تمت للأفيال أو رجعت عليهم بالوبال ، فخاف على سكنه ودمار أهله ووطنه ، فأدى فكره الأسد أن يطلع على ذلك الأَسَدُّ ، ليتداركه بحسن آرائه ويعترف للغراب بحسن وفائه .

فبكر بكوره وقصد دوره ، فوصل فى أقرب زمان ونادى الريبال أبا الزعفران ، وقال : الله الله إنى أنا النذير العريان ، وأطلع الأسد على هذا النكد ، وقرر معه حقيقة الأحوال وما عزم عليه ملك الأفيال ، فتشوشت لذلك الخواطر ، وتصدعت لخوفه الأكابر والأصاغر ، ثم أمر السباع وطوائف الوحوش بالاجتماع مع رؤساء مملكته وأساطين خاصته ورعيته ، وذكر لهم هذا الأمر المهول وما عزم عليه ملك الفيول ، وأذن لكل واحد منهم فى ذلك بما يقول ، فوقع الاتفاق من أولئك الرفاق أن يتفق أعيان كل جنس من الحيوان على رئيس من جنسهم ، يقيمونه مقام نفسهم يرضون بأقواله ويقتفون

آثار أفعاله ، وليكن من أهل الحصافة والكفاية واللطافة والدراية ، والشفقة العامة والمعرفة التامة ، يعقد معهم للمؤامرة مجلس رأى ومشاورة ، فهما وقع عليه الاتفاق وأجمع عليه الرفاق ، واستصوبه الأسد وارتضاه اتبعوه وعملوا بمقتضاه ، فتقدمت طائفة الآساد إلى تَاجٍ منها نِهادٍ[1] ، سبْعُ يسود على طوائف الأسود ، طالما افترس الأقران وانغمس فى دماء الشجعان ، وأضاف جوارح الصيد فضلات ما افترسه ، من عمر وزيد ، كاسر ، جاسر، باسل ، باسر ، حاسر ، قاسر ظاهره أبِىّ وباطنه بالمكر غنى :

أسَـدُ يسـودُ على الأسـودِ زَئيـرُه ... رعـدٌ وعَينـاهُ بـروقٌ تَخْطِـفُ

فقدموه واختاروه واستشاروا رأى رأيه وامتاروه[2] ، واختارت النمور نمراً يمور ، سريع الوثبة بديع الضربة ، لطيف الحركات خفيف النهضات ، قوى الشماس[3] خفى الاختلاس ، كثيراً ما كسر أسامة[4] وسامى أسود خِفَان فأسر ضرغامه كما قيل :

نَمِـرٌ تخـاف الأُسْدُ مِنْ وَثَباتهِ ... وتَحَـارُ فى حَـرَكاتهِ وثَبَـاتـهِ

وقدمت الثعالب ثعلبا لطيف الروغان ظريف الزوغان ، خفى الحيل قوى الميل ، طالما فر من طبل وأهال على الصياد من أهوال ، وأحرق السلوقيات[5] سلاحه ، ونفذ فى غالب الأسود بالمكر سلاحه .

يُضِـلُّ بنـىَ سَلُـوقٍ مـن دَهاءٍ ... فَيَخلُـص مـن مخالِبهـا سَليمـاً

---

(١) أى أسد قوى عال الهمة .
(٢) أى اجتذبوا رأيه وصوبوه .
(٣) الاقتراس .
(٤) أسامة : من أسماء الأسد .
(٥) الكلاب .

واعتمدت الذئاب فى هذا الباب على ذئب ، فعله عجيب وأمره غريب ، سديد الختل والختر[1] ، شديد المكر والكَسْر ، طالما أفسد ثلة ، ودخل فى قطيع ماشية فقطعه كله ، يعجز الأسود والنمور والفهود ، شيمته الغدر والخديعة ، ودأبه المكر وسوء الطبيعة :

وقَدْ جَمَعَ الضدّين نَوْما ويَقْظَةً   يَخَافُ الرَّزَايَا فَهو يَقْظَانَ نَائِمُ

فاختلى بهم أبو الأشبال وشاورهم فيما دهمه من الأهوال ، وتوجه بالخطاب إلى الأسد وقال : ما رأيك فى هذا النكد ؟ فقال : لا تطلب النصر فى هذا الحصر إلا من مالك العصر ، ومصرف أحوال الدهر بين الفرج والقسر ، وهو الله سبحانه وتعالى وعز شأنه وجل جلاله ، فإنا مظلومون وهم ظالمون ، ونحن ما اعتدينا عليهم ولا تقدمنا بالظلم إليهم، فسيرد الله كيدهم فى نحرهم ، وسيحيق بهم عاقبة مكرهم ، وهذا أمر مقرر وأظنه هو المقدر ، وأما ما يتعلق بنا وبهم من الفرار والصلح أو حربهم ، فأذكره على التفصيل وأخبر فى ذلك الرأى الجميل ، أما الفرار فلا سبيل إليه ولا معول أبدا عليه ، وأنَّى ذلك وهو عيب ما وصمت به الأسود ، ولا لهم به وصف معهود ، وبنا يضرب المثل فى الشجاعة والبسالة ، وتتشبه بنا الأبطال فى الإقدام لا محالة ، وكيف نترك بلادنا وأهلنا ، وأولادنا من أول وهلة ونعزم على الرحلة ، ولا صادمناهم ولا أوقفناهم ، ولو فعلنا ذلك فهربنا ، وتركنا مالنا وذهبنا ؛ لفسدت أمورنا وخربت ممالكنا ودورنا ، ولانفرط نظامنا ، وتَعَوَّجَ قوامُنا ، واستمرت هذه الملامة إلى يوم القيامة ، ولدام علينا هذا العار، ولا يقر لنا بعد ذلك قرار . واعلم أيها الملك نورَّ الله وجه السرير بك، أن العمر السنى ما مر فى العيش الهنى وقد قيل :

ما العمرُ ما طَالَ به الدُّهورُ   العُمْرُ ما طَابَ بِهِ السُّرورُ

---

(١) شديد الغدر .

والعمر الذى يمر فى نكد لا يحتسبه من ذوى الكفاية أحد ، وحسبك ما ذكره المترجم من حكاية الملك المعزول مع المنجم ، فسأله أبو الأشبال سرد هذا المثال .

[٦٣] **فقال الأسد** : ذكر القائل أن أهل بابل كانت عادتهم فى دينهم ، وسلوك طريقهم مع سلاطينهم ، أنهم إذا اعتنوا بشخص ملّكوه واتبعوا طريق أمره وسلكوه ، وبذلوا فى طاعته ما ملكوه ، فإذا أرادوا عزله تركوه ، ونشزوا عنه وفركوه ، وأهملوا إحسانه وفذلكوه[١] ، وسكنوا غيره فى سرير الملك وحركوه ، فاتفق أنهم ولّوا واحدا وأعزوه ونصروه ثم خذلوه ، وأقبلوا عليه أولا ثم قتلوه ، وكانت مدة ما بين ذلك يسيرة ، وعمر أيامه فى ولايته قصيرة ، فحصل له أولا السرور ، ثم تراكمت عليه بالعزل الشرور ، فاحتوشته[٢] الفكر وبات يصارع القضاء والقدر .

ثم قال : لو راقبت فى أول الجلوس ما فى الطالع من سعود ونحوس ، ثم اخترت لساعة ارتقائى وقتا يطول فيه بقائى ، وذلك يكون نجمى فى برج ثبت لما انقلبت كواكب سعدى عن الاستقامة ولا نَبَتْ، ولكن حيث فات ذلك فى الابتداء فاندراكه فى الانتهاء ، فلعل ذلك يفيد ويردنى إلى سرير السرور ويعيد ، ثم طلب منجما حاذقا ماهرا فى صنعته فائقا ، وقال : انظر فى طالع جدى وتأمل برج نحسى وسعدى ، واختر لى ساعة يصلح فيها النزول عن السرير ويكون العود إلى السرير بواسطة الناظر إليها غير عسير ، فإن الناظر إلى الطالع هو الجالب والمانع ، فامتثل المنجم ما رسم ، وشرع فى وضع الأشكال والقسم ، ثم قال : أحسن ما نظر فى الطالع المسعود من حين الميلاد فإنه أول الوجود ، فإذا أخذ الطالع من ساعة الميلاد ؛ ترتب عليه ما

---

(١) أى عرفوا ديته .

(٢) أى تكاثرة عليه الهموم من كل جانب .

يصدر على ذلك المولود من السعد والإسعاد ، ومن الخوف والرجاء فى عالم الكون والفساد ، فهل أطلع الملك فى أى ساعة وجد وكم أتى عليه حين ولد ؟ قال : نعم أعرف مدة عمرى جزما وهى اثنان وعشرون يوما ، فتعجب المنجم من مقاله ولم يقف على حقيقة حاله ، فقال : ليوضح الملك ما أشار ؛ لأقف على حقيقة هذه الأسرار ، فقال : مدة استيلائى على السرير ، هو هذا القدر اليسير ، وأنا لا أحسب العمر ، ولا أعتد بوصال بِيْضٍ ولا سُمْرٍ ، إلا هذه الأيام والليالى ، ولا أحتسب سواها عمرا ولو بيع باللآلئ ، وقد قلتُ :

وعمرُ مضى بالهَجْر لستُ أعِدُّه ولكنني أقْضِيْهِ فِى زمنِ الوَصْلِ

وإنما عرضت يا بطل على رأيك السعيد هذا المثل ؛ لتعلم أن أيام المحنة لا تعد عمرا ، ولو قضى الإنسان فيها زمانا طويلا ودهرا ، وأما الصلح ياذا الركون فعلى أى وجه يكون، ومن أين يقع بيننا وبينهم اتفاق وسكون ، وليسوا من جلدتنا ولاعلى ملتنا ، وفى أى عصر وأوان ذل الأسد واستكان وخضع للفيل ودان ، أو أعطى الغضنفر النبَّاج[1] ، والضرغام الصعب التاج لغيره الجزية والخراج ، وهو فى الحقيقة سلطان الوحوش ووهَّاب التاج ، فلم يبق إلا الاستعداد للمصادمة ، والتأهب للمقاحمة والمقاومة، ولنا من ذلك فى البين إحدى الحسنيين ، إما الظفر بهم وهو المرام، وإما الشهادة فنموت ونحن كرام ، وقد قال السيد السديد : ((من قتل دون ماله فهو شهيد))[2] . وقيل لحاتم طى : حسن الثناء على الميت خير من سوء الثناء على الحى ، والموت فى مقام العزة مع النشاط والهزة ، أرفع من الحياة بذلة ووخزة وكسرة ونخزه[3] ، وقد كنت أنشدت وقديما أرشدت :

---

(١) شديد الصوت .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الديات ، باب ما جاء من قتل دون ماله (١٤١٩) وقال : حديث حسن .

(٣) وألمه .

هو الموتُ إنْ لم تَلْقَه ضَاحِكـاً فَمُتْ   عَبُوساً بوجْهِ أقْـتَرَ اللــون غُـبِّرا
ومَنْ لم يَمُتْ فى مُلتَقى الخَيلِ مُقْبلاً   عزيزا يَمُـتْ تَحـتَ السَّنَابِـكِ مُدْبِرا

فـأقبل الريبـال علـى أبـى مرسـال وقـال : أيهـا النَّمِر وصـاحب الخلـق الزِّمِر (١) ، ماذا تشير فى هذا المهم والمشكل الذى دهم ، فقال : إن الأفيال أكبر جسوما وأعظم حلوما ، وأقوى فى الضرب وأعدى فى الحرب ، وقد استعدوا وأقبلوا وأتقنوا أمورهم وأحملوا ، وأنا أخشى أن يكونـوا أقـوى بطشا وأن نعجز عن المقاومة فى المصادمة ، فإن فينا العاجز والضعيف ، والذميم الجثة والخفيف ، ومـن لا عـرف الأفيـال ولا رأى تلك الأشكال ، فينفر من مصادمة الجبال فيطؤننا تحت أخفافهم ، وتتكسر شوكتنا فى أول مصـافهم ، فلم يبق إلا الفرار ولا يقر لنا بعد ذلك قرار ، فيستولون عنوة وقسرا على هذه الديار ، وينفرط النظام ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام ، ونقع فـى البـلاء العريض الطويل وانظر يا مولاى إلى ما قيل :

هَلْ لِلْحَرَائِر من صَـوْنٍ إذا وصَلَـتْ   أيدى الرِّعاءِ إلى الخِلْخَـالِ والخَـدَمِ

فعنـدى الـرأى ذو الأصـالـة ، أن ينتخـب الملـك مـن يصلـح للرسـالة ، ويحسن السفارة ويحسن العبارة ، فيسكن مـن فـورة شـغبهم : وثـورة لهبهـم ، وسورة غضبهم ، ويعدهم ويمنيهم ويحسـن التقريـب ويقصيهـم ، وفـى ضمـن هذه الأوقات وأثناء هذه الحالات يراقب أوضـاعهم ؛ ويخبر جمعهم وأجماعهم، ويتوصل إلى أسرارهم ، ويواصلنا بأخبارهم ، ويطلعنا بمـا خـامر أفكـارهم ، ويكتب ما قدموا وآثارهم ، ونستمر على المراسلة والمقاولة والمطاولـة ، فـإن تيسر رجوعهم وانكشف بالهوينـا جموعهـم ، وإلا فنكـون قـد استعددنا عـن الاستبصـار ، فنتعاطى أمور قتالهم بعد التأمل والاختبار ، وإن أمكننا أن نأتيهم

---

(١) السريع الغضب .

بالليل ونحل بهم الدواهى والويل ، بعد أن يركنوا إلى جانبنا ويأمنوا من نوائب مصائبنا ، فربما نصل إلى بعض القصد ، أو يوافق بعض حركاتنا السعد .

فالتفت الدوكس[١] إلى العلمس[٢] ، وقال : أى سِيِّدِ وذا الأمر الرشيد ماذا ترى فيما طرأ ، وكيف طريق القوم فيما جرى .

قال السمسام[٣] : يا مولانا الضرغام ، الذى سمعته من أولى التجارب وتلقفته من الأصحاب والأجانب ، أنه من التوفيق إذا ابتلى الشخص بعداوة من لا يطيق ، أن يدافعه بالهدايا والتحف ويحابيه بشىء من الظرائف والنتَف[٤] ، فإنه قيل فى الأمثال : أن خير الأموال ما ادخر لدفع البوس ، ووقيت بنفائسه النفوس .

فأهَبَّ النهاب بأبى وثاب : يا أبا الحصين ما رأيك فى البين ، وأى آراء الأصحاب أقرب إلى الصواب ، فتقدم الثعلبان وتكلم فأبان وقال : أسعد الله الأحد مولانا الأسد ، وجعل رأيه الأسدَّ ، وفعله على أعدائه الأشد ، اعلم أيها الدلهاث[٥] أن أمورنا لا تخلو عن إحدى ثلاث : إما المقابلة بالمقابحة ، وإما المهادنة والمصالحة ، وقد تقرر فيما تقدم وتحرر بيان كل منهما ، وما يصدر فيهما وعنهما ، وإما الفرار وتولية الأدبار ، وترك الأوطان والديار فأف لذلك من عار وسبة وشنار[٦] ، فما بقى إلا الحالة الثالثة ، وهى بعساكرهم عابثة

---

(١) الأسد .
(٢) الثعلب .
(٣) الثعلب .
(٤) الأطعمة ، وهو ما ينتف بأصبعك من نبت .
(٥) الجرىء .
(٦) العار .

ولقلوبهم كارثة ، وهى طريقة الاحتيال ، والتوصل إلى لقائهم بطرائق المكر فى جب الوبال ، فإن صائب الأفكار يعمل مالا يعمله الصارم البتار ، فبشباك الحيلة تصاد كل فضيلة وتهون كل جليلة ، وأنا أفضل ما أجملت وأبين ما فصلت ، أما المقابلة والأخذ فى أسباب المقاتلة ، فلا طاقة لنا به ولا باب لدخول قبابه ؛ لأنا عاجزون عن المصادمة ، قاصرون عن المقاومة ، محتاجون إلى الطعام والشراب ، وبعض عساكرنا لا يعيش إلا باللحم والكباب، وجيشهم الذى قد ملا وسد الوهد والفلا ، يقنعون بالحشيش والكلا ، فلا يتكلفون لحمل زاد ولا يحتاجون إلى عدة وعتاد ، وأيضا أحوال عساكرنا المفرقة المضمونة لاختلاف أجناسها وأنواعها غير معلومة ، فلا اعتماد عليهم ولا يتحقق الركون إليهم ، فإنهم أجناس مختلفة وطوائف غير مؤتلفة، وبينهم معاداة وفى جبلتهم النفرة والمنافاة ، وبعضهم غذاء بعض وفى قلبه منه عداوة وبغض ، لو ظفر به كسره وأكله وإن استنصر به خذله ، فهم كالقفل المجمع ولون اتفاقهم ملمع ، وأما عساكر الأفيال فبينهم اتفاق على كل حال لأنهم جنس واحد ، وما بينهم مخالف ولا منا كد ، ولهم اعتماد على قوتهم وعلى اتفاقهم وشوكتهم ، والمعتمد على مثل عساكرنا إن لم يضبط بطريقة كلية أمر عشائرنا ينفرط أمره ، ويخمد فى ايقاده نار الحرب جمره ، ويعلوه من بحر النوائب غمره ، ويظفر به من أعدائه زيده وعمره ، ويصيبه من الحِطَّة ما أصاب الصياد من القطة ، فسأل أبو الحارث عن بيان هذا الحادث .

[٦٤] **قال الثعلب** : ذُكِرَ أن رجلا ذا كيد كان مغرما بالصيد ، وكان عنده قط صياد يجترئ على النمس والغيَّاد[١] ، فكان يوما بين يديه ، فمر عصفور عليه فطفر كالنمور وحصَّل من الهواء العصفور ، فأعجب به

(١) ذكر البوم .

صاحبه ، ثم قصد الصيد وهو مصاحبه ، وحمله تحت إبطه وبالغ فى حفظه وضبطه ، وركب جواده وتوجه يروم اصطياده ، فرقى سفح جبل فخرج من وراء صخرة ، طائفة من الحَجَل[١] ، فتوجه إليه وألقى القط عليه ، فطار الطير وخاف القط وقصد رجوعه إلى تحت الإبط فطفر إلى جبهة الجواد ، وأنشب فيها مخاليبه الحداد ، فجفلت[٢] الفرس من لقطه ، وخبطت بفارسها الأرض شر خبطه ، أزهقت فيها نفسه وأبطلت حسه .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ ليحترز أيها البطل فى هذا الأمر من وقوع الخلل ، ويتفكر فى أمر هؤلاء الجماعه وكيف ثباتهم فى دعواهم السمع والطاعة ، فإنهم لا يصلحون للقتال خصوصا مصادمة عساكر الأفيال ، فالملك لا يعتمد على مثل هذا العسكر ؛ اللهم إلا أن يتقرر أمرهم على صدق اللقاء ويتحرر . وأما ما ذكره مولانا أبو سهيل فى تبييت عساكر الأفيال بالليل، فهو رأى معتبر ولكن فيه نظر ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان العدو فى سكون ، وعن توقع النكبات فى ركون ، فبينما هم فى غفلتهم ذاهلون ، جاءهم بأسنا بياتا وهم قائلون ، وأما إذا كانوا مستعدين يقظين مجدين ، وقد توجهوا للقتال وانتصبوا للمناضلة على هذه الحال ، فلا شك أنهم أتقنوا أمرهم وأخذوا أسلحتهم وحذرهم ، فأعدوا لكل نائبة نابا ولكل نائفة[٣] بابا ، ولكل حرب حِرابا ، ولكل ضرب ضِرابا ، ولكل شِدّة شَدّة ، ولكل عِدّة عُدّة ، ولكل جَزّة جمزة[٤] ، ولكل وفزة فزة ، ولكل نفرة طفرة ، ولكل فَرّة كرة ، ولكل أزمة حزمة ، ولكل كسرة حزمة ، فربما يكونون افتكروا منا هذه المكيدة وأعدوا فى مقابلتها داهية تصبوا لها مصيدة ، فنتوجه إليها غافلين فننشب فى شركها

(١) الحجل ، مفردها حجلة : طائر يعيش فى قمم الجبال .
(٢) فزعت ونفرت .
(٣) أى لكل أمر جد يصعب حله ؛ مخرج .
(٤) أى لكل صوف وشعر علا ، يحتاج للجز .

ذاهلين ، فيصيبنا من النكال ما أصاب الجمل من الجمال ، فقال الريبال هات يا أبا الترهات ، أخبرنا يا أبا نوفل ، أخبار الجمل المغفل.

[٦٥] **قال** : كان جمّال فقير ذو عيال له جمل يتعيش عليه ، ويتقوت هو عياله بما يصل منه إليه، فرأى صلاحه فى نقل مِلْح من المَلاّحَة ، فجد فى تثقيل الأحمال وملازمته بأثقال الأثقال ، إلى أن آل حال الجمل إلى الهزال وزال نشاطه وحال ، والجمال لا يرق له بحال ويجد فى كده بالاشتغال . ففى بعض الأيام أرسله مع السَّوَام[١] فتوجه إلى المرعى وهو ساقط القوة عن المسعى ، وكان له أرنب صديق ، فتوجه إليه فى ذلك المضيق ودعاه وسلم عليه وبث عظيم اشتياقه إليه .

فلما رأى الخزز،[٢] هزاله ، تألم له وسأله أحواله ، فأخبره بحاله وما يقاسيه من عذابه ونكاله ، وأن الملح قد قرحه وجبَّ سنامه وجرحه ، وأنه قد أعيته الحيلة وأضل إلى الخلاص سبيله ، فتألم الأرنب وتأمل وتفكر فى كيفية عصر هذا الدمل ، ثم قال : يا أبا أيوب ، لقد فزت بالمطلوب وقد ظهر وجه الخلاص من شرك هذا الاقتناص ، والنجاة من الارتهاص والارتصاص[٣] ، تحت حمل كالرصاص فهل يعترضك بإذا الرياضة فى طريق الملاحة مخاضة ، فقال : كثير ، وكم من نهر وغدير .

فقال : إذا مررت فى خوض ولو أنه روض أو حوض ، فابرك فيه وتمرغ وتنصل من حملك وتفرغ ، واستمر فيه يا أبا أيوب فإن الملح فى الماء يذوب ، وكرر هذه الحركة ، فإنك ترى فيها البركة ، فإما أنهم يغيرون حملك أو يخففوه بذوبه من الذى أضعفوه ، فتحمل الجمل للأرنب المِنَّة وشغف

---

(١) الراعى الذى يتكفله ويرعاه .
(٢) ذكر الأرنب .
(٣) الارتهاص والارتصاص : الوهن والضعف .

بِدُرٍّ هذه الفائدة أذنه ، فلما حمَّله صاحبه الحمل المعهود ودخل به في طريقه المورود ، ووصل إلى المخاضة برك فضربوه ، فما قام ولا احترك ، وتحمل ضربه وعسفه[1] حتى أذاب من الحمل نصفه ، ثم نهض انتهاضة وخرج من المخاضة ، ولازم هذه العادة ، إلى أن أفقر صاحبه وأباده .

فأدرك الجمَّال هذه الحيلة ، فافتكر له فى داهية وبيلة ، وعمد إلى عِهْنٍ منفوش[2] ، وغير فى مقامرته شكل النقوش ، وأوسق للجمل منه حملا بالغ فيه تعبية وثقلا ، وسلَّط عليه الظما ثم دخل به إلى الما ؛ فلما توسط الماء برك وتغافل عنه صاحبه وترك ، فتشرب الصوف من الماء ما يملؤ البرك ، ثم أراد النهوض فنأى به الربوض[3] ، فقاسى من المشاق ما لا يطاق ، ورجع هذا الفكر الوبيل على الجمل المسكين بأضعاف التثقيل ، فساء مصيره، وكان فى تدبيره تدميره، وما استفاد إلا زيادة النَّصَبِ ، وأمثال ما كان يجده من التعب والوصب .

وإنما أوردت هذا المثل عن الجمل ؛ ليعلم الملك والحُضَّار ، أن العدو الغدار ، والحسود المكار ؛ يتفكر فى أنواع الدواهى ويفرع أنواع البلايا والرزايا كما هى ، ويبذل فى ذلك جده وجهده ولا يقصر فيما اتصل إليه من ذلك يده، فتارة تدرك مكايده وتعرف مصايده ، وتارة يغفل عن دواهيها ، فلا يشعر الخصم إلا وقد تورط فيها ، وعلى كل حال لابد للشخص له وعليه من الاحتيال ، وأما طلب الصلح وإرسال الهدايا فمن أعظم المصائب وأكبر الرزايا ، فإن ذلك يدل على عجزنا والخور ، وينادى على هواننا فى البدو والحضر ، ويجرئ علينا الغريب ، ويذهب حرمتنا عند القريب ، ودونك

---

(١) شدة وتعب العمل .

(٢) أى صار كالصوف المنفوش الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق .

(٣) أى كلما أراد النهوض ؛ أقعده التعب .

يا أبا العباس ما أنشدتك فى المقياس :

وَمَا أنَا مِمَّــا فَرَّ من نَــارِ خَصِيمِهِ   لِظَلِّ حَســودٍ أو إلى فَىء شامِــتِ

ولكن الرأى الأنور أيها الوَرْدُ[1] الغضنفر ، أن ترسل إليهم رسولا عاقلا فصيحا جميلا ، بصيرا بعواقب الأمور ، قد مارس تقلبات الدهور ، وقد رُبِّى وتَرَبَّى وعن الرذائل تأبَّى ، وبأنواع الفضائل تعبى ، وأحرم إلى كعبة محاسن الشيم ولبَّى ، ولولا أن باب النبوة استد لتنبى برسالة فحلة ، تسفر عن بسالة جزلة ، تتضمن سؤالهم عما أوجب ارتحالهم ، وسبب قصدهم لبقعتنا وتوجههم لدخول رقعتنا ، وما موجب هذا الاعتداء ولم يصدر منا لهم إلا المحبة والولاء ، وحسن الجوار والإحسان إلى الكبار والصغار ، ومعاملة الغريب والقريب بالفضل المجيب والكرم الذى لا يخيب ، ويذكر لهم بسالتنا وشجاعتنا وفى معاملات المضاربة بضاعتنا ، ويكشف لهم فى ملابسة الحرب والضرب صناعتنا ، ويحقق عندهم ما عندنا من أسود الحرب وفوارس الطعن والضرب ، وأجناس الوحوش الكواسر والسباع الجواسر ، وأصناف الفراعل[2] والعسابر[3] ، ويتكلم بكلام يراه مقتضى المقام ، ومناسب للحال ويوسع فى ذلك المجال ، ويميز أوضاعهم وعساكرهم ويسبر بمسبار[4] العقل أمورهم وأوامرهم ، ويسمع الجواب وما فيه من خطأ وصواب ، ويورده إلينا ويعرضه علينا ، فنعمل بمقتضاه وينظر الرأى السديد فيه ما ارتضاه ، ونبنى على ذلك الأساس ونفصل على ذلك القياس .

فاستصوبوا هذا الرأى من الآراء ، وطلبوا له كفؤا من الأكفاء ، فوجدوا ذئبا هو من خواص الحضرة ومن ذوى النباهة والشهرة ، له فى

---

(١) الأسد .

(٢) الفراعل ، مفردها الفرعل : الضبع .

(٣) العسابر ، مفردها العسبر : النمر .

(٤) المسبار : آلة الاختبار .

ميدان الفضائل كر وفر ، وفى مظان النفع والضر خير وشر ، قد جرب فى المصايد ودرب فى المكايد ، وهذب فى المصادر والموارد ، ورتب فى المطارف والمطارد ، أدنى فضائله حسن السفارة ، وإحدى فواضله ترتيب العبارة ، حلاّل المشكلات كشّاف المعضلات ، فوقع عليه اختيارهم ورضى به كبارهم وصغارهم ، فَحَمَّله الأسد كلامه وجعل البسملة مبدأه والحسبلة[(١)] ختامه .

ومن مضمونها بعد إبلاغ التحية والأثنية[(٢)] السنية إلى الحضرة العلية ، ملك الأفيال أبى مزاحم المفضال ، ألهمه الله هداه ، وصرف عنه رداه ، وبصَّره مواقع الخير وهداه ، ولا شمت به عداه ، وحفظه بالعشى والغداة ، وجعل عقباه خيرا من مبتداه ، نحيط علومه الكريمة وآراءه العلية الجسيمة ، أن قوتنا من قديم الزمان ظاهرة ، وهيبتنا باهرة ، وصولتنا قاهرة، لم نزل نفترس الفوارس ، ونكرم أصناف الأضياف من الوحش والطير بالفرائس ، ويضرب بنا فى الشجاعة والكرم الأمثال ، ويفر من بين أيدينا أسود الأبطال، ولا عار على من فر من بين يدى الريبال ، وقد اتصل بنا أن ملك الأفيال توجه إلينا بجنوده ، وهيأ فى ذلك أجناس عساكره وبنوده ، وما علمنا لذلك موجبا ، ولا تقدمنا بعداوة تنشئ حربا وحربا ، بل ولا تعرضنا لأحد فى ملكه وملكه ، وعدلنا بحمده الله تعالى جارٍ فى بحار المُلْكِ وفُلْكَه ، والرعايا شاكرة منا ، ولم يُنْشَر سوى الذكر الجميل عنا ، فأنعموا برد الجواب وميزوا الخطأ من الصواب ، قبل أن يكشر[(٣)] الشر نابه ، ويفتح جرابه ويحرش للهرير كلابه ، ويسلخ ليله إهابه ، ويكسر رائد الفتنة بابه ؛ فتتفاقم الأمور وتتعاظم الشرور ، وتتلاطم بحارها وتمور عند التهاب شواظ الغيظ من الأسود والنمور ، مع أن اعتمادنا على الله العظيم ، وتوكلنا على العزيز الرحيم .

---

(١) البسملة ، والحسبلة : نحت خطى ، معناه بسم الله الرحمن الرحيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٢) الأثنية ، مفردها الثناء : المدح والشكر .

(٣) كشر عن نابه : استعد للقتال .

فلما بلّغ الذئب الرسالة وأدى ما فيها من شجاعة وبسالة ، وبيّن لملك الأفيال ما تضمنته من عظمة وجلال ، استشاط ملك الأفيال ، وتغيرت لاضطرابه الأحوال ، ونظر من تلك الفيول إلى فيل ظلوم جهول ، وبدر إليه من غير تدبر ولا تأمل فى الأمور وتفكر ، وقال : اذهب إلى هذا المعتمد على كلامه ، الراقد فى غفلة منامه ، وقل له : متى مارست معركة الشجعان، أو صارعت رجال الميدان ، وأنّى لك طاقة بمصادمة الجبال ، ومن أين تعرف مقاومة الأفيال ، فاستيقظ لنفسك فعن قريب تحل برمسك ، واستعد لجنود لا قِبَل لك بها ، فستشاهد ما لم تسمعه من ضربها فى حربها ، فلقد أتاك عسكر القضاء وبنوده ، وليحطمنكم سليمان الأفيال وجنوده ، فليريقن الدماء ، وليستأسرن الحرائر كالإماء ، وليدوسن الأطفال ، ولترين منه الإنكاد والإنكال ، وليظهرن آثار الدمار والبوار بما لك من ممالك ومساكن وديار، وليفعلن بولاياتك ما فعله بممالك الإسلام التتار .

وأنت بين أمرين وبخير النظرين ، إما أن تطيع لأمرنا وتنقاد وتسلم إلينا ما بيدك من بلاد ، وإما أن تختار طرق الفراق والفرار ، وتنجو منا منجا الذباب ، وتتنحى عن طريقنا بما معك من كلاب وذئاب ، وقد بالغنا فى النصيحة بعباراتنا الصحيحة وأقوالنا الفصيحة ، قبل إفشاء الفضيحة.

فوصل الفيل الرسول وأدى هذا المقول ، فتشوش الأسد ، وداخله الغيظ والنكد ، فأراد الإيقاع بالرسول الظلوم الجهول ، ثم تمالك وعن ذلك تماسك ، وقال : لولا أن عادة الملوك ودرب السياسة المسلوك ، أن لا تُهاج الرسل[1] ، ولا تضيق عليهم السبل ، لقابلتك على كلامك الفَجّ[2] بما يجب من العج والثّلج[3] .

---

(١) هج البيت : هدمه ، والمعنى : أى لا تقتل الرسل .

(٢) كثير الكلام متشبع بما ليس عنده .

(٣) أى من الريح والمطر .

ثم التفت إلى الثعلب وقال : يا أبا الحصين ما عندك فى جواب هذين النحسين ، قال الثعلب : أنت الأغلب ، هـذا القيل أقوى دليل وأوضح سبيل على عدم عقل الفيل ، وأن فكره وبيل ، وبصيرته قد عميت وطرق هدايته قد خفيت ، وأنه غوى وأضل قومه وما هدى ، وكل من اعتمد على قواه وحوله، واستحلى غرور فعله وقوله ، فقد زال وزل ، وفى عقد البلاء حال وحل ، وهذا الجاهل السخيف الكثيف الثقيل الجثة الخفيف ، قد استحقرنا فى عينه؛ فسيرى منا حلول حَيْنِهِ ، وكل من استحقر واستخف بعدوه ، فسيعدم حلاوة هدوه ، وسيُحْرَم مواصلة مَرْجُوِّه .

وقد قالت الحكماء الأخيار والعقلاء ذوى الاعتبار ، وأولوا التجارب والاستبصار : لا تستحقر السقم ، والنوم ، والدَّيْنِ ، والعدو ، والنار ، فالملك أعز الله نصره وأعلى مناره وقدره ، وسلط على الأعداء قهره ، لا يلتفت إلى هذا الكلام ، ولا يتزعزع لهذه الأوهام ، ولا يخف من جهامة الأفيال[1] ، فكل ما هم فيه باطل ومحال ، بل يعتمد على الله العزيز الجبار ، ويصفى نيته بالعدل والخير مع الكبار والصغار ، ويقوى جنانه على الملاقاة وقد وافاه النصر وأتاه ، ولاغاه السعد ولاقاه ، فإن هؤلاء اعتَدُوا على ولايته وأتوها فسينزل الله تعالى عليهم جنودا لم يروها ، فكم من مستضعف حقير صدر منه بالحيلة أمر خطير ، وبحسن التدبير ومساعدة التقدير تم له أمر كبير ، وناهيك قصة الفارة مع رئيس الحارة وما فعلته إذ ختلته ، إلى أن قتلته ، فسأل حيدرة عن تلك المأثرة .

[٦٦] **فقال** : بلغنى أيها النفيس أنه كان رئيس ، ضيق العطن[2] خسيس ، له زوجة ذات صيانة ودين وأمانة لم تزل تتجنب الخيانة ، وتتعاطى

---

(١) جبوس الأفيال .

(٢) العطن : الجلد وضع فى الدباغ وترك فأنتن .

العفة والرزانة ، وله دجاجة تبيض على الدوام فيسرق بيضتها أبو راشد وهم نيام ، فإذا افتقد الرئيس بيضته طالب بها زوجته ، فتحلف أنها ما رأتها ولا تعرف يدا أخذتها ، فيؤلمها سبا ويوجعها ضربا ، ولا يصدق قولها ولا يرحم عَوّلها(١) ، ففى بعض الأحيان رأت المرأة الجرذان وهو يجر البيضة إلى جحره ، وقد بلغ بها باب وكره ، فدعت بعلها لتريه الفار وفعلها ، فعلم براءة ساحتها وعمل على راحتها ، واعتذر إليها وطلب الفارة وحنق عليها ، وأعمل المكيدة ونصب للفارة دون البيضة مصيدة .

فلما رأت الفارة الشَّرَك علمت أن وراءه الدَّرَك(٢) ، فشعرت بما وضع عليه فلم تقدم إليه ، إلى أن زار الجرذان أحد أقاربه من الفيران ، فلم يجد شيئا يضيفه ، فاعتذر إلى الضيف بما هو مخيفه ، وأراه من البيضة سهاد وأن دونها خرط القتاد(٣) ، وكان الضيف الغَرِء(٤) لا يعرف هِرًّا من بُرّ ، فحمله السفه والحرص والشره ، على أن قال : أنا أخوض هذه الأهوال وأرِدُ من الموت حوضه وأصل إلى هذه البيضة .

ثم قصد المصيدة فقبضت وريده ، وفجعت به وليده ووديده ، فتنكدت الفارة وتكدرت ، والتظت أحشاؤها وتسعرت ، وتألمت لموت ضيفها ، وبلغ جيرانها حديث ضيفها ، فخجلت منهم واختفت عنهم ، وشاعت قضيتها وذاعت بليتها ، فلم تجد لبرد النار سوى أخذ الثار فأخذت تفتكر فى وجه الخلاص ، فرأت أنها لا تخلص من عتب الجيران إلا بالقصاص ، فشرعت فى تعاطى أخذ الثأر من صاحب الدار ، وكان لها صاحبة قديمة عقرب خبيثة

---

(١) الحاجة .

(٢) أقصى قعر الشيء ، والمراد : الموت .

(٣) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر ، وخرط القتاد : هو إنتزاع شوكه باليد . ويقال : هذا أمر دونه خرط القتاد : أى أن خرط القتاد أسهل منه بكثير .

(٤) الغرور الجاهل .

لئيمة ، معدن السموم فى زبان إبرتها[١] ، وطعم المنايا مودع فى شوكتها ، فتوجهت إليها وترامت عليها . وقالت : إنما تدخر الأصحاب للشدائد ولدفع الضرر والمكائد ، وإنزال الداء بساحة الأعداء ، ولأخذ الثأر والانتقام من المعتدين اللئام ، وقَصَّتْ عليها القصة وطلبت منها إزاحة هذه الغُصَّة ، وأن تأخذ لها بضرباتها القصاص ؛ ليحصل لها بين جيرانها من العتب الخلاص ، فأجابتها إلى ما سألت ، وأقبلت إلى وكر الفارة بما اقتبلت وأخذا فى إعمال الحيلة ، قادت أفكارهما الوبيلة إلى أن تخدعا صاحب البيت بالذهب وتلقياه بذلك فى اللهب .

ثم أمهلا إلى أن دخل الليل ، وشرعا فى إيصال الويل ، فأخرجت الفارة دينارا وألقته فى صحن الدار ، ووضعت آخر عند جحر الفار ، وأظهرت نصف دينار من ذلك الذهب وسترت النصف الآخر عند العقرب، واستترت العقرب بجناح السكون تحت ذيل الكمون[٢] ، وقد عَبَّت فى زبانها ريب المنون ، فلما أصبح الصباح ونودى بالفلاح ، وجد صاحب الدار فى وسطها الدينار ، فتفاءل بسعد نهاره ، ولم يعلم أنه علامة دماره ، ففتح عينيه ونظر حواليه ، فرأى عند جحر الفار أخا للدينار ، ففرح وطار ونشط واستطار ، وزاد فى الطلب على بقية الذهب ، فرأى نصف دينار داخل جحر الفار ، فمد يده إليه وأعمى القضاء عينيه عما قدره الله عليه ، فضربته العقرب ضربة قضى منها نحبه ، فبرد مكانه ولاقى هوانه ، وأخذت الفارة ثأرها وقضت من عدوها أوطارها .

وإنما أوردت هذه الأخبار ؛ ليعلم الملك أن حيلة صاحب الأفكار ، تفعل ما لا يفعله العسكر الجرار بالسيف البتار والرمح الخطار[٣] ، وبقليل الحيلة

---

(١) قرنها الذى تضرب به وتبث سمها عن طريقه .
(٢) الإختفاء .
(٣) القاتل .

تتم الأمور الجليلة فلا يهتم الملك بجثث الأفيال ، ويشرع فيما هو بصدده من دقيق الاحتيال ، وأنا أرجو من الله تعالى الظفر بعدونا ، وحصولنا على غاية مأمولنا ونهاية مرجونا ، فأول ما نعاملهم بالوهم وإظهار الصولة والتخويف والإرهاب بقوة الدولة ، فإن الوهم قتال والعاقل المدبر يحتال وطائفة الفيول عديمة العقول ، وبالوهم يبلغ الشخص مراده ، كما بلغ الحمار من الأسد ما أراده . فسأل ملك الآساد بيان حكاية أبى زياد .

[٦٧] **فقال أبو الحصين** : أخبرنى أبو الحسين ذو المفاخر ناصر ، أنه كان فى بعض الأعصار والمعاصر ، حمار فى مدار يستعملونه بالليل والنهار، إلى أن حصل له الكِبَر ورمى بالعِبَر ، وابتلى باطنا بالجوع وظاهرا بالدَّبَر[١] ، وعجز عن العمل وانقطع منه الأمل ، فتركه أصحابه وأعتقوه وفى بعض المراعى أطلقوه ، فصار يمرح وفى تلك المروج يسرح ، إلى أن خرج إلى الصحرا وانفرد فى رياض الفلا ، فوصل إلى بعض الآجام وحصل له النشاط التام ، إلى أن صح بدنه وسمن وبرُ أدبره وأمن ، وأخذه البطر واستولى عليه الأشر[٢] ، واستخفه الطيش وطيب العيش ، وسار فى تلك المراعى يتردد ذهابا وإيابا كالساعى ، فيسدى ويلحم فى شقتها ، ويفصل مهما اختار من مزهر خرقتها ، وينهق على عادة الحمير فيملأ تلك الأماكن من الشهيق والزفير .

وكان فى تلك الآجام أسد متخيِّس[٣] ؛ يسمى الشبل ابن المتأنس ، كان أبوه ملك تلك الأماكن ، قد نشا بها وهو فيها ساكن ، شاب غرير لم يكن يعرف الحمير، ولا طَرَقَ سمعه شهيق ولا زفير ، بل ولا خرج من تلك

---

(١) الدبر : قرحة تصيب الدابة من كثرة وثقل الأحمال .

(٢) البطر .

(٣) أى ساكن الخيسة ، وهى موضع الأسد ومكانه .

الآجام ولا عرف تصرفات الأيام، وكان أبوه قتل في الاصطياد ، وتفرقت عنه العساكر والأجناد فنشا وحيدا يتيما ، واستمر فيها مقيما ، فلما سمع صوت الحمار ، أخذته الرعدة والاقشعرار واستولى عليه الهلع فقعد عن الاصطياد وانقطع ، وصار كلما نهق هرب واختفى من الفَرَق ، وغلب عليه الدَّهَش إلى أن كاد يموت من الجوع والعطش .

وصار الحمار يتردد إلى عين كان الأسد يُسَكِّنُ منها سورة الظمأ ، فما اجترأ بعد ذلك على الورود ، وأضرَّ به الخوف والانقطاع والقعود ، فلما كاد العطش أن يقتله توجه إلى العين محفهفا[1] بالحيرة والولة ، فوجد الحمار واقفا عندها ، وأدرك الحمار خوفه منه بالدهاء ، فتقدم إليه وصوب نحوه أذنيه وحملق عينيه ، فبدر من الأسد صرخة اتبعها من بوله شخة ، وقال للحمار : ايش أنت ولأى شيء ههنا سكنت ، وجعل يرجف وفى قيد الخوف يرسُف[2] ، فعلم الحمار أن الأسد خَارَ ، فقال بجنان حَرِىّ وبيان قوى : أنا فى هذا المكان أفرق رزق الحيوان ، وقد أقمت أحوش أرزاق الوحوش ، ثم أقسمها بينهم وأملأ جوفهم وعينهم ، فقال الأسد : إنى جيعان ولى مدة عطشان فاعطنى من الأكل رزقى ، وافرز لى من الماء حقى ، فقال بوجه مقطب : ادنو إلى الماء واشرب ، فدنا وشرب وهو خائف مضطرب .

ثم قال : أنا جائع فاطعمنى وعَجِّل ولا تحرمنى ، فلى مدة من الجوع لا قرار لى ولا هجوع ، فقال الحمار : تعال معى إلى موضعى لتعرف مكانى ، وتقرر جرايتك[3] فى ديوانى ، فذهبا فى طريق حتى وصلا إلى نهر ماء عميق فأراد العبور ، فقال الأسد الهصور : هذا الماء عميق وكم فيه من

---

(١) تحيطه الحيرة والوله .

(٢) يمشى .

(٣) الجراية : الراتب .

غريق ، فاحملني في الذهاب وأنا أحملك في الإياب ، فأجابه الحمار وحمله وخاض به ونقله ، فأنشب الأسد الأظفار في كاهل الحمار ، وثقل عليه فلم يتأثر له ولم يلتفت إليه ، فزاد وهمه من الحمار ، وقال هذا رأس الدعار[1] ثم سارا ساعة أخرى فرأيا في طريقهما نهرا فطلب الحمار الوثوب ، وقال : هذه نوبتي في الركوب ، ثم طفر على الأسد وثقل عليه الجسد ، وتمكن عليه وأرخى يديه ورجليه ، فتضرر من ثقله وابتلى بشر عمله ثم تورّك عليه[2] وأنشب في كاهله مسامير نعليه ، فماج الأسد ومار وقد أثرت فيه حوافر الحمار ، فقال له : اثبت وآلك فما حوّلك تحتي وأحالك .

فقال : يا أخي حيرت في أمري لقد أوجعتني وقصمت ظهري ، وكان يكفيني جوعي وقلتي وخضوعي ، وما أدرى هذا الضر والبلا من أين أقبلا ، فقل لي ما الذي أنشبته في كاهلي ونزلت به من حافرك في ساحلي .

فقال هذه مَسَامِك[3] لطلاب الجرايات والجوامك[4] ، وهي أربعون مسماك لابد أن تثبت كلها في قفاك ، حتى يترصع لك اسم في الديوان وإلا فالرزق لا يحصل بالهوينا بل بالهوان .

فقال : يا أخاه اتركني لوجه الله وارفق بي رفقا وما أريد منك رزقا ، ودعني بالأمانة ووفِّر الجراية على الخزانة ، ولا رأيتك ولا رأيتني ، ولا عرفتك ولا عرفتني ، فإني أتقوت من حشيش الأرض وخشاشها[5] ، واستعد لمعاد نفسي بالرفق في معاشها ، فنزل عنه الحمار وتركه وسار ، فهرب منه بعدما ودعه وولى يلتفت يمينا وشمالا لئلا يتبعه .

(١) الدعار ، مفردها الداعر : الخبيث المفسد .

(٢) أي تمكن من جلسته .

(٣) عيدان ترفع بها الخيمة .

(٤) الجوامك ، مفردها الجومك : مرتب خدام الدولة العسكرية .

(٥) حشرات الأرض وعصافيرها .

وإنما صورت هذا النقش ؛ لتعلم يا ملك الوحش ، أن الوهم يصدر كالسهم ، وهو عند براهمة الهند[1] وحكماء السند[2] أحد طرق العلم ، رقاك الله إلى سلم السلم ، والوهم غالب على الأفيال ، بل سهم الوهم يقتل كثيرا من الرجال ، فنرجو من الله أن يبلغنا مقصودنا وننال من طالع الجد والحظ مسعودنا ، وأن يرجع أعداؤنا بالخيبة وفراغ العَيْبَة .

وهذا المثل الذى ضربته ، والتقريب الذى قربته ؛ إنما هو مثل العاجز الضعيف مع القوى العسوف[3] لا العسيف[4] ، وأما نحن بقوة الله وحوله ومساعدة نصره وطَوْلِه ، فقوتنا قاهرة قائمة ، وصدمتنا بعون الله دعائمها داعمة ، لم يحصل منا خوف ولا خَوَرٌ ، ولا فزع ولا جزع ولا جَوْرٌ ، ففينا بحمد الله قوة لمصادمتهم ، وقدرة لمقاومتهم ، فامض لأمرك ، فكأنى بك وقد رجعت فائزا بنصرك ، مجبورا بكسر عدوك ، محبورا بيسرك .

ثم أنه اقتضى رأى أبى الضرغام ، إعادة الذئب إلى أبى مُزاحم ، برسالة مضمونها : بصرك الله بعيوب نفسك ، وأراك عاقبة غدك فى صبح أمسك ، وجعلك ممن اتبع الهدى وامتنع عن موارد الردى ، اعلم أن علماء الهند وحكماء البراهمة والسند ، امتازوا عن حكماء الأقاليم ووضعوا رقعة الشطرنج للتعليم ، وأن واضع ذلك صور الرقعة بصورة الممالك وقسمها بالسوية ، وجعل لكل قسم جنسا من الرعية ووضع له نوعا من السير لا يتعداه ، وبين لكل منهم مكانا لا يتخطاه ، وأنا أخاف أن تتعدى مكانا هو

---

(١) خدمة إله الهنود (برهما) .

(٢) السند : إقليم صحراوى فى جنوب شرق باكستان ، فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف. معجم البلدان (٦٦٨٣) .

(٣) الظالم .

(٤) على غير هدى .

مقامك ، وتقصد بيت الشاه ويفوت مرامك ، ويناديك فرزين العقل[١] وأنت راحل فى النقل ، يا ذا الهوس ماذا بيت الفَرَس فتقع وأنت تصرخ فى لعبك: بالنفس مع الرخ[٢] ، فلا يفيدك الندم وقد زلت بك القدم ، وخرجت فى لعبة من رفعة الوجود إلى العدم ، وترى تلافى الموافاة فات ، ويقول خصمك وقد رأى كلاحة وجهك : شاه مات[٣] ، فلا تعتمد على جهامة جسدك ، وكف عن حقدك وحسدك ، ولا تقصد حرم كعبة غيرك بالفكر الوبيل فيصيبك مثل ما أصاب أصحاب الفيل ، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ؛ ترميهم بحجارة من سجيل ، وتصير بعد وقوع الملاحم وصدوع المقاحم[٤] ، أبا حرمان بعد أن كنت أبا مزاحم .

فلما قرأ الفيل هذه المطالعة ، غطت حمية الجاهلية منه الباصرة والسامعة ، فأراد أن يأمر بإيطاء الرسول تحت أخفاف الفيول ، لكن راجع عقله وأحضر وهله ، ورد الذيب بجواب مخيب ، وسهم غير مصيب ، وقال: استعدوا للقتال ، ومصادمة الأبطال ومقارعة الأفيال ، ثم أمر بالعساكر فتجهزت وبأمور الحرب فتنجَّزَتْ ، وثار بغضب أحمى من جمر الغضا ، وسار بالعساكر الجرار فملأ الفضا ، فبلغ الملك المظفر أبا الحرث الغضنفر ، ما فعله الأكلب فاستشار الثعلب .

فقال : اعلم أيها الملك وقاك الله شر المنهمك ، أن الأفيال لا يعرفون إلا المصادمة والاندفاع مرة واحدة فى المخاصمة ؛ وليس لهم فى الحرب حِرَاب ، إلا الخراطيم والأنياب ، لا يعرفون الكر والفر ، ولا يفرقون بين

---

(١) الملكة فى لعب الشطرنج .

(٢) الطابية ، وهى من قطع الشطرنج .

(٣) أى مات الملك ، وانتهى الدست .

(٤) المقاحم ، مفردها القحمة : المهلكة .

النَّصب والجر ، ولكن بعض العساكر له فى ذلك معارف ومناكر ، منها المواجهة والمشافهة والمصارعة والمقارعة ، والمدافعة والممانعة ، والمخاتلة والمخادعة ، والمناوشة والمهاوشة والمعانشة[1] والمهارشة ، والمكافحة والملاطحة ، والمطارحة والمرامحة ، والمرافسة والمراوسة[2]، والممارسة والمعاكسة ، والوثوب والمساورة ، والروغان والمصادرة ، والاحتيال والكيد، والاغتيال للصيد ، والربوض فى الكمين ، والنهوض من ذات الشمال وذات اليمين ، وكل أرباب هذه الملاعب وأصحاب هذه المخارق والمذاهب ، فى عساكرنا موجودون مجدون ، ومن أبطالنا معدودون مُعَدُّون ، فلابد من ترتيب كل فى مكانه وإيقافه بين أضرابه وأقرانه، وتعبيتهم ثم تخبيتهم .

وكان بالقرب من ميدان النطاح ، وموضع جولان الكفاح وهو برية قفراء ، وأرض غبراء ، أنهر مياه جارية وعليها جسور وقناطر عالية، فاقتضى رأى الأسد والفكر الأسد أن يطلقوا ثغور المياه على البرية ، ويتركوا فيها لعساكرهم طرقا ودروبا مخفية ، ثم أنهم عبروا تلك المياه وصفوا العساكر للملاقاة ، فقدموا أمامهم الثعالب والكلاب وكل سريع المجىء خفيف الذهاب ، وصفُّوا وراءهم الذئاب والنمور ، والفهود والببور[3] ، ووقف الأسد بين الأسود فى قلب الجنود ، بعد أن عبى الأطلاب[4] ، وعرف مقام كل من القرانيص[5] والأجلاب[6] ، ثم أن الثعالب ونظراءها دخلت من الأفيال

---

(١) المعانقة فى الحرب .

(٢) الغلبة .

(٣) الببور ، مفردها ببر : نوع من السباع الهندية ، وهو أبيض البطن والجانبين ، مخطط بخطوط سود .

(٤) المبارزون المقاتلون .

(٥) قرنص البازى لازم متعد ، والقرانيص : خرز فى أعلى الخف ، الواحدة قرنوص .

(٦) المستجلبون للحرب .

وراءها وصارت تروغ بينها وتلاعب على عينها حَيْنَها ، وتتعلق بأذنابها وتتشبث بعراقيبها وكعابها فزاد حنقهم وثار قلقهم ، وتقدموا واصطدموا وحطموا واضطرموا ، وبنار الحرب اصطلموا ، فناوشهم الببور البواسر وهاوشهم النمور الجواسر ، وهارشهم الأسود الكواسر ، ثم ولوا أمامهم مدبرين وقصدوا الطرق المخفية عابرين ، فتصور الأفيال أن جيش الأسد فر وجنده انحطم وانكسر ، وأن عسكرهم غلب وانتصر فحطموا يدا واحدة بهمة متعاضدة ، ونهمة متعاقدة ، وصدمة متآكدة ، ففى الحال ارتدموا وفى الأوحال ارتطموا ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، ثم كرَّت عليهم الأسود ، والنمور ، والفهود ، وسائر السباع والذئاب والضباع ، فوقعوا فى تلك الفرائس وقوع الجياع على الهرائس(١) ، وعانقوهم معانقة الأحباب للعرائس وأكلوا وادخروا ، وحمدوا الله تعالى وشكروا ، ومن بعد ما ظلموا انتصروا ، وأظهر العدل للحق منارة ، وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام ((من آذى جاره ورثه الله داره))(٢) .

والله لا يهدى القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) طعام يُعمل من الحب المدقوق واللحم .

(٢) الحديث بهذا اللفظ ؛ من كلام بعضهم ، وهو مثل سائر بين الناس ، ومأخذه فى كتاب الله من قوله تعالى **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾** وقد أورد أبو نعيم فى الحلية حديثاً عن أنس بلفظ ((من آذى جاره ، فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن حارب جاره فقد حاربنى ، ومن حاربنى فقد حارب الله)) . كشف العجلونى (٢/٢١٩) .

الباب الثامن

فى حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ من هو لجرعة الفضل أحسن حاسن : فلما وعى الملك الجليل ، والقيل الفضيل ما جرى بين الأسد والفيل ، من القال والقيل ، وانجرار ذلك إلى الضرب الوبيل ، وعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، وخاتمة التعدى والطمع مشومة ، أمر رؤساء المملكة وزعماء السلطنة بالكف عن الطمع ، وتجنب الجبن والهلع ، ومعاملة الأهل والجار بحسن الخلق والجوار ، وانتشار ذلك بالإشهار فى الولايات والأقطار فالعاقل من اعتبر بغيره ، وكفَّ كفَّه عن أذاه وضيره ، ونشر مهما استطاع من موائد إحسانه وخيره ، وعدى عن التعدى والعدوان لا سيما إذا كان ذا قدرة وإمكان ؛ وتحكم فى الفقراء والضعفاء والسلطان .

فنهض الحكيم حسيب ، وقبل أرض العبودية بشفاه التأديب .

[٦٨] **وقال** : بلغنى أيها الملك المفضال مما يطابق هذه الأحوال ، أنه كان فى بعض الأزمان ، وأنزه الأسكان سلطان الحيوان ، أسد عظيم الخلقة جسيم الشفقه ، جليل المكارم ، سليل الأكارم ، قد بلغ فى الزهد الغاية ، وفى الورع والعفة النهاية ، مع حسن الأوصاف والشمائل وَكرم الأعطاف والفضائل، قد جمع بين الهيبة والشفقة ، والصدق والصدقة ، وسورة الملك وسيرة العدل ، وسيمة الفضل وشيمة الفضل ، هيبته ممزوجة بالرأفه ، وعاطفته مدموجة فى الصولة ، قد عاهد الرحمن بالكف عن أذى الحيوان ، وأن لا يريق دما ، ولا يتناول دسما ، ولا يرتكب محرما ، يتقوت بنبات القفار ويقوم الليل ويصوم النهار ، يرعى فى دولته الذئب مع الغنم ، وينام فى كنف ضمانه وكفالة مأمنه الثعلب والأرنب ، بعد حَرِّ الحرب والحرب فى ظل الضال والسِّلْم كما قيل :

وَلِيَ البريَّة عدْله فتمازَجَتْ ... أضدادها من كَثْرَةِ الإيناس
تَحنُو على ابن المَاء أمُّ الصقّر بَلْ ... يحْمِي أخو القَصبْاء أختَ كُنَاس[1]

(١) القصباء : عيدان القصب الكثيرة المتجمعة تختفى داخلها الحيوانات المفترسة ، والكناس هو بيت الظبى .

وفى جـواره دوحـة كثيرة الثمـار غزيـرة الأنهـار ، نضيـرة الأزهـار ، رائقة الماء والكلا، فائقة النشـو والنمـا ، شـائقة النَّشْـر[١] والهـوى ، رياحينهـا طريـة ومروجهـا بهيـة ومقاصفهـا شـهية ، فكـان الأسـد ذو الزهـادة إذا أطـال اجتهاده ، وأراد أن يريح نفسه من مشاق العبـادة ، يتوجـه إلـى ذلـك الـروض الأريض ، والمرج البهى الغريض ، والمرعى الطويل العريض ، فيتنزه فـى نواحيه ويسرح سوائم طرفه فيه ، ويشغل صادح لسانه وتسبيح خالقه ومنشيه.

فبينما هو فى بعض الأوقات يتمشى فى تلك الخضروات ، صـادف دُبًّـا عظيم الجسم مليح الوسم ، فقبل الأرض بين يديه ، وذكر أنه أقبل لينتمى إليه، وأنه قد سمع بأوصـاف عدله ومكارم شـيمه وفضلـه ، فقصـده ليتشـبث بأذيالـه وينتظم فى سلك خيله ورجاله ، ويزجى فى خدمته باقى عمره ممتثلا ، بـارز مرسومه ونافذ أمره ، فتلقاه بـالقبول والإقبـال ، وشـمله بـالفضل والإفضـال ، وقال له : طِبْ : نفسا وقَرَّ عينا ، لقيت زينا ووُقيـت شَـيْنًا ، فـانتظم فـى سـلك خدمه وانغمر فى بحر كرمه ، واشترط عليه أن يحتمى عن لحـوم الحيـوان ، ولا يتعرض لإيذاء طائر ولا إنسان ، فامتثل ذلك بالسمع والطاعة وسار علـى سنن السنة والجماعة .

ثم بعد مدة يسيرة قصد الأسد مسيره ، وخرج يسير علـى بـاكر وحولـه طائفة من العساكر ، فلقى جملاً ضل الطريق وتاه عن الصـاحب والصديـق ، ونسيه الجمَّال وتركه الرفيـق ، فبـادر إليـه جماعـة الأسـد وهمـوا بتبضيعـه[٢] بالناب واليد ، فإنهم كـانوا لشـدة القـرم ، أُلْهِبَتْ أحشـاؤهم بـالضرم ، فنـاداهم الأسد : ويلكم كفوا وعن التعرض إلى إيذائه عِفًوا ، لئلا يصيبه مـن الكيـد مـا أصـاب صـاحب كسرى ذى الأيد ، من كسرى لما خرج صباحـا إلـى الصيـد ، فقبل الجماعة الرَّغام[٣] وسألوا الإمام عن بيان ذلك الكلام .

---

(١) أى أشجارها شائقة ، ذات أوراق كثيرة منبسطة .

(٢) أى تقطيعه وتمزيقه .

(٣) الرغام : التراب ، والمعنى : قبلوا الأرض بين يديه .

[٦٩] فقال : ذُكِرَ أن كسرى أراد يوما الاصطياد ، فركب فى جماعته وأهل طاعته ، وسار على الصباح وهو فى نشاط ومراح وانبساط وانشراح، فصادف رجلا كريه المنظر مشوه الخلقة أعور ، فتشاءم بطلعته وتعوذ من رؤيته ، وتطير من صباحه وتكدر صفو انشراحه ، ثم أمر به فَضُرِبَ ، ولولا تداركته الشفاعة لصُلِبَ ، ثم تركه وسار نحو صيد القفار ، فحاش الصيد واقتنصه من عسكره عمرو وزيد ، ورجع مسرورا فرحا محبورا ، وأدركه المساء فصادف ذلك الرجل ملتفا بكساء ، وكان ذا لب صحيح وعقل رجيح ، ولسان فصيح ، فأبدى كَسْراً ونادى كسرى واستوقفه ، بعدما استلطفه .

وقال : أيها الملك العادل والمالك الفاضل ، أسألك بالله الذى ملَّكك رقاب الأمم ، وحكمك فى طوائف العرب والعجم ، أنعم علىّ برد الجواب وبين لى الخطأ من الصواب ، فإنك عادل حكيم فاضل كريم ، فوقف بعسكره واستنصت لخبره ، وقال : هات مقالك وقل ما بدا لك ، فقال : يا ملك ذا الأيد كيف كانت أحوالك اليوم فى الصيد ، فقال : على أتم ما نريد ، لقد حصله السادات والعبيد ، فقال : هل حصل فى أمور السلطنة وهن أو خلل ، أو فى الخزائن المعمورة نقص وقلل ، قال : لا بل أحوال السلطنة مستقيمة ودَيِم الخزائن دارّة مقيمة ، قال : فهل ورد اليوم من الأطراف خبر يؤذن بتشويش واختلاف ، قال : لا ؛ بل الجوانب مطمئنة والثغور من الأعداء والمخالف مستكنة ، قال : فهل أصاب أحدا من الخدم والأصحاب والخَوَل[1] والحشم مصاب ، قال : بل كلهم بخير ، آمنون من الضرر والضير ، قال : فلم ضربتنى وأهنتنى ، وعلام كسرتنى وطردتنى، قال : لأن التصبح بك مشوم وهذا أمر مشهور معلوم ، قال : سألتك بالله الذى تتقلب فى مواهبه أينا كان أشأم على صاحبه ؟ أنا تصبحت بك وأنت تصبحت بى ، فأنت أصبت الذى

(١) الخدام .

ذكرت ، وقد علمت ما حل بى ومع هذا فإنما عِبْتَ وعَتَبْتَ على الصانع ، وذهلت عما أودعه فىَّ من أسرار وبدائع ، فإنه لا اختيار لى فيما فطرنى عليه ولا مدافع ، ولا حيلة فيما قدره على ولا ممانع ، واسمع ما قلت بعدما وصلت فى إهانتى وجلت :

لَقَدْ كَانَ قصْدِى أَنْ أَسُودَ على الورى ... بقدٍّ وطرْفٍ كامِلِ الخلق بارع
ووجْهٌ يفوقُ البَدْرَ والشمسَ بهجةً ... فعاكَسَنِى تقديرُ رَبِّى وصانِعِى

ثم خطر بالبال هذا المقال قلت :

ودَدَتُّ لو أنى أحسنُ الخلقَ صورةً ... وأكمل من بدرِ السما وهو طالعُ
فأبْدعَنى نَقْشُ المصورِّ هكذا ... ولا صَنْعَ لى فيما بِى الله صانعُ

فتنبه كسرى لكلامه ، وأمر بإعزازه وإكرامه ، وتدارك ما فرط منه بإحسانه وإنعامه .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لئلا يكون هذا الجمل مثل ذلك الرجل ، لأنه قد تَصبَّح بى فلا يرى أبدا مكروها بسببى ، بل يرى الخير ويكفى أذى الغير ، وكذلك كل من هو عندى ومنسوب إلى من خَوَلِى وجُنْدى ، ثم عَادَ ذلك البعير وسأله عن جليل أمره والحقير ، فأخبره أنه تاه عن أصحابه ، وأنه من بعد يتعلق بغرز ركابه[1] ولا صنع لى فيما بى الله صانع ، ويلازم خدمة بابه كأصحابه ، فأكرم مثواه وأحسن متبوأه ومأواه ، إلى أن صار من أكبر الخدم ، وذا خول وحشم ، ورأس الندماء ورئيس الجلساء ، وأمن النكد والبوس ، وسمن حتى صار كالعروس ، فحسده الدب لعدم اللُّب ، وعزم بمكره على إلقائه فى الجب ، واشتد بذلك البَرَم[2] إلى أكل لحم الجمل القرم ، فأخذ

---

(١) الغَرْز : ركاب الرحل من الجلد ، والمعنى : يتمسك به .
(٢) اللئيم .

يضرب فى ذلك أخماس الأسداس ، واحتوشه فى قضيته لسوء طويته القلق والوسواس ، فلم ير أوفق من إفساد صورته وإظهار سوء سريرته ، فيهلكه ويكيده ويفتنه ويبيده ، فيصل منه إلى ما يريده ويثمر بمكره الحسد ، ويصلح من شرهه ما فسد ، ويروج منه ما كسد ، فأدى فكره إلى أن يغرى به الأسد فاختلى بالجمل وابتدأ بالعمل .

وقال له : لى معك كلام على كتمه منك ألام ، ولكنك لست موضعا للسر لأنك لا تعرف هرا من بر[1] ، وأنت ساذج ساكن سليمِ الفكر والباطن ؛ وقد قيل : الحماقة فى الطويل ، ولولا وفور شفقتى وحنوى عليك ومودتى ما فهت لك بكلمة ، ولتركتك من التيه فى ظلمة ، وقالت الحكماء ذوو المعارف لا تُفْشِ سرك إلى طوائف منها سليم الفطرة ، ومنها مدمن الخمرة ، ومنها الكثير الكلام ومنها المرأة والغلام ، فإنهم ليسوا محل الأسرار وأنهم يغشونها بلا اختيار ، وقد قيل : كم انسان أهلكه اللسان ، وكم حرف أدى إلى حتف .

قال الجمل وقد أثر فيه مكره ودخل : يا أخى أنا أتحقق شفقتك ، وصدقك وصداقتك ، وأعرف محبتك ، ونصحك ومودتك ، وأنت لا تحتاج فى تجربتى إلى دليل ، فلى فى صحبتك زمان كَقَدِّى طويل ، وأنا أؤكد قولى بالإيمان واعقِدُ على ما تلقيه إلىَّ الجنان ، ولا أتفوه به لجماد ولا حيوان ، والشخصِ إذا لم يعرف منه ما يراد ، فلا فرق بينه وبين الجماد ، واذكر ما قلت لك فى درب ابن تلك :

ومَنْ كان ذا عين ولا يبصرُ الذى ... أمامَه فهذا والضَّرِيرُ سواءٌ
وذو الجهلِ خيرٌ من عقولِ علومِه ... سراجٌ ولكن ليسَ فيه ضياءُ

ثم أنشأ أيْمانا أغلاظا أنه يبالغ فيما يسمع منه احتفاظا ، ولا يبدى منه

---

(١) أى أنه لا يميز فعل من يهر فى وجهه أى يعبس ، من فعل من يبر به .

لاما ولا فاء ولا ظاء . فلما وقف الدب على جوابه ، وربطه بزمام تدبيره اختلى به وقال : تعلم أيها الصديق المبين ، أن ملكنا في غاية العفة والدين، وأعلى درجات العباد والزاهدين ، قد فطم نفسه عن الطعوم ؛ خصوصا عن الدماء واللحوم ، ولكنه فى ذلك كله غير معصوم ، فإنه قد تربى بلحم الحيوان، وتغذى بافتراس الأقران ، وتعود رضع الدماء وقطعت سرته على هذا الغذاء ، وتزهده إنما هو تكلف وتعسف وتصلف ، وتعففه مكابرة ، وتورعه مصابرة ، ولابد للنفس أن تفعل خاصيتها ، وتجذب شهواتها إليها ناصيتها ، وتطمح إلى مأرزها[1] وتجمح إلى مركزها ، وقال الله تعالى ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] . وإذا كان ذلك كذلك فاحتفظ لنفسك واحفظ نصيحتى وامسك ، وتفكر أحوال غدك فى أمسك ، فإنك فى صحبة الأسد على خطر عظيم ، وخطب جسيم ، فلا تغفل عما قلت لك ، ولا تظنن انه لن يقتلك .

فداخل الجمل من هذا الكلام الخَوَر ، ولم يبق له طاقة ولا مصطبر ، ثم ثبته التوفيق ، وتخلل فى هذا الأمر الجليل فكره الدقيق ، واستحضر رأيه فى أمره وأجال قداح فكره ، وقال للدب المشؤم : يا أخى ، فأى ضرورة دعت الأسد الغشوم حتى تعفف عن أكل اللحوم ؟ قال : أنا لا أشك فى دينه ولا أرتاب فى حسن يقينه ، ولكن ربما تعود المياه إلى مجاريها ، وتعطى القوس باريها ، وتتحرك النفس الأبية والشهوة التى طالما ألقت صاحبها فى بلية ؛ لأن الإنسان ، بل سائر الحيوان على ما يقتضيه الكون والمكان ، دائر مع اختلاف أخلاق الزمان ، فإن الزمان كالوعاء والشخص فيه كالماء ، فيعطيه من أخلاقه ما يقتضيه من كدره وصفاءه ، ولهذا قيل : لون الماء لون إنائه ، وقد قيل : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وناهيك يا ذا الكرامات

(١) مطلبها .

ما قيل فى المقامات :

ولما تَعامَى الدَّهرُ وهو أبو الوَرَى عن الرشدِ فى أنحائهِ ومقاصِدهُ
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيل أنِّى أخو عَمَى ولا غَرْوَ أنْ يَحْذُو الفَتَى حَذْوَ والِدِه

والأسد فى هذا الأوان ماش على ما يقتضيه الزمان ، وإن الزمان يتحول وسيرجع الأسد إلى خلقه الأول ، أما بلغك يا ذا الفطنة الحية قصة الحائك مع الحية : قال لا ورب البرية ، فأخبرنى عن كيفية تلك القضية .

[٧٠] **قال الدب الأفاك** : ذُكِر أن حائكا من الحُيَّاك كانت له زوجة؛ تخجل شمس الأفلاك صورتها مليحة وسيرتها قبيحة ، فشم زوجها روائح ما هى عليه من القبائح ، وخاف أن يؤدى إلى الفضيحة، فطلب تحقيق ذلك ليوصليا إلى المهالك ، فقال لها : أريد ضيعة لأجل بيعة ، فأغيب أياما يسيرة لفائدة كثيرة ، فارصدى بابك وأسدلى حجابك ، واحفظى من الشر جَنَابك ، فقالت : بيتٌ أنت رئيسه ومثلى قعيدته وعروسه ، أَنَّى يحوم حوله فساد، فأدرك سوقك قبل الكساد ، وجهزته أسرع جهاز كالمتوجه إلى الحجاز ، فسافر من غير مرية ثم رجع إلى البيت فى خفية واختبأ تحت السرير ، لينظر ما يجرى من الأمور ، فبادرت إلى النار ونفخت وأسرعت إلى الطعام وطبخت ، وخرجت تدعو مرامها وقد هيأت طعامها ، فخرج زوجها من المخبأ وأتى على الطعام المهيأ ، ورجع إلى مكانه ونام بعد أكله الطعام ، فجاءت المرأة بحريفها ، وقصدت الطعام لمضيفها فصادفت يدها الحصير ، فعرفت أن البلاء تحت السرير ، فأخذت تطلب المخلص من ذلك المقنص ، واتفق أن الملك رأى مناما هاله ولكن نسى هيئته وحاله ، فقصد من يخبره برؤياه ويعبرها له ، فنادى فى الورى يطلب لمنامه مخبِّرا ومعبِّرا ، وبينما تلك الفاجرة على حيلة الخلاص دائرة ، وفى بحر الأفكار حائرة ، سمعت المنادى ينادى فى كل نادى ، من يدل الملك الهمام على معبِّر المنام ، فله

مزيد الإكرام والإنعام العام ، فسارعت المرأة إلى باب الأمير ، وقالت : قد سقطت على الخبير ، إن لى زوجا حكيما ، بتعبير المنامات عليما لكنه يتعزز وعن تعبيرها يتحرز ، فلا يفوه بالتعبير إلا بعد ضرب كثير ، وأنه ليس له فى ذلك نظير ، فأرسل وراءه وأكرم لقاءه ، ثم قالت له : بعد إكرام أو صله ، ووعده بإنعام وصله ، رأيت مناما راعنى ، وفى الحيرة والفكر أضاعنى ، فدع عنك الاحتشام وأخبرنى عن ذلك المنام ، ثم عبره لى فقد أُخْبِرْتُ أنك حبيب لله ولىٌّ .

فقال : يا مولانا الملك أنا فى الجهل منهمك ، حائك فقير ليس لى من العلم نقير[1] ولقد كذب علىّ من نسب العلم إلىّ ، والعين تعرف العين أنا من أين ، وتعبير الرؤيا من أين ، فما صدقه ولا فى كلامه استوثقه ، وصدق قول المرأة فيه ، وأمر بإيصاله ما ينكيه ، ثم طلب المقارع وشدوا منه الأكارع ، وضربوه ضربا أعسفه ، إلى أن كاد أن يتلفه ، فنادَى : الأمان الأمان أمهلنى ثلاثة أيام من الزمان ، فتركوه وأمهلوه وقيده أطلقوه ، فصار يدور فى الخرائب ويتضرع تضرع النائب ، ففى ثالث الأيام ، وقد أيقن بحلول الحِمَام دخل إلى مكان خراب ، وأخذ فى البكاء والانتحاب ، فنادته حية من الشقوق ما لك تنتحب يا ذا العقوق ؟ فأخبرها بحاله وما جرى عليه من نكاله ، فقالت: ماذا تجعل لى من الإنعام إذا أخبرتك بما رآه الملك فى المنام ، ثم فضضت عن تعبيره مسك الختام ، قال : أكون لك عبدا وصيفا ، وأعطيك مما أعطى نصيفا ، قالت : إن الملك رأى فى منامه أن الجو يمطر من غمامه ، أسودا ونمورا وفهودا وببور ، وأن السماء فى ذلك تمور وتعبير هذا المنام ، والله العلام : أنه يظهر فى هذا العام للملك أعداء كواسر ، وحساد جواسر ، يقصدون هلكه ويريدون ملكه ، وسيطفئ نار كيدهم بمياه سيوفه ، ويسقيهم من رحيق فتوحه كاسات حتوفه ، فكشفت غمته .

---

(١) أى فقير جداً فى هذا العلم .

ثم أصلح لباسه وعمته ، وقصد باب الملك ، ونادى غير مرتبك وذكر المنام وعبره ، ووعد السلطان بالنصر وبشره ، فتذكر المنام وحققه ، واعتمد عليه وصدقه ، وأمر له بألف دينار وصار له عند الملك بذلك اعتبار فأخذ الذهب مجبورا ، وانقلب إلى أهله مسرورا ، ثم افتكر ما اشترطه مع الحية ، فأبت عن الوفاء نفسه الشقية ، وخاف أن تطالبه بحصتها ، أو تفضحه بقصتها، فلم ير أوفق من قتلها وسد ذريعة سبلها ، فأخذ عصا ورام بذلك مخلصا ، وقصد مأواها ووقف فناداها ، فخرجت مسرعة إليه وأقبلت بالوداد عليه ، فرأت العصا بيمينه ، فعلمت أنه ناكث بيمينه ، فولت هاربه فضربها ضربة خائبة ، لكنه جرحها وعمد إلى نفسه ففضحها ، وتركها وذهب فائزا بالذهب .

فاتفق أن فى العام الثان رأى السلطان مناما أقلقه ، وعن نومه أرقه ، ومن شدة أهواله محاه الوهم عن لوح خياله ، فدعا المعبر المعهود إليه وقص حاله عليه ، وطلب منه صورة المنام وما يترتب عليه من كلام ، فاستمهله الأيام المعدودات ، وقصد رئيسة الحيات وناداها عجلا ، ووقف فى مقام الاعتذار خجلا ، فقالت : أى غدر كيف استحليت ما مضى من فعلك ومر ، بأى وجه تقابلنى وتخاطب ، وقد قصدت عَطْبى بعدما خلصتك من المعاطب ، وقابلت إحسانى بالسوء ، ولكن غدرك بك يبوء ، فقال : عفا الله عما سلف ، والصداقة بيننا من اليوم تؤتنف ، ثم أنشأ أيمانا أنه يبدل الإساءة إحسانا ، وأنه لايخون ولا يَمِيْن[1] ، فيما يقع عليه العهد واليمين ، بل يعود إلى العهود ، ومهما وقع عليه الاتفاق لايمازجه خُلْفٌ ولا نفاق ، فقالت : أريد جميع الجائزة لأكون بها فائزة ولها حائزة ، فأجابها إلى ما سألت وعاهدها على ذلك فقبلت ، وقالت : رأى الإمام فى هذا المنام ، أن السماء تمطر قردة وفيرانا ،

---

(١) يخدع .

وثعالب وجرذانا ، وتعبير هذه الرؤيا ، وكلمة الله هى العليا : إنه فى هذا العام والشهور والأيام ، يكثر اللصوص والعيارون[١] ، والمكرة والطرارون[٢] ، ويظهر فى العساكر كل حسود ماكر ، وشيطان داعر ، ولكن صولة الملك تمحقهم ، وصواعق سيوفه تصعقهم ، فأسرع إلى السلطان وخبره ، بما رآه فى منامه وعبره ، فقال: بالحق أتيت، هذا الذى كنت رأيت ، ثم أمر له بجائزة سنية وخلعة بهية ، فصار فى عيشة مرضية وحياة هنية ، وسلك طريقته الدنية فلم يلتفت إلى عهوده القوية ، ونبذ عهد الحية الحبية[٣] ، وقال : يكفيها منى كفى عنها ، فلا تطلب منى ولا أطلب منها .

ثم إن السلطان رأى فى المنام فى ثالث الأعوام ، مناما آخر ونسيه، فأرسل إلى المعبر فغشيه من يم الهم ما غشيه وسأله عما رآه ، وطلب منه تعبير رؤياه ، فطلب المهلة كما كان وأحاط به موج الهم من كل مكان ، ولم يرَ بداً من معاودة الحية ، فأتاها وبه من الحياء كيّه[٤] ، وناداها بصوت خاشع، ووقف فى مقام الذليل الخاضع ، فخرجت فرأته فزجرته وزأرته ، وقالت : يا خائن يا كذاب ، يا ناقض العهد يا مرتاب ، يا قليل الحياء ، يا كثير البذاء ، يا صفيق الوجه ، يا حقيق النّجْه[٥] ، ترى بأى لسان تخاطبنى وبأى وجه تقابلنى ، وقد ختلت وفتلت[٦] ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، فقال : لم يبق للاعتذار مجال ، ولا للاستقالة مقال ، وما ثم طريق إلا معاملتك بالإفضال ، فأن أفضلت أتممت الإحسان ، وإن رددت فعذرك واضح البيان ،

---

(١) العيّار : الذى يتردد بلا عمل يخلى نفسه وهواها .

(٢) الطرّار : النشال ، الذى يطرّ الثياب أى يشقه ويقطعه ليسلب ما فيه .

(٣) المعطاءة .

(٤) أى حيرة لا يدرى كيف ينصرف .

(٥) النّذل .

(٦) خدعت .

وهذه المرة الثالثة لا تكون يمينها حانثة ، ولا عهودها ناكثة ، وأشهد الله وكفى به شهيدا أنى بعد لا أنقض لك عهودا ، ولا أُحِل مما بيننا عقودا ، فقالت: لا أخبرك بشيء إلا أن تعهد إلى أن تعطينى جميع ما تعطى ، وتكف عما وقع منك من الخطا ، فسمع مقالها وأجاب سؤالها ، فقالت : رأى الملك فى منامه كأن الجو أمطر من غمامه ما ملأ الفضاء من خرافه وأغنامه ، وتعبير هذا المنام : أنه يكون فى هذا العام من الخيرات والأنعام ما يشمل الخاص والعام ، فتطيب الأوداء وتصالح الأعداء ، وتطيع العصاة ، وتذعن البغاة ، ويوافق المخالف ويكثر المحب والموالف ، فاحفظ ما قلت لك فقد حللت مشكلك .

فتوجه بصدر منشرح وخاطر مطمئن فرح ، وقص المنام وعبر فيه من الأحلام ، فطار الملك بالفرح وتم سروره وانشرح ، وأمر بالجوائز فصبت عليه ، وبالأموال فانهالت إليه ، فنعم بتلك العطية والخلع السنية .

وقصد وكر الحية ، ثم وقف وناداها وقدم إليها كل ذلك وأعطاها ، وشكر لها إحسانها وتحمل جميلها وامتنانها ، فقالت له الحية : اعلم يا أبلم[1] ، إنه لا عتب عليك ولا ملام ، فيما جنيته أولا من الآثام ، ولا ما ارتكبته من العداوة والمَيْن[2] فى العامين الأولين ، ولا فضل لك فى هذه السنة على ما فعلته من الحسنة، فإن ذينكِ العامين ، كانا مشتملين على قِران النَحْسَيْن ، فكان مقتضى حالهما فساد الزمان والعداوة بين الأصدقاء والإخوان ، ووقوع البغضاء والشرور والحِنْث[3] والخِلْفُ وقول الزور ، فجريت على مقتضاهما حسب مرتضاهما ، والناس فى طباعهم وأيامهم أشبه بزمانهم منهم بآبائهم ،

(١) قبيح .
(٢) الكذب والخداع .
(٣) الكذب .

وهذا الأوان قد انصلح الزمان ، واستقام الطالع وزال الحسد والتقاطع ، واقتضى الزمان الصلح والصلاح والموافقة والفلاح ، فمشيت على موجبه ، وتشبثت بذيل مذهبه ، فخذ مالك وانصرف بارك الله لك فيه ، فلا حاجة لي به ولا يَدَّ لِي لتقليبه .

وإنما أوردت هذا المثل أيها الجمل ؛ لتعلم أن الزمان لتقلبه في الدوران ، يوقع بين الأصحاب والإخوان ، ويباين بين الأصدقاء والخِلان ، والأسد المجتهد وإن كان قد زهد وترك من أخلاقه ما عهد ؛ فيمكن عوده إلى حاله الأولى ؛ فالاحتراز منه في كل حال أولى، وها أنا قد أخبرتك ، ومن سوء العاقبة حذرتك ، وعلى ما وصل إليه فكرى أطلعتك ، وفرط محبتي وشفقتي عليك ؛ اقتضى إفشاء هذا السر إليك ، ومن أنذر فقد أعذر ، ومن بصر فما قصر .

قال الجمل : يا أخي فنترك هذا المقام ونروح ونخدم من في خدمته نستريح ، قال الدب الجاحد : إذا كان هذا العابد الزاهد الراكع الساجد ، الذى قد تعفف عن أكل اللحوم ، وليس له دأب إلا إغاثة المظلوم ، قد عف عن الدماء وقنع بأكل الحشيش وشرب الماء لا تؤمن غائلته ، ولا تعتمد خائلته[1] فإلى أين نتحول وعلى من يكون المعول ، وأنَّى نذهب وفيمن نرغب ، قال الجمل : فكيف يكون العمل فلقد ضاقت بنا الحيل وتقطعت بنا السبل ، لا طريق للمفر ولا قرار للمستقر .

فأفكر الدب طويلا ، ثم رأى رأيا وبيلا ، وقال : أرى الرأى السديد ، والفكر المفيد ، أن نبادر الأسد قبل وقوع النكد ، فنقصده بما يقصده ، ولا نوصله إلى ما يعتمده ، فالعاقل يفتكر في عواقب الأمور ، ويقيس بفكره

---

(١) رعايته .

السرور والشرور، ويستعمل الحزم ، وإذا قصد أمر يصمم العزم ، وناهيك قضية الثعبان مع ذلك الإنسان ، قال الجمل أخبرنى عن تلك القضية ، ومن ذلك الإنسان وما تلك الحية ؟ .

[٧١] **قال أبو حميد الخبيث** : بلغنى من رواة الحديث ؛ أن شخصا من الصيادين كان مغرما بصيد الثعابين ، يتسبب بصيدها[١] ولا يبالى بكيدها ، فبينما هو يسعى إذ صادف أفعى ، شرها ناجز كما قال الراجز :

أَرْقَشُ ظمآن متى عَضَّ لَفَظَ   أَمَرَّ مِنْ صَبَرٍ ومَقِـرٍ وحَظَظ[٢]

وقد أثر فيه الحر بالحرق وهو نائم فى مكان منطبق ، فاستبشر الحوّاء[٣] برؤيته وقبضه من عقصته[٤] ، فلم يفق الثعبان من رقدته ، إلا وهو من الحاوى فى قبضته ، فتماوت وامتد وارتخى فاسبل بعد ما كان اشتد ، فظن الصياد أنه مات ، وأن مراده منه فات ، فتحرق لذلك وتألم ، وتأسف عليه وتضرم ، وحرّق عليه الأُرَّم[٥] ، ورماه من يده ، ثم دار فى خلده أن فى بطنه خرزة بهية ، مشرقة مضية ، فأخرج الشفرة وقصده ، ومد لتبضيعه يده ؛ فلما تحقق الأرقم ما عزم عليه وصمم ، خدعه وختله وضربه فقتله .

وإنما ذكرت يا أبا أيوب هذا المثل المضروب ؛ لنتحقق أن المبادرة إلى إهلاك العدو أقر للعين وأجلب للهدو ، ومن فوت الفرصة وقع فى غصة وأى غصة ، وهذا الأسد إن غفلنا عن أنفسنا أبادها وقصد دمارها وفسادها ، ولا يفيدنا إذ ذاك الندم بعد ما زلت القدم ، وتحكم فى وجودنا من مخالبه العدم .

---

(١) يترزق .
(٢) مقر : مر ، وحظظ : شر .
(٣) صائد الحيات والثعابين .
(٤) قرنه ، مقدمة رأسه .
(٥) الأُرَّم : الأضراس ، ويحرق عليه الأرم ، أى يحكها بعضها ببعض من غيظه .

فقال الجمل : اعلم أيها الرفيق الصديق الشفيق ، إن هذا الملك آوانا وأكرم مثوانا ، ولم نشاهد منه سوء ولا من ظلمة باطنه آنسنا ضوء ، ولو قصد أذانا ما وجد دافعا ولا ممانعا، وقد علمنا أنه ترك الأذى وكف عن الشر والبذا ، تعففا لا تخوفا وتكرما لا تكلفا ، واختيار لا اضطرار ، وجبرا لكسرنا لا إجبارا ؛ وأما أنا على الخصوص فلم أر منه إلا الجميل ، والفضل الجزيل والإحسان العريض الطويل ، فلأى شيء أسرع فى أذى نفسى وأكدر صافى ودسى ، ولم يظهر لى منه أمارة لا بمقتضٍ ولا بدلالة ولا بإشارة ؛ فضلا عن سباق أو سياق بعبارة ، وأنا لو مت كمدا ما قصدته بأذى ولا رديته برداء ردى ، والصوفى ابن الوقت لا يتقيد بنكد ولا مقت ، فإن قصدنى بعد ذلك بشر أو تعرض لى بهلاك وضر ، لا يسعنى معه إلا التفويض والتسليم والتوكل على العزيز العليم ، مع أنى لا أقدر على مقاومته ولا قوة لى فى دفع مصادمته ، ولا طاقة لكسر أنيابه ومخاليبه ، ولا خلاص من أشراك أساليبه ، غير أنى وإن كنت منسوبا إلى التغفل ، لا أدع من يدى ذيل التوكل ، فبالتفويض يحصل النجاح ، وبالتوكل يظفر بالفلاح ، كما جرى لذلك الفلاح مع الذئب والشجاع حال التوكل على الله تعالى والانقطاع ؛ فسأل أبو سلمة إيضاح هذه الكلمة .

[٧٢] **قال أبو صابر** : بلغنى من أحد الأكابر أن شخصا فلاحا توجه إلى ضرورة صباحا ، من غير رفيق ولا حامل سلاحا ؛ فبينما هو فى البيداء سائر صادفه ذئب داعر ، خاتل خاتر ، فقصده ليكسره فنر وصعد إلى شجرة، فترصد نزوله وانتظره تحتها ليغوله ، فانعصر ، وعن ضرورته انحصر ، وبينما هو فى تلك البلية وقعت عينه على حية ردية ، ذات قرون صاعدة وهى على بعض الفروع راقدة ؛ فازداد همه وأحاط به لوهمه غمه ؛ فاستمر بين بليتين وانحصر فى ديوان داهيتين دَهيَتَيْن ؛ فلم ير أوفق من التوكل

على الله والإعراض عما سواه ، فاعتمد متوكلا عليه وفوض أموره إليه ، وبينما هو تلك الشدة وقد بلغ ضَرَّه حده ، وإذا برجل مقبل مَن الفلا ، وعلى عاتقه عصا ، فقصده الذيب من قريب ، فلما رأى السلاح فر وله كلاح ، فنزل الفلاح من الشجرة ، وأزال الله تعالى همه وضرره .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم أن الله نعم المُتَّكَل ، فأخرج هذا الوسواس من القلب والرأس ، ولا تبك سلفا ولا تعجل تلفا ، ولا تخلع الحذاء يا ذا الرياضة قبل أن تحل إلى المخاضة ؛ ولا تيتم لأمر ما وقع ، فإن ذلك من شر البدع ، فإن قصدنا بسوء فالله يكافيه ويكفينا بحوله وقوته فيه .

قال الدب ذو الضرر : هذا رأى القاصر فى النظر ، العاجز فى الفكر ؛ فأما ذو الفكر الثاقب فلا يغفل عن العواقب ، فكل من قصر عن العواقب نظره ، ولم يسدد فى الأمور فكره ، فهو كمن تعلقت النار بأهدابه ، والتهبت لإحراق ثيابه ، وهو مشغول عن إطفائها متساهل فى كشف أنبائها ، فلم يفق إلا وقد نشبت وأعضاؤه بالنار التهبت ، فما تفيده الإفاقة وقد صار حراقه .

قال الجمل : يا أخى أفق من محالك وعالج فساد تصورك وخيالك وانظر قوة جلدك وكيفية حالك ، أنا لحمى من صدقات الأسد نبت ، وحبه فى دمى وعظمى ثبت ، كيف أجحد نعمه أو أريق دمه ، وأنا أغرس صدقاته وبنيان نفقاته ، ورفيق حضرته وعتيق منته، مع أنى لو نبذت عهده فقطعت ما قطعت وعزمت على مناوشته ما استطعت أما وعيت فى معانى ما رويت :

هِى العَنْقَاء تكبُرَ أن تصادا   فَعَانِدْ مَنْ تَطيقَ له عِنادا

تريد صيد العقاب بفرخ الغراب ، أم تقتنص الذئابَ بجرو الكلاب ، وتبغى بالقرود كسر الفهود ، أم بالسنانير(1) تصيد الأسود ؛ ولا والله

(1) السنانير ، مفردها السنور : القط .

لا أقصده بأذى ولا يطاوعنى قلبى على ذلك أبدا ، ولو فعلت ذلك لسعيت فى دمارى وخراب ديارى ، وجدعت أنفى[(١)] بكفى وبحثت عن حتفى بظلفى[(٢)] ، وجززت بيدى رأسى وقطعت قدمى بفأسى ، وقلعت بإصبعى مقلتى، واستحفظت ملك الموت مهجتى ، ولصرت من أكبر المعتدين وأفسدت دينى ودنياى والله لا يحب المفسدين ، فاطو عنى هذا الكلام وارجع عن مفاوضتى بسلام ، ولا تشكك به جنانك، ولا تحرك به لسانك .

وكان بالقرب منهما وكر فارة ، وقد سمعت ما جرى بينهما من عبارة ، ووعت كلامها وما دار بينهما من كل منهما ، فلما رأى الدب المريد أن كلامه للجمل لا يفيد ، أمسك واحتشم وأخذه فى ذلك الندم ، ولكن حال من الجمل الحال وأثر فيه هذا المقال ، واستولى عليه من الأوجال[(٣)] ما أداه إلى الهزال، وصَيَّرَهُ من الانتحال كالخلال ، وذهب ما كان عليه من النشاط ، وداخله الهم والاختباط ، وصار كل يوم فى انحطاط ، ولم يزل بين نضو ورازح[(٤)] ورازم ونازح[(٥)] ، فتعجب الأسد من حاله ولم يقف على سبب هزاله .

وكان عند الأسد غراب مقدم على الأصحاب ، هو وزيره ومعتمده ، وصاحب أخباره وعضده ، فعرض عليه حال الجمل وما شاهده منه من وجل، وقال : أنا عففت عن أكل اللحوم ورضيت من العيش بأدنى الطعوم ، وهذا أمر قد عرف واستقر ، فما بال هذا الجمل لا يأخذه مقر ، فأريد أن تعرف حاله وتخبرنى صدقه ومحاله .

(١) قطعتها .
(٢) الظلف هو حافر الدابة .
(٣) الأوجال ، مفردها وجل : الخوف .
(٤) بين نضو ورازح : بين نشيط ومتعب .
(٥) رازم ونازح : ملازم لمكانه لا يبرحه ، وتارك لمكانه بعيداً عنه ، والمعنى : حاله غير مستقر كثير التغير .

فتوجه الغراب إلى منزل الجمل وقد أخلص فى القول والعمل ، وسأله عن حاله وموجب هزاله وانتحاله ، وما سبب هذا الرزوح والرزوم المؤدى إلى النزوح ، فما أحار جوابا ولا ذكر خطأ ولا صوابا ، فصار الغراب يرتقبه ، وحيثما توجه يعتقبه ، ففى بعض الأيام كان الغراب على بعض الآكام ، رأى الجمل قد أقبل إلى الماء ليطفئ بشربه سورة الظمأ ، فتخفى الغراب واقتفى ظهره إلى أن قاربه ، وكَمُنَ خلف صخرة ، فسمعه يقول بعد ما شرب ، وقد رأى السميكات فى اللعب : لك الحمد يارب ما أرحمك وطوبى لَكُنَّ يا سمك ، لا من رئيسكن تخفن ولا من هيبته ترجفن ، لا ملك يهولكن ولا سلطان يغولكن ، ولكن البكاء على الجمل الذى ضاقت به الحيل قد وقع فى دردور البلاء[1] ، ولا يهتدى إلى طريق النجاء ، بل ولا يدرى عاقبة أمره المهول إلى ماذا تؤل ، ألِى الغرق والندامة ، أم إلى النجاة والسلامة .

ثم أخذ فى الانتحاب إلى أن أبكى الغراب ، فلما رأى أبو القعقاع هذه الأوضاع ، قضى من الأمر العجاب ما يتشيب منه الغراب ، ثم توجه إلى أسد الشرى وعرض عليه ما جرى بتخيير المشترى ، فتشوش فكره وتشور أمره، وضاق بالهم صدره ، وقال : أنا كففت عن الشر والشره وعففت عن ذلك كأن لم يرنى ولم أره ، وتركت القَرْم والأذى ، وفطمت نفسى عن لذيذ الغذا ، ليأمننى أصحابى ويأنس بى أحبابى ، فإذا لم يستقر خاطرهم ولم تطمئن على محبتى سرائرهم ، أى فائدة لى فى الحياة ، وكيف أخلص فى حرم المودة من كدر العيش إلى صفاه ، وكل ملك لا تصفو له رعيته ولا ترسخ فى قلوب جنده محبته ، كيف يثبت سلطانه أو يساعده عند الشدائد أعوانه ، أنا بذلت جهدى وطاقتى وتشبثت بأذيال الصلاح على قدر استطاعتى ولم يبق إلا

---

(١) الدُرْدُور : موضع فى البحر يجيش ماؤه فيخاف فيه الغرق . والمعنى مصيبة كبيرة .

التضرع ، والاستكانة والتخشع ، إلى مقلب القلوب ، وعلام الغيوب ليكشف هذه الغمة ويصلح لى هذه الأمة ، ويجلو عن جبين الحق بهيم[1] هذه الظلمة .

ثم تضرع إلى عالم الأسرار ليطلعه على حقيقة هذه الأخبار ، ثم أمر باجتماع جماعته المقيمين على محبته وطاعته ، وعرض عليهم هذه الأحوال وطلب منهم استكشاف ما فيها من الأهوال ، وقال : اعلموا أنى أمنتكم من مخافتى ، وبذلت لكم بدل عنفى لطافتى ، قد حققتكم مرامى وصدقتم كلامى ، وعرفتم أخلاقى وشذى أعلاقى[2] ، كل ذلك لتطيب خواطركم وتصفو لى سرائركم ، ولم أفعل ذلك عجزا ولا خورا ولا تهاونا ولا ضجرا ، وأنا الآن آمركم بواحدة هى أجلى فائدة ، أن لا تكتموا عنى شيئا تكرهونه منى ، بل أوقفونى عليه وأرشدونى إليه ، ثم اجهدوا أنى أمنعه عنى ، فإن فيكم أَجَلُّ محبوبى ، من أهدى إلى عيوبى ، وقد قال سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام اللهم أبلغه أفضل التحيات عنا : «من غشنا فليس منا»[3] .

وإنما أوردت هذا الكلام فى هذا المقام ؛ بحضور الخواص والعوام ، على سبيل التحذير والإعلام والتنذير ، وأقسم بالله العلى الكبير اللطيف الخبير ، الذى منه المبدأ وإليه المصير ، لم يكن فى خاطرى من أحد حقد ولا حسد ، ولا هجس بخاطرى له أيذاء ولا نكد ، وها أنا قد أخبرتكم وبإطلاعى أمرتكم ، فلم يبق لى ذنب يستغفر منه ولا لكم فى الإخفاء ما يعتذر عنه ، وإن الله تعالى لا يعذب بضلال الأسافل ، بل يهب للأعالى الأراذل ، فإذا

---

(١) شدة السواد .

(٢) الأعلاق : الجميل النفيس من كل شىء ، سمى كذلك لتعلق القلب به ، والمراد : حسن أخلاقى .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب الإيمان (١٦٤) والترمذى : كتاب البيوع ، باب ما جاء فى كراهية الغش فى البيوع (١٣١٥) وقال : حسن صحيح .

فسد الراس تغيرت الناس ، فحل الباس ، ولقد قال خالق البرية وباريها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] فقام الحاضرون فى مقام العبودية والولاء ، وبسطوا ألسنتهم بأنواع الثناء والدعاء، ونادوا بكلمة واحدة متفقة متأكدة ، حاشا الله ما علمنا عليك من سو ، ولم تزل تُطَيِّبُ عِلَلَ تقصيرنا وتأسو[١] ، وتستر بذيل عفوك كل عار منا وتكسو.

وكان هذا الكلام للأكابر وقد اجتمع البادى والحاضر ، وأبو حميد المفتن فيما بينهم حاضر ، فأدرك بهذا العمل أن الأسد شعر بشىء من جهة الجمل ، فاستدرك فارطه وسلك سبيل المغالطة ، ثم اختلى بالأسد ولم يكن معهما أحد ، وقال : كأن مولانا الملك وقاه الله شر المنهمك ، أحس بشىء أوجب تقرير كلامه لطائفة جنده وخدامه ، وأنا عندى كلام لم يطلع عليه أحد من الأنام ، ولم أبده للملك بحضرة الجماعة ؛ لأنه ربما لا يقصد الملك به الإذاعة ، ولا يمكننى إخفاؤه وقد كان إبداؤه .

فاعلم أيها الملك الهمام كفاك الله شر اللئام ، أنه كما يستحقر العالِمُ الجاهل ، كذلك يزدرى الجَاهلُ العاقلَ ، وذلك لقصور فهمه وعدم علمه ، ومهما أحاط الخادم بمرتبة مخدومه ، وزاد علو قدره فى معلومه ، ازداد فى قلبه وجوارحه مقدار تعظيمه ، واستقرت هيبته فى قلبه وروحه ، وصارت كؤس خشيته تنادمه فى غبوقه وصبوحه[٢] ، وقد قال رب الأرض والسماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] . وقول النبى عليه الصلاة والسلام : «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم لله»[٣] . إشارة إلى هذا المقام ، وكلما ضعفت معرفة الخادم بالمخدوم ، قلت قيمته عنده وهذا أمر معلوم .

---

(١) تعالج .

(٢) ما يشرب فى الصباح والمساء .

(٣) قال العجلونى فى كشف الخفا (٢٠٠/١) قال فى المقاصد : قال شيخنا : صحيح ، وقد ترجم البخارى فى صحيحه بقوله صلى الله عليه وسلم : «أنا أعلمكم بالله» وأورد فى الباب عن عائشة قالت : «.....إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» .

ثم اعلم يا ملكا أعظم أن الجمل الطويل الأمل ، قد اغتر بالملك حين كان فى ذرى أمنه سلك ، وأحسن إليه غاية الإحسان وصار فى عدم الوفاء كالإنسان ، وحصل له من صورة غضبه الأمان ، فجهل قدره ، وتعدى طوره، وقد قيل :

إِذَا أَنْـتَ أَكْرَمْـتَ الكَـرِيمَ مَلَكْـتَـهُ   وإنْ أنـت أكْرمـتَ اللّـئيمَ تَمَـرَّدَا

فَوضْعُ النَّدى فى موضِعِ السَّيْفِ بالعُلى   مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضِعُ النَّدَى

وقال الله تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦]

وكل نفس لا تحتمل الجميل وحوصلة العصفور لا تسع لقمة الفيل ، وناهيك ما قد قيل فى الأقاويل عن حماقة كل طويل ، فلا جرم ، فسد دماغه حين حصل فراغه ، وتطاولت نفسه فى مسراها إلى أشياء لا يمكن إفشاها ولا يتفوه بها مسلم ولا يرضاها ؛ لان ذكرها قبيح والكناية أبلغ من التصريح .

فلما سمع الأسد هذا المقال علم ببديهة العقل أنه زور ومحال ، ثم أرسل إلى الغراب وذكر له هذا الخطاب ، ليميز خطأه من الصواب ، ويبين القشر من اللباب ، فلما أتى الغراب إلى حضرته وجلا صورة هذا القول على مرآة فكرته ، قال له : ضميرك المبارك فى حل هذا المشكل لا يشارك ، فإنه حلال المشكلات موضح المعضلات ، وأما أنا فلا أسمع هذا الكلام ولا أقبل فى الجمل الملام ، فإنى أعرف تواضعه ومسكنته ، وصبره وطاعته ، وإخلاصه وقناعته ، وأنه صادق فى محبته مخلص فى عبوديته ، وأعرف أن خوفه من الملك غالب على رجائه ، وأنه مع ذلك مقيم على سنن وفائه وعقود عهوده وصفائه ، ولو أراد الذهاب لذهب بسلام ، ولا فى وظيفته قيد ولا فى وتيرته خُطَام(١) .

---

(١) الخطام ، مفردها خطم : حبل يجعل فى عنق البعير ويثنى فى خطمه ، والوتيرة : جزء من الأنف .

ثم قال الغراب : والغالب على ظن ذوى اللب أن هذه الفتن أَصْلَها وأصلاها الدب ؛ لأنه قد تقرر وتحقق واتفق كل حكيم موفق ، أنه إذا نقل ناقل محمق عن عاقل ابتدأ بالإحسان إساءة فلا يصدق ، فالملك لا يبادر في هذه القضية حتى يتبصر الأمر عن جلية ، وحاشاه أن يفرط في خدمة المخلصين ، من غير أن يتدبر أمورهم بيقين ، ويختلى بعبده الجمل ، ويتحقق منه أصل هذا العمل ، بعد استجلاب خاطره وتطييب سرائره وضمائره.

فاستصوب الأسد هذا الفصل ، واختلى بالجمل ليقف منه على هذا الأصل ، وسكن جاشه ، وأزال بلطيف الكلام استيحاشه ، وشكر في خدمته مساعيه ، وطلب بملاطفته مراضيه ، ثم طلب من الجمل تفصيل ما بلغه من جُمل ، وأكد قوله بالإيمان أنه لو صدر منه تقصير ونقصان ، ولو كان مهما كان ، فإنه قد عفا عما هفا ، ولا يكدر من عيشه ما صفا ، ولا يمزق رقيق حاشية وفائه بالجفا ، ولا يتقيد بهفواته ولا يطالبه أبدا بزلاته ، فليطلعه على جلية الحال وليذكر ما وقع منه من أقوال وأفعال .

فافتكر الجمل في معاهدته مع الدب وأنه لا يفشى سر ذلك العديم اللُّب ، وكيف ينقذه من غضى جمر[1] شبَّ وقضاء غمرة صب[2] .

فقال : إن قلت أضعت صاحبي ، وإن سكت قصرت في جانبي ، ثم اختار كتم الأسرار ، وسلك طريق الأحرار ، والوفاء بالعقود ، وعدم نكث العهود ، وقال : أسعد الله مولانا الذى بوجوده أحبانا ، إنى أتفكر في عواقب الأمور ، وانظر في تقلبات الدهور ، وأخشى سطوات السلطان ، وأخاف من حوادث الزمان ، فلا أزال من هذا الخيال في انتحال وهزال ، إلى أن صرت إلى هذا الحال ، فإن كان هذا ذنبا يوجب العقوبة فإن إزالته عن خاطرى فيها صعوبة ، وهذه أوهام لا يمكن دفعها ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسَاً إِلاَّ وَسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦] .

---

(١) الغض : شجر خشبه من أصلب الخشب ، لا ينطفىء بسهولة .

(٢) شدة العشق .

قال الأسد : فهل اطلعت على ما يوجب ذلك ، أو يدل على الإلقاء فى المهالك ، وتضييق المسالك من حركات أفعالى أو من فلتات أقوالى ، أو تقلبات أحوالى ، أو نقل إليك ناقل من جاهل أو عاقل ، فأفحم الجمل عن الجواب ، وأطرق فلم ينطق بخطأ أو صواب .

فقال الغراب : لا ينجيك الا الصدق ، وكشف أستار الريب عن جبين الحق ، وكان حاضر هذه الفحوى خُلْدٌ أعمى ، وهم عنه غافلون وعن استماعه ذاهلون ، ففى الحال توجه إلى الدب وقال : صورة ما جرى بتخيير المشترى ، فعلم الدب أنه افتضح وأمره اتضح ، فنهض وما قعد ودخل على الأسد ، ، فرأى الجمل مطرقا لا يلوك منطقا ، فمد صولجان اللسان وخطف كرة البيان ، وسابق بالكلام خوفا من الملام .

وقال بلسان طلق كلام فاجر مختلق: اعلم أيها الطويل الأبلم ، أنك لو أمسكت عن كلامك القبيح فى وقتك الفسيح ، لكان أصوب، وأحسن وأعجب ، لكن لما فهت بالعِبَر وأتيت بإحدى الكِبَر وصادمت القضاء والقدر ، وخنت ولى نعمتك وقصدت إهلاك الملك ، بقبح شيمتك ، أزال الله سترك وأبدى أمرك وفضحك وقبحك ، وبلجام الخزى كبحك ، لا جرم جرمك حبسك وإثمك العظيم أخرسك.

فأبهت الضرغام من هذا الكلام ، وشاب الغراب من هذا الأمر المشاب، ووقعوا فى الاضطراب والشك والارتياب ، واشتبه الخطأ بالصواب وقالوا : إن هذا لشىء عجاب ، فقال الجمل للدب : يا فقيد اللب يا قليل النصَقة ، وعديم المعرفة ، وأنحس أفَّاك وأنجس سفاك ، وأبخس بتاك[1] ، أتظننى خائفا من كلامك وخطابك ، عاجزا من ملامك وجوابك ، أما كفى أنى قصدت ستر

(١) بتاك : صيغة مبالغة من بتك بمعنى قطع ، والمراد بالبتاك : الذى يوقع الفتن بين الأصحاب فيقطعهم .

عِوَارك[١] ، وإطفاء نارك ، ومفتكِرٌ فى تلاقى قضيتك ، وإخماد لهيب فتنتك ، وإهماد شرار مصيبتك وعلى تقدير التسليم ، وإنى فهت بالكبر والأمر العظيم، أكنت معك منفردا أم رأيت بيننا أحدا ، فإن كان بيننا أحد فاحضره إلى حضرة الأسد ، فإنى أرضى به وبما بين ، ولا دافع لى فيما يشهد به ولا مطعن ، وإن كنت أنت وحدك فما منعك عن نصح الملك وصدك ، فأنت إذا إما خائن وإما مائن[٢] ، وهذا أمر محقق بائن ، ولولا أيمانى التى ربطت بها لسانى لكنت أظهرت البرىء والجانى ، ولكن تحليفى إلى الكتم والسكوت ألجانى ، وسيظهر الله الحق ويفصل ، وللباطل صولة ثم يضمحل ، والله ما لك مثل مع المسكين الجمل ، إلا امرأة النجار لما أغلقت باب الدار ، قال أبو الحارث الغضوب : أخبرنا يا أبا أيوب كيف كان هذا الحديث ، لنطلع على هذا الفعل الخبيث .

[٧٣] **قال** : ذكر رواة الأخبار أنه كان رجل نجار ، له زوجة تخجل الأقمار ، وتكسف شمس النهار ، كأنها الدنيا تخدع بملامح صورتها ، وتصرع بروائح سيرتها ، فكانت كلما رقد زوجها وهو تعبان انسابت إلى الأخدان انسياب الثعبان ، فتقضى الليل بانشراح ، فى عناق وشرب راح[٣] ، إلى أن ينفجر الصباح ، ثم تنثنى عائدة فلا يستيقظ الزوج إلا وهى عنده راقدة، ففطن فى بعض الأوقات لفعلها ، وراقب ليلة خيال ختلها ، فتراقد فى الفراش وذهبت لطلب المعاش ، فنهض وراءها النجار ، وأوصد لما خرجت باب الدار ، واستمرت هى وصاحبها ، وزوجها مستيقظ يراقبها ، فلما عادت راجعة وجدت الأبواب مانعة ، فطرقت الباب من غير اكتراث واكتئاب ، فناداها يا خائنة اذهبى حيث كنت كامنة ، فقالت : استر هذه الذنوب فإنى من بعد أتوب ، فقال لها : لا والله الرحمن حتى تُفضحى بين الجيران ، فقالت :

---

(١) معايبك .
(٢) كاذب .
(٣) الخمر .

الموت أهون من الفضيحة فاغفر لى هذه القبيحة ، وأنا أحلف يا ودود بالله الرب المعبود ، أنى أتوب ولا أعود ، ثم ألحت عليه وتضرعت لديه ، فلم يفتح لها بابا ولا رد عليها جوابا .

فقالت : والله اللطيف الخبير ، لئن لم تفتح الباب لألقينِ نفسى فى هذا البير ، ولأرمينك بقتيل بين الحقير والجليل ، ثم عمدت إلى حجر كبير وطرحته فى تلك البير .

ثم اختفت عند الباب ، لتنظر ما يبرزه القضاء من الحجاب ، فلما سمع زوجها خبطة الحجر تصور أنها تلك البغى فابتدر ، وفتح الباب وإلى نحو البئر طفر ، ولم يشك أن تلك البغى ألقت نفسها فى الطَّوِىّ ، فما وصل إلى البير ذلك الرجل الغرير ، إلا وقد دخلت وفى وسط الدار حصلت ، ثم أوصدت الباب واستغاثت بالجيران والأصحاب ، وأحكمت الرِّتَاج[1] وأوقدت السراج ، وملأت الدنيا بالعياط ، وأخذت فى الهياط والمياط[2] ، فاجتمع الجيران ، لينظروا ما هذا الشان ، فقالت : هذا الرجل الظلام يتركنى كل ليلة حتى أنام ، ثم يتوجه إلى الزوانى ، ويدعنى أقاسى القلق وأعانى ، وأتقلب فى أرقى وأشجانى ، فأخذ الرجل يحلف بالله ذى الجلال ويذكر للحاضرين حقيقة الحال ، فتارة يصدق وأخرى يكذب ، وهو بين مصدق منيم ومذبذب ، فلم يزالا فى عويل وصياح إلى أن ظهر تباشير الصباح ، فحضرا إلى القاضى واختصما ، وشهد بعفة الرجل الصلحاء والعلما ، وأظهر الله الحق ، وثبت على المرأة الخيانة والفسق ، ولولا ذلك لذهب البرىء غلطا ، وانقلب صواب المحق الصادق خطا .

---

(١) ما يغلق به الباب (القفل) .

(٢) يقال : هم فى هياط ومياط ، أى فى اضطراب وذهاب وجلبة وشر .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم أيها الملك البطل خيانة الدب وبراءة الجمل ، والرجل إذا عجز عن فعل الشجعان يتشبث بحبائل الشيطان ، ويستعمل مكر النسوان ، ونظير هذا الكياد ما وقع بين صادق دمشق وفاسق بغداد ، وهى قضايا جليلة الأبواب طويلة الذيول والأذناب ، قد دونت فى مجلدة لا يسعها هذا الكتاب .

ففكر الريبال فى هذه الأحوال ، ثم أمر بهما إلى الاعتقال ، وكان للملك سجان ذكى ، كنيته أبو الحصين واسمه ذكى ، فتسلمهما واحتفظ بهما .

فلما استقرا فى قبضة الحبس واستمر أمرهما فى تحت أذيال اللبس ، توجهت الفارة التى كانت سمعت سر مناجاتهما ، واطلعت من أول الأمر على حكاياتهما إلى السجان ، وهما فى أضيق مكان ، وسألته عماذا آل عليه أمرهما من شان ، فأخبرها بحالهما وجهل عاقبة مآلهما ، وأنه ليس بعالم من المظلوم منهما والظالم .

فقالت الفارة : أسألك ياذا الشطارة والذكاء والمهارة إذا ترجح لأحدهما الجانب ، وتبين الصادق والكاذب ، وتعين المرضى عنه والمغضوب ؛ عليه تطلعنى على ذلك لأنظر إليه ، قال السجان للفارة : لقد فهمت عنك بالإشارة وأدركت من فحوى العبارة ، أن لك إطلاعا على هذا الأمر ، وفرقا جليا بين تمره والجمر ، فإن كنت شممت من ذلك روائح ، فبادرى بآداء تلك النصائح، فإن قولك مقبول ، ولك الفضل لا الفضول ، ولا تقصدى بهذا الإرشاد إلا مصلحة العباد ، وكشف الغمة وبراءة الذمة ، وردع الظالم ، وخلاص ذمة الحاكم .

قالت الفارة : وأنا لا أقصد إلا إصلاح ذات البين ، وشمولهما بعاطفة الملك بحيث يصيران كالمحبين ، ويرتفع النكد ويحصل رضا الأسد ، ويحسم

الضرر والضير وتختم عاقبتها بخير ، وأيضا فإنى سمعت من العلماء ، وضبطت من نصائح الحكماء ، ومقالات ذوى الآراء أنهم قالوا : إياك والتكلم فى أمور الملك ببيضاء أو سوداء ، وأين بنت الجرذ من ملك الوحوش الأسد.

قال السجان : لا تقولى ذاك ولا تستحقرى جدواك ؛ وما ترين فى فتواك ودونك القول الصادر من نظم الشاعر الماهر ، وهو :

لا تَحْقِرَنَّ الرأىَ وهو مُوافِقٌ ... حُكْمَ الصَّوابِ إذَا أَتَى من نَاقِصِ
فَالدُّرُّ وهو أَجَلُّ شيءٍ يُقْتَنَى ... ما حَطَّ قِيمَتَه هوانُ الغَائِصِ

وإن النصيحة كالعسل ، والحق يصدع كالأسل[(١)] ، فالعسل يعطى حلاوة ذوقه سواء كان فى صحاف الذهب أو فى زِقّه[(٢)] ، وقاصد الصواب والنصيحة ومن أغراضه لدفع الفساد صحيحة ، يخاطر بنفسه وماله ويراقب ما فيه حسن مآله ، وأفضل المعروف إغاثة الملهوف ، سمعت فى المثل السائر : ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر))[(٣)] ، وهذا الطور عند ملوك الجور ، فكيف وملكنا أعدل الحكام وناصر دين الإسلام ، متصف بمكارم الأخلاق والشيم ، ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والكرم ، فإن كنت تدرين بجهة الانتفاع ، أو لك على قضايا الدب والجمل اطلاع ، فقومى وانصحى وقولى تفلحى ، كما فعل الوزير المنتخب مع كسرى فى حالة الغضب ، فسألت الفارة هذا المثل وأخباره .

---

(١) الرمح الشديد .

(٢) قربة .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود : كتاب الملاحم ؛ باب الأمر والنهى (٤٣٤٤) بلفظ : ((كلمة عدل)) . والترمذى : كتاب الفتن ، باب ما جاء أفضل الجهاد ...(٢١٧٤) ، بلفظ : ((إن من أ عظم الجهاد كلمة عدل)) .

[٧٤] قال أبو الحصين السجان : ذكر أنه كان لأنوشروان زوجة ، فاقت النسوان ، يخجل قدها الأغصان وخدها البدر حيث لا نقصان ، كان أبوها من السلاطين وملوك الأساطين ، وكان أنوشروان قتل أباها وأخاها ، واتخذها لنفسه واصطفاها ، وكان مشغوفا بحبها متخوفا من قربها ؛ لئلا تتذكر قتيليها ، فيستولى طلب الثأر عليها ، فلم يزل متحرزا من أفعالها مراقبا تقلب أحوالها ، فاتفق أنه كان جالسا معها على السرير ، وحولهما من الجوارى الحسان ، كل بدر منير وظبى غرير ، فتاقت نفسه إليها فمد يده ووضعها عليها ، فنظرت إلى الجوارى فرأت أعينهن إليها ناظرة ، فصارت بين طرفى الانقياد والامتناع حائرة ، وكانت قد سمعت من أبيها ما رأته من أقاربها وذويها ، معنى ما قيل :

وإنِّى لأَستَحِى مِنَ النَّرجِسِ الذى　　　يراقبُنَا أنِّى أُقَبِّلُ مَنْ أهْوَى

فخطر ببالها أنه إذا استحيا من عيون النرجس وهى جامدة ، فكيف لا أستحى من عيون إنسان فى مراقبتنا غير راقدة ، فغلبت عليها الحيرة ، وإن جدع الحلال أنف الغيرة فانكمشت من كسرى ، وزادها الحياء والهيبة انقباضا وكسرا ، فجذبها بقوته إليه فانفلت منه لما استعصت عليه ، فوقع عن سريره العالى وعلا حلقه التمر الغالى ، وتبسم بعض تلك الجوارى ، من غير اختيار فاضطرب لما اضطرم فيه النار ، وتذكر ما كان توهمه من أخذ الثار ، وفار دم قلبه لما غار ، فدعا وزيره الكبير ودفع إليه ربة السرير ، وأمره بإزهاق نفسها وإسكانها فى رمسها ، من غير مراجعة ولا شفاعة ولا مدافعة .

فحملها إلى منزله ووقع فى صعب الأمر ومشكله ، ولم ير بدا من إمضاء مرسومه ، وامتثال أوامر مخدومه ، ثم تدبر فى المآل ونادته ربة الحِجَال(١) : مهلا أيها الوزير الناصح المشير ، ذو الرأى والتدبير ، هَبْنِى أنى

---

(١) الحجال : بيت يزين للعروس ، وربة الحجال صاحبته .

أخطأت وعن مرضاة الملك أبطأت ، فما ذنب الذى فى بطنى المودع من الملك ولم يجنى ، فلا بأس أنك تستشيره ، فإنك ناصحه ومشيره ، وإن كان لابد من قتلى ، واستقر الرأى على نبلى وبتلى[1] ، فاستمهله إلى أن أضع ، ثم تهلك الأم وتبقى التبع ، فإنه كان يعطى النذور والأموال ويطلب الولد فى ظلمات الليال ، ويدعو بذلك ربه ذا الجلال ، فعرض الوزير على الملك ذلك فأبى، واستعمل فى ضروب ضربه أَحَدَّ عبارة وترفَّق قَنَبَا[2] ، فعرف أن أخلاقه ثائرة وأنه لابد أن تطفأ تلك النائرة ، فإذا برد قلبه وهمد كربه ، يطالبه بالفرع إن لم يطلب الأصل ، وبعد القطع لا يمكن الوصل كما قيل :

طَوَى الموتُ ما بينِي وبينَ أحِبَّتِي ... وليسَ لما تَطْوى المنية ناشـرُ

فرأى الوزير الرأى فى التأخير ، فأودعها عند الحريم وسلك فى الحزم الرأى القويم ، وجعل نفسه لها وقاية إلى أن أخذت مدتها النهاية ، فوضعت ولدا ذكراً أغصن بانٍ مثمرا قمرا ، فقام الوزير بتربيته وإصلاح رضاعه وأغذيته ، إلى أن بلغ سبع سنين ، وهو كَبَدْرِ الأفق المبين مربى بالدلال ، مغذى بالكمال فكأنه فيه قيل :

جَبِينٌ تَحارُ الشمس من لَمَعَــانه ... وقَد يَغَارُ الغصنُ من حَرَكاتـهِ
وَحَتْ تعالى الله لستُ مُشَبِّهاً ... ولا مُشْرِكاً أضْداده فى صفاتهِ
رَمَى مُهْجَةَ المُضنَى بأسْهُم لَحظِهِ ... فَنَام عَليلاً وهو فى سكَرَاته

فركب كسرى فى بعض الأوقات ، وخرج يصطاد فى بعض الجهات ، فتبدد العسكر وصار كالحجيج إذا نفر ، ووقع كسرى فى ناحية عن العسكر منفردا ، فصادف غزالين يسوقان ولدا ، ويذكر أن فى ذلك القاع ما قاله عدى ابن الرقاع[3] :

---

(١) ضربنى بالنبال ، وقطع رقبتى ، أى هلاكى .
(٢) أى سبه بأقذع الشتائم .
(٣) عدى بن الرقاع ، العاملى الشاعر ، مدح الوليد بن عبد الملك ، وهاجى جرير وكان آية فى الشعر . سير أعلام النبلاء (٦٧١) .

تُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فهجم عليهما ودنا إليهما ، فلما قصدهما تركا ولدهما ، ففوّق السهم الخفيف ، نحو الحَشَف الضعيف[1] ، فلما رأت أمه السهم ، داخلها الوله والوهم ، فقصدت للسهم دون ولدها واستقبلت نصل كبد القوس بكبدها فأراد إطلاق السهم من الكبد ، ليصيب به نحر أم الولد ، فاعترضه الفحل بصدره ، وتلقاه دون نحرها بنحره ، وجعل نفسه وقاية لأم ولده ، وفداهما بروحه وجسده ، فتذكر كسرى ولده وأمه وضاعف حزنه عليهما همه وغمه ، وتذكر ما سلف منه فى حق زوجته ، وما عاملها به حين وقع به من الغضب فى سورته ، وتأمل ما قالته فى حق قرة مهجته ، وما أجاب فى ذلك ، إلى أن وردت إلى المهالك .

وقال : إذا كان هذا الحيوان ، الباغم المائق حمى حقيقته[2] برمحه كحماة الحقائق ، فلم لم يفعل ذلك الحيوان الناطق ، ثم فاضت دموع عينيه ، فرمى القوس والسهم من يديه ، ورجع متفكرا وعلى ما فرط منه متحسرا ، ودعا الوزير الناصح المجير والمستجير ، وذكر له ذلك النكد وما رآه من الغزالين والولد ، وتحرق على فقد حظيته وتألم لمصاب فلذة كبدته ، فدعا له الوزير ، وقال : الصبر نعم النصير كان قد سبق منى إشارة ، ولكن المفرط أولى بالخسارة ، الصديق الصادق ، والرفيق الموافق ، يقول : ما أصنع نصحت فلم يسمع ، والخبيث المنافق والحسود المماذق[3] ، يقول : أردت أن أقول ولكن تركت الفضول ، ولا حيلة للملك والوزير ، فيما جرى به قلم التقدير ، ثم دعا له وانصرف : وعَبَّى حِمْلا من الهدايا والتحف ، وألبس ابن الملك أفخر ملبوس ، وجهز أمه كما تجهز العروس ، وأضاف إلى ذلك من المراكب الملوكية والخدمات السلطانية ، وأقبل بهما إليه وعرض كل ذلك عليه .

---

(١) الضرع الضعيف اللبن .

(٢) زوجته .

(٣) الخائن .

وقال : يا ملك الزمان أنا رأيت هذا اليوم فى ذلك الأوان ، وعلمت أن الندم سيعم من الرأس إلى القدم ، وها قد قدمت إليك من التحف الدُّرَّ مع الصدف ، والورد والزهر ، والغصن والتمر ، والفرع والشجر والشمس والقمر ، مَتَّعَكَ الله بهما ومتَّعَهُما بك ، وحرس من الأسواء منيع حرمك وجنابك ، فانجبر بذلك كسرى ، ونال بشرى ويسرى وطاب سيرا ومسرى ، وسر صدره وانشرح ، وأغمى عليه من شدة الفرح وأنشد :

طَفَحَ السرورُ علىَّ حتى أنه ... من عِظَمِ ما قد سَرَّنى أبكانى
يا عَيْنُ قد صار البُكَا لك عادة ... تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ ومِنْ أَحْزَانِ

ثم أمر ببساط السرور ، وجلس فى النشاط والحبور ، وأنشد :

أهلا وسهلا بالتى ... جادت علىَّ بمُهجتى
أهلا بها وبوصلها ... من بعد طول الهجرَةِ
أدر المدام وغننى ... أهْلاً وسَهْلاً بِالَّتِى

ثم أفاض خلع الإنعام والرضا والإكرام على الوزير ، وشكر له حسن التدبير ، وارتفعت عنده منزلته وتضاعفت فى الارتقاء مرتبته .

وإنما أوردت هذه الأمثال ؛ لتحذى على هذا المثال ، فإن كان عندك ما يزيل الشك والأغاليط ، ويحق الحق ويميز الأخاليط ، فإن فى إبدائها منة عظيمة ، ونعمة على الملك جسيمة ستبلغنى بذلك العيش الهنى ، وترقينى به إلى المقام السمى السنى ، وإن أخرت النصيحة ، فقد شاركت الخائن فى الأفعال القبيحة .

قالت الفارة : ما أدق ما نظرت وأحق ما أشرت ، لا تردد للعقل فى صحة هذا النقل، ولكن من أنا فى الرُّقْعَة ، ومن يقبل للفارة حتى تطلب الرفعة، فلا أنا فى العير ، ولا فى النفير ، وإنى من مبدأ أمرى وطول عمرى

فى زوايـا الخمـول ، أتحـرز مـن فضـلات الفضـول ، لا لصحبـة الملـوك لـى صـورة جميلـة ، ولا فـى طريقـة السلوك سيرة نبيلــة ، لا أمينــة ولا ثقــة ، وأصـدق أسمائى الفويسقة ، فكيـف أصـير مصدقـة ، وقد أبـاح سيد العـرب والعجـم ، معدن اللطـف والكـــرم ، والمبعـــوث بمكـارم الأخـلاق والشـيم ؛ صلى الله عليه وسلم قتلى فى الحِلّ والحرم ، فلو طلبـت مصاحبـة مـن فوقـى لخرجـت عـن دائـرة طوقـى ، وصيرت نفسـى ضحكـة للنـاظرين ، وهـزأة للساخرين ، خصوصا ملك الأسود ، وسلطان الوحوش من النمـور والفهـود ، ورحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، ومن أعجب العجب أن يجنـى من الشوك العنب ، ولو فعلت ذلـك لكنـت كقرد حـالك ، ذميم هـالك ، ادعـى رياسـة الممـاليك ، ومـن أحسـن الأمثـال مـا يقـال إن السلطان للأنام بمنزلــة الحِمَام، البعيد عنه يطلب قربه والداخل فيه يشكو كربه ، فالأليق بحـالى أن لا أشغل بالى الخـالى ، بمـا لا يليـق بـى ولا بأمثـالى وحيـث أشـرت علـى بـأداء النصيحة ، وبيان الحالة الفاسدة من الصحيحة ، طلبا لمرضـاة الملـك وصونـا لخاطره عن الأمر المشـتبه المشـتبك ، والفكـر المريـب المرتبـك ، فأنـا أمتثل مرسـومك وأودع ذلـك معلومـك بشـرط أن لا تذكرنـى بشـفة ، ولا تشـير إلـى اسمى بنكـرة ولا معرفـة ، فعاهدهـا علـى مـا اشـترطت فمدت لسـان القـول وبسطت .

ثم ذكرت ما جرى بين الدب والجمل من فصول ، وقررت براءة ساحة الجمل بالمعقول والمنقول .

فلما اتضح لأبى الحصين السجان نزاهة عِرض الجمل ، وأن الدب هـو الذى أغراه على قصد الأسد وحمـل ، وتحقق ذلـك بالبرهـان القـاطع والدليل الساطع ؛ توجه إلى حضرة الأسد ، وأخبره بما صلــح من الأمـر ومـا فسـد ، وأنـه إنمـا تـأخر عـن خدمـة مخدومـه ، ليصـل إلـى مـا فـى جيـب الغيـب مـن

مكتومه، فلما تحقق الليث ما فى هذا الأمر من صلاح وعيث ومن هو الصالح، من الدب والجمل والطالح ، أرسل إلى الغراب ، وعرض عليه هذا الأمر العجاب، وطلب منه الإرشاد ، إلى هدم ما بناه الدب من الإيقاع وشاد .

فقال : الرأى عندى أن تجمع العساكر ، وتنادى للبادى والحاضر ، ويحضر الدب والجمل ، ويعرض على الجميع هذا العمل ، فإذا ظهر الحق وانكشف سجاف الباطل[1] عن جبين الصدق ، وتبين الظالم من المظلوم وتعين الصحيح من المثلوم[2] ، يرى رأيك السعيد ما يقتضيه ويسلك ما يأمر به ويرتضيه ، ويجرى على كل منهما ما يحكم بتنفيذه ويمضيه، بحيث لا ينتطح فى ذلك عنزان ، ولا يختلف عليك فيه اثنان .

فلما كان ثانى يوم أمر الأسد بجمع القوم ، وإحضار الجمل البرى والدب المفترى ، فحضر الكبير والصغير واجتمع الأمير والوزير ، ثم علا الملك على السرير ، وأثنى على الله العلى الكبير ، وصلى على البشير النذير الشاهد السراج المنير ، ثم ذكر ما أهمه من هذه القضية المغمة وذكر فضل هذه وما لها من رقة وجلالة ، وأنها لا تجتمع على ضلالة، ثم قال : ما تقولون فى رفيقين شقيقين صديقين لم يكن بينهما سبب مكالحة ، ولا موجب منازعة ولا مجاملة ، سوى المحبة المليحة والممالحة والمودة الصافية الصالحة ، يبيتان فى فراش ويستعينان على حسن المعاش ، حسد أحدهما رفيقه وخان من غير سبب صديقه، وسعى فى إراقة دمه وعدم وجوده بوجود عدمه ، فماذا يجب على هذا الحاسد المنافق فى عمله الفاسد ، الطالب ترويج باطله الكاسد ، وقصده ذلك البرى الصالح الغافل السرى ، والسعى به إلى الحكام وإلقائهم بسببه فى الآثام ، وارتكاب هذه الجرائم وتحمل مثل هذه

(١) سجاف : ستر .
(٢) الفاسد .

العظائم ، فأجاب الجمهور إن من أكبر الكبائر قول الزور ، وقد قال رب الكائنات ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور:٢٣] .

وإن مرتكبه الأثيم استوجب العذاب الأليم ، ومن هو هذا الجرى الكذاب المفترى ، الذى يرتكب مثل هذه الأمور الهائلة ، والكبائر الوخيمة القاتلة ، والعظائم المؤذية الغائلة ؛ خصوصا فى مثل هذه الدولة العادلة ، ولأى شىء يؤخر جزاؤه ولا يحسم داؤه ، ولا يضرب ولا يشهر ولا يؤمر بالمعروف فى هذا المنكر .

قال الأسد : فاكتبوا بما قلتم محاضر وليعلم الغائب الحاضر ، حتى إذا وقع الاتفاق بين الأصحاب والرفاق ، وارتفع فى ذلك النزاع والشقاق ، وأجمع على ذلك العقل والسمع ، فعلنا فيه ما يقتضى السياسة والشرع . فاتبعوا شروطهم ؛ وكتبوا بذلك خطوطهم ، فعند ذلك طلب الأسد أم راشد وأقامها فى ذلك المحفل الحاشد ، واستنطقها بما تعلم واستشهدها على الدب بما أجرم ، فشهدت فى وجهه بما سمعت ، ورقمت بذلك خطها ووضعت ، وزكاها الحاضرون ، وشهد بعفتها وزهدها الناظرون واتفقت الكلمة ، من الكملة على صدقها وحقيقة نطقها ، فتهلل وجه الجمل بهذا القول والعمل، وظهرت على صفحات وجه الدب ، العديم الدين واللب ، علامة الانكسار والفضيحة والخسار ، ولم يسعه إلا أنه أذعن واعترف أن لا دافع له فى الشاهد ولا مطعن ، وأنه قد اجترم ، وطلب العفو والكرم .

فعند ذلك غضب الريبال ولم يبق للعفو مجال ، فزأر وزفر وغضب الغضنفر وهمر وزمجر ، وتطاير من أشداقه الزبد ومن عينيه الشرر ، ومن شمائل حركاته ممضيات القضاء والقدر ، ونعوذ بالله من غضب الملوك خصوصا على الفقير الصعلوك ، ومن أحاطت به أوزاره ، وقلت أعوانه

وفنيت أنصاره ، ثم أمر الأسد بالدب أن يلقى من البلاء فى جب ، وأن السباع تحتوشه والضباع تنوشه ، ففى الحال من غير إهمال ولا توان ولا إمهال ، نهشته الذئاب ، وافترسته الكلاب ، وتخاطفته النمور ، وتناتفته البيور ، والتقمته السباع ، والتهمته الضباع ، فقطعوه وبضعوه ، ووزعوه ومزعوه ، وخزقوه وحزقوه ، وخرقوه ومزقوه ، ولم يكتفوا بعظمه وإهابه ، حتى لحسوا من دمه يابس ترابه ، وكان قد اشتد بهم القرم ، فاطفؤا بلحمه ودمه بعض الضرم ، وزال عن أبى أيوب الضر ، وارتفعت منزلة ذلك الحر ، وضاعف الله تعالى عن براءة ساحته أنواع الحمد والشكر .

وفائدة هذا المثل الجارى بين الدب والجمل معرفة فضيلة الأمانة ، ووخامة المكر والخيانة ، فإن الله تعالى غير مضيع أهله ، ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣] كما قيل :

لأبناء هذا الدَّهْرِ فى الغدرِ أسْهُم ... وضَرْبِ خياناتٍ وطَعْن مكيدةٍ
وما لِلْفتى منها طريقُ سلامَةٍ ... سوى تِرْسُ تفويضِ لربِ البريةِ
وكلُّ امرِئٍ رهنٌ بنيته وفى ... كَفَالَةِ ما يُنْوَى وما فى العقيدةِ

وليكن هذا آخر باب الأسد الصالح والجمل الأمين الناصح ، والعاقبة للمتقين والله الموفق والمعين .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خير الخلائق أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب التاسع

فى ذكر ملك الطير العقاب

والحجلتين الناجيتين من العقاب

قال الشيخ أبو المحاسن : من هو لثوب الفضل كاس ، ولكاس الظرف حاس ، وفى حدائق الأدب آس[١] ، ولأحداق الأدباء أذكى آس[٢] وفى عيون الأعداء أنكى آس[٣] : فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه الذى استعبد در النسيب، وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ، ومن مباحث الجن والإنس ما حصل للسامعين به النشاط والأنس، ثم استطرد إلى فوائد البهائم والوحوش ، ورقّم فى دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ، ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النفوش ، وعقد بجواهر نظامه لِمَفْرَق العدل فى دار الملك إكليل العروش ، افتخر أخوه القيل بوجوده وقدَّمه على جميع خواصه وجنوده ، وأفاض على حدائق آماله زلال إحسانه وجوده .

وقال له : يا نديم الدير ، وعديم الضير ، وقديم المير ، ومديم الخير ، قد أفدت حكم سائر الحيوان فكرر علينا من حكم منطق الطير ، فابتهج الحكيم فى الساعة ، وانتهض ملبيا بالسمع والطاعة .

[٧٥] **ثم أنه قال :** أدام الله ذو الجلال أيام مولانا الإمام وشمل بذيل رأفته الخاص والعام ، بلغنى أنه كان فى ممالك أذربيجان[٤] جبل يسامى السِّماك فى السمو ، ويعانى الأفلاك فى العلو غزير المياه والأشجار ، كثير النبات والثمار ، وفى ذيله شجرة قديمة ، منابتها كريمة ، أغصانها مهدلة ، وثمارها مسبلة ، كما قيل :

وفى أصلِها وكرٌ لزوج من الحَجَل ... كأنّ رُبا رضوان أَلْبَسَهَا الحُلَلْ

---

(١) أحد الزهور البيضاء الجميلة .
(٢) أسوة وقدوة .
(٣) الشديد .
(٤) أذربيجان : هو أقليم واسع مشتمل على مدن وقلاع وخيرات بنواحى جبال العراق غربى أرمينية . معجم البلدان (٣٧٠) .

هو وطنهما المألوف ومقرهما المعروف ، ورثـاه من أسلافهما ، وهو فى الشتاء والصيف مرجع إيلافهما ، يدعى الذكر منها النجدى ، والأنثى غرغرة بنت السعدى ، ولذلك الجبل جبل مقارن من جهة الشرق يسمى القارِن ، لو قصد البدر دوره أو رفع رأسه لينظر سوره ، أو يحل فيه شعاعه ونوره ، لوقع عن قمة رأسه طرطوره ، فى قُلَّتِهِ[1] سرير عقاب منيع الجناب، هو ملك الطيور والجوارح ، وسلطان السوانح والبوارح ، وصافات تلك القِلال وكواسر هاتيك الجبس ، كلها تحت أمره العادل العال ، متوج فوق رأسه بإكليل ، ما يبرزه من مثال .

فكانت الحجلتان كلما فرختا وقاربت أفراخها الطيران ، عزم أبو الهيثم الكاسر ، بما معه من عقابين كواسر ، وجوارح الطيور ومن تحت أمره من الجمهور ، على التنزه والاصطياد ، فتحيط عساكره بتلك النواحى والبلاد ، فكانوا كلما وطئوا ربوة مهودها وسلكوا ما بين أكنافها وبطونها ونهودها ، تصل طراشة العساكر إلى الجبل الذى فيه وكر الحجل ، فتذهب أفراخها تحت السنابك ، وتضمحل تحت أقدام أولئك ، فتقع الحجلتان فى النكد والأحزان وبالجهد والمشقة البالغة ، يخلصان هما من تلك الداهية الثالغة[2] ، والنائبة الدامغة ، فلم يزالا فى نكد على فقد الولد .

فافتكرتا فى بعض الأيام ، وقد أثر فيهما هذا الإيلام فيما هم فيه من النكد لفقد الولد المتجدد على طول الأمد ، فقال النجدى لبنت السعدى : قد كبرنا وضاع العمر وحرنا ، وقاربت شمس عمرنا للأفول ، وأقدام بقائنا أن تزل وتزول :

وليس لنا مَنْ يَذْكُرُ اللَّه بَعْدَنَا   إِذَا ما انْتُشِينَا فى مخاليب فَقْدِنا

---

(١) قلته : الخشب المنصوبة للتعريش .

(٢) الثالغة : المهلكة .

ولا من يُحيِ نشر آثارنا إذا طوى الموت بساط أعمارنا ، وقد قضينا العمر فى الإنكاد بفراق الأولاد ، ثم بعد الحياة ينمحى اسمنا ، ويندرس بالكلية رسمنا ، فلا حياة هنية ولا أخرى رضية ، وأى هناء مع فراق قرة العين ، خصوصا على وجه المذلة والشين ، وما لنا نظير فى هذا الدهر المبير ، إلا من جمع المال من حِلّه وغير حِلّه وتركه بعد الكد البليغ ، والحرص إلى غير أهله فيصير كما قيل :

تؤدّيه مذموما إلى غير حامدٍ   فيأكُلُه عفْوا وأنت دَفينُ

ولا طاقةَ لنا فى دفع جيش العَقاب ، ولا حيلةَ إلى الخلاص من عقاب هذا العَقاب ، فذهب أكثر العمر فى هذا الويل ، وأشبهنا النائم على طريق السيل ، وإن غفلنا عن أنفسنا ربما اجتاحونا ، وطرحونا إلى مهلكةَ تدير علينا من العدم طاحونا ، فالرأى عندى أن نترك هذا الوطن ونرحل إلى مكان لا نرى فيه هذه المحن فإنه لم يبقَ لنا طاقةَ على فراق الولد ، ولا قلب يحتمل هذا الحزن والنكد :

ذابَ قلبى بين دمع وضرم   فارحمونى أنا مِنْ لَحْم ودَم

وذاك لأن المرء يحيا بلا رجل ويد ، ولا تلقاه يحيا بلا كبد . قالت : لقد أعربت عما فى فكرى ، وشرحت ما كان يجول فى صدرى ، وهذه محنةَ قد أعيانى فى دائها الدواء ، وبلاء عمنا ، فكلنا فيه سواء :

المرءُ يحيا بلا ساقٍ ولا عَضُدٍ   ولا يعيشُ بلا قلبٍ ولا كَبِدِ
بى مثل ما بك يا حَمَامةُ فاندبى   ولم يَعْرِفْ حرارة ما أعانى
سوى قلبٌ كَوَاه ما كَوَانى

وأنا لم أخل قط فى وقت ، من هذا الفكر الذى أوجبه الهم والمقت ، واعلم أن سهام آراء العقلاء ونبال أفكار ذوى النظر من الحكماء ، إنما تصدر من قوس واحدة ، وتتوجه إلى غرض طريقته غير متعددة ، وقال العقلاء ،

وأولو التجارب من الحكماء ، بل أطبق أرباب العقول ، وأئمة الدين وأصحاب الأصول : أن قضايا العقل كلها صادقة ، وألسنتها فيما تحكمه بالصواب والأصالة ناطقة ، غير أن كثيرا ما تشتبه القضايا العقلية لسوء التصور بالقضايا الوهمية ، فيقع الخطأ بواسطة الوهم في الفهم ، وينسب إلى العقل ذلك السهم ، وإلا فاتفق العقلاء جمعا أن القضايا العقلية لا يقع فيها الخطأ قطعا ، وأن قضايا الحس لوقوع الاشتباه واللبس يتصور أنها حق ، ويقضى لها وعليها بالصدق ، وإذا وقع الخطأ لحصول الاشتباه وعدم التأمل والانتباه في القضايا الحسية ، والقضايا التي هي بحاسة البصر مرئية ، كما وقع ذلك في حادثة الطريقة البغدادية ، فوقوع الخطأ بالوهم أولى في القضايا العقلية ؛ لأن طرقها أخفى وأحكامها معنوية ، فسأل الذكر عن تلك البغدادية ، وما هذا الخبر .

[٧٦] **قالت** : كان في مدينة السلام بغدان(١) امرأة من المتخذات أخدان(٢) ، اسم زوجها زيد وهي أم عمرو وذات كيد ، لها عدة أخدان تدعو لكل بالإخوان ، وكل ينشد في السر والإعلان قوله:

دعتني أَخَاهَا أمُّ عمرو ولم أكن أخَاهَا ولم أَرْضَعْ لها بِلِبَان

فاتفق أن زوجها زيد دعاه أمير البلد إلى الصيد ، فركب معه وسار وخلت منه الديار ، فتسامع بذلك بعض أخدانها ، فتوجه منهم طائفة إلى مكانها ، فأول من سبق تاجر ذو شبق(٣) ، فدخل بثياب بيض وشاش رحيض(٤) ، وهيئة نظيفة وصورة ظريفة ، فأسرع في الدخول ومعه ما يليق

---

(١) بغدان : أحد اللغات في اسم المدينة بغداد . معجم البلدان (٢٠٢٠) .

(٢) أخدان : عشاق وأخلاء .

(٣) صاحب الشهوة .

(٤) مغسول نظيف .

من المأكول ، فتلقته بالترحاب ، وأخذا فى لذيذ الخطاب ، فما استقر به القرار حتى قرع قارع باب الدار ، فظننته زوجها وحققته بوجهها ، فنهض خائفا وتحير راجفا ، وطلب مكانا يخفيه وكِنًا يأويه ، فلم يكن فى دارها مخباة زوارها سوى طقيسى لطيفة يصعد إليها من سقيفة ، فأرشدته إليها فرقى عليها ، وبادرت إلى الإتحاف ، فإذا هو حريف صراف ، ففتحت الأغلاق وتعانقا تعانق المشتاق ، فدخل بهيئة زهراء بلباس أخضر وعمامة خضراء ، ومعه من الحلوى مجمع ومن الزجاج[1] أربع ، فجلسا يتذاكران الحوادث ، إذ طرق الباب ثالث .

فقالت : هبط أوجى[2] وجاء زوجى ، فوثب فى رجفة كأنه ورقة سعفة، فسأل عن مخباه وستر يغشاه ، فأرشدته ربة الكريسى[3] إلى طريق الطقيسى، فصعد اللاحق ولحق السابق ، وبادرت الرتاج ربة التاج ، وأم الأزواج ، فإذا هو أحد الظرفاء وثالث الحرفاء ، رجل زيات ، ومعه مجمع سكر نبات ، فتلقته بالتكريم وأجابته بالتسليم ، فدخل بثوب أصفر وشاش معصفر ، فشرعا فى الملاعبة والملاطفة والمداعبة ، فدق الباب رابع الأصحاب ، فبادر الزيات الفرار وطلب مختفى للقرار ، فدلته فى المفر إلى المعهود المقر ، فصعد إليه ولحق بصاحبيه .

وتوجهت إلى الباب فإذا هو أحد الأحباب وهو رجل قصّاب[4] ، وعليه ثياب سود وخفه المعهود ، وعلى رأسه مئزر ثمين[5] وبيده خروف سمين ، فقالت : أهلا وسهلا ، وأرفع محلا بالحبيب النجيب ، والبعيد القريب ، فدخلا واشتغلا بالخطاب والتهيا عن رتاج الباب .

---

(١) الزجاج : أى زجاجات الخمر .
(٢) أوجى : شرفى ، والمعنى : أننى سوف أفضح .
(٣) صاحبة البيت .
(٤) القصاب : الجزار .
(٥) عمامة قيمة .

وكان فى تلك المَحِلَّة شخص أحدب أبله ، يدخل البيوت ويتمسخر فلا يمنع من ذلك ولا يزجر ، ويلاطفه الأكابر والأعيان ولا يحتجب منه النسوان، فمر على باب زيد فرآه لا إغلاق ولا قيد ، فدخل على غفلة ، ولم يستأذن أهله فلم يشعرا به ، إلا بعد حلول ركابه فوجم لرؤيته القصاب ، وخاف من حلول مصاب ، وتشور[1] وانحرف ، فقالت له المرأة : لا تخف إنما هو أبله مسخرة فى المحلة .

فأخذوا يتلاطفون ويتمازحون ويتظارفون ، إلى أن قرب الليل وفات النيل[2] ، فطرق الباب ووصل الزوج بلا ارتياب ، فلم يشعروا إلا والبلاء قد أقبل ، ومصابهم الأعظم فى أكنافهم قد نزل ، فاختبطوا والتبطوا[3] وانحلت قواهم وارتبطوا ، وطلب القصاب مخباه فأرته للطقيسى دربا ، وطلب الأحدب من شر زيد المهرب ، فكان فى أرض البيت تنور[4] فنزل فيه وهو مضرور، وغطته بغطائه وسترته ببعض وطائه[5] ، وأرابَ زيدَ الفتحُ فى إبطائه ، ثم توجهت إلى الباب ، وهى فى اضطراب فدخل زيد وهو سكران ، ومن تأخير فتح الباب غضبان ، وكان قد تناول مع مخدومه ولعبت بشيخ عقله بنت كُرومِه[6] ، فلما نزل عن السرح رأى الزوجة فى هرج ومرج ، فأنكر حالها وسألها ما لها .

فقالت : كرهت فقدك وخاطرى عندك فلا ذقت بعدك ، ولا عشت بعدك.

---

(١) خجل واستحى .

(٢) تم مراده .

(٣) تحيروا واضطربوا .

(٤) فرن .

(٥) الفرش .

(٦) الخمر .

فقال : تكذبين أى دفار[1] بل تسخرين بى أى فجار ، إنما أنت فى حركة[2] فلا طرح الله فيك بركة .

فقالت : أنت مجنون وأى حركة عندى تكون ، فشرع فى حربها ، واستطرد من سبها إلى ضربها ، وعزم على تفتيش البيت والاطلاع على ما فيه من كيت وكيت ، فخشيت أن يخرج أمرها عن دائرة الستر إلى لَوْ كَانَ ولَيْت ، فتداركت التفريط قبل وقوعه ، وبادرت إلى تلافى التّلاف بالهيت[3] ، فتشكت من الأذى وقد تناولها بالضرب والبذا ، ورفعت يدها إلى الدعاء بالندا.

وقالت : إلهى وسيدى وسندى ومعتمدى ، إن كنت تعلم أنى مظلومة وبراءة ساحتى عندك معلومة ، فأنزل إلى أمَتِكَ ملكا من ملائكة رحمتك ، يخلصها من هذا الظلوم ، ويكشف ستر هذا السر الموهوم .

فبادر التاجر بالانتهاض ونزل بثيابه البياض ، ودخل عليه وقبض على أذنيه ، وصفعه على خديه ، وقال : اتركها يا ظالم فإنك معتدٍ أثم ، وهى برية وشمائلها زكية ، وضربه ضربتين ولكمه لكمتين ، ثم أمَّ الباب وترك الأصحاب وشرع فى الذهاب ، فلما رأى هذا زيد ، عرف أنه خديعة وكيد .

وقال : يا أفحش الفواحش وأنهش النواهش[4] تريدين خدعى وسخرى وخذلى وخترى ، وتبغين بما تبغين ختلى ومكرى ، أولست بعريف أنه لك حريف ، ثم زاد فى سبها وماد إلى كبها وضربها .

---

(١) دَفَارِ : الأمة يقال لها إذا شتمت .

(٢) أى إنما أنت لست وحدك فى البيت .

(٣) أى بالصياح .

(٤) الحيات .

فقالت : يا إلهى ، وسيدى وجاهى ، إن كنت تعلم أن هذا إلا ظلم ، أنكر الحق ورآه وما صدق ، فأنزل عليه ملكا آخر ذا جناح أخضر يأخذ بحقى منه ويكشف سترك عنه .

فقال الحرفاء وكانوا ظرفاء للصيرفى : قم غير مختفى وشدد عليه وأوصل الألم إليه ، فنهض فى ذلك المعلم وبادر إلى السلم ، ونزل إليه ودخل عليه ، وقال : اكفف يا ذا العار عن عفيفة الأستار ؛ فإنها بريئة وعما تظنه عرية ، ومد يده بلكمة وبالغ فى سبه وشتمه ، ثم خرج من الدار وبالغ فى الفرار .

فقال : ياللدُّرْبَة[1] من ذى القَحْبَة[2] ، الناس بواحد وأنت باثنين، وقد جعلت زوجك ذا القرنين ، ثم أخذ العصا ، وضربها ضرب من عصى .

فقالت : يا إله العالمين ، تعلم أن هذا من الظالمين ، أمدنى بالملك الأصفر صاحب الدرع والمَغْفَر ، والثوب المعصفر ، يبرىء ساحتى ويهدىء راحتى ، فإنى مظلومة وقصتى معلومة .

فقال الجزار للزيات : قم أرنا الكرامات ، وقدم صنعتك وهات ، فنهض الزيات ونزل إلى ذلك المفتات[3] .

وقال : أيها اللئيم ، كف عن الحريم ، وارجع عن لوم البرى وأقصر أيها المجترى المفترى ، ثم تناوله بعصاه إلى أن آلم قفاه ، ثم تركه فى الحركة ، وخرج هاربا وقصد جانبا .

فقال زيد : يا أوسخ القحاب ، وأوسخ ذوات السباب ، تعدين حرفاءك واحدا واحدا ، وتعرضينهم علىّ صادرا ووارداً ، ثم نهض بالعصا وتناولها مغليا ومرخصا .

---

(١) الجرأة فى الأمر .
(٢) الفاجرة .
(٣) المفتات : المستبد برأيه .

فمادت وآدت وبادت ونادت : إلهى هذا لم يعتبر بملائكتك الكرام ، ولم ينزجر بهذا الضرب والإيلام ؛ فامدنى بملك النيران ، الزَّبَنِىٍّ الأسود الغضبان، يخبره بصدقى ويأخذ منه حقى ، ويفعل معه ما يجب فإن راجيك لم يخب ، فما عتم القصاب[1] أن زمجر كرعد السحاب ، وأخذ فى الاضطراب والاصطخاب ، وأسرع فى السلم الانصباب ، فلما سمع زيد العياط والخياط[2]، وزماجر الهياط والمياط[3] ، بهت وأخذه الضراط ، فدخل عليه فى بغثرة وغدمرة[4] ، وتزيا بصورة بشعة منكرة ، وخطف من يده العصا وضربه بها حتى شصا[5] ،

وقال : أى أنحس ذميم وأتعس زنيم ، أما زجرك ونهاك وكفك وكفاك من تقدم من الأملاك، أيم الله لئن لم تتركها وفى مالك ومنالك تشركها ، لتدمرن ديارك ولتمحون آثارك ، ثم تركه وذهب ، وأودعه جمر اللهب .

فلما رأى الحال نسجت على هذا المنوال استكان وطلب الأمان ، ومَعَكَ[6] عينيه وضم يديه ورجليه ، وجعل يتأوه من ألم الضراب ، وقال : كان الدعاء فى هذه الساعة مستجاب .

ثم قال من شدة كربه ، وحرقة قلبه : إلهى ومولاى كما استجبت دعاءها ، استجب دعاى ، وكما أنزلت من السماء لنصرها ملوكها ، فأخرج ليا من الأرض عفريتا ينيكها ، وليكن ذلك بمرأى من عينى وأمامى حتى

---

(١) فما عتم : أى ما لبث .
(٢) الصراخ .
(٣) الاضطراب .
(٤) بغثرة وغدمرة : هياج وصخب .
(٥) أى حتى شخص بصره من شدة التعب .
(٦) أى دلك عينيه .

يسكن قلبى ويبرد أُوامى[١] ، فما صدق صاحب التنور حين سمع الدعاء المذكور ، والنداء المقبول المشكور ، حتى طفر من مجثمه كالشواظ المسجور، وأقام أمام لهوه المصاب[٢] ، واستعمل من قواعد النحو الرفع والجر والانتصاب ، ورفع العمودين وأولجه المحراب ، ولا زال ذلك الإمام يتردد فى البيت الحرام ، وقد نال فى الحرم أمنا حتى رمى الجمرات وأمنى ، ثم قبل فاها وخرج مسرعا من ذراها[٣] ، وخلى الدار تنعى من بناها ، ففتح زيد عينيه وحملق حواليه ، ثم قال : يا أقذر القحاب هكذا يكون الدعاء المستجاب .

وإنما أوردت هذا الكلام والتمثيل لك يا إمام ؛ ليتبين لكل عالم همام ، وليتبصر أولو العقل والأفهام ، الفرق ما بين قضايا الحس والعقل والأوهام ، وقد شبه العقل بجبل عال عزيز المنال ، وكل من قصد الصعود إليه والارتقاء عليه ، لا يصعده إلا من طريق واحدة منها يوصل منه إلى الفائدة ، وسلوك طريق المعاشرة مع العقلاء وذوى الآراء والأذكياء ، فى العداوة والصداقة والكدرة والرياقة واللطافة والكثافة ، والخوف والرجاء ، والابتداء والانتهاء؛ إنما هو من باب متحد لا من طريق مُتَّعِد[٤] ، ولأجل هذا يا متبصر ، سلوك مثل هذه الطريق معهم متيسر ، لا متعوج ولا متعسر ، ورأس خيط هذه السموط[٥] ، بالاستقامة والسلاح مضبوط ، بخلاف الجهال والخلعاء والحمقى والسفهاء فإن أمورهم منفرطة وأفكارهم وآراءهم غير منضبطة ، فتتكدر خوار العقلاء فى تعليمهم ، ويعيا طبيب الفكر فى تهذيب أحمقهم وتأديب سفيههم ، وقيل :

---

(١) الأوام : وجع الرأس ، والمعنى : يذهب عنى وجع رأسى واضطرابها .

(٢) أى المرأة .

(٣) أى من خدرها .

(٤) أى متعدد .

(٥) السموط : المفرد السمط : أى الخيط الذى ينتظم فيه حبات اللؤلؤ والخرز .

إنــى لآمــن مــن عــدو عـــاقل　　　وأخـــاف خِـــلاً يعتريـــهِ جُنـــــون
والعقـــلُ فَــنٌّ واحـــــدٌ وطريقُـــــه　　　أدرى وأرْصُـــدُ والجنـــونُ فُنـــــونُ

ولهذا قيل :　　معاداة العاقل خير من مصافاة الجاهل .

ثم قالت غرغرة[١] فى أثناء هذه القرقرة[٢] : وأما ما ذكرت مــن البيـان من مفارقــة الأوطـان وتـرك هـذا المكـان ، أمـا سـمعت حديـث أشـرف جنـس الإنسان : ((إن حب الوطـن مـن الإيمـان))[٣] . وقـد ألفنـا وطننـا وحبـه ، وقلـع أصول محبته من قلوبنا صعبة ، وهو فى معزل عن طرق الجوارح ، ومكمن عن السوانح والبوارح ، وإنما تعرض لأولادنا تلك الآفة ، من تراكم العسـاكر المصافة ، وما يحصل من إقدامها من كثافة ، وأنــا أخـاف إن انتقلنـا مـن هـذا الوطن ، يخرج من أيدينا هذا السكن ، ولا نحصـل علـى مـأوى يليـق ، أو لا توافقنا الغربة ، أو يمنع مانع فى الطريق ، فنقصد الربـح فيذهـب رأس المـال فنخسر ما فى أيدينا فى الحال ، ولا يحصـل المـأمول فـى الاسـتقبال ، وكيـف وهو مسقط رأسنا ومحل أنسنا وأناسنا ، فالأولى بنـا الرضـا والانقيـاد لأوامـر القضا ، وملازمة الوطن القديم والسكون تحت تقدير العزيز العليم ، وقد قيـل: إنما يشفى العليل إذا ترك مشتهيات نفسه ، وقيد متمنياته فى قيد حبسه ، ولابد لمريد من ترك المراد ، وللقانع من قطع النظر عـن الازديـاد ، والحريـة فـى رفض الشهوات ، وكل ما هو آت آت .

---

(١) غرغرة : أنثى الحجل كما سماها فى أول الباب .

(٢) القرقرة : الضحك إذا استغرب فيه .

(٣) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٣٤٥/١) وفيـه قـال الصنعانى : موضـوع ، وقال فى المقاصد : لم أقف عليه ، ومعناه صحيح ، ورد القارى قوله ومعنـاه صحيـح بأنه عجيب ، وقال : إذ لا تلازم بين حب الوطـن وبيـن الإيمـان ، قـال : ورد أيضـاً بقوله تعالى ﴿ولو أنا كتبنا عليهم ...﴾ الآية . فإنها دلت علـى حبهـم وطنهـم ، مـع عدم تلبسهم بالإيمان . وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافى الإيمان .

وأما وقائع الأولاد وحصول الأنكاد ، وما يقع منهم بسببهم فى كل أوان، فنحسبها إحدى ما يحدث لنا من نوائب الزمان ، ونحن بل كل المخلوقات عرضة للنوائب والآفات ، وطعمة لسنابك المقدور ، ونهبة لحوادث الدهور ، ولو انتقلنا عن وطننا وتحولنا عن سكننا ، وبعدنا عن هذا الجانب ونزعنا عن الأهل والأقارب ، وجاورنا الأباعد والأجانب ، لا يطيب لنا مقام وتتكدر أوقاتنا على مر الأيام ، فلا نزال بين تذكر الوطن المألوف ، وتحنن إلى الصاحب المعروف ، فيسهل عند هذه الأنكال مفارقة الأطفال .

ثم اعلم أيها الصاحب الأعظم ، أنه لو تيسر لنا مع الانتقال انتظام الأمور واستقامة الأحوال ، وحفظت الأولاد وزالت الأنكاد وصفا الوقت ، وزال المقت ، فإن الخاطر يشتغل ونار القلب بسببهم تشتعل ، فإنه من حين وجود الولد ، يتقيد بتعهده القلب والجسد ، وتصرف الهمة إلى القيام بمصالح معاشه ، إلى حين ترعرعه وارتياشه ، ويزداد القلب تعلقا بمحبته ، ويتقيد الخاطر بالالتفات إلى عمل مصلحته ، ويتضاعف ذلك يوما فيوما وشهرا فشهرا وعاما فعاما ، فإن نابه والعياذ بالله نحو ألم ، أو أصابه ضر أو سقم ، التهبت عليه الجوارح وانقلبت الهموم على القلب والجوانح ، فإن آل ذلك إلى موت واستحال وجوده إلى عدم وفوت ، فهو المصيبة العظمى والطامة الكبرى ، وإن سلم من هذه العاهات وبلغ سن الإدراك سالما من الآفات ، ونجا إلى بر الشباب من بحر المخافات، ازدادت كلفته وتضاعفت مؤنته ، وركب والداه فى ذلك كل صعب وذلول ، وذهبا من مسالك الكد والكدح فى كل عرض وطول ، وتحملا أنواع المشاق والآثام ، وارتكبا فيما اكتسبا أصنافا من الحلال والحرام ، وهذا إذا كان مطيعا ولأوامرهما منقادا سميعا ، وأما إذا ركب جموح العقوق ونسى ما لهما عليه من حقوق ، فهى مصيبة أخرى ، وداهية كبرى، ويصير كما قيل :

ومِنْ نَكـدِ الدنيا على الحُـرّ أنْ يَرى عـدوًّا له مـا مِـنْ صَدَاقَتِـه بُـدٌّ

وعلى كل تقدير وأنت بهذا خبير وبدقائقه عليم ، إن الأولاد بين الأبوين وبين الآخرة سد عظيم ، ما يخلص مع الالتفات إليهم لله طاعة ، ولا على الانقطاع منهم إلى طريق الآخرة استطاعة ، وناهيك يا ذا الذكاء والفطنة إخبار من أنقذك من هذه المحنة ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] فاسمع هذا الكلام بإذن التحقيق ، واسلك في سبر معانيه أوضح طريق ، وحقق يا ذا الإرشاد أن وجود الأولاد عند ذوى البصيرة من النقاد نقد مزيف، ومتاع مزخرف ، وسم تحت حلوى وسرور فوق بلوى ، وعارية مردودة بعد أوقات معدودة ، وأيام محدودة ، بل لعبة من خشب مموهة بالذهب ، وطلاء من نضار على كوب من فخار ، وقد نبه على هذا رب العباد بقوله ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الحديد:٢٠] . وكما أن الأطفال الصغار الغافلين عن دقائق الأسرار، إذا نظروا إلى اللعبة المزينة والخشبيات المصبغة المستحسنة . التهوا بها عن اكتساب الآداب ، وملازمة العلماء والمشايخ والكتاب ، فيبلغون وهم جاهلون ، وعن طريق اكتساب الكمال ذاهلون ، ويشيبون وهم أحداث ، ويتصورون أنهم طاهرون وهم أخباث ، كذلك كل من التفت إلى غير الله خاطره ، والتهت بأمور الدنيا من المال والولد سرائره وضمائره ، وحرم من الاطلاع على دقائق الملك والملكوت ، وفاته لَذَّات الوقوف على دقائق الرغبوت والرهبوت(١) ، فهو عن الله تعالى محجوب ، وفي عساكر الأموات وإن كان حيا محسوب ، كما قيل :

وفي الجَهْلِ قبلَ الموتِ مـوتٌ لأهْلِهِ وأجْسادُهـم دون القبـور قبـورُ
وإن امـرأً يُحْيِ بالعـلمِ قَلْبَـه فليـس لـه حتَّـى النُّشـورِ نشـورُ

---

(١) الترغيب ، والترهيب .

قال الله تعالى وكلمته العليا ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] وهذا صريح بالشهادة على ما نقلته وجلوت صدأ قلبك بتقريره وصقلته ، فلا تكونن لاه ولا تعلقن قلبك بغير الله ، قولا واعتقادا وعملا ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦].

واجهد يا حبيب فى إصلاح قلبك الكليم ، واصغ لما قاله الحكيم الحليم متحرزا من نكاية العذاب الأليم ، عاملا بما يرضى السميع العليم ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨] . وإذا عملت هذا وحققته وحررته وصدقته ، فاعلم أن الأولى بحالنا والأحسن للنظر في مآلنا أن نعد ما نحن فيه من جملة النعم ، وأن هذا الذى قُسِمَ لنا من القِسَم فى القدم ، ولا ننقل عن دائرة الرضا والتسليم قدما عن قدم ، وننظر ما يتولد من حوادث الزمان ، ولا نرخى فى ميدان الطمع العنان ، ونعرض على جامح الخاطر ما قال الشاعر :

كَم نَارَ باديةٍ شَبَّت لغير قوىً ... على بقاع وكم نَورٍ بلا ثَمَر
هَوِّنْ عليك أموراً أنت تُنْكِرُها ... فالدَّهْرُ يَأتِى بأنْواعٍ مِنَ العِبَرِ

قال النجدى : جميع هذا المقول ، صادر من موارد العقول ، موافق لما ورد به المنقول ، لقد غصت فى بحر الفطنة على جواهر الحكمة ، فما تركت فى ميدان المسائل مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، ولكن لا ينبغى للعاقل أن يغفل عن حوادث الدهر ، ولا يسند ظهره لكواذب العصر ، فإن طوارق الآفات وخوارق العادات ، ومِحَن الزمان ، وفِتَن الدوران ، محتجبة وراء ستار ومستورة فى أنواع أطوار ، والفلك الدوار له فى علم الأدوار ، لعيبات أبكار يبرزها للنظار ، فتلعب بالأفكار ، ويذهب فى سنا برق مخارقها(١) أبصار الأبصار ، ويخطىء فى حركاتها الرأى المصيب ، ويدهش فى دجى

(١) الريح إذا اشتدت ومعها برق ورعد .

حندسها[1] الفطن الأريب ، وقد بادت الفكر وعجزت القوى والقُدر ، وحارت عقول البشر ، دون إدراك ما يبرزه كل وقت من الصور ، من وراء ستر الغيب مستعدا للقضاء والقدر ، ولم يعهد من الدهر الخؤن والزمان المجون ، إذا استقام أو قزل[2] ، أو جد أو هزل ، أو أمر بنازل فنزل ، أو ولى أو عزل، أو أقبل أو اعتزل ، أو نقض أو غزل ، أن يرسل قبل ذلك منذرا أو مبصرا أو محذرا ، ليستيقظ النائم أو ينهض الجاثم ، أو يتحرك القائم ؛ وإنما يحطم بغتة ويهجم فى سكتة ، ويأخذ على بهتة فلا يفلت منه فلتة ، ولا يمهل إلى لحظة ولا لفتة وقد قيل :

يا رَاقِدَ اللَّيْل مسروراً بأوَّلِهِ ... إنَّ الحوادِثَ قد يَطْرُقْنَ أسْحَارَا
لا تَرْكَنَنَّ لليل طَابَ أوَّلُه ... فَرُبَّ آخر ليلٍ أوْقَدَ النَّارَا

وعلى هذا لو وقع منا غفلة أو ذهول ، عند قدوم هذا الجيش المهول ، فاختر والعياذ بالله واحد منا ، ونحن أحسن ما نكون سكونا وأمنا ، فكيف ترين يبقى حال الآخر وهل يصير إلا كما قال الشاعر :

ما حَالُ مَنْ كَانَ له واحِدٌ ... يُؤْخَذُ مِنْه ذَلِك الواحِدُ

وإذا بقى أحدنا منفردا وانعزل متوحدا ، ماذا يفيده الوطن والجيران والسكن ، وهل تفى لذة وصال ألفى سنة بألم فراق تلك الساعة الخشنة كما قيل :

إنْ كان فِراقُنَا على التَّحْقِيق ... فَذِى كَبِدِى أحقُّ بالتمزيق
لو دام لَنَا الوصَالُ ألفى سنةً ... ما كان يفى بساعة التفريق

وقال أيضا :

لا كان فى الدهر لا أراك به ... ولا بَدَتْ فيه شمسٌ ولا قمرٌ

---

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .
(٢) القزل : العرج .

وكل من لم يفتكر فى العواقِبْ قَبْلَ حلولِها ، ويتأمل فى تداركها بقدر الطاقة قبل نزولها ، ويطمئن إلى سكون الزمان ، ويسند ظهره إلى مسند الحدثان[1] ، ويحيل الكوائن على القضاء والقدر ، ويرفع يد التدبير عن تعاطى أسباب الحذر ، كان كمن ترك إحدى زاملتيه فارغة[2] ، وحشا الأخرى من الأحجار الثقيلة الدامغة ، فأنى يستقيم محمله أو يبلغ منزله ، فلا يزال حمله مائلا وخطبه هائلا ؛ فالعاقل يسعى فيما يظن نفعه ، ويبذل فى ذلك غاية جهده ووسعه ، ولا يترك الطلب ولا يغفل عن السبب ، ويعمل بموجب ما قيل :

فَلا وأبيكَ لا أدَعُ احتياطِى ومالِى فى قَضَاءِ اللَّهِ حِيْلَةُ

وعلى كل حال يا ربة الحَجَال ، تعاطى الأسباب لا يقدح فى الاتكال ، وناهيك يا مليحة العمل ، حكاية الحمار مع الجمل ، فسألت غرغرة أن يبين ذلك ويذكره .

[٧٧] **قال** : بلغنى أنه ترافق فى المسير عيرٌ مع بعيرِ ، فكان الحمار كثير العِثار ، مع أن عينيه تراقب مواطىء رجليه ، وكان الجمل على عظم هامته وعلو قامته ، وبعد عينيه عن مواطىء يديه ورجليه ، لا تزل له قدم ولا يصل إليه ألم ، فقال الحمار للبعير : أيها الرفيق الكبير مابالى فى المسير كثير التعثير دائم الوقوع والزلل ، والعثار والخطل[3] ، لا أخلو من حجر يدمى منى الحافر ، أو عثرة ترمينى فى حفرة حافر ، مع أن عينى تراقب يدى ولا تنظر سواهما إلى شى ، وأنت لا تنظر مواطىء أخفافك ، ولا تعرف على ماذا تقع رؤس أطرافك ، لا حجر يصيب خفك ، ولا شوكة تخرق كفك، ولا جورة[4] تقع فيها ولا تختل عن طريق تمشيها ، ولا أدرى هذا مماذا .

---

(١) الحِدثان : نوائب الدهر .

(٢) الدابة من الإبل وغيرها يحمل عليها .

(٣) أى الاضطراب والوقوع فى محذور .

(٤) الحفرة .

قال أبو صابر : يا أخى نظرك قاصر وفكرك غير باصر ، لا تراقب ما بين يديك ، ولا تنظر ما أمامك ألك أم عليك ، فإذا أدهمك ما دهاك عجز عنه نُهاك[1] ، فلا تشعر إلا وقد وقعت ، وانخرق ما رقعت ، فلا يمكنك التدارك والتَّلافِ ، إلا وأنت رهين التِّلاف .

وأما أنا فأراقب ما يصير من العواقب ، وأنظر أمامى الطريق على بعد، فأميز المسلوك من قبل ومن بعد ، فلا أصل إلى صعب إلا وقد أذللته ، ولا إلى وعر إلا وقد سهلته ، ولا إلى وَهْدَة إلا وقد عرفت طريقها ، ولا إلى عَقَبَة إلا وقد كشفت واسعها ومضيقها ، فأستعد للأمر قبل نزوله ، وأتأهب للخطب قبل حلوله ، واحتال لقطعه قبل وصوله ، وأحله قبل أن يعقد وأقيمه دون أن يقعد ، وهذه قاعدة للفقهاء ، وأصل كبير للحكماء من العلماء ، أنهم قالوا : إن الدفع أهون من الرفع ، ومن كلام الألباء ، وأصول حذاق الأطباء قوله :

الطِّبُ حفظُ صحةٍ بَرْءُ مَرَضِ مِنْ سَبَبٍ فى بَدَنٍ إذَا عَرَضَ

وإنما أوردت هذا المثل عن الحمار والجمل ؛ لتعلمى يا ست الحجل أنه لابد لنا من أخذ الأهبة قبل النكبة ، فما كل مره تسلم الجرة ، وقد قرب وقت وضع البيض ، وبعده يدهمُنا من سيل العسكر الفيض ، فلابد من إعمال الفكر المصيب ، فى وجه الخلاص من هذا الأمر العصيب ، كما قِيل : مهد لنفسك قبل النوم مضطجعا .

قالت غرغرة الحكيمة المدبرة : جميع هذه الأخبار لاتخلو عن دقيق الأنظار وتحقيق مصيب الأفكار ، وغامض معانى الأسرار ، وكل عاقل يقبله ويقبل يديه ، ويمتثله ويقبل عليه ، وكل فكر مصيب يجثو للاقتباس بين يديه ،

---

(١) عقلك .

ولكن طلاب الأغراض الدنيوية والمسارعون إلى نيل المرادات والأمنية ، على فِرَقٍ شتى ، وأنا أفصلها حتما ، منهم من يبلغ الآمال بقوة الجند وبذل الأموال ، ومنهم من يساعده الدهر ويعاضده معاون العصر ، وينهض له مسعد التقدير فيقوم معه كل كبير وصغير ، كما قيل :

وإذَا أَرَادَ اللَّـهُ نُصْرةَ عَبْدِهِ كانت له أعداؤه أنْصارا

فيقيض له المساعد ، ويعضده المقارب والمباعد ، فلا يحتاج إلى كبير سعي ، ولا في استماع النصيحة ونفعها إلى وَعْى ، بل يصل إلى قصده بدون كده وبغير جهده وجده ، فمهما فعل أنجح ومهما قصد أفلح ، وحيثما توجه أربح ، وأينما مال أرجح ، ومنهم من يحتاج إلى جهد جهيد ، وسعي مديد وكدٍّ طويل عريض ، وجِدٍّ عريض غير غريض ، مع مساعد ناصح ومعاون صالح ، وتعاطي أسباب وقرع أبواب ، وفكر دقيق ومسعد رفيق ، حتى يبلغ مراده ويصل إلى ما أراده ، ومنهم من تغلب عليه العجلة والطمع وشدة الحرص والهلع ، فيسارع إلى نيل ما يرومه ، فيلقيه في هوة الحرمان حرصه وشومه ، فيقع من التعب والنصب في هوه ، ويحرم لكونه اعتمد على ماله من حول وقوة ، فيصير كما قيل :

الحرص فوتني دهري فوائده وكلما زدت حرصا زاد تفويتا

ومنهم من يتمنى ثم يتكاسل ، ويرجو ويترقب ويتساهل ، فيحرم مقصده ويرد عجزه عن مراده يده ، وقد قيل في المثل : تزوج التواني بنت الكسل فأولد الزوجان الفقر والحرمان ، فانظر يا ذا الركون والوقار والسكون نحن من أى هذه الفرق نكون ، وأنت تعلم أنا لا نقدر على مقاومةِ العقاب ، ولا أن ندفع عن أنفسنا ما ينزل بنا من عقاب ، فإنه إذا طار العقاب يبلغ الثريا والسحاب ، ونحن إذا تحركنا في الهوا فلا نقدر أن نرتفع عن وجه الثرى ، وقد قيل في المثل كما ترى : أين الثريا من الثرى ، وقيل : من تعلق بخصم

هو أقوى منه فقد سعى فى هلاك نفسه برجله ، ووضع تراب الدمار على رأسه بيده ، وكنت يا بدرى أنشدتك من شعرى :

ومَـنْ يَتَشبَّـثُ فى العـداوةِ كَفُّـه بَأكْبَـرَ منـه فهو لا شَـكَّ هـالِـكُ

وكان مثله مثل النملة الخفيفة ، التى نبتت لها أجنحة ضعيفة ، فتحركها دواعى الطيران ، فتتصور أنها صارت كالنسور والعقبان ، فبمجرد ما ترتفع عن الثرى إلى الهواء التقمها عصفور ، أو خطفها أصغر الطيور ولهذا قيل :

إذَا مـا أرَاد اللَّـهُ إهْـلاكَ نَمْـلَةٍ أطَـال جَنَاحَيْهَـا فَسِيقَتْ إلَى العَطَبِ

ونحن وما لنا اطلاع على مكامن الغيب فنزه نفسك عن هواجس الريب، وليس لنا مساعد من الأقارب والأباعد ، ولا لنا مال ولا خيل ولا رجال ، ونحن أقل من أن يساعدنا زمان ، أو يعيننا على العُقاب أعوان ، فلم يبق إلا الركون والاتكال على حركات السكون ، فما تدرى غدا ماذا يكون .

واعلم أن حركاتنا مع العقاب والجامع لنا معه من الأسباب متحدة فى الحقيقة ، وطريقتنا معه من جنس ما له من طريقة ، وهى الطَّيْرِيَّة وكلنا فيها سوية ، وهو منها كإعجاز القرآن من الفصاحة فى الطرف الأعلى ، ونحن منها كأصوات الحيوان فى الأطرف الأدنى ، فالأولى بحالنا الاصطبار إلى أن يصل لكسرنا من عالم الغيب انجبار ، كما قيل :

مَهْـلاً أبـا الصقْـر فكـم طـائر خَـرَّ صريعًـا بعـد تَحْليـق
زَوَّجْـتَ نَعِمِـى لـم تَكُـن كفأهَا آذنهـا اللَّـهُ بتطليـقِ

وقيل :

الأمـرُ يَحْـدُثُ بعـدَه الأمْـرُ والعُسْـرُ مُقْتَـرنٌ بـهِ اليُسْـرُ
وحَـلاوَةُ الصِّبْيَـان مِـنْ عَسَـل تُلْهِـى وإنَّ حَـلاوتِـى الصَّـبْرُ
والصَّبْـرُ يعقُـبُ بَعْـدَه شكـرٌ مِـنْ نِعمـةٍ تَأْتِيـكَ أوْ أجْـرُ

فقال الذكر : هذه الفكر من الصواب قريب ، وسهمها عند أولى البصائر والتجارب مصيب ، ولكن من يتكفل بوفاء العمر الغدار ، والإيصال إلى الأوطار ، ويقوم بالأمن من حوادث الليل والنهار ، وأنسيت إنشادى فى الوادى يا زين النادى ، وجمال الحاضر والبادى :

لَئِنْ بادَرْتُ فى تَسْليم رُوحِى أَتَانِى مِنْ وَرَائى مَنْ يعوقُ
وإِنْ أَسْرَعْتُ نَحْو الوصْلِ عُذْراً فَعُمْرِى مِنْ وَرا ظَهْرِى يَسُوقُ

ثم قال النجدى : والرأى السديد عندى والذى أعيده فيه وأبدى ، أن نتوجه إلى حضرة العقاب ونكشف عن وجه مرادنا لديه النقاب ، ونطلب منه الأمان من عوادى الدهر ونكبات الزمان ، ونستظل بجناح عاطفته ، وننتظم فى سلك جماعته وخدمته ، فإنه ملك الطيور وبيده أَزِمَّة الجمهور ، وهو وإن كان سلطان الجوارح والكواسر ، وشيمته سفك الدماء والتمزيق بمخالبيه النواسر ، لكنه ملك عالى الهمة ومن شيم الملوك الشفقة والرحمة ، ولا تقتضى همته العالية إلا الشفقة الوافية ، خصوصا على من يرتمى لديه وينتمى إليه ، ولا تدعه شيمته الأبية وهمته العالية الحمية ، وشمائله الشهمة الملوكية أن يتعرض إلينا بضرر أو أن يطير إلينا منه شرر .

قالت غرغرة بعد الاستغراب فى الكركرة : العَجَب كل العجب من رأيك المنتخب، إنك تخلط منه الغث بالسمين ، وتسوق فيه الهجان مع الهجين، فتارة تصيب حدقة الغرض ، وأخرى تصرف السهم حيث عرض فتصير كما قيل :

تَلَوَّنَتْ حتى لستُ أدرى مِنَ الهَوى أَريحُ جنوب أَنْتَ أَمْ ريحُ شمال

هذه المصائب التى نشكوها ، والنوائب التى نقرأ سورها ونتلوها ، هل هى غير ما نقاسيه من العذاب ونعانيه من أليم العقاب ، فى لحظة من ملاقاة عسكر العقاب ، ثم إنك أنت تحركت فى آرائك وسكنت ، وشرقت فى أفكارك وغربت ، وتباعدت وتقربت ، وارتفعت يا سلطان وامتنعت وسقطت ، وجُلت

وحُمت ، وقعدت وقمت ، ثم أسفر رأيك السديد وفكرك الرشيد وأمرك السعيد، عن أن تجرنا بسلاسل الحديد إلى العذاب الشديد ، وتخلدنا فيه الدهر المديد ، لا والله بل تريد أن نمشى بأرجلنا إلى الشبكة ، ونلقى بأيدينا أنفسنا إلى التهلكة ، وقد أشبهت فى هذه الحركة مالكا الحزين والسمكة ، فقال النجدى لابنة السعدى : أريحى وغنى ، شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فقالت له: أزل الغصة بقص هذه القصة .

[٧٨] **فقال** : كان فى بعض المروج من قرى سروج ، نهر كثير الحيتان شديد الجريان ، وفى مكان منه مصون مأوى لمالك الحزين البَلَشُون ، فكان يتصرف فى السمك تصرف المالك فيما ملك ، قضى فى ذلك عمره ، وزجى أوقاته فى طيب عيش ومسره ، إلى أن أدركه المشيب ورحل عنه العمر القشيب(١) ، وكساه خياط الدهر دَلَقَ(٢) ﴿**وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ**﴾ [يس:٦٨] ورأى من الكبر أصناف العبر إلى أن ضعفت قوته عن الاصطياد ، وجرى عليه من الالام والأنكاد ، ومن نوائب الدهر ما الزمان به معتاد ، ، فصار يمر عليه برهة من الأوقات ، وهو عاجز عن تحصيل الأقوات .

فتوجه فى بعض الأحيان ، وقد علَتْهُ كآبة الأحزان ، ووقف على النهر متفكرا فى تصرفات الدهر ، فمرت به سمكة لطيفة الحركة ، فرأته فى ذل الانكسار ، سابحا فى بحر الافتكار ، لا قدرة له ولا حركة ، ولا نهضة لاختطاف السمكة ، فلم يلتفت إليها ولا عَوّل عليها ، وقد أوطأته الحوادث أقدام الهموم الكوارث ، وبدل ربيع شبابه بخريف الهرَم ، وحرارة حربه ببرودة السِّلْم ، فوقفت لديه وسلمت عليه وسألته عن موجب تفكره ، وسبب تحزنه وتحيره .

---

(١) السعيد الجميل .

(٢) أى مرور عمره بسرعة .

فقال : تفكرت ما مضى من الزمان الناضر ، وما تقضى فيه من طيب العيش وانشراح الخاطر ، وقد تبدل وجوده بالعدم ولم يحصل من ذلك سوى الذنوب والندم، وقد وهنت العظام واستولى على الجسد السقام ، وتزلزلت أركان الأعضاء ، وتراكمت فنون الأدواء ، واشتعل الشيب واتقد ، وحَرُّ الآلام وَقَدَ :

عَزَمْتُ على إخْلاَءِ جسمي رُوحَهُ | مِنْ خَرقٍ شَيْبٍ كَلَّ عَنْهُ الرَّاقِعُ
قلتُ اسكنِيه يا عُمَارَةَ عُمْرِهِ | قالت فكيف وبَيْتُ جِسْمِكَ وَاقِعُ

ثم قال : ولم أفق من هذه السكرة ولا وقعت فى هذه الفكرة ، إلا وسفينة العمر بالساحل قد أرست ، وأصيل شمس العيش على قُلَّة الفناء أمست، فما أمكننى إلا التلافى بالتوبة والندم ، قبل حلول نوائب الأجل وزلة القدم ، والتطهر من جنابة المظالم بمياه الاستعبار ، والالتجاء إلى جانب الحق بالإلظاظ[1] فى الاستغفار ، وغسل أوساخ الذنوب والمظالم بدموع الإنابة والاعتذار :

ومَا أقْبَحُ التَّفْرِيطَ فى زَمَنِ الصِّبَا | فكيف به والشَّيْبُ للرأس شامِلُ

فاعلمى أن جامع هواى قَلَع ضرس الآمال والطمع ، وجارح متمناى نزع خوافى الشره والهلع ، وقد قدمت إلى هذا المكان لأتحلل من الأسماك والحيتان ، فإنى طالما أغرت على عشائرهم وأولادهم ، وخضت فى دماء قلوبهم وأكبادهم ، وشتت شملهم وخوفت جنهم وقلهم ، وأرعبتهم وأرهبتهم ، وأقلقتهم وفرقتهم ، وغربتهم وبالدماء شرقتهم، فرأيتُ براءةَ الذِّمة فى الأولى أولى ، والمبادرة بالتوبة قبل المصير إلى الأخرى أحرى ، فلعل أحمال الذنوب تخف وسحائب الغفران تكف .

---

(١) الإلظاظ : جمع لظ . ويقال لظ بالشيء أى لزمه وألح عليه . والإلظاظ : أى الإلحاح والملازمة .

فلما سمعت السمكة هذه الخديعة ووعت ما فيها من حركة بديعة ، تشربتها أضلاعها ودعاها انخداعها إلى أن قالت : فما ترى أيها العبد الصالح أن أتعاطاه من المصالح ، فقال: أبلغي السمك هذا الكلام بعد إبلاغ التحية والسلام ، وأن يكون القوم من بعداليوم ، آمنين من سطواتي سالمين من حملاتي ، ساكنين إلى حركاتي بحيث تتجلى الظلماء ، ويعود بيننا الحرب سلما ، وينام السمك في الماء .

قالت : لابد من أخذ العهود على الوفاء بهذه العقود ؛ وأنذيا المصافحة على المصالحة ، ثم تأكيد الأيمان بخالق الإنس والجان ؛ ولكن كيف أصافيك وأنا طعمتك ، وأنى أتخلص من فيك إذا وضعت فيه لقمتك ؛ قال لها : أبرمي هذا العلف ، واربطي به حنكي لتأمني التلف، فأخذت قبضة من الحشيش وفتلت ، وإلى ربط فكه أقبلت ، فعندما مد منقاره إلى الماء وقربت منه السمكة العمياء ؛ لم يفتر أن اقتلعها ثم ابتلعها .

وإنما أوردت هذه اللطيفة يا ذا الحركات الظريفة ؛ لتعلم أن قربنا من العقاب ألقى بنا أنفسنا إلى أليم العقاب ، وأين عَزُبَ عنك نُهاك ؛ حتى تسعى بنا إلى عين الهلاك ، ونحن قوت العقاب وغذاؤه ، ولداء جوعه شفاؤه ودواؤه، وهل يركن إلى العقاب يؤمن منه ضرب الرقاب ، وقد قيل :

أنفاسُه كَذِبٌ وحشوُ ضَميره   دَغَل وقربَتُه سِقَامُ الرُّوحِ(١)

وقد قيل :

أَنْهَاكَ أَنْهَاك لا آلوك معذرة   عن نَوْمَةٍ بين نَابِ اللَّيْثِ والظُّفُرِ

قال النجدى : اسلمي يا قرينة الخير ، واعلمي أن الريح وقت الربيع تكسو أكناف الأشجار من أنواع الأزهار ، ووجه الصحارى والقفار من أنوار

---

(١) دغل : فساد وحقد .

الأنوار ، ما يدهش البصائر ويروق الأبصار ، وينعش الأجسام ويشفى الأسقام ، ويبرد الغليل ويبرئ العليل ، لا سيما وقت السحر ونسيم الصبا فى ضوء القمر ، يربى القلب والروح ويُحْى الصَّبُّ المجروح ، وكذلك المعرفات النشر واللواقح[(١)] ، والمعطرات بطيب الروائح ، ودونك قول الحق فى كلمته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم:٤٦] وفى المصيف الحرور العسيف[(٢)] والسموم العصيف المذيب المذيق[(٣)] ، وفى الشتاء وأيام الخريف الصرصر المخيف[(٤)] ، يصفر اللون ويغير الكون ، ويعرى الأشجار ، ويسقط الثمار ويثير الغبار ، وربما كانت إعصارا فيه نار ، وتسقم الصحيح وتطير الهشيم فى الريح ، ومنها الأعجاز[(٥)] الموحشات والأيام النحسات ، والقواصف والعواصف والحواصب[(٦)] والحراجف[(٧)] الصرصر ، والنكباء[(٨)] والزعزع[(٩)] ، والرخاء ؛ وقد قال فيها العزيز العليم ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] .

ثم اعلمى يا ربة الحجال وفتنة الرجال ، أن النار تحرق من يقربها ، وتذهب ما يصحبها ، وتنشف الطراوة ، وتشوه الطلاوة ، وتلتقم ما تجده،

---

(١) الرياح .

(٢) الشديد .

(٣) القاتل .

(٤) الرياح الشديدة الباردة .

(٥) النخل .

(٦) الحواصب : الرياح الشديدة التى تحمل التراب ، والمفرد : حاصب .

(٧) الحراجف : مفرد حرجف وهى الريح الباردة شديدة الهبوب .

(٨) النكباء : الريح الشديدة الباردة .

(٩) الزعزع : الريح الشديدة .

وتلتهمه وتزدرده ، وتسود بدخانها ، وتؤلم الأجسام بقربانها ، وتمحو الآثار، وتهدم الديار ؛ مع أنها تنضج الأطعمة ، وتصلح الأغذية ، وتهدى النور ، وتدفى المقرور[1] ، وترشد الضال فى القفار ورؤس الجبال ، قال من يقول للشئ كن فيكون **﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾** [الواقعة:٧١-٧٣] .

وكذلك الما يا ذات الثغر الألمى يذهب الظما ، ويجلب النما ، ويبرد الصدور ، ويطفئ الحرور ، وينبت الزروع ، ويدر الضروع ، ويحمل المراكب وما فيها من مركوب وراكب ، قال القادر على كل شىء **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾** [الأنبياء:٣٠] وإذا طغت المياه والعياذ بالله ، أغرقت المراكب ، وخطفت الراجل والراكب ، واقتلعت الأشجار ، واقتطعت الأحجار، وأتلفت الزروع والثمار ، وإن تراكمت الأمطار قطعت سبل الأقطار ، وهدمت الديار ، وردت الآبار ، وسل عن ذلك ملابس الأسفار ، ومجالس الرتب من أهل الأمصار ، وإذا تكاثف الرَّش[2] غرقت مِصْرُ وآذى أهلها العطش ، ونعوذ بالله من هجوم السيل فى ظلام الليل .

وكذلك التراب يا زين الأحباب ، ينبت الحصرم والعنب ، والثمر والحطب ، والشوك والرطب ، ويشرع سنان الشوك المحدد ، وغصون السهم المسدد ، ويربى الورد والأزهار والرياحين والأنوار ، والأقوات والثمار ، والرياض النضرة والغياض الخضرة ، ثم إذا ثار وهاج الغبار خرج من تحت الحوافر فأعمى النواظر ، ففيه الحلو والمر والزّوان والبرّ[3] ، والناعم والخشن ، والقبيح والحسن ، والأرض مهاد وفراش ، وفيها أسباب المعاش.

---

(١) المقرور : الذى يشعر بالبرودة .

(٢) المطر القليل .

(٣) الزوان : الزينة . البرّ : الصالح .

وهذه المضرة والمنفعة مركبة فى هذه العناصر الأربعة ، التى هى أصل الكائنات وسنن ما نشاهده من المخلوقات ، وإذا كان ذلك كذلك وقاك الله شر المهالك ، وأوضح لك أوضح المسالك ، فاعملى بالتحقيق يا صاحبة الثغر العقيق ، أن هذا الملك الأعظم بل كل أولاد بنى آدم مركبون من الرضا والغضب ، والحلم والصخب ، والرفع والحط ، والقبض والبسط ، والقهر واللطف ، والظرافة والعنف ، والخشونة واللين ، والتحريك والتسكين، والبخل والسخاء ، والشدة والرخاء ، والوفاء والجفاء ، والكدورة والصفاء .

واعلمى يا نعم العون وقرينة الصون ، أن هذا الكون سروره فى شروره مندمج ، ووروده فى صدوره مندرج ، وصفاؤه مع كدره مزدوج ، وجفاؤه بوفائه ممتزج ، فيمكن أن العقاب لكونه ملكا مالك الرقاب ، مع وجود هيبته القاهرة ، وسطوته البادرة ، وخلقه الشرس الصعب الشكس[1] ، إذا رأى ضعفنا وذلنا وانكسارنا وقلنا وترامينا لديه وتعولنا عليه ، يضمنا إلى جناح عاطفته ويسبل علينا خوافى مرحمته ، ويعاملنا بالألطاف ويسمح لنا بالإسعاف دون الإعساف ، ويعمل بموجب ما قيل :

لكل كريم عَادَةٌ يُستَعْدِهَا وأنتَ لكلِّ المَكْرُمَاتِ إمَامُ

والقادر على الكسر والجبر لا سيما إذا كان من ذوى النباهة والقدر ، لا يعامل ذوى الكسر بالكسر لأنا فى مقام الأبناء وهو فى مقام الأبوة ، والتقوى على الضعيف ضعف فى القوة ، وقالوا : المصغر لا يصغر وسجدة السهو لا تكرر .

قالت غرغرة ذات التبصرة : هذا وإن كان داخلا فى حيز الإمكان ؛ لكن أخاف يا ذا الألطاف ، أنا بمجرد الوقوف بين يديه فى الصفوف ، لا

---

(١) السىء الخلق .

نمهل بأداء الكلام ولا للثبات فى المقام ، بل نعامل بالتمزيق والتخريق ، وننجر بعد فى الطريق ، وتهوى بنا خواطف الطير فى مكان سحيق ، فيفوتنا هذا المطلب إذا قيل الطبع أغلب ، وهذا إذا وصلنا إليه وتمثلنا بين يديه ، وأما إذا اعترضنا دونه عارض وجرحنا من جوارح الطير معارض ، ولا حول يحمينا ولا قوة تنجينا ، فينتف ريشنا كل باغ ، ويتجاذب لحمنا كل طاغ ، فيصير مثلنا مثل النمس والزاغ[1] . فسأل اليعقوب تلك الرقوب ، كيف هذا المثل أخبريني يا ست الحجل .

[٧٩] **قالت** : كان فى بعض البساتين العاطرة ، والرياض الناضرة ، مأوى زاغ ظريف حسن الشكل لطيف ، فى رأس شجرة عالية أغصانها سامية ، وقطوفها دانية ، فاتفق لنمس من النموس ، فى وكره ضرر وبوس ، فانزعج عن وطنه ، واحتاج إلى مفارقة سكنه ، فقاده الزمان إلى هذا المكان، فراقه منظره وشاقه نوْره وزهره ، وأعجبه ظله وثمره ، وأطربه بخريره نهره ، فعزم على السكنى فيه وتوطن إلى أن يتوطن فى نواحيه ، إذ رآه أحسن منزل ، وإذا أعشيت فانزل .

ووقع اختيار ذلك الطاغ على وكر فى أصل شجرة الزاغ ، فسوى له وكرا وحفره ، فى أصل تلك الشجرة ، وألقى عصا التسيّار واستقرت به هناك الدار ، فلما رأى الزاغ هذه الحال داخله الهم والأوجال ، وخشى أن يتدرج من أدناها ويتدحرج إلى أعلاها ، وينشد الأصحاب فى هذا الباب :

ولمَّا مَضَى الشَّوقُ   إلى نَحْوِ أبى طَوقِ
تَدَحْرَجْتُ ولكِنِّى   مِنْ تَحتِ إلَى فَوقِ

فيصل إلى وطنه القديم ويذيقه العذاب الأليم ، فليس له الخلاص من هذا الاقتناص ، إلا مفارقة الوطن والانزعاج بالتحول عن السكن ، وكيف يفارق ذلك النعيم ويسمح بالبعد عن الوطن القديم ، وهو كما قيل :

---

(١) النِمْس : حيوان فى حجم القط . والزاغ : الغراب الصغير .

بــلادٌ بهـــا نِيطَــتْ عليَّ تَمَائِمِي وأولُ أرْضٍ مَسَّ جِلْـدِي تُــرَابُها[1]

فغلبت محبة وطنه على قلبه ، ولم يطاوعه على فراقه لشدة حبه ، ثم اعتراه في ذلك الوسواس وأخذ يضرب أخماسا لأسداس ، في وجه الخلاص من هذا الباس ، فرأى المدافعة أولى ، والممانعة عن جوارحه لخاطره أجلى ، ثم افتكر في كيفية المدافعة وسلوك طريق الممانعة ؛ فلم ير أوفق من المصانعة ، وتعاطى أسباب المخادعة ليقف بذلك أولا على حقيقة أمره ، ويعرف معيار خيره وشره ، ويصل إلى مقدار قوته وضعفه ، ورصانة عقله وفهمه وسخفه ، ويسبر حالتي غضبه ورضاه ، ويدرك غور أحواله ومنتهاه ، ثم يبني على ذلك أساس دفعه وهدم ما يبنيه من قلعته لقلعه .

فهبط إلى النمس من الهواء وحفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، وسلم عليه سلام المحب على الحبيب ، وجلس منه بمكان قريب ، وخاطبه خطاب ناصح لا مريب ، وابتهج بجواره، واستأنس بقرب داره ، وذكر له أنه كان وحيدا وعن الجليس الصالح والأنيس الناصح فريدا ، وقد حصل له الأنس بمجاورة النمس ، وأنه صدق من قال ، في هذا المقال:

انْفِــرَادُ المـــرْءِ خَيْـــرٌ مِـــنْ جَلِيـــسِ الســـوْءِ عِنْـــدَهُ
وجَلِيـــسُ الخَيْـــرِ خَيْـــرٌ مِـــنْ جُلُـــوسِ المَـــرْءِ وَحْـــدَهُ

فاستمع النمس حديث الزاغ وما طغى بصر بصيرته عن مكايده وما زاغ ، ثم افتكر في نفسه ونظر في مرآة حدسه ، فرأى أن هذا الطير بخبث السيرة مشهور ، وبسوء السريرة مذكور لا أصله زكي ، ولا فرعه عليٌّ ، ولا غائلته مأمونه ولا صحبته ميمونة ، ولا خير عنده ولا مير ، بل يخشى منه الضرر والضير ، وكأنه فيه قيل :

---

(١) النيط : البعد . أي بعدت .

وهُــو غُــرَابُ البَيْــنِ فى شُؤمــهِ لَكِــن إذا جِئنَــا إلى الحَــقِّ زَاغ

ولم يكن بيننا وبينه قط علاقه ، ولا واسطة محبة ولا صداقة ، وأما العداوة فإنها مستحكمة ، وكل منا للآخر مأكلة ومطعمه ، ولا أشك أنه إنما قصد طريقة سوء ومكيدة نكد ، فإن أضعت فيه الفرصة أطلت الغصة ، ووقعت من الندامة فى قصة وحصة ، ولا يفيدنى إذ ذاك الندم أنى وقد فات المطلوب وزلت القدم ، وأحزم الحزم سوء الظن بالناس ، فالذى يقتضيه الحزم والرأى السديد والعزم القبض عليه إلى أن يظهر ما لديه .

ثم وثب من مريضه ، وأنشب فى الزاغ مخاليب مقبضه ، وقبضه قبضة أعمى لا كالقابض على الما ، فلما رأى الزاغ هذا النكد ، وأنه قد صار كالفريسة فى مخاليب الأسد، ناداه يا كريم الخير ، ويا أيها الجار الحليم عن الضير ، أنا رغبت فى مصادقتك ، وجئتك محبا فى موافقتك ومرافقتك ، وأردت إزالة وحشتك ومؤانستك ، بإبعاد دهشتك ، وحاشاك أن تخيب ظنى فيك ، وتعامل بالجفاء من يوافيك وأنشده :

وحَاشَاك أنْ تَمْشِى بِوَجْهِكَ مُعْرِضَا وَمَا يحْسُن الإعْرَاضُ عن وَجْهِكَ الحَسَنُ

والكِرَامُ لا يعاملونَ الجلساء إلا بالمؤانسة وحسن الوفاء ، والإبقاء على الخير والبعد من الضير ، وأنا قد صرت جليسك وجارك وأنيسك وقد قيل :

وكنتُ جَلِيــسُ قَعْقَــاعُ بنُ شَــورَ ولا يَشْــقَى لِقَعْقَــاعِ جَلِيـــسُ

مع أنه لم يسبق منى سبب عداوة ، ولا ما يوجب هذه الفظاظة والقساوة، وهذه أول نظرة فما موجب هذه البدرة ، وما سبب هذه النفرة .

قال النمس : أيها الزاغ الكثير الرواغ وأنحس باغ ، وأنجس طاغ ، اسمك ناطق أنك منافق وهو خبر صادق ، إذ هو فى الخارج للواقع مطابق ، ورؤيتك شاهدة أنك تنقض المعاهدة ، وعين منظرك دل على مخبرك ، وقد قيل :

والعيـــنُ تَعْـرِفُ من عَيْنَـــى مُحَدِّثُها إنْ كَان مِـــنْ حِزْبِـهَـا أمْ مِنْ أعَادِيها

مَنْ أين بيننا صداقة ، ومتى كان بين النمـوس والـزاغ علاقـة ، وكيـف تتعقد بيننا صحابة وأنى يتصل لنا مودة أو قرابة ، بين لـى كيفيـة هـذا السبب ومن أين هذا الإخاء والنسب ، أما أنت فلـى طعمـة ، وأمـا أنـا فلحمـى لسدى غذائك لُحْمَة ، يسوءنى ما يسرك وينفعنى ما يضرك :

اللـــه يَعلمُ أنَّـــا لا نُحِبُّـكُـــم ولا نَلُومُكُـــم أنْ لا تحبُّـونَـــا

أنا واقف علـى مـا فـى ضميرك ، وعـالم بسـوء فكـرك وتدبيرك ؛ قـد اطلعت منك على الهواجس كما اطلع ذلك الماشـى علـى مـا فـى خـاطر ذلـك الفارس ؛ قال الزاغ : بين لى بلا جدل ، كيف هو هذا المثل .

[٨٠] **قال النمس** : ذكر رواة الأخبار ونقلة الآثار أنه ترافق فى بعـض السباسب[١] راجل وراكب ؛ وكان مـع الراجـل من البضـائع رزمـة[٢] ، وقـد طواها كارة[٣] وحزمها أوثق حزمة ، وقـد أعيـاه حملهـا حتـى أعجـزه نقلها ، فقال للراكب : أيها الرفيق الصاحب لو ساعدتنى ساعة بحمل هذه البضاعـة ، لأرحتنى ونفست عنى وشرحتنى :

... ذى المَجْـــد يَحْمِـــلُ أثْقَـالَـه قَـوِىُّ العِظَـــامِ حَمُـــولُ الكَلَـــفِ

قال الفارس : لا أكِلُّ فرسى ولا أتعب نفسى ونفسى ، فإن مركوبـى لـم يقطع البارحة عليقه ، وأنا خائف أن لا يقطع بـى طريقـه ، وإذا خفـت تخلفى فى سيرى فأنى أتكلف حمل أثقال غيرى .

---

(١) السباسب ؛ مفردها سبسب : الصحراء .
(٢) متاع .
(٣) أى أدارها ولفها .

فبينما هما فى هذا الكلام إذ لاح أرنب فى بعض الآكام ، فاطلق العنان وراء الأرنب ، وذهب وراءها كرأى الزنادقة[1] كل مذهب ، فوجد فرسه قوية النهضة سريعة الركضة ، فرأى أنه أضاع حزمه فى عدم أخذه الرزمة، وما ضره لو أخذها وساق وذهب إلى بعض الآفاق ، وأقام بها أَوَده وانتفع بها وولده ، وترك الماشى بلا شئ ، ثم رجع بهذه النية الضارة ليحمل عن الماشى الكارة ، وقال له : اعطنى هذا الحمل المتعب ، لأريحك من حمله فى هذا المذهب ، وابلع ريقك واقطع طريقك ، فقال له : قد علمت بتلك النية وما أضمرت من بلية ، فاتركنى بحالى فلى حاجة بمالى ، ثم أن النمس كسر الزاغ وحصل له بأكله الفراغ .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم يا فحل الرجال ، أن العقاب لا يؤمن ولا يقطع فيه بالظن الحسن ، ولا يركن إلى خطفة بوارقه ، بمخاليب صواقعه[2] وصواعقه ، ولا إلى غوائله وبوائقه ، وهذا إن سَلِمَتْ شُـقَّة حياتنا من تشقيق غواشيه ، وتخلص برد وجودنا من تمزيق حواشيه ، وإن بينك وبين هذا المراد خرط القتاد[3] ، والموانع التى هى دون سعاد[4] ، فما الوصول إلى ملك الطير قريب التناول فى السير ، ولا سهل المأخذ ولا سريع المنفذ ، وأين الحَجَل من العُقاب ذاك فى نعائم النعيم وهذا فى عِقَاب العِقَاب ، فتدبر عاقبة هذا الأمر وتأمل فى الفرق بين التمر والجمر ، والظاهر عندى وما أدى إليه فكرى وجهدى ، أن عاقبة هذه الأمور ليس إلا القطوع والقصور، دون الوصول إلى الملك فى القصور .

---

(١) الزنادقة : فرق متعددة الأهواء لا تؤمن بالآخرة والربوبية ، وتبطن الكفر وتظهر الإيمان .

(٢) طائر ، وهو الصفارية .

(٣) خرط القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر . أى أنه لا يُنال إلا بمشقة عظيمة وأن خرط القتاد أسهل منه .

(٤) السرور والسعادة .

قال الذكر : لقد كررت عليك مرارا ، وأسندت إلى سمعك إنشاء أخبارا ، أن علو همة هذا الملك وفضله الخالى عن شرك وكرم نِجَاره[١] ، أمن خادمه وجاره وفيض إحسانه، وبسط كرمه وامتنانه ، وانتشار صيت شمته ، واشتهار رأفته ورحمته ، لا يقتضى حرمان من قَصَده وأَمَّ جنابه اعتمده ، ولجأ إلى جناح عاطفته وتشبث بذيل ملاطفته ، وحاشاه أن يصم مصون همته بابتذال دناءة ، ويشوه جمال وفائه لمن ترفق له بنكتة جفاء تخيب رجاءه ، خصوصا إذا رأى منى خضوع العبودية ، والقيام بمراسيم الخدمات الأدبية ، والمقام بمراكز مرضية ، والوقوف عند كل ما يعجبه ويرضيه ، فإني بحمد الله تعالى أعرف مداخل الأمور ومخارجها ، وعندى الاستعداد الكامل لصعود معارجها ، وأعلم طرق المجاز إلى حقائقها ، وسلوك دروبها وطرائقها ، فالأولى أن نقتصر عن المحاورة ، ونكتفى بهذه المساورة فى المشاورة ، ونتوكل على مقلب القلوب ، ونتوجه نحو هذا المطلوب ، بعزم شديد ، وحزم سديد ، فإن تيسر لى ملاقاة حضرته ، والتمثل فى مراكز خدمته ، وحصلت لى مشاهدته واتفقت مخاطبته ومعاهدته ، أنشأت خطبة تدفع الخطوب وتجمع القلوب ، وتؤلف بين المحب والمحبوب ، وأرجو أن تكون نافعة ، لمصالح الدين والدنيا جامعة ، فإن كلامى فى مقامى ، كما قيل فى المثل :

فَأَوْجَزَ لَكِنَّهُ لا يُخِلُّ وأَطْنَبَ لَكِنَّهُ لا يُمَلُّ

وآخر الأمر سلمت غرغرة زمام انقيادها إليه ، وعولت فى عمل المصالح عليه ، ثم قالت له : عش واسلم ، وتيقن واعلم إنك إذا قصدت خدمة الملوك ، وأردت فى طريق مصاحبتهم السلوك ، فإنك محتاج فى ذلك المنهاج إلى نور وسراج ، يهديك إلى صفات جميلة وتلبس بخصائل نبيلة ، تتحلى بجمالها وتتعلى بكمالها ، وتتجلى فى شمائل جلالها .

---

(١) أخلاقه .

الأولى : أن تقدم فى جميع مصادرك ومواردك مراد الملك على جميع مقاصدك .

الثانية : أن تتلقى أموره بالتعظيم وتقيم أوامره بالاحترام والتفخيم .

الثالثة : تحسن أقواله وتزين أفعاله بوجه لا يتطرق إليه تشويه ، ولا يحتاج فيه إلى تنبيه .

الرابعة : تجتهد فى صيانة عرضك عن الخنا[1] وإياك أن تقول فى حضرته أنا ، فتقع فى العنا .

الخامسة : أن تعد على الدوام ومرور الأيام خدماتك الوافرة ، وحقوقك المتكاثرة عن حقوق نعمه قاصرة .

السادسة : إذا وقعت منك زلة فلا تتعد بها جَمْعُ القِلَّة[2] ، بل اطلب لتلك الهفوة فى الحال محوة ، واقصد مراحمه وعفوه ، فإن الذنوب إذا تراكمت وتجمعت وتزاحمت أشبهت المزبلة المدمنة[3] ، وفاحت روائحها المنتنة ، والإنسان غير معصوم والآدمى بالخطا موسوم[4] .

السابعة : احفظ وجهك فى حضرته عن التقطيب ، وكلامك أن يفوح منه غير الطيب .

الثامنة : إياك ومصادقة أعدائه ومعاداة أوليائه .

التاسعة : كلما زادك رفعة وتقريبا مِلْ إلى التواضع وإعظامه تصويبا .

---

(١) الفحش فى الكلام .
(٢) أى الجمع القليل ، الشرزمة .
(٣) العفنة النتنة .
(٤) موصوف ، ومطبوع عليه .

العاشرة : لا تدخر عنه نصيحة وانصحه فى الخلوة ؛ لئلا يؤدى إلى الفضيحة ، وإذا أقامك فى أمر ولو أنه المشى على الجمر ، لا تطلب منه أجرا ولا تبد لذلك ذكرا ، فإن الطمع يورث العقوق ، والمَنُّ يسود وجه الحقوق .

واعلم أن حضرة الملوك عظيمة ومجالسهم جسيمة ، تنزه عن الكذب والغيبة والنميمة ، والأقوال الوخيمة والأفعال الذميمة ، وإياك أن تتعدى القواعد الكسروية ، وتتخطى القوانين السلطانية ، فإن أعظمها كان أن يعرف كل انسان ، تقصير نفسه فى خدمة مخدومه ، ويعترف له من إحسانه مومه، ويقيم واجب همة ملكه ومقام مرسومه . قال النجدى : أخبرنى عدى[1] وحظى وسعدى ، وابنة السعدى ، ومزينة القواعد بشىء من تلك ء اعد .

[٨١] **قالت** : من القواعد الكسروية الدائرة بين البرية ؛ ما وضعها ص الملوك وحمل رعيته فيها على السلوك ، وكان مشهورا بالعدل لإحسان مذكورا بإقامة البرهان ، متصفا بالصفات الحميدة مكتنفا بالشمائل السعيدة ، من الدين والعفة وعدم الطيش والخفة ، بعقل راجح الكفة ، والعلم لوافر والحلم العاطر .

وذلك أنه فى بعض الأيام أمر أن يجتمع الخواص والعوام ، ما بين امير ووزير ، وكبير وصغير ، وغنى وفقير ، وجليل وحقير ، وعالم وجاهل، ومعضول وفاضل ، ومذكور وخامل ، وناظر وعامل ، وحال وعاطل ، وحاكم وقاض ، وساخط وراض وجندى وتبع ، وأخرق وصنع ، ووضيع وشريف ، ولطيف وكثيف ، وثقيل وخفيف ، وقريب وبعيد ، ومقبول وطريد،

---

(١) دعدى : اسم امرأة ، بمعنى يا صاحبتى .

وشقى وسعيد ، وسوقة وتاجر ، وسفيه وفاجر ، ودان وقاص ، وطائع وعاص ، وصالح وطالح ، وضاحك وكالح، ومصيب ومخطئ ، ومسرع ومبطى ، وصياد وملاح ، وسياح وسباح ، وبلدى وفلاح ، ومسلك وسالك ، ومملوك ومالك ؛ بحيث لا يتخلف عن الحضور أحد ، ولا يجزى فى التقاعد والِدٌ عن ولد .

ثم مهد لهم فى روض أريض ومرج طويل عريض ، تصفق مياه أنهاره طربا ، وتتناغى بأطيب الالحان فصحاء أطياره الخطباء ، وتتراقص بزهر الوقت أغصان أشجاره، ويلتذ بفواكه الجنان جانى ثماره ، فهو كما قيل:

يَلْتَذُّ جَانيه بأَنْعَمَ مَقْطَفٍ ... منه وسَاكِنُهُ بأكْرَم مَعْطَفِ
والورق بين محلق فى جوه ... طَرَبَاً ومُنْحِطٌ عليه مُرَفْرِفُ(١)

وأمر بفرش ذلك المكان بالفرش الحسان ، من الديباج والحرير ، وأطلق مجامر الند(٢) والعبير ، وبين لكل مقاما معلوما ومجلسا مقسوما ، وأجل كلا منهم محله وأسبغ عليهم ذيل إحسانه وظله ، ثم أمر بأنواع الأطعمة المفتخرة ، وأصناف الملاذ الطيبة العطرة ، فأُحضرت فى أوانى الفضة والنضار(٣) ، ووضعت بين يدى أولئك الحضار ، بحيث عمت الجميع ووسعت الشريف والوضيع ، وجلس الملك فى مجلس السلطنة واكتنفه من العساكر الميسرة والميمنة ، وأخذ كل مكانه ورتب أصحابه وأعوانه ، ثم أقام عليهم أرباب الديوان، وأدخل جميعهم فى دفاتر الحسبان ، وأمر مناديا سيدا يرفع بصوته الندا ، فى ذلك الجمع بحيث شمله من الجميع ، النظر والسمع : يا أهل هذا المكان برز مرسوم السلطان ، أن كل من هو فى مرتبة من

---

(١) الورق ، المفرد ورقاء : وهى الحمامة البيضاء .
(٢) الطيب ، وهو من عود البخور .
(٣) الذهب .

مرضاة أو معتبة ، لا يلاحظ من فوقه ولو أنه من أمير أو سوقة ، بل يلاحظ حال من هو دونه ، فائزة كانت منزلته أو مغبونة ، فإن ذلك أجمع للقلوب وأدعى للشكر المطلوب ، وأجلب للرضا بحوادث القضا ، فإن من رأى نفسه فى مقام ، ونظر غيره فى أدنى من ذلك المقام استقام ، وكانت عنده منزلته عَلِيَّة ، وعدَّ لنفسه على غيره مزيه ، فتوطنت نفسه على الرضا ، واستقبلت بالشكر وارد القضا ، مثال ذلك الرئيس النازل فى الصدر ، إذا رأى من هو دونه فى القدر ، لم يشك فى أن محله محل البدر ، وباقى الرؤساء كالنجوم ، فلا يأخذه لذلك وجوم ، وقد قال الحى القيوم ، فى در كلامه المنظوم ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**﴾ [الصافات:١٦٤] .

وكذلك النائب بالنسبة إلى الحاجب ، والدوادار[١] بالنسبة إلى البزدار[٢]، والخزندار[٣] بالنسبة إلى جابى الدراهم والدينار ، والمهتار[٤] بالنظر إلى السائس والبرقدار[٥] ، وكذلك السائس بالنسبة إلى الحارس ، وكاتب السر المرتفع بالنسبة إلى المدبر ، والموقع والزمام بالنسبة إلى سائر الخدام ، وأيضا القاضى مع الفقيه ، والفقيه مع التاجر النبيه ، والتاجر مع السوقى السفيه ، والغنى والأمير بالنسبة إلى المأمور والفقير ، وعلى هذا القياس أوضاع جميع الناس ، من أرباب الصنائع وجلاب البضائع ، وأهل المدن والقرى ، وذوى البيع والشرا ، والوُهْدُ[٦] والذرا ، وأولى الوضاعة والشرف ، من أنواع المكتسبات والحرف ، إلى أن ينزلوا فى المراتب ،

---

(١) الداوادار : الكاتب ، وهى كلمة فارسية .

(٢) البزدار : كلمة تعنى حامل الصقر وهى مهنة كانت موجودة فى قصور الأكاسرة .

(٣) الخزندار : كلمة فارسية تعنى الذى يتولى حفظ الأموال .

(٤) المهتار : كلمة فارسية تعنى الوالى .

(٥) البرقدار : كلمة فارسية تعنى حامل الرّاية .

(٦) الأرض المنخفضة .

ويتدحرجوا من اليفاع[1] إلى الحضيض في المناصب ، ويتعاونوا في المناصب والمناقب ، ويصل قدرهم ونظرهم في ذلك إلى كل ذي فعل سيء حالك ، كأرباب العظائم وأصحاب الذنوب والجرائم ، فينظر المعتوب حاله بالنسبة إلى المضروب ، والمشتوم حاله بالقياس إلى حال الملكوم ، والصحيح بالنسبة إلى حال الجريح ، ويلاحظ مضروب العصا حال المسلوخ بالمقارع ، ومضروب المقارع أحوال مقطوع الأكارع ، وكذلك المقطوع بالنسبة إلى مصلوب الجذوع ، والمصاب بالمال بالنسبة إلى مصاب البدن، والأعرج بالنسبة إلى المقعد الزمن ، وكذلك العوران بالنظر إلى مصاب العميان ، وليتأمل الناظر ما قاله في ذلك الشاعر :

سَمِعْتُ أَعْمَى مَرَّةً قَائلاً يا قَوْمُ ما أَصْعَبَ فَقْدُ البَصَر
أجابه أعورٌ من خَلْفِه عندى من ذلك نِصْفُ الخَبَر

ولتكن هذه القواعد مستمرة العوائد بين الصادر والوارد ؛ ليعلم أن مصائب قوم عند قوم فوائد ، فاستمرت هذه القوانين مستعملة غير منسية ولا مهملة ، من زمان ذلك السلطان إلى هذا الزمان ، وانظر أيها الفضيل إلى معنى ما قيل في هذا القبيل وهو :

على كلّ حالٍ ينبغى الشكرُ للفتى فكم من شرور عن سرور تجلّت
وكم نِقْمَة عند القياس بغيرها تُرَى نِعْمَة فاشكر لَدَى كل نقمة

وإنما أوردت هذه الأمثال ؛ وأطلت النفس في بيان هذه الأحوال ؛ لتأخذ منها حظك وتكررها فيما أودعته حفظك ، وتجرى بها ليلا ونهارا لفظك ، حتى تصلح لمنادمة الملك ، ولا يعلق بذيل مكانتك من الحساد مرتبك ، وترضى بأى مقام أقامك فيه ، وتعلم أنه أعلى مقام ترتضيه ، حيث هو لك يرتضيه ، وتجعل مورد لسانك ومقعد جنابك ، في طلبك رضاه ما كنت أنشدتك إياه من قديم الزمان ، وأنا عليه الآن وهو :

---

(١) الشموخ والعُلوّ .

وأعلَــى مقَامَاتــــى وأسْنَى وظائفى وأحســـــنُ أسمائى الذى أنْتَ تَرْضَاه

فقال الذكر : ما أحسن عقد هذه الدرر ، لقد أفصحت إذ نصحت ، وزينت بما بينت ، فجزاك الله خيرا وكفاك ضيرا فحقيق على أن أقتدى بآثارك وأهتدى بأنوارك ، فما أرجح ميزانك وأغزر حسنك وإحسانك ، لقد جمعت بين فصاحة النقل ، ورجاحة العقل ، ومزجت روح الحصافة ببدن الظرافة ، وجلوت صورة النصيحة فى خلعة اللطافة .

ثم إنهما توكلا على العزيز الوهاب ، وقصدا حضرة ملك الطير العقاب، فواصلا السير بالسرى ، واستبدلا السهر بالكَرَى[1] ، ولم يزالا فى سير مجد وطلب مكد ، بين الإدلاج والدلجة مقارن حتى وصلا إلى جبل قارن، وكان عند العقاب أحد المقربين من الحجاب ، يؤيؤ[2] ؛ نقى الجؤجؤ[3]، تقى البؤبؤ[4] ، أحسن منظرا من اللؤلؤ ، صورته مسعودة ، وسيرته محمودة ، وهو بين أولئك الطير مشكور الأحوال مشهور الخير ، وفيه من المعرفة والدين، والعقل الرصين ، والرأى المتين ما يصلح أن يكون به مقتدى السلاطين ، وعنده من الوقوف على دقاق الأمور ما فاق به الجمهور ، وساد به على سائر الطيور .

وكان صيته قد اشتهر حتى ملأ البدو والحضر ، فترك النجدى بنت السعدى فى مكان ، وقصد اليؤيؤ ليعرض عليه ماله من شان ، فوصل إلى جنابه وأتى بيت مقصده من بابه ، حتى دخل عليه وقبل يديه ، وتمثل لديه فتوجه اليؤيؤ إليه ، وأشار بتقريبه منه ، وأزال دواعى الوحشة عنه ، وأقبل

---

(١) النوم .

(٢) اليؤيؤ : طير من الطيور الجوارح .

(٣) الصدر .

(٤) البؤبؤ : حدقة العين ، أى أنه عفيف النظر .

عليه بكليته وزاد فى إكرامه وتجيته ، وسـأله عـن محتده وجرثومـه[1] ، ومـا سبب تجشمه فى قدومه ، ومن أين حل ركابـه ومـا قصده وطلابـه ، فأنشده بديها ولم يقل إيها[2] ، مفصحا معلنا مستعينا مضمنا :

لقد قَصّ ريشى الدهرُ عن كل مطلب وألهمنى سَعْـــدِى بأنك رائِــــشُ
ففى سَمَرِى مـدٌ كهجـرِكَ مُفْــرِط وفى قِصَّتِى طولٌ كصَدّكَ فَاحِشُ

ثم قال : اعلم أيها الرئيس المحتشم النفيس ، أن مولـدى فـى جبـل مـن جبال أذربيجان ، فى مكان يضاهى الجنان ويباهى روضة رضوان ، أنزه من عنصر الشباب وأفكه من معاقرة الأتراب ، وأرفه مـن منادمـة الأحباب علـى رقيق الشراب ، نشأت فيه مع قرينة جميلة أمينـة، فقضيت فيـه غـض العمـر وزجيت فيه بض الدهر ؛ قانعا بما تيسر من الـرزق ، فارغـا عمـا فـى أيـدى الخلق ، متمسكا بذيل العزلة أعد الانفراد نعمة جزلة مكررا درس ، ثلاثة تجم النفس : القرينة الصالحة ، والجار المؤنس ، والكفاف من القوت ، ومما كنـت أنشدت وفى مبدأ أمرى أرشدت :

وحَسْبُ الفتـــى قوتٌ وخِلٌ وزوجة ليرتاحَ فى الدنيا ويكتسبُ الأخـــرى

وكنت من الدهر على هذا اقتصـرت ، ومـن لذيـذ العيش علـى القناعـة اختصـرت ، ولكن كان مأوانا ومصيفنا ومشتانا محل الحوادث وممر العوائـث والعوابث ؛ ومعبر المصائب الصيد ومورد المواطئ عمرو وزيد ، فكنـا كلمـا ولد لنا مولود وتجدد لنا بالبهجة والابتهاج عهود ، حصل للعيـن قـرة وللـروح مسرة ، نقول هذا يبقى ذكرنا بعدنا ، ويحيى آثارنا عند حلولنا لحدنا ، فلم يكن أسـرع مـن هجـوم خـاطف أو هبـوب ريـح نكبـة عـاصف ، يخطفـه مـن بيننـا ويجذبـه مـن قُبُلِنَـا وعيننـا[3] ، فـإن سلم مـن تلـك المكـايد وتخلـص مـن سـهم

---

(١) أى سأله عن أصله وفصله .

(٢) إيها : اسم فعل يدل على الاستزادة .

(٣) أى من أمامنا ومن بين أيدينا .

المصائب والمصايد ، حطمته عساكر الملك المنصورة ، وملأت الأقطار الجنود الموفورة، فلا يخلو منها مكان قدم إلا وقد غص بمواطئ تلك الأمم ، فتذهب مناقرة العين ، وتدهك غلطاً تحت الرجلين ، وهذا هو البلاء الطام والمصاب العام ، ولابد منه فى كل عام ، فكأنه أيها النبيه النبيل فى شأننا قد قيل :

أيا ابنُ آدم لا يَغرُرُكَ عافيةُ ... عليك شامِلَةُ فالعمر ممدودُ
ما أنت إلا كزرع عِنْدَ خُضرَتِه ... بكل شيء من الآفات مقصودُ
فإن سَلِمْتَ من الآفات أجمعُها ... فأنتَ عند كَمال الأَمْر محصودُ

وضاق منا لهذا العطن فلم أر أرفق من مفارقة السكن ، والمهاجرة من الوطن ، فعرضت على القرينة هذه الحال ، وأشرت عليها بالارتحال ، وقلت لها : المرء من حيث يوجد لامن حيث يولد ، فأبت وكبت وشاقت فى ذلك ونبت ، فلا زلنا نتحاور ونتشاور ، ويرمى كل منا سهم رأيه إذ يساور ، حتى لانت أخلاقها الصعبة بعد أن ثلت ما فى الجعبة(١)، ثم أعطت القوس باريها وسلمت الدار بانيها ، وأدركت من ملامح مقاصدى معانيها وسمحت بالانتقال من تلك البلاد ، وسلمت إلى يد تدبيرى زمام الانقياد ، فرحلنا من شقة بعيدة وقاسينا شدة شديدة وقصدنا هذا الحرم ، إذ رأيناه مشتملا على اللطف والكرم، وقطعنا شباك مصايد وخلصنا من أشراك كل صائد ، وفطمنا أنفسنا عن حبات الطمع ، وتجرعنا من كاسات الجزع وأقداح الفزع جرعا بعد جرع ، فوصلنا بحمد الله إلى جنابك الأمين ، وبشرنا مبشر الإقبال أنك لكل خير ضمين ، فحمدنا عند صباح الفلاح السرى ، وأنشدنا لسان السعد مبشرا :

وَجدْتُ من الدنيا كَريماً نَوْمُهُ ... لدفع مُلِمٍّ لو لنَيْل جَزِيْل

وإن لم يكن بيننا سابقة خدمة ؛ لكن تعارف أرواحنا قديمة ، مع أن كرم ذاتك الجميلة وما جُبِلَت عليه من صفات نبيلة ؛ يغنى قاصد صدقاتك عن

---

(١) الكنانة .

واسطة ووسيلة ، ووالله إنى لواثق بأن ظنى بوفاء مكارمك صادق ، فأسأل إحسانك يا ذا الخير إيصالى إلى خدمة ملك الطير ، وإن كانت رفعة مكانه فى العيوق(١) ، ودون الوصول إليه بيض الأنوق(٢) ، لكن بواسطة الوسيلة يحصل هذا الشرف والفضيلة ، ولازالت الرؤساء والأكابر يأخذون بيد الضعفاء والأصاغر ، ولرأيك العلو والشرف والسمو والعف والحنو .

فاهتز اليؤيؤ لهذا الكلام وارتاح ، وظهر فى وجهه تباشير المسرة والارتياح ، وأنشد:

قَدِمْتَ بأنواع المَسَّرةِ والهَنَا ... على خير مَنْزُول وأيْمَن طَائِر

فأهلا وسهلا ثم أهلا ومرحبا ... وبُشْرَى ويُسْرَى بالعُلَى والبَشَائِر

اعلم أن قدومك قدوم صدق ومرافقتك سبب الرفق ، ورؤيتك فتح باب الفتوح ، وروايتك غذاء القلب وراحة الروح ، أبشر بكل ما تؤمل وتختار فقد ذهب العثار ، وجاء الأمن واليسار ، أصبت مرامك وزينت مقامك ، وآنست منزلك وأوتيت مأملك ، فطيب خاطرك وبشر أهلك وعشائرك ، وأخبر غائبك وحاضرك ، ولقد قادك الرأى السديد والأمر الرشيد والفال السعيد ، حتى أويت إلى ركن شديد وملك كريم ، خلقه عظيم ، وفضله جسيم ، وجوده عميم، ونظيره عديم ، رؤوف برعيته رحيم ، لا يخيب آمله ولا يريب سائله ، ولا يقطع واصله ، ولا يمنع حاصله ، لقد أثبتت مساعيك أزهار الأمن والأمان ، وتفتحت لورودك فى رياض سعد الزمان ، نواظر نرجس النعمة وشقائق فضل النعمان .

---

(١) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا ولا يتقدمها ، سمى بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا .

(٢) الأنواق : العقاب ، وهو يضع بيض فى أعالى الجبال فيصعب الوصول إليه ، فضرب ذلك مثلاً .

فاعلم أن هذا الملك ذو جناب منيع وقـدر رفيـع ، وبيـان معانيـه بديـع ، عزيز المنال ، جامع لصفتى الجمال والجلال ، وقد اختار العزلـة فـى رؤوس الجبال ، فلذلك طبعه لا يخلو من جساوة[1] ، وقلبـه مـن قسـاوة ، وإن غذاءه من اللحوم ومن الحيوانات مشروبه ومطعومـه ، مخاليبـه كالأسَل[2] ، ويلجأ إلى الله تعالى إذا نسر منقاره ونسل[3] ، وحقيقة أمره إن كنت عنه تسل :

مُمقـــــرٌ مَـــرٌ علـــى أعـــدائـــه وعلـــى الأدْنَيْن حلـو كالعســـل[4]

فإذا التجأ إليه فقير ، أو أُوى إليه ضعيف أو كسير ، أو قصده محتاج ، أو سلك إلى باب مرضاته منهاج ، فلا يمكن ألطف منه ولا أشفق ، ولا أقرب من عطفه مؤمليه ولا أرفق ، فهو كمـا قيـل : بيـض قطـا يحضنـه أجدل[5] ، وسبب ذلك أن ضميره المنير خال من المكر طـاهر مـن التزوير ، لا يعـرف ختلا ولا خديعة ولا خيانة ولا وضيعة ، ولا كذبا ولا قطيعة ، ولا فى خاطره فساد ولا عنده سوء اعتقـاد ، ولا يعـرف غير الحـق ولا يقـول إلا الصـدق ، وذلك لبعده عن مخالطة الناس ، وعزلته عن كل ذى وسواس وخنـاس ، فلقد اتفق العـالم أن صحبـة بنـى آدم سم قـاتل ، وهـم بـاتل[6] ، فـإن دأبهـم المكـر والتلبيس والخـداع والتدليس ، وحسبك قـول شـاعرهم فـى كشـف ضمـائرهم وشرح حقيقة سرائرهم :

صُـــنْ مِـــنَ النـــاس جانِبـــاً كَـــىْ يظنـــوك راهِيــــاً
قَلِّـــب النـــاس كيـــف شِئْـــتَ تَجِـــدهُـــــم عقَـــاربــــــاً

---

(١) عداوة ، وبطش .
(٢) الأسل : الرماح وكل حديد رهيف من سيف وسكين .
(٣) أشهر منقاره للعض والقرم .
(٤) الأدنين : المفرد الدانى أى المقربين .
(٥) الصقر .
(٦) قاطع مهلك .

ولقد أرشد من أنشد :

بنو آدم إن رُمْتَ من خيرهم جَنَىً ... فأحلَى الذى تجنيه من وَصْلِهم صبْرُ
مكَارِمُهُم مكْر ورؤيتهم ريـــا ... وودهمو مؤذٍ وجَبْرَهُمُ كســـرُ

فإن كان فيهم صالح ؛ أفسدوه وإلى سبل الضلال أرشدوه ، والكلام في هذا المقام لا يبلغ التمام ، فيكتفى بالقليل عن الجليل ، وشمس النهار لا يحتاج في وجودها إلى دليل ، فانهض الآن فقد آن التوجه إلى خدمة السلطان ، فما كل زمان يحصل هذا الإمكان فإن الاجتماع به كل وقت مشكل فتوكل على الله بأحس متوكل ، فإذا دخلت عليه وتمثلت بين يديه ، فاعرف كيف تقف وانظر يا ذا الكمال ماذا يناسب الحال ، ويقتضيه المقام من فعل وكلام ، فاسلك طريقته وراع مخارجه وحقيقته ، وادخل معه من ذلك الباب ومثلك لا يدل على صواب ، فما أسرع اللطف ، وأقرب العنف من حركات الملوك والكبراء ، وأبعد الرفق وأشرد الخلق من ملكات السلاطين والخلفاء ، وأقصى مدانيهم إذا غضبوا وأوحش مؤانسهم إذا صخبوا ، وأقرب مباعدهم إذا عطفوا، وأعجب مَنَادِدْهُم[1] إذا لطفوا ، ويكفيك يا ذا العقل المتين ما قيل في شأن الملوك والسلاطين :

إنَّ المُلوك بَلاءٌ أينما حَلُّوا ... فلا يكُنْ لَك فى أكْنَافِهِم ظِلُّ
ماذا تُومِّلُ من قوم إذَا غضِبُوا ... جارُوا علَيْكَ وإن أرضيتهم ملّوا
وإن مَدَحْتَهُم ظَنُّوك تَخْدَعُهُم ... واسْتَثْقَلُوك كما يُسْتَثْقَلُ الكَلُّ
فاستَغْنِ بالله عن أبوابهم كَرَماً ... إنَّ الوقوفَ على أبوابهم ذُلُّ

وقال سيد الأنام طرا[2] «لا تجاور ملكا أو بحرا». فان رضوا رفعوك فوق الأفلاك وإن غضبوا والعياذ بالله فهو الهلاك وناهيك من تقلبات الملوك

(١) تنافرهم .
(٢) جميعاً .

يا ذا الإرشاد في السلوك ؛ أطفأ الله غضبهم عنك ، قضية صدرت من تيمور لنك ، فسأل فَحْلُ الحَجَل الوزير الأَجَلَّ بيان ذلك المثل ، الصادر من الأعرج الأشل :

[٨٢] **فقال الدستور** : مما حُكِيَ عن تيمور من وقائع الأمور ، وشدة عزمه وحزمه وثباته ، على ما يقصده وحزمه ، وحلول نقمته بمن يعارضه ويعاكسه فيما يرسم به ويناقضه ، أنه لما توجه بالجنود إلى بلاد الهنود وذلك في سنة ثمانمائة ، وصل بجيوشه الطاغية إلى قلعة شاهقة ، أقراط الدراري(١) بآذان مراميها عالقة ، والرجوم المارقة من النجوم الخارقة تتعلم الإصابة من رشاقة سهامها الراشقة ، كأن بُهرام(٢) في مهواه أحد سوا طيرها، وكيْوان(٣) في مسراه خادم نواطيرها(٤) ، والشمس في استوائها غرة جبينها ، وقطرات السحاب في الانسكاب تترشح من قعر معينها ، وشُقَّة الشفق الحمراء على آذان مرنميها ، وأنوف أبدانها سرادق(٥) ، وكريات النجوم في القبة الخضراء لعيون مكاحلها وأفواه مدافعها طابات(٦) وبنادق ، وكان الثريا في انتصابها قنديل معلق على بابها ، لا يحوم طائر الوهم عليها ، فأنَّى يصل طائش السهم إليها ، ولا يتعلق خدم خدمتها خلخال خيال وافتكار ؛ فضلا عن أن يحلق على معصم عصمتها من عساكر الأساورة سوار .

وفيها من الهنود طائفة ثابتة الجنان غير خائفة ، جهزت أهلها وما

---

(١) الدراري : السحاب الذي يدر الماء على الأرض ، والمعنى : أي أن قمتها أعلى من السحاب .

(٢) بهرام : إله يعبد لدى بعض طوائف الهنود وهم البراهمة .

(٣) أعظم شاعر في الصين القديمة

(٤) نواطير : مفردها ، ناطور : حافظ الكرم أو الزرع .

(٥) الدخان المرتفع المحيط بالشيء وهي كلمة فارسية .

(٦) الأسلحة .

تخاف عليه إلى الأماكن المعجزة ، وثبتت هى فى القلعة حافظة لها متحررة مع أنها شرذمة قليلة وطائفة ذليلة ، لا خير عندهم ولا مير[١] ولا فائدة سوى الضرر والضير ، ولا للقتال عليها سبيل ، ولا حواليها مبيت ولا مقيل ، بل هى مُطِلّة على المقاتلة مستمكنة على المقاتلة ، فأَبَى تيمور أن يجاوزها دون أن يجاورها بالحِصَار ويناجزها ، واللبيب العاقل لا يترك وراءه لخصمه معاقل ، فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد ، ويصب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد ، وكان كل يوم يقتل من عسكره مالا يحصى، والقلعة تزداد بذلك إباء واستعصا ، وهو يأبى الرحيل عنها إلا أن يصل إلى غرضه منها ، ففى بعض أيام المحاصرة مُطِرُوا ، وبواسطة المطر انحصروا، وصار يحثهم على القتال ، ثم ركب لينظر ماذا يصنعون فى تلك الحال ، فلم يرتض أفعالهم لما عكست أوحالهم أحوالهم ، فدعا رؤوس الأمراء وزعماء العساكر والكبراء ، وأخذ يمزق أديم عصمتهم بشِفَار[٢] شتمه، ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمه ، ونفخ الشيطان فى خيشومه وألهب فيه نار غضبه وشومه .

وقال : يالئام وأكلة الحرام ، تتقلبون فى نعمائى وتتوانونَ عن أعدائى ، جعل الله نعمتى عليكم وبالا ، وألبسكم بكفرانها خيبة ونكالا ، يا نابذى الذمم وكافِرِى النِّعَم وساقطى الهمم ومستوجبى النقم ، ألم تطؤا أعناق الملوك بأقدام إقدامى ، ألم تطيروا إلى الآفاق بأجنحة إحسانى وإكرامى ، ألم تفتحوا مغلقات الفتوح بحسام صولتى ، أما سَرَّحتُم فى منتزهات الأقاليم سوائم تحكمكم بترعية دولتى ، بى ملكتم مشارق الأرض ومغاربها ، وأذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها :

ألَمْ أَكُ نَاراً يَصْطَلِيهَا عَدُوُّكُم وحرزا لما ألجئتم من ورائيا
ويَبسِطُ خَيْرِى فِيكُم بِيَمِينِيَا وقَابِضُ شَرٍّ عَنْكُم بشِمَالِيَا

---

(١) العون والمساعدة .

(٢) الشفار : حد السيف ، أى قطعه بشتمه .

ولا زال يهمهم ويغمغم ويهذرم[١] ويبرطم ، وهم مطرقون لا يحيرون جوابا ، ولا يملكون منه خطابا ، ثم ازداد حنقا وكاد أن يموت خنقا ؛ فاخترط السيف بيده اليسرى وهمز به على قِمَم[٢] أولئك الأسرى ، وهم أن يجعل رقابهم قُرابه[٣] ، ويسقى من دمائهم نمل فرنده وذبابه[٤] ؛ وهم على تلك الحال فى الخزى و الإذلال باذلو أنفسهم ناكسو رؤسهم .

ثم تراجع وتماسك ، وملك نفسه قليلا أو تمالك ، فأغمد عن تشريقهم حسامه ، ولم يلق لأمره دبرة ولا قبلة أمامه ، فغلف غربه وشامه ، ثم نزل عن مركبه واستدعى على الشطرنج الكبير ليلعب به ، وكان عنده ممن فاق جنده شخص يدعى محمد قاوجين ، ذو مكان مكين ومقام أمين ؛ مقدمٍ على كل الوزراء مبجل دون سائر الأمراء ، وافر الطول ، مقبول القول ، مسعود الرأى ، ميمون الفصل مرغوب الفضل ، محبوب الشكل ، فيتشفع الوزراء إليه وتراموا فى حل هذا الإشكال عليه ، وقالوا : ساعدنا ولو بلفظة ، وراقبنا ولو بلحظة ، واعمل معنا بهذا المعنى وهو :

سَاعِدْ بجَاهِك مـن يَغْشَـاكَ مفتقِراً   فالجـودُ بالجَاه فَوْقَ الجُـودِ بالمال

فأجابهم والتزم أن يرده عما تأزم به وأزم[٥] ، وراقب مجال المقال وراعى فرص المجال .

وشرعت أفكار تيمور تغور فى أمر القلعة وتفور ، وجعل يستضوى أضواءهم ، ويستورى آراءهم ، ولا يسع كلا منهم إلا القبول لما يستصوبه

---

(١) يصخب .
(٢) همز به : أشار به . قمم الأسرى : رؤوسهم .
(٣) أى يذبحهم ويجعلهم قربان يقدمه إلى الله .
(٤) الفرند : السيف وذباب السيف أى سنّه . وهو أحد جزء فيه ، وغل السيف : أى الوشى والزينة على مقبضه .
(٥) أى أصابته شدة وضيق .

رأيه ويقول ، ففى بعض الأحايين اتفق أن قال محمد قاوجين ، وقد زل به القضاء وأحاطت به نوازل البلاء : أطال الله بقاء مولانا الأمير ، وفتح بمفاتيح آرائه وراياته حصن كل أمر عسير ، هب أنا فتحنا هذه القلعة ، بعد أن أصيب منا جانب من أهل النجدة والمنعة ، هل يفى هذا بِذَا ، أم هل يوازن هذا النفع بهذا الأذى ، فما احتفل بخطابه ولا اشتغل بجوابه ، بل استدعى شخصا من البرقدارية ، قبيح المنظر إلا أنه فى هيئة ذرية ، يدعى هراملك إذا عَرِقَ سَهَك[1] ، ووجه فى السواد سدك[2] ، أوسخ من فى المطبخ واسنخ[3] من المسلخ ، لعاب الكلب طهور عند عرقه ، وعصارة القير[4] حليب بالنسبة إلى مرقه ، فعندما حضر لديه ووقع نظره عليه، أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت ، وبخلقان[5] هراملك فخلعت ، ثم ألبس كلا ثياب صاحبه ، وشد وسطه بحياصته[6] ، ودعا دواو بن محمد ومباشريه ، وضابطى ناطقه وصامته وكاتبيه، ثم نظر ما له من ناطق وصامت ونام وجامد ، وملك وعقار ، وأهل وديار ، وحشم وخدم من عرب وعجم ، وأوقاف وأقطاع وبساتين وضياع ، وخول وأتباع وخيل وجمال ، وأحمال وأثقال ، حتى زوجاته وسراريه ، وعبيده وجواريه ؛ فأنعم بذلك كله على ذلك الوسخ، وأمسى نهار وجود محمد قاوجين الزنخ[7] ، وهو من ليل تلك النعمة منسلخ .

---

(١) أى له رائحة كريهة .

(٢) أى لزم وجهه السواد .

(٣) انتن .

(٤) القار والزفت .

(٥) الثياب البالية .

(٦) أى بسير يشد به وسطه ، وهو الحزام .

(٧) أى المتكبر الفاسد .

ثم قال تيمور وهو كالنمور يمور : اقسم بالله وآياته وذاته وصفاته ووحيه وكلماته وأرضه وسماواته ، وكل نبى ومعجزاته ، وولى وكراماته ، وبرأس نفسه وحياته ؛ لئن أَكَلَ محمد قاوجين أحدا ، أو شاربه ، أو ماشاه ، أو صاحبه ، أو كلمه ، أو صافاه ، أو أوى إليه ، أو آواه ، أو راجعنى فى أمره ، أو شفع عندى فيه أو فاه بعذره ، لأجعلنه مثله ولأصيرنه مثله ، ثم طرده وأخرجه ، وقد سلبه نعمته وأحرجه ، فسار مسلوب النعم قد حلت به فى لحظة نوائب النقم ، فسحبوه بالوَلَق[1] ، ورأى نعمته على أقل الخلق ، واتصل غيره بالحَلْق وقُطِع منه الحَلْق ، ففلقت حبة قلبه أشد فلق ، ولم يزل على ذلك فى عيش مر وعمر حالك ، وحاشا أن تشبه قضيته قصة كعب بن مالك[2] ، فكان يستحلى مرارة الموت ويستبطى إشارة الفوت ، وكل لحظة من هذا الحيف[3] ، أشد عليه من ألف ضربة بالسيف : فلما هلك تيمور أحياه ورد عليه خليل سلطان[4] ما كان سلبه جده إياه .

وإنما أوردت هذه السيرة يا زكى السريرة ؛ لتقيس على هذا المثال نظيره ، وتعرف أخلاق الملوك ومعاملاتهم الغنى والصعلوك ، وأن نظرهم نُضَار[5] ، وأعراضهم بوار ودمار ، ومن أراد أن يطلع على سر القضاء والقدر فليراقب شفتى الملك إذا نهى وأمر وقال من أحسن المقال :

قُـرْبُ الملوكِ يا أخـا القَـدْرِ السَّمِىّ حـظٌ جزيلٌ بين شـدقى ضَيْغَـمِ[6]

---

(١) بسرعة .

(٢) كعب بن مالك ؛ ابن أبى مالك ، عمرو بن القين بن كعب بن سلمة الأنصارى . شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه . وكان من أهل الصنعة وذهب بصره فى خلافة معاوية . وكان مما شهد العقبة . مات سنة (٥١هـ) . سير أعلام النبلاء (٢١٣) .

(٣) الظلم .

(٤) حفيد تيمور لنك .

(٥) قوى ، حاد .

(٦) الضيغم : الأسد .

واعلم يا أبا الفضائل أن هذا الملك له شمائل وصفات وفضائل ، يستدل بظاهرها على باطنها ، ويتوصل بظهور باديها على حركات كامنها ، فإياك أن تغفل عن مراقبتها وتهمل حال عاقبتها ، بل اجعل شواهدها نصب عينك ، لتقرب من حياتك وتبعد عن حَيْنِك[1] .

منها : إذا رأيته رجع من الاصطياد ظافرا منه بالمراد ، وقد اقتنصه وحصله وملأ منه الحوصلة ، وسكنت منه بواعث الشره ، التى هى منفخ لنواعج الطيش والسفه[2] .

ومنها : إذا رأيته جلس فى مجلس السرور ، وبسط لجبهة الكرم جناح النشاط والحبور ، وضم عن مطامح الحرص القوادم والخوافى ، وطلب من رؤساء المملكة الأنيس المصافى ، ومن ندماء الحضرة الجليس الصافى ، ومن مطربى الأطيار البلبل والهَزَار[3] ، ومن رقص بدفوف الأزهار ، وصفق من ذى عود وطار ، فاستمع لهذا وباسط ذاك ، وطفق جلساؤه ما بين منصت وحاكٍ ، فإن هذه الأوقات لما فيها من علامات هى الانبساط ، وأيام الفرح والنشاط ، فاعمل فيها ما بدا لك وأطنب مقالك ، وكرر جوابك وسؤالك، فإنك فى كعبة الأمن فاستلمها وقد هبت رياحك فاغتنمها ، والعب بإبطيك وصفق بجناحيك ، واهدر فى نقنقتك[4] ، واسجع فى بقبقتك[5] ؛ فإن الوقت لك لا عليك ، والسعد الطالع ناظر إليك .

ومنها : إذا رأيته جالسا صامتا ، أو إلى الأرض باهتا ، أو محمرة عيونه أو مضطربا سكونه ، أو أفعاله على غير استواء أو أقواله دائرة مع

---

(١) هلاكك .

(٢) ردىء الخلق .

(٣) طائر وهو العندليب .

(٤) صوت كصوت الضفدع .

(٥) أى كثرة الكلام .

الهواء ، فإياك والدخول عليه والمثول بين يديه ، فإنه إذ ذاك يجعل ديار جسدك بلاقع(١) ، ولو أنك النسر الطائر ، فتصير فى مخاليبه أتعس واقع .

وعلى كل حال : فليكن عندك لكل مقام من هذه المقامات مقال ، وإن كان السكوت أصلح ، فاغلق باب الكلام قطعا ولا تفتح ، فكثيرا ما تخلص الساكت من البلاء وأفلح ، وناهيك النصيح بقوله الفصيح وهو :

وراقبْ مقامَ القول فى كُلِّ مَجْلِس خصوصا مقاماتِ الملوكِ الأكابر
فَكَمْ مِنْ بَليغ فَوْقَ ذِرْوَة مِنْبَـر رَمَتْهُ أفاعى النطق تحت المقابر

قال المفلح النجدى للمرشدى المُجْدى : جزى الله مولانا عن صدقاته أوفر صلاته وواصله بموائد إكرامه فى عشيته وغداته ، فما أشمل إحسانه وحسناته ، وأسعد حركاته وسكناته ، وأوفر شفقته على قاصدى عتباته ، طالب أنت دليله كيف لا يفتح إلى الخير سبيله ، ويرجع إلى حصول المقام مبيته ومقيله . ثم إن اليؤيؤ الشفوق تركهم وطار إلى العيوق ثم رجع على الفور ووجهه يرف كالنور ، فدعا اليعقوب وتوجه وهو معه مصحوب ، وأخذا فى السير إلى خدمة ملك الطير وفَرَّعا فى جبل ، يسامى فى المثل قبة الفلك أو مركز الملك ، يستمد السحاب من ماء واديه ، وتسبح سماك السماء فى بحر ناديه ، يعرق جبين الوهم من صعود عقباته ، ويقصر ساعد الفكر فى سلم الهواء عن الترقى إلى أدنى درجاته ويستريح راقى الخيال فى عدة مواضع عند قصده فروع هضباته ، فهو كما قيل :

وطودٌ تلوحُ الشمسُ مِنْ تحت ذَيْلِه إذا هِىَ فى كَبِدِ السماء استقرَّتِ

فلا زالا يسيران وفى الجو يطيران اليؤيؤ أمام قائد الزمام ، والحجل وراءه ينشد هذا الكلام :

لكلِّ إمامٌ أسوةٌ يقتدى به وأنتَ لأهلِ المكْرُمَات إمَامُ

---

(١) الأرض القفر : والمقصود الخراب .

فوصلا من تلك المدارج إلى أعلى المعارج ، وانتقلا في تلك المسالك عن دركات المهالك ، وانتهيا إلى أوج رأيا ملكة النيران جارية في حضيضه[1] ، ودرر الدراري[2] راكدة في قعر مغيضه[3] ، يشتمل على مروج ورياض ومراع وغياض ، وبحار وحياض ، تنادي خيراتها سكان الربع المسكون انصبابها عليهم ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات :٢٢] رياض تلونت ، ومرج بأزاهيرها تحسنت ، وأرض قال لها صانع القدرة إذا تمكنت تكوني كأخلاق الكرام فتكونت ، وأخذت زخرفها من رضوان خازن الجنان وازينت ، فولجا دار سلطنة العُقاب بعد مقاساة عِقَاب العِقاب كما قيل :

مكاناً فيه سلطانُ الطيور تَصَدَّرَ بالسّرور على السَّرير
أطافَ به صُنُوف الطَّير طُرًّا عُكُوفا بالحضور وبالحُبُور
لكل في مباشَرَةٍ مقامٌ يقوم به جليلٌ أو حقيرُ

قد اكتنفته الميمنة والميسرة ، وأحدقت به المقدمة والمؤخرة ، كل واقف في مقامه شاهينه[4] مع كَركيه[5] ، وبازيه[6] مع حمامه ، فالأنيس صاحب الظرف والكيس حامل القبر كالأوزان[7] ، يترنم في مقابلة الإيوان ، ويمدح ملك الأطيار والأمراء والحضار ، والكبراء والنظار ، وينشدهم جليل الأوصاف ورقيق الأشعار ، فمما أنشده الأوزان من مناقب السلطان ، ووجه الخطاب إلى العقاب قوله :

---

(١) قعره .
(٢) السحاب الذي يدر الماء على الأرض .
(٣) مجتمع الماء .
(٤) صقر .
(٥) طائر كبير الحجم .
(٦) صقر .
(٧) طائر يعيش بالقرب من الماء .

مَقَامُكَ أَعْلَى أَنْ يَقُومَ بِوَصْفِهِ ... بَيَانٌ بَلِيغٌ أَوْ لِسَانٌ فَصِيحٌ
أَجَلَّتْكَ عَنْقَا مَغْرِبٍ فَاخْتَفَتْ فَمَا ... تَلُوحُ لِطَرْفٍ فِى البِلَادِ طَمُوحُ

والنسر الطائر المقدم على العساكر ، قد أظله بالجناح ، وليس عليه فى طلبه سيادة الطير جناح ، رافع اللواء صاف فى جو السماء ، رئيس الدير حامل القبة والطير ، كما قيل :

وَنَسْرُ تَفِرُّ الطَيرُ من قرب ظِلِّه ... وفى ظِلِّه للسعْدِ مَأْوَى ومَنْزِل

والسنقر(١) فى ثوبه الفهرى(٢) وخلقه ، وخلقه النمرى ، أميرسلاح الجوارح ، ورأس عساكر السوانح والبوارح كما قيل :

هو السُّنْقُر العالِى بهمَّتِهِ التى ... تَعَلَّتْ على أَيْدِى المُلُوكِ بِهَا يَدُه

والشاهين الدوادار عليه لمصاح المملكة المدار ، قد تصدى لقضاء الحوائج لكل داخل وخارج ، ينظر فى الولاية والعزل ، ويتعاطى الأمور بالجد لا بالهزل ، فيقضى المآرب ، ويوصل المطالب إلى الطالب كما قيل :

طَوِيلُ العُنُق رَحْبُ الصَّدْر ضَخْمُ ... لَه فِى آل قسطنطين ضَبْطُ(٣)
تَغَشَّى من سَوَادِ العَيْنِ ثَوْبًا ... عليه مِن دَم الأَحشَاءِ نُقَطُ

والكركى الراطن بالتركى ، يتجلى فى ثوبه المسكى(٤) كاتب الأسرار وصاحب الأخبار ، لسان المملكة ومحور الفلكة ، مستخدم السيف والقلم ، وفى الفضائل والفواضل نار على علم ، كما قيل :

وكَرْكِى يحيدُ الصقرُ عنه ... لِهَيبة بطشهِ وشديدِ بأْسِه

---

(١) طائر من الجوارح أعظم من الصقر .
(٢) الكثيف الريش .
(٣) آل قسطنطين : الروم البيزنطيين .
(٤) أى ثوبه الأسود . نسبة إلى المسك الأسود .

والتَّمُّ[1] ، المشهور ناظرِ الجيش المنصور ، صدر الديوان وقاضى الجند والأعوان ، كما قيل :

وتـمٌّ تـم دسـت الطـيرُ منـــه ... كقــاضٍ زان أربــابَ الكِتَــابِ
عليـــه من المَهابـــة ثـوبُ مجـدٍ ... كوجْـه الطائِعِيـنَ لـدى الحسـابِ

والطاوس كأزهى عروس ، فى أفخر ملبوس ، مقدم على الخواص كالناظر الخاص، ناشر مروحة الارتياح يتجلى بجمال هيئه الفائق على الوجوه الملاح ، كما قيل :

ثَوبُـــه قـــد حَـــارَ فيـــه ... كـــل صبَّـــاغ عليـــم
ولســـانُ الحُسْـــن نَـــادَى ... صِبْغَـــةُ اللـــه الحكيـــم
فَيَـــرُوقُ العيـــنُ مِنْـــه ... فـــوقَ أوصـــافِ الكَليـــم

والبازِىُّ الأمير الكبير صاحب الرأى والتدبير ، أمير الميمنة قد رتب صفه وزينه ، كما قيل :

وبـــازٌ أشْهَـــبٌ عينـــاه حمـــرٌ ... يضـــىءُ وفى جنَاحيْـــه النَّجَاحُ[2]

والصقر الشهم السابق فى الطيران الوهم ، أمير الميسرة قد فاق بشهامته عسكره ، كما قيل :

وصقـرٌ إنْ يَلُـح فـى القفـز ظَبْـىٌ ... أُتيـحَ لــه مـن الجـوِّ انصبابــاً
أقام بمخلـب عـن شَهْـم سـهم ... ونَسْـــر عـــن قَـــوَىَ النَّابِ نَابَـا

والباشق الجاووش[3] ، ورأس نوبة العساكر والجيوش ، كما قيل :

نَظَــرَ إلــى البَاشِيــقُ فى صيَــدِه ... يَنْقَــضُّ كالسهــم مَــن الرَّاشِيــق
يقْفُـــو حَمَامـــاً مِثْــل معشوقَـــةٍ ... اتْبِعهـــا الحـــب حَثّـــا العاشِيـــق

(1) طائر مائى شبيه بالأوز أطول منه عنقاً .

(2) الباز : الصقر .

(3) طائر من أصغر الجوارح .

والببغاء تتجلى فى الحلة الخضراء ، وتنثر من الخاتم الياقوت[1] درر الثناء ، وتخبر بعجائب الهند ، وتسرد غرائب رغائب السند كما قيل :

تَسَمَّتْ دُرَّة لَكِن كَسَاهَا حكيمُ الصُّنْع ثوبا من زَبَرْجَدِ[2]
وَمَنَّ لَهَا بمنقار عقيق وخَاطَ شِعَارَهَا مِنْ عَيْنِ عَسْجَدِ[3]

والهدهد لابس التاج ينهى إلى موقع الدُّرَّاج[4] ، أخبار المارة والأحوال السارة ، كما قيل :

وهدهد أُلبِسَ ثوبُ البَهَا فعمَّ إذ خَصَّ بصدقْ النَّبَا
أغْرَبَ إذ شَرَقَ فى حُسْنِهِ ففاقَ أَهْلَ التاج حتى سَبَا

والحمام مقدم البريدية ، يتردد فى مواقف العبودية ، والعصافير كالمماليك الأجلاب فى الكتاب يدرسون العلم والآداب ، والبلبل والهزار ، ومطوقات الأطيار وساجعات الأسحار ، مسبحات الواحد القهار ، يتناشدون الأشعار ، ويرددون نغمات الأوتار ، ومطربات رنات الأوطار ، وضروب ضروب الموسيقاه من حنك المنقار ، والشحرور والزرزور[5] ، وذوات الهديل من الطيور ، حتى جناح الزنبور[6] تغرد فتخجل العود والطنبور[7] ، وزواجر الطير تبشر بالفرح والخير ، وأنواع الجوارح فى الحافات ، والطير فى الجو صافات ، كل يفدى الملك ، ويقدم جسده وروحه ؛ ويسبح من آتاه الملك ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] .

---

(١) الياقوت : من الأحجار الكريمة .

(٢) الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد أشهره الأخضر وهى كلمة فارسية .

(٣) العسجد : الذهب والجوهر .

(٤) طائر يشبه بالحجل . قصير المنقار .

(٥) العصفور الصغير .

(٦) حشرة طائرة تشبه النحلة .

(٧) كلمة فارسية وهى آلة طرب لها أوتار من نحاس .

فتقدم اليؤيؤ إلى الحضرة والملك فى أبهى نضرة ، وقبل مواطئ سلطانه ، ووقف من مقام خدمته فى مكانه ، وقال : شخص عارف بطرائق السلوك ، يليق لخدمة الملوك ، واقف بالباب يروم تقبيل الأعتاب ، يطلب لذلك الدستور والإنعام بإذن الحضور ، وليشمله النظر الشريف ويحظى بحظ وريق وريف ، هل يرجع كالمصروف عن خدمته أو يدخل كالدولة والإقبال ، فعطف بالقبول وأذن له بالدخول ، وسمح بالمثول ، فتوجه اليؤيؤ على عجل إلى الحجل ، فدخل وهو من الحياء متأثر ، وفى ذيل الدهشة والهيبة متعثر ، وعليه غلالة سابورية[١] ، وخلعة نيسابورية[٢] مشتملا بشملة كافورية[٣] ، كأنه شيخ الصوفية ، فلما وقع نظره على العقاب قوى جأشه ورفع الحجاب ، وحل عقدة لسانه من لكنة الخطاب ، ثم قبل الأرض ووقف ، وأنشد بديها وما وقف :

ولو أنَّ نَقْفُورا وكِسْرَى وتُبَّعا ... رَأَوكَ لخرُّوا بين أيديكَ سُجَّداً[٤]
وما أنْ وَفَّوا حقًّا عليهم وإنما ... على قَدْرِ ما فى الوُسْعِ مَدَّ الفَتَى يَداً

فابتدر اليؤيؤ بلفظ يخجل اللؤلؤ للحجل ، يريد إزالة الدهشة والخجل ، وطيب المقام ببسط الكلام: أيها الغريب الأريب الأديب النجيب ، رأيناك روحا ملخصا وعقلا مشخصا ، صحبتك مرغوبة ومنادمتك مطلوبة ، لقد حللت محل الأمن والأمانى ، وعقدة السعد والتهانى ، فدع دهشتك وذر

---

(١) رداء جميل .
(٢) رداء فضفاض كان ينسج فى مدينة نيسابور وهى مدينة إيرانية كانت عاصمة خراسان فى القديم .
(٣) غطاء للرأس يفوح منه رائحة الكافور .
(٤) نقفور : أحد الملوك العظماء من تبع ، وهى : دولة قديمة نشأت فى اليمن بعد الدولة الحميرية حكمها عظماء الملوك . وكان يلقب كل واحد منهم تبع ، وآخرهم ذو نواس صاحب بخران .

وحشتك ، وأفصح بكلامك عن كمالك ، وعن مقامك بمقالك ، فعباراتك عقيلة العقل وواسطة عقود النقل ، فإن كان عندك نصيحة تصلح للملوك ، أو وصية ترشد أهل السلوك ، يبين العدل بنورها طرائقه ، ويزين العقل بمجازها حقائقه، وتستقيم بها الأمور ويستفيد منها الجمهور ، أو نوع رفع مظلمة أو حط مأثمة ، أو كشف بلوى ، أو بث شكوى ، أو حاجة فى نفسك وما قاسيته فى يومك وأمسك ، أو لطيفة تشرح بها الصدور وتبسط بإيرادها الحضور ، فهذا وقت تشنيف المسامع بجواهرها ، ونثر دررها على بادى الحاضرين وحاضرها ، فإن المحل قابل ، وعنك الإصغاء إلى أطواق لطائفك مائل ، ومجال الحلم لذاك واسع ، وسجال الكرم داسع[(١)] ، وفاعل الصنيعة صانع ، وكف اللطف معط لا مانع .

فقال الحجل ، بعد أن زال الخجل وحال الوجل وجال الزجل ، من غير ريث ولا عجل: الحمد لله الذى آسى جراحنا ، وأحيا بعد التلف أرواحنا ، قد كنا فى بيداء الحيرة والهلاك ، وظلماء الضر والخوف فى انهماك ، ومرت علينا سنون ونحن فى الخسار والغبون ، ونار الاشتياق تضطرم وبواعث تقبيل الاعتاب الشريفة السلطانية فى الفؤاد تزدحم ، إذ قد انتشر جناح عدلها ونجاح ظلها ، وسماح وابلها وطلها ، وكرر كل لسان محامد فضلها ، واشتهر لكل حيوان مآثر نبلها فهى أمان كل مخوف ، وملجأ كل ملهوف ، لكن كانت العوادى تفرع تلك الدواعى ، وغواشى الحوادث تعترض دون المساعى ؛ تارة باكتناف المخاوف ، وطورا باحتفاف الخواطف ، وحينا بضعف المبانى ، وآونة بعدم المعاون والمعانى ، والآن يا ملك الزمان بحمد الله المنان ، أزحنا المهالك والمهاوى ، واسترحنا من ضرب المسالك والمساوى ، إذ قد طرنا بجناح النجاح ، من جنح الجناح ، وصرنا إلى محل السماح والرباح ، فزالت

(١) مملوء .

العلل وانسد الخلل ، وحللنا فى عقْوَة منيفة[1] وسَدَّة شريفة[2] ، فأمنا شرك المكايد وشرر المصايد ، وتوسدنا مهاد الدعه ، واستظللنا جناح الأمن والسعة، وأنه قد قيل : عدل السلطان خير من خصب الزمان ، وقيل : الملك العادل والإمام الفاضل ، كالأب الشفيق والوالد الرفيق ، يعامل بالسوية ويحفظ الرعية ، ويحرسها من برد الماء وحر النار ، كما يحرس الوالد الولد من هبوب الهواء وشم الغبار ، وقلت :

نَزَلْنَا فى ذُرَى ملكٍ كريم ... يَرَانا مثلَ أولاَدِ الكِرَام
أضَلَّ نوائِبَ الأيام عنًّا ... فَلَمْ تَرَنَا ولا فى الاحتِلاَم
ولاَ مَطَرُ السَّمَاء يصيبُ مِنَّا ... كَأنَّ مُقَامُنَا فَوقَ الغَمَام

فقال الملك : أهلا وسهلا ، وناقة ورحلا ، طب قلبا ونفسا ، واهنأ معنى وحسا ، لقد حللت بساحة الاستراحة ، وباحة[3] للأمن مباحة ، وقاحة[4] ليس لصائد بها وقاحة ، ولا لجارحة جارح بها جراحة ، وقد حصلت من جواسر الكواسر ، ومناسر النواسر ، ونزلت بوادى الخير ، ونادى ملك الطير ، فأكرمت صدر منزلك ، ونلت غاية أملك ، فاذهب بسلام ، وات بمالك من خادم وغلام ، وأهل وثقل ، وفرس وجمل ، وأثاث وقماش ، ومعاش ورياش، وتخير مكانا تختار وجار أحسن الجوار ، فقال : أيها الملك السعيد أنا شخص فريد فقير غريب فقير ، لا إبريق لى ولا حصير وقلت :

أنَا لَولاَ الحَيَا وخَوفُ العَار ... لم أكن فى الأنَام إلاَّ عَارى
مَنْ رَآنى فَقَدْ رآنى وَبَيْتِى ... ودِثَارى ومَرْكِبى وشعَارى

---

(١) الساحة حول الدار . ومنيفة : أى منيعة حصينة .
(٢) أى باب الدار .
(٣) ساحة .
(٤) صلبة ومنيعة .

غير أن لى قرينة مثلى فقيرة مسكينة ، صابرة على السراء والضراء ، قضينا معا ماضى الصباح والمساء ، لم يترك عقيل الحوادث لنا دارا ، ولايدُ العوابث عقالا ولا عقارا ، ولا مخلب العوائث جارا ولا جوارا ، ولاناب الكوارث ولدا ولا قرارا ، والويل كل الويل لمن كان مستقره فى طوارق الليل، ومن حوادث الدهر على طريق السيل ، وقد طال الكلام فى كيت وكيت وقضايا ذيت وذيت ، إلى أن لم يبق فى البيت سوى البيت ، ولما بلغ سيلُ العَرِمِ الزبى ، وحزام الهم الطُّبَى[1] ، وما حال من يرى أفلاذ كبده تتقطع ويشاهد كل وقت قرة عينه بمخاليب الجوارح تتبضع ، ولا يد للمدافعة تمتد ، ولا نهضة للممانعة تشتد فينشد :

كَفَى حَزَنَا أَنِّى أَرَى مَنْ أُحِبُّـه   رَهِينُ الرَّدَى يَرْنُو إِلَىَّ بطَرْفِـهِ
أَوَدُّ بِمَا لى لَو يُفْـدى ومُهْجَتِى   ولَكِنْ يَدُ التَّقْدِيرُ غَالَتْ بحَتْفِـهِ

ولما تكرر ضر أيوب[2] ، وتضاعف حزن يعقوب[3] ، تركنا تلك الديار بالاضطرار ، وعلى أبوابك الشريفة وقع الاختيار ؛ فرصدنا للتحويل أيمن الساعات ، واخترنا للرحيل أحسن الأوقات ، ثم صممنا العزيمة ونادانا هاتف السعد : أسرعا نديمى جذيمة فقطعنا المهامة والقفار ، وسرينا الليل والنهار ؛ فكم رغنا عن أبى الحصين ؟ ولقينا ما لاقى الحسين بكربلاء[4] من الكرب والبلاء ، وكم لجأنا من بنى زغار إلى كهف وأجم[5] وغار ،

---

(١) أى اشتد الأمر وتفاقم .

(٢) المقصود سيدنا أيوب عليه السلام .

(٣) المقصود سيدنا يعقوب عليه السلام .

(٤) الحسين بن على بن أبى طالب من عبد المطلب ، أبو عبد الله سبط رسول الله ﷺ وريحانته . الإمام الشريف الكامل . ومناقبه وفضائله رضى الله عنه كثيرة جداً . واستشهد يوم عاشوراء فى كربلاء من العراق سنة (٦١هـ) سير أعلام النبلاء (٢٨٢) الإصابة (١٧١٤) .

(٥) حصن .

واحترزنا من قنافذ وأفعوان ذى سم نافذ ، ونفرنا من حيات أشراك وحدنا عن أوهاك شباك(١) ، واخترنا الجوع وعدم الهجوع على الحَب المبذور لاصطياد الطيور ، كل ذلك فى المسالك والسعد قائدنا والفلاح رائدنا ، واليمن دليلنا وظلال أمنك ظليلنا ، وفى تهانى سعدك مبيتنا وكنف فضلك مقيلنا ، حتى حللنا بدار الأمان ، ونزلنا بحرم مولانا السلطان ، فنادانا فضل خالق الورى ﴿لاتَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦] ألقيا عصا التسيار وانزلا عند خير جار ، فتركت القرينة فى منزلة حصينة ، وكل بلادك أمينة ، وأممت مقامك الشريف ، وجنابك المنيف ، مقاما عظيما ، وجنابا كريما ، ومجلسا عاليا ، وبابا ساميا ، فتوخيت ثم نوديت :

هَذَا هُوَ المَلِكُ الَّذى مِنْ بَابِه ... يُعْطَى المَخُوفُ أَمَانَهُ لِزَمَانِهِ
عَمَّ الوَرَى إِحْسَانَهُ فَكَأَنَّمَا ... أَرْزَاقُهُم كُتِبَتْ عَلَى إِحْسَانِهِ

ثم نهض اليعقوب من مكانه وقبل الأرض بين يدى سلطانه ، وتوجه فائزاً بأمنيته ، حتى وصل إلى حليلته فأخبرها بما جرى بتخيير المشترى ، وكيف رأى اليؤيؤ والملك ، وصورة ما فعل به وسلك ، وكيف تلقى مقدمه ، وأكرمه الملك بما أكرمه ، وقرر كيف كان خطابه ، وعلى أى صورة حسناء رد جوابه ، فسر صدرها وانشرح وطارت بهذا الأمر من الفرح .

ثم توجها إلى حضرة السلطان وحصل لهما من الإنعام والإحسان ما نسيا به الأوطان ، وسلكا بنفس مطمئنة فى خدمة الملك مع الجماعة وأهل السنة ، وخوطب اليعقوب من الملك ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ [البقرة :٣٥]

فلما استقرت بهما الدار ، وتبدل انكسارهما بالانجبار ، أفيض عليهما من الصدقات ، والإدرارات والنفقات ، ما لم يخطر ببالهما ، ولا دار على خيالهما ، وحصل لهما الأمن والأمان والسلامة والاطمئنان ، وانشرحت

---

(١) شراك الصيد .

خواطرهما وابتهجت بالسكون سرائرهما واستمر النجدى ملازم الخدمة ، وتوفرت عند الملك واتباعه له الحرمة ، وسمعت كلمته وتزايدت حشمته ولم يزل صبيح الطلعة ، نجيح السعى والنُّجْعَة[(١)] ، وضىء المنظر مقضى الوطر[(٢)] ، يرتع على بساط النشاط ، ويطير فى رياض الأمن والانبساط ، مؤديا شرائط الخدمة على الوجه الأحسن ، قائما بمواجب العبودية مهما أمكن، إلى أن تميز على سائر الخدم وتقدم على السابقين فى الخدمة وثبات القدم ، ناشرا ألوية النصيحة ، ناثرا الأثنية الصريحة ، منادما باللطائف الصحيحة والنوادر المليحة ، بالعبارات الفصيحة والإشارات الرجيحة ، حافظا زمام الاحتشام مراعيا مقامات الكلام ، على مر الأيام وكر الشهور والأعوام .

ثم ختم الكلام فى هذا المقام بأعظم ختام ، وهوحمد الله الملك العلام وشكره المستدعى لمزيد الإنعام ، والصلاة والسلام على سيد الأنام ، وآله وأصحابه السادة الكرام ، عليه وعليهم أفضل التحية والسلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) طلب الكلأ فى مواضعه .

(٢) الحاجة والبغية .

الباب العاشر

فى معاملة الأحباب والخادم والأعداء والأصحاب
وبه تمت أبواب الكتاب

قال الشيخ أبو المحاسن الراوى من الأدب الأحاسن : فلما أبان الحكيم عن هذا الفضل الجسيم وكشف نقاب البيان عن مخدرات هذا التبيان ، فتلألأ من وراء سجيف ألفاظه وجوه معانيه الحسان ، عظم فى أعين الأعاظم ، وكبر لدى الأعراب والأعاجم ، ورفعه أخوه وعظمه ذووه ، فأضاء مناره وعلا مقداره ، وملأ الآفاق أنواره ، ووقع من الملك على الاعتماد عليه اختياره ثم استزاده من فيض هذا العيوب واستسقاه من خوض هذا الشؤبوب[1] ، واستطعمه من أخبار العقاب واليعقوب إن كان ثَمَّ بقية ، تجلو القلوب الصدية ، فامتثل الإشارة وحسن العبارة .

[٨٣] **وقال :** ثم أن أبا الحجاج دعا القبيح أبا الدجاج ، واختلى به دون أصحابه وقال له : أعلم يا جليس الخير وأنيس الطير ورئيس الدير ، أنى تحملت من اليؤيؤ المنة العظيمة والجميلة الجسيمة ، حيث أرشدك إلى بابى ، ونظمك فى سلك أصحابى ، ولا جرم أنه قام بما يجب عليه ، وعرف مقدار إحسانى وميلى إليه ، وأنه لأوثق أعوانى وأصدق خلانى ، وصاحب قديم ومخلص عديم النظير نديم ، وصديق كافى وناصح مصافى ، وإنى لأتيمن بطلعته وأتبرك بمشاهدته ، واستنجح بآرائه ، واستصبح فى المهمات المظلمة بلامع ضيائه ، ولقد حصل منك على عضد معاضد وساعد مساعد ، وكهف وذخر وسند وظهر ، فإياك أن تترك ذيل مودته أو ترغب عن صحبته ومحبته ، وإن تقتصر يا ذا الوقوف فى صداقته على الوقوف ، فأفضل المحبة وأكمل المودة ما تزايد على مر الدهور ، وترادف على كَرِّ العصور ، وثبت أصله وغزرت فروعه ، وفاض من سويداء القلب على مجارى الجوارح نبوعه ؛ بحيث يقع الاتحاد ، ويمتزج بالصفاء الوداد ، فقد قيل : لا تصبح المحبة بين اثنين حتى يصيرا كالعينين حيثما نظرت إحداهما شزرا مالت معها

---

(١) المياه المتجمعة من شدة إندفاع المطر .

تابعة الأخرى ، بل يصيرا كالنفس الواحدة لا كل واحدة على حدة ولا كما تقول الملاحدة ، بل يكمل لكل واحد بالآخر الهنا ، ويحصل له بوجوده السنا ، وإذا خاطبه قال : يا أنا ولا تعمل يا أكمل كما قيل :

مـلأتَ حُشَاشَتى شَـوقًـا وحُبًّـا   فَـإنْ تَـرُمَ الزيـادة هـاتِ قَلبـا

فإن الفتاح عنده الفتوح ، وباب الفضل والزيادة مفتوح ، وكرم اللـه لا يضاهى ، وفضلـه كعلمـه لا يتنـاهى وانظـر يـا فضيـل ، وذا العلـم العريـض الطويل إلى ما قيل وهو :

أيهـا السـائِلُ عَـنْ قصَّتِنَـا   أنـا مَـنْ أهْـوى ومَـنْ أهْـوَى أنـا

نَحـنُ روحـان حللْنَـا بدنَـا   مـن رآنـا لَـمْ يُفَـرِّقْ بَيْنَنَـا

نَحْنُ مُـذْ كُنَّـا علـى عَهْـدِ الهَـوَى   تُضْـرَبُ الأمْثَـالُ للنـاس بنَـا

فـإذا أبْصَـرتَهُ أبْصَرتَنِـى   وإذَا أبْصَـرتَنِى أبْصَرتَنَـا

وألطف من هذا وأرصن ما قاله القائل وأحسن وهو :

أنَـا والمَحْبُـوبُ كنـا فـى القِـدَم   نقطـةُ واحـدةُ مـن غـيرَ مَيْـن

فَبَرَأنَـا اللـه إذَا أظْهَرَنَـا   مهجـة واحـدة فـى بَدَنَيْـن

فـإذا مَـا الجِسْـمُ أمْسَى فانِيَـا   تلْتَقِينَـا وَاحِـداً مِنْ غَيْـرِ بَيْنِ

ولقد ذكرك عندى بأنواع الفضل وبوفور التجارب والعقل ، وهذا يدل على نصحه وقوة دينه ، وصدقه فـى المحبـة وحسـن يقينـه ، ولـم يذكـر غير الواقع ولا جازف فيما أنهاه إلى المسامع ، بل قال قليلا من كثير وقطرة من غدير ، ولم يخبر بذلك غير خبير فإنى أعرفك كما عرف ، ووقفت على فضائلك كما وقف ، ثم أنت عندى فوق ما وصف فأريد منك نصائح بالخير لوائح ، تتضمن فوائد وعوائد وفرائد ، تكون لنهَمِ الحكمة موائد ، ولشهم الحكام قوائد ، ولنحور ألباب المعقول وأرباب المنقول قلائد ، ولضبـط أساس الملك والدين قواعد وعقائد .

فتلقى مثاله بالامتثال ، وقبل الأرض فى مقام العبودية ، وقال : لتحط العلوم الشريفة والآراء العالية المنيفة ، أن صانع العالم تعالى وتعاظم ؛ بنى أمور المبدا والمعاد ، وما بينهما من معاش مستفاد على دليلين عظيمين جليلين .

أحدهما : العقل ؛ الذى هو مناط التكليف .

وثانيهما : قواعد الشرع الشريف ، فإن أردت أن تكون سعيد الدارين فاستمسك بأذيال هذين الدليلين ؛ أما العقل فهو الدليل القاطع على وجود الصانع ، وهو مستقل بالقطع غير محتاج إلى السمع ، وكما هو مستقل بالدلالة على وجود ذاته ؛ كذلك هو مستقل بالدلالة على تحقيق صفاته ، ثم ورد بذلك الشرع فتأكدت فى وجود الصانع دلالة العقل بالسمع .

وأما وحدانية الصانع فكل من العقل والنقل دليل عليها قاطع ، وقد تظافرا بالاستباق إليه وتظاهرا فى الدلالة عليه بقول الكافر يوم المصير ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] .

وبالعقل والسمع يستقيم أمر المبدأ والمعاش ، وبالسمع فقط ميت المعاد عاش ؛ لأن أمور المعاد من الشرع تستفاد ، والعقل فى ذلك تابع سامع لأوامر الشرع طائع ، والمسموع فى ذلك دليل قاطع .

وعلى كل تقدير أيها الملك الكبير فاجعل العقل وزيراً ، تجده لك فى ظلمات المشكلات سراجا منيرا واتخذ النقل هاديا ونصيرا ، يكن بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وعامل الرعية بالعدل يعاملك الله بالفضل . واعلم أن الدنيا فى معرض الزوال وأنه لابد عنها من الانتقال ، وأن الله سبحانه وتعالى وجل سلطانه جلالا ، اقتضت حكمته وجرت بين عباده سنته ، أن يكون الإنسان على خلاف ما فطره الرحمن ، فإنه خلقه

للعبادة وركّب فيه عناده ، وأقامه للعمل وجبله على الكسل ، فأمره بالصلاة وهو كسلان ، وبالصوم وهو شهوان ، وبالزكاة وحبب إليه المال ، وبالحج وكره إليه الانتقال ، وبالرضا وركز فيه الغضب ، وبالتسليم والصبر وخمره[1] بالضجر والصخب ، وبالتواضع ووضع فيه التيه ، وبالتخلق بأخلاق خالقه وفيه ما فيه ، وحكم عليه بالموت وقد تحقق أنه ليس له منه فوت ، وهو يكره عن الدنيا التحويل ، وأقل أقسامه أنه يحب العمر الطويل .

وعلى هذا قد تعود أن يفعل فى المكان المتزود أفعال المقيم المؤيد ، والدائم المخلد ، وبنى بناء من لا ينتقل ، وعن قليل يتركه ويرتحل ؛ لا سيما من تعلق بالدنيا قلبه ، وتشبث بالمال والولد والجاه والتحكم حبه ، وقد أخبر العزيز الوهاب فى أصدق كتاب وأوثق خطاب ، فقال :﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [آل عمران:١٤] .

فالنفس مائلة إلى الإقامة وراغبة فى دوام السلامة ، تحب طول العمر فى الزمان ، وإن أحوجت الثمانون السمعَ إلى ترجمان ، وقد قيل :

وأحسَنُ ما كانَ الفَتَى فى زَمَانِه ... مَعَ السَّعْدِ والجَاهِ العظيم مُعَمَّراً

وأشهى ما سمع الحاكم وألذ ما تلقاه من قول الناظم قوله :

فلا زلتَ بينَ الوَرَى حاكِماً ... بجاهٍ عريضٍ وعمرٍ طويلِ

ولقد بلغنى يا ملك الزمان أن الملك العادل أنوشروان ، كان بنى أساس ملكه على العدل ، وعامل رعيته بالإحسان والفضل ، ويكفيه من الفضائل وحسن الشمائل ، قول سيد الأواخر والأوائل : «ولدت فى زمن الملك

(١) أى خالطه .

العادل»[1] وقال الرحمن فى محكم القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠] .

وقد قيل فى الأقاويل : لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل ، فلا ملك إلا بالعدل .

ومن أقوى الصفات العدلية عمارة بلاد الرعية ، وبذل الجهد فى العمارة ليكثر الربح وتقل الخسارة ، فإذا عمرت البلاد وترمم الطريف والتلاد، حصلت الأموال ، وكثرت الرجال ، وانتظمت الأحوال .

[٨٤] **فقد بلغنى يا ملك الزمان** ؛ أن الملك أنوشروان كان مارا فى سيرانه بين جنده وأعوانه ، فرأى شيخا كأنه قوس قطان نثر على رأسه قزع أقطان[2] ، وهو فى بعض البساتين يغرس نصب تين ، فتعجب من انحناء قامته وبياض هامته ، مع شدة حرصه وتعبه ، على نصب غرسه ونصبه ، فقال له : يا ذا التجارب ومن هو من شرك الفناء هارب ، إلامَ ترتع فى ميادين الأمل وقد تطوقت بأوهاق الأجل[3] ، تبنى وأركان جسدك واهية ، وتغرس وقوائم بدنك كأعجاز نخل خاوية ، وربيع شبابك قد استولى عليه خريف الهرم ، وصيف وجودك قد أدركه شتاء العدم ، ومحت نسيم طراوتك

---

(١) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٢/٣٤٠) وفيه : ذكره الصنعانى بالتنكير ، وقال : إنه موضوع ، وقال فى المقاصد : لا أصل له . وقال الحليمى فى الشعب : لا يصح هذا الحديث ، وإن صح ؛ فاطلاق العادل عليه لتعريفه بالاسم الذى يدعى به لا يوصفه بالعدل والشهادة له بذلك ، أو وصفه بذلك بناءً على اعتقاد المعتقدين فيه أنه كان عدلا كما قال تعالى ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ الآية . أى ما كان عندهم آلهة . ولا يسمى رسول الله ﷺ من يحكم بغير حكم الله عادلاً . والله أعلم .

(٢) قزع أقطان: قطع قطن صغيرة منثورة ، أى أن شعره صار أبيض كالقطن لكبر سنه.

(٣) أوهاق : مفردها وهق : وهو الحبل تنقاد به الدابة ، أى قيود الأجل .

عواصف الذبول ، ومسحت قوى عبالتك[1] بقواصف النحول ، وقد آن أن تغرس للآخرة ، فإنك قد صرت عظاما ناخرة .

فقال : يا ملك الزمان وعادل الأوان ، قد تسلمناها عامرة فلا نسلمها غامرة ، قد غرسوا وأكلنا ونغرس ويأكلون ، وفى الحقيقة كلنا زارعون وغارسون :

لَقَدْ غَرَسُوا حتَّى أَكَلْنَا وإنَّنَا لَنَغْرِسُ حتى يأكلُ الناسُ بَعْدَنَا

وأبعد فلاَّح عن الرشد والفَلاَح ، من يتسلم المعمور ويتركه وهو بور .

فأعجب أنوشروان وفور وعقل الشيخ الفان ، وحسنَ خطابه وسرعة جوابه ، فقال : زه ؛ يعنى أحسنت ، وهى كلمة تحسين ، ولفظة إعجاب وتزيين ، وكانت علامة للإحسان إذا تلفظ بها السلطان ، يعطى المقول فى حقه أربعة آلاف درهم لرفقه ، فأعطوا الشيخ الهم[2] ، أربعة آلاف درهم .

فقال : أيها السلطان إن الغراس يثمر بعد زمان ، وإن غراسى لحسن طاعته أثمر من ساعته ، فقال : زه ، فأعطوه أربعة آلاف أخرى ، ورفعوا منزلته قدرا .

فقال : وأعجب من هاتين القضيتين أن الغراس يثمر مرة وأنا غراسى يثمر مرتين ، فقال : زه ، فأعطوه القدر المعلوم ، وزادوه فى التكريم والتعظيم والتفخيم .

وقال له أنوشروان : إن أمهلك الزمان حتى تأتينى بباكورة هذا البستان فأنا أقطعك خراجه وأقضى مالك من حاجة ، فامهله الدهر وطال به العمر ، وأدرك ما نصبه ولم يخيب الله تعبه ، فحمل إلى الملك الباكورة ووفى له الملك نذوره .

---

(١) العبالة : ضخامة اللحم واكتنازه .

(٢) العليل .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ ليعلم مولانا الملك الأجل أن الدنيا وإن كانت ظلا زائلا وحائطا مائلا ، فهى مزرعة للآخرة وإن الآخرة هى الدار الفاخرة، وأن الله تعالى وجل جلالا ، ولاك هذه المزرعة ، وعلق بالأوامر العلية ما بها من مضرة ومنفعة ، وحكمك فى البلاد وملكك رقاب العباد ، فإياك أن تغفل عن عمارتها بالزراعة ، أو تسلم زمام تدبيرها إلى يد الإضاعة ، فإنك منقول منها ومسئول عنها ، وإن مصالح عساكرك بها منوطة ، وأحوال ملكك بالعساكر مربوطة ، فكلما تعمرت الضياع والقرى ، ترفهت الأجناد والأمرا ، واستراحت الرعية واستمرت مناظم الملك مرعية ، وتوفرت الخزائن واطمأن الظاعن والساكن ، وقلت المظالم وكفت أكف الظالم ، وملاك هذا كله العدل والاستوا ، ومجانبة الأغراض الفاسدة والهوى ، وهذا الذى يقتضيه مقامك ويتم به مرامك ، فإن الملك إنما هو ملك بالأجناد فلا بد له من عمارة البلاد ، والنظر فى مصالح العباد ، لينتظم بنظره مصالح العالمين ، ويستقيم أمر العالم إلى الحين الذى قدره أحكم الحاكمين ، فإن سنة الله جرت على هذا السنن ، وما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن : ولهذا قال سيد سكان الخيف[(١)] : «أنا نبى السيف»[(٢)] . والجهاد فرض عين على الملوك لا على الفقير والصعلوك ، فالملوك فى نوع من السيادة ، تقتضى من المال ازدياده ليقيموا من الإسلام عماده ، ويقتفوا من الشرع مراده ، ويقصموا الكفر وعناده ويبيدوا أهله وأولاده ، وينهبوا طرافه وتلاده ، ويوطئوا سنابك الإيمان بلاده .

وواجب على كل حاكم أن يبذل فى ذلك اجتهاده ، ويجعل الجهاد إلى الآخرة زاده وعتاده ، ويصون عن الكفر بلاد الإسلام وعباده إلى يوم يلقى

---

(١) الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . ومنه سمى مسجد الخيف من مِنى ، وهو وادى بطحاء مكة نزله رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٤١٥٨) .

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٢٠٨٦) بنحوه ، وعزاه للحكيم من طريق حذيفة رضي الله عنه بلفظ «أنا نبى التوبة ، وأنا نبى الملحمة» .

معاده ، فيجازيه الله الحسنى وزيادة هذه طريقة الملوك ومن تبعهم فى الاقتداء والسلوك ، وإياك أيها الملك العظيم وصاحب الملك الجسيم ، وأخذ المال من غير حله ، ووضعه فى غير محله ، ولو كان موضع الخير وقصد به نفع الغير ، فإنه لا يفى ذاك بذا ولا يقوم نفعه بما فيه من أذى ، فذلك كإنشاء المغارس وبنيان المدارس ، وتنوير المساجد وتعمير المعابد ، وسد الثغور ، وعمارة القبور ، وإقامة القناطر والجسور ، وعمل مصالح الجمهور، وإطعام الطعام وكفالة الأيتام ، والحج إلى بيت الله الحرام وإعطاء السائل ، وإغناء الأرامل وصرف النفقات ، وإخراج الزكوات والصدقات ، ومثله الوبيل كما قيل :

بَنَى مَسْجدَ اللَّه مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ ... فَصَارَ بِحَمْدِ اللَّه غَيرَ مُوَفَّقِ
كَمُطْعِمَة الأَيْتَام مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا ... لكِ الوَيْلُ لا تَزْنِي ولا تَتَصَدَّقِي

قال من لم يخف عليه أخفاؤها ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ [الحج:٣٧] . ثم أخبر بخبر ما يصدر عنكم فقال ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] . فإن طلب من هذا أجر فهو خسران وكفر ؛ لأنه فى صورة الاستهزاء ، وهل يطلب بقبيح الحرام حسن الجزاء ، بل الواجب فى هذا على كل من آذى رد المظالم ، وخلاص ذمة الظالم ورجع الحقوق إلى أهلها وإيصالها إلى محلها ، أما يرضى ظالم غوى وتحمل الحرام هوى ، أن يتخلص سواء بسوا ، وشر الناس يا ذا الباس من اتبع قضية إياس ، فسأل العقاب عن بيان هذا الخطاب .

[٨٥] **فقال** : كان فى الشام شخص من اللئام ، تصدى لفصل الأحكام ومشى من الظلم فى ظلام ، وشرع فى أخذ الأموال على سبيل التعدى والوبال ، فكان إذا أخذ من أحد ألفا ادخر لنفسه من ذلك نصفا ، وتصدق بالخمسمائة الأخرى ، على أولى الضرر والضر كل واحد درهما ؛ وعد ذلك مغنما ، وقال : هذه فائدة علينا بالربح عائدة ، الحسنات خمسمائة والسيئة واحدة ، وواحد يدعو علينا ، وخمسمائة يتوجهون بالثناء والدعاء إلينا ،

ثم قال : ذلك الجاحد ولا تعجز الخمسمائة عن الواحد ، هذا وإن كان والعياذ بالله صرف ذلك الحرام فى الفسق والملاه ، ونيل الأغراض الفاسدة وإقامة الجاه ، فهو أشد فى النكال وأعظم فى الوزر والوبال ، وهذا المقام يطول فيه الكلام وأقل ما فى الباب أن الحلال حساب والحرام عقاب.

وقد سمعت يا جليل القدر ما نطق به السيد الصدر ، الذى أخجل نور طلعته الشمس والبدر ، سيد الأنام ومصباح الظلام ، وحبيب الملك العلام ، عليه أفضل الصلاة والسلام يوما لأصحابه السادة الكرام ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجمعنا فى مستقر رحمته وإياهم : «أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى ، وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»(١) . وهذا إذا كانت هذه الطاعات من الصلاة والصوم والزكاة ، واقعة فى محلها ومصاريفها فى خلها ، فإنها لا تفيد الظالم إلا فى وفاء المظالم ، وأما إذا كانت من الحرام ومنشأ غراسها من مياه الآثام ، فهى وبال على وبال وثبور فوق نكال ، ووهن على كسر ، ونقصان فوق خسر .

وقال أيضا أفاض الله عليه سحائب صلواته فيضا :«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»(٢) . فاستعذ بالله

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨١) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، والترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحرب (٢٤٢٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص (٢٤٢٠) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

يا مولى الطير ومولى الخير ، من نار هذا الشرر أن تتفرق طاعتك شذر مذر[1] ، وأعيذك يا سلطان الصافات وما اكتسبته من الطاعات والخيرات ، أن ينقل إلى ديوان غيرك ، أو يفوز بخيرك سوى طيرك ، اللهم إلا أن يكون يا ذا الوقار والسكون ، على وجه ما قال من أحسن المقال :

وَيكتَسِبُ الطاعاتِ ذُخْرَ العُلما ... يجودُ بها يومَ القِيامَةِ على العاصِي

أو على وجه ما قيل وأحسن به من وجه جميل :

يجودُ بما ضَنَّ الجَوادُ بمِثلِه ... من الوَفْرِ بل لو أمْكَنَتْه شَمائِلُه
لعَادَ عَلى المَرْضَى بصِحَّة جسْمِه ... وجادَ على المَوتَى بعمرٍ يُطَاولُه
وَمَنْ على النّوكَى بوافِرِ عقْلِه ... وقَسَّمَ فى الحمقى من الرأى كامِنَه[2]
وثَقَّل ميزانُ المُخِفِّ بأجْرِه ... لَدى الوَزْن لما آد بالوزر كاهلُه[3]
ولوْ لَمْ يَكُنْ فى كَفِّه غيرُ نفسه ... لجادَ بها فليتق اللهَ سائِلَه

ولأجل هذا الخطر العظيم والخطب الجسيم ؛ تورع عن الحلال الزاهدون ، وشمر عن التلوث بالدنيا ذيل الرغبة العابدون ، قال سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء»[4] . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام، «اللهم ارزق آل محمد قوتا»[5].

---

(١) شذر مذر : أى تفرق متشتتاً فى كل اتجاه ولم يبق له أثر .
(٢) النوكى : الحمقى .
(٣) آد : أى ثقل عليه الحِملُ .
(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه .
(٥) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة النبى صلى الله عليه وسلم وأهله (٢٣٦١) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ومع هذا كله فالملك والرعية أمانة ومن تقلد ذلك فقد أوجب على نفسه ضمانه ، فليتجنب خيانته ولا يشين بها أمانته ، قال صفوة الله تعالى ، وخيرته من بريته : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] . ومصداقه قول رب العالمين وملك الملوك والسلاطين ، وهو أصدق القائلين ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢] .

فاعلم يا ملكا أعطى الزمان أمانه ؛ أن هذا الملك الذى بيدك هو من جملة الأمانة ، التى أشفق السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها خوفا من النكال والوبال ، وخشية أن لا يفين بحقوق حملها ، أو يضعنها فى غير محلها فيعاقبن ، أو بالعتاب يخاطبن فتعففن عن الرغبة فى الثواب ، خوفا من العتاب والعقاب ، وعملن بموجب ما قيل :

هَجَرْتُكَ لا قلى مِنِّى ولكن ... رأيتُ بقاءَ وُدِّكَ فى الصدودِ[2]
كَهَجْرِ الحائِمَاتِ الوِرْدَ لَمَّا ... رأتْ أنَّ المنيةَ فى الورودِ
تَفِيضُ نُفُوسها ظمأً وتخشى ... حماما فهى تنظرُ مِنْ بَعِيدِ
تَصُدُّ بوجه ذى البَغْضَاء عَنْه ... وتَرْمُقُه بألْحَاظِ الودودِ

ثم حمل هذه الأمانة بنو آدم لما قدره وقضاه العلى الأعظم فى سابق القدم ، ولما فيها من أحكام وحكَم ، وأن الصادق المصدوق أخبر ، فيما روى عنه أبو ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامه إلا مَنْ أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[3] . فمن جملتها الصلاة ، والصوم والزكاة ، والوضوء والاغتسال ، ومراقبة ذى الجلال فى السر والإعلان ، بقدر الطاقة والإمكان ، وعلى هذا جميع الطاعات وأنواع

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب «قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» . (٥١٨٨) من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه .
(٢) قلى : بغض . الصدود : مفرد الصد : وهو الإفتراق والهجر .
(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب الإمارة ، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥) من طريق أبى ذر رضي الله عنه .

العبادات هى فى رقاب العباد أمانات ، ومن أعظمها وأهمها وأحكمها ؛ الإمرة، والحكومة ، والتصدى لفصل الخصومة ، والسلطنة العلية ، وأمور الملك البهية ، والقيام بأمور الرعية .

فيجب على السادة الحكام ومالكى أَزِمَّةِ الأنام ، أن يراقبوا الله تعالى فى كيفية أدائها ، ويطالبوا أنفسهم على ممر الأنفاس بالقيام بوفائها ، ويراعوا أوامر سلطان السلاطين فى أمور عبيده المستضعفين خصوصا المظلوم والفقير ، والضعيف والمسكين ، فإذا عاملوا عباد الله بالعدل عاملهم الله عز وجل بالفضل ، قال الله المنان فى محكم القرآن ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل:٩٠] . وقال السيد الكامل والسند الفاضل أشرف الأواخر والأوائل ، صلى الله عليه صلاة تفنى البواكر والأصائل[(١)] : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل»[(٢)] . بدأ فى هذا الفصل من ذكر الصفات بالعدل ، والعدل يا ذا الوجه الخير الوسط ، والوسط هو الخير .

قال من أمره قهر وسطا ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ**﴾ [البقرة:١٤٣] . أى للأنبياء تشهدون لهم على أممهم لعدالة فيكم ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ [البقرة:١٤٣] . أى يزكيكم ، أى وكما جعلنا نبيكم إمام القبلتين حائز الفضيلتين ، جعلناكم حائزين خصلتين بالغين مرتبتين؛ وهما كونكم عدولا شهداء على الناس للأنبياء ، مقبولى الشهادة فى الأداء ، وكون الرسول معدلكم وبتزكيته على الأمم مفضلكم ؛ وقال صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم ، وفخم وعظم : «عدل السلطان يوما بعدل عبادة سبعين سنة»[(٣)] . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام «والذى نفس محمد بيده أنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء ، مثل عمل جملة الرعية» .

---

(١) البواكر : مفرد البكرة وهى أول النهار والأصائل : مفرد الأصيل وهو آخره .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الحب فى الله (٢٣٩١) من طريق أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث :ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٤٦٢٤) وعزاه للطبرانى فى الكبير، والبيهقى من طريق ابن عباس رضي الله عنه بلفظ «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال : ((ثلاثة لا ترد دعوتهم؛ الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم))[1] .

وروى كثير بن مرة رضي الله عنه قال ، قال عليه الصلاة والسلام : ((السلطان ظل الله فى الأرض ؛ يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإثم وعلى الرعية الصبر))[2] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه ((لعمل الإمام العادل فى رعيته يوما أفضل من عبادة العابد فى أهله مائة سنة أو خمسين سنة))[3] . وقال قيس بن سعد ستين سنة .

واعلم أيها الملك الأعظم واسلم ، أن العدل ميزان الله تعالى فى الأرض ؛ به ينتصف بعض الرعية من البعض ، وبه يؤخذ للضعيف من القوى ويعبد الله على الصراط السوى، ويتميز الحق من الباطل ، والحالى من العاطل ، وهو من صفات الذات وأعظم الصفات ؛ بمعنى أن الله تعالى عز وجل جلالا له أن يفعل فى ملكه ما يشاء فيؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويحكم ما يريد والخلق كلهم له عبيد ، وجميعهم بعض ملكه نافذ فيهم سهم أمر ملكه ، فلا اعتراض على فعل المالك ، ولا فيما يسلك بمملوكه من المسالك ، ولا مجال لاعتراض عبده على ذلك ؛ لاسيما إذا كان مولاه كريما وفى أفعاله مدبرا حكيما ، فمن عرف أن الله عدل وأن أفعاله جارية بين العدل والفضل ، يتلقى نقمه بالصبر ،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذى : كتاب الدعوات ، باب فى العفو والعافية (٣٥٩٨) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن .

(٢) الحديث : أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩٦/٥) من طريق ابن عمر رضي الله عنه ، وقال : رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدى وهو متروك . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٤٥٨١) وعزاه للبزار عن ابن عمر .

(٣) تقدم فى الذى قبله .

ويقابل نعمه بالشكر ويطمئن خاطره ، وتسكن إلى مولاه سرائره ، فلا يستقبح موجودا ولا يستهجن مفقودا ، ولا يستثقل حكما ، ولا يرى فى الكون ظلما ، بل يستقبل الأحكام بالرضا ويستسلم لموارد القضا ، ويقابل العوارض بما قاله ابن الفارض[1] :

وكلُّ أذىً فى الحبِّ مِنْكَ إذا بَدَا جعلتُ له شُكْرى مكان شَكِيَّتى

وأعدل المخلوقات وأوسط الكائنات الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم أعدل الخلق مزاجا وطبيعة ، وأقوم الناس منهاجا وشريعة ، وأوسط البشر أفعالا ، وأقسطهم أعمالا وأقوالا ، وإنما يعترض على أقوالهم ويتعرض لأفعالهم من هو عن الصواب منحرف ، وعن جادة الحق منصرف ، ومن عين بصيرته عمياء عن مراقبة التحقيق ، كالأعمى الذى خرج وهو ماش عن سواء الطريق ، فيعثر فى شوك أو حجر أو يصدمه حيوان أو شجر ، فيقول : نحوا هذا عن الطريق ؛ فإنه يحصل للمارة تعويق ، ويعيب على واضعه وإنما العيب فى طبائعه ، والجهل منسوب إليه لعمى قلبه وعينيه ، كما قال ذو الخويصرة لسيد الرسل البررة لما قسم الغنيمة قسمة مستقيمة : أعدل فأجابه الكامل المكمل بأنه : ((إن لم يعدل فمن يعدل))[2] . وإنه أى ذا الخويصرة الذى أعمى الله بصره خاب وخسر ، ولاقى اليوم العسر إن لم يعدل ذلك المفضل ، وكيف يقال هذا الكلام لمثله عليه الصلاة والسلام ، وقد أمره الله تعالى بالعدل، ونشر سر هذا النقل وأقر عينكم ، بقوله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥] .

---

(١) ابن الفارض : عمر بن على الفارض ، من كبار المتصوفة وأعلامهم . وهو أيضاً شاعر عظيم له ديوان ؛ أشهر ما فيه التائية فى نظم السلوك ، وهو مصرى عاش فيها زاهداً متنسكاً طوال عمره . ومات ودفن بها . سير أعلام النبلاء (٢٠٧٥) .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام (٣٦١٠) من طريق أبى سعيد الخدرى بلفظ ((ومن يعدل إذا لم أعدل)) الحديث .

قال الأسد الغالب علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجعل إلى رضوانه له أحسن وجهه : إمام عادل خير من مطر وابل[1] ، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم .

وقيل : الملك يدوم مع العدل ولو كان الملك كافرا ، ولا يدوم مع الظلم ولو كان الملك مسلما ، وما تعاطى حاكم ذو فضل فصل قضية فى فصل ، أحسن من سلوك طريقة العدل ، ولذا بقى اسم أنوشروان مخلدا بالعدل على مر الزمان وإلى يوم ينصب الميزان مع أنه كان مجوسيا يعبد النيران ؛ والسنة التى اخترعها بالسلسلة التى وضعها باقية فى ممالك الصين ، معمول بها إلى آخر حين .

[٨٦] **وقيل** : إن أنوشروان كان شديد الوداد للاصطياد وكان يعشق البازى والزُّرُّوق[2] ، والصقر والباشق والبيدق[3] ، فسأل يوما من البازدار لما كانت هذه الأطيار قصار الأعمار؟ قال : لأنها تظلم الطيور ، والظالم عمره قصير ، فتنبه بهذه الكلمة واتعظ وكف يده عن الظلم واحتفظ ، ثم أسس قواعد العدل فانتشر ذكره إلى يوم الفصل ، ويكفيه من الفضائل قول السيد الكامل «ولدت فى زمن الملك العادل»[4] .

[٨٧] **وروى** : أن بعض الملوك العادلين والحكام الفاضلين ؛ استولى عليه الكبر ووقر فى أذنه وَقْر وقر وكان قبل الصمم فى العدل والكرم كما قيل :

وأنَّــةُ مظلـــوم وغُنَّـــةُ سائـــل ... على أُذْنِه أحلى من الشَّهْـدِ فى الفَم

---

(١) مطر وابل : الشديد الضخم القطر .
(٢) البازى : طير من الجوارح يصاد به وهو أنواع كثيرة . الزروق : طائر صياد شبيه بالصقر والباشق .
(٣) الباشق : طائر من أصغر الجوارح . البيدق : طائر من الجوارح فى حجم الباشق .
(٤) الحديث تقدم من قبل .

فحزن لفقد سمعه وتأسف وتحرق وتلهف وتأرق وبكى ، وتأوه واشتكى، وقال : ما أتلهف من عدم سماع الحديث إلا على فقدى صوت المستغيث ، ولا كنت أتلذذ من متكلم إلا بالإصغاء إلى خطاب المتظلم ، ثم قال : ولئن حرمت ذلك من طريق الأخبار فلأتوصلن إليه من طريق الأبصار، ثم أمر بإشهار النداء فى الأطراف والأرجاء أنه من كانت له ظلامة فليظهر له علامة ، وهى أن يلبس ثوبا أحمر ويقف فوق ذلك التل الأخضر ، لنعرف علامته ونكشف ظلامته .

[٨٨] **وقيل** : إن السلطان السعيد ، نور الدين الشهيد[(١)] ؛ لما أمر ببناء دار العدل ، وعزم أن يقيم فيها للحكومات الفصل ، أدرك الأمير الكبير صاحب الرأى المنير أسد الدين شيركوه[(٢)] ، ما يعتمده السلطان ويرجوه ، وما يحمله على ذلك ويدعوه ، وعلم أن ذلك الأسد لا يسامح عنده أحد ، وأنه لا يراعى فى الحق أميرا ولا كبيرا ولا صغيرا ، فإنه مع الحق وبالحق قائم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فجمع مباشرى ديوانه ، وأكد ما قاله لهم بأيمانه لئن شكا منهم أحد ، أو بلغه عن أحد من حاشيته ظلم أو نكد ليذيقنه أشد العذاب ، ولينزلن به أنكى عقاب ، وقال ما برز هذا الأمر العزيز الغالى ، ببناء هذا المقعد العام العالى ، إلا لأجلى ولأجل أمثالى فما وسعهم إلا طلب الخصوم ، واسترضاء العادل والمظلوم .

---

(١) نور الدين الشهيد ؛ ابن عماد الدين زنكى ، حكم الشام ومصر وحارب الصليبيين وانتزع منهم إمارتى الرها وبانياس عام ١١٦٤م ، وشيد العديد من الحصون والمساجد . توفى سنة (٥٦٩هـ) بدمشق سير أعلام النبلاء (٥١٥٧) .

(٢) أسد الدين شيركوه ؛ هو عم صلاح الدين الأيوبى ، خدم نور الدين زنكى وكان وزيراً للعاضد الفاطمى ؛ آخر خلفاء الدولة العبيدية . وحارب الصليبيين وحقق انتصاراً عليهم فى موقعة تل بسطة توفى (٥٦٤هـ) سير أعلام النبلاء (٥١٨٦) .

[٨٩] وروى : أن أحد الصدور غصبه بعض عمال المنصور[١] ، وأخذ منه كفرا من الكفور ، فتوجه إلى الخليفة وضرب له أمثالا طريفة ، وقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأقام به شعائر الدين ، ونصر به المظلومين على الظالمين ، أأذكر ظلامتي أولا ، أم أضرب أمام حاجتي مثلا. فقال : دع الجدل واضرب المثل .

فقال : ألهمك الله العدل وأقام بك قواعد الفضل ، إن الطفل إذا نابه ما يكرهه ، أو قرعه خطب يجبهه ، فر إلى أمه وأجهش إليها من همه ، فأوى إلى حضنها واندس تحت بطنها ، لأنه لا يعرف سواها فيستكشف بها عن نفسه ما دهاها ، ولا يظن أن غيرها يدفع عن نفسه ضيرها ، فإذا عرف أباه بث إليه شكواه ، واستدفع به ما عراه ، لأنه قد وقر في وهمه أن أباه أقوى من أمه ، وأن غيره من الناس لا يقدر على دفع الباس ، فيلجأ إليه فيترامى في دفع شدائده عليه ، ولا يقبل عذره إن ترك نصره أو قصر في مبتغاه ، أو تهاون في متمناه ، ولهذا قال بدرُ الحي : إن النساء والصبيان يظنون أن الرجل يقدر على كل شيء ، فإذا اشتد واستوى وأصابه من أحد جوى ، تقدم إلى الوالي ؛ لأن مقامه عالي وهو أقوى من أبيه ، فيستكشفَ به ما وقع فيه ، فإذا صار رجلا وأصابه من أحد نكد وبلا ، استنجد بنائب السلطان فوجده له أحسن معوان ، فأشكاه ورفع بلواه ، وكفاه إذ دعاه من عداه ما دهاه ، ورعاه عما عراه ، فإنه أقوى من الوالي ، وأقدر على دفع الظلامة من كل منهمك غالي ، وهو السلطان الحاضر والعامل والناظر على البادي والحاضر ، فإذا ظلمه الوالي والعامل ونقصه حقه ذو الحكم الكامل ، تعلق بأذيال عدل السلطان ، واستكشف بمراحم نصرته ما دهاه من عدوان ، إذ قد تحقق ورأى

(١) المنصور ؛ هو الخليفة المنصور أبو جعفر عبد الله المنصور ثاني خلفاء العباسيين ؛ بنى مدينة بغداد ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمته . ومات سنة (١٥٨هـ) سير أعلام النبلاء (١٠٢٥) .

وصدق أنه أقوى من الكل و إلى مرسومه مرجع الجل والقل ، ولا يد فوق يده ، وأنه قد انتهى حديث رفعته لعلو سنده ، وبلغ فى التسلط ونفوذ الأمر إلى أقصى أمده ، إذ هو ظل الله فى أرضه ، وخليفته فى إقامة نفله وإحياء فرضه ، وقابض أزمة المخلوقين ، ومنصف المظلومين من الظالمين .

فإذا لم ينصفه السلطان مع القدرة الكاملة والإمكان ، توجه بشكواه إلى سلطان السلاطين ، وطلب رفع ظلامته من رب العالمين ، لعلمه أنه الحكم الذى لا يجور ، والحكيم الذى بيده مقاليد الأمور ، والحاكم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه أقوى من السلطان ، ولا يحتاج فى الشكوى إلى بينة ولا بيان ، ولا إلى دليل ولا برهان .

وقد نزلت بى حادثة للقلب كارثة ، وبالفكر عابثة ، وللسر عائثة ، وهى أن العامل الفلانى ظلمنى وأخذ مكانى ، فأنا أشكوه اليك وقد تراميت عليك ، وعرضت قصتى بين يديك ، لأنك نعم السند وليس فوقك أحد ، ولا فى الحكام إلا من هو لك بمنزلة الغلام ، وما بعدك إلا الله مولى لا يخيب من رجاه ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، فإن وعيت قصتى وكشفت غصتى و إلا رفعتها إلى الله ، وقطعت النظر عما سواه ، وهذا أوان الموسم وإعمال المنسم[(١)] ، وأنا متوجه إلى حرمه ومترام على باب إحسانه وكرمه .

فلما وعى المنصور خطابه أرسل من سحاب جفنه عبابه[(٢)] ، وقال : حبا وكرامة يا ذا الزعامة ، بل أنصفك وبالفضل أسعفك ، وأضعف كرامتك وأكشف ظلامتك ، وأوصلك حقك وأعطيك مستحقك ، وأمر فكتب إلى واليه يضع من معاليه ، ويأمره برد أراضيه ، وطلب مراضيه ، والتحلل من ظلم أياديه ، وإكرام محله وناديه .

(١) المنسم : هو التوجه إلى وجهة معينة أى يريد التوجه إلى بيت الله الحرام أثناء موسم الحج .

(٢) العباب : السيل . أى دمع كثير .

[٩٠] وروى : أن موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم ، فى بعض مناجاته وسؤاله حاجاته سأل الله من فضله أن يريه نكتة من عدله ، فأمره أن يتوجه إلى مكان ويختفى فيه عن العيان ، فامتثل لما به أمر واختفى فى ذلك المكان ، على شط نهر فما كان بأسرع من قدوم إنسان إلى ذلك المكان ، فبمجرد ما وصل إليه نزع من ملبوسه ما عليه ، وكان معه كيس فيه مال نفيس ، فأودعه ثيابه ورام فى الماء انسيابه ، فدخل فى ذلك النهر وغلغل فيه إلى أن غاب عن النظر .

فاقبل فارس فوجد ثيابا بلا حارس ، فنزل عن الدابة وفتش ثيابه ، وأخذ كيس الذهب وركب فرسه وذهب ، وأسرع فى الذهاب إلى أن زال شخصه وغاب ، ثم أقبل شخص ذو شجب وعلى ظهره حزمة حطب ، فانتهى إلى الماء وقد برح به الظما وأمضه التعب ، وأخذ منه النصب ، فطرح عن ظهره الحطب ، وقصد الراحة وقد ظهر الذى كان فى السباحة ، فوجد عند ثيابه شخصا من أترابه ، فاستأنس به وتأوه لمكتتبه وما يقاسيه من نصبه ، ثم اشتمل ملبوسه وتفقد كيسه ، فما وجده ، فعض يده ، فسأل الحطاب عما كان فى الثياب ، وطلب منه الكيس بالتعبيس[١] ، فقال : ما رأيته ولا حويته ، فقال : هل كان معك أحد ، فقال : لا ، والواحد الأحد ، قال : فهل كان هناك سواك ، قال : لا ، والذى سواك ، قال : يا أخى أنا وضعت الهميان[٢] بيدى فى هذا المكان ، ولم يطل على ذلك زمان ، ولا حضر سواك حيوان ، ولا طمث عذراء هذا الموضع إنس ولا جان ، فلا أشك أنك أخذته ، ولنفسك افتلذته .

فأقسم بعالم الخفيات وكاشف البليات ، المطلع على الضمائر والنيات ،

---

(١) التعبيس : الكلح والغضب .

(٢) الهميان : كلمة فارسية وهى كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

أنه ما رأى له هميانا ، ولا يعرف لذلك مكانا ، فقال : لو شهد لك الكون والمكان ونطق ببراءتك جوامد الزمان ، وزكاهم الكرام الكاتبون ، لما شككت أنهم كاذبون ؛ لأن إنكار المحسوس مكابرة ، والمثابرة على الباطل للحق مدابرة ، ولكن خذ لك منه يا فقير الثلث والثلث كثيرٌ ، واردد عليَّ الثلثين وإن أبيت فاجعله بيني وبينك نصفين ، فما زاد ذلك على اليمين وما شك هذا أنه يمين . فقال : اردد على ماليَّ ، وإلا قتلتك فلا لك ولا لي ، فقال : ما رأيت مالك فافعل ما بدا لك .

فشرع في تفتيشه وبالغ في فحصه وتنبيشه ، فلم يهتد إلى شيء سوى الضلال والغي ، فأخذه الحنق واشتد به الأرق ، وثارت نفسه الأبية واتقدت ثورته الغضبية ، فضربه بمحدد فقتله ، وجد له بالإهلاك فجدله ، ثم تركه وذهب ولم يحظ من الذهب بغير اللهب .

كل هذه الأحوال وموسى عليه السلام يشاهد ما فيها من أفعال وأقوال ، ثم ناجى فقال : يا ذا الجلال أنت عالم بحقائق الأمور ، وسواء عندك البطون والظهور ، سألت فضلك أن تريني عدلك ، فأريتني هذا المغرم ، وأنت أعلى وأعلم ففي ظاهر ما أمرتني وبحرامته غمرتني ، من الشريعة المطهرة ونص التوراة المحررة ، أن هذا الحكم جور وظلم ، فأطلعني على الحقيقة وبين لي سلوك هذه الطريقة .

فقال الله تعالى وجل جلالا : يا موسى المقتول قتل أبا القاتل ، والقاتل سرق الكيس من أبي الفارس الخاتل . ففي الحقيقة : الفارس النبيه وصل إلى ماله المخلف عن أبيه ، والقاتل إنما استوفى قوده[1] ممن قتل والده ، وهذه الأمور إنما تتضح يوم النشور يوم تبلى السرائر وتكشف الضمائر ، وينادى يوم التناد لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد .

---

(١) القوَد : القصاص .

ونظير هذه القصة ما ذكره الله تعالى وقصه ، فى روض كلامه النضر عن موسى والخضر ، عليهما السلام والتحية والإكرام ، إذ ركب السفينة وخرق خرقا مؤديا إلى الغرق ، وقتل النفس الزاكية ، وأقام بغير أجر أركان الجدار الواهية ، وبعض ذلك مخالف لظاهر الشريعة تنفر عنه النفس السليمة والطبيعة ، ولكنه موافق للحكمة الإلهية ومقتضيات العقل الحقية ، الذى لا يطلع عليه إلا عالم الأسرار الخفية ، ولهذا قال جل واحدا أحدا وتعالى فردا صمدا : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن:٢٦]. ثم استثنى من هذا المقول إلا من ارتضى من رسول ، وإنما الشريعة الزاهرة وردت بما تقتضى من الحكم الظاهرة ، فتعبدنا الله فى الشرائع بظاهر ما يثبت فى الوقائع .

قيل : من أيقن بحقية أربعة كان من ضيق أربعة فى سعة ، وأَمِن ودعة : من أيقن أن الصانع الضار النافع لم يخطئ ولم يغلط ؛ أمن من العيب والشطط .

ومن أيقن أن الخلاق ، ومقسم الأرزاق لم يحف فى خلقه ، ولم يمل فى رزقه ؛ أمن الحسد واستراح من النكد .

ومن أيقن بوقوع المقدور ، وأنه لا ينجيه منه محذور ؛ أمن الغم ولم يتسلط عليه الهم ، كما قيل :

ما قَدْ قُضِيَ يا نَفْسُ فاصطَبِرى لَهُ ولكِ الأمانُ من الَّذى لم يُقَدَّرُ

وقيل : ومن عرف أصله أمن من الكبر نصله .

[٩١] **وروى** : أنه كتب فى قضية إلى أعدل خلفاء بنى أمية[١] ، من

---

(١) عمر بن عبد العزيز ؛ ابن مروان ، خامس الخلفاء الراشدين ، وهو الخليفة العادل حفيد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، كان زاهداً وعالماً فقيهاً عابداً ورعاً شاع بين الناس العدل والأمان . وكان لين سمح الخلق . مات سنة (١٠١هـ) سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

عامله بحمص[١] ، أنه هدم الدمص[٢] وعدم النمص[٣] ، وأن رَبَضَها رابض[٤] ، ومرعى رياضها بارض[٥]، وإنها محتاجة إلى عمارة وزراعة وحراسة ومناعة ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز هذا الجواب المفيد الوجيز، وهو : حصنها بالعدل ، ونق طرقها من الحدل[٦] ، يثبت البنا وينبت الكلا والسلام .

وقيل : أمير بلا عدل كغيم بلا مطر ، وعالم بلا ورع كشجر بلا ثمر ، وشاب بلا توبة كمشكاة بلا مصباح ، وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح ، وفقير بلا أدب كطابخ بلا حطب ، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح ، وقاض جائر كملح على جرح .

وقيل : العالم بستان سياجه الشريعة والشريعة سياج يخدمها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلها المال ، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية أحرار يستعبدها العدل ، والعدل سلك به نظام العالم.

وليعلم أن الملة الأحمدية والشريعة المحمدية هى أعدل الملل وأقوم النحل .

مثلا النصارى : لا يتحامون الحائض أيام أقرائها[٧] ، ولا فرق بين الحائض وغيرها من نسائها .

---

(١) حمص : مدينة سورية بين دمشق وحلب : وهى بلد مشهور قديمة . بها قلعة حصينة. معجم البلدان (٣٩١٤)

(٢) الدمص : هو قلة شعر الرأس . أى أنه قد عم الجدب والقحط .

(٣) النمص : هو ما تأكله الماشية . أى عدم الزرع والمراد : أنه حل البلاء بالبلدة .

(٤) الربض : يقال ربضت الإبل أى بركت عجزاً عن الحركة .

(٥) البارض : هو أول ما تخرج الأرض من نبت .

(٦) الحدل : الظلم .

(٧) أى أيام حيضها .

واليهود : يجتنبونها فلا يؤاكلونهـا ولا يشـاربونها ولا يقربونهـا رأسـا ، ويعدونها رجسا وركسا(١) .

فسلكت الشريعة المحمديـة فـي ذلـك أعدل الطـرق وأفضـل المسـالك ، فتعاشر كالأطهار ، وحرم قربان ما تحت الإزار(٢) .

وفي بعض الملل على الذى قتل القود والقصاص ، وليس فـي الديـة خلاص وفي بعض الدية لا غير ، وما للقصـاص فيها سير . وديـن الإسـلام المرفوع كل فيه مشروع ، والعدل فى الاعتقاد يا ملك البـلاد ، تـرك التخليـط وسلوك ما بين الإفراط والتفريط ، والقول بالتقديس والتنزيه وإثبـات الصفـات من غـير تعطيـل ولا تشـبيه ، واقتبـاس النـور مـن جمريـن وسـلوك أمـر بيـن أمريـن، والعـدول عـن المذهـب البغيـض ، وهـو مذهـب الجـبر والتفويـض(٣) والعــدل فى الفقهيات ، يـا معشـوق المخــدرات والحذاريـات(٤) الـذى قــام عليــه النـص دليـلا ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:١١٠] .

---

(١) الركس : الرجس .

(٢) فى هذا إشارة إلى حديث أخرجه البخـارى : كتـاب الحيـض ، بـاب مباشـرة الحيـض (٢٩٩) من طريق عائشة رضى الله عنها بلفظ "كانت إحدانـا إذا كـانت حائضـاً فـأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها ؛ أمرها أن تأتزر فى فور حيضتها ثم يباشرها . قالت : وأيكم يملك إربه كما كان النبـى ﷺ يملك إربـه ؟ .والمراد بالمباشـرة هنـا : إلتقـاء البشرتين لا الجماع .

(٣) مذهب الجبر : نسبة إلى الجبريـة وهـو مذهـب من مذاهـب الفتنـة ظهـر فـى العصـر العباسى . يقول بأن الإنسان مجبور فى كل أفعاله ولا اختيار له . ومذهب التفويض : هى فرقة فوضت الأمر إلى الله فى كل شيء احترازاً مـن الوقـوع فـي الغلو كـالفرق الأخرى .

(٤) الحذاريات : الداهيات . والمراد هنا النساء .

فمن العدل الوضوء المعتاد ثلاث مرات ، ومن نقص أو زاد فقد تعدى وظلم كذا قال النبى المكرم ﷺ ، أى تعدى إن أسرف ، وظلم إن أجحف[1].

والعدل فى الصلاة ؛ أن تكون على مرتضى الشرع ومقتضاه ، وهى أداؤها فى أفضل الأوقات مؤداة مع الجماعات فى الصف الأول على الوجه الأكمل ، عن يمين الإمام من الافتتاح إلى الاختتام مع تعديل الأركان ، بل التعديل فرض عند بعض الأعيان ، لا نقرا كنقر الطير ولا تطويلا يضر بالغير .

والعدل فى الزكاة ؛ أن لا يتيمموا الخبيث منه ينفقون ، ولا يجعلوا لله ما يكرهون ، وليسوا بآخذيه إلا أن يغمضوا فيه ، ولا يكلف جابى المال أن يعطى كرائم الأموال .

والعدل فى الصوم يا سيد القوم ؛ أن لا يتناول فوق الغذاء المعتاد ، ولا يَصل بالوصال إلى درجة الإجهاد ، ويعجل الفطور ويؤخر السحور .

والعدل فى الحج ؛ أن لا يمارى فى الإنفاق ، ولا يضارر الرفاق بالشقاق ، كما يفعله أبناء الزمان ، فإن ذلك خسران والازدياد من ذلك نقصان.

ولقد بلغك يا قمر ما قاله عمر لخادمه يرفا وذا لا يخفى ، كم بلغت نفقتنا مقدارا قال : ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين ، قال : ويلك اجحفنا بيت مال المسلمين وإياك والأشر[2] وقاك الله كل شر ، فقد بلغك قيمة راحلة

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً (١٣٥) من طريق عمرو بن شعيب بلفظ ((هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم)) أو ((ظلم وأساء)) .

(٢) الأشر : البطر .

سيد البشر ليدل ذلك على ترك البطر والأشر ، ولا يقصر فى نفقته بحيث يصير كلاً على رفقته ، وكذلك فى كل الإنفاق يا ملك الآفاق قال من عز كلاما وجل مقالا ومقاما ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان:٦٧] .

والعدل فى النكاح يا حبيب الصباح ، لمن عليه يقوى فهو أقرب للتقوى، وهو يا أبا حسان واجب عند التوقان[١] ، سنة عند القدرة عليه ، مستحب عند استواء طرفيه ، مكروه عند العجز عنه وهذا بحث قد فرغ منه.

وقس يا ذا الكرامات على هذا سائر العبادات وجميع العادات ، وعقود المعاملات ، ولا تتعد الحدود فى الحدود فإن ذلك مردود .

وعلى قانون العدل وردت الشريعة المطهرة وجرت قديما شرائع الأنبياء البررة ، وكذلك مقادير الملة المحمدية عليه أفضل صلاة وأزكى تحية، محررة على القواعد العدلية ، وفيها من الحكم الإلهية ما يعجز عن إدراكها القوى العقلية . قال الله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٥] .

وحاصل الأمر يا ذا النهى والأمر : أن العدل هو قوام كل فضيلة ، كما أن الصبر هو أساس كل خصلة جميلة ، وإن أردت بسط هذا البيان ؛ فدونك القول والتبيان فى تفسير القرآن ، المنزل على أشرف إنسان إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فقد أشبع التقرير ، ودقق التحرير فى روضه النضير ، فارس ميدانه الإمام الخطير فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير[٢] .

---

(١) التوقان : مفرد تاق وهو شدة الشهوة .

(٢) فخر الدين الرازى ؛ الإمام العلامة المفسر صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم ، وهو من أشهر التفاسير (مفاتيح الغيب) كان فيلسوفاً متكلماً واسع المعرفة بعلوم النقل والعقل ، وله العديد من المؤلفات بالعربية والفارسية مثل (معالم أصول الدين) ، وغيرها . توفى سنة (٦٠٦هـ) سير أعلام النبلاء (٥٤٥٩) .

والعدل يجرى فى الصفات كما يمشى فى الذوات ، ومرتبته فى العلو أن يكون بين التقصير والغلو ، كالكرم الذى يكون بين الإسراف والتبذير، والشح والتقتير . والتواضع الذى بين الضعة والتكبر ، وبين التصعر والتصغر[1] : والشجاعة التى بين التهور والخفة ، والجبن الطائش الكفة . والقناعة التى بين الحرص والطمع ، والنذالة والهلع ، وبين العجب والتصلف[2]، والاحتشام والتقشف . والإخلاص الذى بين الشرك والهوى، وبين الإعجاب والريا . والعفة التى بين التهافت على المشتبهات والترفع عن تناول المباحات والطيبات . والعزم الذى بين سوء الظن والوهم والوسواس، وبين إذاعة السر والاستخفاف وعدم المبالاة بالناس . والحلم الذى بين الغضب بلا سبب ، وبين التغاضى عن اللئام عند موجب الانتقام . والشفقة ولين الجانب للأقارب والأجانب ؛ الذى بين القوة والاستكبار ، وبين الرخاوة واللين المستلزم لتضييع حقوق الأهل والجار . وحفظ الحقوق الذى بين التكلف والعقوق ، يراعى فيها الحدود ، ولا يخرج فيها عن الحد المعهود ، فالخروج عنها يسمى عنادا وقساوة ، والتقصير فيها يدعى ركاكة ورخاوة .

مثلا : من يستحق العفو لا يضرب ، ومن يستأهل الضرب لا يقطع ولا ينكب[3] ، ومن استوجب القطع لا يقتل ، ومن وجب عليه حد لا يهمل .

وتجرى أمور الشرع الشريف على ما ورد به الأمر المنيف ، فما ثم أحد أكرم من الله ولا أرحم ، ولا أعلم بأمور مخلوقاته ولا أحكم ، قال السميع البصير ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] .

---

(١) التصعر : التكبر والأبهة . والتصغر : الذل والهون .

(٢) التصلف : التملق .

(٣) أى يقتل .

[٩٢] وروى : أن الإمام المسدد جعفر بن محمد ، دخل على الرشيد[(١)] وهو فى أمر شديد ، قد استولى عليه الغضب واستخفه الطيش والصخب ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كان غضبك لرب العالمين فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه ، وقد حد لكل شىء حدا من نقمه وبأسه ، فلا تتعد حدوده ، فإنه قد ملكك عبيده فتذكر من وقوفهم بين يديك ، واقتدارك عليهم إذا تمثلوا قياما لديك ، قدومك يوم القيامة عليه ووقوفك خاضعا منفردا بين يديه ، ومن انتقامك منهم سؤاله إياك عنهم ، فسكن من غضبه واقتدى بأدبه .

وقال الحكماء للاسكندر[(٢)] : عليك بالاعتدال فى كل الأمور ؛ فإن الزيادة عيب ، والنقصان عجز .

وفى الحديث : «خير الأمور أوسطها»[(٣)] .

ولهذا قيل فى الأقاويل : ينبغى للإنسان الراجح العقل فى الميزان ، أن يحصل من كل علم مقدار ما يحتاج إليه ، ويعول فى مشكلاته عليه . مثلا من علم الأدب ما ينال به عند أربابه الرتب ، كاللغة والنحو والصرف ، ولو أنه أدنى حرف ، ليقوم بذلك لسانه ، ومن علم المعانى ما يبدع به بيانه ، ومن العروض والقوافى المقدار الوافى والمعيار الكافى ، ومن الطب ما يعرف به

(١) الرشيد ؛ هارون الرشيد ، أشهر خلفاء بنى العباس وهو خامسهم ، تولى بعد اغتيال أخيه الهادى ، وهو ابن الخليفة المهدى ، اشتهر بعدله وحبه للأدب والعلم ، وازدهرت الحضارة الإسلامية فى عهده ؛ فبلغت أوج مجدها . ومات سنة (١٩٣هـ) سير أعلام النبلاء (١٤١٤) .

(٢) الإسكندر بن الملك فيليب حكم مقدونيا اليونان قديماً . من أشهر العسكريين الغزاة فى التاريخ ، اجتاح مملكة الفرس ، ودخل مصر وأسس بها مدينة الإسكندرية ، ومات فى مدينة بابل متأثراً بالحمى . البداية والنهاية (٩٧/٢) .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٣٩١/١) وفيه قال فى المقاصد : رواه ابن السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد لكن بسند فيه مجهول عن على مرفوعا ، والديلمى بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ الحديث «خير الأعمال أوسطها» . الحديث .

مزاجه ويصلح به علاجه ويقوم به اعوجاجه ، ومن علم التفسير والقرآن ما يقتدر به على بيان كلام الرحمن ، ومن علم السنة والحديث ما يميز به الطيب من الخبيث ، ويضبط به أقسامه وصحته وسقامه ، والأنساب والرجال وما لهم من صفات وأحوال إن لم يكن مفصلا فعلى الإجمال .

ويندرج فيه علم التاريخ العالى الشماريخ ، ومن علم الكلام ما يصحح به دينه ويقيم به اعتقاده ويقينه ، ومن علم الأصول وما اشتمل عليه من معقول ومنقول ، ما يقدر به على استنباط الأحكام ومعرفة أدلة الحلال والحرام ، ومن علم الفروع ما يحكم به أصناف العبادات ، وأنواع العادات ، وطرائق العقود وإقامة الحدود ، ومن علم مكارم الأخلاق ما يصيد به قلوب الرفاق ويكتسب به الذكر الجميل والثناء الجليل . ومن الحِرَف ما يحصل به القوت الحلال ولا يصير على الناس كلا ذا إملال .

وقد قيل : خالطوا الناس مخالطة إن غبتم حنوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم ، ومن علم الركوب والرمى والسباحة ، والخط ولعب الرمح والسياحة ، وعلم الفرائض والحساب ، وطرائق المبايعات والكتاب ، ما يقدر به على الدخول إليه إذا تكلموا فيه بين يديه ، بحيث يكون له فيه مشاركة وإلمام ولا يكون بين الخواص كالعوام .

وكل ما ذكر فسلوكه عدل ، والتلبس به كمال وفضل ، ورأس مال الجميع التقوى ، فإن الإنسان الضعيف بالتقوى يقوى ، قال الله تعالى ﴿**ولكن يناله التقوى منكم**﴾ [الحج :٣٧] .

وبالجملة : فالعاقل العادل ، بل الكامل الفاضل لا يستنكف عن نوع من العلوم ، ولا تبرد همته عن اقتباس منطوق ومفهوم ، قال معلم الخير ومحذر الشر(١) : تعلموا حتى السحر ، وقال :

---

(١) معلم الخير ومحذر الشر ، أراد الإمام سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه والبيتان فى نهج البلاغة .

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشرِّ لَكِنْ لِتوقِّيهِ
ومَنْ لم يَعْرِفُ الخيرَ من الشرِّ يقعُ فيه

وكل صافى السريرة وذى بصيرة منيرة ، يتوجه إلى التعلم والاستفادة ويجعل مراده مراده ، أى علم كان خصوصا إذا كان من الشرف بمكان . قال بعض الوزراء لابنه : يا بنى تعلم العلم والأدب ، ولا تسأم فيهما من الطلب ، فلولا العلم والأدب ؛ لكان أبوك فى السوق حمالا وللنوق جمالا ، فبالعلم والأدب ؛ ركبنا أعناق الملوك .

وأحوج الناس يا ذا الأفضال إلى اكتساب الفضل والعلم والكمال السلاطين والملوك ، ومن تبعهم فى السلوك ، فإنهم بين خلق الله تعالى هم المرموقون ، والسابقون بجلائل النعم لا المسبوقون ، وبحفظ بلاده وعباده المستوثقون ، وبالسؤال عنهم موثوقون ، فهم المتحملون لأعباء العدل المكلفون بالمحاسبة عنه والفضل ، قال من يقول للشيء كن فيكون ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر:٩] .

فهم أقدر على التحصيل من غيرهم والزمان والمكان تابعان لسيرهم ، والخاص والعام يتمنى قربهم ، ويسلك فى التوصل إلى جنابهم دربهم ، ويبذل فى ذلك ما وصلت إليه يداه ويجعل تحصيل ما يرومونه غاية متمناه ، فيبذل جهده فى إيصالهم إليه ويكد قلبه وقالبه فى إطلاعهم عليه ، قال الشاعر :

ولَمْ أرَ فى عيوبِ النَّاس نَقْصًا كنقص القادرين على التَّمَام

وقال بعض الملوك لأولاده : يا بنى اكتسبوا العلم والفضل ، وادخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا .

وقال بعض الحكماء : العلم ملك ذو أعضاء ؛ رأسه التواضع ودماغه المعرفة ، ولسانه الصدق ، وقلبه حسن النية ، ويداه الرحمة ، ورجلاه مثابرة

العلماء ، وسلطانه العدل ، ومملكته القناعة ، وسيفه الرضا ، وقوسه المساءلة، وسهمه المحبة ، وجيوشه مشاورة الأدباء ، وزينته النجدة ، وحكمه الورع ، وكنزه البر ، وماله العمل الصالح ، ووزيره اصطناع المعروف ، ومستقره جودة الرأى ، ومأواه الموادعة ، ورفيقه مودة الأخيار ، وذخيرته اجتناب الذنوب .

والحاصل يا ملك الطير هبا مالك عنان الخير : أن قوام العالم ونظام بنى آدم سيف الملوك والسلاطين ، وقلم العلماء والأساطين ، فمهما حدث من شر محاه سيف الملوك ، ومهما وجد من خير أثبته قلم علماء الإرشاد والسلوك .

وفى الحقيقة يا شيخ الطريقة : العالم عبارة عن هؤلاء وبصلاحهم تصلح الأشياء ، وبفسادهم والعياذ بالله تفسد الدنيا ، إذ هم لزوال الفساد وطهارة العباد وعمارة البلاد ، بمنزلة الصابون للأوضار [(١)] ، والاستغفار للأوزار ، فإذا فسد هؤلاء فما لفسادهم دواء كما قيل :

الذنبُ صابونُ الاستغفار يغسِلهُ ... كالثوبِ يُنَظِّفُ بالصابون إن وَسِخا

فما الذى يَغسِلُ الصابونَ من دَنَس ... إذَا رَأَيْتَاهُ صارَ الذَّنْبَ والوسخَا

وناهيك يا ملك العقبان ما فسد من الزمان ، وجرى من الدماء من طوفان ، وانمحى من أمهات البلدان عند استيلاء الكافر جنكزخان [(٢)] ، فسأل العقاب عن كيفية هذا المصاب والعقاب ، ومن هو جنكزخان الذى أفسد وخان، وما أصله وفصله وكيف كان قطعه ووصله ، حتى نفذ فى كبد العالم بالفساد نصله .

---

(١) الأوضار : مفرد وضر أى القذارة والوسخ .

(٢) جنكزخان ؛ أو جانكيز خان : وهو ملك التتار وسلطانهم الأول ، وهو الذى خرب البلاد وأفنى العباد ، واستولى على الممالك ، وليس للتتار ذكر قبله ، ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره ، وله شجاعة مفرطة ، وعقل وافر ، ودهاء ومكر . وأول مظهره كان سنة (٥٩٩هـ) وهلك سنة (٦٢٤هـ) . سير أعلام النبلاء (٥٦٠٠) .

[٩٣] فقال : هذا رجل من بقايا التتار الساكنين من بلاد الشرق فى قفار ، وهم من بقايا يأجوج ومأجوج ، عن الإسلام منحرفون ، وعن الإيمان عوج ، سموا بالترك لأنهم تركوا عن دخول السد بالخروج ، فكانوا قبل جنكزخان مبددين فى صحارى لا يتفق منهم اثنان ، مسيرة أماكنهم ومدى مساكنهم شرقا بغرب نحو من ثمانية أشهر ، وشمالا بجنوب لا ينقص عن هذا المدى ولا يقصر ، حدها من الشرق حدود ممالك الخطا ، وأقصاها خان بالق وهى مدينة عظمى وورائها شرقا ، يا من يرقى ينتهى الحد بعد السير بالجد ، إلى بلدة عظيمة ولاياتها جسيمة تدعى خيسار[١] وأهلها كفار ، وهى مبدأ مملكة الصين يا ذا المجد الرصين ، ومن الشمال نواحى قرقير وسلنكاى، ومن الجنوب بلاد تدعى تنكيت وتبت[٢] ، وتبت هذه يا ذا النسك هى التى يتولد من غزالها المسك ، ومن الغرب وهى جهة قبلة تلك البلاد إذا صلى المسلمون منهم والعباد ، حدود بلاد أو يغور ، وما وراء تلك الكفورمن بلاد تركستان[٣] يا ذا الإحسان ، ويسير المجد منها إذا انفصل عنها كذا وكذا شهر حتى يصل من جهة غربها إلى ما وراء النهر .

ثم إن هؤلاء التتار كانوا فى تلك القفار بين هذه الحدود الأربعة فى مضيعة وأى مضيعة ، يتوالدون فى ذلك البر ، ويتهارجون فى ذلك السهل والوعر ، كالحيوانات السائبة فى البر والبحر ، لا حاكم يردعهم ، ولا دين اعتقاد يجمعهم ، وهم فيما بينهم قبائل وشعوب ، وأصناف وضروب ، وخلائق وأمم لا يعرفون الإسلام والسلم ؛ بل كل أمة تلعن أختها ، وتنهب

---

(١) خيسار : مدينة من مدن الثغور التى بين غزنة وهراة . معجم البلدان (٤٥١٣) .

(٢) تبت : بلد بأرض الترك . وهى دولة فى جنوب غرب الصين مشهورة باسم هضبة التبت . معجم البلدان (٢٤٣٠) .

(٣) تركستان : هو اسم جامع لجميع بلاد الترك وبها جبل زانك وجبل النار . معجم البلدان (٢٤٩٣) .

تختها[١] ، وتأكل رختها[٢] ، وكل طائفة تعد غارتها وتقصد جارتها ، وكل من قوى على غيره كسره إما قتله وإما أسره ، لم تزل المكافحة بينهم قائمة، والمناطحة بين ثيرانهم وكباشهم دائمة ، وعيون الرشد والاهتداء عنهم نائمة ، وضوارى الظلم والاعتداء فى مسارح سوارح أسلامهم[٣] سائمة ، يعدون النهب غنيمة ، والفسق والفجور والنميمة أجمل صنعة وأكمل شيمة .

يأكلون الكلاب والفار ، وما وجدوه من صيد القفار ، والميتة والدم والهوام ، لا يعرفون الحلال منها والحرام ، ويلبسون جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها ، كما كان مشركو العرب فى الجاهلية ، قبل إشراق شمس الملة المحمدية ، لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوع من الشجر ، يشبه شجر الخلاف[٤] ، هو ثمرهم فى الشتاء والاصطياف ، اسمه قسوق .

وهم على ما هم عليه من الفسوق ، يعبدون الأوثان والأصنام ، ويسجدون للشمس إذا بزغت من الظلام ، ويعظمون النجوم ويعبدونها ، وتخاطبهم الجن ويرصدونها وفيهم كهنة يعتقدونها ، وسحرة ومكرة وسواجع وزجرة يجبى خراجهم إلى ملك الخطا ، وهم على أشد كفر وخطا قد تركب الكفر فى أحشائهم ، ﴿وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَاءِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١] .

وأعلى من فيهم من أكابرهم وذويهم علامة رياسته وانفراده بسياسته ، وأنهم فيهم ذو بأس شديد ، ورأى سديد ومال مديد ، كون ركابه من حديد ، وباقى أعيانهم وذوى مكانتهم وإمكانهم إن كانوا ذوى جد ، فركابهم قضيب ملوى أوقد ، وعندهم أفخر ملبوس جلود الكلاب والنموس ، والذئاب والتيوس

---

(١) التخت : كلمة فارسية تعنى عاصمة المملكة .
(٢) الرخت : أى الرخاء والنعم .
(٣) أى الأرض تنبت السلم وهو نوع من النبات .
(٤) الخلاف : صنف من شجر الصفصاف .

وطس على هذا جميع تجملاتهم ، ومفاخر آلاتهم فهم فى قديم الزمان وبعد الحدثان من حين بلغ ذو القرنين بين السدين ، وساوى على يأجوج ومأجوج بين الصدفين إلى آخر وقت ، كانوا فى قلة ومقت ، وضيق حال وسوء بال ، لا دنيا رخية ولا آخرة رضية ، حتى نبغ منهم هذا اللعين الطاغية تموجين ، الذى تسمى بجنكيزخان ، وساعده قضاء الديان ، فأمده الزمان وأعطاه المكان، لأمر يريده الرحمن وقضاء قدره على عبيده فى سالف الأزمان ، فطم العالم بالفساد فأهلك العباد والبلاد ، وأخلى الديار والدار، وعم غالب بلاد الإسلام بالشنار والبوار ، فصلى الله على سيد بنى عدنان بل أشرف جنس الإنسان ، الذى قال : «يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه مخسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها»[١] .

فاتبعه منهم النساء والرجال اتباع اليهود والكفرة والمسيح الدجال ، أمم لا يحصرها حساب ولا يحصيها ديوان ولا كتاب ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر:٣١] فأرشد إلى طريق الضلال بعدما تاهوا ، وصار كل من أولئك الطغاة الكفرة الهجرة ، الأوغاد اللئام ، وكل كلاب خادم كلاب الصعود يجرى سيفه الكال المكدود[٢] ، من أشراف الملوك وملوك الأشراف، وفى أعضاء الأسود ، وفى رقاب النمور والفهود ، وكل ماضغ شيح وقيصوم وعلج[٣] من أولئك العلوج[٤] وعلجوم[٥] ، يتفكه فى أنواع المستلذات من المشروب والمطعوم ، وكل صعلوك معلوك ، من تركى متروك أو خدم

---

(١) الحديث : لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب مطبوعة .

(٢) الكال المكدود : المتعب من كثرة الضرب والطعن .

(٣) علج : الحمار الوحشى السمين القوى .

(٤) العلوج : أى العير .

(٥) العُلْجُوم : الجمع علاجيم وهو البستان الكثير النخل .

مملوك ، يتحكم فى رقاب أكابر الملوك ، ويستعبدون أحرار أولادهم ، ويستفرشون زوجاتهم وبناتهم فى بلادهم :

على رأسِ عبدٍ تاجُ عزٍّ يُزينُه وفى رجلِ حُرٍّ قيدُ ذُلٍّ يُشينُه

ومن لا يعرف البطائن المروية[١] ولم يسمع بالرقاع الكرباسية[٢] ، يستوطى الاستبرق والديباج ، ويتقلب على تخوت الصندل والساج[٣] ، ويترقى إلى سرر الأبنوس والعاج ، ويعامل التجار والمضاربين فى البر والبحار ، بألوف الألوف من الدرهم والدينار ، فيجبى إليهم نفائس المضارب من المشارق والمغارب ، ومكامن المعادن وذخائر الخزائن ، كل ذلك بواسطة ذلك الطاغية واستيلاء الفئة انباغية .

وكان من أمر هذا المصاب الذى بدل حلاوة العيش بمرار المصاب ، وخلد فى الدهر قواعد البلايا والأوصاب[٤] ، أن الله القاهر فوق عباده الذى لا يسئل عما يفعل من مراده ، بل له المراد فى عباده وبلاده المتصرف فى ملكه تصرف المالك فى ملكه ، لما أراد ابتذال الصون وعموم الفساد فى عالم الكون ، واستئصال غالب أهل الأرض وإذاقة بعض عباده بأس بعض ، وإظهار آثار غضبة على صفحات الشهود ، وإبراز أسرار قهره على وجنات الوجود ، ولحن سطور صدور علماء العالم على روح الورود ، بلسان نار السخط ذات الوقود ، ونقص أرض العلم من أطرافها ، وإخلاء ربوع المحاسن من ألافها ؛ أينع هذا التمساح من أفواج أمواج هذه البحار ، ونبع هذا التنين المبين من أوعار تلك القفار وأغوار أوغادها تيك التتار ، فكان

---

(١) البطائن المروية : خفايا الأمور وأسرارها .

(٢) الرقاع الكرباسية : كلمة فارسية تعنى أثواب بيضاء .

(٣) الساج : نوع من أنواع الشجر .

(٤) الأوصاب ، مفردها وصب : وهو المرض .

ممتازا على أقرانه بوفور عقله وحسن بيانه ، ذا فكر مصيب ورأى صائب ، وحزم مجيب وعزم ثاقب ، وهمة تبارى الأفلاك ، وثبات يجارى السماك كسر بصدماته الأكاسرة ، وقص بسطواته القياصرة ، وقرع بعزماته على قمم الفراعنة والجبابرة ، وقهر بحملاته قهارمة خواقين القياصرة[١] ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، أعجميا عجريا[٢] لا يحسب ولا ينسب ، لا طالع الأخبار، ولا اقتفى فى سياسة الممالك الآثار ؛ بل فرع ما فرعه من القواعد فى صحيفة تفكيره ، واخترع ما ابتدعه من تدبير الملك من مطالعة هواجس ضميره ، فأسس قواعد لو أدركه اسكندر ودارا[٣] لما وسعهما إلا اقتفاء أثره، وشيد مبانى لو بلغت نمروذ وشدادا لبنيا قصور قصورهما على أركان خبره وخبره.

ورتب تجهيز السرايا والجنود ، وربط عقود الجيوش والبنود بطرائق يعجز عنها مهندس الحكمة ، ويتقاعد عن حل رموزها معزم الفطنة ، وغاية ما يتعاناه ويستعمله ويتعاطاه جيوش الأتراك فى بسيط الأرض ، من إبرام طرائق عساكرهم والنقض ، إنما هو من قوانين ما رتبه وأفانين ما هذبه وركبه ، وله فى ترتيب حراب الحروب وما فى فن الضرب والضراب من ضروب ، وطرائق الاصطياد مخترعات دقائق لم يسبق إليها من لدن كيخسرو وكيقباد[٤] ، أحكم بها الموافق ونصر المصادق ، وكبت المعادى، وكسر الأعادى ، واتسع له فى التضييق على الإسلام والمسلمين المجال ،

---

(١) القهارمة ، مفردها قهرمان : وزير الملك. وخواقين ، مفردها خاقان : الملك .

(٢) عجرياً : معيباً ومشيناً .

(٣) دارا ؛ من كبار ملوك الهند وكان ولى عهد الإمبراطور شاه جيهان . مات سنة (١٦٥٩م) .

(٤) كيخسر ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة ، تفاقمت عليه محنة التتار فقتلوه ونهبوا بلاده عام (١٢٨٣م) . كيقباد ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة . كان بينه وبين التتار حروب كثيرة وتوفى أثنائها عام (١٢٣٦م) .

فكل من عامله بالمجاملة ، وتلقاه بالعبودية وحسن المعاملة أبقى على نفسه وأهله وماله ، وحصنهم من أليم خيله ورجاله ، ومن قابله بالمقاتلة وقاتله بالمقابلة ، وتلافى صف قتاله سورة المجادلة ، محا سطور كونه من لوح الوجود ، وأوطأ سنابك خيله منه الجباد والخدود ، فخرب ديارهم ومسح آثارهم مع شركه وإسلامهم ، وتبدد عساكره ونظامهم ، ومع أن أكثر الملوك والسلاطين وحكام الممالك الإسلامية من الأمراء والأساطين ؛ لعدم اكتراثهم بالأتراك والتتر وشدة ما هم فيه من النخوة والبطر ، ولاعتمادهم على حصونهم الحصينة ، وتعويلهم على معاقلهم المكينة ولكثرة العدد والعدد ، ومساعدة المدد والمدد ، ولوفور العمائر ببلادهم وخراب بلاده ، وبسطة استعدادهم وضيق استعداده ، لم يعاملوه إلا بالمكافحة ، ولا ردوا جواب خطاباته إلا باللعن والمكالحة والسب والمقابحة ، ولا قابلوه إلا بالمرامحة والمراوسة والمناطحة ، فقتلهم وأبادهم واستصفى طارفهم وتلادهم ، وتوطن ديارهم وبلادهم ، وأبادهم عن آخرهم ، وأطفأ قبائل عشائرهم ، فمد لأكابرهم أسمطة[1] الرزايا ، ووضع فى أفواه أصاغرهم أثدية المنايا ، وأضافهم فى ولائم الدمار وأطافهم على نجائب[2] الانكسار ، فى ملابس البوار ، فاستأصل شأفتهم بالكلية وحكم فيهم صوائل المنية ، فلم يبق من مائة ألف إنسان مثلا مائة إنسان ، وذلك أيضا إما على سبيل التغافل أو على سبيل النسيان وسيذكر على سبيل الإجمال ما يدل على تفصيل ما له من أحوال ، وشواهد ما فزعه من أهوال .

واستمر ذلك فى ذريته وإن كانوا رجعوا عن ملته ، وأصل هذه الأصلة[3] التى أضحت بخلقان اللعن أكسى من بصله[4] ، قبيلة من تلك التتار

(١) أسمطة ، مفردها السمط : الخيط والحبل .

(٢) النجائب ، مفردها النجيبة : الناقة .

(٣) أى أصل هذا الجنس من البشر .

(٤) أكسى من بصله : وهذا مثل يضرب لمن يلبس ملابس كثيرة .

الساكنين فى تلك القفار ، تسمى قنـات ظلمـة عتـات ، غـير أمنـاء ولا ثقـات ، منها آباؤه وأجداده ، وفيها أقاربه وأحفاده ، وإخوته وأولاده ، فنشـأ كمـا ذكـر بطلا باسلا وشجاعا كاملا ، سهام أفكاره فى عمره مصيبة ، ورهـام[1] آرائـه فى مكره خصيبة .

ثم اتصل بعد ما أخنى[2] وخان بملك الخطا يسمى باونك خان ، وأظهر من أنواع الفراسة والفروسة والكياسة ما فاق به أناسه ، وفات من العقل قياسه ، فقربه الملك وأدناه ولمهماته اصطفاه ، ولا زال يترقى عنده إلى أن ملك جنده وصار عضده وزنده ، ودستور ممالكه ومسلك مسالكه ، وحاكم أمرائه وناظم أمور وزرائه ، وناظر جمهور كبرائه ، وعين أعوانه وعون أعيانه ، وأعز من إخوته وأولاده ، وأبر من حفدته وتلاده وكثفت حواشيه وعظمت غواشيه[3] ، وملأت السهل والوعر فواشيه ومواشيه[4] ، فثقل على الوزراء وصعب على الأمـراء إذ مدار الملك صار عليه ، ومرجع الأمير والمأمور إليه ، فحسده أولاد الخان وإخوته وأجناده وأسرته ، وأعملوا له المكائد ونصبوا له المصائد ، وتعاطوا إفساد صورته وتواطؤا على إخماد سيرته .

فصاروا يتناوبون على ذلك فى غيبته ، ويمزقون أديم عرضه عند الخان ، ويشقون ستر عصمته بمخاليب البهتان ، ويراقبون للكلام أوقات القبول ، ويواظبون فى السعاية عليه بدلائل المعقول ، حتى أوغروا صدر الملك عليه ، وأخذ يفكر فى كيفية إيصال الإساءة إليه ، ولم يقدر على

---

(١) الرهام ، مفردها الرهم : الضعف .
(٢) غدر وأفحش .
(٣) دواهيه .
(٤) أزهاره الجميلة المختلفة الألوان .

مواجهته لوفور جماعته وكثرة حاشيته ، فإن أوتاده كانت ثابتة وغراس كالأرزة[1] نابتة ، وفروع دوحة عصباته قد أحاطت بالملك من كل جهته ، حتى قيل : إن ذلك الثقيل كان له من القرابات وذوى الأرحام والعصبات والأولاد والأحفاد ، ما جاوز فى التعداد عشرة آلاف نسمة ، كل له حرمة وكلمة ، فأضمر له السلطان البيات ، لذلك من عسكره أولى الثبات والأثبات الثقات ، ولم يختلف عليه فى ذلك اثنان لأنه كان قد استحكم فيهم منه الشنآن[2] ، وعلموا أن سهم مكرهم نفذ ، وحسام فكرهم فى قطعه فلذ[3] ، ورأوا من الرأى أرصنه أن يراقبوا لحتفه مكمنه ، فتواعدوا على ليلة معينة يدهمون فيها مأمنه ، وكان عند الخان صبيان محرمان لا يؤبه إليهما ولا يعول فى الأمور عليهما ، يدعى أحدهما : كلك والآخر : باده ، فانسلا من بين أولئك القادة ، وسلكا طريقا غير العادة ، وأتيا تموجين الطاغية اللعين فى خفية ، ونبها وعيه وأخبراه وبصراه وأنذراه وحذراه ؛ بما تمالأ[4] عليه الملك مع عسكره المنهمك .

وقالا : أيها العفريت قد طبخت لك قدرُ التبييت[5] ، فتنبه من النوم وراقب فى الليلة الفلانية هجوم القوم ، فإنه قد مرج مارج الفتنة ، فامرج وعن وهاد غفلتك اعرج ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ، وباعاه من السر ما جرى بتخيير المشترى ، وقصا عليه القصص ؛ فخلصا طير حياته من القفص ، وظبى نجاته من القنص ، فشكر لهما فضلهما واستكتمهما قولهما، ثم تثبت فى أمره وأخفاه عن زيده وعمره ، وجمع تلك الليلة رجله

---

(١) الأرزة : شجر يشتهر بصلابة خشبه وجودته .

(٢) الشنآن : البغض والكراهية .

(٣) قطع ونفذ .

(٤) أى تشاور .

(٥) أى قدر له الأمر ليلاً .

وخيله، ولم يبد تلك الحال لأحد من الرجال ، بل أخلى بيوته ولازم سكوته ، وقصد أحد الجوانب بما معه من راجل وراكب ، وأقام فى كمين ، ينظر أيصدق الواشى أم يمين[1] ، فما مضى هزيع[2] من الليل إلا وقد هبطت الخيل ، فوجدوا البيوت خالية والأطلال خاوية ، فتحقق صدق الناقل وأنه ناصح عاقل ، فعمل مصلحته وأخذ حذره وأسلحته وتقرر وقوع النكد ، فتقدم إمامهم واستعد فقصدوه ، وبالأذى رصدوه ولا زالوا يتبعونه حتى التقوا بمكان يسمى ببالجونة ، وهو عين ماء فى حدود بلاد الخطا فاشتعلت بين الفريقين نار الحرب ، وقصد كل منهم الآخر بالطعن والضرب ، فأعانه الله ونصره ، فكسر الخان وعسكره ، وفر بمن معه من فئة وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وغنم تموجين من الأموال والمواشى والأثقال ، وذخائر الخزائن ونفائس البحار والمعادن ، ما فات العد والحصر خارجا عن سعادة النصر ، وهرب الخان وتهدمت منه الأركان ؛ فجمع جنكزخان عسكره ، وضبط أسماء من حضره ومن كان شاهد القتال ومواقف الحرب والجدال ، من النساء والصبيان والرجال ، ومن خادم ومخدوم ، وخاصم ومخصوم ، ومأمور وأمير ، وكبير وصغير ، حتى السائس والجمال ، والطباخ والبغال والطفل الرضيع ، والنذل والوضيع ، ومن شهد تلك الغارة ، أو كان فى تلك الداره ، ولو حاضر للتفرج مع النظارة ، واستبشر بوجودهم وتيمن بورودهم، فأثبتهم فى الديوان بأسماء آبائهم وجدودهم ، وفرق عليهم ذلك الفيء ولم يرفع إلى خزائنه منه شيء ، بل وزع ذلك المغنم الوافر العظيم المتكاثر على الحاضرين معه من العساكر ، وضبط أسماءهم فى الدفاتر ، وفرق ذلك العرض العريض الطويل على قدر الحقير منهم والجليل ووعدهم بكل جميل .

(١) يكذب .

(٢) جزء من الليل ، وقيل ساعة.

وأما الغلامان اللذان أخبراه ، وعلى ما كان أضمره الخان أظهراه ، وكانا سبب حياته وخلاصه من الموت ونجاته ، فإنه جعلهما ترخان فصار لسهم مقاصده كأنهما شرخان[1] ؛ والترخان عبارة عن المعافى المطلق ، يستوفى حقوقه ولا يقوم بما عليه من حق ، لا يؤاخذ بقصاص إن قتل ، وقس على هذا ما يوجبه القول والعمل ؛ مقضى المآرب موصول المطالب ، لا يكلف بخدمة ومباشرة ولا بحضور ومعاشرة ، مهما طلب أعطى ويعد مصيبا ولو يخطى ، وأعلى مراتبه فى مراعاة جانبه ؛ أنه يدخل على السلطان من غير استئذان ، وهو نائم مع سراريه ونسائه وجواريه فيذكر ما له من مآرب فتقضى ، ومن شفاعة فتقبل وتمضى ، ويعطى بذلك مناشير وتواقيع وتقارير تبلغ التاسع من أولاده ، ويشمل أحكامها جميع أسباطه وأحفاده .

ولما انتصر وحصل أمنه واستقر ، وتعاظم أمره واشتهر ، وعظم صيته وانتشر ، قرر كل من حضر تلك الوقعة فيما يليق به من منصب ورفعة ، فأقبلت القبائل إليه وانهالت الرؤوس والوجوه عليه ، ورجع الخان واستعد وأعد ما وصلت إليه يده من عدد ، واستعان عليه بالمدد والعدد ، ثم تلاقيا كرتين وتصاولا مرتين ، انكسر الخان فى الأولى ، وقبض عليه بعد الكسرة فى الأخرى فقتله وأباده ؛ واستملك بلاده ، واستولى على عساكره واستحوذ على ذخائره وعشائره ، وهربت أولاد الخان ، ولجأت إلى أطراف تركستان ، ثم أرسل سلطان الخطا والصين بكلام رصين ، يدل على عقل حصين واسم ذلك السلطان التون خان ؛ وطلب المهادنة والموافقة ، والمصافاة والمصادقة ، فلم يلتفت إلى كلامه ؛ فضلا عن إعزازه وإكرامه اتكالا على حسبه ، واستنادا إلى نشبه[2] ونسبه ، واعتمادا على سعة ممالكه،

---

(١) شرخان : مثلان يقال هو شرخى أى مثلى .
(٢) أى أصله .

وكثرة ملوكه ، ومناعة حصونه ، وعمارة بلاده ووفرة مملوكه ، فإن ممالك جنكزخان بالنسبة إلى ولايات الخاقان لاش ، وأقل من لاش ، وعساكره وقبائله ، بالنظر إلى أهل الصين أوشاب(١) أوباش ، فرجع قصاد جنكزخان بالخيبة ، وذكروا ما رأوا لملك الصين من عظمة وهيبة ، فلم يلتفت إليه ، ثم قصد التوجه عليه بعدد كالرمال ومدد كالجبال ، وواقعه فكسره ، وناقفه فحصره(٢) ، وقبض عليه وأباده واستصفى ولايته وبلاده وكانت هذه الكسرة والنصرة ، فى سنة إحدى وستمائة من الهجرة .

فاستقل من غير منازع ولا ممانع ولا مدافع ، فلما خلصت له الممالك وانقاد له المملوك والمالك ، أخذ فى ترتيب الأمور وتهذيب الجمهور ، وطير أجنحة مراسيمه إلى أطراف ممالكه وأكناف أقاليمه ، فرفع جميع ما هم عليه من النهب والغارات والتحزبات وطلب الثارات ، فهدم قواعد الظلم والتعدى فى ممالكه ، فلم ير أيمن من ولايته ، ولا آمن من مسالكه وهى ممالك المغل والخطا ، و إلى الصين شرقا وولايات المغل والجنا وبلاد الترك ، وإلى حدود أترار ما وراء النهر غربا .

فجرى بعد النهب والإسار فى ممالك المغل والتتار ، والبغى والعدوان العدل والأمان ، والسلامة والاطمئنان وبعد السرقة والخيانة الوفاء والأمانة ، وأمر بوضع البرد(٣) والمنارات والعلائم والاشارات ، وعمرت المفاوز والمناهل ، وسكنت الصحارى والمذاهل(٤) ، وعرفت طرق المهامة

---

(١) شرذمة قليلة حقيرة .

(٢) أى ناوشه فى القتال .

(٣) البرد ، مفردها البريد : المكتب الذى يتسلم ويسلم الأشياء المرسلة .

(٤) المذاهل ، مفردها المذهل : المكان الذى يُذْهَل فيه ويغيب عنه رشده .

والمجاهل[1] ، وائتلفت تلك الطوائف والأمم وانتشر صيت عدلها في العرب والعجم ، واخترع كما ذكر أنواع سياسات ، وقرر للمملكة قواعد بنيان وأساسات ، ألف بها بين تلك الطوائف فلم ير بينهم مخالف ، ولا غير مؤالف على سعة ممالكهم واختلاف مسالكهم ، وتعدد أديانهم وتفاوت كيل أخلاقهم وميزانهم ، فإنهم كانوا ما بين مسلمين ومشركين ومجوس وأرباب ناقوس ويهود ، ومن لا يدين لمعبود ، وصباه وغواه ، وعباد الشمس والنجوم ؛ ومن يسجد لها أوان الرجوم ، وكل منهم يتعصب لمذهبه ويغض من مذهب صاحبه ، فلم يتعرض لأحد في دينه ولا وقف له في طريق اعتقاده ويقينه .

وأما هو فلم يتقيد بدين لا كافر مع الكافرين ، ولا ملحد مع الملحدين ، ولا يتعصب بملة من الملل ؛ ولا يميل لنحلة من النحل ، بل يعظم علماء كل طائفة ، ويحترم زهاد كل ملة على دينها عاكفة ، وبعد تلك الخصلة قربه[2] حيث يعظم كل دين وحزبه ، وكل من اختار من أولاده ، وأسباطه وأحفاده ، وأمرائه ورعيته ، وأجناده دينا من الأديان ، لا يعترض عليه أي دين كان ، فبعضهم كان مسلما حنيفيا وبعض كان يهوديا ، وبعض نصرانيا ، وبعض مجوسيا ، إلى غير ذلك من الإلحاد والزندقة وعدم الاعتقاد ، وحيث لم يتعرضوا إلى دنياه ولا نازعوه ملكه الذي تولاد ؛ لم يشاققهم في دينهم ولم يوافقهم في يقينهم .

واخترع هو لنفسه في الملك قواعد حمل عليها المقارب والمباعد ، ثم لما لم يكن له كتاب ولا خط ، ولا لأولئك الحروف فلم يعرفون به قط ، أمر أذكياء قبيلته وعقلاء مملكته ، أن يضعوا له خطا وقلما يكون لهم علما وعملا، فوضعوا له قلم المغل ، واشتغلوا به أهم شغل ونسبوه إلى قبيلته ،

---

(١) المَجَاهل ، مفردها المجهل : المفازة لا أعلام فيها أو لا يهتدى فيها .

(٢) أي قربه من فعل الخير والعمل الصالح .

ليدلوا به على فضيلته ، فقالوا : قوتاتقو ؛ يعنــى قلـم قتـات ، وهــى قبيلـة ذلـك القتات، فوضعوا مفرداته ورتبوها ثم حملوهـا وركبوهـا ، وهـى أربعـة عشـر حرفا ظاهرة بينهم لا تخفى ، وهذه صورة مفرداتها : .... (١)

فـأمر أولاده وأحفـاده وجماعتـه وأجنـاده ، ومهــرة الرجــال والأذكيــاء والأطفـال ، أن يتعلمـوا هـذا الخـط وينشـروه ، ويتداولـوه ويشـهروه ، فانتشـر بينهم حتى ملأ رأسهم وعينهم ، فرسموا بـه المراسيم والمناشير ، ورصعـوا بجواهـره جبـاه المسـاطير ، ووضعـوا الرسـومات الديوانيـة ، والتوقيعـات السلطانية ، وابتدع لهم تواريخ وحساب كل ذلك بهذا الكتاب .

ثم لما تقرر أمره وانتشر فى الآفاق ذكره ، مهد قواعد أسسها ، ونصـب فى دوحة ملكه أصول خلاف غرسها ، ووضع على ما اقتضـاه رأيـه التعيس وفكره الخسيس ، طرقا وأفانين ودرب فى أمور الحكومات أساليب وقوانيـن ، فجعل لكل حكومة حكما ، وفوّق لكل حادثة سهما ، وفرع لكل حسنة مثوبـة ، ولكل سيئة عقوبة ، وقرر لكل معصية حدا ولكـل بنيـان مخالفـة هـذا ، ولكـل فرع أصلا ، ولكل سهم من الوقائع نصلا .

وبين كيفية الصيد والحـرب ، وسـلك فـى كـل ذلـك الطريـق والـدرب ، وألقى دروس ذلك على أولاده وحفدته وجيوشه ورعيته ، بحيث إنهم حفظوهـا ورعوها وفى سير سيرهم هرجا ومرجا وعوها .

فمن أحكامها المظلمة وفروعها المعتمة ، صلب السارق وخنق الزانـى، وإن شهد بذلك واحد فلا يحتاج إلى ثانى ، ثم فصل حد السارق بهذيان فـارق، فقال فى السرقة : من جر كاه أو بيـت شـعر واه ، بوجـوب الصـلب ، وبقطـع اليدان كان بالنقب(٢) ، ثم كلا السارقين يؤخذ ما لهما من مال وعين ويسـترق ما لهما من أولاد ، وينتقل إلى السلطنة ما لهما من طريف وتلاد .

---

(١) بياض فى أصل المخطوطة .

(٢) أى بالتحرى والتنقيب .

ومنها حقية دعوى من سبق سواء كذب أو صدق ، ومنها استبعاد الأحرار ، وتوارث الفلاح والأكّار[١] ، ومنها توريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج ، وتداولهم إياها فوجا بعد فوج ، فإن تزوجها أحد منهم كان أحق بها ، ولا تخرج عنهم ، وإلا زوجوها بمن شاؤا ، وأخذوا مهرها وباؤا ، ومنها عدم العدة وعدم انحصار الزوجات فى عدة ، ومنها الأخذ بقول الجوارى والصبيان ، وبما يتقوله على الرجال العبيد والنسوان .

ومنها امتثال أمر السلطان على الفور من غير توان ، ومنها لزوم ما لا يلزم من العطايا ، وإيجاب ما يتبرع به الإنسان من التجملات والهدايا ، حتى لو أعطى شخص شخصا من ماله هدية أو شقصا[٢] ، فإن ذاك يلزمه وفى كل عام يغرمه ، ومنها الجثو بين يدى الحاكم على الركب وقت التحاكم ، ومنها مطالبة الجار بالجار ، ومعاقبة البرىء بجريمة مرتكب الأوزار وذلك لأدنى مناسبة ، من معرفة أو مصاحبة ، فضلا عن أكبر أصحابه ، أو شديد قرابه ، ومنها أن لا يتقدم الوضيع على الشريف ، ولو كان ذا مال عريض وجاه كثيف . ومنها العمل بما يقتضيه العقل والكف عما لا يدركه ولو ورد به النقل . ومنها منع عفو الحاكم وإن عفا المظلوم عن الظالم .

ونحو هذه الخرافات الباطلة والهذيانات العاطلة ، ومن أمحقها وأوسخها وأخسفها ، أنه لو أخذ أحد أبله عن قواعدهم ذو غفلة ، ومن ثوب أحدهم قملة، فإن دفعها إلى صاحبها خلص من تبعة عواقبها ، وغرامة مطالبها ، فإن شاء قصعها وإن أراد وضعها ، وربما اختار عودها إلى مكانها فرجعها وإن قتلها أو رماها ، وإلى صاحبها ما أداها ، فإن صاحبها يخاصمه وإلى حاكم التتار يحاكمه ، ويدعى عليه بين يديه بأن هذا الإنسان عمد إلى حيوان

---

(١) الأكار : الحرّاث .

(٢) النصيب والقطعة من الشىء .

ربيته بين سحرى ونحرى ، وغذيته بدم صدرى وظهرى ، فقتله قصدا وأضاعه عمدا ، من غير سبب تقدم إليه ، ولا إيذاء اجترأ به عليه ، فينسبه إلى الاجترام ويأخذ ديتها منه بالاغترام .

وقس على هذا اليسير أنواعا من الكثير ، ومن نتن هذه البعرة على خرافة البعير ، ومن هذه القواعد أمر الأقارب والأباعد بما يستصوبه العقل ، ويستنتجه النقل ، من سلوك طريق الفتوة ومعاملة الخلق بالمروة والكرم والإحسان ، والمداراة مع كل إنسان ، والكف عن الظلم والغارات ، اللهم إلا فى طلب الثارات .

ثم وضع طرق المكاتبات والمراسلات والمشافهات والمخاطبات ، فكان فى المكاتبات طريقة رسمه أن لا يزيد على وضع اسمه ، مثل أن يقول فى أول الكتاب وبراعة استهلال الخطاب ، عند ابتداء المقال بعد عدة أوصال ، جنكز خان كلامى ، ثم يكتب تحته من نصف السطر الثانى إلى فلان ليفعل كذا ، ولا يتعلل بإن وإذا ، ثم يذكر مخ المقصود بطريق معهود ، بين العبارات من غير مجازات واستعارات ، ويختم بذكر الزمان واسم المنزل والمكان ، وإذا استدعى أحدا إلى الطاعة وملوك السنة أسوة الجماعة ، فإنه يتجنب التهويل والتهديد ، ويتحامى عن التشريد والتشديد ، ويرغب بالوعد ويترك الوعيد ، ثم يقول : إن سمعتم وأطعتم فزتم وغنمتم ، وإن أبيتم وتماديتم فليس أمر ذلك إلينا ولا درك علمه علينا ، يرى فيكم الخالق القديم رأيه فإن فى تقديره وتدبيره كفاية ، فهذه القاعدة باقية فى تلك الفئة الباغية مستمرة على الدوام ، وإلى هذه الأيام جارية على هذا النمط يكتبون اسم الخان والخاقان فقط ، وكذلك الأمراء والوزراء والمباشرون والكبراء ، يكتبون فى أول الكتاب فلان لا كنية ولا جناب ، وهكذا إلى الأكابر من الأدانى يذكرون اسم الكبير ووظيفته فلان لا الفلانى .

ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونة وقرر عليها الأمور الديوانية والأحكام السلطانية ، أمر بها فكتبت وبهذا الخط رتبت ورسمت فى طوامير[1] ، ولفت فى شقق الحرير ، وزمكت[2] بالذهب ورصعت بالجواهر ، كما فعل مانى[3] النقاش الكافر واضع مذهب المجوس ، ومصوره على صفحات الطروس[4] ، ومبرز المعقول بطريق المحسوس ليكون أقرب إلى تفهيم النفوس ، فى كتابه المسمى (بزند واستا) ثم أمر باحترامها وتوقيرها ، والمحافظة على ضبطها وتحريرها، والعمل بها والاقتداء بما فيها ، وتعلق أهل ملته بقوادمها وخوافيها، ثم رفعت إلى خزائنه وهى عندهم أعز من الكبريت الأحمر فى معادنه ، واسمها بالمغلى : التورة ، وتفسيرها : الملة المأثورة ، فإذا جلس منهم سلطان على سرير ، وذلك بما للرؤساء من اتفاق وتدبير ، وعادتهم فى ذلك أنهم إذا رفعوا عليهم سلطانا ، وأرادوا أن يبنوا لدار المملكة خانا ؛ اجتمع الأمراء من الأطراف ، واستدعوا أركان الثغور والأكناف ، واشتوروا فيما بينهم مدة أيام ، واستمروا فى ذلك ما بين نقض وإبرام ، وربما أقاموا فى ذلك الجمع العام حولا جميعا أو ضعفى عام ، ويسمون تلك الجمعية (قورلتاى) ، وهى مستمرة الحكم فى المغل والجغتاى ، وسبب ذلك تدافع الإمرة ، والفرار من تلك السلطنة الحلوة المرة ، كما كان الصحابة الكرام يتدافعون الفتاوى خوف الآثام.

---

(١) طوامير ، مفردها الطامور : الصحيفة .

(٢) سكت .

(٣) مانى النقاش : مؤسس المذهب المانوى لدى الفرس القدماء ؛ وهو المذهب القائل بوجود إله النور وآخر للظلام يحكمان العالم . هلك سنة (٢٧٧م) .

(٤) الصحيفة التى محيت ثم كتبت .

فإذا وقع الاتفاق بين الرفاق وأمراء الجند ورؤساء الآفاق على واحد من أولاد الخان ، وأن يكون عليهم الملك والسلطان ، وتصوب الرأى عليه وتسدد وضعوه على لبد أسود[1] ، ثم رفعه من الأرض إلى السرير أربعة أنفس كل أمير كبير ، كل حامل بطرف ، رافع فى زعمة راية الشرف؛ والخان يصيح بلسان فصيح : يا رؤساء ويا أمراء ويا ملوك ويا زعماء ، أنا ما أقدر أن أتسلطن عليكم ولا طاقة لى أن أتحكم لديكم ، ولا قوة لى بهذا الحمل الثقيل ، والدخول تحت هذا الأمر العريض الطويل ؛ فيقولون : بلى يا مولانا الخان تقدر أن تقوم بحمل أعباء هذا الشأن ، فيتكرر الخطاب ويتعدد الجواب حتى يجلسوه على السرير ، ويبتهج بذلك الكبير والصغير ، والمأمور والأمير ، ثم يأتون بالتوراة الجنكزخانية الملعونة الشيطانية ملبجلة معظمة محترمة مكرمة ، فينهضون إعظاما لها ؛ ويتبركون بمسهم أذيالها، فينشرونها ويشهرونها ، ثم ينصتون فيقرؤنها ، ثم يبايعون الخان على إقامتها، وأن يراعى أحكامها حق رعايتها ، ويبايعهم على امتثال أحكامها ، وإجراء نقضها وإبرامها ، فيجيب كل منهم الأمر على ذلك وأن يقيم شعائرها المملوك والمالك ، ثم يضربون له الجنوك[2] مرار ، ثم يتوجهون إلى الشمس فى وجه النهار ، ويضربون لها الجنوك ويسجد لها من فيهم من ملك ومملوك ، ولا يفعلون هذا الفعل الشنيع إلا فى أيام الربيع .

فإذا تعاقدوا وتبايعوا وتعاهدوا وتتابعوا ، رفعوا تلك الكفريات وأحضروا الآلات الخمريات ، فأدار الخان عليهم الكاسات ، واستعملوا الأقداح والطاسات ، وفتح الخزائن وأظهر المكامن ، ونثر النثار من الدرهم والدينار ، وخلع الخلع والتشاريف ، وأعاد فى دروس النفائس أبحاث

---

(١) لَبد : البساط . والقماش .

(٢) الجنوك ، مفرذها الجنك : آلة طرب ، وهى كلمة فارسية .

التصريف ، واستمروا على ذلك أياما والإنعامات تدر عليهم خاصا وعاما ، ثم يأذن لهم فيتفرقون ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، وهذه الطريقة مستعملة وإلى آخر وقت غير مهملة فى جميع ممالك الشرق: من الخطا ، والدشت[1] ، والصين[2] ، والمغل ، والجتا ، وفى ولايات الجغتاى، والروم ، قد اعتادوا غالب هذه القواعد والرسوم فقدموها على القواعد الإسلامية والشرائع الأحمدية المحمدية ، اللهم ألهمنا الصواب ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

[٩٤] قيل : وسبب تحركه إلى ممالك الإسلام ، وتوجه عنان سخطه إلى طلب الانتقام ؛ هو أنه لما استقر أمره وانتشر بعد الجور بالعدل ذكره ، وطابت بلاده وأمنت ، وخمدت حركات الظلم وسكنت ، توجه من بلاد ما وراء النهر فئة ، فى سنة ثلاث عشرة وستمائة فيهم ثلاثة أنفار من أعيان التجار ، أحدهم : يدعى أحمد الخجندى ، والآخر : عبد الله ابن الأمير حسن الجندى ، والثالث : أحمد بلجيخ ، ومعهم من أنواع المتاجر ونفائس الأقمشة والذخائر ما يصلح للملوك أولى المفاخر ، فوصلوا إلى بلاده الجارى فيها مياه كفره وعناده ، وانتهوا إلى قوقات[3] والمسيل[4] وهما محل سريره الذليل ، فأكرم نزلهم ورفع محلهم ، وأنزلهم فى قباب بيض ، وأفاض عليهم الكرم العريض ، وكان شعار المسلمين فى تلك البلد أن ينزلوهم فى قباب بيض من لبد ، وكانوا يقربون المسلمين ويحترمونهم دون الناس أجمعين ، ثم إن جنكزخان دعا أحد أولئك الأعيان واستعرض قماشه وساومه بعد ما قربه

---

(١) الدشت : قرية من قرى أصبهاز . معجم البلدان (٤٨٠٦) .

(٢) الصين : بلاد فى بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشماليها الترك . وسميت بذلك لأن صين بن بغبر بن كماد أول من هلها وسكنها . معجم البلدان (٧٧٠٥) .

(٣) القوقات : الأرض الغليظة .

(٤) المَسِيل : جمع مُسُل وأمسلة وهو الجريد الرطب .

وأكرمه ، فطلب منه أضعاف ثمنه وسامه[1] ما يقضى بغببه[2] وغبنه ، فما ورد جوابه ولا اعتبر خطابه .

ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ؛ ثم ساومهما الثمن ، فقالا: يا ملك الزمن إن صلح هذا القماش فخذ مُناك به بلاش ، فليكن ثمنه رضاك، وهدية فى مقابلة ملتقاك ، وتقدمة منا إليك ؛ بل خدمة لخادم أدخلنا عليك ، فأعجبه هذا الحوار ، وقال : بل أنتم تجار ، إنما جئتم لتربحوا وتكسبوا علينا وتتجحوا ، وأنتم ضيوفنا ، فالأولى أن يشملكم معروفنا ولكن أنا أقول قولا وأدفع إليكم نولا ، فإن رأيتم فيه فائدة وعاد عليكم منه عائدة قبلتموه ، و إلا فالرأى فيما رأيتموه ، ثم ذكر لهما مبلغا أرضاهما وبلغ به منتهى مناهما ، بحيث ربح درهمهما ثلاثة وأربعة ، وتضاعفت لهما مع قرب الملك المنفعة ، فقالا رضينا بما رسمت وأنعمت وقسمت .

فقال : لرفيقهما الأول إن رضيت بمثل ما رضى به صاحباك فتخول، والإ فخذ متاعك وتحول وشأنك وقماشك ، ونحن مع ذلك رياشك ، فقال: رضيت بما رضيا به وتلطف فى خطابه وجوابه فأمر فى الحال وأحضر المال ، ووزن الثمن وزاد ومَنَّ ، وألبسهم الخلع وأفضل فى المصطنع ، وأمر ببضائعهم فرفعت فى خزائنه ووضعت ، ثم أمر خواص بطائنه ، أن يدخلوا هولاء التجار إلى خزائنه .

فلما دخلوا إليها ووقع نظرهم عليها رأوا من نفائس الأموال والذخائر ، وأصناف الأقمشة والحرائر ، وأنواع الجواهر الملوكية ، وأجناس الأمتعة الكسروية ، وأعلاق ملوك الصين ، ومتحفات الملوك والسلاطين ما أبهت نواظرهم ، وأدهش أبصارهم وبصائرهم ، فنزهوا فى محاسنها أبصارهم، وأودعوا محاسن مخيلاتها أفكارهم ، ثم أتوا بهم إليه وأدخلوهم عليه .

---

(١) فاوضه وساومه .
(٢) ظلمه .

فقال : ماذا رأيتم فى الخزائن من نفائس البحار والمعادن ، فقالوا : ما لا يصلح إلا فى خزائنك ، و لا ينثر على فِرَق[1] ملوك المشارق والمغارب إلا من مكامن معادنك ، فقال : ما بايعناكم فأرغبناكم ، ولا أكرمناكم إذ صحبناكم بناء على انا عادمون ، ولا أنا بقيمة الأشياء وقدرها جاهلون ، وإنما فعلنا ذلك الإحسان وجبرنا منكم النقصان لعدة معان ، أحدها: أنكم أضيافنا وقد شملكم كرمنا وإنصافنا ، ثانيها : أن فضلنا الفضيل يقتضى إكرام النزيل ، ثالثها : إنكم مسلمون والمسلمون عندنا مكرمون ، رابعها : أردنا اشتهار اسمنا وأن تذكر فى الأقطار طريقة رسمنا ، خامسها : أنه إذا سمع بمعاملتنا التجار يقصدون بلادنا من الأمصار وسائر الآفاق والأقطار ، فتعمر المسالك والدروب ويربح الطالب والمطلوب ، سادسها : وهو أعلاها وأحسنها وأقواها أنكم أملتمونا وافدين وأنا لا نخيب رجاء القاصدين .

ثم سرحهم شاكرين ولما سمعوا ورأوا ذاكرين ، ثم اقتضت الآراء فأمر الأمراء وأكابر بلاده ورؤساء أجناده ، أن يجهز كل منهم إلى الجهات الغربية والولايات الاسلامية من جهته أحدا من المسلمين ، ببضائع من أمتعة الخطا والصين فى صفة التجار ليتعاملوا فى هذه الديار ، وتتفتح المسالك على المالك وننقل إليهم بضائع هذه الممالك ، وتكثر المعاملات وتتجد الممالك والولايات ؛ فامتثلوا مراسيمه وعدوها غنيمة ، ويجهز كل منهم من جهته من وثق بأمانته واعتمد على كفايته ، وأعطاه من النقود والأجناس ما يصير به من رؤساء الناس ، واجتمعوا قافلة وركبوا السابلة[2] نحو أربعمائة وخمسين نفرا كلهم مسلمون كُبَراً ، وكتب لهم مراسيم وجائزات بإكرام نزلهم فى الدروب والمجازات ، ومعاملتهم بالكرامات ، وأن تهيأ لهم ولدوابهم الإقامات، ذهابا وإيابا حضورا وغيابا .

---

(١) الطائفة من الناس .

(٢) السابلة : الطريق المسلوكة . يقال : سبيل سابلة ، أى طريق مسلوكة .

ثم أرسل معهم إلى السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد بن أنوشتكين ، وأنوشتكين هذا هو أتابك الملوك السلجوقية والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك الذرية ، رسالة عاطرة تستميل خاطره ، وتسيل من سحائب كرمه ومواطره ، وحسن الجوار ومراعاة جانب الجار ، وسلوك ما تنتظم به الأمور وتطمئن به الصدور ؛ ويحصل به الأمن للصادر والوارد ، والرفاهية للقائم والقاعد ، وتنعقد به أسباب المحبة من الطرفين ، وأطناب المودة بين الجانبين ، وفتح باب المراسلات وكشف حجاب المعاملات ، وإن كانت الأديان مختلفة فلتكن القلوب مؤتلفة ، وشمول نظر الصدقات السلطانية وعواطف مراحمها الملوكية على القصاد الوافدين على أبواب مكارمها ، المستمطرين سحائب صدقاتها وديَمها ، بحيث تسنى مطالبهم وتهنى مآربهم أو كما قال وصدر منه السؤال .

[٩٥] **هذا وأما أخبار السلطان قطب الدين**[١]: فإنه كان من أكبر الملوك والسلاطين ، تملك عراقى العرب والعجم ، وما فى ممالك خراسان من أمم واستولى على غالب الممالك بالقهر ، وإلى أقصى ولايات ما وراء النهر ، وجعل جرجانية خوارزم[٢] مأواه ، وتلقب لذلك خوارزمشاه ، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التتار المسلمين بقراجفتاى وعباد الأوثان ، واسترقهم قهرا وقسرا واستصحبهم جبرا وكسرا ، واستولد من تلك

---

(١) علاء الدين خوارزم شاه ، من ولد طاهر بن الحسين ، وصاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والرى وغيرهما من القديم المتسع ، وهو الذى قطع دولة السلاجقة ، كان عادلاً حسن السيرة والمعاشرة ، فقيهاً على مذهب أبى حنيفة ، توفى سنة (٥٩٦هـ) . البداية والنهاية (٧/٢٥) .

(٢) الجرجانية : اسم لقصبة إقليم خوارزم وهى مدينة عظيمة على شاطىء جيحون وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج فعربت إلى الجرجانية . خربها التتار وقتلوا جميع من كان بها . معجم البلدان (٣٠٢٥) .

الطائفة المعتدين ولده السلطان جلال الدين[١] ، فبواسطة أنه صار له منهم ولد ، صاروا أقرب عساكره إليه وعليهم المعتمد ، فكانوا شعوبا وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مقاتل ، ومنهم أيضا كانت أمه وأخواله ، وخيله ورجاله ، إلى أن خانوه وبذلوه ، وما صانوه واستدفع بهم طارق البلاء فكانوه[٢] .

غريبة نادرة عجيبة :

كان هولاء التتار متاخمين بلاد أنزار[٣] ، وهي حد ممالك السلطان وهي سد عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان ، فغزاهم السلطان وأبادهم واستعبد كما ذُكر أجنادهم ، فارتفع السد من البين ، وانهدم الفاصل بين الجانبين ، واتصلت المملكتان كالمحبين ؛ أعني مملكة السلطان ومملكة جنكزخان ، فسرت السرائر ، وابتهجت الضمائر ، ودقت في ممالك السلطان قطب الدين البشائر ، وزينت الولايات بأنواع الذخائر ، وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العلماء ، فاجتمعا وأقاما العزاء ، فسئلا عن موجب هذا البكاء ، وإنما الناس في فتوح وهناء ، فقالا : أنتم تعدون هذا السلم فتحا ، وتتصورون هذا الفساد صلحا ، وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج ، وفتح سد يأجوج ومأجوج ، ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ، وستعلمن نبأه بعد حين وأنشدا فأرشدا :

---

(١) جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه ، كان التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد فمات في بعض جزائر البحر ، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر حتى قُتل وحيداً على يد أحد الفلاحين من قرية بأرض ميافارقين سنة (٦٢٨هـ) البداية والنهاية (١٤٢/٧) .

(٢) خذلوه .

(٣) وهي مجموعة من البلاد منها نيسابور وجزء من بلاد ما وراء النهر .

وعَلِمْتُ أنَّ فِرَاقَكُم لابد أنْ يَجْرِى له دمْعِى دماً وكَذَا جَرَى

وكان السلطان قد دانت له البلاد واستولى على أهل اليفاع والوهاد ، وأباد ملوك العجم وتفرد بسياسة تلك الأمم ، وتخت ملكه مملكة خوارزم ، وقد صمم العزم بجزم ، وحمل الناس على نزع الخلافة من آل عباس ووضعها فى آل على ، وقد توجه إلى العراق بهذا القصد الجلى ، فوصل إلى حدود العراق وهو مجد على الاتفاق ، فوصل أولئك التجار إلى أنزار من صوب جنكزخان ، وبها من جهة السلطان نائب يدعى قايرخان ، فلما وصلوا إلى البلد أخبر بهم النائب الرصد ، فحبسهم عنده فى مكان وأرسل يستأمر فيهم السلطان ، وبشع العبارة وشنع السفارة ، وذكر أنهم جواسيس تستروا بالتجارة ، وأن معهم من الأموال ما يوازى الرمال ويوازن الجبال مصراع[1]، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

فأمره بقتلهم وأخذ ما معهم وسلبهم ، ففى الحال أبادهم وسلبهم طارفهم وتلادهم ، وأرسل المال إلى السلطان ، وأوصله حسبما رسم به إلى الديوان ، فطرحوه على تجار بخارى[2] ، وسمرقند ، كما يطرح على مساكين دمشق القند[3]، واستخلصوا ثمنه بالظلم ، وزادوا عليهم فيه الغرم ، وكان سبب ذلك أن تاجرا عند قايرخان ، أراد أن لا يكون عند السلطان تاجر سواه ، فتبعه قايرخان لما أغواه ، فتعددت الأسباب وانفتح للشر أبواب ، وقالوا : شر أهر ذا ناب[4] ، فلم يفلت منهم سوى رجل واحد أنجاه الله من العدو والحاسد ، فاختفى واتصل إلى بلاده وأخبرهم بوقوع الأمر وفساده .

---

(١) المصراع : النصف .

(٢) بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها . وهى مدينة قديمة . وهى مجاورة لسمرقند . معجم البلدان (١٥١٧) .

(٣) القند : جمع قنود كلمة فارسية وهو عسل قصب السكر إذا جمد .

(٤) شر أهر ذا ناب : مثل يضرب فى ظهور الشر وعلاماته وأماراته .

فغضب جنكزخان وتحرك منه باعث العدوان ، ثم تثبت فى أمره وتلبث فى فكره ، وأرسل إلى السلطان رسالة فيها تهديد وبسالة ، وكان السلطان خوارزمشاه لما أبدى هذا الخطا وأنهاه ، طير مراسيمه إلى أطراف الممالك يأمرهم بالمحافظة على دربندات المسالك[1] ، ويحرض ولاة الأمور وأصحاب الأدراك فى المضايق والثغور ، والطلائع والأرصاد على منع القصاد ، وكف من يخرج من تركستان إلى صوب ممالك جنكزخان ، ثم أرسل من جهته جواسيس يختبر أحوال ذلك الإبليس ، وينظر أموره وأوضاعه ومقدار عسكره وأمرهم فى الطاعة ، وما قصده أن يفعل ليستعد له بحسب ما يعلم منه ويعمل .

فتوجهت جواسيس السلطان وطال فى غيبتهم الزمان ، وقطعوا الجبال والقفار ، وسلكوا المفاوز والأوعار ، حتى وصلوا إلى بلاده وفحصوا عن أمره واستعداده ، وخبروا أمر جنده وعتاده ، وأوضاع عسكره وتعداده ، فرجعوا بعد مدة مديدة وأزمان وأخبروا بما حققوه السلطان ، وأن عدد عساكره يفوت الإحصاء ، ويخرج عن دائرة الاستقصاء وأنهم أطوع البرية للملك ، وأثبت جنانا من الأسد المنهمك ، وأصبر جندا على القتال كأن أمر الهزيمة عندهم محال ، وأنهم إذا وثبوا أو حاربوا ، أو سالبوا أو لاسبوا[2] ، أو رابضوا أو ضاربوا ، خابطوا ثم خاطبوا بقوله :

ونحـنُ أُنَاسٌ لا تَوسُّطَ بيننا　　　لَنَا الصَّدْرُ دونَ العَالَمينَ أو القَبْرُ

وأنهم لا يحتاجون فى الأسفار ولا عند مقاحمة الأخطار إلى كثير مؤنة ولا كبير معونة ، بل كل منهم ينهض باحتياجه واحتياج مركوبه إلى إلجامه وإسراجه ، ويستبد بعمل سلاحه وجميع ما يستعين به سفرا وحضرا فى صلحه وصلاحه ، ونطاحه وكفاحه ، وكذلك ملبوسه وزاده ، وسائر أهبته وعتاده .

---

(١) أى من يحرسون حدود المملكة وأبوابها والطرق المؤدية إليها .

(٢) لاسبوا : أى ضربوا بالسوط .

فندم خوارزمشاه على ما قدمت يداه ، من قتل أصحابه وفتح سد الثغر وبابه ، وأنى يجدى الندم وقد زلت القدم ، وتبدل الوجود بالعدم وغرق فى بحر الهموم ، وهَمَى عليه غمام الغموم[1] ، فشاور لما لقى الشهاب الخيوقى ، وهو فقيه فاضل ونبيه كامل ، عالم أجل كبير المحل ، له عنده محل خطير لا يخالفه فيما يشير ، فإن رأيه سديد وقوله وفعله رشيد ، فقال له : يا إمام قد تحرك على الإسلام عدو ألد الخصام ، بعساكر كالرمال ذوى صدمات كالجبال ، فما ترى فيما طرا[2] .

فقال : فى عساكرك كثرة ، وأنت ذو قوة ووفرة وزفر أقدامك له زفرة، فكاتب الأطراف واجمع عساكر الأكناف ، وادع أهل بيضة الإسلام إلى هذا النفير ؛ فإنه عام ، فإذا وفدوا عليك وتمثلوا بين يديك ، توجه بهم إلى نهر سيحون[3] ، واجعل ساحله من تلك الجنود مشحون ، واملأ بهم تلك المهامة والقفار ، وحصن ممالكك إلى حدود أنزار ، فإن أقبل العدو المخذول لم يصل إلا وهو من الكلال[4] محلول ، فإنه يأتى من بلاد بعيدة بجنود عديدة ، وقد أثر فيه النصب وأخذ منه التعب والوصب ، فتلاقيه على سيحون ، وهم كالون ونحن مستريحون .

فجمع بعد ذلك أمراءه ووزراءه وزعماءه ، وعرض عليهم ما جاءهم ، وطلب منهم آرائهم ، فلم يرتضوا رأى الشهاب لأمر يريده مسبب الأسباب ، وقالوا : بل نتركهم حتى يقطعوا الأوعار والمضايق ، ويتورطوا فى بلادنا

---

(١) الغموم ، مفردها غم : الحزن والهم .

(٢) حلّ فجأة .

(٣) نهر سيحون : نهر فى جنوب غرب الإتحاد السوفيتى السابق ينبع من جبال يقان شان. ويصب فى بحيرة آرال . معجم البلدان (٦٨٤٨) .

(٤) التعب والإعياء .

بالعوايق ، فتزداد مشقتهم وتطول فى المسير شقتهم ، لاسيما وهم بأرضنا جاهلون وعن مداخلها ومخارجها ذاهلون ، فإذا حصلوا فى قبضتنا كان أمكن لنهضتنا ، فنضيق عليهم واسع رحابها وأهل مكة أخبر بشعابها[١] .

وذهل أولئك الجمع عما رآه الفقهاء ؛ وهو أن الدفع أولى من الرفع ، وبينما هم فى المشاورة والمراودة ، ورد قاصد جنكزخان برسالة المناكدة ، وفيها من التشنيع والتقريع والتهديد والتبشيع العجب العجاب ، وما يشيب الغراب[٢] ، فمن جملة تشنيعاته ومضمون تهويلاته ما معناه فى فحواه ، كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى ، وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم ويقينكم ، أن تريقوا دم الأبرياء ، أو تستحلوا أموال الأتقياء ، أو تعادوا من لا عاداكم ، وتكدروا عيش من صادقكم وصافاكم، أتحركوا الفتن النائمة ، أو تنهضوا الشرور الجاثمة ، أو ما جاءكم عن نبيكم وسريكم ، وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم ، وعن ظلم الضعيف قويكم، أو ما أخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونباكم محدثوكم :« اتركوا الترك ما تركوكم»[٣] . وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه[٤] ، ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه[٥] ، ألا وإن الفتنة نائمة فلا توقظوها .

---

(١) أهل مكة أخبر بشعابها : مثل يضرب للدلالة على أن أهل البلد هم أعرف الناس بدروبها ومسالكها .

(٢) وما يشيب الغراب : مثل يضرب على شدة هول الشيء .

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود : كتاب الملاحم (١١) وأخرجه النسائى : كتاب الجهاد ، باب غزوة الترك والحبشة (٤٣/٦) من طريق خدرة بن ربيعة .

(٤) مُرُه وسيّئهُ .

(٥) الأوصاب ، مفردها وصب : المرض .

وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا هذا التلف ، واستدركوا ما سلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، ويتحرك من الفتن حامى الاضطرام ، ويقوم سوق الفتن ، ويظهر من الشر ما بطن ، ويموج بحر البلاء ، ويروج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم ؛ يظهر أسرار ربوبيته وآثار عدله فى بريته ، فإن به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة ، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ، ولينساب عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب .

وكان اللعين جنكزخان قد مشى على تركستان ، وأخذ منها عنوة كاشغر[1] وبلاساغون[2] ، وصارتا فى حوز ذلك الملعون ، وكانتا فى يد كوجلك خان ابن أونك خان ؛ المار ذكره فى أول القصة ، لما قتله جنكزخان وقَصَّه وهرب ولده كوجلك خان المغبون ، واستقر فى شاغر وبلا ساغون، إلى أن مشت العساكر عليه ، وأخذت تلك الأماكن من يديه .

فلما وصل هذا الخطاب إلى ذلك الأسد الوثاب[3] ، أمر بمقدم القصاد ورئيس أولئك الوراد ، فضربت رقبته وبمن بقى فحلقت لحيته ، وسخمت بالسواد حليته ، ثم رد الجواب بأبشع خطاب ومن فحواه وبارد ما حواه : إننى سائر إليك وهاجم عليك بجنود الإسلام وأسود الآكام ، وكل بطل ضرغام، ولو بلغت مطلع الشمس ، فحلك فى قعر الرمس وجاعلك كذاهب أمس ، فتيقن ذلك واعلم أنك لا محالة هالك ، ورد قصاده على عقبهم وقصد التوجه فى ذنبهم . .

---

(١) كاشغر : مدينة من بلاد الصين عامرة كثيرة الخيرات فيها متاجر وبضائع وهى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون . معجم البلدان (١٠٠٧٣) .
(٢) بلا ساغون : بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب كاشغر . معجم البلدان (٢٠٧٥) .
(٣) الغاضب .

فتجهز وصار بعسكر جرار ، إلى صوب التتار وأوصل السير وسابق الطير ، وأراد أن يسبق الخبر ، ويكبس التتر ويريهم عين العلة قبل الأثر ، فألوى من العراق ، وسار وساق فقطع ممالك خراسان ، وولايات ما وراء النهر وتركستان ، وهجم بذلك البحر الزخار فى تلك المهامة والقفار ، فوصل إلى حشم فى بيوت وهم آمنون فى سكون وسكوت ، ليس فيهم غير نساء وصبيان ومواش وبعران ، رجالهم غائبة وأمورهم بواسطة الأمن سائبة ، وكانت رجالهم توجهت لأخذ الثار من بعض التتار بواسطة عدوان وقع بينهم وبين كوجلك خان ، فقاتلوهم وكسروهم ونهبوا أموالهم وهصروهم[١] ، ففى غيبتهم وصل السلطان إلى بيوتهم ، وفى أمنهم وسكوتهم ، وليس فيهم إلا الحريم والأطفال والمواشى والأثقال لا يؤبه إليهم ، ولا يعول عليهم فاستولى عليهم ونهبهم وسلبهم عيشهم وسلبهم ، وأمر العساكر فنهبوهم وأسروهم وفرقوهم وكسروهم وهم الجم الغفير والعدد الكثير والمال الغزير.

ورجع السلطان من فوره ، وابتدأ فى حوره بعد كوره[٢] ، وتصور أنه أعنى وأشكى ، وأنه أضحك وليا وعدوا أبكى ، فما هو إلا وضع على القرح كية[٣] وداس ذنب الحية[٤] .

ثم رجع التتار ورأوا ما حل بأهلهم من بوار ، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم ، ونكبوا فى طريقهم وبلادهم ، وأن نساءهم أسرت وصفقتهم خسرت ، فما وفت نصرتهم بكسرتهم ولا قامت فرحتهم بحسرتهم ، التهبوا واضطربوا واصطلموا واصطدموا ، وأخذتهم الحمية ، وعصبتهم

---

(١) أى قتلوهم شر قتلة .

(٢) فى حوره بعد كوره : أى فى نقصانه بعد زيادته ؛ وهو مثل يضرب فى تغير الأحوال من الزيادة إلى النقصان .

(٣) أى كوى جرحه وأشعل ألمه والمراد أنه أشعل الحرب بينه وبين التتار .

(٤) ذنب الحية : طرفها ، والمقصود بالحية التتار .

العصبية ، وتنادوا يا للغارات وطلب الثارات ، وتناجى منهم حماة الحقايق وكماة[1] المضايق ، وتتبعوا فى الحال آثار الرجال ، من غير إهمال ولا إمهال ، وسلكوا الآثار لأخذ الثار ، وأكبوا كالبرق الخاطف ، وزعقوا كالرعد القاصف ، واندفعوا كالريح العاصف ، واندفقوا كالسهم الناقف ، ودهموا كالليل المدرك وهجموا كالسيل المهلك ، فأدركوا عساكره بشرور ثائرة ، ومراجل صدور[2] بالضغائن فائرة ، فلم يشعروا إلا العدو المضرم غشيهم كالقضاء المبرم ، فألوت عساكره ، وقابلت واستعدت وقاتلت ، والتفت الرجال بالرجال وضاقت ميادين المجال ، واستمرت ضروب الحرب بينهم سجال ، وتطاولت سهام الموت لقصر الآجال ، وتهللت ثنايا المنايا لبكاء السيوف ، وتبسمت ثغور الرزايا لفتوح الحتوف[3] ، واستمرت ديم السهام من غمام القتام على رياض الصدور تهمى[4] ، ولوامع بروق السيوف على قمم تلك الصفوف بعد الوابل الوسمى[5] بالصواعق ترمى ، ثم انتقلوا من معاشقة المراشقة ، إلى مراشقة المعانقة ، ومن مكالمة المضاربة إلى ملاكمة الملابية[6] ، ومن مخادعة المقارعة إلى مسارعة المصارعة .

وامتدت بهم الحال فى هذا القتال والجدال ثلاثة أيام مع الليال ، لا يسأمون الطعن والضرب ، ولا يملون مباشرة الحراب والحرب ، إلى أن جرى من الدماء طوفان ، وكاد يظهر سر كل من عليها فان ، كل ذلك وكاتب البيض والسمر ، يستوفى من أقلام الخط فى صحائف الصفائح مستوردات

---

(١) كماة ، مفردها كمى : الفارس المسلح .

(٢) أى صدورهم تغلى وتفور بالحقد والبغض .

(٣) الحتوف ، مفردها حتف : الموت .

(٤) أى تضيق .

(٥) الوسمى : أول المطر .

(٦) الملابية : أخذ بتلابيبه أى صارعه وقاتله .

العمر ، ولم يسمع بمثل هذا القتال ولا بنظير هذا الضراب والنضال ، فى سالف الأزمنة والأعصر الخوال ، وما أمكن تولى إحدى الطائفتين ، ولا نكوص جهة من الجهتين .

وأما طائفة المسلمين فلحمية الدين ، ولو ولوا الأدبار لما أبقت التتار ، لبعد الديار وصعوبة القفار ، منهم نافخ نار ، وأما الكفار فللغيرة على ذوات الأستار واستخلاص الأطفال والصغار من قيد الذل والصَّغَار ورق الإسار ، فصارت الخضراء غبراء والغبراء حمراء ، والصحرا بحرا والقتلى تلا ، والجرحى ترحى[1] ، ولم يثبطهم عن استيفاء القتال غير انحلال الأعضاء والكلال ، فانفصلوا وما انفصلوا وانقطعوا بعد ما اتصلوا ، وحلوا بعد ما كلوا، وتراجع كل عن صاحبه بعد ذوبان قلبه وقالبه ، واستفراغ جهده بما وصلت إليه غاية كده .

ثم استوفى ناظر القضاء ما أورده عامل الفناء من سهم المنون إلى ديوان برزخ إلى يوم يبعثون ، من أرواح الشهداء الأبرار ، وأنفس الأشقياء الكفار الوارد من تلك المعركة للساكن من حركات هاتيك التهلكة ، فكان من المسلمين عشرون ألفا ، ومن الكفار كذا وكذا ضعفا ، غير أنه لم يمكن حصرهم ولم يعرف قدرهم ، فلما كانت الليلة الرابعة وهى الليلة الفارقة القاطعة أوقد كل من الفريقين فى منزله النار ، وأكثر من القبائل فى المنازل والآثار وتركها وسار ، فوصل السلطان من بلاد تركستان ، وقطع سيحون نهر خجند[2] ، ووصل إلى بخارى وسمرقند ، وشرع فى تحصين البلاد والقلاع والاحتفاظ بمدن الممالك عن الضياع ، وقد سكن الهم فؤاده ، ونهب

---

(١) الترح : الحزن والهم .

(٢) نهر خجند : يقع فى وسط مدينة خجندة ، هى بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون . معجم البلدان (٤١٣٨) .

القلق والأرق رقاده ، وعلم المسلمون أنه خان وأنه لا طاقة لهم بالتتار ، فخافوا حلول البوار ونزول الدمار ، وتيقنوا خراب الديار ، لأن السلطان عاجز ولابد من قدوم بلاء ناجز .

وقالوا : إذا كان هذا الخور من شرذمة قليلة من التتر فى طرف من أطراف بلاده ، لا فيهم أحد معتبر من أجناده ، ولا رئيس يشار إليه من أولاده ، ولا درى ولا علم بما جرى، فكيف إذا دهم بطامته الكبرى وأحشاد جيوشه العظمى فترك خوارزمشاه ببخارى عشرين ألف مقاتل ، وفى سمرقند خمسين ألف مناضل ، وقرر معهم أنه سيجمع الجنود ويستجيش أبطال المسلمين ويعود ، وتوجه بثبات عزم وإضاعة حزم إلى سرير ملكه خوارزم، ثم انتقل إلى خراسان وخيم بضواحى بلخ فى مكان ، وأقام رخى البال كأن الشيء ما كان ، ثم لازال يضمحل ويذوب ويحل به ما يحله من نوائب الخطوب ، حتى انتقل إلى جوار الرحمن فى أطراف طبرستان[1] ، وفى سنة سبع عشرة وستمائة وكانت ولايته فى العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وكان ملكا عظيما وسلطانا جسيما ذا صولة قاهرة ودولة باهرة ، وجولة أرقدت الملوك بالساهرة ، فاضلا فقيها عالما نبيها ، اضمحل بأدنى حركة ملكه ، وغرق فى بحر الفناء بعد الطغيان فلكه ، وركن إلى الخطا فوقع فيه ، وخانته عساكره ومخالوه[2] ودود الخل منه وفيه ، وكان فى خزائنه عشرة آلاف ألف دينار ، ومن أجناس الأقمشة والأمتعة والأسلحة ما لا يحصيه إلا الواحد القهار ، وكان فيها ألف حمل من القماش الأطلس[3]،

---

(١) طبرستان : بلاد واسعة كثيرة المياه ومتهدلة الأشجار كثيرة الفواكه . معجم البلدان (٧٨٤٩) .

(٢) أصدقائه وأقاربه .

(٣) الأطلس : ثوب من الحرير منسوج .

وأضعاف ذلك من نفيس النفائس وأنفس ، ومن الخيل المسومة عشرون ألف جنيب ، ومن المماليك الملوك عشرة آلاف كل له فى دار الملك ربع خصيب، وأوفر حظ ونصيب ، فما أفاد ذلك ذرة ؛ بل نبشوا بعد موته قبره ، وقطعوا رأسه وفجعوا به ناسه ، فسبحان من لا يزول سلطانه ، وعز وعلا من لا يذل شانه :

فَمَا كَفٌ ذو كفٍّ له رائِدُ الرَّدى ولا مالَ بالأمْوال عَنْه حِمَامُه
ولا مُلْكٌ كَلاَ ولا مُلْكٌ حَمَى حَمَى مَلِكَه لمَا عَرَاه انْهِدَامُه

وبسط المقول فيه شرح يطول .

وأما أمر الطاغية صاحب الفئة الباغية ، جنكزخان ، لما وصل قصاده من عند السلطان بعد الفناء والشدة ، لحاهم محلوقة ووجوههم مسودة ، وقد قتل رئيسهم وخلا من نقد مرادهم كيسهم ، ذهب حفاظه والتهب شواظه ، وطمت بحار كفره وتلاطمت ، وتزعزعت أطواد شركه وتصادمت ، وبينا هو يرغى ويزبد ، ويقوم من غضبه ويقعد ، إذ جاءه الخبر الثالث وهو شر الحوادث ، إذ فيه خبر من قتل من الكفار ، وانتقل من دار الخسار إلى دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، فأعمل فى قلبه نصله ، وكان أولا قد زاد على قرحه قرح مثله ، ثم كان خبر هذا القرح ملحا مذرورا(١) على جرح ، فقامت قيامته وتعوجت بالحزن قامته ، وود لو أحرق الكون بأنفاسه ، وهدم أساس المكان بفأس باسه .

ثم تروى وافتكر وتهوى من حر هذا الشرر ، ثم قصد مذهب الاعتزال وانزوى عن جماعته فى مكان خال ، ودخل إلى مكان خراب وعفر وجهه فى التراب ، وتضرع إلى الله الحليم وقال : يا خالق يا قديم أنا أردت أن أعمر

---

(١) مذروراً : منثراً .

بلادك وأنعش عبادك ، فظلمهم يا إله عبدك خوارزمشاه ، وتعدى على وكرر الإساءة إلى فانتصر لى منه وانتقم ، فإنك جبر من كسر وعون من ظلم ، واستمر على هذه الحال ثلاثة أيام وليال ، لا يأكل ولا يشرب ولا يفتر عن التضرع والطلب ، يمرغ رأسه ووجهه فى الثرى ، ويقصد فيما يرومه رب الورى ، وقد قيل :

تَضَرَّعَ جنكزخَان للَّه ساعةً وأخلَصَ فيما رَامَه وهو مُشْرِكُ
فَمَا خَابَ فيما رَامَه مِنْ فَسَادِه ومَا زَالَ يَعْتُو فى الأَنَام ويَسْفِكُ
فَمَا بَالَ مَنْ للَّهِ طولَ حَيَاتِهِ يُوجَدْ بالإِخْلَاصِ هَلْ هُوَ يَهْلَكُ

ثم نهض نهضةً أنام فيها الأنام ، وقام قومة أقام بها ساعات القيام ، فَتَوَجّه من مشركى التتار وعساكر الكفار بالبحار الطامية والأمطار الهامية ، وجبال النيران الحامية ، فى شهور سنة خمس عشرة وستمية ، ومشوا على ممالك الإسلام وساروا على بسيط العالم سير الغمام ؛ وأرادوا إطفاء نور الإيمان من إشراكهم بظلام ، فوصلوا إلى البلاد وهى جنة المرتاد ، آمنة مطمئنة ساكنة مستكنة ، وليس لها مانع ولا ممانع ، ولا لهم عنها دافع ولا مدافع ، ولا بها حام ولا محام ، ولا سام ولا مسام ، فأخنوا على جند[١] وقراها ، وولايتها وما والاها ، رابع صفر عام ستة عشر ، وأظهروا فيها علامات الحشر فأدهشوا وهلها وسبكوا أهلها[٢] ، ودكوا جبلها ، وملؤا بجبال القتلى سهلها ، فقتلوا الخاص والعام ، ومدوا إلى ذخائرها النهب العام ، فأراح بها رحله وخيله وأحاط بها ثبوره وويله ، واستمروا فى نهبها ست عشرة ليلة ثم تنقلوا عن جند ، إلى ولايات إندكان[٣] ، وفناكث ، وخجند ، فأخذوها

---

(١) أى أهلكوا جنودها .
(٢) أى فتكوا بهم .
(٣) إندكان : من قرى فرغانة وأيضاً من قرى سرخس معجم البلدان (١٠٤٩) .

وقتلوا وفعلوا كما كانوا فعلوا ، ثم إلى بلدة مرغينان[١] ، وكانت دار ملك إيلك خان ، ثم إلى أطراف تركستان ، ومنها سيرام[٢] وتاش كيد وباقى البلدان ، ثم إلى تسف ، وأنزار ، وسغناق ، وما من أمهات البلاد فى تلك الآفاق:

فَمَشَوْا على سَهْلِ البلادِ ووعْرِهَا مَشْىَ الجَرادِ على القَصِيرِ الأخضر
فَكَأَنَّهُم مُوسِى على شَعْرٍ مَشَتْ أو مِنْجَلٍ فَوْقَ الحَصِيدِ الأصْقَر
أَوْ شُعْلَةُ نار الهوا فَتَعَلَّقَتْ فَوْقَ الصَّعِيدِ على الهَشِيمِ الأَغْبَرِ

فكل من أطاعهم وقصد اتباعهم ؛ صار من جلدتهم ودخل فى عدتهم ، ومن عصى أو توقف أو خالف أو تخلف ، سقوه كأس الدمار وأحلوه وقومه دار البوار ، وأسروا حريمه وأولاده ، ونهبوا طارفه وتلاده ، ثم إن تلك الدواهى المصمية[٣] فى يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة سبع عشرة وستمية وصلوا إلى بخارى بلدة فضلها لا يجارى ، قبة الإيمان وكرسى ملوك بنى سامان[٤] ، مجمع العلماء والعباد والصلحاء والزهاد ، ومنبع المحققين من الفقهاء الأمجاد والمدققين من النبهاء والأنجاد ، وفيها من الأكابر والأشراف وأوساط الأماثل والأطراف ، الجم الغفير والطم الكثير .

فلما رأى العساكر السلطانية والجيوش الخوارزمشاهية ، الذين كان أرصدهم السلطان لحفظ البلدة من طوارق الحدثان ، وهم عشرون ألفا ، أن البلاء زحف إليهم زحفا ، وإن كسرتهم منهم لا تخفى وإن سيل الويل حطم ،

---

(١) مرغينان : بلدة بما وراء النهر من أشهر البلاد من نواحى فرغانة . معجم البلدان (١١١٤٢) .
(٢) سيرام : من جزر أندونيسيا .
(٣) الشديدة المهلكة .
(٤) سامان : من محال أصبهان ، وهى قرية بنواحى سمرقند . إليها ينسب ملوك بنى سامان بما وراء النهر . معجم البلدان (٦١٩٩) .

وموج بحر الدواهى التطم ، ومن لم يدرك من الغرق نفسه ارتطم ، شمروا الذيل وخرجوا تحت الليل وقصدوا جيحان[1] والعبور إلى خراسان ، ومقدمهم من أمراء السلطان كور خان ، وسونج خان ، وحميد النورى ، وكوحلى خان.

فبينما هم على نهر جيحون قاصدين العبور ، صادفتهم طلائع جنكزخان الكفور ، فوضعوا السلاح فيهم ومحوهم عن بكرة أبيهم ، فما أبقوا منهم عينا ولا أثرا ، ولا سمع لهم أحد خبرا ، فوهى أمر البلد إذ لم يبق لهم مدد ، فطلبوا الأمان وأرسلوا لذلك القاضى بدر الدين بن قاضى خان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأناب فاطمأنوا وفتحوا الأبواب ، فدخلوا المدينة يرفلون وهم من كل حدب ينسلون ، فعصى بقية العسكر فى القلعة وتصوروا أن يكون لهم منه منعة ، ففى الحال أمر الرجال بطم الخندق[2] بكل ما وجدوا جل أو دق ، فأتوا بنفائس الأقمشة والذخائر المدهشة ، والكتب والربعات ، والمصاحف الشريفة والختمات ، وطرحوها فى الخندق ومشى العسكر عليها وتسلق ، ونقبوا النقوب وانفذوا الثقوب ، وكان قد نادى بالأمان للقاصى والدان ، فعجزت القلعة وذهب ما بها من منعة ، وكان فيها فئة نحو من أربعمائة ، فباشروا الحرب دوما نحو اثنى عشر يوما ، فأخذوا عنوة بالأنقاب وفتح لهم من كل جهة باب ، فقتلوا من بها عن آخرهم ، واستولوا على باطنهم وظاهرهم .

ثم مدوا أيديهم إلى المخدرات وفجروا ظاهرا بالمسترات ، وجعل الناس ينظرون ويبكون ، وهم يفتكون وينكبون لا يستطيعون دفعا ولا يملكون ضرا ولا نفعا ، فاجتمع من أئمة الدين ومن أعلام العلماء المهتدين ، ومن لم يرض

---

(١) جيحان : نهر بالمصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ومصبه فى بحر الشام . معجم البلدان (٣٣٩١) .

(٢) أى أمرهم أن يملؤه عن آخره .

بعمل المفسدين جماعة غاروا وثاروا وفاروا ، وانضموا إلى العلامة القاضى صدر الدين قاضيخان ، وأولاده السادة القادة الأعيان، والحاكم الشهيد الإمام العالم السعيد والإمام ركن الدين إمام زاده واختاروا الموت على الشهادة ، فحملوا على الفئة الطاغية والطائفة الكافرة الباغية ، وقاتلوا حتى قتلوا وإلى جوار الله مقبلين انتقلوا ، فاستشهدوا عن آخرهم ولحق أصاغرهم بأكابرهم .

ودخل جنكزخان إلى المدينة وطاف بها على هينة وسكينة حتى انتهى إلى باب الجامع ، مكان نزه وموضع رائع ، ومحل شريف ومعبد واسع ، ولم يكن لذلك البلد الكبير والجم الغفير والجمع الكثير ، والمصر الواسع من الجوامع ، سوى جامع واحد يجمع الصادر والوارد ، ويسع ما شاء الله من الأمم وهذا على مذهب الإمام الأعظم[1] ، وهكذا كل أمصار الحنفية فى الممالك الشرقية والممالك الهندية ، وغالب البلاد التركية فقال جنكزخان: هذا بيت السلطان ، فقالوا : بيت الرحمن ومأوى عبادة العباد ، والعلماء والزهاد وذوى الطاعة والاجتهاد ، فقال : إن أولى ما أقمنا أفراحنا فى بيت من خلق أرواحنا ورزق أشباحنا .

ثم ألوى إليه وأقبل عليه ونزل عن دابته ، ودخل الجامع مع جماعته ثم دعا بأمرائه، وكبراء جنده وزعمائه ، واستدعى الخمور والطبول والزمور ، وهش إلى الكفار وعظمهم ، وبش فرحا واحترمهم ، فسجدوا له منهم الملوك وضربوا له الجنوك ، وعرفوا جقه ورعوا ، ورفعوا بالثناء صوتهم ودعوا ، فأذن لهم بالجلوس وأن تدار عليهم الكؤس ، فجلس كل فى مكانه بين أضرابه وإخوانه ، وقام بعض فى مقامه فى موقف حده واحتشامه ، فتصدر فى مجالس العلم والأذكار ومحاريب الصلاة الكفرة الفجار ، ورؤوس المشركين من المغل والتتار ، واستبدلت محافل العلم والتدريس ، بجحافل الشرك والتنجيس.

---

(١) الإمام الأعظم ؛ أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام المذهب الحنفى ، تقدمت ترجمته .

ثم أحضروا العلماء والأشراف ، والكبراء ، وسادات الأنام ، ورؤساء الخواص والعوام ؛ وأنزلوا بهم الثبور والويل ، واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيل ، وصارت الناس حيارى سكارى وما هم بسكارى ، وأخذتهم بهتة إذ أتاهم العذاب بغتة ؛ ولم يكن بين رحيل السلطان وبين هجوم هذا الطوفان غير خمسة أشهر وأيام ، ساروا فيها سير الغمام وهجموا على العالم هجوم الظلام ، وكأن الناس كانوا نياما ورأوا فى منامهم أحلاما ، فلم يوقظهم من هذا الرقاد سوى إبراق البلايا بالأرعاد ، فانسد عليهم طريق الخلاص وخانهم المدد فى شدة الاقتناص ، وتنادوا ولات حين مناص ، إذ فارقهم العسكر وهم فى حال المضطر .

وكان من جملة أولئك الأعيان شخص ولى يدعى السيد الشريف جلال الدين على بن حسن الزيدى ، وهو المقدم والمقتدى ، والمسلك إلى طريق الهدى ، وأعلى سادات ما وراء النهر ، ولدوحة ساداتها بمنزلة الثمر والزهر ، قد قبض عليه وربطوا إلى عنقه يديه ، ثم استنظروه مراكيبهم ، وأنشبوا فيه مخانيبهم ، وهو واقف بباب الجامع فى هيئة الذليل الخاضع ، فرأى الإمام الهمام ، البحر الطام ، علم العلماء الأعلام ، أفضل علماء عصره ، وأنبل فقهاء دهره ، الشيخ ركن الدين ابن الإمام ، بوأهما الله تعالى دار السلام وهو فى مثل حاله ، متيسر بل بسر بال نكاله .

فقال : أيها الإمام المفضال ما هذه الأحوال ، ثم أنشد معنى هذا المقال:

أرى حالَةَ بَدَتْ لِسَانى فَلَيْس لى طَرِيقٌ إلى أنِّى أفُوه بلَفْظَةِ
أعضُّ لها كَفِّى وامْعُكُ مُقْلَتِى أفِى النَّوْم هَذَا أمْ أرَاه بيَقْظَةِ

فأجاب الإمام : ما هذا محل الكلام ، كن عبد الإرادة واتبع ما أراده .

واستمروا يشربون الخمور على أصوات الزمور ، ويضربون الطبول ، ويتراقصون رقص التتار والمغول ، ثم صعد المنبر ابن جنكزخان الأكبر

واسمه توشى خان ، وتكلم بكفر وكفران ، ثم غنى ورقص ، ودعا لأبيه ونكص ، ثم صعد بعده أبوه وتكلم بكلام سمعوه ، ودعا بالخمر وشرب ، ثم غنى وطرب ، ثم قال : أيها الرجال إن خيلنا هى رأس المال ، وقد رعيتم الوهد والبقاع ، وحلقتم شعور الكلا من قمم البقاع ، وقد شبعتم فلا تنسوا الجياع ، ألا فأشبعوا خيلكم ولا تحرموها نيلكم ، وحيث رعيتم الخضيم[١] فابغوا لها القضيم[٢] ، وامتثلوا أمر سلطانكم تحظوا منه بأمانكم .

فنهضوا قياما وامتثلوا مرسومه مراما ، وتهارجوا كالحمير ، وابتدروا طلب القمح والشعير ، ثم طغى وتكبر ، وبغى وتجبر ، ونزل عن المنبر فلم يكن بأسرع من إتيانهم بالحبوب والقضيم المطلوب ، وأدخلوا الخيل إلى الجامع ، وطلبوا لها مرابط ومواضع ، ثم أفرغوا خزائن المصاحف والختمات وظروف الكتب وأوعية الرَّبْعات[٣] ، وصبوا فيها الشعير ، وأطعموا فيها الخيل والبغال والحمير ، فتبددت الكتب المنيفة ، والمصاحف الشريفة ، والربعات المعظمة والختمات المكرمة ، تحت السنابك والحوافر ، ومواطئ أقدام كل كافر ، وصارت أبحر القاذورات والخمور على تلك النفائس والذخائر تمور .

ثم أنه خرج من البلد وأمر أن لا يترك فى البلد أحد ، بل يخرجون إلى المصلى وولى حفظهم من كفر وتولى ، ومن تأخر قتلوه وبتكوه وبتلوه ، فخرجوا كالجراد وانتشروا على الوهاد ، واجتمعوا فى المصلى ، ثم على المنبر تعلى وخطب خطبة تركية كافرية مشركية ، منها : ركبتم عظائم وأتيتم مآثم وجرائم ، فتقدم ربكم إليكم أن سلطنى عليكم ، وهذه الأوزار إنما جناها

(١) الأرض الكثيرة النبت .

(٢) شعير الدابة .

(٣) الربعات ، مفردها رباعة : المنازل .

منكم الكبار ؛ فلأجل هذا عم البلاء ، وذهب بجريمة الكبراء الأصاغر والضعفاء ، ثم ضبط أسماء التجار ، واستخلص ما عندهم من درهم ودينار ، وقال : هذا ثمن مالى من نقد وأعيان الذى كان منحكموه السلطان .

فلما استخلص الأموال ، أمر بقتل الرجال وأسر النساء والأطفال والنهب العام لسائر الأغنام ، ومن أخذ شيئاً فهو له لا يقطع أحد سبله ؛ ثم أمر بهدم البلد والإحراق ، وإعدام عينها على الإطلاق فمهما قال : فعلوه وكل ما رسم به امتثلوه ، فساروا بالبلد الأرض ، واستوفوا أعمار أهلها بالفرض والقرض ، فلم يبق منهم ديار ، ولم ينج من تلك النار العظيمة نافخ نار ، وقيل : إنه نجا من هذه الواقعة رجل باقعة[1] ، فوصل إلى خراسان فسألوه عن هذا الشان كيف كان فقال لهم بذلك اللسان ما صورته :

آمدنــد وكندنــد وسوختنــد   وكشتنــد وبردنــد ورفتنــد

يعنى : هجموا وهدموا ، وأحرقوا وأرهقوا ، ونهبوا وذهبوا . فقيل : لم يوجد فى الفارسى فى هذا المعنى أحسن من هذه الألفاظ ولا أرصن ، ولا أوجز ولا أمتن .

ثم أمر الجند بالتوجه إلى سمرقند ، فتوجهوا بالأثقال من الأموال، والأسرى من النساء والأطفال ، مشاه حفاة أذلاء عراة ، فلم يتوقف كل أعتمى أعقف[2] وكافر أغلف فى ضرب رقبة من أعيا أو توقف ، فوصلوا إليها وأخذوا عليها ، وفيها من العساكر الأكفا مائة ألف وعشرون ألفا ، سبعون من أهل البلد وخمسون من المرصدين للمدد ، فتجهز عسكر البلد للقا وخرجوا من البلد للملتقى ، فكمن لهم التتار من اليمين واليسار ، فى رواب وتلال

(١) داهية .

(٢) اعتمى : أعمى . والأعقف : الأعرج .

تسمى بالأحصار ، فناوشهم من عساكر الكفار شرذمة ، ثم ولت أمامهم منهزمة ، فركب البلديين أعقابهم وداسوا أذنابهم إلى أن أبعدوا عن البلد ، وانقطع عن البلديين المدد ، خرج الكمين من خلفهم لقطع رجَل مددهم وكفهم، ورجع عليهم الفارون ، وأحاط بهم الغارون ، وتلاحق بهم عساكر لا أول لهم ولا آخر ؛ فلم يفلت منهم واحد ولا صدر عن خياض تلك الملحمة وارد .

فلما شاهد العساكر الخوارزمشاهية ما نزل بالجنود البلدية من داهية ورزية لم يسعهم إلا الترامى عليهم والانحياز إليهم ، فداروا وداروا والتبيب من دارى ؛ فوقوا بذلك أنفسهم وأهليهم نارا ، فلم يركنوا إليهم ولا اعتمدوا عليهم فرأوا مصلحتهم فى سلبهم أسلحتهم ، فطلبوا منهم عدتهم ، ثم فرقوا عدتهم ، كما فعل تيمور الغدار فى بلاد الروم بالتتار ، عند كسر ذلك الخوّان فى سنة خمس وثمانمائة بايزيد بن عثمان ، فلم يبق لأهل البلد معين ولا مدد، فاستسلموا للقضا ، وجروا طوعا وكرها فى ميادين الرضا ، فأحل بهم بوارا وأنزل دمارا ، ففعل بسمرقند وأهلها ما فعل ببخارى ودور أسوارها ، بدلالة آثارها ، من الفراسخ اثنا عشر لا يمترى فى ذلك اثنان من البشر .

فقس ما فى ذلك من الخلائق والأمم فالكل براهم سيف القلم ، كما يبرى نسيف القلم ، ثم قوى العزم وسدد الحزم ، وجهز طائفة من العساكر إلى خوارزم ، مع ولديه أحدهما المدعو : بجغتاى والآخر المسمى : باوكتاى ، وهى تحت خوارزمشاه ؛ وفيها من الأمم ما لا يعلمه إلا الله ، معدن الأفاضل ومقطن الأماثل محط رحال أهل التحقيق ، ومقصد رجال الفحول ذوى التدقيق، ولوفور ما بها من الرؤوس لم ينفرد برياساتها رئيس ؛ لكثرة ما بها من الناس ، لم يتعين لسياستهم راس ، فاتفق أكابرها لضبط أمور المسلمين على تقديم شخص يدعى حمارتكين ، فبعد حروب يطول شرحها ويهول برحها ، ويجب قرحها ، ويستحب طرحها، أخذوها عنوة بعد ما قاسوا جفوة ،

فاستصفوا أرباب الحرف ومن تعلق من صنعة بطرف ، فكانوا نحوا من مائة ألف بيت . أو يزيدون إن عددتهم وعديت ، ثم ميزوا النساء والأطفال وكانوا كعدد الحصى والرمال ، ففرقوهم على ذلك العسكر الثقيل ، فكفى الحقير منهم والجليل ، ثم فصلوا بالحسام المفصال ، مدارع ذوات ما بقى من الرجال .

ثم أرادوا حصر من قتل وإقامة عدد من بتك وبتل ، فكان حصة كل فتاك قتال ، على أن عددهم أكثر من القطر والرمال ، أربعة وعشرين مقتولا، ثم فعلوا بالبلد كعادتهم الأولى ، فهدموا أسوارها ومحوا آثارها ، وأجروا من بحر الدماء أنهارها ، فانمحى العلم والعلماء ، واندحى الفضل والفضلاء واستشهد الرؤساء والكبراء ، وناهيك بالقطب الولى الشيخ نجم الدين العكبرى.

وتوجه جنكزخان من سمرقند قاصدا السلطان ، ومر من أطوار عسكره بكل أخشب(1) حتى أناخ على ترمذ ونخشب(2) ، فامتنعتا عليه ، ولمناعتهما لم تلتفتا إليه ، وكانتا كثيرتى العدد والعدد غزيرتى المدد من مدد ، وهما من أمهات البلاد مملوأتان من آلات الجهاد ومقاتلة الأجناد ، فأهلك ناسهما ، وسقاهما من خمر التشريد كاسهما ، فلم يبق لهما فيأ(3) ، ولم تغن العدد والعدد عنهما من الله شيئاً .

ومن غريب ما وقع من البدع ، أنه أمر بأهل ترمذ أن يقتلوا عن آخرهم مع أهلهم وعشائرهم ، ولا يبقى فيها على أحد ، وأرصد على ذلك الرصد ، فاتفق أن امرأة من المخدرات تخجل الشموس النيرات ، قبضوا عليها وتقدموا بإراقة دمها إليها ، فتشفعت فما أفاد ، وتضرعت فما زاد إلا

---

(1) الجبل .

(2) نخشب : من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند . معجم البلدان (١١٩٦٣) .

(3) الغنيمة والأملاك .

العناد ، فلما أسلمت وتلوها للجبين ؛ وعلمت أنه جاءها الحق المبين ، قالت لأولئك الكفار : لا تقتلوني يا حضار وأنا أفتدى نفسى منكم بعقود من اللؤلؤ كبار ، فأنهوا القضية إليه وعرضوا ما قالته عليه ، فقال : اتركوها ثم بما قالت طالبوها ، لننظر أصدقت أم اختلقت ؛ فأطلقوها وبتقاضى اللؤلؤ أقلقوها، فقالت : لم أفه بزور ولا دليتكم بغرور ؛ وإنما اللؤلؤ كان عندى وحين استخلصتم مالى كان فى يدى فخفت منكم فابتعلته ، وتباً لفعل صنعته ، فأمهلونى حتى أتبرز ويخرج منى ذلك المخرز .

فأنهوا كلامها إليه وعرضوا أمرها عليه ، فقال : ابقروا بطنها ، وانظروا قطعها ، فإن وجدتم شيئاً فهو لكم وإن كانت كاذبة فقد استحقت فعلكم، فشقوا بطنها البطين واستخرجوا منه الدر الثمين، فلما رأوا صدقها وحققوا نطقها ، وأمرهم بشق بطون جميع القتلى وتفتيش ما طرحوه من جبال الأشلا ، فلم تنج رؤوس الروس من المثلة بعد القتل ، ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل أثر البتل .

ثم أمر بهدم الحصون بعد ابتذال المال والعرض المصون ، فمحت الديار ولم يبق فيها ديار ؛ ثم عبر من جيحون إلى خراسان ؛ وجعل نصب عينيه ممالك السلطان ؛ وتوجه إلى بلخ وهى إحدى معاقل الإسلام ، وفيها من أمم الأنام ما لا يدرك ضبطه سابق الأقلام ؛ بل يخرج عن حصر الأوهام ولا يحصيه إلا الملك العلام ؛ وكان السلطان قد انشمر عنها -كما ذكر- إلى نواحى طبرستان ، فوصل بتلك البحار الطامية فى ثمان عشرة وستمية ، فخرج إليه الأعيان وطلبوا منه الأمان ، فأجاب سؤاليهم بما يصلح حالهم ، ثم اختشى من السلطان جلال الدين بن المرحوم قطب الدين ، فلم يركن إليهم ولا عول عليهم ، فأمر بإراقة الدماء وهدم البناء ؛ وإحاطتهم بدائرة الفناء ، فأفنوهم عن آخرهم ، وساووا بالحضيض بقاع عمائرهم .

ثم أرسل ولده تولى خان إلى محـاصرة طالقـان[(١)] فعصت عليه ، ولم تسلم قيادها إليه فاستمرت فى الحصار مدة ، وأذاقها لباس الباس والشدة ، إلى أن أخذوها وأبادوا خلقها ودكوها ، ثـم إن جنكزخـان الكـافر الخـوان ، معدن الكفر والطغيان ، لما استوبل هواء خراسان فألوى إلى بلاده وترك تولى خـان من أولاده وولاه خراسان ، وهو محاصر طالقان وأقام فى ممالك إيران[(٢)] ، من كفار أمرائه أميران ؛ أحدهمـا يدعـى : سنتاى وهـو مـن قبيلـة الجفتـاى ، والآخر يدعى : يما وهو من الكفار اللؤما ، وترك معهمـا مـن الكفـار الأراذل والتتار الأسافل ثلاثين ألف مقاتل .

فوصلا إلى رواه ، ووضعا السيف فى الأئمة الهداة ، وابتدءا فـى القتل والنهب ، والفتك والسلب ، والقهر والأسـر ، والقسـر والكسر ، ثـم أخذا فـى الاتـلاف طريق الائتلاف ، وذهـب كـل منهمـا للاختـلاف فـى الفسـاد علـى مخلاف، فصالا وجالا ، وأوسعا فى الدمار والبوار مجالا ، وخاضا فى دمـاء المسلمين واجتهدا فى إهلاك الإسلام والدين ، وخلا لهما الجو فباضا وصفرا، وكان السلطان قطب الدين قد أخلى الدنيا من الملوك والكبرا ، فلم يثبـت لهمـا مقابل فضلا عن مخاتل أو مقـاتل ، فأهلكـا الديـن وأبـادا وتصرفـا فـى نصـرة الشرك على الإسلام كيفما أرادا ، فاستخلصا جوين[(٣)] وطوس[(٤)] ، وأعدما مـا

(١) طالقان : مدينة فى الديلم قرب قزوين ، إليها ينسب الصاحب بن عباد . معجم البلدان (٧٨٣٧) .

(٢) إيران : إيران شهر وهى بلاد العراق وفـارس والجبـال وخراسـان يجمعهـا كلهـا هذا الاسم . معجم البلدان (١١٧٩) .

(٣) جوين : اسم كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلـى نيسـابور ، تسـميها أهل خراسان كويان فعربت فقيل جوين . معجم البلدان (٣٣٧٣) .

(٤) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ فتحت فى أيـام عثمـان ابن عفان رضي الله عنه. معجم البلدان (٨٠٠٧) .

بهما من نفائس ونفوس ، وحام وخيوشان واسفراين ومازندران وآمل وقومس[١] وتلك البلدان فمحوا من كتب كتائبها أسطارها وأطفؤا منارها ، وأظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها ، وأجروا من الفتن كالدماء بحارها ، وأضرموا من الشرور نارها ، كل ذلك قتلا ونهبا ، وسبيا وسلبا ، وهدما وإحراقا ، وصدما وإرهاقا ، وردما وإغراقا .

ثم بلغهم أن حريم السلطان جلال الدين فى قلاع آمل آمنين ، فقصدوها وحاصروها ، ورصدوها فقل ناصروها فاستولوا عليها ، ووصلوا كما أرادوا إليها فبقروا وفتكوا ، وبَروا وبَتكوا ، وسبوا وسبكوا ، وسفوا وسفكوا وكووا وشووا ، وغووا ولووا ، وعووا وما ارعووا[٢] .

ثم إنهم صادفوا العكس الزمان وانقلاب الدهر على السلطان ، وسوء التدبير وشؤم الحظ المبير ، وهم فى بعض المسير من غير مخبر ولا معلم فى سدفة ليل مظلم ، حريم السلطان خوارزمشاه لأمور قدرها الله مع والدته وجواريه وبناته وسراريه ، وكان لشدة ما نابهم من الزمان قد ضاق عليهم المكان ، وتغير بل تنكر لهم الكون وقل عنهم النصير وقل العون ، وخافوا الابتذال بعد الصون ، فتركوا ما هم فيه من مكان ، وقصدوا البعد عن خراسان ، فتوجهوا إلى أطراف أصفهان[٣] ، ومعهم من نفائس الأموال والجواهر وأنواع المفاخر والذخائر ، ومصونات الخزائن ومكنونات المعادن، ما لا يعلمه إلا مانحه ، ومن الكنوز ما ينوء بالعصبة مفاتحه ، وما لم يجتمع لسلطان قط ولا ضبطها قلم ديوان ولا خط ، فتباغتوا مواجهة وتواجهوا

---

(١) قومس : هى كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى بين الرى ونيسابور . معجم البلدان (٩٩٨٧) .

(٢) أى ما كفوا عنهم .

(٣) أصفهان : مدينة فى وسط إيران بين طهران وشيراز . معجم البلدان (٧٢٩) .

مباغتة ، وتباهتوا مشافهة وتشافهوا مباهتة ، فوقعن فى شبكة الصيد ، وأحاطت بهن دائرة الكيد ، وتورطن فيما فررن منه ، وتربطن بأوهاق ما نفرن منه ، وناداهن لسان الحظ ، وهاتف الطالع الفَظّ :

وإذَا أَرَاد اللّــه إنفــاذَ القَضَــا ... وظهورَ قَهْر للبصَائِر باتِــلا(١)
جَعَلَ الدواءَ لِذَاكَ داءً مُمْرِضـا ... وفَوائِد التِّرياق سُمًّــا قَاتِــلا
والكَوْنَ خِصْماً والمكانَ منَاقِضاً ... والعَيْشَ مَوتاً والصَّدِيقُ مُقَاتِــلا

فلم يشعرن إلا وقد وقعن من نيران الفتن فى تنور ، وتورطن من بحار المحن فى دردور ، وتبسمت إلى بكائهن ثنايا المنايا ، وتكالمت على جباه مصابهن عقود الرزايا ، فظفرت حامية الكفر بذلك المغْنم البارد ، ولم يصدر من حلقة صيده شارد ولا وارد ، فحازوا تلك المسترات ، ونزل إلى حضيض قنصهم من سماء المنافسة الشموس النيرات ، فهتكوا أستارهن ، وخربوا ديارهن ، وضبطوا أشعارهن ودثارهن ، وأحرزوا ما معهن من كنوز المعادن ، ونفائس المكامن وذخائر الخزائن ، ثم أضافوهن إلى زبانية غلاظ واحتفظوا بهن أشد الاحتفاظ وساقوهن إلى بلاد التتار ، مهتكات الأستار عاريات حافيات حاسرات ماشيات .

وأمروهن أن يجتمعن كل ليلة عندما ينشر الظلام ذيله فى كل منزلة ، وصباح كل مرحلة ، ويقمن على أنفسهن العزا وينحن بما تقدم ويبكين بما جرى ، ويعددن على خوارزمشاه ، ويذكرن ما قدره الله عليه وقضاه ، وينعين ما كن فيه من النعم ، وما صرن إليه من الهوان والنقم وليدمن على هذه الطريقة حتى يقطعن من سفرهن طريقة ، ويصلن بجنكزخان على ذلك الامتهان والذل والهوان ، فيرى فيهن رأيه من نكال ونكاية ورحمة وعناية ،

---

(١) باتلا : أى قطعه .

فامتثلن ما أمروهن به فكن ينبهن النيام ، ويبكين المتنبه ، واستمررن على هذه الحال فى الخزى والإذلال والمشقة والابتذال ، بعد ذلك الصون والدلال ، يصدعن بنحيبهن الجبال ، ويتفطرن بالنظر إليهن أكباد الصخور والتلال .

ثم أن تولى لما أخذ طالقان ، وأهلك أهلها بسيف الطغيان ولم يدع فيها من يتنفس ، وهدم إلى الأرض بنيانها المؤسس ، توجه جانب من بلاد العجم، وأهلك ما شاء الله تعالى من خلائق وأمم ، فصار فى أحد الجوانب يعبث ، وكل من سنتاى الخبيث ويما الكافر العثيث فى جانب يبيد المسلمين ولا مغيث، فدكوا قزوين وهمذان[1] وصكوا أران وبيلقان ، وأغاروا على ممالك أذربيجان .

وبلغهم أن السلطان جلال الدين له فى سجاس[2] جماعة مجتمعين ، مقدمهم السلاحدار بكتكين ، وفيهم من الأعيان كوحبو غاخان ، فتوجه إليهم بما فبدد شمل أولئك الزعما ، وأبادهم وفرقهم وشتتهم ومزقهم ، ثم غاروا على غالب عراق العجم ، فأوسقوا القفار بالضرم ، وأوسعوا البحار بأمطار الدم ، وملؤا الوجود بالعدم ، ثم قصدوا أردبيل[3] ، وجعلوا أهلها ما بين أسير وقتيل ، وكانوا فى أول المرور ، قد صالحوا أهل نيسابور ، وانتقلوا إلى مرْ، ومنها وراودوا أهلها عنها ، فأغلقوا أبوابهم وأقلقوا جوابهم ، فحطموا عليها ، ودخلوا إليها ، وحكموا فى أهلها السيوف وكان شهر الصيام ففطروهم على كاسات الحتوف ، ونقل إلى جوار الله تعالى منهم المئين والألوف ، فضبطوا من أمكن ضبطهم من القتلى ، واستسعد بنيل الشهادة من الشهدا ، فكان ألف

---

(١) همذان : مدينة إيرانية جنوب غربى طهران . معجم البلدان (١٢٧٤٥) .
(٢) سجاس : بلد بين همذان وأبهر وهى من مدن أذربيجان . معجم البلدان (٤٣٣) .
(٣) أردبيل : من أشهر مدن أزربيجان وهى مدينة كبيرة جداً يتسرب فى ظاهرها وباطنها عدة أنهار كثيرة المياه . معجم البلدان (٤٣٣)

ألف نسمة ، وثلثمائة ألف وثلاثين ألفا مكرمة ، وكل هذه الفتنة والفترة[1] في سنة ثمان عشرة ، عامت الدنيا في الدماء عوما، وكانت مدة نحو تسعين يوما.

ثم توجهوا إلى شروان[2] وأفاضوا من دماء البحار الطوفان ، ودخلوا من الباب الحديد واتصلوا من الدست[3] بذلك الشيطان المريد ، فتيقظ الناس من الفكرة وأفاقوا مما كانوا فيه من السكرة ، وتصوروا أنها سحابة صيف انقضت ، أو نسمة أزمنة هبت بارقة أو مضت ، ولكن احتاطوا واستعدوا وتحفظوا واستمدوا ، وحصنوا الحصون والمعاقل وجمعوا الجنود والجحافل ، فلم يكن بأسرع من إيابهم وتعاطى ما كانوا عليه من دأبهم ، والشروع في أعمال حرابهم بخرابهم ، وأخذهم في ضروب ضربهم وضرابهم ، واستقر تولى في ممالك العجم ، وهو أبو هلاكو الكافر الأغتم[4] ، فوصلوا إلى شيزار وقد استعدت للحصار واستمدت للمناوشة والنقار ، فأخذوها عنوة وزحفا ، وقتلوا منها مما أمكن ضبطه سبعين ألفا .

ثم توجهوا إلى طوس فأزهقوا ما بها من نفوس ، ثم إلى سائر القلاع بالحضيض واليفاع ، فاستولوا على الكل قهرا ، وأخذوه عنوة وقسرا ، وسعوا في إحلال البوس وإزهاق النفوس ، ثم إلى موقان[5] ولم يبقوا بها أحدا كائنا من كان ، وعم القتل المبير كل صغير وكبير ، ثم حل أولئك البور ببلدة نيسابور ، فكافحت بعدما كانت صالحت وتحصنت ، بعد أن أذعنت واعتمدت على عددها واستندت إلى عددها ، وبرجالها استعانت بعد أن كانت قد دانت ،

---

(١) الإنكسار والضعف .

(٢) شروان : مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربند بناها أنوشروان فسميت باسمه . معجم البلدان (٧٠٨١) .

(٣) الدست : جمع دسوت (كلمة فارسية) تعني المجلس .

(٤) الأغتم : أي به نقص لا يفصح في كلامه .

(٥) موقان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة . تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم . معجم البلدان (١١٧٢٤) .

ولانت واستكانت ، وكان فيها من آلات الحرب ورجال الطعن والضرب ، مالا يحصى ولا يبلغه الاستقصا ، فكان فيها من المجانق[1] المرسلات الصواعق على أسوار الحصار ، ثلثمائة منجنيق أصغرها كالغضبان فى المقدار ، خارجا عن المكاحل والمدافع ، المهلكات بالصواعق الصواقع ، ومن رماة القوس القصير المنفذ حكمه قاضى التقدير ثلاثة آلاف بطل ، كلٌ أرمى من بنى ثعل[2] ، وأما عدد الضارب والنابل والقاتل والمقاتل والرامح والناطح ، والصارع والقارع ، والحاذف والجارف ، والخاطف والقاطف ، والناهب والسالب ، فالضابطون فيه تاهوا وما يعلم جنود ربك إلا هو .

فوجه التتار الهمة إليها وأخنوا كالقضاء المبرم عليها ، وحمى الوطيس وخاطر بنفسه كل خسيس ، وبذل مهجته من الغزاة كل نفيس ، فقتل من أهل العدوان طغاجارخان زوج ابنة جنكزخان ، وكان من عتاة الكفار ، المعتبرين بين التتار فحنق العدو لذلك وسدوا المسالك ، وسمع بذلك تولى الكافر الموغولى وكان فى بعض الجوانب ، مشغولا بالدواهى والمصائب ، ففار دم قلبه وتأججت نيران كربه ، وتأسف لفقد ختنه ، وثار غبار إحَنِه[3] .

فتوجه من فوره بحنقه وحوره ، ونزل على نيسابور وحل بالبوار على أولئك البور ، وزحف بالعساكر وتقدم بالطعن والضرب كل كافر ، فلم تمض غلوة حتى أخذوها عنوة ، ودخلها من كفر من التتر يوم السبت خامس عشر صفر ، سنة تسع عشرة وستمائة من الهجرة ، وأعطى تولى لأخته ذلك عوضا عن زوجها الهالك ، وقال لها : تسلى عن ذلك المفقود بهذا الموجود ، وتحكمى فى أهل البلد بما ترتضيه من سرور ونكد ، وتصرفى فى الأموال والأرواح فمهما تريه فهو لك مباح .

---

(١) المجانق : مفرد مجنيق وهو آلة حربية كانوا يرمون بها الحجارة (كلمة يونانية) .

(٢) بنى ثعل : قبيلة بنجد .

(٣) أى ثار عبدا لحقده وبغضه .

فأمرت أن لا يبقى على ذى روح ، وأن تجرى السيول من الدم المسفوح ، فأطلقوا فى ميادين الحتوف أعنة[1] صوارم السيوف ، فجدت جباه الجياد وجادت بجود الجد على أجياد الأجواد ، وصارت كألسن الشعراء النقاد تهيم من النظم والنثر فى كل واد ، فمحوا عن لوح الوجود ، بلسان شواظ السيف ذات الوقود سطور ذوات ذلك السواد الأعظم ، وكتاب كتائب تلك الخلائق والأمم ، وزادوا فى الاشتطاط حتى قتلوا الكلاب والقطاط ، ثم أمرت أن تجمع رؤس أولئك الجمهور ، ويميز رؤس الإناث من الذكور ، فميزوا رؤس الرجال عن قمم ربات الحجَال[2] ، وطرحوا كل كاشية[3] فى ناحية ، فصارت الرؤس كرواسي الجبان ، وتلك الدور والقصور كالأعصر الخوال ، ولم يخلص من قطع الأرؤس سوى أربعة أنفس كانوا من ذوى الحرف فجذبتهم المهارة من سفح بحر الفناء إلى الطرف .

ثم ركبت تلك البسوس[4] ، ووقفت على تلال الرؤوس فلم تنطفئ نارها ولا بردا وارها ، وزعمت أنها لم تستوف ثأرها ، وأن دود ترابها من علق تلك الأمم ما تكفت وغيطة غيظها بزرائر السيوف ما تشفت ، واستغاثت بالرجال وصاحت بلسان الحال ، وأنشدت :

وهَبْ أَنَّ النَساءَ سَلَلْنَ سَيْفَا   فَصُلْنَ وجُلْنَ كالفَحْل الغَيُور
فَزَلْزَلْنَ الجِبَالَ فَطِرنَ خَوْفاً   يُضَاهِينَ السَّحَابَ على الطُيور
وَصَارَ لَسَفْكِهِنَّ البَرُّ بَحْراً   أَيُغْنِيْهُنَّ ذَاكَ عَن الأيور[5]

(١) أعنة : أى اللجام أو الحبل الطويل .

(٢) ربات الحجال : جمع حجل وهو موضع تزين العروس .

(٣) كاشية : أى قطعة من الجسد .

(٤) البسوس : حرب جرت بين تغلب وبكر فى الجاهلية . أثارتها امرأة تدعى البسوس ، قتل ناقتها كليب بن ربيعة التغلبى فقتله جساس بن مرة البكرى . فقام المهلهل يطلب بثأر أخيه كليب ، ودامت الحرب أربعين سنة . اشتهرت بشعر المهلهل فى رثاء أخيه.

(٥) الأيور : حر النار والشمس والعطش .

فأمرت بهدم البلد وإحراق ما فيها من آلات وعدد ، فدكوها دكا وأعدموها سبكا وسفكا ، وتصرفت أيدى النوائب فيها فتكا وبتكا ، ثم أن تولى لوى العنان وقصد هراة[1] من خراسان ، فأخذها بالأمان ولم ينج من ذلك الطوفان سوى تلك الكورة[2] ، واستمرت تحت أوامرهم مقهورة ، وأمهات بلاد خراسان ومقر سرير السلطان ، كانت أربعة أمصار كل ذات اعتبار ، جليلة المقدار نيسابور ، وقد صارت بور ، وبلخ وقد كسيت من البوار ثوب سلخ ، ومروا لرود وقد انمحت من الوجود ، ولم يفز بالنجاة إلا بلدة هراة وسائر الأمصار شملها البوار ، ولبست من خلع الدثور والدِثار ، وكل منها مصر جامع ، وبرها بحر واسع وبحرها كصدر البر مداه شاسع .

وأما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات[3] ، فأكثر من أن تحصر أو تضبط بحساب دفتر ، فأبيد ذلك كله وأبير فالحكم لله العلى الكبير ، كل ذلك فى أدنى مدة وأوهى رقدة وما ذكر ذرة من طور وقطرة من بحور ، فسبحان من لا يسئل عما يفعل .

ثم إن جنكزخان الهامة الهامية ، والفتنة الطامة الطامية ، لما علق به المرض وحصل له فى خراسان العرض ، رجع إلى بلاده واستمر مرضه فى ازدياده ولم يزل على ذلك حتى أورد سبيل المهالك ، وتسلم روحه الخبيثة مالِك[4] ، وحين أيس من الحياة وقنط من رحمة الله ، جمع المعتمد عليه من أولاده المشاركين له فى عتوه وفساده ، وهم جغتاى وأوكتاى وأوليغ نويين

(١) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء . معجم البلدان (١٢٦٦٤) .

(٢) الكورة : القرية الصغيرة .

(٣) الرساتيق : القرى الصغيرة . والمزدرعات : الأماكن المزروعة والحقول .

(٤) أى ملك الموت .

وجرجاى ، وكاكان وأورجان ، وأوصاهم بوصايا وطرائق فى سياسة الرعايا؛ حافظوا عليها وتناهضوا إليها ، فثبت لهم من ملكهم أساسا لم ينهدم ، وأقام بنيانا إلى يومنا لم ينخرم وعروش قواعد أركانيا لم تتثلم[١] ، مع كثرة عددهم ووفرة مددهم ، وشكاستهم وشراستهم ، وشماستهم وتعاستهم ، وغلاظتيم وفظاظتهم ، واختلاف أديانيم واتساع بلدانهم ، وهلك الطاغية جنكزخان وانتقل إلى الدرك الأسفل من النيران ، واستقر فى لعنة الله وعقابه، وأليم زجره وعذابه فى رابع شهر رمضان الشامل بالفضل والإحسان والبركة النامية الهامية سنة أربع وعشرين وستمية ، فى سُرَّة ملكه المشوم وأعظم أمصاره أيميل وقوفان وقراقروم[٢] .

واستمرت بعده الفتن والشرور ، والمحن تغير على ممالك الإسلام وتبير شرائع خير الأنام ، وتثير غبار الإفساد والمفسدين فى وجوه سنة سيد المرسلين ، وتحصر جنود الإسلام وتقص جيوش العلماء الأعلام ، وتنقص أطراف الأرض وتنقض أركان الدين بعضها على بعض .

وناهيك يا مولانا السلطان بفتن هلاكو تولى بن جنكزخان ، وبعده أبغا ابن هلاكو الذى تجبر وطغى وتكبر وبغى ، وبعده ابنه أرغون ، وبعده ابنه قازان المفتون ، واستمرت بحار الفتن منهم تؤثر عنهم ومرجهايمور ، إلى أن نبغ الأعرج تيمور فأهلك الحرث والنسل واختلط المباح باليسل[٣] ، وحل بالعالم الباس وفسدت أحوال الناس ، وإنما ذلك كله بفساد الراس ، ومن جملة فتنهم وطعنهم فى طعنهم ، جالوا فى معركة وصالوا فى دست بركة ، فقتلوا فى مثل حرب البسوس وقطعوا فى ناحية من الروس ، جملة أرادوا ضبط عددها بعد أن أبانوها عن جسدها ، فلم يقدروا أن يحصروها .

---

(١) أى لم تتكسر .

(٢) قوفان : قرية من قرى دمشق . معجم البلدان (٩٩٨٣) .

(٣) الحرام .

فرسم لتلك البغاة سلطانيا أن يقطع من الرؤوس آذانها ، يقطعون من كل رأس أذنا ، ولتكن الآذان اليمنى فجدعوا آذان بعض الرؤوس وشكوها ، وفى خيوط سلكوها ، ثم فى قلائد ربطوها ، وبعد ذلك ضبطوها فكانت نحو مائتى ألف أذن مجدودة ، وسبعين ألف أذن معدودة .

وإنما ذكرت يا ملك الطير ؛ أمثال ما جرى من الشر والخير ، وجلوت عن مرآة ضميرك المنير صورة ما مر فى الزمان العنير ؛ وما فعله من ملكه زمام الاقتدار ، وأمهله سلطان السلاطين الذى يخلق ما يشاء ويختار ، وصرفه فى بلاده وعباده وبين له طريق صلاحه وفساده ، وأخبركم أيها الملوك والحكام بأموركم فى دنياكم ، وجلا صور أحوالكم على أعين أبصاركم ، وبين مزاياكم فى مراياكم ، فقال **﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ﴾** [الأنعام:١٦٥].

فانظر ما فى هذه السير من الحكم والعبر ؛ لتعلم أن الدنيا محل الغير ، ومحك العقول والفكر ، والحال بيا هدف لسهام القضاء والقدر ، مبتلى بكل خير وشر ونفع وضر ، غافل عن مواقع الحذر آمن وهو على شرف الخطر ، مقيم وقد جَدَّ به السفر مناقش بما مضى من أنفاسه مما حلا ومر ، ومحاسب على ذوات ما اكتسبه ، مطالب بالفتيل والقطمير (١) مما ارتكبه .

فلما وصل الحجل فى الكلام إلى هذا المقام ، قبل العقاب بين عينيه وزاد قربه لديه ، وأفاض خلع الإنعام عليه وقال : صدق عليه أفضل الصلاة والتسليم حيث قال «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم» (٢) .

---

(١) أى مطالب بكل صغير وحقير .

(٢) الحديث : ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال من طريق أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم ؛ فإذا وجدها فهو أحق بها» .

ونطق بالحق من قال : لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .

فأهل التحقيق وذوو النظر الدقيق ، راقبوا المعانى ولم ينظروا إلى القوالب والمبانى ، فإن سليمان عليه السلام وهو ملك الجن والأنام ، والوحش والطير ، والهواء والهوام ، ونبى مرسل ، وملك ذو فضل وسلطان الفصل بالعدل ، استفاد النصائح من نملة ، وجمع هدهده مع ملكة سبأ نملة ، ويوجد فى الاسقاط[1] ما لا يوجد فى الأسفاط[2] ، ولقد ينطق بالفوائد من هو كافر وجاحد ؛ فيؤخذ من أقواله ولا يقتدى بأفعاله .

وقد قيل : إن الحسن البصرى[3] رحمة الله عليه ، دخل صبىٌّ مسجده وصلى بين يديه ، فرآه لا يتم سجوده ولا يرضى بصلاته معبوده ، فدعاه وخاطبه وأنكر عليه وعاقبه ، وقال له : تمم سجودك ترض معبودك ، فقال : يا شيخ المتقين هذه سجدات شخص من المؤمنين ، لو سجد إحداها إبليس لآدم لما كان من الملعونين ، ولو سجدها فرعون مرة لكان من المسلمين ، ولم يصر من أهل العناد المطرودين .

وقيل : ورأى يوما صبيا ومعه سراج وهو سالك فى منهاج ، فسأله عن نار وما فيها من أنواره ، من أين أخذها وكيف افتلذها ، فلم يجاوبه إلا بإطفاء السراج ؛ وسؤاله أين ذهب ذلك النور الوهاج ، قل لى أين ذهبت تلك الأنوار ، أقل لك من أين جاءت تلك النار .

---

(١) الاسقاط : الردىء من متاع البيت .

(٢) الأسفاط : الغالى من متاع البيت .

(٣) الحسن البصرى : من كبار أعلام الزهاد والثقات والتابعين ، ولد بالمدينة وسكن البصرة . إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه . وكان أعلم الناس بالحلال والحرام فى زمانه ، وكان ورعاً فقيهاً زاهداً . فضائله ومناقبه كثيرة جداً . توفى سنة (١١٠هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

ثم إن العقاب ولّى الحجل ما تحت يده من رقاب ، وقدمه على سائر الخدم ، وصنوف الطير وأجناسه من الأمم ، وجعله الدستور الأعظم ، والوزير المقدم المكرم .

وفى هذا المقام ، أمسك الحكيم حسيب عن الكلام ، وختم ما افتتحه من الحكم والأحكام بالدعاء والثناء والصلاة والسلام .

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المخجل بأدبه امرأ القيس[١] ، وأبا فراس[٢]: فلما انتهى الحكيم فى مقترحه ، وما قصده من بيان محاسنه ومِلَحِه ، إلى هذا المحل وفصل من فضله ما أجمل من جمل ، نهض الوزير وقبل قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم به عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ، وملك الكلام يصرفه كيف شاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكما أنه شيخ المنقول وأستاذ المقول ، فمن أنوار ألفاظه تنير العقول ومن كنوز عباراته تستخرج جواهر المعقول ، وأما أخوه الملك فطار بسروره به عن سريره ، واتخذه فى مهام أموره مقام أميره ، ثم أدت آراء فكرته أن يستعمل أخاه لكشف كربته ، ويمشى فى السعى بينه وبين إخوته لرتق ما انفتق ، وسد ما خرقه سيل الحسد فانبثق ، فامتثل أمره العالى ونهض بأمر الله المتعالى ، وأنفق من جواهر أفكاره فى سوق المناصحة الرخيص والغالى ، ورصع ما استخرجه من يواقيت تلك من عباراته بما يستعبد عقود اللآلى ، وتعاطى أسباب الإصلاح وساعده لحسن النية وخلوص الطوية السعد والنجاح :

---

(١) امرؤ القيس ابن حجر الكندى ملك بنى أسد ؛ أشهر شعراء الجاهلية ، وإمام الشعراء، وحامل لوائهم . صاحب المعلقة الأولى . البداية والنهاية (٧/٣٤٥) .

(٢) أبو فراس : ابن عم سيف الدولة الحمدانى ، أمير حلب ، وكان أميراً لإمارة منبج . الشاعر الأمير الفارس شعره من أجمل وأحسن أشعار العربية . كان يضارع الشاعر الكبير المتنبى . البداية والنهاية (١١/٢٩٧) .

وهَذَّبَ فِى الفَضْل ما رَتَّبَه   ورتَّبَ بالفَضْل ما هَذَّبَه
وأعْجَبَ ذَا اللُّبِّ ما شَادَهُ   فَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا أعْجَبَهُ
وأغْرَبَ فى السَّبق إشراقِهِ   فَلِلّهِ ذَا السَّعْدِ مَا أغْرَبَهُ
فَمَا شَذَّ بالصِّدْق عَنْ نُصحِهِ   ولا شَذَّ خِلٌّ لِمَا شَذَّبَهُ

فاستمال الخواطر النافرة ، وأطفأ بزلال ألفاظه العذبة شواظ تلك النائرة، وسكن بنسيم ملاطفاته قتام الأخلاق الثائرة ، فاطمأنت القلوب ، وطهرت من غش التشاحن الجيوب[1] ، واتصل بالمحب المحبوب ، وحصل الأمن والأمان ومساعدة الزمان ، ومعاضدة الإخوان ومصافاة الخلان ، وطيب العيش والمكان ، وأفضل من هذا جميعه شفقة السلطان ، والاستقامة على الإسلام والإيمان .

ونسأل الله تعالى إتمام نعمه وإسبال ذيل إحسانه وكرمه ، واللطف فى القضا والعفو عما مضى ، والمعاملة بإحسانه الجزيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، و صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين ، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ، من الأختان والأصهار ، والمهاجرين والأنصار ، وسلم تسليما يطيب الأعطار ويتمسك بأذيال عرفه خياشيم الأزهار فى الأسحار ما دامت الأعصار ، ودارت الأدوار ، وترادف الليل والنهار ، وحشرنا فى زمرتهم مع المصطفين الأخيار، إنه كريم ستار حليم غفار .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : نمقه مؤلفه ولفقه مصنفه ، فقير عفو الله تعالى من غير تردد ولا تفكر ولا تعمق فى تدبر ، مع توزع البال أحمد بن محمد بن عرب شاه الحنفى ، سامحه الله تعالى وعامله بما يرتضيه تفصيلا وإجمالا لا بما يقتضيه عدلا وجلالا فى أواخر شهر ربيع الأول سنة خمسين وثمانمائة .

أحسن الله خاتمتها وعاقبتها ، وجعل آخرها خيرا من أولها بمنّه وكرمه ، آمين .

---

(١) الصدور .

الفهـارس العـامــة

1- فهرس الآيات
2- فهرس الأطراف
3- فهرس الشعر
4- فهرس الأعلام
5- فهرس الأمم والأماكن
6- فهرس الغريب
7- فهرس العبارات البليغة
8- فهرس مواضيع الكتاب
9- محتويات الكتاب

فهرس الآيات

﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالت أتينا طائعين﴾	١١	٢٧
﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾	٣٤،٣٥	٢٤١
﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق﴾	٥٣	٢٤
﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾	١٥	٥٠٦
سورة الشورى		
﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى﴾	٢٣	١٦١
سورة الدخان		
﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾	٢٩	٢٨
سورة ق		
﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾	١٨	٢٢٥
سورة الذاريات		
﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾	٢٠،٢١	٢٤
﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾	٢٢	٤٨١
﴿وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾	٤١،٤٢	٤٥٤
﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾	٥٥	١٣٩
﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدرن ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾	٥٦،٥٧	٢٠٣
سورة الواقعة		
﴿أفرأيتم النار التى تورون ألنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾	٧١،٧٣	٤٥٥
﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾	٩٣،٩٤	٨٩

فهرس الأطراف

فهرس الشعـــر

الله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكم أن لا تحبونا ٤٦٠

تلجى الضرورات فى الأمور إلى ... سلوك مالا يليق بالأدب ٥٢

وهذب فى الفضل ما رتبه ... ورتب بالفضل ما هذبه
وأعجب ذا اللب ما شاده ... فأثنى عليه بما أعجبه
وأغرب فى السبق إشراقه ... فلله ذا السعد ما أغربه
فما شذ بالصدق عن نصحه ... ولا شذ خل لما شذ به ٥٧٧

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقول طول التجارب ٢١١

صن من الناس جانبا ... كى يظنوك راهبا
قلب الناس كيف شئت ... تجدهم عقاربا ٤٧٢

إذا كنت لابد مستتربا ... فمن أعظم التل فاستترب ١٩٠

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... فسوف يغنيك ذا عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبى ٣٢٥

ومن أين ألقى بعد سبعين حجة ... رفيقا كمن أرضعته قهوة الصبا
أديبا أريبا لم أمل مقامه ... ولا ملنى يوما حكيما مهذبا ٢٢٦

إذا رمت أن تصفى لنفسك صباحا ... فمن قبل أن تصفى له الود أغضبه
فإن كان فى وقت التغاضب راضيا ... وإلا فقد جربته فتجنبه ١١٥

إذا ما أراد الله إهلاك نملة ... أطال جناحيها فسيقت إلى العطب ٤٤٩

وإنى يسار خائف أن يردنى ... زمانى بما لاقى يسار الكواعب ٢٩٥

كعصفورة فى يد طفل يهينها ... تقاس حياض الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ... ولا الطير مطلوق الجناح فيهرب ٢٢٩

نجوم سماء كلما انقضى كوكب ... بدا كوكب تأوى إليه كواكب ٣٣

وكم أزعج الحرص من طالب ... يوافى المنية عن مطلبه ٢٩٩

أصبح فى أمراضه يعذب ... كخرقة بال عليها الثعلب ١٠٧

مــلأت حشاشـــتى شــوقا وحبـــا	فــإن تــرم الزيـــادة هـــات قلبـــا	٤٩٤
وهدهـــد ألبـــس ثـــوب البهـــا أغـــرب إذ شـــرق فـــى حســـنه	فعـــم إذ خـــص بصـــدق النبـــا ففـــاق أهـــل التـــاج حتـــى سـبا	٤٨٤
ليذهبـــوا فـــى ملامـــى أينمـــا ذهبـــوا	فـى الخمـر لا فضـة تبقـى ولا ذهـب	١٢٠
أمـــور تضحـــك الســـفهاء منهـــا	ويخشـــى مـــن عواقبهـــا اللبيـــب	١١٩
لا تمدحـــن أمـــرأ حتـــى تجربـــة	ولا تذمنـــه مـــن غـــير تجريـــب	١١٥
إن الصدقـــة أولاهـــا الســـلام ومـــن وبعـــد ذاك كـــلام فـــى ملاطفـــة وأصـــل ذلـــك أن تبغـــى شـــمائلها لم تنسى غيبا ولـم تملك إذا حضـروا إن الكـــرام إذا مـــا صـــادقوا صدقـــوا	بعـد الســلام طعـام ثـم ترحيـب وضحـك ثغـر وإحسـان وتقريـب بيـن الأحبـة تـأبيد وتـأديب قـد زان ذلـك تهذيـب وترتيـب لـم ينتهـم عنـه ترغيـب وترهيـب	٣٠٢
إذا مـا خلـوت الدهـر يومـا فـلا تقـل	خلـوت ولكـن قـل علـى رقيـب	٣١٦
إذا كـــان الطبـــاع ســـوء	فليـــس بنـــافع أدب الأديـــب	٣٣٠
ولمـــا أن تـــراءى الفجـــر يحكـــى	جبيـــن الحـــب ورأى اللبيـــب	٢٦٤

حرف التاء

فانهض هديت إلـى مـا رمتـه عجـلا	فـالدهر عـات وللتـأخير آفـات	٣١٨
فـإن القلـوب مرائـى الصفـات	كمـا السـيف مـرآة وجـد الـذوات	٢٦٢
علـى كـل حـال ينبغـى الشـكر للفتـى	فكم من شرور عن سـرور تجلـت	٤٦٧
ومـا أنـا ممـا فـر مـن نـار خصيمـه	لظـل حسـود أو إلـى مـرء شـامت	٣٨٠
وإذا كـان منتهـى العمـر موتـا فعشـى مـا شـئت فـى الدنيـا وأدرك فخبـل العمـر موصـول بقطـع	فسـواء طويلـه والقصـير بهـا مـا شـئت مـن صيـت وصـوت وخيـط العيـش معقـود بمـوت	٣٦٢

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

تزجـى أغـن كـأن إبـرة روقـه	قلـم أصـاب مـن الـدواة مدادهـا	٤٢٣
قليـل المـال تصلحـه فيبقـى	ولا يبقـى الكثـير مـع الفسـاد	٣٦٠
لا يصلـح النـاس فوضـى سـراة لهـا	ولا سـراة إذا جهـالهم سـادوا	٢٧١
وعصفـور الهـوى يهـوى جـراده	كمـا عشـق الخـروف أبـا جعـادة	٦١
هـى العنقـاء تكـبر أن تصـادا	فعـاند مـن تطيـق لـه عنـادا	٤٠٩
إذا لـم يكـن عـون مـن اللـه للفتـى	فـأول مـا يجنـى عليـه اجتهـاده	٢٧٨
لا تلـق إلا بليـل مـن تواصلـه	فالشـمس نمامـة والليـل قـواد	٢٥٨
ومن نكد الدنيا علـى الحـر أن يـرى	عـدوا لـه مـاض صداقتـه بـد	٤٤٣
ولا يقيـم علـى ضيـم يـراد بـه هـذا على الخسـف مربـوط برمته	إلا الأذلان غـير الحـى والوتـد وذا يشـج فـلا يـرثى لـه أحـد	٦٥
تسـمت درة لكـن كسـاها ومـن لهـا بمنقـار عقيـق	حكيـم الصنـع ثوبـا مـن زبرجـد وخـاط شعـارها مـن عيـن عسـجد	٤٨٤
ولـو أن فقفـورا وكسـى تبعـا ومـا أن وفـوا حقـا عليهـم وإنمـا	رأوك لخـروا بيـن أيديـك سـجدا على قدر مافى الوسع مد الفتى يدا	٤٨٥
ففـى كـل شـىء لـه آيـة	تـدل علـى أنـه واحـد	٢٤
مـا حـال مـن كـان لـه واحـد	يؤخـذ منـه ذلـك الواحـد	٤٤٥
إن الدليـل الـذى ليسـت لـه عضـد كونـوا جميعـا يـا بنـى إذا اعـترى تـأبى القـداح إذا جمعـن تكسـرا	مثـل الوحيـد بـلا مـال ولا عـدد خطـب ولا تتفرقـوا أجنـادا وإذا افـترقن تكسـرت أفـرادا	٧٩
إذا أنـت أكرمـت الكريـم ملكتـه فوضـع الندى فى موضـع السيف بالعلى	وإن أنت أكـرمت اللئيم تمـردا مضر كوضع السيف فى موضع الندى	٤١٤،٢٤٢
لقـد غرسـوا حتـى أكلنـا وإننـا	لنغـرس حتـى يـأكل النـاس بعدنـا	٤٩٨

فإن تلمم بقفر عاد روضا … وإن تمرر بملح صار شهدا
وإن يخطر ببالك نحس نجم … يعد فى الحال من رياك سعدا ٢٧٠

ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى … عن الرشد فى أنحائهِ ومقاصده
تعاميت حتى قيل أنى أخو عمى … ولا عزو أن يحذو الفتى حذو والده ٤٠١

وليس لنا من يذكر الله بعدنا … إذا ما انتشبنا فى مخاليب فقدنا ٤٣٢

انفراد المرء خير … من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير … من جلوس المرء وحده ٤٥٨

وما ضر أهل الكهف إيمان كلبهم … ولكنهم زادوا يقينا على هدى
وماذا أفاد العلم بلعام وهو من … بنى آدم لما إلى الأرض أخلدا ٣٢٥

على الطائر الميمون والبشر والسعد … سموت إلى العلياء نهدا عنى نهد ٣٢٠

هجرتك لا قلى منى ولكن … رأيت بقاء ودك فى الصدود
كهجر الحائمات الورد لما … رأت أن المنية فى الورود
تفيض نفوسها ظمأً وتخشى … حماما فهى تنظر من بعيد
تصد بوجه ذى البغضاء عنه … وترمقه بألحاظ الودود ٥٠٣

أيا ابن آدم لا يغررك عافية … عليك شاملة فالعمر ممدود
ما أنت إلا كزرع عند خضرته … بكل شىء من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها … فأنت عند كمال الأمر محصود ٤٧٠

أرى ماء وبى عطش شديد … ولكن لا سبيل إلى الورود ٥٧

قدمت قدوم البدر بيت سعوده … وأمرك فينا صاعد كصعوده ٨٢

هو السنقر العالى بهمته التى … تعلت على أيدى الملوك بها يده ٤٨٢

ولا تبق مجهودا برأيك إنه … سديد ومن يقف السديد سديد ٣٥٩

ليس فى العاشقين أقنع منى … أنا أرضى بنظرة من بعيد ١٧٧

لأبناء هذا الدهر فى الغدر أسهم … وضرب خيانات وطعن مكيدة
وما للفتى منها طريق سلامة … سوى ترسى تفويض لرب البرية
وكل امرىء رهن بنيته وفى … كفالة ما ينوى وما فى العقيدة ٤٢٨

حرف الراء

هو الموت إن لم تلقه ضاحكا فمت حبوسا بوجه أقتر اللون غبرا
ومن لم يمت فى ملتقى الخيل مقبلا عزيزا يمت تحت السنابك مدبرا ٣٧٤

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر ٥٤٦

لا تسع فى الأمر حتى تستعد له سعى بلا عدة قوس بلا وتر ١٨٩

فلما رأى الليل العبوس ضيعة تبسم فافترقت تباشير فجره ٢٧٩

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا ٢٥١

فإياك والأمر الذى إن توسعت موارده ضاقت عليك مصادره ٢٥٧

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا ٦٢

ما قد قضى يا نفسى فاصطبرى له ولك الأمان من الذى لم يقدر ٥١٣

يا سائلى عما جرى والعين مبصرة القدر
أو ما سمعت بأن إذا جاء القضا عمى البصر ٢٣٠

صن السر عن كل مستخبر وحاذر فما الحزم إلا الحذر
أسيرك سرك إن صنته وأنت أسير له إن ظهر ٢٢٢

نظروا إليك بأعين محمرة نظر التيوس إلى شفار الجازر ٢٧٨

الأمر يحدث بعده الأمر والعسر مقترن به اليسر
وحلاوة الصبيان من عسل تلهى وإن حلاوتى الصبر
والصبر يعقب بعده شكر من نعمة تأتيك أو أجر ٤٤٩

طوى الموت ما بينى وبين أحبتى وليس ما تطوى المنية ناشر ٤٢٢

ما أحسن العفو من القادر لا سيما لغير ذى ناصر ٢٥٣

سمعت أعمى مرة قائلا يا قوم ما أصعب فقد البصر
أجابه أعور من خلفه عندى من ذلك نصف الخبر ٤٦٧

أتأذنون لصب في زيارتكم   فإنكم في محل السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به   عف الضمير ولكن فاسق النظر   ٥٦

إذا أراد الله أمرا لامرئ   وكان ذا عقل وسمع وبصر
وحيلة يفعلها في دفع ما   يأتي به محتوم أسباب القدر
أصم أذنيه وأعمى قلبه   وسل منه عقله سل الشعر
فلا تقل فيما جرى كيف جرى   فكل شيء بقضاء وقدر   ٢٣٠

إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر   إن القضاء إن أتى يعمى البصر   ٢٣٠

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا   به الخطب إلا وهو بالقصد يبصر   ٦٠

فمشوا على سهل البلاد ووعرها   مشى الجراد على القصير الأخضر
فكأنهم موسى على شعر مشت   أو منجل فوق الحصيد الأصفر
أو مشعلة نار الهوا فتعلقت   فوق الصعيد على الهشيم الأغبر   ٥٥٦

يستعطفون الأكابر   يستعبدون الأصاغر
يحبون رسم الأوائل   يعلمون الأواخر   ٢٥٠

أنهاك أنهاك لا آلوك معذرة   عن نومه بين ناب الليث والظفر   ٤٥٣

وطود تلوح الشمس من تحت ذيله   إذا هى فى كبد السماء استقرت   ٤٨٠

ونحن أتينا طائعين ولم نكن   عصاة فرم غير الطيور عساكرا   ٣٢٣

لا كان فى الدهر لا أراك به   ولا بدت فيه شمس ولا قمر   ٤٤٥

كم نار بادية شبت لغير قوى   على بقاع وكم نور بلا ثمر
هون عليك أمورا أنت تنكرها   فالدهر يأتي بأنواع من العبر   ٤٤٤

وأحسن ما كان الفتى فى زمانه   مع السعد والجاه العظيم معمرا   ٤٩٦

لكل فتى خرج من العيب ممتلىء   على كتفه منه ومن أهل دهره
فعين عيوب الناس نصب عيونه   وعين عيوب النفس من خلف ظهره   ٢٢١

على المرء أن يسعى ويبذل جهده   وليس عليه أن يساعده الدهر
فإن نال بالسعي المنى تم أمره   وإن غلب المقدور كان له عذر   ٢٨٩

مـن راقـب النـاس مـات غمـا	وفــاز بــاللذة الجســور	١٥٢
مـا العمـر مـا طـال بـه الدهـور	العمـر مـا طـاب بـه السـرور	٣٧١
وفى الجهل قبل الموت موت لأهله	وأجسـادهم دون القبـور قبـور	
وإن امـرأ يحـى بـالعلم قلبـه	فليـس لـه حتـى النشـور نشـور	٤٤٣
وهـب أن النسـاء سـللن سـيفا	فصلـن وجلـن كـالفحل الغيـور	
فزلزلـن الجبـال فطـرن خوفـا	يضـاهين السـحاب علـى الطيـور	
وصـار لسـفكهن الـبر بحـرا	أيغنيهـن ذاك عـن الأيـوار	٥٧١
الطـب أهـون علـم يسـتفاد فطـر	بيـن الأنـام بـه طـير الزنـابير	
واجمـع لـذاك كراريسـا منـثرة	وجملـة مـن حشـيش مـن عقـاقير	
وضـع علـى الـرأس بقيـارا تـدوره	كقبـة النسـر فـى وزن القنـاطير	
واجمـع معـاجين مـن رب تخلطهـا	واسـحق سـفوفا وأكحـال العواويـر	
وسم مـا شـئت مـن أسماء مغربـة	كالسـند والهنـد والسـرحا وخنفـور	
وقل من الهنـد جـا هـذا ومـن عـدن	هـذا وهـذا أتـى مـن ملـك فغفـور	
وذا مـن البحـر بحـر الصيـن معدنـه	وذا مـن الـبربر المدعـو بـبربور	
فـإن رأيـت بالاستسـقاء ذا ورم	فقـل تـورم مـن لسـع الزنـابير	
إن اقشـعر فقـل بـرد عـراه وإن	يحـم قـل حـره وهـج التنـانير	
وإن أتـاك مريـض لا تخـف وأشـر	بمـا تـرى مـن دواء دونـه البـورى	
فـإن يعـش قـل دوائـى كـان منعشـه	وإن يمـت قـل أتـاه حكـم مقـدور	
كذلـك الرمـل والتنجيـم خـذه علـى	هـذا المثـال وخض فـى علـم تعبـير	
فـإن أصبـت فقـل علمـى ومعرفتـى	وفـى التخـالف قـل ضـد المقـادير	
وإن رأيـت فقيهـا فـر منـه ولا	تنطـق يخطئـك فـى فسـق وتكفـير	
وأنـت تحتـاج فـى هـذا وذاك إلـى	ذرق ومعـرفة مـع حسـن تدبـير	١٦٨
ومـا بكثـير ألـف خـل وصـاحب	وإن عـدوا واحـد الكثـير	٣٦
إن تهـو بـدرا فليكـن	ابـن الخليفـة ذى السـرير	
أو ابـن سـلطان الـورى	أو ذى الـوزارة أو أمـير	
وتجنـب الأوغـاد والغوغـا	وذا القـدر الحقـير	
إن الخطـير هـو الـذى	قـد قـام بـالأمر الخطـير	٣٦٧
مكانـا فيـه سـلطان الطيـور	تصـدر بالسـرور علـى السـرير	
أطـاف بـه صنـوف الطـير طـرا	عكوفـا بـالحضور وبـالحبور	
لكـل فـى مباشـرة مقـام	يقـوم بـه جليـل أو حقـير	٤٨١

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

لا تحقرن الرأى وهو موافق ... حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أجل شىء يقتنى ... ما حط قيمته هوان الغائص ٤٢٠

حرف الضاد

كأن فؤادى فى مخالب طائر ... إذا ما ذكرت الحب يشتد بى قبضا ٢٣١

الطب حفظ صحة برء مرض ... من سبب فى بدن إذا عرض ٤٤٧

وقد تعوضت عن كل بمشبهه ... فما وجدت لأيام الصبا عوضا ٤٨

حرف الطاء

طويل العنق رحب الصدر ضخم ... له فى آل قسطنطين ضبط
تغشى من سواد العين ثوبا ... عليه من دم الأحشاء نقط ٤٨٢

كأن أنوشروان أعطاه تاجه ... وناطت عليه كف مارية القرطا
سبى حلة الطاوس حسن لباسه ... ولم يكفه حتى سبى المشيه البطا ٣٤٤

من ذا الذى ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط ٢٣٤

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما ... يكون صعود المرء فيه هبوط
وهيهات ما فيه يزول وإنما ... شروط الذى يرقى إليه سقوطه
فمن كان أعلى كان أوفى تهشما ... وفاء بما قامت عليه شروطه ٢٩٤

حرف الظاء

أرقش ظمآن متى عض لفظ ... أمر من صبر ومقر وحفظ ٤٠٧

أرى حالة بذت لسانى فليس لى ... طريق إلى أنى أفوه بلفظه
اعض لها كفى وأمعك مقلتى ... أفى النوم هذا أم أراه بيقظة ٥٥٩

حرف العين

وكل سر جاوز الاثنين شاع ... وكل علم ليس فى القرطاس ضاع ٢٢٢

فهذا يقود إلى طبعه ... وهذا يسوق إلى ربعه ١٣٧

قام الحمام إلى البازى يهدده ... واستصرخت بأسود البر أضبعه ٢٨

تفرقــت غنمـــى يومـــا فقلـــت لهـــا   يا رب سلط عليها الذئب والضبعا ١٧١

لقد كان قصدى أن أسود على الورى   بقـد وطـرف كـامل الخلـق بـارع
ووجـه يفـوق البـدر والشـمس بهجـة   فعاكسـنى تقديـر ربـى وصـانعى ٣٩٨

للكـون دائـرة مـن قبلنـا صنعـت   لا بى تضيق ولا من أجلك اتسعت
والسـر فـى جيـب غيـب اللـه مكتتـم   فلست تدرى يد التقدير ما صنعت ٢٥٨

جاوزت فى اللوم حدا قد أضر به   من حيث قدرت أن اللوم ينفعه ٢٣١

عزمـت علـى إخـلاء جسـمى روحـه   من خرق شيب كل عنه الراقع
قلـت اسـكنيه يـا عمـارة عمـره   قـالت فكيـف وبيت جسمك واقع ٤٥٢

وددت لو أنى أحسـن الخلـق صـورة   وأكمل من بدر السما وهو طـالع
فـأبد عنـى نقـش المصـور هكـذا   ولا صنع لى فيما بى الله صانع ٣٩٨

ظـن العـذول بـان عذلـى ينفـع   قل ما تشا فعلى أن لا أسمع ٣٠٦

نحـن بنـو أم البنيـن الأربعـة   ونحن خير عامر من صعصعة
إليـك جاوزنـا بـلادا مسـبعة   نخبر عن هذا خبيرا فاسمعه
مهـلا أبيـت اللعـن لا تـأكل معـه   إن استه من برص ملمعه
وإنـه يدخـل فيهـا إصبعـه   يدخلها حتى يوارى أشجعه
كأنمـا يطلـب شيئـا ضيعـه ٩٦

"النفـس راغبـة إذا رغبتهـا   وإذا تـرد إلـى قليـل تقنـع ١٤٠

هبطـت إليـك مـن المحـل الأرفـع   ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع ٣٢٠

إذا مـا لم تكـن ملكـا مطاعـا   فكـن عبـدا لمالكـه مطيعـا
فـإن لـم تمـلك الدنيا جميعـا   كمـا تهـواه فاتركهـا جميعـا ٣٥٥

حرف الغين

وهـو غراب البيـن فـى شـؤمـه   لكـن إذا حبنـا إلـى الحق زاغ ٤٥٩

حرف الفاء

فإن يفضى بحر علمى تهدمنه على   در ينير عيون العقل فى السدف
ألبسـته مـن خلاعـات النهـى خلعـا   وربمـا ازدان عقـد الـدر بـالخزف
والفضـل يحتـاج فـى ترويـج سـلعته   إلـى الخرافـة والمعقـول للخـرف
فاعبر إلى البحر تجن الدر منه ولا   يلهيك عن دره أضحوكة الصدف ٣٠

كفى حزنا أنى أرى من أحبه رهين الردى يرنو إلى بطرفه
أود بما لى لو يفدى ومهجتى ولكن يد التقدير غالت بحتفه ٤٨٨

يا ناظم الشعر فى مقام فتى يقود فاسمع مقالة الظرفا
ألف هذا حروفه سمحت همة هذا فألف الحرفا ٥٦

أسد يسود على الأسود زئيره رعد وعيناه بروق تخطف ٣٧٠

يلتذ جانبيه بأنعم مقطف منه وساكنه بأكرم معطف
والورق بين محلق فى وجوه طربا ومنحط عليه مرفرف ٤٦٥

عانقت محبوب قلبى حين واصلنى كأننى حرف لام عانقت ألفا ٢٥٨

كذى المجد يحمل أثقاله قوى العطظام حمول الكلف ٤٦٠

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ولا بينه ود ولا تعارف
فاسمنا خسفا ولا شفنا أذى من الناس إلا من نود ونألف ٢٦١

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن ألوف ٢٤٢

حرف القاف

كالشمس فى كبد السماء محلها وشعاعها فى سائر الآفاق ٣٣٤

إن اللبيب أخا اللبيب هو الذى مع تيهه يحنو على عشاقه
وكذا الرئيس وأنت أكبر جنسه من فاض فى الخدام من أرزاقه
يهتم إن حضروا له بنوا له يغتم إن غابوا على أشواقه
مع أن حشمته وفائض علمه ترقى بكل منتهى استحقاقه ١٣٧

إذا استحقرت أننى من تعادى بمالك من يد وند وطاقة
فما استحقرت إن أهملت إلا أمورك وهو ذا أعين الحماقة ٢٦٩

لا تودعن ولا الجماد سريرة فمن الحجارة ما يسر وينطق
وإذا المحك أضاع سر أخ له وهو الجماد فمن به يستوثق ٢٢٢

أصبر على ما جرى من سابق قد ما فمركب الصبر بالإمهال تلحقه ٢٤٤

بنى مسجد الله من غير حلة فصار بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها لك الويل لا تزنى ولا تتصدقى ٥٠٠

أمطر على سحاب جودك مرة	وانظر إلى برحمة لا أغرق	٣٣٥
نظر إلى الباشق فى صيده	ينقض كالسهم من الراشق	
يقفو حماما مثل معشوقة	اتبعها الحب حشا العاشق	٤٨٣
خلت الرقاع من الرخا	خ وفرزنت فيها البيادق	
وتسابقت عرج الحمير	فقلت من عدم السوابق	
وسطا الغراب على العقا	ب وصاد فرخ اليوم باشق	
سكتت بلا بله الزما	ن وأصبح الخفاش ناطق	٣٠٠
أبعين مفتقر إليك نظرتنى	فحقرتنى وقذفتنى من خالق	
لست الملوم أنا الملوم لأننى	أنزلت آمالى بغير الخالق	١٧٥
وإن رأيت غراب البين فى شرك	فاذبح وكل وذر الأفراخ فى عنقى	٢٣٥
لئن بادرت فى تسليم روحى	أتانى من ورائى من يعوق	
وإن أسرعت نحو الوصل عذرا	فعمرى من ورا ظهرى يسوقا	٤٥٠
ولما مضى الشوق	إلى نحو أبى طوق	
تدحرجت ولكنى	من تحت إلى فوق	٤٥٧
لابس التاج العقيقى	لا تقف فى طريقى	
إن يكن ذا الوصف حقا	فهو والله السلوقى	٣٤٦
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت	له عن عدو فى ثياب صديق	١٢٠
بغداد دار لأهل المال منعمة	وللمفاليس دار الضنك والضيق	
ظللت حيران أمشى فى أزقتها	كأننى مصحف فى بيت زنديق	٢٣٩
إن كان فراقنا على التحقيق	فذى كبدى أحق بالتمزيق	
لو دام لنا الوصال ألفى سنة	ما كان يفى بساعة التفريق	٤٤٥
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه	فصدر الذى يستودع السر أضيق	٢٢٢
مهلا أبا الصقر فكم طائر	خر صريعا بعد تحليق	
زوجت نعمى لم تكن كفأها	آذنها الله بتطليق	٤٤٩

حرف الكاف

بالله قل لى خبرك — فلى زمان لم أرك ٢٥٨

تنزع جنكز خان لله ساعة — وأخلص فيما رامه وهو مشرك
فما خاب فيما رامه من فساده — وما زال يعثو فى الأنام ويسفك
فما بال من لله طول حياته — يوجد بالإخلاص هل هو يهلك ددد

ومن يتشبث فى العداوة كفهُ — بأكبر منه فهو لا شك هالك ٤٤٩

حرف اللام

يجود بما ضن الجواد بمثله — من الوفر بل لو أمكنته شمائله
لعاد على المرضى بصحة جسمه — وجاد على الموتى بعمر يطاوله
ومن على النوكى بوافر عقله — وقسم فى الحمقى من الرأى كامله
وثقل ميزان المخف بأجره — لدى الوزن لما آد بالوزر كاهله
ولو لم يكن فى كفه غير نفسه — لجاد بها فليتق الله سائله ٥٠٢

فكم دقت ورقت واسترقت — فضول العيش أعناق الرجال ٢٩٥

فمن جاءنا طوعا أقمنا بمجده — ومن يأب لا يعتب علينا فعالنا ٣٤٢

قفوا ثم انظروا حالى — أبو مذقة أكالى ٦١

تلونت حتى لست أدرى من الهوى — أريح جنوب أنت أم ريح شمال ٤٥٠

ساعد بجاهك من يغشاك مفتقرا — فالجود بالجاه فوق الجود بالمال ٤٧٦

وما أقبح التفريط فى زمن الصبا — فكيف به والشيب للرأس شامل ٤٥٢

إلى كم يدارى القلب حاسد نعمة — إذا كان لا يرضيه إلا زوالها ٢٥١

إذا لم يكن للمرء فى دولة أمرئ — نصيب ولا حظ تمنى زوالها ٣٦٧

إذا لم يكن لى منك عز ولا غنى — ولا عندما يغتالنى الدهر موئل
فكل التفات لى إليك تكرم — وكل سلام لى عليك تفضل ١٧٤

بقدر الكد تكسب المعالى — ومن طلب العلى سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلا — يغوص البحر من طلب اللآلى
إذا هم ألقى بين عينيه عزمة — ونكب عن ذكر العواقب جانبا ٣٦٣

وما على الحر أنكى أن يرى حزنا ... فى محنة ضاق عنها دونه الجبل ٢٢٦

وإذا أراد الله إنفاذ القضا ... وظهور قهر للبصائر باتلا
جعل الدواء لذاك داء ممرضا ... وفوائد الترياق سما قاتلا
والكون خصما والمكان مناقضا ... والعيش موتا والصديق مقاتلا ٥٦٧

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل ١٠٢

ومن لم يزح عن دربه الشوك قبل أن ... يطأه فلا يعتب إذا شاك رجليه ٢١٨

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب ... أناخ عشيا وهو بالصبح راحل ٨٨

يا أحمد اقنع بالذى أوتيته ... إن كنت لا ترضى لنفسك ذلها
واعلم بأن الله جل جلاله ... لم يخلق الدنيا لأجلك كلها ٣٥٤

لقد جار صرف الدهر فى كل جانب ... من الأرض واستولت علينا الأراذل
هل المسخ إلا أن ترى العرف منكرا ... أو الخسف إلا حين تعلو الأسافل ٣٢٤

ونسر تفر الطير من قرب ظله ... وفى ظله للسعد مأوى ومنزل ٤٨٢

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أهملت تاقت وإلا تسلت ١٤٠

معقر مر على أعدائه ... وعلى الأدنين حلو كالعسل ٤٧٢

وعمر مضى بالهجر لست أعده ... ولكننى أقضيه فى زمن الوصل ٣٧٣

إن الملوك بلاء أينما حلوا ... فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتم ملوا
وإن مدحتهم ظنوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستعن بالله عن أبوابهم كرما ... إن الوقوف على أبوابهم ذل ٤٧٣

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل ٢٤٣

ومن أصلها وكر لزوج من الحجل ... كأن ربا رضوان ألبسها الحلل ٤٣١

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجساد ٥١

لله در أنوشروان من رجل   ما كان أعرفه بالوغد والسفل
نهاهم أن يمسوا عنده قلما   وأن يذل بنو الأحرار بالعمل   ٦٢

لو تنظر الرقبا وقد عانقته   والشمع مشتعل وبابي مقفل
طورا أشاهده وأرشف تارة   وأضمه من بعد ما أتأمل
وإذا تعشى ذيل ثوبي بان لي   من جيبه شيء عليه المقتل   ٣١٧

فأوجز لكنه لا يخل   وأصنب لكنه لا يمل   ٤٦٢

وما حز أعناق الرجال سوى النسا   وأي بلاء جاء لسن له أهلا
فكم نار شر أحرقت كبد الورى   ولم يك إلا مكرهن لها أصلا   ١٨١

إذا لم يغن قول النصيح بمقول   فإن معاريض الكلام فضول   ٣٩

مشى برجليه عمدا نحو مصرعه   ليقضي الله أمرا كان مفعولا   ٢٢٤

فلا وأبيك لا أدع احتياطي   ومالي في قضاء الله حيلة   ٤٤٦

وحدث من الدنيا كريما نؤمه   لدفع ملم أو لنيل جزيل   ٤٧٠

قد قيل ذلك إن صدقا وإن كذبا   فما احتيالك في شيء وقد قيلا   ٩٧

فلا زلت بين الورى حاكما   بجاه عريض وعمر طويل   ٤٩٦

حرف الميم

وقد جمع الضدين نوما ويقظة   يخاف الرزايا فهو يقظان نائم   ٣٧١

وما بقيت من اللذات إلا   أحاديث الكرام على المدام   ٥٥ ، ١٦٥

فما كف ذو كف له رائد الردى   ولا مال بالأموال عنه حمامه
ولا ملك كلا ولا ملك حمى   حمى ملكه لما عراه انهدامه   ٥٥٤

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سام   ١٢١

وكل الناس تطلب المعالي   ونفس الحر تأبى أن تضاما   ٢٩٦
نزلنا في ذرى ملك كريم   يرانا مثل أولاد الكرام
أضل نوائب الأيام عنا   فلم تزنا ولا في الاحتلام
ولا مطر السماء يصيب منا   كأن مقامنا فوق الغمام   ٤٨٧

ولم تر من بنى الدنيا سلاما	فإن تره فأبلغه سلامى	٧٨
ولم أر فى عيوب الناس نقصا	كنقص القادرين على التمام	٤٤ ، ٥٢١
هذا هو الملك الذى من بابه	يعطى المخوف أمانه لزمامه	٤٨٩
لكل إمام أسوة يقتدى به	وأنت لأهل المكرمات إمام	٤٥٦ ، ٤٨٠
إذا كان للإنسان فى دولة امرىء	نصيب وإحسان تمنى دوامها	٣٦٨
تبنى بأنقاض دور الناس مجتهدا	دار استتقض يوما بعد أيام	٣٦٦
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا	يكلمه من حبه وهو أعجم	٣٣١
ليس المليك الذى تشقى رعيته	وإنما الملك مولى يحفظ الخدما	٢٥٠
هل للحرائر من صون إذا وصلت	أيدى الرعاء إلى الخلخال والخدم	٣٧٤
فإن قلبى بين دمع وضرم	فارحمونى أنا من لحم ودم	٤٣٣
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى	حتى يراق على جوانبه الدم	٥٠
فيك يهدى سناوه	كأعظمهم إذ من هو التعظما	
فلا تحتقره إن تملكت فيه	ملكا مفخما	
ففى موقف العشاق منك وظيفة	لكل فلا يبغى لها متقدما	
وجد يليق بحاله	وكل له حال يوافيك مغرما	
ألم تر أن الله أوجد حكمة	وبق وضيغما	
وكل له نفع وضر مخصص	فسبحان من قد خص طورا وعمما	٢٧١
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم	٥٠
قرب الملوك يا أخا القدر السمى	حظ جزيل بين شدقى ضيغم	٤٧٨
وأنه مظلوم وغنه سائل	على أذنه أحلى من الشهد فى الفم	٥٠٧
كانوا شموسا تضىء الدهر طلعتهم	وفى طريق المعالى يقتدى بهم	
غابت فلولا سناهم كالبدور أضا	من بعدهم تاه أهل الفضل فى الظلم	١٤٢

هـذا الـذى دانـت الدنيـا لطلعتـه والديـن والملـك والأيـام والأمـم ٧٥

متى ما أصادف من أحب بخلوة أصرح بما أرجوه من منكتم
يقول فأصغي أو أبث فينثني ليستمع قولي كالمشوق المتيم
أسامره لا أن أمل حديثه وآمره كل الأمور سوى نم ٢١٨

وقد قيل قول المرء يكشف عقله ويبدى سجاياه وما كان يكتم
فهذا كلامى مظهر ما أكنه وأكثر هذا الخلق عن عيبهم عموا
فمن شيمتى أنى مطيع لصاحبى وأصلح عن خصمى وإن كنت أخصم
وأرضى لنفسى دون ماهو حقها وألزمها للخل ما ليس يلزم
إذا قال أصغى للمقال وإننى لأعلم منه بالمقال وأفهم
ولم أشك من خل لئلا يملنى ومن لى بخل لا يمل ويسأم
وأقطع فى بحثى وإن كنت غالبا وأسكت حتى قيل ليس ذا يعلم
لأبقى وداد الناس لى لا أضيعه ومن لا يدارى الناس يرسى ويرغم
وفى كل ذا تقوى الاله شعائرى ولابد من لا يتقى الله يندم
ولا نقص فى عقلى وأسباب نعمتى وإنى وإنى بالكمال مكرم
ولى همة يسمو إلى الأوج قدرها ولكن خمول المرء للدين أسلم
ووجه اعتقادى مثل عرض أبيض ودينى متين واعتمادى مقوم
وحسبى من دنياى قوت وخرقة يبلغنى آثار من قد تقدموا
فهذى غريزات لدى وإننى لأدعو إلى هذى الخصال وأعزم ١١٨

إذا ما كنت فى أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم
يرى الجبناء أن العجز حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى شىء حقير كطعم الموت فى شىء عظيم ٢٨٩

بقاؤك فينا نعمة الله عندنا فنحن بأوفى شكرها نستديمها ٢٨٢

يضل بنى سلوق من دهاء فيخلص من مخالبها سليمنا ٣٧٠

ثوبه قد حار فيه كل صباغ عليم
ولسان الحسن نادى صبغة الله الحكيم
فيروق العين منه فوق أوصاف الكليم ٤٨٣

حرف النون

إذا صارت الأعداء نملا فإنهم إذا لم تطأهم أصبحوا مثل ثعبان
وكم ذا يقاس من أذاه وقرصه على ضعفه إن صار داخل آذان ١٥٢ ، ٢٣٥

ومازال يرعى ذمتي ويحوطني ... ويحفظ عرسي والخليل يخون

فيا عجبا للنحل يهتك حرمتي ... ويا عجبا للكلب كيف يصون ٢٨١

إني لآمن من عدو عاقل ... وأخاف خلا يعتريه جنون

والعقل فن واحد وطريقه ... أدرى وأرصد والجنون فنون ٤٤١

أقر هذا الزمان عيني ... بالجمع بين المنى وبيني ٦١

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين ١٨١

تؤديه مذموما إلى غير حامد ... فيأكله عفوا وأنت دفين ٤٣٣

على رأس عبد تاج عز يزينه ... وفي رجل حر قيد ذل يشينه ٥٢٦

أنا والمحبوب كنا في القدم ... نقطة واحدة من غير مين

فبرأنا الله إذ أظهرنا ... مهجة واحدة في بدنين

فإذا ما الجسم أمسى فانيا ... تلتقينا واحدا من غير بين ٤٩٤

حرف الهاء

وكل قيادة لأخ وخل ... بلا جعل فتلك من المروءة ٥٦

لا صبر يجدي على فراقه ... ولا معين على اختراقه

أواه من فرقة الأحباب أواه ... لقد كوى من حشا قلبي سويداه ٣٦١

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه ٢٩٩

جبين تحار الشمس من لمعانه ... وقد يغار الغصن من حركاته

وخد تعالى الله لست مشبها ... ولا مشركا أضداده في صفاته

رمى مهجة المضنى بأسهم لحظه ... فنام عليلا وهو في سكراته ٤٢٢

فإن الظلم من كل قبيح ... وأقبح ما يكون من النبيه ٤٤

حرف الياء

فأهلا بمحبوب قديم وداده ... وسهلا بمن قد كان والده أبي

تحكم على مالي وروحي ومسكني ... وأهلي وأولادي وجاهي ومنصبي ٦٤

فهرس الأعلام

فهرس الأمم والأماكن

فهرس مفردات الألفاظ اللغوية المشروحة

فهرس الحكم والأمثال والعبارات البليغة

فهرس مواضيع الكتاب

فهرس محتويات الكتاب

الباب الثالث

فى حكم ملك الأتراك مع ختنه الزاهد شيخ النساك

الباب الرابع

فى مباحث عالم الإنسان مع العفريت جان الجان

الباب الخامس

فى نوادر ملك السباع ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع

الباب السادس

فى نوادر التيس المشرقى والكلب الأفريقى

الباب السابع

فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الريبال وأبى دغفل سلطان الأفيال

الباب الثامن

فى حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد

الباب التاسع

فى ذكر ملك الطير العقاب والحجلتين الناجيتين من العقاب

الباب العاشر

فى معاملة الأعداء والأصحاب وسياسة الرعايا والأحباب وفيه

نكت ، وأخبار ، وتواريخ أخيار وأشرار